المجموعة القصصية الكاملة

احمد الشيخ

البحر الرمادي

البحر الرمادي

* ----------

كان يسميني" مجنون البحر" وأسميه" القرصان" ، كنا نتلاقى كل صباح عند رصـيف الميناء، نتضاحك أو نتشاتم أو نتسابق لنزول البحر، نطفئ فيه الأشواق المخبوءة في الأعماق. أملا في أن تسكن بملامسة الماء، كان يلازمني في كل الأوقات، ويشاركني السرحات، كأنـه كان ظلي أو كنت ظله، لعلنا كنا في ذلك الزمان البعيد أشبه بتوأمين، غامـت فـي الـذاكرة تفاصيل الأحداث، لكني أتذكر كيف تبارينا في نسج الأحلام وتحذير أهل المدينة من مداومـة القعود على واجهات المقاهي المطلة على البحر يتأملون الفراغ والأفق البعيد ويلعبون بـالنرد أو يتبادلون السباب، كنا نرغب في تبديل الأشياء، تحريك الأشياء، نتجادل في ألوان الأشـياء، ووسط عيون الخلق الودعاء كنا نبوح بالأسرار، كان يخالفني في لون البحـر، أراه رماديـا ويراني مثل قط البري مصابا بعمى الألوان.

بالأمس وقفت وحدي أتأمل أمواج البحر وهي ترتطم بكتل الصخر المرميـة أسـفل السور الحجري، تتكسر حدتها ويصيبها وهن قبل أن ترتطم بالسور، تحمل الـريح الحـائرة ذرات المياه المالحة رذاذا باردا له طراوة الندى في شمس الظهيرة، تصحو خلايـا ذاكرتـي الراكدة فأتذكر ما كنت أقوله محذرا من ذلك المصير المخبوء الذي أصابنا، فرقنا، هو البحـر الرمادي يفصل بيننا، يخفيه زمنا ثم يعيده بعد أن يجدده، يصوغه من جديد بحسب هواه، بينما يخيفني ويتوعدني بأن أتحول إلى مجرد وجبة في بطون أحط أنواع الأسماك وأدناها، أتماسك رغم قلة الحيلة وأناديه كما كنت أفعل في الزمن القديم لأشهده على صدق روايتي آمـلا فـي الحصول على اعترافه برمادية البحر، لكن صدى صوتي يرتد، ونظرات الخلق تعبرني فـي إهمال، يتأكد لي أنني صرت بفعل الشائعات المحبوكة نكتة معادة للمرة الألف رغم سماجتها، أو سرا مفضوحا لكل خلق الله إلى حد السأم، أتلفت حولي لأستعيد صاحبي القديم الذي دار في فلك البحر الرمادي فلا أراه، أرسمه في خيالي وأناديه بكل ما تبقى لي من عزم فلا يصـعب عليه حالي أو أسمع هسيسه المألوف مفلوتا من هدير دوامات البحر رغم ثقتي بأنه هناك، وقد تحول إلى قرصان حقيقي خلافا لكل تصوراتي عنه في الزمن الفائت، أخطو موليـا لأمـواج البحر ظهري وقد عقدت العزم على خصامه، أتعثر في ظل خطواتي وأكـاد أرتطـم بسـور المدينة، ذلك الذي صرت أخشى عليه من تدبير البحر واحتمال أن يكون قد جهز نفسه لتدميره واغتصاب المدينة.

سكنت غرفتي المعزولة أسفل البناية واعتزلت الناس، هي ركن في قبو شحيح الضوء راكد الهواء، فيها أقرأ أكداس الكتب المصفوفة فوق رفوف الخشب العتيق، أراجع الخـرائط، وأرسم في فراغات الورق الأصفر أقمارا، أصنع من الأصداف والقواقع وقشـور الأسـماك المهملة وجلودها المقددة نماذج لمدينة سكنتها مع صديقي القديم الذي علا نجمه بفعل الصـدفة المدبرة ففاتني وهجر القبو والذكريات المشتركة، أمشي وحيدا في طرقات المدينـة وأسـرح بخيالي، أستعيد في مسامعي تلك اللهجات المهجورة وأحدث أرواح البشر الفانين عن الأشواق، يتحرك الهواء الراكد من حولي وترف في الذاكرة تواريخ المدن التي خرجـت مـن دوائـر الجمود وتألقت، أقرأ شهادة مجنون البحر الأول، أستاذي وملاكي المعشوق الذي مـا زلـت أتمثله وأترسم خطاه، ومن وسط أكداس المخطوطات أخرج شهادته المكتوبة بخط اليد الدقيق، أفردها أمامي وأسمع لنفسي سطورها باطمئنان الحافظ:

" في البدء كانت مدينة عطشانة وسط مساحات من الرمال الملونـة، وكـان الكهنـة ودهاقين السحرة يستدعون الأمطار بالأضاحي والتعاويذ المدهشة، لكن الجفاف كان أقوى من مصادفات المطر، وكان طفل رضيع يكابد العطش، وكانت أنثى جف في ثديها اللـبن فبكـت لواهب الزرع سر الحياة والبلح، وكان نبع ماء تفجر قرب جذع نخلة مائلة، وكانـت واحـة وناس وقطعان إبل، وكان عبد صالح تطيعه الطيور والجبال والوحوش الضاربة يعـيش فـي طرف المدينة فاستدعى للمدينة بحرا واستجاب البحر، وكانت أول مـرة فـي تـاريخ الـدنيا المسكونة التي يذهب فيها البحر للمدينة لكنه ذهب، أزاح تلال الرمال التـي تحـيط المدينـة وسكن حولها، بإشارة من عبد المدينة الصالح سكن البحر هادئا عند حد السور، تحولت المدينة إلى جزيرة مثمرة في وسط البحر، سقاها البحر وروى زرعها فنما وترعرع، وحماها البحـر فعششت طيوره على فروع الشجر وكثر الحليب في ضروع المواشي وولدت النسوة واختفـى الصهد وزال العطش، وصار العبد الصالح سيدا للمدينة وحاكما لبحرها المرهـوب المطـاوع حتى رحل العبد الصالح فتمرد البحر ولم يعرف حدوده، صار بحرا رماديا والناس في غفلـة يتحدثون عن زوال زمان الجفاف وطول العطش، كانوا في حالة زهو بمجيء البحر، يبنـون البيوت قرب الشواطئ ويطلون بالفتحات والنوافذ والأبواب ناحية البحر، ومن البحـر دخـل المدينة أول قرصان رمادي ليفتحها ويأمر الناس فيها بإعلان فرحتهم وتزيين الشوارع، ومشى في موكبه وسط الناس الودعاء وسماها مدينة الرماد، وبإشارة منه لونوها لتصبح كل بناياتهـا في لون الرماد، ووسط حراس قصره كان يجلس تياها مزهوا بطاعة الخلـق وحسـن الأدب، وتبغدد مجهول الأصل وأفتى أنه في الزمن الرمادي يكون للرماد وسط بحر الرمـاد حسـنه الأخاذ، وسحره المكنون، ولم يعترض أحد" .

كان الدم المسفوح يلون الأرض بالأحمر القاني، يتلون الزرع الرمادي وشط البحـر الرمادي الذي غرته سفن القراصنة، قالوا: لا يفلتنا من حرب القرصان سوى قرصان، وطلبوه ليطلع فما طلع من جدران قصر البغددة، لكنه ظهر من أصلاب الرجال الودعاء ومـن بـين أفخاذ النسوة الضارعات، قرصان من مواليد المدينة، كانت تغلي في عروقه قطـرات الـدم، وتتوهج في خلايا عقله الحيل والأفكار، وامتزج الدم المدافع بالدم المحاصر واحمرت الأرض وكفت المدينة عن استخدام اللون الرمادي في دهان البنايات، ولأن القرصان الجديـد حـارب بقلب رجل فرت البوارج وغاصت تطلب النجاة غواصات الغرباء، والآخر لابد فـي قصـره القديم مشغولا بصدور النساء حتى طلعوا إليه وأخرجوه، مزقوه بأظافرهم وأسنانهم ورفعـوا راية العصيان فركب المحارب الجريء موجة الزحام وصار على رأسها فارسا يسعى لإعادة الأشياء إلى أصولها الأولى، أبيض أو أسود، رجل أبيض القلب وآخر أسوده، كتـاب أبـيض وكتاب أسود، خبر أبيض وآخر أسود، رغيف للصغار أبيض غير رغيف أسود، زمن أبيض تملك فيه المدينة حق الحلم والتمني بعد زمان أسود عتمت فيه الأركـان بـالوعود المكذوبـة المكررة، حتى الكذب قسمناه أبيض وأسود، ومن جديد انشغل الناس بتلوين المدينـة لتصـبح مدينة بيضاء تطل على بحر أبيض أو هكذا بدا لنا، ولم ننس لون الدم المسفوح فرسمناه نقطة حمراء على شكل وردة في طرف المساحة البيضاء لكتب الأطفال وراية المدينة، عشنا زمـن الألوان الصريحة حتى بدا لنا أن عنب البنات صار أحمر تماما مثل ثمار البرتقـال وحبـات البطاطس، وتهنا في غيبوبة الدراويش من أثر القرع المتواصل لطبول الحرس، واختلط علينا أمره فما عدنا نميز في حضرته بين الانكسار والصعود أو حتى الهدم والبناء، صار لنا وبنـا قدرا أبديا، بإشارة منه نذبح بناتنا العذارى في عيد وفاء بحره الأبـيض الـذي ملكنـاه لـه باختيارنا، ونسقي أرضه السوداء بالدم لتزداد سوادا وقد حازها بصكوك غفلة موثقة ناهبا كل حقوق الورثة من أشقاء وأخوة لأم أو أب وقرابات أخرى من كل الدرجات، وصار هو وحده، مالكا للفراغ ومانحا لحق التنفس، وفرسان المدينة، بإشارة منه أو بغير إشارة يسفحون ويقتلون ويسلبون اللقمة من أفواه الفقراء وأفواه الأطفال.

صار يعايرني بالفقر وأسميه الدجال، وصاحبي القديم بارع فـي التناسـي أو يـدعي النسيان، لكن الذاكرة حديد، كانت أمه تجلس عند مدخل الحارة وتنادي بصوتها المبحوح:

ـ الورور يا فجل.

كنا نشتري منها بالرغيف المخبوز وكوز الذرة الناشف ومكيال الحنطـة ولا نبخـل عليها بالبيضة الصابحة ثمنا لحزمات الفجل والجرجير وفحل البصل التلاوي وصدغ اللفـت وقد جلبها هو محمولة على كتفه من غيطان الزمام، كنا نناديه بلا مواربة" ابن نميسة" وكـان يشاركنا سكة المدرسة ذهابا وإيابا، ورغم اتساخ ثيابه كنا نحبه ونتنافس على الجلوس جواره،

كان صاحبي بارعا في الحساب، يجمع ويقسم ويضرب دون الاستعانة بالورق كما نفعل، حتى الكسور وكسور الكسور لم يخطئ في حسابها، وربما بسبب ذلك أشاع عنه مدرس الحساب المغلول أنه يفعل ذلك لأنه يمسك حسابات أمه " نميسة" وكلها ملاليم وخردات وسحاتيت، كنا نتعاطف مع صاحبنا ونسخر من مدرس الحساب الذي يحاول إبعادنا عن ابن نميسة لأنه فقير.

لكن الزمان دار ودارت الأيام وتبادلنا أخباره في مصادفات عابرة:

- ابن نميسة نجح في الإعدادية.
- ابن نميسة دخل الجيش
- ابن نميسة خرج من الجيش.
- ابن نميسة دخل برج سعده.
- تزوج أجنبية وصار يرطن بالأفرنجي.
- تاجر في الجملة والقطاعي وركب الحنطور.

كان يتاجر في الممنوع ولا ندري، ويوزع المبيدات البشرية المستوردة وقد لصق عليها إعلانات تؤكد فعاليتها في القضاء على الحشرات والجراثيم المدمرة، كان يبيع السلاح لإفساد طباع البشر ويسرب الأموال عبر البحر الرمادي ويرشو حراس الشواطئ لمساعدة أنصاره من قراصين الزمن، ولكن السر المستور انكشف، وابتاع لنفسه يختًا ودار في أركان العالم متأنقا بالمال والثياب الفاخرة، وتحدثنا في أمره زمنا، وخفنا من زمان يجيء يجف فيه الزرع والضرع ويزحف فيه الجوع فأخرجناه من حدودنا وأبطلنا تراخيصه بالنزول إلى الشواطئ وقتما يشاء وتابعنا أخباره حتى أشاعوا أنه تجنس وصار من طواغيت البحار البعيدة وأنه حليف للبحر الرمادي يتربص عند حدود أرضنا ويزهو بتجارة الذهب.

كان القرصان يرتدي عباءة التركي وثياب الشيخ الحافي وأربطه العنق المجلوبة والزعابيط الرمادية، كنا نغرق في أمواج الأبيض والأسود والأحمر ويسمح لنفسه بالرماديات، بل إنه أشاع أن لون الرماد نعمة، ولأن اللون الرمادي كان هناك لا يزال قابعا تحت الألوان وفي مناطق النشع والسترات المصبوغة وعلى سطوح الأرض المخلوطة، فقد طاب للبعض أن يتحدث مثله عن روعة الرمادي وخلوده، أن يطلي واجهة داره بلون الرماد القديم، وتنافرت الألوان، والنسوة يتبرعن بالمصاغ وكشوف الأسماء تعلن على الجدران التي تبعث إليها شمس المدينة أشعة رمادية، ويشح في الأرض البريق ويخفت صوت الأمواج وتتكاثر الشائعات على ألسنة الأعوان، يقولون إنه يرتب نفسه لترك المدينة سأما أو شبعا أو خجلا، ثم يشاع أنه مريض بداء عجيب لا برء منه ولا شفاء، يقولون إنه لفظ آخر أنفاسه وهو يوصي بإحكام الحراسة عند الشاطئ الغربي أو الشرقي، ويتردد على ألسنة الأتقياء أنه طار بنعشه وحط في صحراء جافة طاهرة وأظهر للمشيعين عشرات الكرامات، وتجرعنا خدعة العزاء

الرسمي ولطم الخدود على قرصان حي يرزق ببذخ وما زال في مكمنه يتسمع مع الأعـوان كل همسة ويرقب كل خطوة نخطوها نحو قبره المزعوم، يتضاحكون هناك من غباوة الرجال وحرقة الأحزان في صدور النساء، والكل يسعى في هوس الحزن المصنوع يرددون الدعوات للراحل العزيز وأنا أصرخ فيهم محذرا من خراب بيوتهم وفساد أخلاق أولادهم ولا يصدقون، والفارس القديم ينعم بأصوات الجموع تطلب له في حياته المغفرة والرحمة وحسن المآل.

كان ينازلني عند الشاطئ " باطا" يفوز ولا انهزم، وكنت رغم الكبوات المتكـررة لا أعترف بالهزيمة، يتلهف على اعتراف مني باكتمال نصره فأردد أنه ما زال في العمر بقيـة واحتمال لانتصاري عليه وأنه يلزم أن يفنيني أو أفنيه ليكون النصر لمن يتبقـى فينـا، كـان يعرف وأعرف ويعرفون أن الدنيا لا تدوم لحي، تماما مثل أمواج البحر، تبدو صخابة فـوارة في البدء ثم تصادف في رحلتها ما يجبرها على الاتزان أو الوهن، ربما تصل إلـى الشـاطئ بقوة الدفع الذاتي، لكنه هناك فوق رماله يحدث الذوبان ثم الانطماس، جربت مرارا أن أتأمـل موجة بعيدة، قلت أتابعها وأرصد حركتها بإمعان ودقة، أطبع صورتها في ذاكرتـي معزولـة عن كل ما يحيطها حتى تصل إلى الشاطئ، وتوهمت أنني لو أفلحت في تثبيتها فـي الـذاكرة قبل أن تتكسر أو تتبدد أكون قد أبقيتها ولو في شكل صورة أستدعيها فتطاوعني، وفكرت أنني لو دربت نفسي على فرز ذرات المياه ومتابعة ما يتناثر منها أو يدخل دوامات الأعماق فإنني بذلك أكون قد أفلحت في التعرف على مصائر أجزاء تلك الموجة الفانية فينتفي في تلك الحالة فناؤها في دوامات وأعماق أو سطح البحر، لكنها كانت مجرد محاولة فاشلة، ربما لأننـي لا أملك البصر الحديد الأكيد، ربما لأن سطح البحر براح ممتد بلا حدود وأعماقه غويطة تسكنها الوحوش والأحراش، وربما تأكدت بعد تكرار تلك المحاولات من أن الفنـاء حـادث مهمـا حاولت أو حاول هو، وأنه وإن بدا للصديق القديم الذي غيـرت المصـادفات مصـيره أنـه يخدعني فهو المخدوع، فقلت لنفسي: أشارك باختياري في الخدعة الشائعة وأذهب إلى قبـره الذي شيدوه في الفراغ، تمثلت وجه القديم الذي أحببته ووجه الولد الآخر الـذي تـاجر فـي الممنوع، ولم أستطع أن أكتم الضحكة وسط زحمة الخلق الآتين لتأدية واجب العزاء الزائـف، فتناثروا بالدهشة بعيدا عني وأنا أبوح وبحرص يتصنتون:

" كان يسميني مجنون البحر وأسميه القرصان، صار يعايرني بالفقر وأناديه الـدجال، كان يلاعبني عند الشاطئ باطا، يفوز ولا أنهزم، بيني وبينه البقاء والفناء، يفنينـي أو أفنيـه، يشهد علينا بحره الرمادي وثوبه الرمادي وزمنه الرمادي والذاكرة التي تنكر ادعاءاتهم بموت الأحياء" .

إبداع/ سبتمبر 1990

المستجير

* ----------

أزاحهم عن طريقه وعدل طوق جلبابه بأطراف أنامل يده اليسرى، مسح على صدره في تأنق ثم لملم طرف عباءته ورماه على كتفه الأيمن متلفعا بها، خطا بضع خطوات متثاقلة يسبقه شمروخه القديم الممدود في خط عمودي مع الأرض يتوازى مع عوده الذي بدا لهم أنه انفرد وأوشك أن يتساوى معه في الطول، كان أولاد عوف قد تحيروا في أمر الرجل الكبير الذي حسبوه أكبر وأضعف من أن يقوم ويمشي على قدمين بعد سنوات من القعود والرقاد انتظارا لملاك الموت حسب ما كان يقول هو نفسه في المرات القليلة التي كان ينطق فيها بضع كلمات، كان المحروس الثاني وهو الابن الكبير للرجل يعترض بشدة على خروج الرجل من داره وحيدا، ويعترض أكثر على ما قال به من أنه ذاهب إلى درب أولاد شلبي لإخراج سليمان المنسي من داره التي يرابط على بابها العشرات من أولاد شلبي، كان المحروس ينكر ما سمع به من أن سليمان المنسي استجار بأبيه:

ـ يستجير برجل ضرير رجله والقبر؟

الغريب أن الرجل أقسم على الخروج وحده، كانت دقات طرف شمروخه الغليظ تنزل على الأرض فترجها رجا هينا، لكنه محسوس ومسموع الوقع أيضا، وكان يبتعد والعيون ترقبه في دهشة ورهبة منكرة أنه هو نفسه الرجل الذي انتظروا موته واستسلموا لعجزه ورقاده، بدا لهم أنه مارد من عالم آخر يرتدي ثيابه ويمثل دوره القديم الجسور القادر على الفعل مهما كانت العقبات.

دخل الجد عبد القادر الكبير درب أولاد شلبي على غير توقع، تقدم وحده أمام الجمع المتساند على الجدران والقاعد على أطراف المصاطب مستعدا للقيام لحظة مروره، فارضا على من عرفوه صمتا ودهشة، كانوا يرقبون في حذر من احتمال أن يكون اقتحامه للدرب بداية معركة لم يستعدوا لها بقدر كاف، أما أولئك الذين سمعوا عنه ولم يعيشوا زمانه القديم من جيل الشباب، فكانوا يتابعون خطواته بقدر من الاستهانة تداريه لحظة الدهشة التي اصفرت بفعلها وجوه وانحبست أنفاس واتسعت أحداق.

ـ أنا في عرض خالي عبد القادر عوف.

وصلت إلى مسامع الرجل الكبير نبرات الصوت المبحوح الواهن، كان قد وصل إلى أرض الجرن القديم الذي ارتفعت على أطرافه البنايات الجديدة لأولاد شلبي سكنا، ودكاكين

للبقالة، والجزارة، والأدوات المنزلية، والمقهى المزحوم الذي يطل على شبه الميدان الصـغير المنتصب في أحد أركانه دوار عمدة الكفر من أولاد شلبي مبنيا بالطوب الأبيض بحيث يتميز عن كل البنايات في الكفر، وقف الرجل ليتأكد من صوت سليمان المنسي، لعل البعض مـنهم كان يرتجف هلعا ويستعيد ما كان من أمره في سنوات العراك المتواصل التي أذاقهـم فيهـا مرارات الفقد وآلام الجراح قبل أن تنقلب موازين الأشياء لصالحهم، تنحنح الجد عبد القـادر واستدار ليدخل زقاق أولاد المنسي، حسب بذاكرته التي لم تفقد مقدرتها على تقدير المسـافات الخطوات اللازمة للوقوف عند باب سليمان المنسي المسكوك الذي انطلق صـوته المسـتجير الواهن من كثرة الصراخ:

ـ أنا في عرضك يا خال عبد القادر.

ربما رآه سليمان من فتحة في جدار أو نافذة، دق الجد عبد القادر طـرف شـمروخه بعزم وقدرة، فانغرس أو كاد وأصدر صوتا وهزهز الأرض تحته، كان المنصور بن شـلبي وأولاده وأحفاده يحاصرون الدار من كل جانب، كانت بنادقهم وشماريخهم تستند على الحيطان لتعلن لكل عابر استعدادهم للعراك، همهموا وزاموا، فز منصور شلبي من جلسته وواجه عبد القادر عوف ثم قال بلين من يملك تقرير المصير:

ـ أنا حلفت إن خرج من داره يكون آخر يوم في عمره.

ـ وأنا قلت يطلع يا منصور.

ـ ارجع دارك يا عبد القادر، العيال شرهم قريب.

ـ افتح بابك يا سليمان واخرج.

ـ يا عبد القادر عيب، لا هو من دمك ولا من لحمك ولنا عنده ثأر.

ـ اخرج يا سليمان.

قالها هذه المرة آمرا بحسم لا يقبل المزيد من النقاش، سمع الواقفون صـوت ضـبة الباب الكبير وهي تنشال إلى أعلى وأزيز محور الباب الذي ينفتح بعـد خمسـة أيـام مـن الحصار، وأطل وجه سليمان مخطوفا ومرعوبا ومكذبا نفسه في ذات الوقت، ارتمـى علـى الأرض أمام عبد القادر وصرخ:

ـ ارحمني يا خال، طلعني من دربهم.

ـ قم.

قالها ومد يده الخالية يساعد الرجل المرعوب على الوقوف، كان أولاد عوف هناك في أرض الجرن القديم يدمدمون ويغمغمون ويطلون بعيون متحفـزة، أسـلحتهم فـوق أكتـافهم وعصيهم وشماريخهم في أياديهم ونحنحاتهم تزهو وتتيه بكبيرهم الذي انتـزع مـن الزمـان العويل ظهيرة يوم من " برمهات" يحق لهم أن يباهوا به وأن يفاخروا مع أولاد الأصول فـي

كل الناحية، هز المنصور بن شلبي رأسه يائسا من جدوى الدخول في معركة كبيرة لا يضمن فيها نصرا مؤكدا، أشار بيده على أولاده وأحفاده وأتباعه ليوسعوا للرجل الكبير والمستجير به طريقا فوسعوا، تحرك الجد عبد القادر في ثقة الفارس خارجا إلى أرض الجرن القديم، واجـه بوجهه الصلب بناية الدوار الجديد، انعكس في عينيه الضريرتين بريق شموخ قديم وتسمع في هدوء إلى أصوات أولاد عوف وجلبتهم وهم يوسعون له طريقا عبر درب أولاد شلبي، كـان سليمان المنسي يتبعه والرجال من أولاد عوف يتحركون في زهو مسنود على هيبـة الرجـل الكبير التي كانت تسبق خطواته وتفرض الصمت على الخصوم القدامى الذين خسروا معركة اقتحمهم فيها ضرير قادر على إجارة المستجير.

مجلة القاهرة ـ أبريل 1985

بنت البراري

* ----------

بيني وبينكم الموضوع ليس مجرد أرض ودار واسم عائلة يوشك أن يمرمغه في الطين، كل هذا وارد ومحسوب حسابه لكنه ليس أساس الإشكال بيني وبينه، أقولها لكم بصراحة وبدون لف أو دوران: من يوم دخولها الدار انقلبت الموازين فيها، يقول لكم حضرة المفتش المحترم، أخي ابن أمي وأبي والذي ربيته كأنه أحد أبنائي أنه رآها في أرض البراري بينما كان يفتش فانخلع قلبه ووقع في هواها ولم يهدأ له بال حتى انتزع موافقتنا على زواجه من غريبة لا نعرف لها أصلا أو أهلا نرد عليهم مثل خلق الله.

ما علينا، فليس العشق كفرا، يعشق من يميل لها قلبه إنما ليس على حسابنا يا ناس، فتلك التي دخلت دارنا في ليلة من ليالي شهر " برمودة" لم تكن مجرد امرأة أخ علمناه وكبرناه وفضلناه علينا، وأولئك الغرباء الذين جاءوا لتوصيلها ليلة دخلتها عليه بعرباتهم الملونة ولم يتركوا لنا عناوين نلجأ إليها في بحثنا عنهم ليسوا بالقطع أهلها، لو كانوا أهلها لفكر نفر منهم في زيارتها، هل يرمي الناس بناتهم كما حدث وكأنما خلفوها ونسوها طوال تلك السنوات؟ ربما.. أقول ربما كانوا قد دربوها قبل دخول الدار على العيش برضانا أو رغما عن أنوفنا، وربما أيضا تركوها لتكشف لخلق الله ستر الدار وتفضحها أو حتى تخربها خرابا عاجلا.

كان هو في الأيام الأولى يباهي بجمالها، وهي بالفعل جميلة، لكنه جمال يصعب احتماله، ستقولون إن الجمال ليس عيبا وأن الله جميل يحب الجمال وأنا معكم، لكن الجمال ليس سلاحا للفتنة بين الرجل وأهله، لو قلت لكم مثلا إنها تتفنن في كشف كل ما تستطيع كشفه دون حياء وأنها تقول أحيانا كلاما مكشوفا على مسمع منا فنغرق في خجلنا بينما تجلجل ضحكتها في جنبات الدار وتتمادى، تفعل هي مثل هذه الأشياء بينما يكون هو في مأمورية عمل يفتش، وعندما يعود تلقاه وتطلع به إلى " المقعد" البحري، ربما توسوس له بما شاءت فينزل إلينا بعد ساعتين أو ثلاث وقد انقلبت سحنته وتجهم بحيث لا يكون على استعداد لسماع شكاياتنا منها وأن سمع اعتذر عن مزيد من الاستماع لأنه متعب، أو يهون الأمر على أمي وأبي ويطالبهما بأن يتعاملا معها بشكل طبيعي لأنها من بني آدم ولأنها غريبة تستحق الإكرام، نتبادل النظرات خلسة ونغير الموضوع حتى لا نعكنن على حضرة المفتش ونجهز أنفسنا لمزيد من الاحتمال، تأتي هي وتتعمد في وجوده أن تبدو محتشمة إلى حد التزمت، خافتة الصوت إلى حد الهمس، كانت أمي بعد طلوعها وراءه تمصمص شفتيها وتزفر في ضيق ثم تقولها:

- البنت دي ح تفقع مرارتي.

بدأنا نكره حيطان الدار وأبوابها، نكره أن نتنفس نسيمها مع هـذه الغازيـة الحويـة المدربة منذ تلك الأمسية من شهر " بؤونة" كان المفتش يفتش وكنا قد انتهينـا مـن عشـائنا وجلسنا وسط المندرة الكبيرة ننتظر غليان براد الشاي عندما دخلت هي بثوبها الرقيق محلولة الشعر، كان شعرها مفرودا وناعما ومسحوبا إلى ما فوق الركبتين بقليل، أسلاك من الـذهب رقيقة لا تخطر على خيال، لفت حول نفسها كراقصة محترفة فتماوجـت خصـلات الشـعر وتكشف الصدر والظهر والكتفين، توقفت فسكن الشعر الهائج وغطاها، كان أبي يجلس فـوق الدكة مشدوها، اقتربت هي منه في تؤدة، أزاحت الشعر عن وجهها وقبلته على جبينه ثم فـي فمه. همست بدلال طفلة عاشقة:

ـ بحبك يا با.. بحبك.

هم الرجل أن يقوم من قعدته ناسيا عجزه لسنوات عن القيام فلم يسـتطع، ارتعشـت أطرافه بينما تتراجع هي إلى الخلف وتطلق ضحكتها، دارت حول نفسها قبل أن تخرج مـن الباب وهي تردد على مسمع منا:

ـ يا راجل يا عجوز.. يا راجل يا عجوز عيب.

كنا قد بهتنا، حطت على رءوسنا طيور الدهشة، تسمرنا في أماكننا وأطفأ ماء بـراد الشاي المغلي نار الموقد، من يومها كف الرجل عن مشاركتنا الضيق من أفعالهـا المشـينة، تبدل الرجل الذي تخطى زمن الفعل وقعد لسنوات ينتظر النهاية في استسلام ويقين واستكانة، لعله تعلق بالحياة بعد قبلتها ولعله سئمها أكثر، لكنه تغير، كف عن مشاركتنا الحـديث كمـا تعودنا، أصبح يكتفي بالهمهمة والغمغمة والدمدمة، غابت عيناه أو زاغتا فـي عـوالم بعيـدة وانبنى بينه وبيننا جدار.

في البداية لم أفسر ما جرى من زوجتي، كنت قد اعتدت خجلها وحرصـها علـى أن تستر جمالها وتداريه، لكنها في بطء شديد كانت تتبدل بحيث أصبحت تجرؤ أن تقول كلاما ما كانت لتقوله، قلت لنفسي إنها تدخل مع الأخرى سباقا خفيا لتتأكد من امتلاكـي، كانـت قـد عاشرتني لسنوات وسنوات خلفت لي خلالها سبعة أولاد وغزا الشيب شعرها والسمنة عودها لكنها ذات مساء سألتني بدلال:

ـ أرقص لك؟

لم تنتظر ردي وهزت كتل اللحم فبدت لي بشعة إلى حد لا يحتمل، تركت لها المكـان محموما، بدأت مشوار التباعد عنها وزادت سعيا نحوي، سئمت لعبة المطاردة بعد أن كبرنـا وهدت الدنيا قوانا، فاتحت أمي في الأمر فضربت صدرها براحة يدها اليمنى وقالت في فزع:

ـ الملعونة فسدت أخلاقها، أتاريهم كل ليلة واقفين يتودودوا مع بعـض وأنـا أقـول لروحي أيش جمع الشامي ع المغربي؟

ـ ليها أهل يترد عليهم.

قلتها وأنا أتذكر أهل امرأتي وعاداتهم وقلت إنه من الممكن أن أخلص منها تماما ما لم ينصلح ما اعوج من طبعها، ولكنه من يومها انكسر شيء ما كنت أحسبه ينكسر يومـا بينـي وبينها، كانت الأخرى هناك تنظر نحوي في شماتة من انتصر وتتبادل مع زوجتي الهمس قبل أن تنطلق ضحكاتها الماجنة دون خجل أو حياء.

جاء هو بعد أن فتش، طالبته أمي من أجل راحته كما قالت أولا ـ أن يريح نفسه من السفر المتكرر بأن يسكن تلك المدينة الكبيرة حيث مقر عمله الأصلي فتعلل بأزمـة الإسـكان فردت بحماس من يريد أن ينهي أمرا بأي ثمن:

ـ نبيع فدان فدانين، وتاخد حقهم وتحوش لك أنت ومراتك أحسن سكن.

ـ بتطرديني يا مه؟

قالها محتدا ومحتجا ثم قام من جلسته وطلع إليهـا فـي " المقعـد" البحـري سـمعنا ضحكاتها أولا ثم ضحكاته الصاخبة وتأسينا على ما صار إليه حالنا.

اعتدنا أن نتحفظ في الرد على أسئلتها الغريبة، كانت أسرار الدار هي كنز أمي الـذي تحرسه طوال حياتها بالكتمان لكن الأخرى كانت تستفسر عن كل شيء حتى ضـاقت أمـي واغتاظت وبدأت في الشكوى:

ـ الدار قلت فيها البركة، لا بيضة ولا حتة سمنة ومتوفرة ولا حتى القمح بيكفي خبيز الدار.

كان الهم يرتسم على تجاعيدها بينما تبوح بما صار إليه حال الدار فأخفف عنها وأنـا أعرف أنه لا جدوى في وجود تلك الغريبة في صلاح الدار.

كانت زوجة المفتش تجلس بجواره وتتأفف، لم تتناول طعامها كما اعتادت ثم قامـت، هم هو أن يقوم في أثرها لكن أمي قالت في رجاء:

ـ استنى يا بني، أنا عايزاك.. هي مراتك حامل؟

ـ لأ..

ـ لأ ليه؟ دي بقالها كم سنة.. أخوك خاف بعد تسـعة أشـهر وولاد عمامـك كلهـم مخلفين.. يكونش العيب منها؟

ـ مش مهم خاف يا مه..

ـ إزاي بقى لازم.. العيب منها وأنت بتداري عليها.. أكيد العيـب منهـا.. طلقهـا واتجوز غيرها لجل نفرح بخلفتك.

ـ أف..

قالها غاضبا بينما يقوم، لم يكن قد استقر على رأي إلى أين يتجه، لف حول نفسه ثـم جلس على طرف الكنبة، قام وجلس ثم قام، نظر نحوي في كراهية، خفت أن يفكر أنني شامت في عدم خلفته، تململت في مكاني.. خرج من الباب ثم عاد، وجه حديثه لي في حدة وغضب:

ـ" أنا ح أستقيل م الشغل، حسيب الوظيفة وأقعد لك في الدار، فاهم، ح آخذ نصـيبي في الدار وابني بيني وبينكم جدارا وأريح نفسي من وجع الدماغ.

لم أجاوبه.. تخيلته وقد عاش في الكفر وحيدا يعزق أو يسرح بالبهائم، يسقي ويحصد وهو الأفندي الناعم الأطراف، كتمت ضحكتي في عبي.. اقترب مني وأمسكني مـن طـوق جلبابي وحاول أن يرجني فلم يفلح، شال يمينه وصفعني فقمت أمسك تلابيبه وكـدت أضـربه لكن صرخة أمي الملتاعة نبهتني:

ـ أقعد يا ضناي.. أقعد مطرحك.

جلست بعسر، خرج وهو ينهنه بصوت مسموع، ابتعد صوت نهنهاته في بطء، فـزت أمي في مكانها واقتربت مني في محاولة للتخفيف عني:

ـ أخوك الصغير وغلط.. هو واعي لروحه؟ دي ساحراله.. كتباله يكـره اللـي لـه ويعشقها.

لم أرد، كنا قد علمناه وكبرناه، كنا نباهي به لأنه نجح ولبس وصار مفتشا يفتش، كنت أحسبه أخي وابني والآن يضرب.

دخلت هي المندرة وطالبتني بالعفو عنه لأنني أكبر منه، دخل هو في أعقابها مطاطئ الرأس فأمرته بأن يقبل رأسي ويطلب مني السماح.. كان يبدو طيعا معها ومنقادا لكل ما تشير به فكرهت انقياده وامتثاله لأمرها.. اقترب مني في محاولة لتنفيذ طلبها فقمت من مكاني ولـم أمكنه من تقبيل رأسي.. كنت في داخلي قد سامحته بيني وبين نفسي وربما بيني وبينه أيضا، لكنني لم أقبل أن أجعلها حمامة سلام زائف بين أخوين لم يختلفا قبل دخولها الدار مرة.

باخ الموقف فخرج هو، في الليل سمعنا ضحكاتهما تجلجل في جنبات الدار.. تنفذ من سقفها وتطن في الآذان.. عجبنا للأمر وتناسيناه.

في الصباح التالي فاتحته أمي في الأمر قبل أن يذهب ليفتش قالت أمي:

ـ بيقول إن أهاليها قتالين وأنه مش خايف على روحه منهم وخايف علينا احنا.. أنـا قلت له يخلصنا منها لجل الميه ترجع لمجاريها في الدار.

ـ وقال إيه؟

ـ ما ردش.

ساد صمت ثقيل ثم دوى صوت أبي على غير توقع أو انتظار مجلجلا بقوة في أركان الدار، لعله استعاد صوته القديم أيام صبوته وفتوته في الزمن الفائت عبر سواد الليل.

ـ دا كلام أفندية يا ولية ما يخشش الدماغ.. يخلص منها واللي يكون يكون..

كان في أمره إرادة لا تقبل المناقشة وعزم جديد.. سكن قلبي وهدأ، تخيلته وقد شـبع منها بعد سنوات من المعاشرة التي فاتت بلا ثمرة فابتسمت.

الأهرام ـ نوفمبر 1985

ملف ملكية المواطن مرتضى الماحي

* ----------

محبوسا داخل الكرسي الأسيوطي كان يجلس، مهموما وعاجزا عن طرح المزيد من الأسئلة، كان الآخر خلف المكتب على الكرسي الدوار، يستخلص من داخل الملف أوراقا ثم يمزقها، كان في القلب جرح قديم ينفتح وحلم يتمزق مثل تلك الأوراق التي لا بد وأنها تخصه أكثر مما تخص أي كائن في هذا العالم. لكنه لم يجرؤ حتى على الاستفسار عن هذه الأوراق.. كان الملف يتضاءل على نحو ظاهر.. ربما على عكس الأمل الذي كان يتزايد كلما التقى بالرجل وسلمه ورقة أو شهادة أو مستندا مطلوبا لنجاح القضية، لم يكن الأمر مجرد قضية خسرها أو حلم لم يتحقق، بدا له في هذا اللقاء أن الوجه الذي وثق به واطمأن إلى قدراته قد تخلى عنه على نحو غامض، صحيح أنه قريب من الدرجة الثانية لكنه من خلال الجلسات المتكررة والمحاولات وسهر الليالي والمشاركة في الاهتمامات كان يبدو له أكثر من أخ، بل إنه كان يزرع فيه الأمنيات مؤكدا أن المكسب مضمون، خمس سنوات ومزرعة الرجاء تزهر وترطب القلب، لكنه في تلك الليلة لم يكتف بإبلاغه أنهم خسروا القضية بل إنه تحول وعلى غير توقع إلى اسطوانة مشروخة تهدف إلى تيئيسه تماما من جدوى الاستئناف أو التفكير، مجرد التفكير في الاستمرار في تلك الخصومة، زفر المواطن مرتضى الماحي كأنما ليعلن عن وجوده للآخر الذي لم يلتفت.. قام من جلسته، لعله فكر أن يقترب من الأوراق، يطل فيها أو يستجديها تفسيرا، لكن الآخر انتبه وجعل يضعها بالمقلوب بحيث ينكشف الوجه الخالي ويتوارى الوجه المكتوب.. همهم مبديا قدرا من الاستياء من تلك المحاولة الفاشلة لاقتحامه فأخجل المواطن مرتضى وأجبره على معاودة الجلوس.. غمغم:

ـ مجرد مسودات يلزم التخلص منها، سلم أمرك لله يا رجل لأنك لم تخسر القضية لغريب.. هو ابن عمنا في كل الحالات. بعد عنك أو قرب هو ابن عمك.

ـ أعرف.

ـ أنت تعرف حبي لك، لقد حاولت بكل الوسائل، نصيبك، لو كان هناك أي أمل في الاستئناف ما تأخرت أبدا..

ـ لكنك قلت مرة..

ـ دعك من كل ما كنت أقوله، أنا لم أخدعك طبعا.. كل ما هنالك أنني كنت آمل في أشياء لم تحدث، تكشفت أمور لم تكن في الحسبان.. أنت لا تعرف قضايا المواريث ودهاليز

أسانيد الامتلاك، أنت شاعر، ما لك أنت بهذه الأمور.. هي شغلي الشـاغل طـوال عمـري وعندما أؤكد لك أنه لا أمل فيجب أن تتأكد من ذلك.. يا مرتضى.. الاستمرار فـي القضـية تعميق للخلاف وتوليد لعداوات أنت في غنى عنها..

ـ طبعا.. لكن..

ـ أنت حر.. ملفك الآن جاهز.. فيه كل المستندات والتوكيل.. تفضل..

مد يده وأخذ الملف.. لم يفتحه، وضعه أمامه.. لم يكن لديه في هذه اللحظات أي شيء يقال.

خجلان من نفسه كأي مواطن شريف في ماخور أو مجتمع صغير من محترفي الفساد والإفساد، كان يدخل الزقاق والملف في يده، كان يستشعر دفئـا غامضـا وسـط الرطوبـة المسيطرة. لعله دفء دم الضحية نفسه لحظة النزف، كان الهواء باردا ولزوجة أرض الزقاق من أثر قطرات تحذره من إمكانية السقوط، كان يخطو على مهل ونقاط المطر متناهية الصغر تكشف عن وجودها أكثر عندما تتساقط في البؤر المتناثرة على أرضية الزقاق دوائر متباعدة ومتقاربة بشكل عفوي، كان عليه أن يحمي الملف بأوراقه منها ومن احتمالات السقوط وكثيرا ما كان يحدث وتنزلق قدمه أيام المطر، وربما لأنه كان حذرا أكثر من كل المـرات السـابقة أفلح في دخول البيت دون سقوط.

قالت هي بمرارة من فقد أعز عزيز لديه وهي تهبد صدرها براحتيها:

ـ إنه الموت وخراب الديار.

لم يعلق، سرح بخياله في البعيد، أكدت.

ـ اشتراه.. ابن عمك سوسة وبحره غويط، استأنف يا مرتضى.. لا تفرط في حقـك وحق الأولاد.

ـ نحاول.

قالها بيأس لكنها واصلت:

ـ ما ضاع حق وراءه مطالب وحقك ظاهر مثل عين الشمس.

هز رأسه مؤيدا ثم شرع في خلع ملابسه فناولته المنامة ليرتديها ويتمدد بطوله علـى الفراش.. مسنودا بظهره على الوسادة وكأنه مريض يحتضر وعيناه غائبتان عن كل ما يحيطه من أشياء.

حدث نفسه قائلا:

" ربما يا مرتضى عملها أبوك، كتب الأرض لابن أخيه كي يحرمك من الامتلاك، لقد كنت دائما على غير هواه وإرادته، أرادك طبيبا ففشلت وفصلت من الطب، جاهد أن يساعدك لتكمل تعليمك في الآداب أو الزراعة أو حتى الحقوق فلم تسعفه، كنت تخدعه وتكتب الشـعر

وهو العنيد الذي لم يعترض على إرادته غيرك، وكم هددك وحرمك من المساعدات في حياته، كنت أنت يا مرتضى نقطة ضعفه بحسب ما كان يعلن وكنت خيبة أمله أيضا، سحرتك دواوين الشعر وغيبك الدوران في جنبات المدن سعيا لكشف لم يكتمل، ربما يا مرتضى باع بالفعـل وقبض الثمن، وربما كان إعلام الوراثة الذي جاءك مجرد إجراء لإكمال الصفقة" .

قام وقلب في أوراق الملف، بدا له أن الحق ضاع فعلا وأن محاولات الاستمرار فـي الصراع حماقة، وبدا له في نفس الوقت أن الاستسلام والسكوت عنه بلادة وتحير فـي أمـر نفسه، مشدودا إلى رغبته الصادقة في أن يعيش ما تبقى من عمره في سلام مع النـاس ولـو كف عن الحلم في إحياء حقه المسلوب، أو الإفاقة والصحو وتجهيز نفسـه لخـوض النـزال صارخا في وجه الكل أنه وريث شرعي لأب لا يجوز له التصرف في أملاكه على هذا النحو وهو في أيامه الأخيرة فاقدا للوعي والإدراك بحسب ما أكده الكثيرون من أهل الكفر، وكـان في الذهن أطفال ومطالب ومسكن بائس وجيرة فاسدة وأجر هزيل، وكانت هي أيضـا هنـاك بأحلامها في زمن يختلف لو استعاد هو حقه الأكيد باعتباره الوريث الشرعي الوحيد للرجـل الذي أكد له البعض أنه باع في حضورهم بكامل وعيه وإدراكه وقبض الثمن.

عندما التقى بابن العم واضع اليد على أرضه وداره شعر بالخجـل، ربمـا تـوهم أن الآخر يلومه أو يهدده إن هو استمر في قضية محسومة بحساباته على الأقل، كانوا قد توسطوا لكي يلتقي معه في جلسة هادئة، كان الآخر بملامحه الحادة ينظر نحوه باستهانة واسـتخفاف، يتحسس شاربه وكأنما يتوعد، قال أحدهم:

ـ الصلح خير، والدم لا يتحول إلى ماء يا مرتضى.

ـ طبعا.

أجاب هو.. لكن الآخر انتفض واقفا، وبحدة أعلن:

ـ الأرض أرضي والدار داري ومن يفكر في دخولها فسوف أدفنه فيها وهو حي.

لطف أحدهم صوته وهو يهدئ من عصبيته:

ـ لك حق.. كل الحق.. لكن الرجل جاء بنفسه ليؤكد لك أنه لا يطمع في كثير.

أضاف آخر:

ـ يمكنك أن ترضيه بما تجود به نفسك، وهو في كل الحالات من دمك ولحمك.

استحسن الكل الفكرة.. وأطرق المواطن مرتضى الماحي، شعر أنه متسول رخـيص أو معوق صامت يستجدي الآخرون باسمه حسنة تفيض، تضاءل وانكمش وتصبب العرق من كل مسام جسمه فارتعش، قام على غير توقع منهم ومشى صامتا متغاضيا عن كل العبـارات التي سمعها ولم ينشغل بتفسيرها أو الرد عليها.. وعند الطريق الزراعي وقف بآلية يطل على السيارات التي ترسل أضواءها من بعيد فتبدد العتمة المسيطرة.. ولا يدري كيـف ولا متـى

ركب تلك السيارة التي تتجه نحو المدينة، حتى الوجوه اختلطت وما عاد قادرا على تمييزها أو تسميتها لنفسه بينما يستعيد الأمر من أوله ويحاول تفسيره وقد ابتعد.

كان الملف في يده وقد حسم أمره تماما وكانت هي تبدو سعيدة لأنـه صـحا لنفسـه وأعلنها صريحة بأنه سوف يستمر في مشواره سعيا لاستعادة حقه لآخر نفس في عمره.

الهلال/ سبتمبر 1989

الرجل الرمادي

* ----------

حط رجل رمادي الشعر معفر السحنة والثياب ثقله فوق المقعد المسنود على جدار واجهة المقهى القديم، وبين قدميه انحطت حقيبة ملابسه لتبوح بالعسر ومشقة السفر، كانت على سحنة الرجل تقطيبة شاردة وهو يتأمل حركة الناس في الميدان، مشغولا على ما يبدو بتلك البنايات التي تبدلت، كان من الواضح أن المعالم الثابتة في ذاكرته قد زالت وتوارت إلى حد مذهل، لعلها تلونت في غفلة منه ومنهم بجديد لم يحسب حسابه، حتى مشاعر الارتياح التي حسب أنه سوف يجدها لم تظهر بوادرها، ونظرات الألفة بينه وبين الناس لم تحدث، كأنه كائن آخر غيره حط في المدينة من كوكب آخر بعيد، ولم يكن هناك غير ذاكرته التي تتشبث بكل ما يؤكد أنه ولد وتربى في منعطفات هذه المدينة، وأنه سعى في طرقاتها ودروبها صبيا وشابا، ولا بد أنه الآن يرى بتلك النظرة الخاطفة السرحانة وجوه أصدقاء قدامى وأقارب تجري في عروقهم قطرات من نفس الدم، ولقد ظن قبل المجيء أنهم سوف يخطفونه في أحضانهم قبل أن يتعرف عليهم مثلما كان يحدث في الزمن القديم.

أسبل عينيه وجرب أن يتأكد من صحو ذاكرته وقدرتها على رسم معالم الميدان كما كان في الزمن الفائت، غامت في الصورة المرسومة أجزاء وتنازعت لافتات الدكاكين التي غيرت واجهاتها عدة مرات، فتح عينيه ودقق في وجوه العابرين ليتعرف على واحد منهم لكنه لم يفلح، ظل ينظر بتركيز أكثر إلى الوجوه المتعجلة وتساءل بينه وبين نفسه إن كان الناس هنا قد أصابهم نفس الداء أيضا مثل الخلق هناك، هل ركبتهم نفس الهموم وتباعدوا في الزحام؟ ورد على نفسه بنفسه بصوت خافت وحزين:

ـ كنت أعرف أسماء من يعبرون الميدان في معظم الأحوال.

كان يكابد خيبة الرجاء في مدينة سعى إليها ليصالحها فأنكرته ولوت بوزها وتدثرت برماد عاصفة طارئة جففت في شرايين ناسها الدم وشاخت ملامحهم قبل الأوان، وتذكر أنه لم ينقطع عن زيارتها لأكثر من عامين وعاد ليراها وقد ركبها وكل ناسها الجن والعفاريت، فاجأه الساقي بوقفته والسؤال عن مطلبه فأفاق نصف إفاقة وتحير مرتبكا، لكن الساقي أسعفه واقترح:

ـ مشروب مثلج يطرد الشرود يا أستاذ؟

أومأ موافقا، ربما لأنه اكتشف بالفعل أنه في حاجة ملحة إلى مشروب بـارد يطفـئ الأشواق ويرطب الجوف العطشان، لعله في تلك اللحظة كان يلوم نفسه لأنه جاء إلى مدينتـه القديمة التي أصبحت لا تخصه، قبل المجيء كان يلوم نفسه على التكاسل والإرجـاء، كـان مصلوبا بين نارين، الرغبة في التباعد والاقتراب من الولد، جرحه الموروث الذي تجسد بشرا سويا، والذي بحسابات كل العقول لا ذنب له في التواجد بتلك الكيفية في سكة عمره الذي مـا استراح فيه يوما، هو أخ لأب فشل في إقناعه ولو مرة واحدة بفكره، وكان دائما ينظـر إليـه باستخفاف الأب القادر المالك الحر في أن يعيش بحسب هواه حتى في سن العجز:

ـ " أي شوق للخلفة يا رجل وأنت في هذه السن" ؟

ـ " ألسنة الناس مناشير تنهش سيرتك وأنت في الخامسة والسبعين" .

" أحفادك في عمرها يا رجل" .

لكن الرجل لاذ بصمت مكابر، وعلى عادته لم يعلق بأكثر من نظرة استياء، ربما لـو زاد هو الجرعة لأهانه الرجل ووبخه وقالها على عادته عندما لا تعجبه الكلمات:

ـ الرد فيك خسارة.

لعله خاف أيامها من دخول معركة خاسرة أخرى فكف عن المحاولة وهرب بالسـفر إلى تلك المدينة الكبيرة التي يعيش فيها بغير اختياره، كان في حقيقة الأمر يفـر مـن رؤيـة الطقوس التي دعاه الرجل ليشهدها، وكانوا هم هناك ينظرون وينتظرون بتشـف واسـتهزاء كيف ينفذ الرجل العجوز غرضه ويحقق الفكرة التي كبرت في دماغه وشرع فـي التجهيـز لتنفيذها، وكان هو يعرف أنه عندما يركب رأسه بإرادته الصلبة التي لا تلين فإنه لا يعـرف التراجع أو يفكر فيه، عنادا أو رغبة أو تأكيدا لنفسه بأنه بالفعل مالك لوعيه، وأنه لن يتزحزح خطوة ـ مهما كانت الاعتراضات ـ عن حقه في تقرير أمر نفسه بنفسه.

حدثوه مرارا في زياراتهم الخاطفة عن زواج الرجل الكبير من بنـت نـواعم، كـان يتسمع ويهز رأسه ولا يجرؤ على التعليق بكلمة وكأن الأمر لا يعنيه رغم إدراكه وإدراكهـم أنه يعنيه، ربما كان يتشكك في أنهم يأتون إليه خصيصا لتحريضه أو استفزازه ليقول كلامـا في حق الرجل الكبير، ربما يسبه أو يلعنه أو يشكك في قواه العقلية فيستديرون على أعقـابهم ويرددون الوشايات عن الابن الجاحد الذي أخطأ في حق أبيه، طمعا أو جبنا أو رهبـة مـن مواجهته، كانوا يثرثرون:

ـ البنت صغيرة كما تعرف وسيرتها على كل لسان.

ـ أبوك رغم كبر السن بصحته وقادر على الخلفة.

ـ لو أنجب منها فسيظل المولود معلقا في رقبتك ليوم الدين.

ـ نفرض أنه سوف يعجز عن الإنجاب.

ـ لا تستبعد من بنت نواعم أي شيء، والشرع هو الشرع.

ـ سكوتك لا يفيد.

وعندما تكلم سألهم عن كيفية الخروج من المأزق وقد وقعت الفأس في الرأس، تبادلوا نظرات السخرية الممزوجة بالشماتة وهزوا الأكتاف، ساعتها سأل نفسه عن جـدوى التعبيـر عن سخطه بالشكاية، وربما تأكد لديه أنه ومنذ الآن وحيد في بؤرة الحدث ونتائجه، وأنه ليس هناك إمكانية للخروج أو الفرار، لم يكن هناك أمامه غير الانتظار.

بعد موت الرجل بساعة أعلنت بنت نواعم أنها حامل في شهرها الثاني، وفي منـدرة العزاء تسابقوا في التشكيك في دعواها وهو ساكت سكوت فريسة في قبضة فخ من صـلب لا يرحم، وعندما حدث امرأته في الأمر قالت إن في الأمر لعبة مدبرة، وفسر هذا الأمر على أنه مجرد حسابات محسوبة أو غيرة نسائية من بنت نواعم التي تفوقها جمالا وشبابا وجرأة، لكنه مال إلى تصديق ما قالت به بعد سبعة أشهر من تلك الليلة إذ جاءته الأخبار بأن بنت نـواعم وضعت بالفعل طفلا، وأنها هددت باللجوء إلى المحاكم ضده ما لم يتنازل عن ميراثه للطفـل مقابل أعباء التربية، وبحساباته كان التنازل أهون من دخول المحاكم وأحكام النفقة التي تخصم من المرتب بحسب الشرع والقانون، أصبح الميراث في حوزتها باختياره، وما تبقى لـه مـن الأب غير طفل رآه ملفوفا ومحمولا على كتفها مرة. وكم كان يرغب على نحو غامض فـي رؤيته، مجرد رؤيته أو تحسس بدنه لكي يحكم بحسه الخالص إن كان بالفعل من نفس السلالة أو أنه كما يشاع ابن حرام طالع من حيث لا يعرفون ليغتصب حقوقه في الزمن الضائع.

حط الساقي زجاجة المياه الغازية الباردة أمامه فأعاده إلى المقهى والناس والصـخب المباغت، كان سطح الزجاجة مغطى بذرات المياه الدقيقة التي تكثفت بفعل الرطوبة وبـرودة السطح، لعله تذكر عطشه الشديد وهوة يتحسس سطحها بأطراف أنامله في لهفة المشتاق إلـى مجر الاطمئنان إلى جرعة باردة في حوزته، لكنه رآه ماثلا أمامه بوجهه الرمـادي وجلبابـه الرمادي ينظر إليه بعينيه الرماديتين، وهو ينكمش داخل نفسه وينكمش، مـذهولا ومرعوبـا ومكتوم الأنفاس من الهول الماثل أمامه، ليس فقط لأنه نفس الأب الذي مات منذ سنوات وقـد عاد الآن ووقف قبالته، وإنما أيضا لأنه عاد على نحو مغاير لصورته في سـنواته الأخيـرة، كان الرجل الرمادي قد استعاد شبابه القديم وحيويته القديمة وشاربه الهتاري وقسوة تقاطيعـه، أزاح الأب بيده كف الابن المفرود عن الزجاجة وأخذها، احتواها بين أنامله الغليظة ثم رفعها ناحية فمه وابتلعها في جرعة واحدة تماما مثلما كان يفعل في الزمن القديم، وبدا له وهو يضع الزجاجة الفارغة أمامه أنه يلومه ويوبخه ويتوعده بالعقاب الشديد عن خطأ لا بد أنه اقترفـه وهو غافل عن نفسه، كانت أصابع يده المفرودة تلتف حول الزجاجة الفارغة، وربمـا كانـت

ترتجف ارتجافة محسوسة من رعب رؤية الأب الذي يبتسم باستهانة، نفس الابتسامة القديمـة التي ترف على طرف شفتيه من ناحية اليمين قبل أن يستدير ويمشي مبتعـدا وسـط زحمـة الميدان، وكان هو يتابعه بنظرة مشدوهة وهو يتباعد ويغطس في الطرف الآخر من الميـدان ولا يظهر منه غير طربوشه القديم بينما تتداخل العباءة الرمادية في دوامات التراب المتنـاثر التي تعلو وتهبط على رءوس الخلق، وكان حلقه أكثر جفاف من كل الأوقات السـابقة، ويـده القابضة على الزجاجة الفارغة باستماتة وعجز تستشعر سخونة طارئة لهـا لسـعة الجمـر.

جريدة الحياة/ إبريل 1990

صياد الحمام

* ----------

في براح الدار كانوا يتسابقون، يبرعون في التخفي ويتضاحكون، كنت أسعى في أثرهم فيزوغون مني ويتباعدون، أقف مكاني حائرة أي الاتجاهات اختار فيظهرون تباعا ويفرون قبل أن أتمكن من اللحاق بهم، ونادرا ما كنت أكتشف مخابئهم في سراديب الدار الفسيحة وحجراتها المعتمة التي كنت أتخوف من دخولها وأكتفي بالنداء على كل الأسماء أطالبهم بالظهور لأمسك أي واحد منهم ليكون صيادا مكاني وأطير مثلما يطير الحمام، كانوا يضحكون ويتهامسون ثم يظهرون ويتجمعون حولي، يتفقون ويقررون أني لا أصلح للعبة "الصياد والحمام" يختارون منهم واحدا يلعب دور الصياد ويطيرون، أبكي وحدتي وعجزي عن مسايرتهم وأذهب إليها فتهدهدني وتهون علي الأمر وربما تصالحني بقطعة من الحلوى فأتبعها أصير لها ظلا، تحادثني بينما ترمي للطيور حبات القمح أو تحلب البقرات بأنني في الغد القريب سوف أكبر مثلهم وأجري بسرعتهم وأنني سوف أكتشف بالقطع مخابئهم وأمسك بهم وأطير مثلهم، كانت تسعى في جنبات الدار الفسيحة، تدخل القاعات المعتمة وفي يدها المصباح فأجرؤ على الدخول، ربما تكلفني بأن أناولها شيئا سقط منها فأفعل راضية وسعيدة، كان العرق يتصبب على جبينها ويبلل خصلات من شعرها الناعم، كانت تجلس في أي مكان وتتحسس ساقيها أسفل الركبتين، تضغطهما براحتيها وتكبسهما كبسا عنيفا متواصلا، تحدثني عن تلك الآلام التي أصابتها بسبب اتساع الدار فأشعر بالحزن من أجلها ولا أستطيع الرد عليها، لكنها في المساء عندما يأتي أبي كانت تتأمله وهو يتناول وجبة العشاء وتشاركه الزهو باتساع الدار.

كان أبي يتباهى بداره ويقول أنها أكبر دار في البلد فتدعو له بالمزيد رغم العناء الذي كانت تكابده بسبب ذلك الاتساع نفسه، كانت تداري عنه آلام المفاصل وتتوهج ملامحها كلما حدثها عن ميراث الأولاد من الأرض وبراح الدار وتؤكد له اطمئنانها على مصيرنا في مستقبل الأيام.

ثقلت حركتها بعد موته، وبعد أن كان براح الدار لعبتهم وفرحتهم أصبح عبء أيامهم، كانت تكلف الواحد منهم بإحضار شيء من الداخل فيتعلل بكل الأعذار المعقولة وغير المعقولة، كانوا يتفننون في الزوغان من عبء قضاء حاجاتها المتكررة، كان الواحد منهم يتظاهر بأنه ذهب وبحث ولم يعثر على المطلوب فتتحامل هي على نفسها وتدخل وأنا في أثرها ثم ترجع وقد حصلت على مطلبها، كان دخول الممرات المهجورة والحجرات المعتمة

والأركان التي تفوح منها رائحة العطن قد أصبح عبئا يصعب عليهم احتماله، أدركت هي أنه من العسير أن تعتمد عليهم فتناقصت تكليفاتها لهم ثم انعدمت تماما، اعتادوا مثلما اعتادت هي أن تقوم بكل العمل وأنا في أثرها أسعى في صمت بليد.

كنا قد كبرنا بالفعل وتناقشنا في الأمر مرارا قبل أن نواجهها برغبتنا في العمل على راحتها ، جلسنا حولها وحدثها كبيرنا بحماسة فنظرت إلينا الواحد تلو الآخر وأنكرت تماما أنها تشعر بأي نوع من التعب، دافع هو عن سلوكهم المتخاذل في سنوات الطفولة، وقال إنهم كانوا صغارا وعقولهم صغيرة وأنه من غير المعقول أن نحاسبهم على أخطاء لم يقصدوها بوعي فأنكرت أنها تحاسبهم أو تعاقبهم وأن كل ما تشعر به هو عدم التعب، غضب هو وانفعل وخرج من الدار فلم تبد أي اهتمام، حدثها الآخر عن آلام ساقيها وذلك الورم الذي بدأ في الظهور فأنكرت في عناد، سكتنا واحتملنا قسوتها على نفسها وعلينا، تركناها على هواها حتى لا نسبب لها المزيد من الآلام التي تتجدد كلما دخلنا معها في حوار بلا جدوى.

سافر كبيرنا إلى بلاد بعيدة سعيا وراء الحلم الذي حدثنا عنه كثيرا في أن يعيش في بلاد أخرى، أن يطوف في أركان الدنيا ويشاهد، راسلنا مدة ثم انقطعت أخباره، تزوج الآخر من غريبة عنا وأقام جدارا يفصل حيزا من الدار اتخذه مسكنا ونادرا ما كان يأتي، قلده الآخر وأقام جدارا فانفصل حيز آخر من الدار، أما الذي يكبرني بعامين فقد باع ما قدر له أنه نصيبه من الميراث لغريب أقام جدارا شامخا فصل ما تبقى من دارنا التي صارت ضيقة إلى حد كئيب، كانت الجدران حديثة البناء تحوطها من كل جانب إلا مدخلا صغيرا باتساع باب قديم كان للدار القديمة نستخدمه في مواسم الحصاد لتخزين المحاصيل، كانت حركتها قد قلت تماما وكادت تنعدم في تلك الأيام، كنت أشقى في الحيز الباقي من الدار وأعود لأجدها في مرقدها لم تبرحه، ربما تطلب مني جرعة ماء أو لقمة تبلعها بعسر ثم تعاود الرقاد، ونادرا ما كانت تصحو وتحدثني عن تلك الأيام البعيدة، تذكرني بطفولتي وعجزي القديم عن اللحاق بهم في لعبة الصياد والحمام فأضحك وأعجب لأنها تذكر كل التفاصيل التي أكون قد نسيتها تماما، أضاحكها وأداري عنها تلك المرارات التي تغزو قلبي بسبب ما صار إليه الحال بعد رحيلهم أو انفصالهم عنا.

وفي الصباح كنت أراه واقفا على طرف جداره الشامخ يلوح لي بكلتا يديه ويشير نحوي على نحو فاضح فأشعر بالخجل وأجري هاربة إلى ركن القاعة الرطبة، أبكي وحدتي وانعدام سندي، أتمنى لو دخل دارنا واحد من أخوتي أتشكى له من أفعال ذلك الغريب وأطالبه بحمايتي منه لكنهم كانوا قد كفوا تماما عن دخول الدار، وعندما طرقت أبواب من يعيشون خلف الجدران حديثة البناء أنكرت زوجة أحدهم أنه موجود في البلد، وطمأنتني الثانية بأنه سوف يأتي لدارنا وقت وصوله من سفره وأبدت أسفها لأنها لا تعرف ميعاد عودته وأوصتني

في نفس الوقت بألا أترك أمي وحيدة مرة أخرى ففهمت أنها لا ترحب بزيارتي مهما كانـت الأسباب، سألت عن الغريب المهاجر إلى بلاد بعيدة فلم يفلح أحد في التأكيد على البلد الـذي يعيش فيه، قالوا لي عشرات البلدان كاحتمالات قائمة، سألت عن ذلك الذي باع نصيبه للغريب فأكد لي رجل لا أعرفه أنه قتل في وضح النهار في مكان فسيح وعلى مشهد من كل سـكان البلد، عدت مهدودة ويائسة فوجدت الغريب قد اعتلى جداره يلوح لي ويخاطبني متوددا ومبديا استعداده لحمايتي لأنه صديق قديم لأخي الذي باع له حيز الدار، أذهلني أنه يعرف كل شـيء عن حياتنا وأدهشني أن يعرض علي الزواج ليقيلني من همومي، ادعى أنـه عشـقني منـذ طفولتي الأولى وأنه كان يشاركنا لعبة الصياد والحمام، كان على طرف لساني سـؤالي عـن أخي الذي ادعى أحد الغرباء مقتله والذي يقول أنه صديقه لكن لساني لم يجرؤ علـى النطـق بالسؤال، تركت المكان ودخلت إلى ركن القاعة الرطبة أبكي وحدتي وقلة حيلتـي، سـمعت صوتها في الركن الآخر يواسيني ويوصيني بألا أقبل عرض الغريب الذي لم أفكر في قبوله، بكيت فقامت هي من مرقدها وتحسست جبيني، أحاطتني بذراعيها في حنو فشعرت بالأمـان يسري في عروقي، جذبتني نحوها في قوة لم تكن تملكها طوال السنوات الفائتـة فاندهشـت وتساءلت إن كانت تلك التي تحوطني هي أمي بالفعل، نظرت إلى وجهها فوجـدت ملامحهـا التي ألفتها وقد ازدادت ألفا وازدهارا، بدت لي من جديد صبية عفية قادرة، وعندما خرجـت من باب القاعة وتبعتها كما كان يحدث في الزمن القديم بدا لي أن ما تبقى من دارنـا أكثـر اتساعا مما كنت أتصور، وبدا لي أيضا أن الجدار الشامخ الذي يسكن خلفه الغريب أقل طولا وصلابة.

وعلى نحو غامض سمعت صوت أبي يتباهى كما كان يحدث في تلك الأمسيات البعيدة باتساع داره وسمعت صوت أمي تشاركه الزهو وتحدثه عن عودة الأولاد وعنـادهم وعـدم تلبيتهم لمطالبها من داخل الدار، وكان هو يضحك بنشوة الأب فتتحول شكايتها منهم إلى فرحة بهم، ووجدتني أقف أمام قاعة نادرا ما كنت أدخلها وصوتها يناديني والمصباح يبعث شـعاعه ليكون دليلي فأخطو إلى الداخل وألتفت خلفي فلا أرى الجدار الذي أقامه الغريب أو الجـدران التي أقامها أخوتي، ويعاودني الإحساس باتساع الدار فأفرح رغم المكابدة في السـعي داخـل سراديبها وقاعاتها وأشعر بإمكان نجاحي في الجري بسرعتهم وملاحقتهم في لعبـة الصـياد والحمام.

إبداع/ مارس 1986

تخفيف المواجع

• ----------

ش. أ. ب:

أفزعني نفس الحلم المقبض فقمت قاعدا على طرف الفراش أتحسس رأسي وأتأكد من صحوي، قلت لروحي أن في الأمر خدعة دبرها عقلي الباطن بهدف إرهاب عقلي الصـاحي من واقعي الذي أعايشه بعسر مؤمنا بأن الصبر مفتاح الفرج.

قلت أزور صاحبي الباحث في علم النفس الاجتماعي وأستفيد من خبراته في حركات العقل الباطن رغم خلافنا المتواصل حول قدرة الإنسان على الاحتمال، وأنا أرتدي ملابسـي وأتأمل صورتي على سطح المرآة قلت لروحي: إنه حتى وإن كان القميص متسخا والحـذاء مقطوعا فإنني ذاهب إلى صديق قديم عاقل لا ينشغل مثل السفهاء بمثل هـذه الأمـور، وأنـا خارج سمعت صوت أمي التي لم تلتفت ناحيتي وهي تجلس فوق كرسيها ذي العجـلات فـي نفس مكانها بين النافذة وحجرة المعيشة:

ـ ماذا جرى لك يا ولد؟ صحاني صراخك من سابع نومة، هل فشلت تلـك الحبـوب التي جلبتها مؤخرا في تهدئة أعصابك؟

ـ عفوا يا أمي إن كنت قد تسببت في إقلاقك، إنه نفس الكابوس يحاصرني ويفقـدني القدرة على السيطرة على نفسي.

كنت قد فتحت باب الشقة بالفعل وأخرجت ثلاثة أرباعي منها وأبقيت الربـع البـاقي داخلها، لكن خروج ثلاثة أرباع الجسم لا يعني اكتمال الخروج أو تحقيق الهدف المنشود، ذلك أن أمي قالت محتجة لتستعيد ما خرج مني وأدخل:

ـ اسمع يا ولد، لن أحتمل خروجك من البيت في أي وقت بحسب هـواك ورغباتـك الفاسدة، هناك نظام ويلزم عليك أن تحترمه.. ماذا قلت؟

كنت أقف في الصالة مطرقا في حياء، انتظر منها إشارة أو أن تصدر أمرا لأنفـذه، هكذا عودت نفسي في السنوات الأخيرة، أطيعها تلك الطاعة الضريرة حتى لا تتهمني بالعقوق وفساد الأخلاق، أحيانا تعاملني بحساسية زائدة، تكف عن معاتبتي وتكتفي بالبكاء وأخوف مـا أخافه أن أكون سببا في بكاء يؤخر شفاءها من مرضها الذي طال، كان طبيبها المعـالج قـد حذرني من خطورة الأمر مرارا:

ـ أفهمني، أن أي انفعال زائد سوف يؤثر على مراكز الإبصار في المـخ، والبكـاء المتكرر مصيبة فادحة، الأمل الوحيد يتوقف على نجاحك في تفويت شهر بالتمام والكمال دون بكاء ناتج عن انفعالها المكبوت، مع الأخذ في الاعتبار أن يتم ذلـك دون تحـذير معلـن أو تخويف، اجعل الأمر يبدو طبيعيا ومألوفا، فلو وصلت إلى المراكز العصبية المتصلة بخلايـا الإبصار في المخ مخاوف من هذا النوع فتأكد أن كل المحاولات الطبية والنفسية سوف تفشل في علاجها، حاول أن تجعلها تكف عن البكاء لشهر متواصل دون تحذير معلن أو خفي مـن مخاطر البكاء، وإذا حدث وبكت هي فلا تنزعج، اجعل الأمر يبدو مألوفا وعاديا أمامها ثم أبدأ الحساب من جديد، ولأنها حالة نادرة تماما فأنا أشفق عليك وعليها لأن احتمـالات إصـابتها بالعمى النفسي بالإضافة إلى شللها الوقتي قائمة.

من يومها وأنا أحاذر وأطيع وأحلم باكتمال شهر قمري دون دموع لتبقـى مبصـرة، مخاوفي تحاصرني وتنفذ إلى نخاع النخاع مني لا تبرحني في اليوم ساعة، ألهث في مشـوار عودتي إلى البيت متلهفا لأطمئن عليها، أتعذب بالخوف المتواصل ومحاولات إزاحته دون أن أفلح، يبدو لي الأمر في ساعات الصفاء الذهني مرسوما بدقة لأظـل محصـورا ومحاصـرا بالترقب، تتبدد طاقتي دون مقابل وأنا أحاول أن أتصالب على نفسي لأحسـن تنفيـذ وصـايا طبيبها الذي أتشكك كثيرا في أن يكون قد اخترع كل هذه التفاصيل ونسجها من حولي بإحكام كي ازداد طاعة وتزداد هي مثله استبدادا وقد وقعت في فخ ضرورة البر بها، لعلهـا دبـرت الأمر مع الطبيب في غفلة مني وإن كانت أمي، ربما كانت ترغب في تعذيبي لأننـي أحمـل ملامح وجه أبي وبعض طباعه كما تقول واسمه، أستعيد تاريخا طال بينه وبينها مارس خلاله سطوة الرجل وكبرياءه وشموخ روحه وما ملكت أيامها الجرأة على المحاورة أو الاعتراض.

الباحث:

حدثني عن كابوس يطارده فتذكرت حالتي، يبدو أنه قد أصبح لكل واحد منا كابوسـه الخاص، ورغم محاولاتي لرصد البدايات التي كمنت في الوعي الباطن ثم انفلتت منـه علـى شكل كوابيس متباينة وإن حاصرتني في توقيت محدد من أمسيات الأربعاء لأقـوم مفزوعـا بتأثيرها وأحاول أن أقارنها بكوابيسه الهمجية التي تصيبه في أزمنة متباعدة أو متقاربة ودون انتظار بسبب تلك الفوضى الضاربة في حياته والتي انشغلت بتسجيل بعض تفاصيلها وأرجفت مخاطرها إلى ما كان يعانيه في منطقة سكنه وإن كانت لا ترقى إلى مرتبة اليقين العلمـي إلا أنها مؤشرات يصعب الاستهانة بها مثل:

(أ) عاش وسطهم ولم يتراجع رغم التحذيرات التي تلقاها من فساد أخلاق كثـرتهم، كان يدعي أن الاختيار ترف لا يملك أدواته، لكنه بعد عام واحد فسدت أخلاقه وصار يـتكلم

بلهجة سوقية منفرة ولا يخجل من ترديد الشتائم التي لا بد أنه انبهر بها أو انساق معهم في تيارها دون وعي.

(ب) كانت تعتريه في بعض الأحيان حالات خجل لا أملك تفسير بواعثه لو سأله غريب عن عنوان مسكنه.

(ج) وصف لي مجموعة معارك تستخدم فيها أسياخ الحديد والشفرات وكل أنواع السلاح الأبيض دون أن تبدو عليه علامات استهجان أو رفض لتلك القسوة ضد الآخر.

(د) حدثني عن معركة طارئة حدثت بين امرأة سمينة تخطت الأربعين ورجل من سكان المدخل المقابل لمسكنه كان يقف في نافذة الدور الأول وقد ارتدى فانلة بحمالات لونها أزرق وبنطلون منامة برتقالي وكيف أن الرجل تطاول على المرأة وهددها بالنزول إليها ليفعل بها الأفاعيل فخلعت ثيابها الخارجية والداخلية مزهوة بجرأتها وراحت تخبط براحتيها على أماكن من جسدها العاري فترتج كتل الشحم واللحم، وأنه تذكر ساعتها خنزيرا مسلوخا كان قد رآه مرة لا يدري أين ولم ينس رائحته الفاسدة أو أسراب الذباب التي كانت تحط فوقه أو تحوم حوله.

هوس - حدثني عن ولد اسمه عشتوته هارب من مستشفى الأمراض العقلية ولم يذكر أي مستشفى على وجه التحديد، وتشكى من وقفته الدائمة أمام مدخل مربع المساكن الذي يستعمله وقد شهر سنجة صدئة أو سكينا طويلا، وأنه كان مضطرا ليحبس أطفاله في المسكن ويمنع زوجته من الإطلال على الشارع من خلال النوافذ أو الشرفة حتى لا تتعرض لنظراته الوقحة أو إشاراته البذيئة.

أجلسته ذات مساء وطالبته بأن يهدأ ويكرر على مسامعي ما رآه في كابوس الليلة الفائتة، وقد تأكد لي أنه قال نفس الكلمات وغاص في نفس التفاصيل المملة وخطر لي أن أتوصل من خلال ما ذكره إلى نواة علم جديد ربما يكون اسمه علم نفس اجتماع قلة الأدب، كان صوتي الرتيب يسترجع بآلية ودون وجع:

- رأيته في المنام يجري وفي يمينه سكين الذبح وقطرات من دمي تتساقط على قبضته وتلمع فوق نصله الصديء والخلق يحيطونه من كل جانب للفرجة، كان يصرخ أو يهذي ولا أملك القيام والجرح في عنقي شاملا حنجرتي وفاصلا لساني عن وعي عقلي، أسمعه وأراها وهي تراني مرميا عند مدخل مربع المساكن وقد خرجت من عراك دموي خاسر لأنني لم أواجه خصمي بأكثر من الرقاد على الأرض راضيا بأن أكون مشروع قتيل مقابل العفو عن أطفالنا، لكن الذي أفسد كل شيء بالنسبة لي هو أن رجاله اختطفوهم لا أدري على أين فقررت أن أتحامل على نفسي وأقوم غير عابئ بنصل سكينه الذي انحط على عنقي نصف المجزوز مرتكزا بركبتيه على صدري ومزودا أمي وهو يقسم تفاحة آدم نصفين،

ساعتها رأيت في عينيه وجه العبد الحبشي ورأس الحسين المفصول من أجل جرعة ماء لطفل يبكي من شدة العطش، حزنت من أجل نفسي ومن أجل الحسين أيضا، ورأيت أمي وقد قامت تحتج على سكتة الرجال الذين احتفظوا بشهامتهم ونخوتهم لزمن آت، وصراخ زوجتي الملتاع يدعوني لأن ألحم رأسي المفصولة بإرادتي وأنا أفكر بما تبقى فيها من بقايا حياة: إن الطبقـة التي خرجت منها تخون جثة مرمية وسوف تتخلى عن تكفين ميت، وبما تبقى في خلايا العقل من دفء الحياة صرخت أوصي زوجتي بأن تحرس أطفالي ولا تستسلم مثلما فعلت وعولـت على شهامة أولاد بلدي.

قلت له إنه كابوس دموي لا يليق بكائن متحضر فوافقني وراح يستدرجني لأقص عليه قصتي مع الأربعاء الفائت:

ش. أ. ب:

حدثني عن كوابيس الأربعاء فاكتشفت أنها مجرد أكاذيب يبرع فـي نسـج أطرافهـا ليجاريني ويجعلني أصدق دعواه بأنه مصاب بحالة اكتئاب مزمن بسبب العوز الفعلـي رغـم ظروفه الأفضل، لعلها حيلة يلجأ إليها ليبعد عن نفسه حسدي الذي يتوهمه، وإن لم يكـن فـي الأمر من ناحيتي أدنى حسد أو ضغائن ضده، لأنني إن قارنته بعامل المجاري الـذي يـأتي لتسليك البالوعات الطافحة والذي يحدد المبالغ المطلوبة نظير القيام بعمله ويحصل عليها دون أدنى مناقشة من سكان المربع، لو قارنته به لخسر بجدارة، لكن المسألة تتعلق أولا وقبل كـل شيء بالصدق الذي لم يعتده منذ البداية لسوء تربيته وتخلف البيئة التي طلع منها، وقد وصـل الأمر معه إلى حد أنه يمسك شعر رأسه ويحاول البرهنة على أن ما أصابه من شيب وهو في هذه السن لم يأت من فراغ، أجدني مكرها على التظاهر بتصديقه في كل ما يرويه من أكاذيب تكشف أنه عنصري سفاح يكتم في أحشائه رغبة تدمير تفوق كل تصـور، همجـي بطبعـه وشاعر بالاضطهاد إلى درجة كراهية العالم من حوله، ولولا أنه صديق طفولة وأعـرف مـا خفي من أسراره ما صاحبته أو احتملته وانشغلت برواياته عن تلك الأمسيات الأربعائية:

"رايته مرتديا جلبابه الفضفاض وممسكا في يده حقيبة، حطها في منتصـف الميـدان الكبير، وكنا في وضح النهار والشمس تلسع الأبدان، أخرج من حقيبته مدية يلمع نصلها فـي نصوع ويعكس ضوء الشمس، رسم دائرة من حول نفسه ودار داخلها ثـم صـرخ بصـوته المجلجل:

ـ ميداني أيها الجبناء، ميداني بوضع اليد، ومن يتقدم ليدوس أرض ميداني فسـوف أصفي دمه.

كان الحيز صغيرا في أول الأمر وبدا لي أن الناس لم تنشغل بأمره، كانوا يطلون ولا يتابعون باهتمام، لكنه رسم دائرة أكبر بنصل مديته على الأرض وردد نفس الكلام، كان يبدو من فرط اتساع الميدان نملة عاجزة عن تأكيد وجودها وسط الصخب والزحام، لكنه بعد ساعة أو ساعتين من عمر الزمان كان قد وسع حيزه المسكون والمحمي بحدود رسمها هـو نفسـه دون اعتراض من أحد وجعل يردد نفس العبارات ويخوف كل من يجرؤ على اقتحـام الخـط المرسوم، تحول إلى نحلة تزن في الآذان ثم تكاثر وتضخم واستخدم مكبر صـوت جهنمـي بألف سماعة مخفية والناس يتباطأون، يتطلعون ويمشون إلى شئونهم، ثم يجـرءون ويقفـون، وعندما يدور هو إلى حدوده المرسومة قريبا منهم ويخوفهم بطرف نصل مديته فيتخوفون من مواجهته ويلوذون بالبنايات القريبة مبتعدين عن شره الذي فرض نفسه عليهم على غير توقع، ودون وعي وجدتني في مواجهته مرعوبا من نصل المدية وإن كنت لا أنوي التراجع، كـان يطوحها في كل اتجاه وأتباعد عنها دون انهزام، يهدد بتمزيق الصـدر وتشـويه الوجـه ولا أخشاه.. لعلني كنت أراه بحجمه الذي بدا لي صغيرا في أول الأمر، ربما كنت الوحيد الـذي انشغل به في تلك الظهيرة والكل سارح لأمر يعنيه، ولعله أدرك أن جرأتي تستند إلى وعـي بحقيقة أمره فتباعد عني وإن استمر في توسيع حيزه إلى حد أن رسم دائرة كبيرة هـي كـل الميدان تاركا للناس أرصفة يطلون منها وقد انحشروا مزحومين يطلون بعسـر مـن خـلال الدائرة التي استحالت إلى قفص حديد من تلك التي تستخدم في حبس حيوانات السيرك، هو في الداخل بإرادته يتحكم في حركة الناس ويتهددهم، يمد الذراع حامل المدية الذي تحـول إلـى عشرات الأذرع ثم مئاتها وفي كل منها مدية، تضخم على نحو مفاجئ وبدا لي ولهم أخطبوطا له ألف ذراع والناس تتراجع وتتوارى في مداخل العمارات وفوق سطوحها وداخل الشقق وفي الشوارع الجانبية رعبا وقد انعقد لساني وتاهت نظراتي وهي تفشل في إحصاء تلـك الأذرع ولو على وجه التقريب دون جدوى، ولا بد أنه أدرك مدى ارتباكي وعجزي في تلك اللحظـة لأنه اكتفى بمطاردتي وحاول أن يغرس أي نصل من نصال أسلحته في قلبي وأنـا أسـتحث الناس على كسر القفص المرسوم من حوله لحمايته وحبسهم في ذات الوقت، وكنـت أجـري صارخا وقد تحررت منه تماما وعدت تلميذا في ابتدائية الأربعينات أهتف والتلاميذ القـدامى يرددون ورائي بحماس" الجلاء بالدماء.. الجلاء بالدماء" وعساكر سلطة الاحـتلال تطاردنـا ونتمكن من الفرار إلى أحضان أمهاتنا حيث نسكن وننام وقد تواعدنا على ترديد نفس الهتـاف في الصباح التالي.

قلت لنفسي إنه كابوس بديع من تأليف وإخراج عقله الصاحي وخياله الخصب المرتاح الذي يعرف كيف يفتعل النهايات السعيدة تماما مثل أفلام الأربعينيات التي لا بـد أنـه رآهـا وتأثر بها.

ش. أ. ب:

ليس من العيب أن يحاول هو استدراجي إلى منطقة الحلم الوردي، لكـن العيـب أن يتجاهل الواقع الصعب الذي أعيشه ويطالبني بتغيير الجو وهو العارف أنني أحسب حسابا لكل خطوة أخطوها لكي أوازن أموري بين مطالب العيال والزوج ومصاريف علاج الأم الباهظـة معتمدا على دخل ثابت وأسعار تتحرك.

الباحث:

بشرته بإمكانية أن تكمل شهرا قمريا دون دموع إن ابتعد عنها فترة وكف عن القلـق بشأنها والحديث عن شللها الوقتي وعماها المحتمل، وقلت له إنه برغم كل شيء يملك الحلـم المتجدد في شفائها يوما، وأنه وإن بدا محزونا إلا أنه يداري عني وربما عن نفسه وعنها تلك الحقيقة التي لا تقبل الجدل في أنه حتى في لحظة البكاء التي يفقد فيها أمله في شـفائها، فـي نفس اللحظة التالية لجريان تلك الدموع يبدأ في الحساب من جديد ويولد لديه أمل جديد قابـل للتحقق كجنين شرعي رغم كل المواجع التي يدعيها، لحظتها نظر إلي فـي دهشـة وسـألني باستنكار كيف توصلت إلى هذه الحقيقة وأنا مجرد باحث فـي علـم الـنفس الاجتمـاعي؟.. فضحكت منشرحا وراضيا عن نفسي ثم ما لبث هو أن انفلتت منه ضحكة خالصة في صـميم قلبه الفرحان.

إبداع/ أكتوبر 1989

تمثال جديد لكاتب قديم

• ----------

بدا لي أنه أغفى فانسلت من تحت الغطاء الخشن الـذي يسـتخدمه ويجبرنـي علـى استخدامه، أجلستني على المقعد الجاف وأمسكت قلمه، استحضرت كلماته وشرعت أخط على الورق حكايتي معه، عفوا لأنني لم أتعرف إليكم إلى الحد الذي يسمح لي بالكتابة لكـم، لكنـه يفعلها ويجرؤ فكيف لا أحاول. اسمي سنب زوسركا ومهنتي كاتب، لي تمثـال مـن حجـر البازلت الأسود وأنا جالس القرفصاء وعلى حجري لوح يسند قرطاسا من ورق البردي، وفي يميني قلم بوص أرسم به اللغة المقدسة، ولي رسوم شائعة لا يبين فيها اسمي المنقوش بخـط غويط في قاعدة التمثال، رسومي في الزمان القديم ثابتة الألوان لا تنمحي، هي مجد للفراعين الستة وزهو للأسلاف، أخطو مدفوعا بالأيام على عتبات الخمسين شأنه، وإن كنـت أراه الآن أمامي في رقاده القلق الذي يشبه الصحو وصحوه الذي يتعادل مع الرقاد، عودني أن أتبـادل مع الأزمنة ضجرا، تضجر مني وأضجر منها، أشعر بعداوات وصداقات تتـداخل، وأطـالع وجوه الناس بغربة، غضبانا أو فرحانا أو مندهشا أرقب بعيون الراقد سطح النهر الساكن فـي زمن لم أختاره وإن عايشته، فأنا أسكنه الآن، وسليلي حامل وجهي ومبدل قلمـي وأوراقـي والطامح أن يرثني ويأخذ رتبتي ذلك اللابس سروالا من نسيج مخطط والصدر عار، يغط في النوم ويتنهد بحرقة فيزيد عليه سخطي، أنا أقدم كاتب في تاريخ الأرض المسكونة أتردى إلى حد التشكي من ذلك المصير التعس الذي أعادني فيه، ومن خلال عينيه أرى هـاتين العينـين الخابيتين اللتين تختبئان وراء زجاج سميك مؤطر بمعدن فضي كنا نستخدمه في تحلية صدور النسوة وزنودهن، يجرجرني معه في زحام مدينة غريبة ملوثة الهواء تتطاير فـي طرقاتهـا وحوش لا حصر لها من حديد وصاج ملون تحملها دوائر من عجين أسود مطـاطي القـوام، معذبي ومقلقي في هدأة الليل القادر على القيام والجلوس ورسم حروف تشبه الثعابين والمباخر والشواديف والسلال، يوقد في الليل شموسا وأقمارا صغيرة ويقرأ أو يكتب.

سأحاول أن أخرج من جلدي الآن وأدخل جلده فقد تقلب وجلس وسأدخل أيضـا فـي ذاكرته وأطرد ذاكرتي الأولى ألبس ثوب عصره وأجاهد ألا أندهش لآلاف الأشياء المدهشـة التي تجري من حولي، سوء الحظ رماني داخل هذا الجرذ الأحمق، لو كان يحق لمـن عـاد ليحيا عمره الثاني بعد طول الرقاد والسكون أن يختار البدن الأنسب لاخترت سواه حتى لو لم يعمل في نفس المهنة أو يحمل نفس التقاطيع، هوان لمهنتي أن تدخل هذا البنيان، وهوان أكثر

أن أعود فيه أنا سنب زوسركا، سيادته إن كان لدود الأرض سيادة لا يليق بي على أي نحـو، حتى ولو حمل اسم أحموزي طارد الهكسوس محرفا فتلك خدعة تناسب البدايات وسرعان ما يتكشف أمرها، وحتى أكون منصفا أعود وأقرر أنه في صدر شبابه أغراني بكتابـات لائقـة بشرت به كاتبا مرموقا في زمانه، ولولا أنه انحدر بقوة لأعطيته كل أسراري ومكنتـه مـن تلافيف ذاكرتي وتلوت على مسامعه أناشيدي وأورادي وألبسته خاتم الوظيفة المقدسة، لكنـه لأسباب لم أتبينها خذلني وخذل نفسه وروح الفرعون الإله الذي يتسمى باسمه محرفـا، قلبـه خفيف ربما، أتخيله وقد عاش الزمان الأول وأنكر عليه احتمال القيام بمثـل دور الفرعـون الإله، مثله كان من الممكن أن يخشى الناس أماكن ظلالهم التي غادروهـا، ولسـت أصـدق هواجسه التي تنتابه في أنصاف الليالي وهو يقوم مفزوعا ومدعيا أنهم خلفه وأمامـه وحولـه يدبرون له المكائد، من يملك أن ينزع الأسماء عن الأبدان التي لا تستحقها في زمانكم يا سادة، من يثبت القلوب الرعديدة والعقول المرتابة والوجوه التي تتلفت حواليها فزعا من كل غريـب زائر مخافة أن يكون خصما يتلصص؟ هو صرصور يمط قرون استشعاره في وجل ويسارع بالاختباء خلف أي ساتر أو داخل أي تجويف معتم، يجرجرني معه بالإكراه لأتـوارى وأنـا الساكن أرض وطني، لا أدري إن كان هو الذي سكنني أو أنا سكنته، لكنني أعرف إلـى أي هوة سحيقة سقطت بوجودي معه، كنت في الزمان الأول سيدا تحوطه احترامات الكل، وكنت معه هو نفسه في البدايات أنعم بالجسارة التي تطل من بين سطوره، كان يكتب ما يعـن لـه، يقرأ كتب الحكماء القدامى ويبحث عن برديات الأسلاف يترجمها ويحفظ نصوصـا سـطرها الكتاب السحرة، كان يساويني في صدر شبابي إلى حد أنني كنت محسودا لاكتمـال التوافـق بيني وبينه، لكنها كانت بدايات سرعان ما تبددت وزالت ثم استحالت.

أتذكر أنني كنت أحوم في أفق الوادي روحا قلقا يبحث عن بدن لائق، كنت أطل على النهر حين رآني، كان قويا وعارفا قدري في ذات الوقت، لاحظ أصحابه وجه الشـبه بيننـا، عملوها نكتة وأجلسوه يومها في بيت أحدهم عاري الصدر جلسة القرفصاء وضحكوا.. فرحت به وبهم وتذكرت شبابي، تذكرت على وجه الدقة أستاذي ومعلمي وسيدي يوم أسـلمني قلـم البوص وقرطاس البردي نصف المكتوب وأجلسني القرفصاء، قال أكتب فكتبت في حضـرة الفرعون الإله، عاد وقال اكتب فكتبت، أخذ البردية وأراها للفرعون ومجلسه العادل، قال كبير الكهنة: هذه السطور نسيج من نفس النيل، وقام الفرعون وغطى رأسي بالمنديل الذي تتقـاطع خطوطه عند لقاء الأذنين بالصدغين، لا فرحة في الدنيا تتساوى مع تنصيب كاتـب، جلـس الفرعون الإله واقترب مني كبير الكهنة، رشني بالماء المقدس وقال بصـوت جهـوري رج جنبات القصر:

ـ"هو أنت الآن يا سنب زوسركا كاتب مسئول عن رسومك، لا تكذب، لا تكسر سن بوصتك جبنا، ولا تكف عن غمسها في حبر الكتابة ابتعادا عن المخاطر، واكتب، ولا ترهـب أعداء الأرض السوداء وإن جاءوا في ثياب الأصدقاء، واكتب، لا تتعلـل بعيالـك أو جـوع امرأتك واكتب، لا تتلون مثل الحرباء أو تتشقلب مثل القرد أو تغمض عينيك عن الأخطـاء، واكتب، وإذا أخطأ كبير الكهنة أو نسى الفرعون الإله عدله الأبدي فاكتب، لا تتردد في كشف الأخطاء، فللفرعون عمرك وأنت فداه، لكن الروح لرب الأرباب" .

سوء الحظ رماني في بدن لا يعرف قيمة ما ورثه، تقف حدود المعرفة لديه في أجداد من فلاحين وصيادين وبنائين وصناع سلال وحصير وحبال شـواديف، وأب شـغلته نجـار براويز صور وأسرة ودواليب ونمليات، وأحيانا حين يضيق الحال يصـنع للنسـوان طبـالي ومطارح وكراسي حمامات، يكسب قوت اليوم ولا يدخر سوى الملـيم أو السـحتوت لأيـام العطلات وبوار الصنعة، ولأنه يوم مات أورثه فقرا وديونا يصعب سدادها أوشك أن ينكسـر في سعيه المتواصل لشراء حبات الحنطة يصنع بها خبزه، ولحبات الحنطة أو قل ندرتها فـي الأرض السوداء وجع، وجعين، الأول تلك الندرة والثاني إصرار ابن النجار على الشـكوى، والشكوى عجز، في نفسي شيء شامخ يتأبى أن يتباكى على الصغائر، كبار النفـوس كبـار الناس، صغار النفوس صغار الناس فكيف يجيء الزمان الذي تغوص نصال العوز في قلـوب النفوس الكبيرة، ومن فعلها أحدث عنه النهر والصحراء والبحر البراح، ومتى تفرغ النفـوس الكبيرة لتصنع للناس أحلامها؟

رجل في الخمسين كان يسير قريبا مني ويدعو ربه بصوت مسموع:

ـ يا رب استرها معي، أنا لا أطلب أكثر من جرعة ماء من نهر النيل، ونسمة هواء قليل الفساد، وحيز مسقوف يداري معي الزوج والأولاد، وكسرة خبز ترد الجوع.

عندما رآني دندن وتظاهر بالغناء، تأملته فوجدته شبيها بكاتب المظـالم عنـد بـاب المحكمة، كدت أحدثه عن أن الشكوى وسيلة العاجز، لكنه أسرع خطاه ودخل الزحـام ومـا عدت قادرا على تمييزه أو اللحاق به، لو كان مثله يعيش في زماننا لحدثت الفرعـون عنـه وأرسل من يحضره من أمام المحكمة يمنحه أرضا ودارا وأبقارا لأنه وإن كان مجهولا لديـه فهو كاتب يسجل على أوراق البردي أمجاد الزمان الذي يعيشه ومخازيه.

عجيبة هي الحياة في مصركم يا سادة، هذا الوغد ساكني أو سكني نطـق الحكمـة أو نقل الحكمة،"يعطي سره لأضعف خلقه" هكذا سمعتها وتأكدت من بعض صدقها بعـد تفكيـر عويص، وإذا كنا نحن قد عشنا زهو زماننا لأننا كتبنا ما كان يميله علينا الفرعـون الإلـه أو كبير الكهنة أو حكيم الحكماء، فها هو ذا رجل في الخمسين مصاب بالوسـاوس والهـواجس، ومسلطة عليه أفكار لا تسر، خياله مريض بأحلام يقظة دموية الطابع، يتوقع ـ لا أدري لماذا

ـ الشر من الجهات الأربع ـ يجلس على مقعد جاف ويسند كوعيه على تختـة قديمـة مـن خشب كالح ثم يمسك قلمه ويكتب أشياء، أراقبه من بعد فألاحظ أنه يشغل خلايا مخه ويتصور أشياء لا حصلت ولا كانت لكنها تبدو كما لو أنها كانت، بل إنه يرسم بالكلمات شخوصـا لـم يصادفها أو يسمع بها وأقول لنفسي لعله السحر لكنني أكتشف أن السحر وسيلة السحرة وهـم قادرون على تحويل الطمي ذهبا وتحويل الأوزة بقرة، وعليه فلا سحر هناك، ولقد حاولت منذ البداية أن أفعل فعله فكابدت شقاء ما بعده شقاء، لكنني لم أستسلم وداومت على المحاولة إثـر المحاولة حتى تمكنت من مسايرته والسرحان معه، هو نفسه لم يدع لي فرصة كي أفكر فـي التراجع، وذات مرة شعرت بزهو يفوق كل زهو صادفته، انشرح صدري وأحببت الحياة أكثر وأكثر، وجعلت أدرب ذاكرتي لتستعيد تواريخ ونوادر وأناسا من أزمنة فاتت، وجرؤت وقلت لنفسي هاأنتذا يا سنب زوسركا كاتب جديد، ورقصت مرة لأننـي كتبـت للأطفـال حكايـة أعجبتهم، رقصت بنشوة غامضة لم أجربها من قبل، كان يناولني الكتب كتابا في أعقاب كتاب ويوصيني أن أقرأ، أن أفهم، ألبسني إطارا يحوط دائرتين من زجاج سميك، وسـماني مثقفـا وهو لفظ من تلك الألفاظ الغامضة التي لم أفهمها جيدا في تلك اللغة المراوغة، شربت أطنانـا من الشاي الساخن ودخنت ملايين اللفافات، ورأيت كتاباته إلى جانب صورتي على صـفحات المجلات وأوراق الصحف، حُزنَا معا إعجاب الخلق وما حصلنا علـى أكثـر مـن وظـائف بملاليم، جوعني وجوع أولاده وزوجه، لو أشبعنا يوما جوعنا يومين، أطفاله الصغار يتـامى في وجوده فكيف يكون شأنهم بعد موته؟ مجنون بشراء الكتب وأجبن الجبناء في شراء اللحم، ذات مساء سمعت صراخ زوجته بسبب لفافة كتب شالها بفرح ناسيا خبز الأولاد، بيني وبينكم لها حق، فاض الكيل يا سادة ولم يعد للصبر معنى، كنت مفزوعا من الشر الطالع من عينيهـا وفرحانا لأنها جرؤت مرة وأفحمته.

في البلد مجاميع من الناس تتحزب وتتبادل الخدمات، لكنه خارج عن كـل الـدوائر، وحيد وحدة قاتلة، لا أنكر أن له أصحابا أكثر من أصحابي، لكنهم أفراد، كل مـنهم جزيـرة معزولة وسط بحر صاخب يعلو فيه صوت الهدير وترتفع الأمواج، عصا مفردة سهل كسرها، يكتب للمجهول ولا يأخذ ثمنا، يتحدث عن عدل لم يوجد أبدا فوق الأرض، وأنا العارف أسرار التاريخ المكتوب وغير المكتوب أؤكد أن لحب الأرض حدودا، وإن ضاقت بك أرضك فارحل عنها تتحقق، غيره يا سادة سعى وتنقل، حاول لم ييأس، عاد بثمن الحنطة وأسـاور للنسـوة، صاحبنا أرضاه كلاما سطره عن طين الأرض.. ضبعني، أوجعني، قلت أوبخه يـوم أصـيب الطفل بجرح لم يملك ساعتها أجر طبيب يوقف نزف الدم"أعشق طين الأرض وزودها بـدماء الطفل النازف يا أجهل جهلاء الأرض" أطرق بالعجز عن الرد.

خمسون عاما يا سادة، وأنا الراجع من أزمنة الجرأة، أصـرخ فـيكم وأنـبهكم إلـى ضرورة عمل تمثال جديد من طين الصلصال لكاتب مسخرة ذاب في حروف لغـة عصـية مراوغة، وجبن منذ البداية عن اقتحام الحياة، مخضوض الملامح دوما يعاني من فقـر الـدم، يدعي أن اسمه أحموزي ويكذب، يشمخ بأنفه متوهما أن لأمثاله في هذا الزمان قيمة، اعملوها وجهزوا مادة التمثال، مجرد بركة صغيرة في طين الصلصال، وأؤكـد لكـم أنكـم سـوف تضحكون كثيرا كثيرا حتى تدمع عيونكم من كثرة الضحك على شكل التمثال الجديـد لكاتـب قديم نادرا ما يتكرر.

إبداع ـ فبراير 1990

القط الرمادي

• ----------

كنا قد اعتدنا مجيئه وقت العشاء تماما، حتى في تلك الأمسيات التي نتناول فيها وجبتنا قبل موعدها أو بعده كان يأتي ويموء، كأنه كان يراقبنا من خلف جدار ويتسمع كلامنا، يدعو نفسه بنفسه فتبسمل أمي وتضع أمامه نصيبا يكفيه وهي تنسج من حوله الأساطير التي تبعـث في قلوبنا المخاوف من مجرد التفكير في طرده أو الامتناع عن تقديم العشاء إليه وكأنه واحـد منا. كانت تؤكد لنا أنه ملاك يتخفى بدليل أنه يصل إلينا في موعده حتى وإن كانت الأبـواب مغلقة، كان ينفذ لا ندري كيف، يموء فنبسمل ونشعر بقلق غامض فتطمئننا وهي تضع أمامه نصيبه المحجوز قائلة: إنه ما دمنا لم نغضبه أو نضربه أو نفكر في تجويعه فإنه لن يفكر في إيذائنا، كانت تصرفات القط تبدو لي غريبة وغامضة إلى حد جعلني أتخوف من احتمالات أن يكون مكلفا باكتشاف أخطائي الصغيرة ومحاسبتي أمامهم عنها، كنت أنكمش على نفسي وأنـا أنظر إلى عينيه البراقتين وأوشك أن أتوسل إليه ليسامحني فيهز ذيله ثم يمسح بوزه في راحتيه وكأنه إنسان يعد بالكتمان هذه المرة.

كانت مجرد علاقة بين قط رمادي في مقدمة رأسه بضع شعيرات سوداء وصبي يحلم بالنجاح في دراسته، ولأنه بحسب تأكيدات أمي طالع من تحت الأرض فقد كنت أتودد إليه أيام الامتحانات، أناوله شيئا من نصيبي سرا أو علنا لأحصل على رضاه الكامل فيأكله وهو يهـز ذيله ثم ينظر ناحيتي قبل أن يختفي وقد اطمأن قلبي لأنني عاملته معاملة حسنة تليـق، لكنـه حدث ذات مساء أن جاء القط الرمادي على عادته وعلى طبلية العشاء سـمك مقلـي، وقـد حرصت أمي على تجميع المخلفات التي خلصناها لكن القط تشممها ولم يبد حماسا أو استعدادا لأكلها كما كنا ننتظر، ظل ساكنا مكانه يموء طلبا لحقه في العشاء، واندهشت أمي لرفضه بقايا السمك، ربما ظنت هي أن القط غاضب لسبب نجهله، مدت راحتها وحاولت أن تربت علـى ظهره فماء محذرا ثم انقض على كفها بمخالبه، عضها فأصابها بفـزع، وعنـدما تحمسـت لضربه بالعصا حذرتني وتحاملت على نفسها، كان القط مكانه ما يزال ونحن ننظر إليها وهي تربط كفها مكان العضة وخربشات المخالب، بدا لنا أنها سامحته وربما فهم القط ذلـك أيضـا لأنه تجرأ وأخذ قطعة من سمك الأم التي كانت تتأمل برعب مدهوش وتدعونا لتركه يفعل ما

يريد، أكل القط لحم السمك الخالص من كل البقايا حتى شبع ونظر إليها ثم هز ذيلـه قبـل أن يختفي، حدثتنا هي عن أولئك الذين تعرضوا لأمثال ذلك القط بالإيذاء فنالهم ضرر، منهم مـن شلت يده ومنهم من مات ومنهم من خطفوه تحت الأرض وعذبوه بـالتجويع أحيانـا وأحيانـا بضرب الكرابيج، ومنهم من سخط قطا ضالا يسرح في الشوارع ولا يجد من يعطف عليه أو يقدم إليه طعاما أو شرابا حتى يموت بالجوع وهو يموء مواء يقترب من كلام البشـر، مـن ليلتها تزايد خوفنا منه وصرنا نتحاشى النظر في عينيه اللامعتين وقد احمرت حدقاتهما فبدا لنا جنيا من سابع أرض على استعداد لافتراس من يعارضه، وأصبحت زيارات القـط الرمـادي تعني خسارة مؤكدة، قطعة لحم في طبق أو نصيبا من طائر مذبوح في ليلة عيد، يأخذه ونحن في صمتنا الخائف لا نعترض، أصبح بارعا في أن يفرض لنفسه حقوقا جديدة ويزيد نزواتـه ونحن نتأمل دون استنكار، مجرد استنكار بالكلام أو احتجاج بالإشارة، وبدا لنا أن القط أدرك أننا على استعداد لتلبية مطالبه فاستمرأ الأخذ بجرأة أكثر غير هياب أو محـاذر، واستسـلمنا للأمر ودعونا مع أمي أن تجيء إليه بلوة من غيرنا، صدقنا ما كانت تؤكده في كل ليلة أنـه جن متمرد يقدر على النفاذ من كل الحواجز، كان يطلع لنا وقت العشاء لا تدري كيف طلـع ولا بد أنه كان يطلع من تحت الأرض فعلا ويمارس الالتهام قبل أن يختفي، كانت أمي تقـرأ آية الكرسي وتستعوض الله في كل خسارة تصيبنا ما دمنا بخير.

لكنه عندما تزايدت شراسة القط وأخذ لأول مرة فرخ حمام وليد لم تحتمل، كان ذلـك في ليلة شم النسيم وكنا نلون البيض ونقشر الفسيخ ونضع على البصل خلا وزيتا لوجبة غذاء الغد، عندما دخل القط وتلفت حوله باحثا عن وجبة عشاء دسم فلم يجـد مـا يرضـيه فـوق الطبلية، تحرك من مكانه ونحن نتابعه وقد حسبنا أنه أعفانا من مسئوليته تلـك الليلـة، لكننـا سمعنا هديل حمامة مفزوعة، قامت أمي ورأتها جريحة الجناح تتقافز والقط واقف وبين مخالبه فرخ الحمام الوليد ينهش لحمه يزوم محذرا كل من ينظرون من مجرد التفكير في الاقتـراب، أذكر أن أمي لطمت خديها مرتين ولم تقترب، واذكر أنه جاء مرة أخرى وفعل نفسي الشـيء ولم تلطم أمي غير مرة واحدة، وتحول القط بعد أفراخ الحمام إلى الأرانب الصغيرة، يـبطش بها ويختفي، تحول القط إلى كابوس مفزع، يظهر فتختفي الدواجن ويزداد خوفنا منـه وهـو يزوم ويموء في توحش ولا يتخلف عن المجيء أبدا.

قال العم صلاح وهو في زيارتنا تعليقا على حكايات أمي عن ذلك القط المخيف:

ـ لا يفل الحديد إلا الحديد.

فاستفسرت أمي عن المعنى الذي يقصده فاستمر بنفس النغمة قائلا:

ـ القط يحب خناقه، أعني من يقدر على تخويفه وإبعاده عـن المكـان مـا دام قـد استباحه.

كانت أمي ترتجف وهو يعرض علينا فكرته بتربية كلب في دارنا، قالت هي أن في الكلاب نجاسة وأنها تنقض الوضوء فلم يتراجع عن رأيه أبدا، أقنعها بأن القط مصاب بالسعار وأنه لو قضى على كل دواجن الدار فلن يمنعه شيء من نهش لحمنا نهشا في صحونا أو رقادنا، وساعتها ينقل إلينا سعاره وربما نموت، وربما بسبب خوفها علينا وافقت على مضض أن يتولى هو بنفسه إحضار كلب إلى دارنا ليكون الذنب في رقبته هو لأنها كانت ما زالت تثق أن القط ملاك أو جني طالع من تحت الأرض وربما يسخطها أو يخطفها إن فكرت في إيذائه بأي الطرق.

كان الكلب في وسط الدار ينبح ووجبة العشاء فوق الطبلية ساخنة وشيء من الاطمئنان يسري في قلوبنا لأن القط لم يحضر، وقبل أن نبدأ رأيناه قبالتنا وقد اسودت رأسه أكثر وبرقت عيناه في شراسة وعداء، وصرخنا في فزع ونحن نقوم ونهرب من مواجهته دون أن نتأكد إن كان هو نفس القط أو أنه غيره وكان الكلب ينبح نباحا متواصلا والقط يموء متوعدا ونحن لا نراه.

جريدة الحياة/ نوفمبر 1989

ست الدار

• ----------

في زياراتها المتكررة إلى قبر الرجل الكبير كانت تبدو لكل من يراها مشرقة الوجه أكثر منها حزينة، خطواتها عفية رغم السنوات التي عاشتها وزادت بحسابات الكبار من أهل الكفر عن التسعين، كانت تتقدم من يشاركها المشوار في سكة المدافن بخطوة أو خطوتين، تقطع المشوار من دار الناعسة في شرق البلد إلى بداية الطريق في غربها مشيا على القدمين بخفة وعزم، خطواتها متعجلة يشوبها إصرار وقدرة وهم في أعقابها يلهثون أو يزمجرون احتجاجا على إصرارها للذهاب مشيا في كل مرة:

ـ يعني هو من قلة الحمير في البلد؟

ـ الواحد انقطع نفسه وهي بتدب في الأرض زي الفرعون.

ـ أبويا الله يرحمه ما شافش الراجل الكبير خالص.

بس كان يصحى لها وهي بتطلع الجبانة تترحم عليه.

ـ أبوك أهو مات وشبع موت، ويمكن لو ما كنتش هي بتيجي في المواسم ما كنـتش أنت تطلع تزوره وتفتكره.

ـ يعني أنت اللي مقطع السكة ع اللي لك؟

ـ أنت ح تعايرني؟ قرب خلينا نحصلها وبلاش وجع قلب.

على هذا النحو كانوا يتحاورون في كل مرة، ربما كان الحوار وسيلتهم الوحيدة التـي تعينهم على تكملة المشوار الطويل، وكان يتأكد للواحد منهم أكثر من مرة أنها تتسمع مثل هذه الحكايات والشكايات ولا تعيرها انتباها، ربما كانت تستخف أو تتشاغل عن سماعها باهتمـام كاف لأنها مجرد ثرثرات لازمة لإكمال المشوار، كان الوصول إلى قبر الرجل في كل مـرة أهم عندها من مجرد التفكير في مجاراتهم أو الدخول معهم في ثرثرات فارغة، كانت تمضي في طريقها صامتة وكأنها في نفس الوقت تشدهم بهذا الصمت خلفها طوال الطريق الصـعب، وكانوا جميعا يشعرون أن عندهم بعض الحق، ففي كل زيارة كانوا يعرضون عليهـا فكـرة الركوب وترفض، كان الواحد منهم يجهز حمارته ويأتي بها أمام دار الناعسة رغـم وعيـه المسبق من احتمال عودتها إلى داره دون استخدام، أكثر من ركوبة يربطها أصحابها في حديد النوافذ أو جذوع شجر الكافور أو أي "وتد" مدقوق جنب جدار، لكنها كانت ترفض وتؤكد لهم

أنها ما زالت تستطيع الذهاب مشيا فتحرمهم في نفس الوقت من حق الركوب، ومع ذلك يجاهد كل واحد منهم أن يؤكد لها أنه جهز ركوبته من أجلها، كانت تصدق رغم إدراكها وإدراكهـم استحالة ركوبها كل هذه الحمير المربوطة في انتظارها، كان البعض منهم ينسلت في غفلـة، تسأل هي عنه فلا تجده، كانوا في كل الحالات يؤكدون بعد الزيارة أنهم أبرأوا ذممهـم مـن ذنبها، وعلى امتداد تلك السنوات التي زارت في كل مواسمها قبره ـ والتي زادت بحسـابات الكبار من رجال الكفر وحريمه عن الثلاثين عاما دون أن تخاف موعدا ـ كانت تـأتي قبـل ميعاد "الطلوع" مهما كانت قسوة الجو حرا لا يحتمل أو بردا لافحا أو مطـرا يحـول السـكة الزراعية ودروب الكفر وطريق المدافن إلى وحل خالص دون "مسارب" أو "مـدقات" أحيانـا كان أحد أبنائها الأساتذة يوصلها بنفسه إلى دار الناعسة أو يكلف أحـد أحفادهـا بتوصـيلها وأحيانا كانت تأتي وحيدة، تدخل دار الناعسة وتجلس، ربما تطلب شايا أو فطورا، وسـرعان ما يحوطها البعض في جنبات الدار بغبطة فتبدو للجمع الملموم كما لو كانت تريد أن تقدم لها ولهم كل خزين الدار أو أكثر مما تطوله وتملكه، تدعوهم ويعتذر الـبعض، لكنـه فـي كـل الحالات يكون هناك زحام حول طبلية الناعسة التي ترمح هنا وهناك تحمل صحنا أو مسندا أو تفرش حصيرا آخر لتوسع الحيز المفروش في المندرة، وبينما الأفواه تمضغ تطـل الناعسـة وتبدي استعدادها لتنفيذ أية إشارة، تكون مشاغبات وذكريات ومناوشات بين الجميـع وسـت الدار تنظر إلى الكل بسماحة الوجه الطري الذي غزته التجاعيد بكثرة فأكسبته هيبة الجـدات، تصب الناعسة أكواب الشاي من البراد الكبير بعد أن ترفع الطبلية، يشربون ويسـتعيد كبـار السن منهم بعض الحكايات القديمة فتتذكر هي وتهز رأسها قبل أن تشارك بعقل واع وعينـين صاحيتين، ربما تزيد للحكاية أطرافا، ربما تصححها أو تعيد روايتها فيستمعون وقد ارتسـمت على الوجوه غبطة افتقدوها في أيامهم الأخيرة، ربما لأنها تكون دائما بارعة فـي اسـتدعاء الزمن القديم الذي عاشته مع الآباء والأجداد، وربما لأن وجودها نفسه كان يعنـي دعـوتهم لتأدية واجب تناساه البعض منهم نحو من سبقوهم في زحمة الأيام وخلف في الصدور نوعـا من الأسى، ما كان يحيرهم من أمرها هو إصرارها على الذهاب مشيا على الأقدام، وكثيرا ما كان البعض من كبار السن ينسلت أو يتعلل بشتى الحجج للانفلات من"طخ" المشـوار مشـيا حيث لا يليق أن يركب الواحد منهم وست الدار أمامهم تسعى على قدمين، كان البعض مـنهم يلتقي مصادفة مع أحد أبنائها أو أحفادها في البندر ويحدثه مبديا غضبته المسامحة سلفا بسبب رفضها الركوبة:

ـ جهزتلها الركوبة بنفسي يا أستاذ، حطيت عليها البردعة الجديدة، الشـمس كانـت قايدة نار والمشوار طويل، الترب محدوفة بعيد عن البلد زي ما أنت عـارف، ودي عضـمة كبيرة يا أستاذ، يرضيك ترجعني بالحمارة كدهه؟

ـ ح نعمل معاها إيه بس؟ ع العموم معلش، أنت تزعل نهار ما تركب ركوبـة حـد غيرك، إنما كدة يبقى الغلط مردود.

ما قلناش فيه غلط ولا حاجة، بس إحنا بنخاف عليها برضه، طيب تصـدق بإيـه إن خالي المرسي رجع من نص السكة، كان مخزي وهو راجع، ونهار الشتاء اللي كان مغـرق الدنيا أبويا إبراهيم وأبو حسين ما طلعوش الترب خالص.. ابقى هو معقول يعني حد مـنهم ح يروح راكب والست الكبيرة ماشية؟ النفر مش عارف يقول إيه؟

ـ معلش.. وكتر ألف خيرك.

على هذا النحو كانت مثل هذه اللقاءات تنتهي، مجرد شكايات هادئة وتهدئة خـواطر عاجزة عن الوعد بالوصول إلى حل، كان الأبناء والأحفاد يعرفون ويسمعون، وأحيانا كـانوا يتحاورون ويكتشفون أن ما تفعله ست الدار سوف يبقى ما بقيت هي قـادرة علـى الحركـة وبنفس الطريقة، كانت تعلن لهم قبل مواسم الزيارات التي تجهز نفسها للقيـام بهـا، تبعـث للناعسة تكاليف الرحمة قبلها بأيام، تحرص على تجهيز ثوب جديد أو مداس جديد، كأنها طفل يرتب ثياب العيد ويتعجل طلوع النهار، كانوا يتبادلون الابتسامات والتعقيبات المرحة، وأحيانا يتآمرون عليها تلك المؤامرات الصغيرة عندما تجد أمامها في وقت واحد أكثر من ثوب جديد وقميص جديد وغطاء رأس جديد.. مجموعة من اللفافات يقدمونا وهـم يتبـادلون النظـرات فتفضها وتتحير في أمرها قبل أن ترتبهم أكواما وتحدث نفسها:

ـ دول لطلعة رجب، ودول لنص شعبان، والشبشب ده مع الطرحة دي لوقفة العيد.

ـ نورتي بيتك يا خاله.

كانت الناعسة تقولها في كل لقاء، تتبادل معها قبلات الشوق وتحمل عنها ما قد يكون بين يديها محمولا، تفرد الحصير وتضع مسند الكنبة خلف ظهرها، تعمل على راحتها وتتأكـد من ذلك، يصبح دخول ست الدار عندها عيدا أو ما يشبه العيد، الوحيدة في الكفر التي كانـت تناديها "يا خالة"حتى من هم بالنسبة لها في مراكز أبناء وبنات الأخوات كانوا ينادونهـا مثـل الكل بأسماء أخرى (ست الستات ـ ست الكل ـ أم الأساتذة ـ أم الهوانم ـ الست الكبيرة ـ أو ست الدار) كانت علاقتها بالناعسة تختلف عن بقية أهل الكفر أقارب وأغـراب، كانـت الناعسة من نفس العائلة لكنها لم تكن ابنة أخ أو أخت، لم تكن حتى ابنة عـم العـم أو خـال الخال، لكنها من نفس الصنف، من أصلاب نفس الرجال جاءت وإن لم تفكر ست الدار يومـا أن تحدد درجة قرابتها معها، وجدتها ذات صباح أمام باب دارها، صبية جسورة النظرات إنما بأدب، لحظتها فكرت بينما تتأمل ملامح الناعسة (لا أم ولا أب ولا أخ ولا أخـت، بطولهـا وسط فروع العائلة متشابكة الأطراف) طلبت منها ست الدار أن تدخل فدخلت، طلبت منهـا البقاء فاستجابت، لم يحدث بينهما اتفاق على الاستمرار لكنها استمرت وعاشـت فـي الـدار

لسنوات لم تحسبها، كانت تعامل الناعسة في بعض الأحيان وكأنها واحدة من بناتها الكبار التي بكرت بهن قبل خلفة الصبيان، أحيانا كانت تقربها منها كما لو كانت أختها رغم فارق السـن بينهما، تبثها شكايات العمر الصغيرة والكبيرة باطمئنان من وجدت في عقل الناعسة وقلبها بئر الكتمان الغويط، كانت الناعسة دائما حولها ومعها ولها، تغسل وتطبخ وتطحن وتعجن وتخبـز دون تكليف، تحلب وتذبح وتبيع فائض المعاش دون أن تستشير أحدا ، في بعـض الأحيـان كانت تأمر وتنهي في طول الدار وعرضها وفي وجود ست الدار، حتى الرجل الكبيـر كـان يسألها هي عن المطلوب قبل أن يغادر الدار في طريقه للعمل في البندر، وعندما يعود كـان يناديها ويناولها المطلوب، قطعية لحم أو قمع سكر أو مقطع قماش لازم لكسوة العيال، كـان الرجل قد أدرك أن الناعسة حصلت على توكيل بالصمت من ست الدار لتتولى هي عمل كـل شيء، كانت ست الدار مشغولة بخلفة الصبيان وتربيتهم في تلك السـنوات، وكانـت تهمـس للناعسة في السر والعلن:

ـ أصل أنتي يا ناعسة وش خير.

ـ يجبر بخاطرك يا خاله.

تقولها وقد أطرقت في خجل أو أسبلت عينيها العسليتين برموشهما الطويلة فبدت مثل واحدة من بنات ست الدار، أيامها كان الكل يقول إن الناعسة دخلت الـدار وجلبـت السـعد لأهلها، كان الرجل الكبير ينعم بإحساسه بفرحة أنه صار أبا لخلفة من الصبيان بعد زمان طال وطال، ربما كان في الخمسين من عمره عندما وضعت له ست الدار أول مولود ذكر، وربما كانت بعض بناته من الحريم القدامى قد صرن في ذلك الوقت جدات، كانت أحواله قد تغيرت وجعل ينفرد بنفسه في الأركان يفكر، وست الدار ترقب فرحته التي كانت تبدو لها فـي تلـك الابتسامات الشاردة المذهولة، وعندما سألته ست الدار عن سر شروده وعزلته رد على نفسه بصوت هامس:

ـ العيال دي ح تكبر، ويلزمها علام، الخلق ما بترحمش، يبقى الحل إيه؟

ـ إيه في إيه؟

سألته فالتفت إليها وكأنما فوجئ بوجودها وسمح لها بأن تجلس أمامه وهي تحمل الولد الثالث على صدرها، مد يده ومسح على رأسه بحنو وسألها:

ـ يا ترى ح أعيش لحد ما يكبر ويعرف عدوه من حبيبه؟

ـ يديك طولة العمر.

ـ الولاد جايين بعد شوقة كبيرة يا ست الدار، وانتي لسة صغيرة ولا تعـرفيش، أنـا بقول نبني لنا دار في البندر ونعيش هناك، ما هو لازم ح يروحوا مدارس ونطلعهـم دكـاترة

ومهندسين، ح نربيهم أحسنها تربية، يبقى لازم نخفيهم عن عنين الخلق اللي مـا عنـدهاش، العين يا ست الدار فلق الحجر نصين، والحسد مذكور في القرآن.

يومها لم تملك أن تعلق على كلامه بشيء، كان قد انتفض واقفا وجعل يخـبط قمـاش جلبابه بيده اليمنى بينما اليسرى قد أمسكت طرفا حجرها ولفته ليظهر أمام عينيه وعينيها آثار جلسته على حجر الطاحونة الكبير من رماد وقش يتساقط من أثر خبطاته وخبطاتها، زحفـت قدماه في اتجاه باب الخروج وهي تتابعه حتى سكت المكان، تنهدت وقامت، دارت حول نفسها بالولد، هكذا اعتادت منه واعتاد منها، أن يقول وتسمع وربما لا ترد ويكون مجـرد سـماعها اشتراك في الفكرة وموافقة عليها تستوجب الاستعداد للتنفيذ، وربما لم يطل الوقت لأنه جاءها بعد أيام ليخبرها بأن الدار الجديدة التي بناها بجوار مدرسة البندر قد اكتملت تماما وأنه عليها أن تجهز نفسها والأولاد للانتقال للعيش فيها:

ـ ح ارتاح م المشوار كل يوم والثاني، وتبقى الناعسة تقضيكي من سوق الخميس.

ـ الدار اللي ف الكفر دي مش ح تتباع للشيخ فرج، والبنات الكبار ما يخدوش فيهـا كمان، لو انقسمت ما بينهم مش ح تبقى داري اللي أبويا كان بيرمح فيها بالحصان وأنا راكب قصاده، لكن الدار دي كمان لازم تفضل عمرانة، ما يسكنهاش الواغش، يبقى الحل إيه؟

ـ إيه ف إيه؟

نظر إليها وأكمل على طريقته:

ـ هي الناعسة دي مش مصيرها تتجوز؟

ـ مصيرها..

ـ خلاص.. نكتب لها الدار، وح نشرط عليها شرط، وحتى من غير شرط، ما هـو بعد ربنا ما يتولاني ح تزوريني يا ست الدار، تبقى تطلعي عليا من هناك، وإوعاكي يهل عيد ولا أشوفكيش، وإياك ـ موسم يعدي عليكي وتكسلي ما تروحيش.. أزعل خـالص، صـحيح مشوار الترب بعيد لكن ما فيش مهرب، النفر يندفن في تراب الكفر وسط عضم الجدود.

ـ يديك طولة العمر.

بذلك ردت عليه يومها وقد وقف على عادته ينفض مقعدة جلبابه من أثر جلسته علـى درجة السلم، وعندما خرج فكرت ثم كفت عن التفكير، وربما لا تذكر إن كان العمر قد امتـد به قليلا أم كثيرا، كل ما تذكره أن الناعسة تزوجت في وجوده ودخلت في نفـس الـدار، وأن الولدين التوأمين كانا يخطوان خطواتهما الأولى يوم حل أجل الرجل الكبيـر، وإنهـا عملـت بالوصية ولم تخلف موعدا، كانت تطلع لزيارته في كل المواسم، من داره التي سكنتها الناعسة كانت تخرج وإلى داره كانت تعود، والناعسة التي خلفت وزوجت خلفتها وصـارت بحسـب نداء الصبية والبنات جدة هي الناعسة التي رأتها ذات صباح أمام باب الدار ودعتها للـدخول

فلم تمانع هي نفس الناعسة، مفتوحة الصدر والقلب والمشاعر، تقابلها بنفس الحماس والحيوية، تحوطها بالحب وتهمس:

ـ نورتي بيتك يا خاله، اطلعي ارتاحي ف مقعدك يا ست الستات، وسط دارك زي ما هو نضيف يا خاله وخطوتك فيه بركة وخير.

تسبق خطوات الشيخ حسنين النعسان نحنحاته، يتهامسون بوصوله قبل أن يدخل الدار، تتساند هي على كتف صبي أو صبية وتلبس مداسها الذي تتطوع بتقريبه من قدميها أي يـد، يدخل الشيخ حسنين بنفس الطريقة التي كان يدخل بها عمه الشيخ خضر النعسـان، يبسـمل ويحوقل قبل أن يلتفت إليها ويهمس:

ـ تعيشي وتفتكري يا ست الكل.

ـ اسبقني يا شيخ حسنين.

ـ حاضر.

يقولها وقد ازداد اقترابا منها وجهز نفسه لاستقبال راحتها المضمومة علـى النقديـة تغمزه بها غمزا يتوقعه ويحسن التلقي، تندس يده في جيب صداره وهو يدمدم شاكرا:

ـ ولزومه إيه بس يا ست هانم، دا المرحوم كان يبقى خال أبويا لزم.

يقولها بزهو خاص وهو يستدير خارجا، ربما يلحظ البعض أنه عاود تحسس ما حطه في جيب صداره وهو على بعد خطوات من باب الدار، وربما يؤكد البعض للـبعض الآخـر همسا أن الشيخ حسنين عرف قيمة المبلغ فتنشط أو تتباطأ خطواته بحسب الحالة، لكنه في كل المرات كان يذهب.

تخرج ست الدار وخلفها الناعسة وبعض نساء العائلة وبناتها وربما بعض الكبار مـن رجالها الذين لا يرتاحون للمشي مع الشباب فارغ العقل أو الرجال الكسالى، تنظر هـي إلـى الحمير المربوطة في حديد النوافذ والأوتاد وجذوع شجر الكافور وتمصمص الشفاه عجبا ثـم تنظر إلى الوجوه لائمة وشاكرة في نفس الوقت وتهمس:

ـ وتاعبين روحكم ليه بس يا ولاد؟ دي كل خطوة بحسنة.

يدمدمون ويغمغمون ويحتجون لإصرارها على الذهاب مشيا في كل مرة بينمـا هـم مستسلمون، يتابع البعض خطواتها التي تقودهم من أقصر طريق في دروب الكفر إلى سـكة المدافن، من يراها طالعة يقول إنها تشتد ويقوى عزمها لدرجة أن الذين يشاركونها المشـوار يعجزون أحيانا عن مسايرتها أو اللحاق بها فيتابعونها عن قرب أو بعد حسب الطاقة والعزم، لكنهم في أغلب الحالات يتبادلون الحوار عنها:

ـ لأ ومتكحلة ومتحففة على سنجة عشرة.

ـ اللي يشوف وشها ولا يعرفهاش يقول حاطة أحمر وأبيض.

ـ وبتدب ع الأرض زي العون.

ـ أصل دي لحقت جوز الحمام بتلاتة أبيض ورطل السمن بقرش ونكلة، الخلق كانت عايشة بلاش.

ـ ما هي عايشة لحد النهاردة وبكره ف عز ما حدش شافه.

ـ البركة ف ولادها الأساتذة.

ـ وهو الراجل الكبير فايت لها شوية؟

ـ ح ينقطع نفسنا النهاردة.

ـ أرجع إن كنت عاوز ترجع وما تكسرش مقاديفنا.

على هذا النحو لا يكفون عن الرغي طوال الطريـق، ربمـا يتأكـد للـبعض مـنهم أنها"تسمع كل ما يقال ولا ترد" لقد اعتادوا منها طوال الطريق إلى المدافن ألا تـتكلم أو تـرد على سؤال، حتى عندما يقابلهم الشيخ حسنين النعسان عائدا ويقول لها بصوته الخشن:

ـ رحت وقريت واستغفرت ووزعت اللي فيه القسمة ع العيال والفقها.

لا ترد، ربما لا تكلف نفسها عناء الالتفات إليه فيمضي طريقه وهو يبرطم أو يتحاور مع من يلهثون في أثرها على عجل، وعندما تصل ست الدار إلى قبر الرجل ترفـع طـرف جلبابها الأسود إلى ما فوق المقعدة، يظهر جلبابها الملون الذي تجلس عليه وقـد كومـت مـا فاض من جلبابها الأسود في حجرها الملون، تحط كفها على الرخامة التي تحمل اسمه وتاريخ ميلاده ووفاته بالشهرين العربي والأفرنجي، تمسح هي براحتها المفرودة على سطح الرخامـة بحنو فينزاح ما قد يكون علق بها من رماد، يظهر الاسم جليا وواضحا، تخلع مداسها بيـدها اليسرى وتتركه ثم تتربع في جلستها وتحط دماغها على جدار القبر، الذين يتابعونها يسمعونها تهمس بكلام وتحكي حكايات، ودائما بصوتها المهموس الذي لا يسـمح لأحـد بسـماعه أو تفسيره، حتى في المرات التي كانوا يحيطونها من كل جانب ويتصنتون لم يتمكنوا من سـماع عبارة كاملة أو لملمة معنى محدد يمكن أن يصير محورا لحديث بيـنهم بعـد ذلـك، كانـت زياراتها إليه تطول فيتباعدون رجالا وحريما كل إلى قبر أب أو أم أو أخ أو أخت أو زوج أو عزيز لديه مات، يتناثرون نقاطا على أبواب القبور ويترحمون، وربما يبكي البعض منهم قبل أن يعود مع من عادوا يحومون حولها من بعيد أو قريب فيجدونها على نفس الحال التي كانت عليه، يختارون ركنا غير قريب منها وينتظرون حتى لا يقطعوا عليها الزيارة، تظل مكانهـا ولا يبدو عليها أنها شعرت بهم وقت الذهاب أو العودة، مسنودة برأسها المعصوب على جدار القبر تحكي وأناملها تربت على أجزاء اللافتة الرخامية برقة ولطف، كأنها يد أم مدربة حنون تتحرك على بدن طفل لها يغط في نوم هانئ عميق، ناعمة وهادئة تنهي طقوس الزيارة قبـل

أن تتلفت حولها يمينا ثم يسارا كما لو كانت في صلاة وسلمت على الملائكة مودعة، لحظتها يتوقعون النداء المألوف:

ـ يا ولاد.

يسعون ناحيتها بخفة فتتساند على أقرب من تطوله يديها وهي تقف، تلبس مداسها وتنفض جلبابها الملون وينسدل ثوبها الأسود عليه، تخطو على مهل بعد أن تلقي على باب القبر نظرة مودعة، يتحركون أمامها وحولها ويسود صمت لا يسمع خلاله غير دبيب الأقدام الزاحفة وهي تخرج من دائرة المدافن إلى الطريق الترابي، ربما عند ساقية سيد ابن" المغدور" أو سبيل شريفة بنت "الخفيفة" تجرؤ واحدة أو واحد على طرح أول سؤال تتلوه أسئلة:

ـ كنتي بتقوليله إيه يا ست الستات؟

ـ أهو كلام.. اللي ف القلب.

ـ هو يسمع يا ست الكل؟

ـ بيسمع ويرد كمان..

ـ وهي أنتي لا سمح الله ناقصك حاجة؟

ـ اللي ناقصني بحكيله عليه.

ـ بس إحنا بنسمعك بتتكلمي ولا حدش بيعرف يفسر كلامك، هو أنتي بتقوليله إيه؟

ـ حاجات بيني وبينه.

ـ لحد دلوقت؟ بقى فيه حاجات بينك وبينه لحد دلوقت؟

يزدادون جرأة وهي تجاريهم بسماحة فتتنوع أسئلتهم وأجوبتها ولا يشعرون بطول الطريق حتى يصلوا إلى دار الناعسة وتجلس محاطة بهم، يتحدثون عن بعض ما سمعوه وكان بينها وبينه فتستعيد هي الزمان والأحداث وتحكي بحيوية وصحو وهم يتسمعون في شغف ودهشة، وربما يعلق بعض كبار السن منهم كاشفا للباقين كيف أن الزمان اختلف، لا تمل هي الحديث عنه ولا يشبعون، ودائما كانت تحكي لهم حكاية أو حكايات حصلت بينها وبينه في الزمن القديم تستدعي ضحكاتهم فيضحكون حتى تدمع بعض العيون من كثرة الضحكات، ربما يشعر الكثيرون منهم بنشوة غامضة رغم المشوار الطويل والتعب، وربما تتمدد هي بطولها فوق الحصير فينسلتون واحدا أثر الآخر من المكان ويتركونها ساعة القيلولة لترتاح، وربما يتواعدون على قضاء السهرة في دار الناعسة حول ست الدار وحكاياتها التي لا تنتهي عن الرجل الكبير وزمانه الخصيب الذي يعشقون استعادته حنينا يرضيها رغم أنه راح وانقضى وخلف الجديد.

إبداع ـ مايو 1989

الحنان الصيفي

إهداء

* ----------

لمصر المستقبل.. والناس

وإلى روح أبي

معلمي وصاحبي وملهمي،

كان يبادلني الأبوة والبنوة،

وبرحيله اكتملت دائرة يتمي.

أحمد الشيخ

الحنان الصيفي

* ----------

حدثني عن غربته في تلك البلاد، وتشكى من ضياع السنوات بعيدا عن أرض الوطن. أبدى ندمه على ما فات، فواسيته ببضع عبارات عن أهمية التجربة في حياة الإنسان، وإمكانية الإفادة من خبرة الابتعاد، هز رأسه مبديا عدم اقتناعه، ثم جذبني من كـوعي، وأشـار بيـده الخالية إلى شارع جانبي وهو يقول:

ـ سيارتي مركونة هناك عند أول الشارع الثاني من الناحية الأخرى.

سرت معه، وبادلته عبارات الاشتياق، وفرحة اللقاء، عدد لي ما بدا على ملامحي من تغيرات بفعل الزمان، فأفهمته أن سبع سنوات من الابتعاد كفيلة بصنع المعجزات، أوضح لي أنه كان يفكر في كل صيف أن يأتي للزيارة، لكنه كان يتراجع في اللحظة الأخيـرة، بسـبب بعض الحسابات التي كان يجريها مع نفسه، انحرف ناحية اليمين وتباطأ، تلفت حواليه، وعاد يسعى في تعجل ولهفة، وقف عند مفترق طرق، ثم تراجع بضع خطوات، وواجهني، وقبل أن أستفسر منه عن أي الأشياء يبحث قال وقد شحبت سحنته:

ـ السيارة يا أخي، السيارة، ركنتها في هذه المنطقة منذ نصف سـاعة فقـط، هـل سرقوها بهذه البساطة، أربعون ألفا، أولاد الكلاب، لابد أنهم كانوا يراقبونني، وينتظرن نزولي منها، مجرد نزولي منها.

قلت في محاولة لطمأنته:

ـ ربما تكون قد ركنتها في مكان آخر، نبحث في هدوء. حـاول أن تتـذكر جيـدا تفاصيل المكان.

ضيق حدقتيه ومط بوزه امتعاضا، ثم تحرك من مكانه إلى الأمام أولا، ثم إلى الخلف، زفر في ضيق وهلع ثم دمدم:

ـ بلاد خطافين، الناس هنا خطافين.

استدار حول نفسه، ثم اتجه ناحية مفترق الطريق التالي، خطا في لهفة بضع خطوات، ثم قفز في الهواء، وصرخ في فرحة غامرة:

ـ ها هي، ياه، لقد احترق دمي، كنت قد فقدت الأمل في العثور عليها تماما.

شاركته فرحة العثور على سيارته حديثة الطراز، ثم قلت تعليقا على ما جرى:

ـ قلت لك إنك ركنتها في مكان آخر، ثم إن المال الحلال لا يضيع كما تعرف.

قاطعني بحدة وانفعال شديدين قبل أن يدير المفتاح في ثقب بابها الأيسر:

ـ أبدا أبدا.. أنا متأكد أنني كنت قد ركنتها في الشارع الآخر هناك، أقول لك بمنتهى الوعي، أنني كنت قد تركتها في الشارع الموازي، حيث وقفت أول مرة.

أحسست أن حماسه لفكرته أكبر من طاقتي على مجادلته فلم أعلق بشيء، جلس هـو إلى مقعد القيادة، ثم انحنى بجسده وفتح الباب الآخر ناحيتي، وأشار إلى امتداد المقعـد عـن يمينه، وبدا كما لو كان يلتقط أنفاسه بعسر بعد مشوار طويل، جلست في صمت بعد أن أغلقت الباب، تأكد هو من باب السيارة مرات متتابعة مخافة أن أكون لم أحكم قفله، ثم سك تربـاس الأمان، حط مفتاح التشغيل مكانه، وأدار المحرك، استند برأسه على عجلـة القيـادة وأناملـه تتحسس جزئياتها في نعومة وحنو، حدثني وهو في نفس الوضع عن أهمية تسخين المحـرك قبل تحريك السيارة من مكانها، وأوصاني بالاسترخاء للحظات، استندت برأسي إلـى الخلـف وجعلت أستشعر هزهزات السيارة في تكاسل، وعندما مستني نسمة رطبة أدركت أنه حركهـا من مكانها في بطء وحذر.

حدثني عن سرقة السيارات التي سمع قبل عودته أنها أصبحت ظاهرة خطيرة لا يحس بها، أو يعترف بنظاعتها غير أصحاب السيارات، نظرت نحوه فوجدته مشغولا عني بمتابعـة امرأة تعبر في حذر.

ـ نجلس في مكان مفتوح، فندق يطل على النيل مثلا، سمعت أنهم أنشأوا مجموعة لا بأس بها من فنادق الدرجة الأولى، فكن دليلي، لأنني أصبحت مثل الغرباء عن هذه المدينـة، هيه، إلى أين أتجه؟

اعتذرت بجهلي وعدم درايتي بهذه الأماكن جيدا لأكون دليله، قلت له أن كل الأماكن تتساوى عندي، فضحك، وأفهمني أن الفنادق درجات، وأن الموقع الممتاز، ومستوى الطلبـات الأفضل، ورقي التعامل مع الرواد، هي الفيصل الذي يميز مكانا عن سواه، لم أعترض علـى معلوماته، فابتسم في ثقة، وساد بيننا صمت، كان يقود فيه سيارته على مهل.

أخرجت علبة اللفافات ومددتها نحوه ليأخذ واحدة، نظر إليها واعتذر بأنـه لا يغيـر، أشعلت لفافة، ووضعت العلبة في جيبي، عاود هو الحديث عن الأشواق التي كان يكنهـا لـي طوال السنوات الفائتة، فبادلته عبارات رقيقة عن افتقاده، وقبل أن أعاتبه على عدم مراسـلتي منذ البداية ليعرفني عنوانه، وأكاتبه، أوقف السيارة قريبا من مدخل فندق يحيطه النيل من كل الجهات، إلا من الواجهة التي يدخل منها الرواد، نزل فنزلت، أحكم هـو إغـلاق السـيارة، وسبقني إلى الداخل.

انتحى ركنا خافت الإضاءة وجلس، أشار إلى الساقي فجاء، أمره بعشاء لفرد واحـد، وطالبه بأن يسألني أي المشروبات أختار، طلبت شايا، فانسحب الساقي في أدب جم، بعـد أن سجل الطلبات في دفتر القسائم.

ـ لو كنت ترغب في وجبة عشاء فيمكنك أن تطلب، لقد شعرت بالجوع فجأة.

قالها في حياد دون أن ينظر نحوي، شكرته على عرضه وأفهمته أنني على العكـس منه تماما أشعر بالامتلاء. ظل يتابع حركة الرواد والسقاة، ويبتسم لي، فأبتسـم دون حـوار منطوق.

عندما جاء الساقي بوجبته وبراد الشاي انهمك هو في التهام الوجبة في نهم وتعجـل، كنت أرشف الشاي على مهل، وأرقب سطح النهر الساكن، وقد انعكسـت عليـه الأضـواء الملونة، أشار هو إلى الساقي ليحمل الأطباق الفارغة، أمره بمشروب مثلج، وزجاجة بيـرة، مسح شفتيه بظهر كفه، وحركهما في شبع. سألني هذه المرة إن كنت أرغب فـي مشـاركته شراب البيرة قبل انصراف الساقي ليطلب لي واحدة، فاعتذرت بآلام المعـدة، أخـرج علبـة اللفافات الخاصة به وفتحها، ثم مد يده نحوي بها، وقال في وقاحة بدت لي متعمدة:

ـ خذ سيجارة أجنبي نظف بها صدرك.

أزحت يده بعيدا عني في عنف أسقط علبة اللفافات أرضـا. انحنـى علـى الأرض وأخذها بينما النظرات تتجه نحونا من كل الأركان، نظرت نحوه وقلت في غضب، ناسيا كـل ما كنت أحمله تجاهه من ود:

ـ من علمك " الجليطة " لتتعامل معي بكل هذا السخف؟

همس في صوت خافت:

ـ آسف، لم أكن أقصد الإساءة إليك، كنت أمزح يا أخي، أنـت صـديق أعتـز بـه وأحترمه، ومن حقي أن أداعبك مرة بطريقتي. لقد عدت من غربتي الطويلة حالمـا بجلسـة هانئة مع صديق مثلك في هذا المكان، أرجوك، أرجوك لا تفسد حلمي بتفسيرات لم ترد على خاطري، إن همومي أكبر من أن نتخاصم بسبب عبارة خانني فيها التعبير، بينما لم نتحـاور بعد.

زفرت في ضيق ربما لأنني انفعلت أكثر مما ينبغي، وربما لأنه جعلني أشعر بالأسى من أجله، أومأت مهونا عليه وعلى نفسي ما حدث، واعتذرت عن عصبيتي، صب هـو فـي كوبه شراب البيرة وحطه أمامي، ثم أفرغ كوب ماء في البراد الخالي، وصب في الكوب مـا تبقى من زجاجة البيرة وأصر على أن أشاركه الشراب، التمست منه إعفائي بسبب ما كنـت أشعر به في تلك اللحظات من آلام مباغتة في معدتي، بدا أنه اطمأن أكثر فهون علي الأمـر، وألح علي أن أشاركه، قائلا أنه يحمل معه حبوبا أتى بها معه لعلاج آثـار الشـرب لـذوي الأمعاء الموجوعة، وأكد لي أنه يعاني من نفس الآلام، ولما فشلت في إقناعه بأن رفضـي لا يعني استمراري في الغضب منه، هونت الأمر على نفسي، وشـاركته الشـراب، فانفرجـت أساريره، وأبدى فرحته بلقائي بعد طول البعاد.

أسرعت للقائه قبل الموعد الذي حدده بنصف ساعة، عندما وصلت المكان أدهشني أنه كان جالسا ينتظر، كان في ضيق وقلق، همس بصوت مشروخ:

ـ اطلب لي شايا..

كانت المائدة المستطيلة خالية تماما، طلبت شايا وقهـوة، وجعلـت أتأمـل ملامحـه المخطوفة التعسة، كنت أتوقع أن يفاتحني في مسألة طارئة، أو حدث مفـاجئ تعـرض لـه، وسبب له كل هذا الكدر لكنه لم يفعل، حدثته بعد طول صمت عن حرارة الجو التي لا تحتمل، وعن نسبة الرطوبة التي تزايدت على نحو مفاجئ بالنسبة لمثل هذه الأيام من السنوات الفائتة، وافقني باندهاش دون أن يعلق بكلام محدد، اقترح علي القيام ومحاسبة الساقي عن الطلبـات، همس في تبسط:

ـ طلبت قبل مجيئك زجاجة بيرة وطبق مكرونة.

حاسبت الساقي، وخرجت في أثره، مشى بضع خطوات. ثم تلعثم قبل أن يسألني:

ـ هل معك نقود؟

ـ معي.

ـ هات خمسة جنيهات.

أعطيته خمسة جنيهات فحطها في جيبه، ثم استدار عكس الاتجاه الذي كان يسير فيـه قبلا، أوضح لي:

ـ سيارتي مركونة هناك.

لم أعلق بشيء، عندما وصل إلى باب السيارة فتحه وركب، أدار المحرك، ثـم فـتح الباب الآخر في تكاسل، وأشار إلي بآلية أن اركب، لم يتح لي فرصة إغلاق الباب بنفسي، بل تولى هو ذلك في حرص شديد، ثم سك ترباس الأمان، بعد أن تأكد مرات من إحكام إغـلاق الباب، حط دماغه على عجلة القيادة في وضع استرخاء، حدثني وهو في نفس الوضـع عـن خطورة إغلاق أبواب السيارات حديثة الطراز بأيد غير مدربة مما يؤدي إلى فسادها، أضاف أن اليد الخبيرة تستعمل الأشياء بحرص يطيل أعمارها، ولا يعرضها كثيرا للتلـف، فأبـديت موافقتي على فكرته.

رفع رأسه وتحرك بالسيارة في اتجاه النهر، حدثني ـ بينما يقود ـ عن الصعوبة التي يلقاها كلما بحث عن مكان خال يركن فيه سيارته، أبدى استياءه من أن شوارع المدينـة قـد تحولت على نحو مفاجئ إلى.. جراج يكتظ بكل أنواع المركبات، أبدى سخطه الشـديد علـى أصحاب السيارات لأنهم يزاحمونه في الطرقات، وأكثرهم لا يعرفون أصـول القيـادة وآداب المرور، أوقف السيارة تحت شجرة على رصيف الكورنيش ولم ينزل. همس في مرارة:

ـ كنت قد احتملت اغترابي طوال تلك السنوات كي أشعر بالراحة بعد المجيء، خاب رجائي، تصور، اشتري شقة تمليك، وأدفع فيها دم قلبي، وأكتشف أن جيراني سباك، وترزي قمصان، وصاحب كشك سجاير، تصور، كيف دفع أمثال هؤلاء النـاس ثمـن الشـقق التـي حصلوا عليها، بينما لم يخرج أيهم من البلد؟ إنني في حيرة.

هونت عليه الأمر، وأفهمته أن مشاكله يمكن أن تنحل ببعض الصبر، فنظر إلي فـي عداء وسألني:

ـ لا بد أنك مرتاح، أين تسكن؟

ـ نفس المكان الذي كنت أسكنه أيام الدراسة، لا بد أنك تذكره.

ـ طبعا طبعا، كم من ليال قضيناها سويا هناك. كانت أيام، ياه كان فقرا لذيذا، والقلب خال من الهموم.

حط دماغه من جديد على عجلة القيادة في وضع استرخاء، وحدثني وهو فـي نفـس الوضع عن الأموال الكثيرة التي عاد بها، والتي لا يشعر بطعمها، أكد لـي أن قيمـة المـال الحقيقية لا تحسب بقوته الشرائية، وإنما بمقدار السعادة التي يخلفها بعد إنفاقه، لم أجادله، قال أنه اشترى كل الكماليات التي خطرت على خياله، وتلك التي لم تخطر، لكنه لم يشعر بالمتعة أو الأمان، عاود التأكيد أنه لن يخرج من البلد مرة أخرى، مهما كانت المغريـات، وعـدني بزيارة لشقته لأرى بنفسي كيف أبدع مهندس الديكور في تجهيزها، قال إنـه جهـز إحـدى حجراتها بعازل صوت، لا يسمح بدخول أو خروج صوت منها، أو إليها، قال إنه وضع فيهـا مكتبة نادرة، وجهاز "فيديو"، ومجموعة من الأفلام من كل شكل ولـون، شـكرته لعرضـه، وتمنيت له المزيد.

في منتصف الليلة التالية زارني في شقتي، أبدي امتعاضه من سوء تهويـة المكـان، وتشكى من قذارة الحارة، قال إنه ركن السيارة في الشارع الرئيسي عند سور الجامعة، وأنـه يفضل الخروج معي لنشم الهواء النقي في مصر الجديدة، وافقته، وخرجت معه، ووصلنا إلى السيارة، لم أحاول فتح بابها أو إغلاقه، عملا بنصيحته السابقة، سار منتشيا على غير عادتـه في أماكن لم أرتدها قبلا، ركن في شارع ساكن، وبدأ يستعيد ذكرياته القديمة معـي وبعـض الزملاء، ضحكنا، حدثني عن عرض جديد تلقاه للسفر، أبدى قناعته بفكرة مؤداها أن التضحية ببضع سنوات من الاغتراب في سبيل تأمين المستقبل أفضل من البقاء وعدم التحقيق، اندهشت من حماسه في كل مرة للدفاع عن فكرته التي تختلف عن سابقتها في الموضوع الواحد، قلـت له: إنه حر في اختياره، فانتقد أولئك الناس الساكنين القاعدين، رغم أحوالهم السـيئة، تحـدث عن شقتي الضيقة، وعالمي المحدود، فدافعت عن نفسي بأنه اختيار محسوب، ولا يحق له أن يعايرني بسببه، زفر في ضيق ونظر إلي، ثم قال في حدة:

ـ كلام فارغ، لقد رجعت متوهما أنني سوف أرتاح فماذا وجدت؟ هل تعـرف مـاذا وجدت، وجدت أمي المريضة في حاجة إلى عملية جراحية في القلب، أخوتي كانوا هنا ولـم يفكر أي منهم في علاجها، كانوا ينتظرونني بمشاكلهم، أحدهم طلب مني بغير مواربة سـلفة يصلح بها أحواله، الآخر طالبني بمشاركته في مشروع لا أعرف تفاصيله، أما أختي الأرملـة فقد طالبتني بمساعدتها في تربية أولادها، هل أدوخ وأغترب طوال تلك السنوات، ثـم أعـود لأغرق في مشاكلهم التي لا تنتهي؟ حرام هذا أم حلال؟ تكلم، إن أكره ما أكرهه هو الاستغلال والابتزاز، والتذاكي في سلب الآخرين حصيلة جهدهم، وشقاء أعمارهم.

هونت عليه الأمر قدر استطاعتي، فسألني إن كنت أعـرف مـن يشـتري سـيارته، وأضاف أنه على استعداد لإعطائي عمولة مناسبة، أبديت استيائي من فكرته عنـي، وأفهمتـه أنني لست سمسارا لآخذ منه عمولة، مقابل خدمة أؤديها فاتهمني بضـيق الأفـق، واتهمتـه بالتخلف العقلي، ففتح باب سيارته بجواري، وجعلني أنزل ملفوظا في مكان لا أعرفه، وانطلق مبتعدا عني قبل تسخين المحرك، كما كان يفعل قبلا، وقطرات العـرق تنـز علـى جبهتـي وعنقي، وتشعرني ببرودة الجو.

في صيف العام التالي التقينا صدفة، كنت أجلس على المقهى الذي اعتدنا الجلوس فيه وسط لمة الأصحاب القدامى، نزل هو من سيارة أخرى غير تلك التي كان يملكها فـي العـام الماضي، اتجه نحوي وسلم في حماس، وبادلني القبلات المشتاقة، همس في أذني بينما كـان يشرب الشاي الذي طلبته بأن لديه كلاما خاصا يود لو أقوم معه لأسـمعه، وافقتـه، وقمـت معتذرا لأصحابي، وركبنا سيارته دون أن تمتد يدي إلى بابها، قال: إنه شـبع مـن سـنوات الغربة، وأنه لم يعد في حاجة إلى شيء يضحي من أجله باغتراب جديـد، أبـديت مـوافقتي لفكرته، وشاركته الرأي في ضرورة البقاء في نهاية الأمر، لكنه عندما توقـف قريبـا مـن الشارع المؤدي إلى مسكني، وفتح باب السيارة بيده لأنزل، لفحتني نسمة هواء، فخطرت لـي ـ بينما يغلق الباب في حذر وينطلق مبتعدا ـ فكرة مؤداها أنه سوف يرجع إلى هناك مـرة أخرى، وقلت لنفسي بينما أعبر قضيب القطار أنها حماسة صيف زائفة سرعان مـا تـزول بانتهاء موسم الأجازات.

الشملولة

---------- *

كانت تهرس وسط الدار مرواحا ومجيئا حين تأتي، لا أعرف من فتح لها الباب والكل نيام، كنت أشعر بأنفاسها تتردد وأنا بين النوم واليقظة فلا أصدق، أقاوم فرحتـي بوصـولها وأتمطى، لكنني أحس حركة أمي وهي تنزاح من تحت الغطاء منسلة في حذر فيتأكد لي أنهـا جاءت، أتابع الضوء المتباعد للمصباح وهو يخرج من " المندرة " وأسمع همسـاتها الخافتـة مغلفة الصوت وهي تحادث أمي فأبعد الغطاء عني وأقوم لأراها بعودهـا القصـير الممتلـئ ووجهها المستدير الحازم، أتبعهما في صمت، أراها وهي تدس يمينها إلى ما فوق الكوع فـي حلوق "الزلع"، تذوق بطرف لسانها طعم المش وتشير لأمي لتصب لهـا المـاء مـن إبريـق النحاس فتغسل ساعدها وتجففه دائما في ذيل جلباب أمي الذي تقدمه إليها في حمـاس وهـي تقترب منها أكثر وتثبت في مكانها، بعدها تنظر في "براني" السمن، تتشممها ثم تحكم وضـع أغطيتها الفخارية على حلوقها وتعيد ربطها بحذق، تلقي بنظرة خاطفة علـى مخـزون الأرز وتميل بطرف عينها نحو كوم البطاطس في ركن الخزانة تقيسه، تهز رأسها وتخرج من باب الخزانة، تدخل ونحن في أثرها إلى قاعة الطيور، توارب الباب بحرص بمـا يسـمح لبـدنها بالدخول ولا يسمح لطائر بالخروج إلى وسط الدار في تلك الساعة البدرية التي تسبق طلـوع الفجر بساعة، تهمس لنا وهي في الداخل تأمرنا بالتمهل عند الدخول، أحمل عن أمي المصباح حتى تدخل وتتناوله مني وأتزلق بسرعة لأسمع صوصوة الكتاكيت وهديل الحمام وفحيح ذكر البط الواقف بجانب البطة الراقدة على البيض خائفا ويخوف، أتحاشى عضـات ذكـر الأوز العجوز، أتابع مع أمي حركاتها السريعة الواثقة وهي تتحسس "بناني" الحمام لتطمـئن علـى الزغاليل، وهي تزيح في خفة الدجاجات والأوزات الراقدة على البيض، اقترب منها بالمصباح فتوسط بإصبعيها البيض واحدة في أثر أخرى بين عينيها وضوء المصباح، " تفره " وتعيـده إلى مكانه في دربه، ترج بعض البيضات في حذر وتتسمع منها أصواتا قبل أن تعيـدها إلـى مكانها أو تبعدها ثم تدفع الطائر لاحتضان البيض قبل أن يبرد، تشير إلـي فـأخرج وأعـود مسرعة إلى القاعة وقد حملت حزمة برسيم من الحمل المحطوط على دكة النورج في وسـط الدار، تبعثرها حول جحور الأرانب وتنتظر حتى تطل في حذر قبل أن تخرج بحرص أولا ثم

باطمئنان وكثرة، تنفرش أركان القاعة بالأرانب الكبيرة والمتوسطة والصـغيرة والأصـغر، تمسك هي أرنبا كبيرا أو أرنبة وتحك بطرف إبهامها الشعر حول الأنف والبوز وتنظر إلى ما قد يعلق بطرف إصبعها من قشر أبيض دقيق من أثر الحك، تترك الأرنب وتتجه نحو البـاب وتخرج في خفة فلا يفلح طائر في النفاذ إلى الخارج، نتبعها وربما يفلت أرنب أو كتكوت من بين قدماي أو جلباب أمي، تحكم هي إغلاق باب القاعة وتطلع السلم الخشـبي إلـى سـطح المقاعد وتمد يدها في " زالوع " القمح تطمئن على حجم المخزون، تخرج براحتها وفيها حفنة منه تتفحصها بنظرة متأنية ثم تعيدها، تقيس ببصة عابرة كوم كيزان الذرة والمحطوط جنـب جدار الغباشي شلبي، تقشر كوزين أو ثلاثة من أغلفتها وتلف كل واحد منها أمام عينيها وكأنها تقرأ في كتاب ثم تلقي بالكيزان إلى وسط الدار تتقدمنا نازلة على السلم، أنظر إلى وجه أمـي فأحس قلقها وأسمعها تتودد إليها وتحذرها من الدرجة الأخيرة وذلك المسمار البارز بها مخافة أن يقطع طرف طرحتها أو ثوبها، لا يبدو على العمة أي اهتمام بتحذير أمي وتنزل في هدوء وثقة، تتشاغل عنا بلملمة بعض الأشياء أو تأمل الجدران حتى تتأكد من نزولنا فتتحرك مـن مكانها وأمي تؤكد لها أن الدار زارها نبي وأن بركاتها سوف تحل بنا وربما تعتذر لأننا نكلفها الجهد والمشقة فتهز رأسها وتفتح باب " الزريبة "، تتحسس في تؤدة ظهور العجول " اللباني " وعجول التسمين وربما تجس جاموسة أو بقرة لتطمئن على " البذرة "، أسرع نحوها بالإبريق أصب ماءه لتغسل ساعدها الملوث وأمي تعتذر لها في حماس وربما تتولى هي عني الإبريق وتصب لها ثم تناولها طرف ثوبها لتجفف يدها ثم تهمس:

ـ يا دي الكسوف يا عمه، وبتعوصي إيدك اللي تتلف في حرير؟

ـ دا معاش أخويا يا هبلة، ح اتعب لمين غيره؟

يشجع أمي ردها غير العصبي وتسألها في لهفة:

ـ حلوة البهايم يا عمه؟

لا ترد عليها وتمشي في طول صحن الدار وعرضه، تعدل طاجنا مقلوبـا أو تحـط طوبة مرمية جنب جدار، تلملم كناسة الحطب بمداسها في ركن وتأمرني بحملها أمام الفـرن، تلم كيزان الذرة التي ألقت بها قبلا وتقوم بتفريطها في آلية وترمي الحبوب في الأركان، وقبل أن تخرج من الباب الأوسط إلى حوشي الدار البرانية تسرع أمي بفرش فروة الخروف الكبيرة فوق الحصير المفروش، تعدل المسند خلف ظهرها لترتاح في قعدتها بينما تتكوم أمـي فـي استكانة تنتظر عند طرف الحصير، تأخذني هي إلى جوارها وتربت على ظهري في حنـو، يتزايد القلق على وجه أمي، تعض هي شفتها السفلى على عادتها كلما أرادت أن تتكلم في أمر لا تقبل فيه معارضة:

ـ دكر الوز خاب، اذبحوه وأطلقوا دكرين من البطن البدرية.

ـ يندبح يا عمه.. حاضر.

ـ الأرانب ح يصيبها الجرب، ارموا نقلتين رطش في القاعة وهاتوا لهم قـزازة دوا من عند المرسي العطار.

ـ نجيب يا عمه.. حاضر.

ـ البطاطس تتبدر يا مريم لأجل ما يطولهاش السوس.

ـ نبدرها يا عمه.. حاضر.

ـ والعجول دي تنصحوا لهم، أنتو ح تربوهم ع التبن؟

ـ بنرش لهم يا عمه.. فول و رده و..

ـ الكلام ده ما ينفعش يا بت، أنا قلت انصحوا لهم وخلاص.

ـ ننصح يا عمه.. حاضر.

ـ زلعة الجبنة الكبيرة ملحها ناقص ليه؟ ما تعرفيش تدوبي حفانين ملح رشيدي فـي طاجنين لبن رايب وتزوديها؟ اللي تنقصيه منها حطيه في الزلعة أم ودن واحدة، ناقصها مش.

ـ حاضر يا عمه حاضر.. نعمل كدة.

ـ وسط الدار مش نضيف يا بت، يجيب الواغش، بناتك بيعملوا إيه طول النهار؟

ـ أنا بغاب وياهم يا عمه حاضر.

ـ معاشكم ح يخيب.

ـ البركة ح تحط يا عمه، سامعه يا شوق عمتك بتقول إيه؟

تقولها وهي تنظر نحوي وكأنما تخفف عن نفسها ثقل المسئولية وحدها فتحيط عمتـي بذراعها أكتافي وتقول وكأنما تدافع عني:

ـ ودي مالها يا مريم؟ شوفي الثلاثة اللي راقدين جوه راقدين لدلوقت ليه؟

تقول العبارة الأخيرة وتعدل شعر رأسي، أحس بالفرح لأنني أرضيتها بالصحو المبكر وأحزن من أجل أمي التي تعجز عن المجادلة وتحط رأسها في الأرض وكأنها تلميذة غلطانـة حطت وجهها في الحائط كما أمرها الأستاذ، يقصر الوقت أو يطول بحسب ما تـراه العمـة مناسبا لتتأكد من دوام ولاء أمي وخضوعها للأوامر، بعدها يجري الحوار بينهما مألوفا وربما يكون ودودا.

كان يقفل دكانه مبكرا ويعود على غير عادته، يحمل اللفافـات والأكيـاس الورقيـة فتتناولها أمي في زهو، يطلب منها أن تجهز لنا " لقمة " فتجيب " بالحاضر " وتغطـس مـع البنات في وسط الدار، يجلس هو إلى جوار العمة ويرحب بها في حماس، يسـألها إن كانـت راضية عن الدار فتجيبه دائما:

ـ ربنا يخليك لهم يا عبد الستار ويخللي دارك مستورة قصاد العدو والحبيب.

ـ ما هو البركة فيكي يا فطوم، البنات رزقهم واسع.

يحادثها وتحادثه في ألفة، يتبادلان أخبار الناس ويعلقان على ما يكون قد جـرى فـي الكفر من أحداث، يحكي عن الدكان وما يكون قد أضافه من أصناف جديدة فيه وتلك التي كف عن بيعها، تنحط الطبلية وفوقها صينية العشاء الكبيرة، يضع أمامها صينية " الزفر " ويهمـس في تبسط:

ـ فرقي على العيال يا فطوم.

تمد هي يدها وتبدأ في التقطيع، تبدأ به والبنات ثم تضع نصيب أمي وتقول عبارتهـا المألوفة للجميع:

ـ اللي منابه صغير يقول

لا يقول أينا شيئا عن نصيبه، هكذا اعتدنا ربما لأن الأيام التي تأتي فيهـا وتشـاركنا وجبة العشاء يكون النصيب فيها مضاعفا ونادرا ما كانت الواحدة منا تقدر على إكماله، ينتهي العشاء وتقدم أمي محتويات الأكياس التي جاء بها أبي من الدكان، أكثر ما كنا نحبه أن نتحلق حول "راكية" النار ونشوي "أبا الفرو" نسمع طقطقاته التي نفهم منها أن قشرته انفتحت وأصبح من السهل الخلاص منها، وتلك الحلوى المشكلة على هيئة أقراص وأصابع مخلوطة بالحمص والسوداني والسمسم والملبن المحشو، كنا نشبع في تلك الأمسيات أكثر من الأمسيات الأخرى، ما كان يجعل للطعام طعما مميزا هو تلك الحكايات التي كانت هي تحكيها والتـي لا نسـمع بمثلها أبدا، كانت تحكي عن جد من أجدادها اسمه "الملك الشلبي" وتقول إنه حكم الدنيا أربعين عاما أو يزيد وأنه كان يرسل في كل ركن من أركانها أميرا من نسله يحكم بالعـدل ويعاقـب الظالمين، تقول إن نسله كان كثيرا إلى درجة أنه لم يعرف له عددا، وأنه كـان نسـل مـن الرجال فقط، ذلك أن الملك الشلبي لم ينجب بنتا واحدة على امتداد عمره ولذلك كـان يشـعر بالحزن أحيانا ويبكي، بل إنه كان يقول لأكبر أبنائه أن الدنيا ظلمته لأنه لم يحقق مرامه منهـا بخلفة من البنات، وتقول أن ابنه الأكبر كان يواسيه ويؤكد له أن أبناءه يخلفون البنات والبنين وبنات أبنائه مثل بناته فكان الملك الشلبي يغضب منه ويقول أن البنات جـذور فـي الأرض صعب اقتلاعها وأن الأولاد فروع مهما قويت سهلة التكسير، البنت أم وماعون والولد ريـح طيار صعب الاحتفاظ به، كنا نفرح بالحكايات ونتباهى بأننا بنات وعندما تسألها واحـدة منـا عن ثروة الملك الشلبي تبلع لعابها وتؤكد أنه كان يضع الذهب في صناديق كبيرة ويملأ بهـا خزائن أصغرها في حجم مندرتنا الكبيرة، وأذكر أنها قالت لنا مرة أن قصره الكبير كان مبنيا طوبة من الذهب وطوبة من الفضة، كانت تحكي عن ثيابه "الحرير الهندي" وثياب حريمه التي لا تشبه ما يلبسه الخلق في زماننا، نسألها إن كانت هي أو واحدة من بنات شـلبي احتفظـت بواحد منها فتقول إن جدتها كانت تملك ثوبا من تلك الثياب ظلت تحتفظ به في صندوقها حتى

سطا عليها اللصوص وحاولوا سرقته وخدعتهم بأن قالت لهم إنه ثوب قديم لا يساوي شـيئا، خلعت مصاغها وأعطته لهم ففرحوا وتركوا لها الثوب وهم يقولون إنها امرأة حمقاء لتعطيهم الذهب مقابل ثوب قديم، لكنهم أدركوا الخدعة عندما باعت هي الثوب فـي السـوق الكبيـر وأخذت ثمنا لكل جوهرة مخفية وسط طياته، ذلك أن جواهر الثوب كانت مخفية لا تظهـر إلا عندما ترغب صاحبتها في إظهارها، تقول إن جدتها اشترت زمام الكفر أيامها ودفعت الـثمن ذهبا خالصا لأولاد عوف لكنهم أنكروا الأمر وعاركوا أولادها، كنا نغضب من أولاد عـوف ونود لو كنا رجالا لنعاركهم ونأخذ منهم ما سبق وأخذوه من جدتنا وأنكروه، لكننا كنـا نفيـق على الحقيقة بأننا بنات والعمة فطوم امرأة لا تستطيع أن تقوى على حرب الرجال، كانت هي في مثل هذه الساعات تعاود الحديث عن جدها الملك الشلبي الذي كان يعتز بذكورة نسله فـي أعقاب كل معركة يدخلونها مع الغرباء، كان يتباهى بهم ويقول أن ذراع الرجل سند وعـون وسلاح وأنه لولاهم ما حكم الدنيا بأسرها، وكثيرا ما كان يبكي لأن بعض أبنائه لم ينجبوا غير البنات، كان يخشى أن تدور الأيام ويكون أكثرية أحفاده من الحريم ويومها يزول ملكه ما لـم تتعلم النسوة من الحيل ما يحميهن ويحفظهن من بطش الرجال. نحتار في أمر الملك الشـلبي ولا نهتدي إلى حقيقة أغراضه، كانت حكاياتها عن الملك الشلبي لا تنتهي أبدا، كنا نفرح بهـا ونسألها عن بلاد الملك الشلبي قبل أن تشتري جدتها أراضي الكفر مـن أولاد عـوف فتشـرد بنظراتها وتحكي عن بلاد بعيدة يحيطها نهر وبحر ويحدها من الغرب الصحراء والبـراري، أسألها إن كنا نستطيع الذهاب فتجيب بأن الطريق إلى هناك وعر تسـكنه الـذئاب والثعالـب والسباع فأحزن لعجزي عن الذهاب إلى أرض الملك الشلبي.

يبدو عليها السأم من كثرة الأسئلة وتقول عبارتها التي اعتدناها في مثل هذه الأوقات:

ـ وجعتوا دماغي بقى.

ـ أحكي لكم على عمتكم فطوم يا ولاد أيام زمان.

يقولها أبي بحماس فنعرف أن دوره جاء، لم يكن يحدثنا عن جدنا الملك الشـلبي فـي حضورها أبدا، كان يحكي عنها هي، عن صباها وشبابها وكيف أنها كانت أيامها بألف رجل، عن جمالها وفتنتها التي لم تذبل رغم دعواها بأنها راحت عليها، كنت أشعر ويشـعرون أنـه يعمل حساب لكل لفتة أو همسة تهمسها. كان يبدو بارعا في تغيير الحديث إذا بدا لـه أنـه لا يرضيها في شيء، وكان ينتهز فرصة قبولها لحكاياته وينظر إلى كل واحد منا متأملا قبل أن يقول:

ـ نعمات واخدة عنك النضافة يا فطوم، شاطرة في الخبيز والعجين والطبيخ بس يـا خسارة صحتها على قد حالها ".

"جواهر بنتي عزم وصحة زيك أيام زمان، أهو من غيرها لا نطحن ولا نغسل حـب ولا نعرف نترب لمواشي ولا نشيل سباخ".

"عطيات دي ساهاتانة وواعية ولا يفوتهاش فايت. القرش ع القرش وفـي الحسـاب لباب، أمها عايزة تمسكها المعاش من دلوقت.. هئ هئ".

يضحك فتضحك، ينظر نحوي ويوشك أن يقول شيئا فتأخذني هي في حضنها وتمسح على شعر رأسي ثم تقول:

ـ شوق دي حتة مني.

أشعر بالزهو أكثر من كل البنات، التصق بها أكثر حتى يحين الوقت الذي تفكر فيـه أنه قد حان موعد الرحيل، ورغم ما تؤكده أمي ويؤكده أبي أن السهرة لم تبدأ بعـد إلا أنهـا تقف، تحبك طرحتها حول وجهها وتتغطى " بالملس " فيخرج أبي في أثرها ليقوم بتوصـيلها إلى دارها.

كان يعود لاهثا في كل مرة، يحدث أمي بصوت خافت وكأنه يذيع سرا سبق أن أعلنه عشرات المرات ويخشى أن تسمعه الحيطان التي لها آذان كما يقول:

ـ إوعي يا مريم تكوني زعلتيها بكلمة كدة ولا كدة.

ـ ينقطع لساني، أزعلها دا إيه، دا لجل خاطرك أحطها في حبابي عينيه وأعمل لهـا خدي مداس.

ـ داحنا لولاها ما كناش بقينا كدة، دي هي رسمالنا يا مريم، قرشها فـي عبنـا ولا لهاشي حد غيرنا، أن جرى لها حاجة كله حيبقى للبنات.

ـ عارفة.

ـ عايزك ما ترديش عليها مهما ان كان إلا بكلمة نعم وحاضر.

ـ حاضر يا عبد الستار، حاضر.

يلتفت نحوي ثم يحدث أمي باهتمام:

ـ البت شوق تروح تبات عندها ليلة ولا ليلتين، تسليها يا مريم.

ـ تروح يا خويا.. حاضر.. بكرة تروح من بدري.

كنا نعرف أنها كانت تكره خلفة البنات، وكنا نعرف أيضا أنها أشـارت علـى أبـي ليتزوج من أخرى غير أمي التي انقطعت خلفتها بعد إنجاب نعمات وجواهر، كانت هي تريـد لأبي ولدا فهجر أمي سبع سنوات أو يزيد فشلت خلالها تلك المرأة في إنجاب الولد أو حتـى البنت، أشارت عمتي عليه ليتزوج من أخرى فلم يوافق، خاصمته فطلق الأخرى وأعاد أمـي إلى عصمته، وبحسب ما كنت أسمع منهم كانت هي المرة الوحيدة التي اعترض فيهـا أبـي طوال حياته على رأي أشارت به، كان يقول أحيانا عندما يتذكر:

ـ صعبت عليا البنات والعشرة الغالية، أهو لو ما حصلشي ما كناش شفنا عطيات ولا شوق.

كان يضيف في كل مرة عبارته المألوفة:

ـ فطوم كانت عايزة مصلحتي، فطوم دماغها ناشف وكلامها زي كـلام الملـوك لا يرد، كويس إنها نسيت يا مريم، دي قلبها حنين وبتحب البنات.

كانت أمي توافقه في كل مرة ولا تعترض رغم ما كنت أشعر به من أنها تغصب على روحها وتحتمل، كنت أثق أن أمي سوف تواجهها مرة، تثور في وجهها أو ترفض فكرة تقول بها لكنها لم تفعل أبدا، ظلت تتقبل منها كل محاولات إذلالها وتمتدحها، تجاهد لكي ترضـيها بأية طريقة، كنت أقول لنفسي إنها تفعل كل ذلك تنفيذا لوصايا أبي المتكـررة فأغتـاظ منـه وأوشك أن أطالبه بالكف عن ذلك لكنني لم أستطع، وذات يوم كنت داخلة إلى وسـط الـدار فسمعت همسات أمي:

ـ شوق دي عيلة ما تعرفش حاجة، ما حدش يغلط قصادها بكلمة وبس، يا ما نفسـي أشوف فيكي يوم يا فطوم يا بنت بهانة، سبحانه خلاف الظنون، أهي لا طالت ولد ولا بنـت، اتفرعنت كثير ولسة بتتفرعن بس على إيه يا حسرة، دي مهدودة ومكسور خاطرها، دي كانت تتمنى ضوفر عيله عميا ولا هيش ح تطول.

التفتت أمي وبان الفزع في عيون البنات وكأنني هم الموت نزل عليهن علـى غيـر توقع، لكن أمي تابعت كلامها بنفس النغمة السابقة:

عمتكم فطوم يا بنات ما فيش أشطر منها في الدنيا دي بحالهـا، شـملولة وكلمتهـا صايبة، بس يا خسارة، أيوه، يا خسارة.

جلست بجوار أمي في صمت، ربتت هي على ظهري في حنو وسألتني عـن سـبب عودتي فقلت لها أنني ذهبت إلى المدرسة فوجدت بابها مسكوكا وعرفت من البنات أن اليـوم أجازة عيد جلوس الملك، لكنني بكيت، بكيت بحرقة لأن أمي تلونت أمامي وأجبـرت نفسـها على الكذب، خافت مني وأنا التي أعشقها وأكره ضعفها، لم يكن بكائي من أجل المشوار الذي مشيته بلا فائدة رغم أن ذلك كان قد أغضبني بالفعل، لكنني كنت أشعر بعجزي عن تخلـيص أمي من الكذب أو البوح بالأسباب التي دفعتني بالفعل لأن أبكي.

في الليل جعلت أفكر في كل الحكايات القديمة التي كنت أسمعها عن عمتـي فطـوم، حزنت من أجلها أيضا لأن أمي تريد أن ترى فيها يوما آخر أكثر مما رأت، كانت قد تعـذبت دون ذنب، دارت على الحكماء والمشايخ والأولياء سعيا وراء الحلم في الإنجاب دون جدوى، لم تسمع عن شيخ إلا وزارته، دفعت ثمن الحجاب وفك السحر المكتوب لها بعدم الخلفة بـلا جدوى، راحت لحكيم البندر وحكيم طنطا وكفر الشيخ فوصفوا لها حبوبا ولبوسا وشرابا مـرا

كانت تشربه على كره منها عسى أن يكون فيه الشفاء لكنها لم تفلح، تمرغت أمـامي وأمـي والبنات في حوش زاوية أولاد عوف قبل الفجر بساعة، حطت بدنها بين قضبان قطـار مـر فوقها فشابت خصلة من شعر رأسها، كنست مقام سيدي الأربعين وأطعمت مسـاكين الـدرب لحما وأرزا ووزعت عليهم مقاطع القماش عشرات المرات، دقت مسمارا في لحد طفل مسـلم وقت صلاة الجمعة اليتيمة، ورشت ماء الورد وماء المزهر على مدفن نصراني أسـلم فـي الكفر ومات، بالت على شاهد قبر امرأة عاقر ولم تنجب، ظلت ترقب أطفال الآخرين وتحنـو عليهم، تملأ دارها بهم، تطعمهم وتسقيهم السكر المبلول، استعملت صوفة وعرت جسدها لبدر التمام، شاف فيها أهل الكفر أياما لكن أمي لم تقنع، كانت تعايرها بوحدتها بكلام عن أخريات، حديثها أكثر من مرة عن زوجها السابق بنغمة إنكار تكاد تكون تأكيدا وتصديقا مطلقا:

ـ الخلق في كفرنا بيولدوا البغلة، قال إيه ناس منهم شـافوا المخفـي درويـش فـي البراري ومعاه عيل بيقول عليه ابنه، هو مش كان كشف يا عمه والحكيم قال إن ما لوش في الخلفة؟

تشرد عمتي لحظات، علها تتذكر خلالها الرجل الذي عاشرته عمرا بطوله بلا ثمرة، لا تستنكر الخبر ولا تسلم بحدوثه:

ـ كل حي بياخد نصيبه يا مريم، أهو كلام، ربنا يسهل لعبيده.

كنت أذهب إليها فتحميني وتمشط شعري وتلبسني ثوبا جديدا تكون قد اشترته وحفظته في صندوقها، تطعمني وتحدثني عن الملك الشلبي، أفرح وأسـألها عـن أولاده وأولاد أولاده فتجاوب مهما كثرت أسئلتي ولا تشكو من وجع الراس، تحملني على السرير وتجعلني أتمـدد بينها وبين الحاج فرج، أغفو وأصحو لأجدها وقد أخذتني في حضنها، عندما أتقلـب تجـذبني إلى صدرها الناعم وتقبلني فأطمئن، تهمس وقد أغمضت عينيها:

ـ قولي لي يا امه.

أقول فتشدني إليها أكثر إلى درجة أشعر فيها بالألم، يتكتم نفسي عندما ينـدفس فمـي وانفي في لحم صدرها الطري، أعجز عن تخليص روحي وأشعر بيد الحاج فرج وهي ترخي يدها التي تحيط برأسي، اسمعه يهمس وكأنه يعتذر لها.

ـ على مهلك يا فطوم.

تربت على ظهري فأنام وأصحو، أشعر بقطرات من عرقها الـدافئ تتسـاقط علـى شعري ووجهي، أسمع همسها فحيحا لاهثا لا يشبه صوتها المألوف:

ـ قولي يا امه يا بت، قولي لي يا امه.

تكررها عشرات المرات فأناديها بأمي لكنها لا تكف عن الرجـاء وكأنمـا لا تسـمع صوتي، يسكن بدنها بعد انتفاضة أحسها ويبقى اللهاث المتتابع، يمسح الحاج فرج عن وجههـا

ورقبتها قطرات العرق، ربما ينقلني إلى مؤخرة السرير العريض، ربما أشـعر بـه يغطيهـا ويتغطى، ربما أسمع صوته يحادثها ولا ترد، وربما أنام ولا أصحو إلا بعـد الفجـر بسـاعة فأراها وقد استحمت وابيضت أكثر في قميص جديد لم أشهده قبلا، تبتسم ولا تلـومني علـى الصحو المتأخر، وربما تطالبني بمعاودة النوم فأنام.

(إبداع ـ يونيو 1984)

كلاب السيجة

* ----------

أشاروا عليه بالسفر إلى تلك المدن البعيدة مؤكدين أنه سوف ينصلح حاله "فأنت لا تقل عنهم في شيء يا شيخ عمران"، حلموا نيابة عنه وفسروا له الأحلام "سوف تعود بعد عـام أو عامين لتبني داركم التي تهدمت جدرانها، تحمي أمك العجوز من احتمالات سـقوطها فـوق دماغها، سوف تمتلك مشروعا يؤمن مستقبلك مثل بقية خلق الله الـذين كثـرت مشـاريعهم وتنوعت وأثمرت أيضا خلال السنوات الأخيرة التي شاف فيها أهل "الكفر" من عجائب الـدنيا ما حيرهم وتوه عقولهم "كان يتسمع إليهم في تلك الأمسيات ويطوف بخياله في تلـك العـوالم التي ينسجونها بالأمنيات والكلمات لكنه يتذكر أمه العجوز الراقدة في الدار عاجزة عن إطعام نفسها أو ملء كوز الماء المحطوط بجوارها إذا فرغ فتذوب الأحـلام وتتلاشـى الخيـالات المبهجة. فيطلع صباح جديد وهو جالس على نفس الحجر الجيري في صدر بوابة أولاد عوف وكأنه حارس أبدي مكلف بمتابعة خطوات الخلق وإحصائها، كانوا يضحكون ويضاحكونه كلما مروا عليه في طريقهم إلى حقولهم أو أعمالهم في البندر "صحيح يا شيخ عمران، كلام الليـل مدهون بزبدة يطلع عليه النهار يسيح" يهز رأسه موافقا ومستسلما لحالته التي سئمها هو نفسه أكثر من أي وقت مضى، كان ينتقل إلى مصطبة دكان الحاج شبل عـوف المسـكوك منـذ سنوات، يستند إلى الجدران ويسلي نفسه بجمع الحصوات الصغيرة مـن الطـوب الأحمـر، يكورها بالحك في جدار الدكان، يحكم تدويرها ويقذف بها إلى أعلى ويلتقطهـا وفـي عينيـه علامات رضا يسير وارتياح مهموم، كان يعدها ويدسها في جيب جلبابه الغويط يتلفت حواليه ويلتقط من جنب الجدار قطع الجير التي تساقطت وكشفت طوبه الأحمر القديم الـذي تشـبع بالرطوبة وأوشك على التفتت بفعل النشع، يكسر تلك القطع الجيرية ويكورها هي الأخـرى، يحكم تدويرها بنفس الطريقة التي كور بها قطع الطوب الأحمر، يقذف بها إلى أعلى ويلتقطها وقد شردت عيناه وغابتا في عوالم غير مرئية لأحد سواه، يعدها ويدسها في جيبه، يحط رأسه على كفه المفرود وربما ينعس للحظات قبل أن يأتي أول رجل بلا عمل ويسأله:

ـ جهزت كلاب السيجة يا شيخ عمران؟

لحظتها يفتح عينيه على اتساعهما ويدس يده في جيبه الغويط يخرج قطـع الطـوب الأحمر والجير المدورة بأحجامها المتقاربة إلى حد التطابق، يناولها للرجل وينظر إليـه فـي حياد بينما الآخر يفرش حفنات من الرماد الناعم في منتصف مصطبة الدكان، يسويها براحتيه

ويفتح بأنامله مجموعة من الفراغات الصغيرة المتجاورة لتصبح على شكل مربع كبير بداخله عشرات المربعات الصغيرة التي يرص فيها قطع الطوب الأحمر والأبيض بترتيـب خـاص ويهمس "خلاص" فيعتدل الشيخ عمران ليكون في مواجهة الرجل وبينهما المربع الكبير، يبـدأ أحدهما أول نقلة لكلاب السيجة، وعندما يسمع صوت المؤذن مناديا لصلاة الظهر من زاويـة الحاج مصطفى عوف يلم القطع في جيبه ويدخل الزاوية، وبعد الصلاة يذهب إلى داره، يطعم أمه ويسقيها ويتمدد بجوارها، يحدثها دون أن يتلقى ردا عن أخوته الذين سافروا إلـى بـلاد الغربة، يطمئنها دون أن تطلب منه ذلك بأنهم سوف يعودون في القريب العاجل وأنهم لابد أن يوافوها برسائل أكثر في مستقبل الأيام، يغفو لساعة ثم يقوم قبل المغـرب فيـدخل الزاويـة ويخرج منها بعد صلاة العشاء ليجلس من جديد على الحجر الجيري صـامتا، يتلقـى تحيـة المساء من العابرين ويرد نفس الرد على الكبير والصغير.

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أهلا وسهلا.

يجلس بعضهم حوله ويتبادلون الحديث، يفاتحونه في نفس الموضوع القديم:

ـ بع يا رجل، القيراط في أرضك يساوي ثمن فدان، بع يا رجل للسيد شلبي واشتري في مكان آخر، أنت لا تزرع ولا تقلع بعها وريح نفسك.

ـ لا.. بيع لا

يسكتون ويغيرون الموضوع ويتسللون الواحد في أثر الآخر فيبقى وحيدا يفكـر "لـو بعت لوصلت أرض السيد شلبي إلى أرض السيد شلبي على السكة ولفطست أرض معـوض وصالح وعطية وأصبحت بلا مدخل أو مخرج، تخنق أراضيهم، وينال السيد شلبي مـا كـان يتمناه.. كان يأتي ويعرض الشراء أيام المرحوم، لقد وسع أرضه من الجانبين، واشترى مـن أولاد عوف الذين اشتروا من أبيه الحاج فضل عوف بدعوى حقهم في الشراء وعدم التفـريط في الأرض لغريب، كان الرجل يبيع فدانا في أثر فدان، بعد كل أزمة كان يبيع، باع يوم مات الولد الكبير، باع يوم قلعوا عيدان قطنه، باع يوم سموا مواشيهم، وباع أيضا يوم أصيبت أمه بالشلل، ومات الرجل فباعوا هم أولاد عوف الذين كانوا يتشدقون بالكلام عن ضرورة أن تبقى أرض أولاد عوف في حضن أولاد عوف، باعوها لنفس الخصم الذي كانوا يحذرون من البيع له "ولو انطبقت السماء على الأرض يا حاج فضل" أغراهم فرق السـعرين وبـاعوا بعـد أن أصبح الشيخ عمران وحيدا وبرروا فعلهم بأن "الدنيا مصالح وكل حي حر في ملكه يا شـيخ عمران، والبيع والشراء لم يحرمهما الله على عباده" كان يكرههم ولا يتعامل معهـم، لا يـرد عليهم سلامهم وكان في بعض الأحيان يصرخ في وجوههم ويسأل إن كانوا فعـلا مـن أولاد عوف، يلعنهم ويوشك على العراك فيتجمع الخلق ويحاولون تهدئته بعسر، يشعرون أن وجوده على بوابة أولاد عوف معناه عراك متصل وربما يفلت الزمام مرة ويقتله واحد من أولاد عمه

أو يقتل هو أحدهم بحسب ما كانوا يتوعدونه ويتوعدهم، كان العقلاء مـنهم يشـيرون عليـه بالسفر إلى تلك البلاد البعيدة، يذكرونه بأنه لم يتزوج وقد أوشك على بلوغ الأربعين فيطـرق خجلا من حاله، يريحونه وقد يؤيدونه في عدم الموافقة على بيع الأرض أو العمل عند أحـد من أهل الكفر وهو ابن الحاج فضل عوف الذي كانت داره في السـابق دار عـزوة وخيـر وصبوات، يستنكرون أن يقرأ في دور الخلق وهو حامل كتاب الله وله الحق فـي الاعتـزاز بنفسه وعقله وأصله، يجارونه في كل ما يقول به من أن البعض من أولاد عوف فقدوا الدماء وخلعوا برقع الحياء فتنطعوا وصاروا أتباعا للسيد شلبي، يهدئونه ويجلسونه بهـدف إقناعـه بفكرة السفر، وربما يقترح رجل من بينهم أن يلعب معه " دور سيجه " فيخرج قطع الطـوب الأحمر والأبيض ويجلس في مواجهته، يقتل كلاب سيجة الخصم فيهللـون ويتهامسـون فـي حضوره وغيابه أنه أبرع من يلعب السيجة في السنوات العشر الأخيرة وأنه بلا أدنـى شـك فارس اللعبة في البندر مثلما كان أبوه فارسا في لعبة التحطيب أيام كان التحطيب لعبة الرجال في الزمن الفائت.

(الرياض ـ مارس 1984)

*

وليمتان

* ----------

لمحه عند مفترق الطرق فصاح مناديا بالاسم:

ـ عادل الدرمللي؟.

التفت عادل الدرمللي نحو مصدر الصوت، انحطت عيناه بعسر على وجـه الرجـل الذي كان يلوح بيمناه بينما يحمل بيسراه طفلا في حوالي الثانية من عمره، كان يبتسـم فـي سعادة الظافرين وعادل الدرمللي يسعى نحوه وسط الزحام، كانت السيدة تقـف إلـى جـوار الرجل الذي يلوح بيمناه وكأنه يخشى أن يتوه الآخر برغم تأكده أنه رآه وأنـه يسـير نحـوه بالفعل، كانت بدينة ولها ملامح متبرمة فيها قدر من الغطرسـة والكبريـاء، قالـت بنبـرات مستاءة:

ـ كف عن التلويح له، إنه قادم.

أنزل الرجل يده بآلية ربما لأن عادل كان قد اقترب منه تماما، أنزل الرجـل طفلـه وسلمه إلى السيدة البدينة دون حوار منطوق فحملته هي أيضا دون تعليق، فتح الرجل ذراعيه ليتلقى عادل الدرمللي، تعانق الرجلان في اشتياق، انهمكا في حديث ملهوف بينما تتبرم السيدة السمينة أكثر، زفرت في ضيق قبل أن تربت على كتف الرجل وتقول وكأنمـا تنتزعـه مـن لحظات النسيان المؤقت لوجودها ووجود الطفل:

ـ الولد تعبان يا عبد الونيس، سوف نتأخر.

التفت عبد الونيس إلى السيدة السمينة، تطلع إلى وجه الطفل ثم تحول بنظرتـه إلـى عادل وقال في حرج:

ـ عفوا يا عادل، عفوا، نسيت أن أقدمك للمدام، زوجتي نادرة، والولد نـادر، عـادل الدرمللي يا نادرة، صديق طفولتي، من سنوات طويلة لم أقابله، تصوري يا نادرة أنني لم أكن متأكدا أنه هو نفسه عادل الدرمللي، ناديت الاسم وأنا أتوقع أن أحدا لن يجيـب، تصـور يـا عادل، لم أكن متأكدا أنك هو أنت نفسك الذي يتحرك إلى الشارع الآخـر، كيـف أحوالـك؟ سنوات طويلة لم أعرف فيها أخبارك، أين أنت يا عادل؟.

ـ في الدنيا، الدنيا واسعة كما تعرف، وأنت تعيش في القاهرة؟ أين تعمل؟ هذا الولـد ابنك، قلت إن اسمه..

ـ نادر.

ـ آه.. نادر.. اسم لطيف.

ـ تزوجت منذ عامين ونصف تقريبا، و.. وأنت هل تزوجت؟.

تدخلت السيدة وقالت في لوم واستنكار ظاهر:

ـ أنتم في الشارع، سوف نتأخر يا عبد الونيس، الولد تعبان.

تحير عبد الونيس لم يعرف كيف يحسم أمره، كان موزعا بين رغبتين، معرفة أخبار صاحبه وإرضاء السيدة البدينة التي بدا عليها الاستياء أكثر، والتي لم ترحب بصاحبه لأسباب لا يعرفها، فكر للحظات حاصرته خلالها نظرة الاستهجان من السيدة ثم قال في حرج:

نتفق على ميعاد يا عادل، طبعا كنت أريد معرفة أخبارك بعد هذا الغياب الطويل إنما، الولد تعبان كما ترى، أمه قلقة عليه وعيادة الطبيب في مصر الجديدة، أنت تعرف طبعـا أن الحصول على تاكسي في مثل هذه الساعة عسير، متى أراك؟

قال الدرمللي وهو ينقل نظراته ما بين صاحبه القديم والسيدة البدينة:

ـ ولماذا تبحثون عن تاكسي يا عبد الونيس، سأقوم بتوصيلكم إلى أي مكان، سيارتي تقف عند المنحنى، كنت بجوارها عندما سمعت نداءك، ما رأي السيدة، لقد تشرفت بمعرفتـك متأخرا، لو كنت أعرف ميعاد زواجكم لحضرت إلى مصر خصيصا من أجلكم، عبد الـونيس صديقي وأخي وأكثر، سأقوم بتوصيلكم حتى بيتكم بعد الاطمئنان على الأستاذ نادر، إنه جميل ومشاكس على ما يبدو.

قالت السيدة وقد انزاح قدر كبير من تبرمها:

ـ أخشى أن نتعبك يا أستاذ.

ـ على العكس تماما يا سيدتي، على العكس، أنا في أجازة وليس لـدي مـا أعملـه خلالها، ولقائي بكم فرصة لا يحق لي أن أضيعها مهما كانت الأسباب.

ارتبك عبد الونيس عند باب السيارة الفخمة التي انفتح بابها، نظر إلى السـيدة التـي كانت مبهورة هي الأخرى تجاهد أن تداري انبهارها بمسحة تأفف واستعلاء، قال عبد الونيس متسائلا في دهشة:

ـ سيارتك؟ هذه سيارتك يا عادل؟ إنها.. إنها فخمة و.. ما نوعها.. إنها.. قال عـادل بينما يفتح الباب الأمامي للسيدة ويوجه كلامه لعبد الونيس في خفة وتبسط ظاهر:

ـ ستركب السيدة في المقعد الأمامي كما تقضي بذلك قواعد اللياقة والذوق، إذا كنـت تعرف القيادة فتفضل أنت أيضا واترك لي الأستاذ نادر ليشاركني في المقعد الخلفي.

ـ لا.. أبدا.. أنا، سأركب مع نادر.. لا أعرف القيادة، إنها سيارة غريبة.

قبل أن تركب السيدة في المقعد الأمامي، نظرت إلى عبد الونيس نظرة استياء لظهوره بهذا الشكل الأحمق أمام صاحبه، فركب في حرج بينما دار عادل الدرمللي وركب في مقعـد القيادة وتحرك بالسيارة في اتجاه مصر الجديدة.

لم تمانع السيدة في قبول دعوة الدرمللي التي عرضها علـيهم للعشـاء فـي مطعـم الشيراتون وبالتالي لم يعارض عبد الونيس، كان دخول الشيراتون بالنسبة لعبد الونيس أمـرا غير وارد في حساباته الحالية على أحسن الفروض، وكان بالنسبة للسيدة حلما لم تجد الوسائل لتحقيقه حتى كانت دعوة عادل الدرمللي فلم تمانع في قبولها على الفور، كانت جرأة الدرمللي في التعامل مع المكان تكشف إلى أي حد هو متمرس وخبير بهذه الأماكن، وكان انكماش عبد الونيس وتهيبه مدعاة لغيظها منه، كانت تجاهد أن تتصرف في رصانة وثبات وترقـب عبـد الونيس من آن لآخر وكأنما تحذره من ذلك التخوف المدهوش أو تعتذر للدرمللي عـن تلـك النظرات البليدة التي يتابع بها عبد الونيس حركة العاملين والرواد، وكانت تفكر " إنـه يبـدو عاجزا عن مسايرة العصر وبالتالي يصعب عليه أن يتقدم في الحياة مثل صاحبه الـذي شـق طريقه بالفعل ".

كانت تسترجع ما سبق أن شاهدته من أفلام، وتتمثـل السـيدات الراقيـات سـليلات القصور وتمثل في آن واحد، جعلت تتكلم من أطراف أنفها وتشير بأصابعها في نعومة حيرت عبد الونيس الذي لم يتمالك نفسه فقال:

ـ نادرة، ماذا جرى لك؟.

ـ ماذا؟

قالتها في استعلاء واستنكار وقد تحفزت للدخول في صراع معه لولا أنه انطوى على نفسه في براعة وهمس:

ـ لا شيء.. لا شيء على الإطلاق.

كان من العسير عليه أن يوقفها أو يحول اهتمامها إلى شيء آخر غير ذلك الانـدماج المكشوف في دور لا يليق بها أو بظروفها، وكان يعايش أحساسا بالخجل منها ويتمنى لو لـم يقترن بها أصلا "ترى ماذا يقول عادل عنها؟ هل أدرك إلى أي حد تفتعل في حديثها أم أنه لم يدرك، وإذا كشفها فماذا يقول عني الآن؟".

كانت تربت على الطفل النائم في آلية وتحكي:

ـ بالطبع يا أستاذ، بالطبع، الناس في أوروبا أكثر رقيا فـي حيـاتهم، أولاد عمـي سافروا مثل حضرتك وعادوا، كل واحد منهم يمتلك سيارة وفيلا وتليفزيون ملـون وأشـياء أخرى لا داعي لذكرها، عبد الونيس فكر في السفر لكنه لم يعثر على العمل المناسب.

بذلك كانت تثرثر السيدة البدينة، وتحكي عن أحداث لم تكن ومشاريع لم يفكـر فيهـا أحد، وحين ادعت السيدة أن شقيقها ما زال يعيش في باريس لم يتمالك عبد الـونيس نفسـه، أفلتت من أنفه "خنفرة" مقطوعة توحي بضحكة مكتومة، جاهد في إخفائها لكنه لم ينجح، ذلـك أن السيدة ليس لها أشقاء على الإطلاق كما يعرف عبد الونيس، وحين التفتت السـيدة البدينـة إلى عبد الونيس وجدته قد أخرج منديله وتمخط. ثم قال في نبرة اعتذار:

ـ عفوا.. يبدو أنني أصبت بالزكام.

كانت العبارة موفقة إلى حد كبير، ذلك أن السيدة لم تلاحظ أنه كاد يسخر منها ومـن أكاذيبها المكشوفة أمام ضيف تتعرف إليه لأول مرة، ومن جديد تمـادت السـيدة فـي نسـج حكاياتها الزائفة دون مقاطعة من أحد.

في طريق العودة إلى البيت، وبينما السيدة تجلس في المقعد الأمامي تصادف أن تلكـأ عابر سبيل في خطواته أمام السيارة فقال الدرمللي في تأفف:

ـ كأنه مسطول، يتطوح من اليمين إلى الشمال، لولا أن فرامل السيارة بحالة جيـدة لسقط تحت العجلات.

وبسرعة راحت نادرة تعبر عن سخطها على كل مشاة الدنيا، بدا لمن يسمع حـديثها وكأنها صاحبة سيارة تعاني بشكل خاص من السائرين على أقدامهم، نسيت تماما مـا كانـت تصرح به لعبد الونيس من سخافات أصحاب السيارات واستخفافهم بخلق الله، تحـدثت بلغـة مختلفة، حتى عندما ذكرها عبد الونيس بالحقيقة:

ـ ولكننا لا نملك سيارة يا نادرة.

ـ لا تملك سيارة!، أنت الذي لا تملك سيارة، كل أولاد أعمامي عندهم سيارات وهـم يعانون من مشاكل العابرين، أنت يا عبد الونيس الوحيد الذي لا تملك سـيارة، وهـذه هـي مشكلتك وعليك أن تقوم بحلها.

بذلك كانت تتكلم السيدة وقد توترت ملامحها وتهدج صوتها بينما عبد الونيس سـاكت وعادل يتسمع ولا يعلق بشيء، كانت لحظات الترف المؤقت قد جعلتها تنسى ما يحيط بها من صعاب، لكنه عندما سألها عادل في أدب قائلا:

ـ والآن، إلى أين أتجه يا سيدتي؟ نحن في ميدان الدقي.

قالت وكأنها تقر وتعترف بواقعها الحزين:

ـ سوف تستمر في المسير إلى الأمام، حتى بولاق الدكرور، هناك مزلقـان، إذا لـم تكن تخاف على سيارتك أعبره، بعدها تجد شارعا عريضا يتفرع منه شارع غير مرصـوف، الحارة الخامسة على اليمين، أغلب سائقي التاكسيات يرفضون الدخول بسياراتهم.

ـ لكنني سأقوم بتوصيلكم كما تعهدت مهما صادفت من صعاب.

بذلك أجاب الدرمللي وقد أشفق عليها وعلى صديقه القديم الذي لم يـتمكن بعـد مـن تحسين ظروف حياته ما دام يسكن في بولاق الدكرور.

في حجرة الصالون المتواضعة جلس عادل وعبد الونيس ونادرة، كان عادل قد ركـن سيارته في الشارع الكبير ورافقهم على قدميه عبر الشوارع غير المرصوفة والأزقة الضـيقة التي لا تسمح بمرور سيارته من خلالها، وكانت أكواب الشاي محطوطة، والصمت مخيم فلا حديث، كانت لحظات الشموخ والتباهي التي عاشتها السيدة قد انتهت وجـاءت إلـى عالمهـا الحقيقي البائس، وكان الخجل الذي عاشه عبد الونيس من تصرفاتها قد تبخر تمامـا بعـد أن توصل إلى تبرير لأكاذيبها مؤداه أنها كانت تحلم أو على الأقل تدفع عن نفسها تهمة الحاجـة والعوز بافتعال الكبرياء والشموخ، وكان عادل قد انحط في الموقف، وتحير كيف يـتكلم مـع هذين الجريحين بتلبية الدعوة العابرة لشرب الشاي رغم يقين كان يدركه أن كشـف بؤسـهما كان على قيد خطوات عبر الأزقة والشوارع الضيقة، وعلى هذا النحو فات وقت طويـل لـم يتبادل خلاله الرجلان والسيدة أية عبارة حوار حتى بردت أكواب الشاي فأخذتها السيدة مـن أمامهم وتركتهما يواجهان ما صار إليه الحال خلال تلك السنوات الطوال التي لم يعرف فيهـا أحدهما أخبار الآخر.

(الفيصل ـ فبراير 1983)

*

الزائرة

* ----------

دقت الباب بعنف في صباح باكر، فرحت أفتحه لأراها لأول مرة، كانت تبتسم في ألفة وهي تلقي تحية الصباح، كانت تحمل على الرأس سلة كبيرة وثوبها الريفـي يسـتر قوامهـا الممشوق العفي، سألتني إن كان المسكن يخص اسمي الذي ذكرته ثلاثيا فأومـأت بالإيجـاب أزاحتني في ود عن طريقها ودخلت باطمئنان، التفتت نحوي وهي في منتصف الصـالة ثـم قالت بعشم:

ـ حططني.

مددت يدي أساعدها في إنزال حملها الثقيل أكثر مما كنت أتوقع، جلست هـي علـى أرضية الصالة وسألتني عن الأحوال، جاءت زوجتي تستطلع الأمر، كانت هي تعبث بغطـاء السلة المحكم التحبيش بخيوط الدوبارة في محاولة لفكه، نظرت نحو زوجتي وابتسمت وهـي تلقي تحية الصباح ردت زوجتي عليها ثم التفتت نحوي، وكأنما تسألني عن هويـة الزائـرة الغريبة في مثل هذا الوقت المبكر، قالت هي بينما تفلت طرف الخيط من محيط السلة:

ـ يمكن هو ما يخدشي باله بس إحنا قرايب.

ـ أهلا وسهلا.

قالتها زوجتي وهي تقترب منها وتحاول أن تساعدها في تخليص الخيط مـن غطـاء السلة، كان في السلة خبز وسمن وعسل وفطير ساخن وطيور محمرة تفوح رائحتها، وبيسـر شديد أشارت هي على زوجتي بإفراغ الزيارة في الأماكن المناسبة وكأنها تعيش معنا وتعرف ما نملكه من آنية وأطباق وأماكن حفظ المأكولات. كان إفطارا شهيا وهي تحدثني عـن أبـي وأعمامي وجدي، وتذكر لي أسماء من أعرفهم من عائلتي ومن لا أعرفهم فيتأكد لدي أنها ابنة لواحد من تلك الأسماء التي تذكرها.

كانت تختار مواعيد الزيارة بشكل يدعو إلى الدهشة، ذلك أنها كانت تأتي في الأيـام العصيبة التي نواجه فيها بالمطالب ونعجز عن التصرف، كانت زياراتها التي تحملها تخفـف الأعباء عنا لكنها لم تشعر على أي نحو بأنها أعطت، كنت أشعر بالحرج لأنني أعجز في كل

مرة عن توفير شيء معقول أكلف زوجتي بوضعه في سلتها التي تحملها في كل مرة خالية إلا من أوانيها الفارغة. وحتى عندما كنت ألح عليها لتقبل مني القيام بتوصيلها إلى محطة القطار كانت ترفض في إصرار وهي تبتسم وكأنها في حقيقة الأمر تغفر وتسامح، ثم تهمس:

ـ هو أنا ح أتوه؟ يكون في عونك ع اللي أنت فيه.

أتحير في أمرها، أشعر بعجزي عن الرد بكلام مناسب، فتخرج هي من المكان بخفة، وكأنها نسمة رقيقة أو طيف هادئ ينسل خلسة، دون أن يثير أدنى قدر من الإحـراج، وأثـر خروجها كنت أجلس صامتا للحظات، قبل أن تأتي زوجتي، وتسألني عن درجة قرابتنا فأجيب في كل مرة بأنني لا أعرف على وجه اليقين، كل ما أشعر به أنها من دمي بحق، وأنها أقرب إلي من أشقائي وأعمامي، ليس لأنها تعينني على البقاء وسط الخلق مستورا فقط وإنما أيضـا لأنها تشعر بحالي، وتأتي في اللحظات الحرجة. كانت زوجتي تعود وتسألني عن عائلتي التي لم تتعرف على أحد منها غير تلك الزائرة فأحدثها بما كان يقوله أبي عنهم من أنهـم كثـار، وإنهم يتشعبون في كل البلدان وأن مشاغل الحياة تلهيهم وتقطع ما بينهم مـن أواصـر الـود والألفة، أحكي لها من جديد أننا أبناء الفرع الفقير الذي نهب الآخرون حقوقه بحيل لا أعرفها وإن كنت أعرف نتائجها المؤسفة من عجز، واحتياج، لا يبدو أنه سوف ينتهي.

وحتى عندما سألتها بشكل مباشر عن اسم أبيها لأميزه من بين الأسماء الكثيرة التـي كانت تتحدث عنها، غيرت الموضوع، وراحت تحكي حكاية عن ابن الجعادي الذي لـم يكـن يمتلك من زمام أرض البلد قيراطا أو حتى سهما والذي لم يتعلم حرفا أو صنعة لكنـه خـلال السنوات العشر الأخيرة قفز إلى مركز الصدارة وامتلك مطحنا، ومزرعة للعجـول ومـنحلا كبيرا وبنى دارا بالمسلح، وركب سيارة طويلة وسور أرضا من أملاك عائلتنا حولهـا إلـى حديقة تفاح، وأنه أيضا يؤجر للفلاحين آلات الحصاد والحرث بالساعة ويلعب بآلاف الجنيهات في سوق المواشي، وعندما أبديت دهشتي قالت: إن البلد انقلب ميزانها وأن عاليهـا أصـبح واطيها، وواطيها صار عاليها بقدرة قادر.. فازدادت دهشتي ودهشة زوجتي أيضا وقلنـا: إن الله حر في تصريف أمور الدنيا يعطي من يشاء ويمنع عمن يشاء من عباده. وعندما حمـت بأسئلتي عن اسم أبيها، ودرجة القرابة بيننا ضحكت وحدثتني بكلام سمعته قبلا من أبي عـن أجدادي، وأجداد أجدادي ممن كانوا ملاكا لزمام البلد وظللت أتسمع في غير اهتمـام وأقـول لنفسي: إن في الأمر خدعة وإنه احتمال قائم أن يكون كلامها المتوافق مع ما سبق أن حـدثني به أبي محض أوهام لا أساس لها من الصحة بثها في خيالي بينما كنت طفلا، وتواصل هـي نفس المهمة، بعد أن صرت رجلا مسئولا عن بيت وأطفال، لكنني لم أكن على وعـي كـاف لتفسير الهدف من ذلك الخداع الذي يتجدد، والذي يجاهد أن ينفي ما كـان قـد ترسـب فـي مشاعري خلال تلك السنوات الأخيرة من أنني في حقيقة الأمر مقطوع من شجرة.

قلت لزوجتي فلنواجه الحياة بشجاعة ودون الاعتماد على أحد، كنت متحمسا لأن فكرة سيطرت على عقلي مؤداها أنني بالفعل أبذل كل طاقتي في العمل، وإنه من العدل أن يكـون المقابل متناسبا مع جهدي المبذول وأنه آن الأوان لأطالب رسميا بحقي في ميراث أجدادي عن طريق القضاء، ما دام أبي قد فاته أن يطالب بهذا الحق لخوفه من الدخول في صراع مع من نهبوا حقوقنا وسلبوها، وقلت لنفسي إن الزائرة الغريبة تأتي إلينا بتلك الزيارات لتلهينـا عـن حقوقنا وأنه احتمال قائم أن تكون هي نفسها أما أو أختا أو ربما زوجة لواحد مـن مغتصـبي الحقوق، ولذلك أفهمت زوجتي أنه لو تصادف وجاءت بزيارة من البلد فعليها أن ترفضها في حزم وأن تطلب منها حملها والعودة بها من حيث جاءت.

كانت زوجتي تعترض على فكرتي لولا أنني كنت حاسما في أوامري ومصرا علـى تنفيذها بالحرف الواحد، قلت لزوجتي في لحظة صفاء إنه مهما كانت درجة القرابة بيننا، فإنه لا يحق لها أن تأتي بأشيائها دون مقابل وأننا في زمان يبخل فيه الأخ على أخيه بمسـاعدة لا ترد، أو حتى زيارة خالصة لوجه الله، قلت لها: إننا نعيش زمان الأفراد الدائر كل منهم فـي فلك حياته وإنه من غير المألوف أن نأخذ في كل مرة ولا نرد شيئا، ومهما جاهدت أن تبـدي عدم الاهتمام بسلوكنا المشين، فلا بد أنها بينما تهبط السلم، في كل مرة، حاملة سلتها الخاويـة تشتمنا في سرها وتتهمنا بالتنطع والنذالة وخسة الأصل وربما تتندر علينا، وتسخر من فقرنا، ومن يدري إن كانت لا تذهب إليهم في البلد وتكشف أسرارنا، وتسرد على مسامعهم تفاصـيل حياتنا البائسة، وعلى هذا النحو كنت أتحدث مع زوجتي، فزادت قناعتها بفكرتـي، وفرحـت لحماسي، وطالبتني باتخاذ ما يلزم من خطوات، لرفع قضية الميراث فأكدت لهـا أننـي لـن أتقاعس بعد اليوم لأن المسألة أخطر من أن تحتمل مزيدا من التأجيل.

جاءتنا في منتصف الليل تماما، أدهشني أنها لم تكن تحمل سلتها كما كان الحال فـي السابق، حدثتني عن ابن عم لي يعيش في نفس المدينة ولا أراه، سألتني عن سر انقطاعي عنه فقلت لها إنني زرته منذ سبع سنوات ووعدني برد الزيارة، لكنه لم يأت رغم حرصـه علـى كتابة العنوان وأني عدت لأزوره بعد ذلك بثلاث سنوات ووعدني هـذه المـرة أيضـا بـرد الزيارة، لكنه لم يأت أيضا رغم أنه كتب العنوان وطواه وحطه في جيبه، هزت رأسها أسـفا، وغيرت موضوع الحديث، سألتني عن الأحوال فقلت لها أنها مستورة، قامت مـن جلسـتها، وأفهمتني أنها سوف ترحل، قلت لها وأيدتني زوجتي بأنه لا يصح أن تخرج في مثـل هـذه الساعة وحدها، لكنها أصرت، قلت لها إنني سوف أرتدي ثيابي وأقوم بتوصيلها إلـى حيـث تشاء، فقالت إنها جاءت وحدها وأنها لا بد أن تذهب وحدها، أغرتها زوجتي بالبقـاء بشـتى الوسائل. لكنها كانت قد أصرت، وبعسر رضيت أن أخرج معها إلى الشارع ثم أشارت لسيارة أجرة، وطالبت السائق أن يذهب بها إلى ميدان رمسيس، وطالبتني أن أعود لأولادي، لوحـت

لها مودعا ومتعجبا من أمرها ثم عدت إلى زوجتي وظللنا طوال الليل نتحدث عن سر زيارتها لنا هذه المرة بغير سلتها، كانت الشكوك قد ساورتني في أن تكون زوجتي قد أبلغتها بمـا دار بيننا من حديث، حول عدم قبول أشيائها، وعندما فاتحت زوجتي في شكوكي صرخت في فزع وضربت براحة يدها اليمنى، في عنف تسبب في إيقاظ الولد وبالبنت من نومهما في الحجـرة المجاورة، هدأتها ببضع كلمات بينما راحت تبكي ويصرخ الولد والبنت في الحجرة الأخرى.

في زحام الأتوبيس كان الولد الفحل بجواري، يزيحني بكوعه المغروس في صـدري بعنف لا أحتمله، كانت يده الخالية تندس في جيب جاره من الناحية الأخرى في ذات اللحظـة التي استدرت إليه بغرض إفهامه أن كوعه يؤلمني وأنه من الأجدى إبعاده عني. رأيـت يـده الأخرى تخرج بحافظة جاره من الناحية الأخرى، وهو في غفلة من أمره، رأيـت الحافظـة تتحرك، وتتناولها يد لا أعرف صاحبها ، تذكرت تلك الحادثة الشهيرة التي حذر فيها رجل في زحمة الترام جاره من لص كان يتحسس جيبه، فما كان من اللص إلا أن استل مديته وانهـال بها ضربا في صدر ووجه من حذر المسروق، كان مع اللص أعوان لم يحسب حسابهم فـي لحظة المباغتة، حاصروه وعوقوا حركته حتى تمكن الضارب من الفرار بينما الترام يجـري، سال الدم وبدأ للخلق أن علاج الأمر سيكون سهلا، لكن الأمر تعقد يومها، وسقط الرجل قتيلا وسط جمع حائر وعاجز عن الاستدلال على هوية الفاعل، أو فرز أي من أعوانه المندسـين وسط الزحام، قلت لنفسي عن غير اقتناع كامل، أن الأمر لا يعنيني على أية حال، وأن علـى كل واحد في هذه المدينة أن يحرس جيبه، كانت في جيبي عريضة الدعوى وبضع جنيهـات تكفينا بالكاد حتى يوم صرف المرتبات، وضعت يدي على جيب سترتي أحرسه، لكن اللص لم يشأ أن يتركني في حالي، امتدت يده من أسفل وشعرت بأنامله تزيح يدي التي تحرس، التقت نظراتنا في لحظة، كان يعرف أنني أعرف وأعرف أنه يعرف أنني أعرف، لكنه أفلح في نفس اللحظة أن يداري موقفه تماما، تقمص ببراعة وجه ضحية حقيقية، صرخ وهو يلتفت حواليـه مستغيثا بالزحام بينما يواجهني:

ـ شيل إيدك يا حرامي يا ابن الكلب.

التفت الركاب نحوي بعيون تتهم وتدين، ربما لأن الولد الفحل كان بارعا في تمثيـل الدور إلى الحد الذي جعلني أتشكك في أمر نفسي، أقول أنه من الممكن أن يدس لي في أحـد جيوبي حافظة سلبها قبلا ليدلل لحظة التفتيش علـى قيـامي بالسـرقة، وجـدتني محاصـرا بالنظرات واستغاثات الولد الفحل التي تتكرر، ارتعشت أطرافي وتلعثمت، فجرني الولد الفحل من طوقي نحو الباب الخلفي، كنت أتخوف أن تحاصرني عصابة الولد الفحـل فـي عـرض الطريق، وربما ذبحوني وفروا، كنت أمسك بقشيب معدني في سقف الأتوبيس قريبا من الباب، لكنني ودون إرادة محسوبة تراخت راحتي، وطاوعت اليد القابضة على طوقي، علني خفـت

من اكتشاف المسلوبين ضياع أشيائهم وربما أمسكوا هم بتلابيبي، ويكون نهاري أسود، غير أن الأمر جرى على هذا النحو على أية حال، وجدتني مجرورا أسقط على وجهي فوق أسفلت الشارع بينما السيارة تجري، داستني أقدام وصفعتني الأرض الخشنة، وبمساعدة وجوه لم أكن قادرا على تبين تفاصيلها قمت واستندت على الطوار لاكتشف أنني سلبت كرامتي ونقودي وعريضة الدعوى في قضيتي القديمة، وفقدت أيضا مقدرتي على فهم ما صار يدور حولي من وقاحات اللصوص المهرة؟

في البيت، أحاطوني، زوجتي والأطفال، وتلك الزائرة التي تدعي قرابتي ضمدوا جرحي وأصلحوا حالي، وسألوني فقلت لهم ما كان من أمر الولد الفحل المتبجح، فهونوا علي الأمر وباركوا لي عودتي بالسلامة، فكرت هي للحظة وسألت نفسها:

ـ يكونشي واحد من ولاد الجعادي؟

بعدها ضحكت في مرارة وقالت بينما تهز رأسها:

ـ تكلم اللي مش عارفه إيه تلهيك واللي فيها تجيبه فيك.. عجايب.

في لحظة من لحظات الوعي الحاد تبينت أن الزائرة الغريبة ليست غريبة عني على أي نحو وأنها أقرب إلي من حبل الوريد، وأنني منذ أدركت تفسيرا للعالم من حولي، واخترت شكل حياتي أعرفها، وأستلهمها في كل ما أقوم به من جهود، وأن الوجه المألوف بدا لي غريبا من كثرة التحديق في تفاصيله عبر السنوات، لحظتها قررت أن ألقاها بالترحاب اللائق، أن أفتح صدري لها. وأكاشفها بكل ما يدور في خيالي من أفكار، أطمأن قلبي وأنا أسترجع ملامح وجه أمي وأختي وطفلتي، فأكتشف أن عوامل الوراثة قد أدت دورها على أكمل وجه، في فرعنا المسلوب، أكثر من أي فرع آخر.

***

في تلك الأمسية العصيبة، تذكرت ما قصه علاء عن الرجل الذي حمل طفله الميت بين ذراعيه إلى المقابر ليدفنه، سعى إليه اللحاد وطالبه بأجر فتح قبر لا يملكه، أسلم الرجل جثمان طفله لحارس القبور وتظاهر بأنه سوف يدفع ثم أسلم ساقيه للريح فرارا، تذكرت تلك الحكاية الحزينة، وبكيت عجزي وعجز الرجل، كانت طفلتي الصغيرة تموت أمامي. وأنا أتلفت حولي بحثا عن شيء يباع في منتصف الليل، فلا أجد غير الفراش البائس، وأكوام الكتب والأثاث القديم، كنت مفلسا إلى حد مؤسف، كنت أسترجع وجوه الأصدقاء القادرين على مساعدتي فتزوغ الملامح وتغيب الأسماء وتتداخل العناوين، يتبخر كل أمل وسط ربكة اللحظة السخيفة التي أعد نفسي فيها لاحتمالات حملها على المقابر لألتقي بلحاد آخر يطالبني بأجر فتح قبر لا أملكه فأسلمه الجسد الضئيل وأجري فرارا، اقتربت من الطفلة وعيناي تستجديان

روحها البقاء، كانت عيناها تستجديان علاجا لا أعرف كم يتكلف، ولا أملك أن أدفعه، كنـت أنكمش حول نفسي خزيا ومهانة، وددت لو اختفى من العالم ولا أكون، ضربت رأسـي فـي الجدار بعنف، ضربات محمومة غاضبة تهاويت في أثرها، وغبت عن الوعي بالأشياء، لكنني لا أدري متى ولا كيف أفقت لأسمع صوتها الودود المألوف أكثر من أي مرة أخرى، كانـت تهمس بينما تتحسس رأسي الجريح.

ـ فوق لروحك.. البنت فاقت خلاص.

فتحت عيني لأراها تبتسم في حنو، والطفلة بين يديها تعافر بأناملها الدقيقة، تتحسـس وجهي فتسبب لي ألما رقيقا ناعما يوشك أن يكون ارتياحا واغتسالا من كل سخافات العـالم، اختطفت طفلتي ودفنتها في صدري كيانا حيا نابضا يشيع في أطرافي وأعماقي رغبة البقـاء، كانت هي تبتسم، وعيناها تدمعان بينما يقف ابن عمي الذي انقطعـت عنـي أخبـاره خـلال السنوات الأخيرة بجوارها، ابتسمت واطمأن قلبي وحلمت بعودة أواصر الود والألفة بين أبناء فرعنا الفقير فلعلنا نفلح في استعادة ميراثنا الشرعي الذي سلبوه من الآباء.

*

فارس

* ----------

كنت قد حملت أوراق تعييني في تلك الشركة العالمية حسنة السمعة، وكنـت أشـعر بالزهو لأنني حصلت على تلك الوظيفة الخطيرة بها، ذلك أن الراتب كان ضعف أضعاف مـا تمنحه الشركات الأخرى المنافسة لشركتنا، هنأني موظف العلاقات العامة بنجاحي وطلب مني تسليم الأوراق لكاتب المستخدمين، أجهد عقله في محاولة أن يتذكر اسمه ثم همهم:

ـ أظن اسمه فارس أو محارب أو شيء من هذا القبيل، لا يهم، سوف تعثر عليه في الطابق التاسع بيسر.

ومرة أخرى شد على يدي في ترحيب وحماس بينما أدخل باب المصعد الكهربـائي. كنت محاطا بوجوه مشرقة متوردة وإن بدت لي شديدة التحفظ إلى حد جعلني أتردد في سؤال أي منهم عن كاتب المستخدمين في الطابق التاسع من البناء، حتى عامل المصعد بدا لي شديد التأنق والزهو، اكتفيت بتحديد الطابق مثلما فعل الآخرون، في الطابق التاسـع قـال عامـل المصعد بشيء من الحدة والتأفف:

ـ التاسع..

كنت الوحيد الذي خرج من بينهم. بدا لي أنهم كانوا يشيعونني بنظرة استنكار مستخف مما جعلني أراجع هندامي في المرآة الكبيرة في مواجهة باب المصعد، كان موظـف الأمـن يجلس إلى مكتبه متحفزا لسؤال عن وجهتي فذهبت بنفسي أسأله عن السـيد/ فـارس كاتـب المستخدمين فأنكر بشدة وجود شخص يحمل هذا الاسم في كل المبنى فابتسمت معتذرا وقلـت له احتمال قائم أن يكون اسمه محاربا فضحك في استنكار مستخف وقال إنني لا بـد أقصـد أضاحكه بهذه الأسماء الغريبة ثم سألني عن مطلبي من دخول المبنى أصلا فأوضحت له أنني عينت حديثا في تلك الشركة وأنني جهزت مسوغات تعييني وجئت لتسليمها للسيد المسئول عن المستخدمين الجدد فهز رأسه علامة الاطمئنان ثم مد يده وصافحني بحـرارة وأخـذني فـي أحضانه وقبلني بضع قبلات فبادلته القبلات تأدبا واحتراما، مد يده وأخـذ المظـروف الـذي يحتوي على مسوغات تعييني وهو يهمس في ثقة جعلتني أشعر بالقلق.

ـ لو سمحت..

كان المظروف قد انتقل إلى يده بالفعل وكان هو قد بدأ فحص أوراقي على مهل بينما يجلس على الكرسي الوحيد ويتركني واقفا مكاني، هز رأسه أكثر من مرة علامة الاطمئنان ثم رفع عينيه وتفحصني ثم قال في غلظة:

ـ إذن فأنت من طرف عبد السميع بك..

أسقط في يدي، ذلك عبد السميع بك كان بالفعل قد أوصى مدير الفرع ليختارني ضمن المقبولين للعمل بالشركة، قلت لنفسي إن الإنكار قد يثيره ضدي لكن الاعتراف قـد يكشـف أسرار لجنة الامتحان التي منحتني الفرصة من بين كل من تقدموا لشغل الوظيفـة، فضـلت السكوت، خبط بسبابته بضع خبطات رتيبة على المكتب ثم همس في تعاطف:

ـ عبد السميع بك له أفضال كثيرة على عشرات العاملين بهذه الشركة، أنا نفسي لـي علاقة به فلا تهتم وصارحني بالحقيقة.

فضلت السكوت وتحيرت في أمر نفسي فقام ودس أوراقي في مظروفها ثم ربت على كتفي في حنو وتعاطف وأشار بيده إلى مدخل في آخر الممر دون أن ينطق حرفا، سرت إلى حيث أشار. في المدخل صادفت امرأة سمينة ترتكز على البلاط وتمسـح الأرض الممسـوحة بفوطة وجه نظيفة، ابتعدت عن الدائرة التي تقوم بمسحها وسرت في الممـر الضـيق، فـي مواجهته رأيت مكتبا وحيدا يجلس إليه رجل تخطى الأربعين، أبرز ما فيه عينـان سـوداوان تبرقان ببريق مستطلع حنون وصلعة كبيرة تضفي عليه وقارة وهيبة، كان يتحسس صلعته من آن لآخر وكأنه يخجل منها على نحو لم أفهم أسبابه، مددت يدي إليه بـالمظروف وسـألته إن كان هو المختص باستلام الأوراق فأومأ بالإيجاب وأشار إلى مقعد أمام مكتبه لأجلس، فحص أوراقي وقام من مقعده، أحضر ملفا جديدا من ملفات الشركة وأرفق به أوراق تعييني ثم وضع على غلاف الملف رقما، ووضع الملف في درج مكتبه ثم ابتسم في تعاطف وهمس:

ـ مبروك..

شكرته على حسن مقابلته وسألته عن بقية الإجراءات فأفهمني أن كل الإجراءات قـد استكملت بوضع أوراقي الملف، سألته عن القسم الذي سوف ألتحق به فابتسم وهز رأسه نفيـا ثم همس:

ـ أنتم جيل متعجل، يلزم أولا أن تتدرب على العمل، وقبل أن يتحـدد القسـم الـذي تلتحق به يجب أن نتأكد من قدراتك، ميولك، استعداداتك، سوف تبقى معي فترة مـن الـزمن نتكلم سويا خلال الساعات المحددة للعمل، سوف نتبادل الآراء في كل شيء وأي شيء لنعرف قدراتك الحقيقية ومواهبك الكامنة، لا تتعجب، إنها شركة عالمية كبيـرة رأسـمالها سـمعتها الرنانة وأهم ما يحرص عليه أصحابها هو إسعاد من يعملون بها، كل ما هو مطلوب منك الآن هو البقاء معي لعام كامل أو عامين أو حتى عشر سنوات فسوف تصرف راتبك الشهري فـي مواعيده بانتظام، إنما لا تتعجل استلام العمل في أي قسم قد يظهر في المستقبل أنه لا يناسبك، إن ما يهم الشركة هو وضع الإنسان في مكانه الصحيح، هل تفهمني، وضع الإنسان في مكانه الصحيح.

شعرت بارتياح واطمأن قلبي لاحتمال البقاء مع الرجل دون عمل حقيقي، أبديت لـه سعادتي بلقائه فأفهمني أنه هو الآخر سعيد بلقائي وحدثني عن وحدته في هذا المكان لسـنوات طويلة دون أن يتعامل مع زميل أو زميلة أو يجد في حقيقة الأمر عملا يضيع فيه وقته وكيف أنه كان يأتي في الصباح كل يوم إلى نفس هذا المكتب ويجلس في انتظار الأوامـر التـي لا تصدر أبدا، ذلك أنهم تركوه وطالبوه فقط بالمجيء في مواعيد العمل الرسمية وسـمحوا لـه بشرب الشاي والقهوة والمياه الغازية على حساب الشركة، لكنهم حذروه من مخالطة الآخرين أو الثرثرة مع عامل المصعد أو موظف الأمن، وكيف أنه يحصل على علاواته وترقياته فـي مواعيدها وأحيانا قبل مواعيدها وأن التقارير المكتوبة عنه تشهد بامتيازه طوال تلك السنوات، هز رأسه ثم قال في حسرة:

ـ أن تعيش لسنوات طوال بلا مسئولية، أن تفقد الرغبة في العمل وتسكن إلى الكسل أن تتكثف وحدتك طوال ساعات العمل وتجهل في نفس الوقت أنشطة الآخرين مـن الـزملاء الذين تلتقي بهم صدفة في المصعد أو عند مدخل العمارة أو أحـد ممراتهـا، تتبـادل معهـم النظرات دون حوار منطوق، أن تبدو لهم غامضا ردا على مـا يبـدو علـيهم مـن سـمات الغموض، وتتكرر اللقاءات وتتباعد المسافات النفسية بينك وبينهم وتقنع نفسك لحظـة بأنـك ارتحت منهم وأنه من الأفضل أن يعيش الإنسان وحيدا حتى لا يدخل في مشاكل مع الآخرين، كل ذلك دار في ذهني وأقنعت نفسي بأنني قادر على احتماله حتى التقيت مصادفة به، أقصـد عبد السميع بك وهو صاحب الفضل الأول في تعييني بهذه الشركة، التقيت به مصادفة فرحت أشكي له حالي فابتسم ووعدني بحل كل مشكلاتي بعد أيام قلائل، ويبدو أنه لم يخلف وعـده، ذلك أنه كان واسطتك لمدير الفرع فاختارك رغم عدم تميزك بشيء عن عشرات ممن تقدموا لنفس الوظيفة، وقد طالب رئيس الفرع بأن تشاركني وحدتي فهل لديك مانع؟

تململت في مقعدي وتحيرت بماذا أجيب لكنه أعفاني من الرد واسترسل:

ـ اعتبر نفسك في أجازة إجبارية بمرتب، تعلم الكسـل واركـن إليـه، لـيس مـن الضروري أن تتعجل استلام العمل فالعمل مسئولية وأنت كسول بطبعك، كل إنسان في هـذا العالم عنده استعداد لممارسة الكسل، والكسل قابل للنقصان والزيادة بحسب ما يريده الإنسـان لنفسه، أنت مثلا يمكنك أن ترفض الكسل الكامل، ترضى بنصف كسل أو ربع كسل، إنما لابد أنك مستعد لممارسته في البيت أو الشارع أو المقهى أو حتى فـي الأحـلام، والفـارق بـين الكسول وقليل الكسل هو في مدى تقبل الواحد منهم لفترة استمرار هذا الكسل، بمعنى أوضـح هناك إنسان يقاوم رغبته في التكاسل وآخر يسعى لتزويد هذه الرغبة على حد الهوس فيصبح كسلانا في كل شيء. يأكل بكسل، ينام بكسل، ولا يعمل إلا بكسل شديد ويصادق الناس بكسل ويحبهم أيضا بكسل، أنت تختار في نهاية الأمر طريقك، وسوف ترتاح فـي حياتـك عنـدما

تعرف مكانك بالضبط بين طوابير الكسالى ومن هم على استعداد حقيقـي للعمـل والنشـاط، فرصتك الذهبية أمامك، الملف الذي به أوراقك يحمل رقما عليك أن تحفظـه لأنـك سـوف تحتاجه في كل شيء، يكفي أن تذكره لموظف الأمن ليفسح لك الطريـق، أن تـذكره لعامـل المصعد فيتولى هو إنزالك في الطابق المخصص لك، وتذكره أيضا لموظف الخزينة فيصرف لك راتبك دون أي خطأ في الحساب هذا إن شئت الاحتفاظ بالرقم دون الاسم، لقد قدم لك عبد السميع بك فرصة العمر وعليك أن تختار اسمك أو رقمك، لو كنت مصرا على تسجيل اسمك فعليك أن تسحب أوراقك من ملف الرقم لتضعه بنفسك في ملف الاسم، الملف جاهز على أيـة حال، كل ما هو مطلوب منك هو أن تسحب أوراق تعيينك وتضعها في المظـروف الخـالي وتخرج من هذا المبنى وأن تبحث من جديد عن شركة أخرى تقبلك باسمك ولا تضـع علـى غلاف مسوغات تعيينك رقما ينسف الاسم ويقلل من أهميته. هيه ماذا قلت يا فارس؟

ابتسمت، شعرت أنني أدور في دوامة رهيبة من الأفكار المحيرة، كـان الرجـل قـد تحول عني ببصره وراح يتابع في كسل مناطق التداخل على بلاط الحجرة الملون في انسياب ونعومة بين الأسود والرمادي، كان يمارس الكسل ويرفض أن يعاود الحديث معـي فمـددت يدي وفتحت درج مكتبه، أخذت أوراقي ووضعتها في المظروف الخالي دون أن يعتـرض أو يعلق على الأمر، كان يمارس الكسل بينما أهرب من المبنى في تعجل وقلق.

المحروس الثاني

* ----------

طالت رقدته في صحن الدار، بدا أنه فقد القدرة على السمع أيضا فتمنى لـه الـبعض موتا يريحه، كانوا يسهرون الليل بطوله حول فراشه يندبون تاريخا من الصبوات والأفـراح والعز القديم، عيناه المفتوحتان اللامعتان تطرفان وتنحطان على المدى البعيد كأنـه يحصـي النجوم أو يتتبع أشباحا غامضة تتحرك رغم ما أكده البعض من أنه فقد القدرة على الإبصـار قبل رقدته الأخيرة، كان يتنفس بعسر ومن حوله الحكماء والأتباع والورثة عصر ذلك اليـوم من "برمهات" عندما قال الحكيم الكبير وهو يرفع السماعة عن صدره:

ـ جهزوا الكفن، السر الإلهي طالع.

نهنه رجال وصوتت نسوة وتمرغ حفيد في فراغ المندرة الكبيرة، نبح كلب غريب عن الدرب فاستعاذ إبراهيم عوف من نجاسة إبليس، لكن نهيقا متتابعا لحمارة شكشه غطى علـى كل الأصوات، أسرع الكلافون والأنفار إلى "الزريبة "وأوسعوها ضربا بالشعب والنبابيت لكنها واصلت النهيق بعناد أكثر. استغل المحروس الثاني لحظة صمت بين نهقتين واقتـرح علـى الجمع الحائر رأيا:

ـ تنضرب بالنار.

كان اقتراحه مربكا للجمع الملموم حول الرجل الكبير الراقد رقدة الموت، نهيق الحمار يفسد عليهم حزنهم وجلال لحظة طلوع الروح، لكنه لم يكن في مقدور أيهم أن يوافـق علـى ضرب النار في مثل هذه اللحظات ليزعج الروح الطالعة ويحرمهـا مـن الهـدوء والسـلام اللازمين، وعندما أيقن المحروس أن أيهم لا يملك الحق في التعليق برأي قـاطع فـي كيفيـة التعامل مع الحمارة تحسس سلاحه، رفع غطاء جرابه ثم أخرجه وبـدأ فـي حشـو خزانتـه بالرصاص، خطا خطوتان تجاه الزريبة قبل أن ينطلق صوت الحكيم الكبير مدويا في جنبـات الدار:

ـ النبض وقف.

التفت المحروس نصف التفاتة وهو يحشو سلاحه ثم يزيح ترباس الأمان وأشار إلـى الداخل حيث تصدر الحمارة صوتها دون أن يدري أيهم شيطان فـاجر دفعهـا لأن تواصـل

النهيق إلى حد استفزاز المحروس ضدها في نفس اللحظة التي يفقد فيها أباه، وحتـى عنـدما كفت الحمارة عن النهيق كان هو قد بدأ يخطو على مهل نحو الداخل وسلاحه مشرع في يـده كفارس قديم يتهيأ لدخول معركة حاسمة، غير أن صوت زغرودة ممطوطة فرحة انطلق على غير توقع فاستدار المحروس على عقبيه مدهوشا، حط سلاحه في جرابه بحركة آليـة غيـر محسوبة ونظر إلى المحروسة التي كانت مستمرة في وضع راحة كفها الملموم علـى شـكل نصف دائرة فوق شفتها العليا لتحبك صوت الزغرودة، كانت تقعد على الأرض على مقربـة من قدمي الجد عبد القادر التي تعرت أثر تغطية وجهه على عجل بجذب الحرام إلـى أعلـى بعدما أفتى الحكيم بتوقف نبضه، كانت المحروسة تزغرد وتشير بيدها الخاليـة نحـو قـدمي الرجل الراقد والمحروس الثاني يقترب منها ويجرها في غلظة من جلبابها حاسبا أنها فقـدت عقلها ومتمنيا ذلك على نحو غامض، كان يجاهد بكل عزمه لتحريكها من المكان وكانت هـي تعافر رفضا أن تنزاح من جنب الفراش فتمزق جلبابها وتعرى كتفها الأيمن وبان جزء مـن صدرها الضامر وسط دهشة الخلق العاجزين عن الفهم أو القدرة على التدخل بـين شـقيقين توأمين، لكن المحروسة أفلحت في تخليص ثوبها من قبضته ودارت بكفيها عريها المفاجئ ثم واجهته وبصقت في وجهه بجسارة وصرخت:

ـ إيدك يا أهبل، أبوك لسه صاحي، مش حا يموت السنة دي، بص لصوابع رجليه.

وعلى الفور تحولت كل النظرات إلى الجسد الممدد تحت حـرام الصـوف الـذي لا يغطي القدمين، كانت أصابعهما بالفعل تتحرك حركة حية، تنثني الساقان وتنفردان عدة مرات حتى تفلحان في جذب طرف الحرام إلى أسفل وتستخدمانه كغطاء لهما بينما يتعـرى الـرأس قليلا ويتحرك بعد أن يصدر صوتا لحي يتمطى ويعلن رغبته في مواصلة النوم بغير إزعاج.

حدثهم إبراهيم عوف وهو الشقيق الأصغر لعبد القادر أن الأمر لـيس خلافـا علـى ميراث بين المحروس والمحروسة وأنه أيضا ليس مجرد محاولة منها لفرض سيطرتها عليـه كما يشيع ويدعي ـ كانوا يعرفون أنها أكبر منه بساعات، ذلك أنها ولـدت فـي أول الليـل فأهملتها نسوة الدار وتكاسلن عن قطع خلاصها أو حتى تنظيفها ولفها في غطاء يحميها مـن رطوبة الجو مكتفيات بالتظاهر بالاهتمام بامرأة عبد القادر التي ظلت تنازع ليس لخيبة أملهـا بعد أن عرفت منهن أن ما وضعته لم يكن ولدا كما كن يتهامسن في الأركان خلسة شـامتات فيها مدعيات أنها لن تنال مبتغاها وتلد لعبد القادر ولدا، كانت تتألم بالفعل حتى جاءها طلـق جديد قبل طلوع الفجر بساعة وأطلت رأس المحروس ثم انزلق يبكي بصوت غلـيظ جـامح وتنطلق على الفور زغاريد الفرح بأول مولود ذكر لعبد القادر عوف، كانوا يعرفون أن كبار النسوة من أولاد عوف أشرن على الرجل وامرأته بالاهتمام بالبنـت حتـى يعـيش الولـد، ويعرفون أن المحروس عرف الحكاية في صباه المبكر وظل يتعامل مع المحروسة على أنهـا

عاشت بفضل وجوده هو نفسه، وكيف شاع في ذلك الزمان القديم أن عبد القادر خلف ولـدين توأمين أسماهما المحروس الأول والمحروس الثاني ليكيد خصومه من أولاد شلبي الذين كانوا يدعون أنه عاجز عن إنجاب خلفه من الذكور رغم دعواه بالفحولة مثل بقيـة أولاد عـوف، ولعل أمه اختارت له هذه التسمية الجديدة لتحفظ نسله من عيون الحاسدين حتى انكشف أمـر المحروسة بعد تسع سنوات من مولدها وبعد أن كان عبد القادر نفسه في غير حاجة لادعـاء كاذب بأنها ولد لأنه ملأ الدار بخلفته التالية من الصبيان، يومها احتفظ المحروس الثاني باسمه وتحولت البنت إلى محروسة ـ كانوا يعرفون كل هذا ـ لكن ما قاله إبـراهيم عـوف كـان أخطر من ذلك بكثير فالمحروسة كانت وظلت تكره سيرة أولاد شلبي ونسل أولاد شلبي إلـى حد المقت المميت وترفض بإصرار وعناد فكرة أن تدخل دارهم امـرأة مـنهم وإن عشـقها المحروس وذاب بها وجدا، حتى لو كانت روحه فيها فهي لا تسمح بدخول صنف شلبي دربهم مهما كانت الأسباب، ذلك أن الدم الذي جف في مقابر أولاد عوف ما زال يطن فـي آذانهـا محذرا ومخوفا كما تؤكد في كل مناسبة، وهي تعرف أيضا أن الكراهية المصبوبة عليها ومـا يشاع عنها من افتراءات ليس لها مصدر إلا أولاد شلبي فهل ترضى على آخـر الزمـان أن تدخل امرأة منهن دربهم وهو ما كان مستحيلا يرجونه ـ منذ انحطت أقـدامهم فـي الكفـر وتنازعوا معهم ـ بلا سند إلا الزيف والضلال.

كان البعض من أولاد عوف قد سئم الأمر واستسلم لفكرة المحروس الثاني التي قالهـا عند بوابة الدرب:

ـ المحروسة كبرت وخرقت و ح تركب دماغكم، تمشيكم على هواها وتعترض على شرع الله، ومن أمتي بقى يا رجاله كان للحريم في العيلة رأي في جواز الرجالة وطلاقهم؟

كانت مشاعر الرجولة تنفجر وتتزايد عندما يسمعون مثل هذه العبارات، وكان الرجال يلاحظون أيضا أن المحروسة قد سيطرت بالفعل على عقول الحريم ذلك أن الحريم لم تكـن تكف عن الزن في أدمغة رجالهن، ربما خوفا من بنات شلبي وما يشاع في الكفر عن جمالهن وسحرهن وفجرهن أيضا، ربما لو حدث بحسب ما كانت تقول به النساء ودخلت واحدة منهن في الدرب يتسلل الرجال خلسة بحثا عن الشعر الهفهاف الذهبي والعيون الملونة، فالرجال من أولاد عوف عيونهم فارغة وعقولهم خفيفة مثل المحروس، تأرجح الرجال من أولاد عوف في تفسير الأمر إذن، حتى كانت تلك الليلة العصيبة من برمهات التي انكشف لهم فيها مـا كـان خافيا من أمر المحروس الذي اجتاب لهم حكماء جهلة لا يعرف أكبرهم الفارق بـين النـبض المستمر والمتوقف والذي انشغل في اللحظات العصيبة بحمارة تنهق ربما لتطرد شبح الموت المحوم حول بدن عبد القادر وأوشك على قتلها مثل خيل الحكومة في لحظة طلوع روح أبيـه التي تتطلب السكون والخشوع من أمة لا إله إلا الله، وحق للـبعض مـنهم أن يتنـدر علـى

المحروس لأنه تعجل موت الرجل على نحو مفضوح ليرث عنه الدار والدوار وعمادة الكفـر مع أنه يعرف تماما أنه الوحيد الباقي من أبنائه الرجال وصدر الورثة على قيد الحيـاة، كـان اسم أسرتهم الذي حملوه وتباهوا به مثلما فعل آباؤهم وأجدادهم من قبل قد أصبح فـي تلـك الأيام عبئا يشقيهم وأمانة ترهق أكثرهم، ربما لأن الخلاف بين المحـروس والمحروسـة قـد تحول إلى عداء معلن يشطر العائلة المشطورة ويمزقها أكثر من أي وقت مضى.

انتصف شهر برمودة فعاد الجد عبد القادر ليجلس على دكة النـورج القـديم متلفعـا بعباءته مسنودا بذراعه اليسرى على شمروخ قديم له حطوه كمسند يتوازى مع المسند الأيمن لدكة النورج، طرف الشمروخ الأعلى نافذ في تجويف من تعاشيق الخشب وسعوه في ظهرها والطرف الآخر مغروس في حفرة بالأرض أسطوانية على مقاسه ربما صنعها ثقل الرجل أو حفرتها يد ليسكن فيها بعيدا عن مسند الدكة بمسافة متر ونصف المتر على وجـه التقريـب، كانت عيناه العسليتان المفتوحتان تتحركان في كل اتجاه أو تثبتان بتركيز لتنفيـان فـي كـل الحالات فساد تلك الدعوى بأنه ضرير، ومن جديد عاد الرجل إلى جلسـته المألوفـة ليكـون محطا للأنظار ومحورا من محاور الحوار أقرب ما يكون إلى بؤرته، كان مألوفا أن يتجه إليه أولئك الآتين من المدن البعيد، يقصده الواحد منهم حيث يجلس، يتناول يـده ويقبـل ظهرهـا وربما يهمس ببضع كلمات تفصح عن هويته، اسم أبيه أو أمه ومكان عمله وعدد أبنائه، ولـم يلحظ أي منهم أي تبدل ظاهر في تقاطيع الوجه، تحول الرجل على نحو غامض إلى ضـريح يتنفس في صحن الدار يتحسسونه بالنظرات وبالأنامل ويخاطبونه رغم روحه الهائمـة بعيـدا عنهم، لم يجرؤ أي منهم مهما ارتفع مقامه أو زادت ثروته أو خلفته أن يدخل الدرب قبـل أن يتجه إليه وكأنه يحصل منه على إذن الدخول، ولعلهم أدركوا في السنوات الأخيرة أنه بـرغم هيام روحه في عوالم بعيدة فإنها كانت قادرة أيضا على أن ترقب ما كان يدور في الكفر مـن أحداث؛ لأنه في كل أمر خطير كان يفجؤهم بتحريك لسانه الساكت ببضع كلمات تكون هـي الفيصل في الموضوع، ومع أنهم كانوا يعرفون عنه قوة البأس والعنفـوان والضـراوة فـي مواجهة الخصوم والأتباع في زمانه الفائت إلا أن أكثرهم وعيا وإيمانا بعلمانية العالم صدق ما قالت به المحروسة من أنه تحول إلى ولي من أولياء الله الصالحين وأنه يخاطب في أمسـياته الملائكة والأنبياء وأهل الخطوة ويتطاول عليهم بدلال عارف بالله متصل ومسنود على يقـين في رضاه، أما جهامة الوجه الجليل التي تزايدت فقد فسرها إبراهيم عوف علـى أن روحـه المحلقة لا تكف عن العراك مع أرواح الخصوم الذين نقلهم بضرباته إلى العالم الآخر؛ لأنهـا هي نفس تفاصيل الجهامة التي كانت ترتسم على محياه أيام صباه وفتوته أثـر كـل معركـة دخلها على غير توقع من تلك المعارك التي تربصوا له فيها وأفلت منهم وعاد بزهوه وشموخ

نفسه وإن ارتسم على الوجه الجسور المنتصر مثل تلك الجهامة والكدر ربمـا كراهيـة منـه للغدر والتدني وخسة المتربصين من أولاد شلبي.

كانوا يتسمعون إلى مثل هذه الحكايات في حضرته بينما هو ساكت يهز الرأس ربمـا حسرة لأنه تحول إلى قعيد، وربما تأسيا على عصر الرجال الذي ولى، وربما اعتزازا يبعـث في النفوس شموخا وفخرا بما كان في الزمن الفائت يحفزهم لأن يصمدوا في وجـه الـزمن الجديد دفاعا عن نسلهم ومجدهم وعزوتهم.

عندما دخل المحروس الثاني من عتبة الدار ساد صمت، وقف الأتباع والأنفار وبعض الورثة، تأملته المحروسة مليا، كان يرتدي ثوبا زهريا وعباءة خضراء والرأس عـار، خطـا خطوتين نحو الرجل ثم توقف، أخذ يمينه وقبل ظهرها:

ـ فرحان لك يا با.. فرحان لقومتك.

قالها وأعاد اليد إلى مكانه في بطء، همست المحروسة من بين أسنانها:

ـ اللي يشوفه يا ولاد عوف يقول عريس داخل على عروسة من الناحية الثانية.

غمغم الرجال وهمهموا، زاموا ودمدموا ثم ساد صمت قطعته المحروسة وفي عينيهـا علامات ظفر وانتصار:

ـ الخلق بتقول إنه خد بنت شلبي وعقد عليها عند مأذون البندر وأنت راقد يا كبيـر، وبيقولوا أنه حاش لها دار في البندر وبيصرف عليها من خيرك يا سيد الرجال.

تلجلج المحروس واصفر وجهه، حار في أمر نفسه حتى تنحنح عبـد القـادر وقـال بصوته القوي الشامخ وعيناه مركزتان على المحروس من قمة رأسه إلى أسفل مداسه:

ـ عجايب إن كان عمل كده يبقى الولد ده خاب، ما يدخلش الدار ولا يمشـيش فـي مشهدي وإن رجع دربكم بعد موتي ينضرب بالنار.

تصالب المحروس الثاني وشمخ بأنفه في عنجهية لم تكن في طباعه بمثل هذا القـدر يوما، خطا خطوتين بظهره ثم استدار على عقبيه في رشاقة ، واجه باب الدار المفتوح علـى مصراعيه، لم طرف ثوبه الزهري وخطا في بطء، عبر عتبة الدار مع وحدة قلبـه القاسـية وكأنما يرفض بما تبقى لديه من عزم وإرادة أن يحمي الفرحة النابتة في قلبـه مـن المـوت المبكر، الذين رأوه من أولاد عوف في البندر بعد ذلك أكدوا أنه يعيش مع بنت شلبي التي وقع في هواها وانجرف إليها بفعل السحر والفتنة النادرة، والذين لم يشهدوه بأبصارهم يؤكدون أنها محض كذبة محبوكة من حريم أولاد عوف بإيعاز من المحروسة التي لم تعد تذكره بخيـر أو بشر وكأنما تنفي بذلك وجوده في عقول الناس.

الابتلاع

---------- *

عيبك الخطير أنك تحول كل مآسيك إلى نكات تضحك عليها وتحاول إضحاك الخلـق معك، أنا لست ضد الضحك طبعا، أنا ضد الضحك من غير سبب معقول، حكايتك مأساة بكل المقاييس أو هي على الأقل بوادر مأساة يلزم العمل على عدم وقوعها، سأوضح لـك الأمـر مستشهدا بكلامك أنت نفسك، ظاهر أي موضوع يختلف عن جوهره وسوف نسعى للوصـول إلى الجوهر، الولد يكبر البنت بعامين وتسعة أشهر والبنت لم تكمل عامها الأول وتحتاج فـي هذه السن الحرجة قبل الفطام إلى غذاء كاف، لا يحق لك أن تقاطعني قبل أن أكمل كلامـي، عيبنا هو عدم القدرة على الإصغاء الجيد لمن يتحدثون إلينا، المسألة ليست زمنـا يسـتغرقه متحدث أطول أو أقصر من الآخر، يجب أن نفهم ما سبق وقلته لك قبلا من أن البعض عندهم كلام أكثر أهمية وجدوى وقد يحتاج إلى وقت أطول مما يحتاجه أولئك الذين ليست لديهم غير بعض التعليقات اللفظية العابرة التي تسعى إلى الإضحاك وإشاعة جو المرح المفتعل، هنـاك أيضا من يبرع في صياغة أفكاره في كلام مختصر يفي بالغرض ومن يعجز عـن توصـيل فكرة بسيطة مهما طالت ثرثرته، كل هذا تفريع هامشي للموضوع الأساسي الـذي يلـزم أن نعود إليه ونفسره.

لم يكن مثل هذا الكشف لغزا لأنك عشت مرارة الفقد منذ البداية، أعطيت لأنه لم يكن لديك غير الاستعداد الفطري للعطاء، وعندما أدركت أنك تعيش وحيدا في عراء العـالم دون الاستناد على أحد فرحت لأنك لم تفعل معكوس ما فعلت ولأن اللعبة كانت قد تخللتك ولبستك وصارت مبرر بقائك الوحيد رغم أنه حدث أن كشر هو عن أنياب الوحش فيه واستباحك كما استباحهم. غير أن الجرح سكن في الأعماق الغويطة واستكان، وكلما ضاقت بك الدنيا كـان يعل عليك فتستعيد تاريخا من النهب كنت فيه أول الضحايا.

ليلتها أدركت أن وجودك وسط الجمع خدعة فلا الوجه ضحاك ولا اللسان تدرب على الهدهدة والتملق، لم يكن غير الكدر على سحنة مضروبة بألف سـوط فـي الـزمن الفائـت وميراث مسلوب لم تستند عليه فترنحت دوما، ومطالب الآخرين طوق فـي عنقـك يصـعب الخلاص منه، ليلتها لم تسهم معهم بالقرش الصعب في حفل المأكلة بعد المشربة فهون أكثرهم عليك الأمر وتسابقوا في التطوع باحتمالك، لكنك أحسست بسخف المتطفل عندما تسابقت مـع أحدهم منتشيا على قطعة لحم مثلما فعل الآخرون فواجهك وبدا لك أنه يعايرك تصفية لحساب قديم، أعادك رغما عنك إلى ما فات من أمر استلابك وتأكد لديك ما كان مؤكدا وتناسيته فـي

زحمة الرغبة في الخروج إليهم من قوقعتك أنه من يمتلك ويدفع يحق له البقاء فبكيت مترنحـا بعبء شراب ابتلعته ولا يخصك..

تقول إن الولد وقد تخطى منتصف العام الرابع أخذ " ببرونة " البنت ووضع حلمتهـا في فمه وامتص محتوياتها ثم أعادها فارغة بجوار البنت النائمة التي لا بد وأنها سوف تعجز في صحوها عن حماية رضعتها من قبضته الأقوى، تقول إن الأمر لم يشغلك كثيرا إلا بعـد تكراره على مشهد منك في الليلة التالية فأيقظت زوجتك لتحكي لها ما حدث فلـم تهـتم هـي عكس ما كنت تتوقع من انخراطها في الضحك مثلما كنت تضحك، كانت هي غارقة في نومها الثقيل فتركتها لتغطس في نفس البحر الذي أخرجتها منه قسرا، في الصباح عاودت الحـديث معها عن اكتشافك بنفس الحماس لإضحاكها فبدا لك أنها تستمع إلى نكتة سخيفة سمعتها ألـف مرة، لا بد أنك شعرت بالخجل لحظتها وتلعثمت على عادتك ثم حدثتها متواريا خلـف نبـرة الفاهم مقدما إليها تفسيرك الخاطئ بأنه مجرد حلم، حلم بريء لطفل بريء يبلع بينما هو نـائم في واقع الأمر مستيقظ في ظاهره ـ يبتلع جرعة لبن صناعي لا تخصه تنفيسا عـن رغبـة مكبوتة في ابتلاع ما كف عن تعاطيه خضوعا لإرادة الكبار، حدثتها عن كل ما سمعت به من كشوف في علم نفس الأطفال فلم تسعفك باستعدادها للسماع وغيرت الموضوع.

وزور هو أوراقا بشراء الأرض والدار واستخدم بصمة الراقد في ركن القاعة رقـدة الموت، كانت هي تحت قدميه تحرسه وتنتظر تلبية ما قد يصدر عنه من رغبات لكنها أغفـت في قيلولة ساكنة لتتيح له إكمال مراسيم السلب بلا مانع، اكترى شهود زور ودفع واطمأن إلى ضمان الامتلاك، ويوم طالبته هي بأن يتولى بنفسه تقسيم الميراث بعد ذكرى أربعين الرجـل ضحك ساخرا من حسن نواياها حيث أصبح هو سيد الدار ومالكها، ضربت صدرها المهـدود براحتيها وخرج صوتها ندبا متواصلا لم رجال الدرب وحريمه يستفسرون إن كانت قد حلـت بالدار مصيبة جديدة فأشارت إليهم أن اسألوه فأجاب بأنه اشترى بمحض إرادة الرجل وأظهر عقد الشراء أضاف بأن الرجل كان يكره الضعفاء ويعشق الأقوياء القـادرين علـى حمايـة ميراثهم من عدوان المتربصين، كان متبجحا إلى حد أنها أنكرت أن تكون بالفعل قد حملته في بطنها تسعة أشهر أو أرضعته من لبنها، تبرأت منه وسقطت من طولها ولم تقم لها بعد ذلـك الصباح قائمة، تاه منها الحقل الموزون وانفتحت العينان على عدم وبقيت جالسة فوق فراشـها مشلولة الأطراف واللسان تتأبى على الرقاد، علها حسبت نفسها تكفر عن لحظة الغفلـة التـي أتاحت له فرصة التحكم في مصائرنا بلا حياء".

أمهات الزمن الفائت يا صاحبي كانت تعرف واجباتها وتقوم بها على خير وجه، كانت الواحدة منهن تصحو من نومها إذا كح طفل أو تقلب في فراشه، يدها المدربة تتحسس جبهتـه لتطمئن على حرارته دون مقياس للحرارة، تسرع بالقيام من مرقدها في برد "طوبة" لتعمل له

الينسون أو النعناع بحسب ما تتطلبه الحالة، زوجتك مأساة بكل الحسابات لأنها تستغرق فـي النوم وتترك الولد يمارس استغفالها ويستلب غذاء البنت، قال القدامى إن المال السـائب يعلـم السرقة وهو قول صائب يتأكد صدقه كل يوم لو قرأنا ما ينشر عن بعـض تلـك الشـركات الاستثمارية والبنوك الأجنبية والمشاريع الوهمية التي يؤسسها محتالون على مستوى عـالمي بهدف استلاب رصيدنا وتمييع ميراثنا، القياس مع الفارق طبعا لكن الغفلة هـي الغفلـة والأم التي تسمح باغتصاب جرعات اللبن الصناعي قبل أن تصل إلى فم طفلة في عامهـا الأول لا تؤتمن على مصيرها في مستقبل الأيام.

"وقالت البنات بعد موت الأم محسورة: دافع عنا وساعدنا لنستعيد حقنا المسلوب، حتى ولو لجأت إلى قتله ما شهدنا ضدك، لكنك استخدمت حكمة الأفندية وجمعت مجلسا من كبـار رجال العائلة وطرحت عليهم ما كان من أمر الحق الضائع فطيبوا خاطرك ببضع عبـارات: عيب أن تتهم أخاك الأكبر وهو الذي أصبح في مقام المرحوم، ما في جيبك في جيبه وما فـي عبه في عبك والدم لا يتحول إلى ماء، البنات مصيرهن الزواج والواحدة منهن لها جهازهـا كأحسن ما يكون في شرع العائلة، أما أن تستولي على موروث من الأرض وتضيفه إلى ملكية غريب فهو ما لا يقبله أحد منا ولو طارت فيها رقاب، وأنت أفندي لـن تـزرع أو تحصـد، شهادتك سلاحك الذي يعفيك من طين الأرض ووسخها.. انفض المجلس فتحسس ذقنه وهـز رأسه متوعدا فابتلعك الخزي لأنك جرؤت على فضحه في حضورهم".

تقول أنت أنه حدث أن تطوعت بمحض اختيارك لإعداد جرعات اللـبن الصـناعي للبنت في تلك الأمسيات التي مرضت هي فيها والهانم تستغرق في نومها عقب ذلك المسلسـل الساذج الذي تصادف وكان يعرضه التليفزيون أيامها، كانت تعد الرضعات وتضعها بين يدي البنت وأنه حدث أن فعلت نفس الشيء مرة وخرجت من الحجرة بحثا عن عود ثقاب تشعل به سيجارتك ثم عدت لتجد عبوة اللبن الصناعي قد تلاشت عن آخرها والبنـت تبكـي بحرقـة والوعاء الفارغ بينها وبين الولد الذي بدأ لك متناوما يداري جرمه متقلبا في الفـراش بغيـر معنى.

"وذهبت لحضور حفل زفاف كبرى البنات مكرها لأنه لم يكن من المناسـب لطبعـك التخلي عنها في يوم فرحتها، قابلك أمام الغرباء بعبوس الوجه وفتور الكلمات فأجهدت نفسـك لتحتفظ بشكل علاقة مألوفة بين شقيقين أحدهما وفد من مدينة يعمل بها والآخر راسخ ومعدود في درب عائلة تشمخ بالأنوف اعتزازا بجذورها الضاربة في طين الأرض رغم مـا يجـري بين أفرادها من انتهاك الحرمات واستلاب الحقوق، كان اسم العائلة يطن في أذنيك ويجلجـل في مكبر الصوت وكأنه يعلن للأسرة الأخرى تحذيره الخفي شأن أفراحها التي تتحـول إلـى سباق بين عائلتين، ولأنه مثل دور الأخ المسيطر عليك وامتثلت أمامهم، انتحـى بـك جانبـا

وسألك عن سر غيابك الطويل عنهم وتعلل بأشواق البنات متناسيا أنه طردك، فاعتذر المطرود للطارد عن تقصيره في طرق بابه من أجل أشواق البنات.. كنت تتعامل معه بحذر وتخشى لو دب بينكما خلاف جديد يحرمك من تقليل شكاياتهن منه لأنك كنت تفلح أحيانا في تخليص بعض حقوقهن بالحيلة أو بالحزم المحاذر المحسوب أو حتى بالدعابة في لحظة انتشائه من أثر الدخان الأزرق الذي يخرج من صدره العريض مع ضحكاته ونحنحاته، كان يتجاوز حدوده ويسألك إن كنت أيها الأفندي قادرا على دفع تكاليف قعدة من قعداته المسائية فتجيب بالنفي ليضحك ويوشك أن يجعلك هدفا لإضحاك أتباعه ناسيا أنه هو نفسه الشقيق الذي نهب ميراثك وأجبرك على العمل بنصف مؤهل هو مجدك وعارك، سلاحك والطعنة النافذة في قلبك، مصدر زهوك لأنك انتزعته بعناد من واقع شرس أول سنوات اغترابك، كان يتأكد لديك صدق ما سبق أن قرأته من أن العالم انقسم إلى مظلومين وظلمة، مقتولين وقتلة، حاكمين ومحكومين، فقراء تنطمس تحت الرماد مواهبهم وقدراتهم وأغنياء أكثرهم حمقى مثله يباهون ويتيهون لأنهم يسهمون في فساد العالم".

تقول إن الشكوك حامت حول دماغك على نحو غامض. خطرت في خيالك شاحبة وبعيدة ثم تخلقت وبعثت ومضاتها الخاطفة التي حيرت الدماغ بقدر ما بعثت فيه من مشاعر الارتياح، وفي المساء التالي أخذت الولد لينام في حجرتك خلافا لاعتيادك النوم منفردا، كان يقوم من فراشه في منتصف الليل أو قرب الفجر ويخرج من الحجرة ويتصادف أن تشعر بحركته وتسأله عن وجهته فيرد عليك بأنه ذاهب لقضاء حاجته في دورة المياه فتفرح وتتوهم أنه تعلم أخيرا وجوب المحافظة على نظافة الفراش، كنت تتقلب ولا تشغل نفسك في أول الأمر بمتابعة خطواته حتى اكتشفت أنه يذهب إلى الحجرة الأخرى كأي لص محترف ليستلب غذاء البنت، ذلك أنك صحوت مرة على صراخ الطفلة وذهبت لهدهدتها بينما الهانم غارقة على عادتها في نومها الثقيل لتلاحظ ابتلاع الرضعة التي كنت قد أعددتها لتوك، ليلتها أيقظتها غاضبا وأفهمتها أنه من الواجب أن تحمي هي البنت من لصوصية الولد لكنها سخرت من فكرتك وأنكرتها فأكدت لها صدق ما كان من ابتلاع غذاء البنت فابتسمت وفسرت لك الأمر على أنه نوع من أنانية الأطفال شائع، ضحكت أنت واعتبرت الأمر نكتة ورحت ترويها على مسامع الأصدقاء والأهل مستجديا ضحكاتهم أيضا وفاتك أن الأنانية شعور إنساني لا ينتهي في مرحلة الطفولة وإن كان يبدأ منها ويستفحل خطره في الزمن التالي. وفاتك أيضا أن تؤكد لها أن من يفرط في حق طفلة لم تكمل عامها الأول مستعد أن يتعامى عن حقوق شعب واستلاب وطن.

أحمد الشيخ

* الناس في كفر عسكر (أولاد عوف)
* الحنان الصيفي
* حكاية شوق
* البحر الرمادي
* حكايات المدندش

الأعمال الكاملة

تأليف : أحمد الشيخ

- **الناس في كفر عسكر**

(أولاد عوف)

- **الحنان الصيفي**
- **حكاية شوق**

في كفر عسكر

- **البحر الرمادي**
- **حكايات المدندش**

في كفر عسكر

الناس في كفر عسكر

- -

(أولاد عوف)

إهداء

- ----------

لمصر المستقبل

والناس

ولروح أمي الرافدة في مدفن ضيق وسط مدافن قرية في أحضان الدلتا، تمشـي لـه مسافة في الأرض المزروعة، ونفكر في الموت، نقرأ لها الفاتحة ونشـكو لروحهـا همومنـا والزمن الصعب، نرتاح، نتجدد، ويزيد في قلوبنا الإيمان، نفكر في المستقبل، ونصدق نيتشـه وكلامه عن العود الأبدي، ونصدق أوراق البردي. . ونصوص الأهرامات.

نتأكد أن بلادنا قديمة وخالدة، موجودة وحاضرة وصاحية في عيون الناس.

المؤلف

تنويه

* ----------

الزمان الهابط والزمان الصاعد، أو قل الزمان المتتابع والزمـان المتراجـع عنـدما يلتقيان في بؤرة. . ربما حول موقف أو ذكرى أو شخص. . دوامـات يصـعب الإمسـاك الأكيد بمسارها المرعوش برغبة الامتزاج. . الأنات وصدى الصوت الحـي متشـابكا مـع الشحوب الخافت لأنفاس ذوبها الفراغ لكنها ما زالت في الأذهان تحيا، وكأنهـا تتبـادل مـع الزمن الدوار غير الثابت رغبة البقاء المستحيل، كان العبء فوق الطاقـة، مغـامرة تتطلـب الجسارة، والرغبة ـ إن كان للرغبة وزن ـ في الاستمرار. هبوطا وصعودا يتقابلان فـي الزمان الفائت.

والأرض. الحرب، الموت، بؤر امتزاج

أحمد الشيخ

حسن عوف

* ----------

1898 ـ 1971

ركب دماغه ولم يطاوعني فراح مني وخلف

لي في القلب حسرة

وكان القمر بدرا. . لبدنا أنا وعبد الحميد خلف الباب الكبير. . كتمنا أنفاسنا ونحـن نتسمع صوته المعهود. . كنت خائفا والشومة في يدي وفي بالي أنه لن يفلت هذه المـرة. . ضغط عبد الحميد على كتفي وكأنه ينبهني أو يشجعني. . سمعت خطواته الجسـورة تـرج الأرض في عنفوان وجلبة وكأنه فحل جاموس. . كتمت أنفاسي فلم أعد أسمع غير نحنحاتـه تشرخ صمت الليل وفراغ الدار. . عند الباب الموارب تحسست بالأذنين أنفاسـه المطمئنـة تعبر العتبة. . تلقفه عبد الحميد في صدره وأحاطه بذراعيه. . عبد الحميـد كـان عفيـا. . ارتبكت أنفاسه لوهلة قبل أن يتساءل مداريا رعبه بشيء من الاستهانة والكبر.

ـ مين ؟

" سوف ترى " قلتها لنفسي وأنا ألمحه رغم العتمة من خلال انعكاس ضـوء الشـعاع القمري الذي يرسم خطا مائلا عبر عتبة الباب الموارب ويغطي طرف جلبابه أيضا. . لانت الشومة في يدي وكادت أن تفلت وطرف الجلباب يقاوم. . ارتبكت لحظة وأنا أواجه ما كنت أتخيله وأتمناه. . عتل عبد الحميد تحت ثقل المقاومة فحركت الشومة لأحميه وهويت بها على سلسلة ظهره. صرخ في ذعر المأخوذ هذه المرة وهو يجاهد أن يبدو صوته مطمئنا واثقا.

ـ مين؟

" ما أهمية أن تعرف ؟" ناولته الأخرى والتي تلتها. . لم ينطق بكلمة وكأنه يكيـدني ويؤكد بالصمت ضعفي. . طنت في أذني رغم سكونه أصداء كلماتـه التـي يعـايرني بهـا ويذلني، يا أصفر يا أبو علة، طوحت الشومة وأتيت بها من خلف ظهري كمـا كـان يفعـل ونزلت بها على دماغه. أن في استكانة وسقط الشموخ المقيت. . مرة أخرى طوحت الشومة ونزلت بها على الدماغ ثم الكتف. جعر في خفوت مخز لأنه قالها :

ـ جاي. .

" قلها يا رجل. . قلها مرة أخرى، للمرة الأولى أسمعها منه وكأنها موال مقهور بعد ألف غنوة فوز. . فرحت ونزلت الخبطة التالية بعزم أشد. . استغاث هـذه المـرة وكـأن الضربة مزقت عن وجهه برقع الحياء. .

ـ روحولي يا خلق البلد.

" ما زلت تغني يا رجل؟ " أيقنت من هزيمته وأحسست بالغيظ لأن صوته ظل واعيا، ولما سقط شمروخك فوق دماغ الرجل سقط من طوله ولم يقم أبدا. . ففيم العويل؟ استجمعت قواي ونزلت بضربة مغلولة فصرخ عبد الحميد. . انزاح شيء بقوة وارتمى فـوق الأرض ودفعتني يد ناحية الباب. . كانت أنفاس عبد الحميد تقترب مني. . بدأت الرمح. . كان عبد الحميد خلفي يرمح أيضا. . كنت خفيفا وكان ثقيلا. . طالني عند الكوبري. . توقفت لاهثا

من التعب فلطشني بالكف فوق صدغي فعرفت ما جرى. . كان يمسك رأسه بيده الخاليـة. . همس متماسكا :

ـ بطحتني يا أعمى يا ابن الكلب.

وسرنا. . سألت عبد الحميد عارفا جواب السؤال إن كان الرجل قد مـات. . مـط بوزه ولم يتكلم.. تحسس رأسه ودفعني من ذراعي وسرنا في اتجاه البندر. . الصمت بيننـا كان معجونا بالرهبة والشعاع القمري يفضح الخطوات المتسللة. ملعون أبوك يـا قمـر ". . أحسست بالتعب والرغبة في القعود أو حتى الارتماء على الأرض راضيا بما يجري لي حتى لو جاء الرجل وذبحني دون أن أراه.. قلت أزحزح الخوف والرهبة :

ـ أنا تعبت.

شدني عبد الحميد من كوعي وظل ساكنا يفكر. . رأيت الدم ينزف في بطء متلصصا تحت طاقيته ويشق لنفسه طريقا ضيقا متحاشيا بروز أنفه. أخرجت منديلي وجففت خط الـدم وعبد الحميد ساكت. . ربطت رأسه بالمنديل وغطيته بالطاقية. .

سألته :

ـ الخبطة بتوجع يا عبد الحميد؟

لكنه لم يرد

ـ عمره قالها المفتري؟

لم يتكلم. . كان الدم ينشع من خلال المنديل إلى الجبهة. . غسلت منديله في بحـر الساحل ومسحت الدم. . لم يكن عندي ما يقال أو كان عندي الكثير فاحترت عن أي الأمـور أتكلم فكان صمت، إلا وقع خطواتنا على أرض السكة الزراعية. . رحت أسـترجع صـوت صراخه المستغيث وأحس نوعا من النشوة غير المكتملة. . احترت كيف أجـره للكـلام. . قلت :

ـ خللي برهومه ينفعه.

سكت أيضا فأحسست بالخيبة. قلت لنفسي يكتب الأرض لبرهومة ونطلع من المولـد بلا حمص. الخنزير، همس عبد الحميد بحلقه. . حسبته يرغب في الكلام سألته بسرعة :

ـ حرام ولا حلال؟

قال وكأنه يسد حلقي بالكلمة:

ـ اخرس

ـ أنا خايف يرمح ورانا.

قلتها دون وعي. . كان مرسوما في دماغي بعوده المفرود الفحل ونظراتـه الحـادة المهيبة وصوته القاطع الغليظ وشمروخه الذي أخافني كلما رأيته في قبضـته وكأنـه سـوف

يخبطني به فوق أم رأسي. ورغم أنه كان ينزل فوق رءوس أخرى في المعركـة فيسـحقها، وأنه قالها لي مرة وهو ينظر إلي بعينين ساكنتين وكأنه يمنحني هدية العمر في لحظة قيلولـة صافية. . " ولما أكون زعلان والشمروخ في إيدي يا وله أتاوي من قصادي " لكنني كنـت أحس أحيانا أن شمروخه سقط بالفعل فوق دماغي ربما أكثر من مرة. . لا أشـك فـي أنـه طالني به مرة. . وكان حتم أن أرتعش لما أراه. . أما كيف ومتى سقط فـوق دمـاغي، لا أعرف بالقطع.

همهم عبد الحميد بكلمة فحسبته يحادثني بعد طول صمته. . قلت مستفسرا في لهفـة غريق لنسمة هواء:

ـ بتقول إيه؟

ـ اخرس.

وخرست. . كنت أخشاه لما يغضب. . أبي نفسه كان يعمل حسابه لما يغضـب. . خوفي منه كان ممزوجا بالحب والإعزاز.. كان شهما وحليما أما أبي فكان غشيما وتصـعب معاشرته، لو طالنا لدفننا أحياء وعاد إلى الكفر بعد أن يغسل يديه من دمنا إذا عصناه، ويرجع لمبروكة يفرحها بخبرنا وكأنه فتح عكا. . أحسست بمغص في بطني وأنا أتصوره يرمح في أثرنا ويطولنا. قلت في محاولة للهرب من الفكرة التي حومت حولي وعششت فـي دمـاغي وكأنني أستجير :

ـ كان بيستجير زي الحرمة. . مش كدة؟

ـ اسكت.

وسكت مرة أخرى ولم يعد غير صوت خطواتنا يتردد دويا مرتبكا. . قلـت لنفسـي لأطمئن : " خبطة واحدة فتحت دماغ عبد الحميد وجعلته كالـدائخ ". . " وبـدأت أحصـي الضربات التي أصابته. . لا شك أنني أصبحت رجلا ما دمت قد جعلته يستجير، نظرت إلى وجه عبد الحميد. . كان خيط من الدم قد بان هذه المرة أكثر اتساعا. . شطفت المنديل فـي المصرف ومسحت الدم وسرنا. . كان وجه عبد الحميد غائبا في أمور لا أعرفها. .

ـ أنت زعلان مني؟

سألته فكف عن المشي ورفع يده وحط راحته على كتفي ونظر إلـي. . حاولـت أن أفهم ما يرغب قوله فلم أفلح. . هز دماغه الجريح وزام يأسا من إفهامي بـالنظرة شـيئا. . كانت بيوت البندر قد بانت من بعيد نقاط ضوء بعيدة شاحبة لكنها توحي بالونس وتبسط على القلب المغلوب بقية الطريق الساكت غير المطروق. . قلت لنفسي إنه قد هـان الأمـر وأن الفرار أصبح ميسورا ولو إلى حين، غير أنني كنت أجهل ما سوف تأتي به الأيام.

لم يبق شيء. . العود الذي انحنى والوحدة. . والنظر الكليـل والوحـدة. . العـري والوحدة. . وصمت الأيام المرة والمشوار الممدود بطول العمر. . خاليا إلا من وهـج وحيـد خبا وخاف العتمة. . والجرح الغويط وفراغ اليد وبقية اعتزاز يجعلني أتأبى على الطلب،"قال عطية: صالح ابنك فخذ منه بالمعروف أو بحكم المحكمة" قلت أبدا. . صالح وقف أمامي في المحكمة مرة. . ظل يرقبني كأنه يقيسني وقالها: أنت فتني وهربت. . والقاضي لمـا سـأله كان يكذب: اشتريت ودفعت فضحكت في سري. . كنت عـارف أن العقـد باطـل والخـتم مسروق، وسيد راح وخاف في القلب حسرة. . وحتى لو زحفت إلى عتبات الموت بمركبـة الجوع لن أفعل. . والولد الصغير جاء حاملا وجه سيد فجعلني أبكي. . قلت لـه يسـتحيل أرجع. . وسيد راح في شربة ماء. . قلت له ألف مرة : كن في حالك والتفت لمصالحك فلم يطاوعني. . ركب دماغه وظل يذهب. . وفي المرة الأخيرة كان يضحك. . ويحدثني عن صحتي قائلا أنها أحسن. ولما قلت له حسن الختام قال : أبدا. . وعـاود الضـحك قـائلا : ستعيش بعدي. وانقبض قلبي ساعتها ولم أضحك. . كنت في كل مرة اعتبرها نكتة لكننـي هذه المرة لم أستطع وساد وجوم قطعه سيد بابتسامة قائلا : حتى لو مت قبلك خذها ببسـاطة ولم أشاركه الضحك. . جعلت أمتص دخان الجوزة متفكرا كيـف يحلـو لـه ذلـك الهـذر العجيب. . وحدثته عن الأيام التي فاتت. . عن رغبتي في أن أراه مرتاحا. . حدثته عـن أملي في أن يختار لنفسه بنتا ويخلف أولادا ولو عشت أفرح، ولـو مـت أكـون مطمئنـا. . واستمر أياما ثلاثة قبل أن يحمل حقيبته ويضع كفه فوق كتفي ويسألني إن كنت محتاجا لشيء فأهز الدماغ نفيا. . ويضحك بالعينين والشفتين وكل التقاطيع والأنفاس. . يتحول إلى ضحكة فأعرف أنه ينوي على قول شيء يعرف أنه لا يرضيني. . قال : مسافر، سألته : مصـر؟. قال : الكفر. . وكنت غاضبا لكنه نظر إلي في شبه لوم رقيق لأنني ما زلـت أعتـرض. . وقلت له: مع السلامة. . ومشى. . كان القلب مهموما ومحزونـا وكأنـه يفـارقني للمـرة الأولى. . وفي الليل لم أنم وحاصرني قلق مبهم وسألت روحي عن السر فلم أعـرف ولمـا نمت قرب الفجر رأيته في المنام. من دمي وكدي علمتك يا سيد وجعلتك محترمـا عـنهم. . قلت لك يا سيد كل ما كان وجري. . عن شوق كنت أحكي لما تسأل. . وكانت هي السـبب في الأول وفي الآخر. . وأنا من يومها لم أعرف الراحة ولا أنت عرفتها. . ودخـت فـي البلاد قبلك وبعدك. . سواح في بلاد الخلق سعيا وراء اللقمة ورغبة الخروج بك من الدنيا. . وكنت أخشى أن تصادف ما صادفته أنا فبعت الدنيا والدين واشتريتك وعلمتك. . قلنا تـروح المدارس حتى لو استغنينا عن الرغيف والهدمة. . ولما كبرت قلت لروحي هانت ووصلنا بر الأمان. . وتروح هكذا فطيسا وتتركني لأمواج الأيام السود تهد ما تبقـى مـن جهـدي. . تدوخني دواماتها قبل أن أخلص من شماتة العيون فيك.

وركبنا القطار أنا وعبد الحميد. . كانت السكة طويلة. . قال عبد الحميد الذي كانت دماغه مربوطا بشاش أبيض إنه يعرف عنوان الشيخ سعد عوف في الغورية. . كنت أطـل من شباك القطار فرحانا وأقول لنفسي أنه هناك خلف هذه السحابات المتراكمة مكان نظيـف ومشرق اسمه "مصر" وأرغب في الوصول إليها بسرعة. . عبد الحميد كان مهتما بجرحـه يتحسسه من آن لآخر وكأنه يذكرني بغلطتي. . والشوارع كانت نظيفة عن شوارع المركـز والناس منهم أفندية يضعون الطرابيش فوق الرءوس دون مناديل كما يفعل الخواجة " بولس " الصراف لما يأتي، ومنهم أولاد يلبسون الجلابيب المقلمة ولها ياقات، وشفت الإنجليـز لأول مرة بوجوههم الحمراء وبناطيلهم القصيرة والبنادق على أكتافهم أو في أيـديهم. . والبيـوت كانت عالية. . وفرحت لأنني سأعيش فيها. . مصر أم الدنيا " قالوها في الكفـر واشـتقت لرؤيتها واكتفيت بسماع ما يقال عنها. . مصر. . " ورأيت الشيخ سعد. . وقال لعبد الحميد أنني أصبحت رجلا فضحك. . وراح عبد الحميد مع الشيخ سعد وجاور الأزهر بعد أيام، وأنا أخذني الشيخ سعد إلى بيت كبير له بوابة حديدية وقالوا لي : أقعد هنا على الدكـة وأحـرس الباب ولما يدخل غريب أسأله عن السبب. وعرفت الست الكبيرة وبنتها نهاد، وشافني الرجل الكبير وكلهم لهم وجوه حمراء كأنهم إنجليز. . وألبسوني قفطانا أبيض وطربوشا وحزمـوني بحزام أحمر. . وعرفت الأسطى محمد الطباخ بوجهه الشديد السمرة وكأنه عبد حبشي والدكة كانت توجع مؤخرتي لما يطول القعاد فأقوم وأتمشى عند السور. . وأظل أنتظر مـن يـأتي ليدخل لكن الدار كانت لا تهم الناس فلا يرغبون في الدخول، وقلت إنه لو حدث وتركت الدكة يوما فلن يدخلها نفر. . واكتفيت بالنظر للناس، وأحيانا تسألني نهاد إن كان أحدهم سأل عنها فأقول لها : أبدا . . وكانت بنتا ظريفة وحلوة. وجهها كـاللبن الحليـب وصـوتها نـاعم. . وزهيرة كانت تخدمهم وتشتري الأشياء من السوق وتقف تحكي عن البـك الكبيـر والسـت الكبيرة وتقول إنهم " تراكوة " وأسألها كيف فتضحك وتدخل، ولما غابت زهيرة جاء عم محمد وأخذني وعرفني مكان السوق وجعلني أشتري الطلبات. . اللحم والدجاج والسمك والخضـر والفواكه. وقال خذ صينية الأكواب النظيفة ودر بالماء حول السفرة وانتظر من يطلب ففعلت " ملعون أبوك يا أبي. . جعلتني أخدم على آخر الزمان ". . وعلى رأي المثل. . أيام تيجي على ولاد الأصول تنذل. . قالها واحد من أهل الكفر لا أذكره. . لو كنت يا ولد ظللت حافظا للقرآن مثل عبد الحميد لجاورت الأزهر مثله ووضعت على رأسك بدل الطربـوش عمامـة وهان الأمر. . وجاء الشيخ سعد مرة ووجدته أمامي وناداني وكلمني عن وصول أبـي مـن الكفر فسقط طبق الصيني من يدي على السجادة فعاصها وصرخت الست الكبيـرة وشـتمتني والشيخ سعد واقف وهو ساكت قالت لي : فلاح خسيس. . وأنا احتقن دمي ورميت الطربوش ناحيتها وقلت : أنت الخسيسة وكل صنفك. . وراحت تقفز كالملدوغة وتلعنني بكـلام غيـر

مفهوم. . وأنا خارج كنت أشتمها بدوري والشيخ سعد يحاول تهدئتني وأنا أرد على كل كلمة تقولها. . وذهبت مع الشيخ سعد إلى عبد الحميد في الأزهر وقلنا لعبد الحميد فقام وأخـذني معه وجعلنا نمشي حتى وصل إلى بيت زميل للشيخ سعد بتنا عنده حتى سافر الرجل وجـاء إلينا الشيخ سعد وتركنا الشيخ سعد وخرج.

عبد الحميد جاور في الأزهر وأنا ظللت مدة بلا عمل والشيخ سعد اشتكى مما فعلتـه مع الست التي شتمتني في حضوره. . وكنت أنتظر عبد الحميد كل يوم حتى صلاة العشـاء لما يأتي. . ومرة وأنا أتسكع في شارع الأزهر طلب مني أحد الأفندية أن أحمل عنه حقيبتـه الكبيرة لقاء أجرة، فترددت أولا ثم طاوعته وحملتها على كتفي حتى بوابة الحديد وأخذت منه ما أعطاني وعدت من نفس السكة ولما قلت لعبد الحميد تنهد في حسرة وقال لي : إياك تعملها مرة ثانية وأنا قلت لنفسي أنه يحرم نفسه من نصف الجراية ويعطينـي لآكـل ويضـعف. . وقلت أشتغل أي شغلانة وأكسب قوتي. . وعرض على ولد تأجير عربة يد ومشاركته فـي نقل الخشب من الشادر حتى دكاكين النجارين والورش وقلت له : كيف؟ فعرفني وشاركته. . ولما عرف عبد الحميد بعد أيام قال وكأنه يحادث نفسه : شدة وتزول. . وبعد أيام وجد لـي شغلانة في محل عطارة عند الحسين وكانت مريحة. . وجاء إلينا عسكري وطلبنا في قسـم الدرب الأحمر فذهبنا معه ودخلنا عند الضابط فسألنا عن اسمينا فقلنا له وقال لنا أن أبانا قـدم شكوى ضدنا يطلب منا نفقة لأنه معدم. فنظر إلي عبد الحميد واستغرب وقال للضابط إن هذا الكلام باطل وأنه متيسر الحال وأننا تركناه منذ عام واحد فظل يطاردنا لنعود إلى الكفر وهـو يمتلك أرضا. لكنه كتبها لآخر لنا صغير وأنه طلق أمنا وتزوج امرأة عمي الميت ووضع يده على أرضه أيضا، وأنا قلت له (كتب كل الأرض لابنها وجعلنا نشقى مثل التملية فهربنـا. . ونظر إلي الضابط مرتابا وطلب منا العودة بعد يومين ليتحقق بنفسه من صـحة المسـألة. . ولما عدت إليه وحدي قال لي روحوا وشوفوا شغلكم فأبوكم كذاب وربنا يساعدكم وأنا حفظت الشكوى. . وخرجت وقلت لعبد الحميد لكنه كان مشغولا بشيء لا أعرفه فلم أعاود الحـديث في الأمر أبدا. . وسمعت أن الإنجليز حبسوا سعد زغلول فتظاهر الناس. . كل يوم أراهـم يتظاهرون والبوليس يطاردهم ويفرقهم. . وفات الناس على دكان العطارة يهتفـون " يحيـا سعد. . يحيا سعد " وبعد ساعة قالوا إن الإنجليز ضربوا المجاورين بالنار عند باب الأزهـر فرحت أتفرج فوجدت الإنجليز يطاردون الناس والميدان خال تقريبا وسرت فـي أول شـارع الأزهر فوجدت عبد الحميد مرميا والدم ينزف من جنبه وأسرعت ناحيته فمنعوني لكنني نفذت إليه وأنا أنادي عليه فضربني أحدهم بمؤخرة البندقية في رأسي وداس بنعل حذائـه فـوقي. . وكنت فوق صدر عبد الحميد الجريح وهو يتألم ويكتم الدم براحة يده والدم يغطيهـا واسـتمر الإنجليزي يضربني وأتألم ولا أفكر في ترك عبد الحميد ولو مت. . وتساند عبد الحميد على

كوعه وأمسك بيده الخالية كوع الإنجليزي وشده بقوة فوقع على الأرض وجاء آخر وضـرب عبد الحميد برصاصة في دماغه فارتمى على الأرض رمية الموت وعيناه تحملقان في اتجـاه السماء والدم ينزف في سرعة ويغطي الوجه ويتسلل عبر العنق إلـى الأرض ويصـل إلـى الصدر والناس تجري من حولنا وأنا أصرخ وأصرخ وعبد الحميد ساكت سـكتة العجـز. . والإنجليزي الأول قام ونفض قميصه وظل يضربني بمؤخرة البندقية فوق ظهـري ورقبتـي ورأسي وأنا مستميت فوق صدر عبد الحميد لا أود أن أصدق وأتمنى لو كان ما أراه مجـرد كابوس طويل ينتهي بطلوع النهار. وكنت أتوجع من الألم واحتضن أخي الـذي كـف عـن التنفس وسكن تماما. وكان الناس يهتفون في الشارع ولكن في خفوت وكنت أسمع أصـواتهم المطرودة تصرخ، يحيا سعد عاشت مصر عاشت مصر " ولم أستطع النطـق. . لـو كنـت نطقت لقلت شيئا. .

وبعد مدة تركوا الميدان وجاء بعض المجاورين وحملوه مع آخر ودخلوا الجامع وهم يهتفون أيضا. . وخرجوا بعد الصلاة بعبد الحميد وزميله وكان الشيخ سعد ممسكا بـي مـن ذراعي وهو يهذي بكلام كثير (ربنا على الظالم. . العدل يا عادل. . يا منتقم يا قـوي يـا الله) وساروا بعبد الحميد محمولا بدمه لم يجف وأنا خلفهم وهم يكبرون ويقـرءون الفاتحـة بصوت كدوي النحل. . وهم يجهزونه للدفن فأبعدوني عنه. . ودموع الناس فـي عيـونهم كانت تجعلهم أشباحا بلا تقاطيع مميزة. . وثوبي الغارق في الدم يجف ولم أكن أعرف دمـي من دم عبد الحميد. كان الدم مزيجا مخلوطا. . ودفنوا عبد الحميد في الدراسة وبت ليلتهـا وحيدا في حالي والغم راكز على قلبي.

وخبرك يا سيد نزل على هم موت لا يحتمل بعد أن نفذ السهم. . وكان صعبا علـي أن أصدق، صالح بعث الخبر. " أحضر لوفاة سيد ". . ولا أدري متى ولا كيـف وصـلت الكفر. . أخذوني من يدي وسندوني وقالوا كلاما كثيرا لم أسمعه. . كنت أسأل عنك وكأنـك في دار أيهم تطلبني وكأنني واثق أنك سوف ترد على ما أسألك عنه. . وقالوا دفناه العصـر وأنا لم أصدق. قلت لهم هاتوه لكنهم مصمصوا الشفاه حسرة أو سخرية أو شماتة. . قلت لهم هاتوه فسكتوا ورحت أسعى بكل طاقتي ناحية المدافن. . مدافن جماعة عوف حيـث يرقـد جدي الكبير وجد جدي وأبي وبرهومة وأعمامي. . وقلت للرماد الذي حطوك فوقه أن يكون رفيقا بك. . أن يحنو عليك. . أن يكون لك الأب والأم والأخوة والأخوات والصحاب. . أن ينير ما حولك بحق جدنا الحسين. . والبعض وقف جواري مهونا علي أمرا لا يهون " البقية في حياتك " حياتي أنا التي لها بقية؟ " شد حيلك " انهد الحيل وانقضى الأمر. . " ربنا يعوض عليك " بماذا؟ بمن؟ " حسك في الدنيا " خافت وهزيل وغير مسموع. " فيك البركة " الخراب والوحدة وبركة اليأس والضياع والحسرة. . وصالح كان واقفا قصادي. . يبكي؟ " هل هزك

الخبر يا صالح أم أنها الأصول تؤديها أمام الناس حتى ينفض السامر. . والتقاطيع المهمومة بفعل ماذا يا صالح؟ هل تعاركت مع أحد وجئت تشيع سيد بهذا الوجه الغاضب. . " والدمعة الغريبة في عينيه تذكرني بدمعة أبي يوم راح عبد الحميد. . " لم أفهم جماعة الحاج عـوف أبدا. . الرجال الفحول القساة الملامح يبكون أحيانا " قلت لصالح الذي اقترب مني : سيد مات فاستدار وابتعد " ابتعدت ضيقا مني أم لتخفي انهزامك عني. . ؟ " ومجموعة الصبية الصغار يلتفون حولي ويقولون كل بدوره في حماس حزين كلنا أولادك يا عم حسن. . سيد كان أخونا الكبير " وكان حبيبي وأخي وأبي ودنياي وولدي. . وحده يا أولادي كان يساوي الدنيا فلمـا راح لم تعد هناك دنيا ". .

" قلت لي يا سيد في الليلة الأخيرة أنك تبحث في الكفر عن شيء تحبه وأنا لـم أفهـم ولن أفهم سوى أنك ضعت من يدي ولن يعود صوتك المطمئن النبرات الواثق. . ولأن أرى وجهك الباسم حتى في لحظات الضيق : بسمة الاطمئنان إلى شيء كبير فوق طاقة التصور. . شيء غير مفهوم يجعلك مرتاحا إليه فيرتاح الوجه والتقاطيع رغم غلاف الهم. . شيء تحت الجلد يتوهج مهما غطته الأحزان، ليس هو الأمل في الدنيا وحده ولا الحلم والتمني ولا حتـى انتظار الفرج. . أبدا لم تكلمني عما يجعلك هكذا. . ترى كنت تعشق ؟. . وكيف فاتني أن أسألك عنها. . " قال صالح : نرتاح في الدار ". . " راحتي في المـوت " قلـت أسـافر. . سكت وهمس : أوصلك. . قلت : وحدي. . سرت وحدي. . خرجت من الكفر بليل. . لم أركب للبندر. . سرت في نفس الطريق القديم الذي عبرناه أنا وعبد الحميد في بدايات العمر الشاب. . وأنت كنت كائنا لم يتخلق بعد. . كنت يومها أقول لنفسي لن أعـود إلـى الكفـر أبدا. . اليوم أقول لنفسي حتما سأعود. . من أجلك يا سيد وليس من أجـل صـالح. أنـت فعلتها يا سيد بالموت لما عجزت عن فعلها بالحياة. . حققت مرامك ونفذت رأيك. . سـوف أداوم على المجيء إلى الكفر لتراني ولا أراك. . من أجل ما كنت تأتي من أجله سوف آتي. لو عرفت لماذا أو لمن على وجه التحديد كانت تتحرك نواياك وتأتي. . لصالح؟ صـالح يـا سيد؟ أهو صالح؟ ربما كانت شوق؟ هل هي شوق تلك التي جعلتك تعارضني بهذه الحـدة. . وتصر على المجيء بعلمي وغير علمي. . هل هم مجموعة التلاميذ الصـغار المتحمسـين والذين ترتسم على وجههم أحزان الرجال الكبار " ولم يكن هناك بدر. . كانت عتمة وسكوت مقبض. . " نارك يا سيد لا تبرد. . لو مت تبرد. . ربما في عتمة القبر ورطوبة أرضـه تنطفئ النار أو تبرد. . لو امتزج بدني بتراب بدنك يهدأ. . نارك لن تبـرد. . نـار عبـد الحميد بردت. . ما عشت لأسمع أنك انتهيت. . نار عبد الحميد ظلت في نفس قطعة تتوهج من آن لآخر. . ولما عشت معي بردت من حرارة الصهد القديم وقلت لنفسـي هـو أخـاك وعوضك عن عبد الحميد. . لكن أن تضيع. . تضيع حقا. . كابوس ثقيل يكـتم الأنفـاس

ويدوخ الدماغ أم هي حقيقة؟ هكذا يا سيد ظللت تذهب إلى الكفر لتداوي جرحا قـديما حتـى تحولت أنت نفسك إلى جرح فسيح يصعب لملمته. . جرح بطولك وعرضك يتمدد في قبـر معتم ويلتف في رأسي ويصرخ في كفنه الأخضر. . يظل ينبح ما عشت من أيام.. .. " يـا رب. .. هل تأتي به وتصوره على ما كانه. . إشراقة العينين وصدق اللسان وتسكته " ولكل أجل كتاب. .. وكتابك يا سيد جاء أجله. .. لماذا يا رب بعثته لتكويني بناره ؟. لم أطلبـه منك لتمنحه ثم تحجبه. . ؟ كان لا يرضيني لو تحكم الشيطان في سـيد. . كنـت ألومـه. . ألعنه، وأنا أعرف مدى ضلاله وقسوته كنت ألعنه ولا أخشاه. . أما أنت يا رب، أنا ذاهـب إلى نار جهنم راضيا ما دمت لا أرضى. . هل هو الكفر والضلال ألا تستسلم لمـوت مـن نحب؟ أنا لن أرضى أو أسامح. . هل تسمعيني يا عتمة الأيام السود. . لن أسامح. . وأنـا حر فلن أسامح. . النار المحمية أهون من نار القلب المجروح بنار الابن.

***

وانشقت عنه الأرض فانتصب قبالتي كأنه زرع شيطاني جاء بعـد فـوات الأوان. . شمروخه منصوب بجانبه بنفس طوله وغضب الوجه القادر لحظة الظفر. . كان الشيخ سـعد في الجامع وكنت وحدي. . حاولت الفرار لكنه ركن الشمروخ إلى الجدار وظل واقفـا عـن الباب يسده. . كان وجهه الغاضب ينضح غلا. . " عبد الحميد راح في لمح البصر يا رجل فماذا تريد مني؟ " أيقنت أنني انتهيت وخطواته تزحف نحوي وتنقله فأراه يتضخم " ما زلـت عاجزا عن فهمك يا رجل. . وهذا الذي يلمع في عينيك؟ هل عرفت ما جرى أم جئت تقتل؟ " تأكدت من أن ما أراه في عينيه قطرات دمع غريب على التقاطيع الصارمة التـي لـم تهتـز مرة... نسيت خوفي وهو يضع راحته فوق كتفي أولا قبل أن يأخذني في صدره " هي المرة الأولى يا رجل. . كنت تنتظر موت عبد الحميد ليحن علي قلبك؟ " قال بصوت متوتر غيـر متآلف النبرات :

ـ عبد الحميد راح فين يا حسن؟

بكيت. . كان صوته مشروخا ومهموما، لم يكن يسأل. . كان ينعي. . كنـت فـي صدره وأحسه. . يجاهد أن يصاب طوله. . دفنت وجهي في صدره فكـان يتنهـد حسـرة ويضغط على رأسي نحوه وكأنه يربطني إليه بعنف الخائف. . كنت مغمومـا وكـأن عبـد الحميد يموت في هذه اللحظة. . رأيته يجفف الدمع براحته خلسة ولكنه يفشل في التخفـي. . قال بصوت ممزق جاهد كثيرا في لملمته :

ـ بطل عياط يا حسن. . هي الرجالة بتعيط؟

قالها ونهنه كبنت بكر مضروبة. . " ليلة سوداء. . فات شهر وأنا كدت أنسى، الليلة ندفن عبد الحميد سويا مرة أخرى فتمالك نفسك" سألني عما حدث فاحترق قلبي، ربمـا عبـد الحميد وربما جرح راسي، ربما دموعه وانهزام قلبه. . كان الجرح في الرأس ينبح والرجل يخبو وعبد الحميد يذوى وأنا أتذكر ما جرى وكأنه يجري. . فعدنا نتباكى. . نسـتعيد عبـد الحميد وكأنه غاب وسوف يأتي في الصبح يحكي. . " الآن عرفت أنه كان زينة الشباب بعد أن داس الغرباء فوق دمه بالنعال النجسة ؟. وأنت هناك تنصب طفل مبروكة هيكلا معبـودا تمنحه الحنان والرعاية وتكتب له الأرض ولا تؤخر له طلبا؟ وكان شـهما ؟. . أعـرف. . وأنت كنت تعرف لكنك بعته معي واشتريت مبروكة وجئت اليوم تندب؟ " سألني عن أحوالي فلم أنطق. . سكت أيضا. . جاء الشيخ سعد فسلم وجلس وراح يحكي بدوره عن الإنجليـز والمظاهرات وحماس عبد الحميد وأبي ساكت. . " راحت نخوتك وجبروتك يا سيد الرجـال؟ ما عدت تجسر على السؤال عن قاتل ابنك؟ وأنا الذي حسبتك مستعدا لمعاركة ذباب وجهـك وتقتل من يحك لك على منخارك؟ جئتنا تعزي بالدموع كالحرمة؟ " قال أبـي وهـو يلتفـت ناحيتي :

ـ الفجر شقشق. . قوم نروح.

وقام. . أمسك شمروخه. . حيرني اليقين في كلماته. . " واثق أنت من نفسك معي كأنني بين يديك لعبة؟ " كان وجه الإنجليزي الذي قتل عبد الحميد حاضرا في دماغي وأبـي يقول ما يقوله وكأنه أمر لا يرد. . " دعني أحاول على الأقل ما دمت تعجز " فكـرت فـي الفرار من الرجل، قلت له أنني لا أريد السفر بسبب أمر يهمني فعله فلم يهتم. . سأل الشـيخ سعد عن أشيائي ولمها بنفسه وحطها في سبت وأخذني من يدي كما كان يفعل منذ سنوات. . ولما حاولت الإفلات أسكتني بنظرة حازمة فحملت السبت عنه وخرجـت مـن الحجـرة. .. ودعت الشيخ سعد قائلا له: ارجع، حاسبا أنه في الإمكان أن أرجع. سرت صامتا بجواره. . ركبنا قطارا مزدحما. . نظرت من النافذة وفكرت في القفز منها فأغلقها أبي. . ولما سـار القطار فتحها وسهم لحظة يفكر. .. فكرت في أن أرمي روحي وأخلص. . نظر إلي وقـام يقفل النافذة وقال في مرارة. .. مرارة في الحلق تحملها النبرات وترشها على سمعي :

ـ ما عادليش غيرك يا حسن. .. كفاية اللي كان. . برهومة لسة عيل مـا وقفـش على حيله يا بني. . اللي انكسر يتصلح.

نظرت إلى خطوط الهم المحفورة في تقاطيع الرجل فهالني أنها غاصت وغاصت في اللحم ونفذت إلى داخل التقاطيع... " غريبة عليك الهموم. . غريبة، أحببته أو صعب علـي حاله. .. وددت لو أنني ارتميت في حضنه أواسيه وأبكي من أجله. . تماسكت وسرعان ما عدت أكرهه بنفس الحدة القديمة ولا أعرف لذلك سببا.

***

وسيد لما قلت له عما جرى لعبد الحميد ظل يسألني عن كل التفاصيل فأحكي. . قال كلاما لم أسمعه أبدا " في الكفر قالوا : ربنا اختاره. . قسمته. . ولكل أجل كتـاب، وأشـياء أخرى تجعل اللهيب يخبو. .. أما أنت يا سيد فقد جعلته يتأجج " قال سيد : ضحى من أجـل بلاده. .. أحسست الزهو والرغبة في الفخر بما كان. .. قال سيد : أخذت بثأره .. " أبدا يـا سيد. . ما قال لي أحدهم هذا. .. أخفيت الأمر وكأنه عورة. .. لم أفتح قلبـي فـي هـذا الموضوع لغيرك بعد إسماعيل. .. يا حسرتي على الأيام التـي عشـتها مرعوبـا وخائفـا أتخفى... لو كنت أعرف ما عرفته اليوم ما كنت كففت عن الفعل والحركة، ولأول مرة أحس معنى البلاد والدفاع عنها والحماس بعد أن شاب العمر والقلب أيضا .. " أنت جئت يـا سـيد تعرفني بما كنت أجهله. .. صحيح كنت أعرف أنهم جاءوا من بلادهم وعاشوا هنا يـأكلون خبزنا. .. لكنني كنت أحسبهم كجماعة شلبي. .. ما كنت أعرف كل ما تقوله يا سـيد. إن قتلهم رجولة وأن دم عبد الحميد لم يضع أبدا. . لو عاد الزمن. . هل يعود ؟. . لـو عـاد وجعلني أرى قاتلك. . من قتلك؟ عبد الحميد قتله عسكري إنجليزي عند الأزهر. .. وأنـت قتلوك في سكة كفر عسكر. .. لو كان الإنجليز هنا لقلت إنهم فعلوها لكنهم خرجـوا وأنـت كنت تمشي وحيدا في ليل أسود لا تهتف لأحد وربما لا ترى على الإطلاق وجـه قاتلـك. . ربما رأيته وتعرفه ولكنك لم تبح باسمه. . أنا لا أعرفه يا سيد ولا أحد قال إنـه يعرفـه. . عزيزة عليك كانت بلادنا. . عزيزة عليك كانت. . من يحبها مثلك. . غضبتي الوحيدة عليك غفرتها. . ولما جاء صالح يطلب مني العودة إلى الكفر لم أوافق. . راح يكلمني ويضاحكني بينما أمتص دخان الجوزة وأهز الرأس متفكرا وعلامة يفهم منها عدم الموافقة. . قلبي كـان معك. . لكنك جئت معه في الشهر التالي وقلت لي ارجع وأنا شتمتك. . خرجت غاضبا مني مع صالح. . وحتى لما عدت كنت غاضبا عليك، وأنت تقولها : صالح مظلوم كنـت أمسـك نفسي عن لعنك مرة أخرى. . وأعجب حاسبا أن صالح ضحك عليك. . " لا يعـرف عـن صالح إلا طوله وعرضه وابتسامته الساهية، وصالح قالها لي في مرة تالية وكأنـه يعـايرني مقدما :

ـ سيد قال لي آخذك عندي.

واشتعل في الرأس دبور مسعور. . ظل يطن ويطن " وهل يحملني على دماغه؟ أهي الفلوس التي يدفعها كل شهر تجعله يصر على عودتي للكفر خلاصا مني؟ أهذه آخرة تربيتـي فيه وتعبي. . كل مرة كان يقول ما عنده لكن في هذا الموضوع يكذب. . الكفر أحسن لي. . تعرف أنت الأحسن لي على آخر الزمان. . ؟ هل أنسى ما كان من صالح لما خرجـت مـن

الكفر بليل وهو جالس مكانه لا يتحرك. . جربت هذه اللعبة يا سيد ولما جئتني وحاولـت أن تجعلني أنسى وأضحك مرة أخرى لم أهتز. . لم أضحك من قلبي. . كانـت هنـاك نقطـة سوداء لم تستطع تبديد السواد عنها. . الهم كان في ركن القلب راسخا تصعب زحزحته بألف نكتة. . اليوم زالت الجفوة. . سامحتك. . ربما كنت بدأت أسامحك قبلا لكنني كلما تذكرت ما حصل أعود ويتعكر دمي وأوشك أن أكرهك ؟. . وجاء صالح مرة. . طويلا وعريضـا وشاربه يغطي وجهه ويداه خاليتان. . ابنه الصغير كان معه. . قال للولد سلم على سـيدك والولد سلم وباس يدي. . والجيران سألوني عنه فصهينت. . سألني عن سيد وإن كان جـاء هذا الشهر فقلت : لا. . جلسنا في صمت. . لم يكن بيننا ما نتكلم عنـه. . كلمـت الولـد وسألته إن كان في المدرسة من باب الكلام في أي موضوع. . قام وقعد ومد يـده نـاحيتي بجدية. . " تحسبني أستجدي يا بن صالحة؟ وفره على روحك يا غشيم ". قلت له أن معـي فلوسا كثيرة وأن سيد يبعث إلي بالبوستة وأنني مبسوط. . لم يكن معي ما يكفي " هل كنـت أنتظر جنيهك؟ يا فرحتي بمنظرك وأنت تهز طولك وعرضك وتدفع الجنيه. . أين كنت أيـام المرض والجوع.. اليوم تدفع لأنك تحسبها. . هناك مـن يسـتطيع رد الجميـل " حـاول إضحاكي بموضوع قديم مداريا خجله من نفسه. . نظرت إلى وجهه وجعلته يخجل أكثـر. . كان ثقيلا على القلب كصخرة. . بات الليلة وعملت الواجب. . تصرفت. . "الجنيه الـذي جئت تدفعه لا يشتري فرخة يا تيس " وفي الصباح جاء سيد. . كأنه علـى موعـد معـه. . أخذني على جانب يسألني عن الأحوال المالية ويعطيني. . أحسست بالفارق. . الفلـوس لا تهم، ما كانت تهمني يوما ولا قيمة لها. . سيد كان يحسني ويفهم. . رغم وجود صالح كانت الليلة حلوة.. كنت أنظر إليه بينما يتفرج على قماش الجلباب الصوف الذي أتى به سيد مـن أجلي. . أقرأ في عينيه حسرة وغلا. . ربما محاولة النظر باستهانة. . " أنت لـم تعـرف صالح أبدا يا سيد. . نفخة كدابة وحس ميت ودم ثقيل لكنك تحتمله ".

قال صالح وهو يخرج ساحبا ابنه معه :

ـ مش عايز حاجة من الكفر يا با؟

قلت لنفسي " يا دمك؟ عزومة مراكبية. . كلام فض مجالس؟ الخسـيس خسـيس. . تربية الحريم لم تفلح أبدا. . الرجل ابن الرجل يفهم ويحس والنطع يعمل فيها أعمى وأطرش واخرس ".

قلت له : تشكر. . وراح سيد يوصله. . وكنت استرجع مـع كلامـه وجـه أمـه الأزرق.

***

ورجعت الكفر معصوبا ومغلوبا على أمري. . وكل ما يقابلني أحد يسألني عما حدث لعبد الحميد فأحس وخزة في جنبي وأجاهد ألا أحكي. . وأمي لما رحت لها سألتني فأمسكت لساني حتى لا يحترق قلبها أكثر. . كانت تلبس السواد وتبكي وتلعن أبي لأنه شتتنا في البلاد البعيدة ليرضي مبروكة. . قالت لي : لا تخرج من الكفر يا حسن، " الغربة تتوه الأصول يا بني " ولو احتجت شيئا اطلبه منها. . وإن قلت لروحي نار الكفـر ولا جنـة مصـر. . " والأرض فرت من أيدينا وكما قالوا : موت وخراب ديار. . ومهما كانـت الأرض مكتوبـة لبرهومة فأنا أشتغل في أرضنا والشغل فيها لا يعد معيرة وقلة قيمة في نظر الناس مثل الشغل عند الأغراب. . وما أدراني ببرهومة لما يكبر يتحكم في الغيط والدار أو يجعلني شـريكه؟ يخلق من ظهر العالم فاسد ومن ظهر الفاسد عالم. . " قالت أمي : لا تحمل للدنيا هما. . ما كنت أحتاجه كانت تدبره. . اللقمة الحلوة تحضرها وتبعث لي أتعشى عندها. . وأبي عاملني بشكل آخر، بالحسنى، فكدت أنسى بمرور الأيام ما فعله " يا قلبي الذي يصدق ويحن في كـل مرة ولا يحمل الأسية " " إن كبر ابنك خاويه " قالها أبي مرة فقلت رجـع لعقلـه. . وكلمـا تذكرت عبد الحميد ازداد كراهية لمصر وأود لو رجعت مرة واحـدة وصـادفت الإنجليـزي وقتلته. . كلما أحسست الدم يجري في عروقي وعزمي يشتد أرغب في قتله وأعـود بعـدها فليس لي هناك عيش. مصر للأفندية وأصحاب الدكاكين والأكابر. . هناك جربـت الجـوع والحاجة والتسكع بحثا عن شغلانة. . وبرهومة بدأ يكبر ويتعلق بـي فأحبـه. . ومبروكـة نفسها بدأت تتحاشى العراك معي كما كانت تفعل في الماضي وكأنهـا أحسـت برجـولتي. . والقلب ينسى. .

وطلبوني للجهادية. . راح أبي ودفع البدل وجاء مبسوطا. . أعطاني مقطع قمـاش كشمير وقال : فصله وخلي لي وش صديري. . فرحت به. . قال نكمل الفرحـة وننسـى الحزن. . سكت. . تتزوج، قالها أبي فارتعش قلبي بالفرحة قلت : رأيـك. . قـال : خـذ صالحة. . سكت. . كانت صالحة في القاعة. . " صالحة يا رجل لا أقبـل ريحتهـا. . لا أريدها. . أكبر مني. . أنت رجعتني ومبروكة تحايلني من أجلها إذن ؟. . ترقبينني بعينيك السوداوين الضيقتين وأنت تصبين الشاي وماذا يحدث لو رفضت أن آخذ بنتك يا مبروكـة. . تبدئين الحرب كما كان يجري؟ قلت : ربنا يسهل. . قال : تأخذها. . بنت عمـك ولحمـك تلمه. . وأنا لم أتكلم. . قال : الصبيان في سنك خلفوا. . زيتنا في دقيقنا. . نكتب ونجهـز لما نبيع القطن "صالحة يا رجل ؟. . لحمي" لحمي العجوز؟ طمعان أنت فـي الأرض التـي وضعت عليها يدك " قالت مبروكة نكتب لك فدانين وصالحة لها فدانين. . تعمروا الـدار. .

سكت. . شدني أبي وخرج من القاعة قال : كفانا مناكفة. . تأخذها يعني تأخذها ليس فيهـا عيب. . قلت : كبيرة عني. . قال : بنت عمك ونظر إلي في تحفز الراغب في الضرب لو نطقت. . نفس النظرة القديمة التي كانت تخوفني منه. . يقولون كل شيء في الدنيا بالخناق إلا الزواج بالاتفاق. . أين الاتفاق يا رجل. . لا أريد. . تذلني باللقمة أنت ومبروكة؟ قال: هيه؟ قلت : طيب. . أمرك. . وسكتنا.

ولما باع القطن راح طنطا واشترى النحاس والكسوة والخبر شاع في الكفر "مبـروك عليك" يقولونها فأحس السخرية في النبرات والتقاطيع وأسكت. . كانت زفة كبيـرة ومنـدرة الحاج عوف الكبيرة مرصوصة برجال الكفر. . كنت أرتدي جلبابي الجديد. . مر تختروان ونقرزان يطبل ولفوا بأكواب الشراب. . وسمعت الزغاريد. . وكانوا يحطبون في الشـارع ويرقصون عند باب المندرة وأراهم من الشباك المفتـوح. . أبـي فـوق حصـانه يلعـب البرجاس. . شمروخه الطويل يحذرني بحركاته " أرقص وأهتز يا شورة النسوان. . أرقص فالكل يضحك على خيبتك الثقيلة. ." وجاء المأذون فنزل أبي ودخل المندرة وكأنه يكتم بطوله وعرضه على أنفاسي. . وجلسنا بعد أن قمنا لهم حتى جلسوا.. وضعت يدي في يد أبي بعـد أن أخذ الوكالة من صالحة. . غطى المأذون يدينا بمنديل أبيض جديد أخرجـه أبـي وسـط التهليل والهياص " هللوا فاللعبة جديدة ومسلية. . والذبيحة في يد الجزار " كان عبد الحميـد في دماغي " كنت تكرهها يا عبد الحميد وتقول إنها بومة. . قال أبي زوجتك موكلتي البكـر الرشيدة صالحة علي عوف. . أمرني المأذون أن أقبل : وقبلت وفرقعت زغـرودة ودخلـت الغازية وسط التهليل والهرج وراحت تتلوى وفي بطنها ثعبان مرعوش ناعم. . قال أبـي : أطلع واحملها للمندرة القبلية. . أنزلتها من التختروان المحطوط عند باب الدار. . حملتهـا وسط الزحام ومشيت ناحية المندرة. . كانوا يهللون حولي. . دخلت أم مشحوت " الماشطة " وكانت تتثنى وتتكلم بالعين والحاجب. . أمرتني بعمل شيء مخجل. . نظرت إليهـا وعلـى وجه صالحة فلم أجرؤ " وكنت يا صالحة أكره سخفك حتى قبل أن تدخلوا دارنا وتخرج أمي". لفت أم مشحوت رباطا فوق إصبعها وفعلت بينما تضحك، ورأيت الدم يتدفق " وكأن دمك يـا عبد الحميد يتدفق بغزارة من الرأس نظيفا وصافيا غير هذا الدم الأزرق تحتها " وصـرخت صالحة فانطلقت الزغاريد وكأنها تعايرني بسقطتي معها، ودق الكفوف علـى بـاب المنـدرة المسكوك بعد خروج أم مشحوت بقطعة القماش الملطخة بالدم والبنات تغني : (قالوا لأبوهـا إن كان جعان يتشعى. . إن كان شبعان يحطوا. .) ويا عروستنا يا لوز مقشـر تعـالي. . وكلام كتير تاه مني قالوه. . كانت صالحة تجلس على طرف السرير الحديد وكأنها عفريـت مصور. خلعت المداس وطلعت وتمددت جوار الحائط وهزتني تطلب مني أن أقوم لأتعشـى فقلت : لا. . لكنها شالت صينية العشاء الكبيرة وحطتها فوق الطبلية ورصت عليهـا الأكـل

واستمرت تلح علي بأن أقوم حتى قمت غصبا. . كنت جائعـا ونفسـي مسـدودة عـن زاد الدنيا. . أزاحت أمامي ذكر البط المحمر والحمام المحشي وقالت : كل. . كانـت تضـحك وكنت أحسبها سوف تخجل من نفسها بعد ما عملته فيها أم مشحوت لكنها من يومهـا كانـت مفتوحة العينين ولا تعرف الكسوف أبدا. . " كنت تكرهها يا عبد الحميد وتقول إنهـا تشـبه البومة " واستمرت تتكلم وتتمايل في جلستها وكأنها غازية. . وكبس علي النوم فقمـت أنـام وأنا أحس عدم رضاها عن ذلك. . وفي الفجر وجدتها مرمية بثقلها فوق صـدري فأزحتهـا عني. . قالت وعيناها القارحتان تلمعان في نهم ولد مفجوع:

ـ اصحى.

وقمت أغسل وجهي من ماء الإبريق النحاس الذي أمسكته وصـبته علـى يـدي. . وخبطت أمها مبروكة وفتحت لها صالحة وقالت مبروكة بفرح :

ـ صباحية مباركة يا صالحة. . عقبال البكاري.

وأنا ظللت ساكنا ولما دخل أبي قمت واقفا له فقال : اقعد يا عـريس. . وقعـد هـو أولا. . وتوافد الناس ودفعوا لصالحة " الصباحية " وناولت هي البنات مناديـل رأس ملونـة والرجال طواقي ومناديل يد. . واحتفظت هي بالفلوس. . ودارت الأيام كساقية تـئن، ولـم يكتبوا لي أرضا كما قالوا فقلت لأبي مرة وأجابني أنه ينوي لما أخاف له ولـدا يفـرح بـه. وقالت مبروكة في نفس الليلة:

ـ شد حيلك وهات لنا خلفة.

وقلت لنفسي لا شك أنه قال لها. . وقالت صالحة بعد أن تربست البـاب بالتربـاس "اقلع الغيار أغسله لك" فطاوعتها. . كل ليلة لما أعود من الغيط تسك المندرة بالترباس وتأتي ناحيتي وتطلع السرير وتقترب مني فأشم رائحة فمها النتنة. . دائما رائحتها نتنة كـالقبر. . الأيام رغم شقاء النار أحلى من الليالي. وهي لما تنام تخلع سروالها مدعية أنه يضـايقها. . وتظل تعابثني وتتضاحك وأحيانا تطاب بلا لف ولا دوران. . وكلما حاولت الرضـا عنهـا أعجز.. كلما رتبت في دماغي كلاما عن رائحة فمها أنساه وهي أبدا لا تحس. . ولما أغلب منها أعرف ما تريده وأعطيه لها لتهمد. . وأنام. .

وجاء أبي مرة وخبط ظهري بكفه الغليظة قائلا:

ـ ما تجمد يا سبع الليل.

وقالت مبروكة لأبي وهي تناوله خنصر الشاي :

ـ اللي يختشي من بنت عمه يبقى إيه يا خويا؟

أحسست أنها تقصدني فاغتظت من صالحة. . كل ليلة أخاف من عدم تلبية رغبتهـا لأنها تقول لأمها وأمها تكلم أبي وأبي ربما يضربني بشمروخه في لحظة غيظ فأطاوع. .

وفي الكفر كان الرجال والصبيان يقولون لي : صحتك يوم في النازل ويوم في الطالع ثم يتغامزون. . " أعرف أنكم تتحدثون عن الفرع الخائب من جماعة الحاج مصطفى. . عبد الحميد قال لي مرة إن أبي جعلنا لبانة في أفواه الناس ". " وحتى جدي مصطفى ظـل فـي أذهانهم كريما وأصيلا، محبوبا على خلاف أبي الذي يخافونه أكثر مما يحترمونه " كان عبـد الحميد يفهمني ما يعنيه الناس بالكلمات لكنني كنت أصغر من أن أفهم أيامها.

قالوا في الكفر أن مولد السيد عمران. . قلت لأبي آخذ برهومة أفرجه على المولـد وكانت مبروكة تجلس فأومأت بالموافقة " في كل شيء تنظر إليها تستجديها الرأي؟ " أعطاني أبي ريالا. . واتفقت مع جماعة من ناس الكفر وأولاد العم وركبنا ورحنا إلى طنطا نتفـرج على الناس والذكر والزفة. . وأخذوني عند الساري وظللنا نتجول. . هناك نصبوا سـامرا وكانوا يحطبون. . كانت معي عصا. . أولاد الكفر قالوا العب يا حسن. . نزلت ولاعبـت شابا لا أعرفه فبان لهم فنى. . هللوا لي لما لاعبت الآخر. . وخرجت أتفرج على الرجـال الكبار. . وشدني رجل وقال : لاعبني. . خفت من منظره لكنهم شجعوني وفي نبراتهم نغمة الوعيد بالسخرية مني. . نزلت ألعب وأضحكت على الرجل السامر كله. . ونزل رجل آخر يشبه أبي فقلت لا ألعب فقال لي : أنا ملك السامر وإذا كسبتني تكون ملكـا. . وأغرانـي أن أكون ملكا. . نزلت إليه ولاعبته وعجزت عن لمسه وعجز هو أيضا. . كان مبسوطا منـي وكأنه أب يرى ابنه عفيا. . ومرة وجدت ظهره خاليا فلمسته وهو يضحك. . هاص النـاس وهاص هو معهم ووجدت الرأس خاليا فلمسته أيضا وتحمس الرجل بعـد أن كـان مسـتهينا بلمساتي لكنه ارتبك لما عجز عن لمسي. . وبدأت أتسلى عليه وسط التهليل والهرج ولقـب الملك الذي أحرزته. . ووقف الرجل فوقفت. . وجاء وسلم علي وسألني عن بلدي فقلت له : كفر عسكر. . وقال مبسوطا : أنا من كفر الشرفا يا ملك. . كنت فرحانا بنفسـي ورجـال الكفر قالوا : فكرتنا بعبد الحميد لما كان يلاعب في السامر ويكسب الملك. . وكلموني عـن عرق الصبا الذي يلبد في داخلي ويمتد إلى ذراعي فيجعله قادرا وسريعا كسـبع. . وسـرنا وسط البلد نتفرج على ناس طنطا. . ورسمت على يدي سبعا يحمل سيفا بالوشم الأخضـر. كانت الإبر تكوي والدم الأزرق يتكون خطوطا نحيلة ويتسلل في بطء على ظهر اليد كحبـات عرق تنبت فوق الجبهة في عز بؤونة. . كنت أبتسم فرحانا لصبيان البلد وبرهومة فرحـان بي هو أيضا يتكلم مع الأولاد بجسارة كأنه يستمد قوته مني" وكنت أنا يا برهومة فـي مثـل سنك لما أجيء مع عبد الحميد وأراه يكسب وهو يلاعب ملوك الـزمن الفائـت أفـرح كمـا تفرح. . لكنه لم يكن هناك ما يعكر الصفو فلا دار بيننا ولا غيط " وسرنا في سـكة الكفـر والشبان يهللون حولي وكأنني توجت بالفعل ملكا. . وعند بوابة الحاج عوف فاتني الأغراب واستمر أولاد العم وبرهومة في يدي يتراقص بخطواته الصبية. . وعبرت الدرب ودخلـت

الدار وحدي وبرهومة في يدي فرأيت صالحة تجلس متكورة بجوار أمها ولما شافتني قامـت وتبعتني واتجه برهومة إلى أمه. . وكان الصباح في المندرة يرسل ضوءا شـاحبا فعالجتـه ليزداد الضوء. . وسألتني صالحة بعد أن سكت الباب لماذا تأخرت هذا الوقت كله وجعلـتهم يقلقون على برهومة فلم أجاوب. . سألتني عن بقية الفلوس فقلت لأتخلص منها : صـرفتها: صرخت في وجهي وكأنها ندابة: يا خرابي. . اقتربت مني تتدلل فقلت وأنا أزيحهـا بيـدي: ابعدي عني. .لكنها اغتاظت مني وشدتني من طوق جلبابي فغاصت أظافرها في لحم رقبتـي فالتفت إليها وناولتها بظهر يدي المرسوم عليها سبع فوق بوزها. . سال خـيط دم وراحـت تصرخ فلم أهتم وجلست فوق الحصير. . ودخلت مبروكة وسألتها عما جرى فرمحت ناحيتها وقالت أنني كسرت أسنانها. . قالت مبروكة : تنكسر رقبتك علـى صـدرك يـا عـرة. . شتمتها. . قالت هي لمبروكة دون حياء إنها عيشة مهببة ولا تساوي وأضافت لتـدلل بـأنني أغيب عنها مهما أغيب وأدخل بوزي شبرين ولما أنام أعطيها ظهري طوال الليـل وكـأنني عبيط ونضح العرق على جبيني. .. أحسست برودته لما مرت عليه نسمة هواء. . خجلـت أن أدافع عن نفسي في هذا الموضوع.. ودخل المندرة ناس ووقفت في الشارع نـاس مـن الأهالي. . وجاء أبي فشق لنفسه طريقا بينهم وساد صمت تقطعه دمدمات التوقـع. . وأنـا نظرت إلى يده فلم أجد شمروخه فظللت واقفا في مكاني. . ولما أصبح قبالتي تمامـا قالـت مبروكة متظاهرة بأنها تكلم صالحة :

ـ لا ضرب ولا خبط. . نفوت له الدار ونطلع.

وسأل أبي عن الحكاية فلم يسمع جوابا. . وكأنما حسب حساب الأرض التي يضـع عليها يده. . ولا أدري من أين طلع شمروخه وانتصب في يده كمارد أسود. . مـن جنـب الجدار أم أنه كان يحمله في يده الأخرى ويداريه خلفه. . المهم أن الشـمروخ بـان وسـاد صمت ثقيل وكأنه عمر بطوله. . وتحركت يده ناحيتي بالضربة. ورغم سرعتي في تحاشي الضربة طالني طرفه. . طال ذراعي فلم أعد أحسه. . وكاد أن يخبطني مرة أخرى فظهـر عمي إبراهيم خلفه وأمسك الشمروخ ومنعه من الحركة واحتمل ما قاله أبي. . وسقط ذراعي بجانبي وعلى ظهر راحته سبع له شوارب طويلة وسيف لونه أخضر. . كان الـدم ينـزف. لم يكن حتى ينزف، كان يتقافز في خط صاعد ويميل ناحية الجدار فيعوصـه. . ولمـا أزاح أحدهم كم الجلباب ليرى الجرح تطايرت نقاط الدم وكادت أن تصل إلى السقف ونزلت علـى الأرض رذاذ مطر خفيف دافئ. . " ضربت عرق الصبا يا رجل فقطعتـه دون أن تعـرف حتى لأي الأسباب تضرب؟ قالوا له : قتلته يا عم عبد القادر " قتلتني يا شورة النسـوان مـن أجل صالحة؟ ".

ولولا أنني كنت واقفا لصدقتهم. . كتموا الدم بحفان بن مصحون وربطـوا ذراعـي بقماش أسود. . وأنا ساكت. . وجاءت أمي لا أدري من أين.. سمعت صوتها يجلجل فـي الشارع. . يقترب ويدخل الدار. . وكانت تشتم أبي بجسارة وحماس جاءهـا لا أدري مـن أين.. قالت : عملتها يا خنزير. . موت عبد الحميد في الغربـة وحسـن أيضـا. . ؟ وأنـا أحسست بنفسي غير قادر على سماع رده عليها. . لم أستطع حتى الاستمرار فـي الوقـوف مكاني. . وقعت على الأرض ولم أعد أحس بروحي أبدا. . كل ما جرى أنني كنت أسـمع دويا متداخلا لأصوات لا أستطيع تمييزها أو معرفة أصحابها. . وكنت في رقدتي أرى عبـد الحميد وأشتكي وأجعله يبكي.

والحكومة لم تعرف شيئا عن القاتل. . " قال الضابط : قيدنا الحادث ضـد مجهـول وحفظنا القضية " وأنا كنت أحسب أن الحكومة لا تخفى عليها خافية وبعثوا لي نقودا في شيك فقلت يدفعون ثمنا لدمك يا سيد ؟. . قلت للموظف وأنا أعيد إليه الشيك أننـي لا أطلـب إلا معرفة القاتل ولا أبيع دم ابني. . ابتسم في إشفاق وقل مهدئا :

ـ مش اختصاصنا يا حاج. . دي مكافأة ابنك عن خدمته. . وأنت حر فيها. . إنما يستحيل ترجع الخزينة.

وأنا قلت لنفسي " لو كانت الوزارة لا تعرف من قتل ابني فمن يعرف ومن المسـئول لأسأله؟ " والليل يومها كان ثقيلا. . كنت مطحونا تحت قادوس الكلمات التي تنعي. . وكلمـا صادفت زميلا لك ولو قديم يسألني عنك فأحس الناس ما نسيتك أبـدا. . ربمـا أنسـاك. . أبدا. . حتى لو نساك الناس ما نسيتك أبدا. . ما تبقى من العمر قليل. . فلأحتمل. . ولـو طال العمر حتى سأظل أذكر. . " كان سلومة وصالح وسعيد وشعبان حولي فـي الجبانـة، وجعلت أدق بالكفين المجنونين جدران المدفن وكأنني أوقظك من نوم ثقيل ولا أسـمع غيـر صدى خبطاتي ولا ترد. . والأصوات كانت تهمهم وتحاول إعادتي إلى الوعي فلا أعي، كان يحيرني أن تروح هكذا على غير توقع وبلا مقدمات. . الإنجليز قتلوا عبد الحميـد قبـالتي وعرفت على الأقل وجه قاتله أما أنت فقاتلك مجهول الهوية وقضيتك محفوظة لعـدم تـوافر الأدلة. . " إيه يا سيد. . العمر عدى والقبر في الكفر ينتظر لكن الموت يتلكأ. . ومن يومها تبدل الحال يا سيد ـ السمع طاش، والنظر طاش، والعقل طاش. .

يوم الأربعين رحت وحدي إلى المدفن. . والبنت التي شـفتها تلـبس السـواد لـم أعرفها. . سألت نفسي إن كانت من ناس الكفر أم أنها غريبة. . أنا الغريب هنا مـا عـدت أعرف ناس الكفر حتى. . " ترى جئت من أجل سيد أو من أجل غيره؟ "وقالت لي : البقيـة في حياتك يا عم حسن" تعرفينني وأنا لا أعرفك يا شابة؟ " ولم أعرف كيف أسالها عن اسمها لأتأكد أنها من جماعتنا أو من الأهالي. . لم أسألها رغم أنها عزتني فيك يا سيد. . نبراتهـا

كانت صادقة وحزينة. . وأنا كنت أبكي. قالت شد حيلك. . بوفاء قالت. . وكلمـا أوشـك على سؤالها عن اسمها أتوقف " يمكن حورية من الجنة جاءت تونسك في وحـدتك وتسـليك وأنت في العتمة. . ما دام المدفن لا يزار. . عائلة الحاج عوف جاءت ونسـيت الأصـول وعائلة شلبي كبرت على زيارة القبور مهما كانت قيمة الأموات. . "

في السكة لم تخرج البنت من دماغي. . ظللت أعصره وأقول لنفسي أننـي عرفتهـا ربما قبل أن يكون العمر نفسه. . وفي لحظة ومض شعاع وعي خاطف فاستعدت التقـاطيع وعرفت أنها بنت شوق. . نفس الملامح وحتى النبرات " جئت إذن من أجله يـا سـعاد ؟. . عرفت الآن اسمك. . الموت جمعنا لما عجزت عن ذلك الحياة ".

وقال لي واحد من " التملية " إنه طهق من ناس الكفر وأنه ذاهب إلى البراري في ضم الأرز. . قلت له لما يأتي المقاول يطلب أنفارا قل لي وسألني لماذا فصهينت. وجاء المقاول قبل أن يطيب الجرح لكنني كلمته وخرجت مع الأنفار من الكفر خلسة. . فت لهم الجمل بما حمل ورحت البراري. . كانت العيشة مرار والأجرة قرشان. . تظل منـذ الفجـر نحـش بالمناجل أعواد الأرز وكأننا نحش معها أعمارنا. . الناموس يمتص الدم ويسمن ويتكـاثر. . وننام في قاعة معتمة ومشحونة كأنها زريبة مواشي. . ومرة رآني الخولي أريـح ذراعـي فضربني كفا وشتمني. . قال له أحد الأنفار عن أصلي فقال الرجل باستهانة أصلك فعلك يـا روح أمك. . " أيام بنشرب عسل وأيام بنشرب خل وأيام نبات على السرير وأيام نبات فـي الطل. . صدقت يا عم إبراهيم لكن هل شربت الخل أو نمت في الظل حقا " كنـت أسـمعها للمرة الأولى : أصلك فعلك. . وقال النفر ليبعد عن نفسه شبهة الدفاع عني : معلوم. . مـن يومها لم أعول على الأصل أو أحطه في حسابي. وقلتها لكل من يجهلها : أصلك فعلـك. . "راحت أيام اللمة في مندرة الحاج عوف الكبيرة. . وجدي مصطفى يجلـس فـي صـدرها بطلعته المهيبة وأبي وأعمامي يتكورون على الدكك وكأنهم تماثيل محنية أخذ منها الجد كـل الشموخ والمهابة وتركها منكمشة على روحها. . ونحن صغار وكثار نجلس علـى الأرض بين أقدام آبائنا نسمعه يحكي. . عن أصلنا الممتد حتى سيدنا الحسين و. . تنتفخ صـدورنا الصغيرة ونكبر ونوشك أن نطول ركب آبائنا الجالسين على الدكك. . ولما نمشي في الكفـر ندب الأرض غير هيابين ولا الشياطين الزرق مثلما يفعل أعمامنا في غيبة الجـد مصـطفى، نتسابق في قطع فروع التوت والسنط والليمون نعملها عصيا رفيعة في طول قاماتنا ونمشـي في دروب الكفر نفرقع ونضرب أولاد شلبي بدون أسباب سوى رغبتنا في الضرب. . ومـا دمت أشتغل مع الأنفار فأنا نفر. . وسيدنا الحسين النائم في قبره في مصر قريبا من المكـان الذي قتلوا فيه عبد الحميد نفض يده من أمر نسله الذي لا يحصى له عددا. .

"ويحكي جدي مصطفى عن جماعة شلبي بسخريته المعهودة. . كيف جـاءوا إلـى الكفر وتسللوا بمسكنة نفرا نفرا دون أن نعرف عن أصلهم أصلا. . يتـاجرون فـي الملـح والدخان والتمر وأحيانا القماش. . وأشياء أخرى كثيرة يحملها الواحد منهم في خرجه الـذي على ظهره كالحمار. . ويحكي كيف أن جدهم لما اشترى حمارا وحط عليه خرجه راحـت جماعتنا تتندر عليه شهرا وتسخر. . ويتفرجون عليه ويقولون له : ربنا فرجهـا عليـك. . ولما تزايدوا فتح الرجل دكانا جعله مخزنا لكل الأصناف التي نشتريها من البندر. . وقاطعوه مدة لكنهم كسلوا عن شراء الطلبات من البندر. . بعدها اشتروا أول فدان من ناس الكفر غير جماعتنا. . وعملوا جنينة، ويظل يحكي حتى يصل بنا إلى ختام حكاياته عنهم فيسأله عمـي إبراهيم وهو أكبرهم سنا كيف أنه باع لهم أرضا من حوضنا فيطرق متفكرا أو آسفا ثم يقولها. الكريم لا يضام ثم : الحريم. . أس البلاوي. . الحريم يا بني. . لو تل مال ينتهي. . لو قـوة ثور تنهد. . لو عقل واعي يخف وكله من الحريم. . ويجلس عمي إبراهيم وكأنه تلميذ شاطر في الكتاب. . ونحاول أن نعرف المزيد عن الحريم وكيف أنهم أس البلاوي، ما دام يعـرف ذلك فكيف رضى لنفسه بمعاشرة الأربعة في آن واحد. . ويتابع هو دون أن يسأله أحد هـذه المرة بينما الضحكة تملأ شدقيه وكأنه سليمان الحكيم في المصحف الشريف. . يا ريت سيدنا النبي خلاهم تسعة أو حتى عشرة. . الحريم يا أولاد دنيا بحالها لا لها أول ولا آخر. . اللهم صلي على سيدنا النبي.. علقهم في رقبته كمسبحته وقال: اعدلوا بينهم. . النبي عليه السلام تزوج إحدى عشرة والمسبحة المباركة ثلاث وثلاثين حبة. . ويا بخت من عنده مـن العيـال سبعة كما سيدنا النبي. . ونحصي عدد من خلفهم جدنا فنجدهم عشرة فنعجب لأنه زاد علـى سيدنا النبي. . ولما نخرج من المندرة نلعب نقول لبعضنا أننا لما نكبر نتزوج أربعـة مثـل جدنا ونبيع الأرض وندخل الدنيا الكبيرة التي يكلمنا جدنا عنها. . عبد الحميـد وحـده كـان يعارض ويقول في جرأة رجل عاقل ومتزن:

ـ يا ولاد دا راجل عجوز وبيخرف. . دي الأرض طالعة من حبابي عنيه.

ونعارض عبد الحميد رغم أنه أكبرنا وحافظا للمصحف. فيقول مرة أخرى:

ـ والمصحف الشريف الراجل بيداري حسرته وخيبته وبيضحك عليكم.

والفرع مال يا حاج مصطفى يا عوف والبخت أيضا. .. حفيدك يضـم الأرز عنـد الأغراب بالأجرة وسط التملية، وكانوا في غيطك ودوارك مثل المواشي نركبهم لو طلبنـا. . والخولي قالها وصدقته: أصلك فعلك. . حتى أبي لما جاء مصر لم يسألني عـن قاتـل عبـد الحميد. . أخذني ورجع كالأرنب. . وكنت أحسبه سوف يأتي بشمروخه ليضرب القاتل ولكنه أتى يخوفني ويرجعني لصالحة. . وقلت لروحي يومها، راحت هيبتنا وقوتنا وأصبحنا كالحريم نبكي على الأموات ونندب. واغتظت منه لأنه سمع الحكاية ولم ينتفض ممسـكا بشـمروخه

ويرمح مطالبا بدم ابنه، وفي الكفر عاش ناعما مدة من خزيه، لكنه استعاد حماسه معي واندفع يضربني بغل فكسر ذراعي وقطع عرق الصبا. . " كأنك كلب يا أبي لا تبين شطارتك إلا في كفرك ". . والجرح كان يعل علي ويوجعني بينما أشتغل في عز الحر فألعنه. . أقول لنفسي لما أحس التعب يتسلل إلى أطرافي. . مصر أرحم.

الآن أهبط. . أهبط في جوف الذكريات على مهل. . أستعيد سيد. . أهرب من موته المكذوب المقدمات. . أراه حيا قبالتي. . الغذاء الأخير بيننا، حلاوة اللقمة بعد غيبتـه عنـي شهرا. . قال سيد:

ـ نفسي أدوق البامية بالفراخ. .

ذبحت ديكا ونظفته. . جاء من السوق حاملا بطيخة وخضارا. . قال: أساعدك؟ قلت له: ارتاح أنت. . قال: أساعدك. . عصر الطماطم وخرط البصل. . وضع لنفسه في الحلة بصلة مقشرة. . خرج مدة وعاد وكشف الغطاء. . سألني إن كانت البصلة قد اسـتوت " يـا ناصح. . تعملها حجة من أجل الحوائج مثل كل مرة " كنت أعرف نواياه وقلت وأنا أضـحك محاولا أن أبدو حازما وجادا: غطي الحلة يا حرامي الفراخ. قال: أشوف البصلة، أخرجها مع الحوائج ورأس الديك وهو ينظر إلي متصنعا الخوف. "لو كنت أعرف أنك ترضى لأخرجته لك كله تأكله وأراك فأشبع " قال : خذ قطعة كبد. . قلت : كلها. . أخذ الطبق في يده وراح يدندن بأغنية مرحة. . " تحب الكبدة وتكتفي بجزء منها وتصر في كل مرة على وضع الباقي في فمي خلسة " سألني : حلوة؟ قلت وأنا أمضغ ما وضعه بيده في فمـي. . الأكـل اسـتوى قال : رائع، وراح يغرف، قعدنا نأكل: إن اللحم حلوا. . دائما لما آكل مع هذا الولـد أحـس طعما حلوا للأكل وقدرة على ابتلاعه. . من غيره لا تنزل اللقمة من الحلق براحتها. . أكلنا وانبسطنا، راح يحكي بينما يجفف يده المغسولة. . قال : هات السكين. . بدأ يقطع البطيخـة ببطء من عند القمة. . يسألني : تراهن. . راهنته. . قال : أعرف أنها حلوة.. كانت حمراء وحلوة. . أكلنا ونحن نحكي. . قال : ندخل السينما؟. . أضاف : فيلم فرنسي جديـد وعليـه زحام في مصر. . قلت : ندخل. . قال في الطريق : أقرأ لك الترجمة حتى لا تتضـايق. . ذهبنا. . كان الفيلم عجيبا وسيد يفسر لي بصوت خافت كل المواقف الصعبة. . لما خرجنـا كان يكلمني عن الفارق بين السينما المصرية والسينما الأفرنجي. قلت: كانت الأفلام العربـي في أول الأمر أحسن منها الآن. . قال فعلا. . سـألته عـن السـر فقـال لـي : الـدجل واللصوصية. . سألني إن كنت مبسوطا فقلت: جدا. . سلم على جماعة من أصحابه في سكة البيت. . لم أفكر في النوم ليلتها. . كنت مرتاحا معه. . كل ما يقوله يشرح الصدر. . كان يدخن أحيانا وكل مرة يقدم لي سيجارة فأقول له أنني أفضل تدخين المعسل. . وأحط الفحمـة على النار ولما تستوي أرص الحجر وأدخن. .

" لو يتزوج هذا الولد أرتاح " قلت له:

ـ ما تشوفلك عروسة بنت حلال يا سيد يا بني.

قال وهو يتعجب :

ـ ولزومه إيه ؟. . الجواز في الزمان دة ورطة.

قلت وأنا أداري عجبي :

ـ يا بني دانا راجل كبير ولولا الملامة أعملها.

قال ضاحكا بسخرية العارف مغزى ما يقال :

ـ أعملها ولا يهمك.

" أعملها يا سيد؟ مرة أخرى؟ غايتي أفرح بك أنت. ."

كان يبدو صافي الذهن مطمئنا. . كنت أحس قلقا. . لا أعرف كم عمره بالضبط. . فات الثلاثين منذ مدة. . ربما خمس سنوات فاتت. . لكنه بدأ يكبر وشعره يشيب. . " ربما يذهب إلى الكفر باحثا عن واحدة من هناك. وبنات مصر هناك بنات، لكنه لدغ من جحرهن مرة. . كيف يصبر؟ في أيامي كنت قد خلفت وأنا في سنه صالح وسيد وتزوجت بعد أمه. . " قلت متشككا في صدق ظنوني :

ـ إوعى تكون ماشي في الخسارة.

قال ضاحكا مستهينا بأفكاري:

ـ أبدا. .

أضاف وكأنه يبرر نفسه.

ـ تعرف ماهيتي كام؟ والمهر كام والشقة بكام؟ الزمان ده له طعم تاني. .

" لو سمعت كلامي من أول شهر ووفرت مبلغا كما قلت لك ما قلت هـذا الكـلام. . ولو كان عندي شيء يباع لبعته وزوجتك. . لكن ما باليد حيلة، أحسست الهم فوق صـدري ثقيلا بالعجز عن مساعدته. . تخفف عني الهموم بسمته المطمئنة. . قلت له:

ـ مش عايز منك حاجة يا سيد. . بس دبر أمورك أنت.

قال متأففا:

سيبك من الموضوع ده. . بعدين نتكلم فيه.

وسكتنا مدة. . بدأنا نثرثر. . أحيانا أحس أن الموضوعات التي يكلمني عنها لم تعد تهمه. . أسعار الخشب، أنواع المسامير، نقص الخامات، ما له بهذه الأشياء ؟ إنـه يفتعـل الحديث معي. . كنت أحس هذه المسألة ببطء. . الآن حدث أن أصبح كل منـا فـي واد. . ضاعت مواضيعنا المشتركة. . مع من يتكلم بحريته هذا الولد؟ " قلت دون أن أدري :

ـ واسمها إيه دي. . اللي. . اللي كنت بتحكي لي عنها. . زمان. . كنت بتحكـي عنها زمان ؟. .

كنت أعرف حكايته مع البنت التي كف عن الحديث عنها رغم حماسه القديم لها "ربما ضحكت عليه. . كم سنة فاتت وهو ساكت لا يحكي؟ "

قال وهو يخرج علبة السجاير ويتناول واحدة. . يشعلها مجاهدا نفسه لرسم ضـحكة على شفتيه تشي بأنه لا يرضى :

ـ كل سنة وأنت طيب.

ـ يا بني عرفني.

قال ممعنا في رغبة الفرار من الاستمرار في الكلام:

ـ تعرف الأمريكان ؟ . نزلوا القمر وحطوا علمهم فوقه. . عرفت أنـه يهـرب. . تركته يهرب.

" وأنا لو سعدني زماني لأسكنك يا مصر. . وابني جنينية ومن جوه الجنينة قصر". . قالها عمي إبراهيم في لحظة تجلي وكان يتمدد تحت الجميزة العجوزة في طراوة العصـر. . في لحظة تجلي راح فيها يسب الكفر وناسه " وأنا رجعت لك يا مصر. . لا أطمع في بنـاء القصر ولا حتى السكن. . غريب جاء يزور قبر أخ له دفنوه يوما فـي جبـل الدراسـة. . فافتحي للغريب صدرك، فقابلت الشيخ سعد في الجامع وقلت له أخبـاري وأخبـار الكفـر. . سألته عن أخباره وأخبار مصر فقال ملخصا ما يراه : " سعد زغلول طلعوه الإنجليز ومسـك الحكومة. . والمظاهرات خفت والأحوال هدأت لا عراك ولا مشاكل. . " قلت له يبحث لي عن عمل فسكت، كنت أدور طوال اليوم وأرى في العيون سـكونا وصـمتا. . منهزمـا أو منتصرا لا أعرف. . سكون ما بعد المعركة التي يدخلها الإنسان لما ينهج ويتوقف مسـتعيدا أنفاسه. . ربما ساعتها لا يقيس الواحد إن كان قد فاز أو انهزم. . المهم أنه واقـف يسـتعد مرة أخرى أو يقول لنفسه كفى. . " وأنا كنت أحسب أن المظاهرات ما زالت والناس تتعارك مع الإنجليز. . إنهم يتمشون اليوم في الشوارع باطمئنان مستتب. ويتكلمون مع أولاد العرب وكأنهم أولاد عم. . أتفحص وجوههم بينما أصادفهم في مشاوير البحث عن عمل. . وكأنني سوف ألتقي في لحظة بوجه قاتل عبد الحميد وأتعرف عليه. . " ولو رأيته يا ولد. . تعملهـا وتتعارك معه وربما يتعارك الناس من أجلك. . أم تتفرج عليه وكأنه لـم يقتـل؟ أبـدا. . تعارك وما يجري بعد ذلك يكون " كانوا يتشابهون فعجزت عن فرزهم والتعرف علـى نفـر منهم. . نفسي العيون الملونة والوجوه الحمراء. . والرطانة غير المفهومة. .

وجدت مظاهرة صغيرة يهتف على رأسها ولد أسمر نحيل لكنه مـتحمس. . الشـيخ سعد شغلني في مخبز قريبا من مسكنه. . وبعد أيام رأيت الولد الأسمر. . هذه المرة كنـت

ممسوكا بلا سبب. . كنت أحمل قفص العيش الفارغ. . وجدت البوليس المصري يرمح في أثر الناس. . قالوا مظاهرة يفرقوها. . كنت أرى رجال البوليس يضربون من يصادفونه. . اغتظت لأن مصر كانت تضرب مصر والإنجليزي يأمر. . ظللـت واقفـا مكـاني تحـت البواكي. . جاء عسكري مصري وضربني بالشومة وشدني. . لما حاولت المقاومـة قـائلا أنني لم أعمل شيئا جاء آخر وآخر وانهالوا علي ضربا. . أخذوني في البوكس مع الجرحـى والممسوكين أمثالي. . راحوا بنا للمحافظة. . حطونا في الحجز. .

دخلت فجلست. . لما حاولت أن أقول لناس التخشيبة أنني لم أشترك في المظـاهرة ضحكوا أولا. . لما أكدت كاد أحدهم يضربني. . قال " دسيسة " كدت أتعارك معه. . شفت الولد الأسمر يشق لنفسه مكانا ويقف. . نظر إلي. . سألني بسرعة:

ـ أنت من الغورية؟

قلت له نعم. قال : شفتك. . كنت قد نسيته. . تذكرته بعد مدة. . قال:

ـ هي المظاهرات عيب؟

قلت: لا.

في الحجز جعنا. . جاءني إسماعيل. . قال بثقة غريبة :

ـ هات كل اللي معاك.

كان معي ريالا حوشته وقرشا. . مددت إليه يدي بكل ما معي. . قال:

ـ لما تخرج تأخذ الفلوس دي. .

نادى العسكري، أعطاه فلوسا أخرى وطلب منه أن يشتري أكلا وسجائر، أكلنا جميعا في الحجز. . أصبحت أحب هذا الولد إسماعيل .. فتحت له قلبي. . قلت له حكايـة عبـد الحميد. . قال: خد حقك. . سكت. . كان يبدو رئيسا في الحجز. . ضربونا نفرا نفرا فـي صالة المحافظة. . كل ما يتناول إسماعيل شومة يشتم أكثر. . البوليس المصري والإنجليزي والوزارة. . لما ضربوني ظللت ساكتا رغم قسوة الضـربات. . قـال إسـماعيل بعـد أن ضربونا ورجعونا:

ـ كلها ساعتين ونخرج. .

سألته لماذا كان يشتم. . قال:

ـ بدل ما أقول آه ألعن سنسفيل جدودهم وآهو كله صوت طالع من الحلق.

عرفني إسماعيل مكان شغله. . كنت فرحانا بمعرفته. . لما رحـت للشـيخ سـعد وعرف الحكاية غضب مني قال لي لا تحشر روحك في المظاهرات مرة أخرى. . حاولـت إفهامه فلم يفهم. . أضاف: مرة أخرى ليس لي بك شأن. . عجبت. . قال محاولا أن يغيـر الموضوع : زواجك من صالحة كان غلطة لا يساويها إلا هربك من الكفـر بعـد أن خلفـت

ولدا. . قلت هو لا يريد معيشتي معه. . لو كنت أستطيع تأجير سكن لأجرته. . أريحه مني وارتاح من تكرار وعظه وتخويفي من أبي. . كأنه يعيشني على حسابه. .

لما قابلت إسماعيل في القهوة التي يشتغل بها رحب بي وطلب لي شايا. . قلت لـه: شف لي سكنا. . سألني عن السبب. . قلت له كل شيء. . عن الشيخ سعد وأبي وصـالحة وشغلانة الفرن. . قال لي : ما دمت تركت البلد طلق البنت تشـوف حالهـا. . قلـت لـه: معقول، أطلقها على رأي المثل " إيش ياخد الريح من البلاط؟ ".

كان سكنه في بيت قديم قريبا من القلعة ناحية الجبل. . حجرة ضيقة ليس بها غيـر حصير قديم وبطانية وبعض الأواني غير النظيفة. . قال:

ـ هي الحتة لو أمان كنا نشتري سرير شركة. . بس مليانة حرامية. .

خفت. . قال مهونا الأمر:

ـ ولا يهمك. . اشتري لك مطوة زي دي. . لو حد اتعرض لك طلعها.

أفهمني أنه من الممكن أن أشتغل معه في القهوة وأترك المخبز حتى لا يعرف الشـيخ سعد عنواني. . قلت كل شيء معقول إلا حكاية السكة. . قلت له وأنا أستعيدها :

ـ دي السكة مقطوعة فعلا.

قال مهونا علي الأمر.

ـ من بعد القسم وشارع الترماي بس. . خليك جدع أمال.

كنت مترددا لكن معاملة الشيخ سعد كانت تتميز بالفتور. . قال مرة " بعت للجماعـة والأولاد " فهمت منه أنه ينوي أخذ امرأته في مصر بعد أن تركها لسنوات طويلـة واكتفـى بالسفر كل مدة. . ربما ضاق بمعاشرتي وخجل مني؛ لأنه يضطر أن يعرفني بأصحابه على أني قريبه متحاملا على نفسه من سوء حالي. . قلت لنفسي أسكن هنا وأفوت للشـيخ سـعد مسكنه. . ونقلت سبت الملابس إلى حجرة إسماعيل وكانت السكة ساكنة والظلام يخيـف. . اشتريت مطوة كما قال إسماعيل وشلتها في جيبي من باب الاحتياط، وكان إسماعيل يشـتغل وردية الصبح وأنا أسهر أحيانا حتى منتصف الليل ولما أرجع أجد إسـماعيل جالسـا علـى الحصيرة يدخن الحشيش وكل مرة يقدم إلي الجوزة فأدخن ولما أتوه يضـحك علـي ويقـول "فلاح". . ولم يكن يضايقني شيء أكثر من مشوار العودة في السكة المقطوعة وكل ما أقـول لإسماعيل تسكن في مكان آخر يقول أنه مناسب ولا يرضى. .

كنت راجعا من الشغل وأمشي في شارع شيخون في اتجاه القلـة. . وجـدت نفـرا يتطوح سكرانا عند السبيل فأبطأت خطوتي ولما حصلني وجدته يكلمني بكلمات غير مفهومـة ويشتمني بعربي مكسر. . " إنجليزي وسكران وترمي بلاك علـى خلـق الله؟ " لـم أرد. . مشيت في حالي. . عاد يتطوح في خطواته ويبتعد عني ثم يقترب. . سبقني بخطوتين. لو

كانت لي سكة غيرها لمشيت منها. . توقفت مدة " ابعد عن الشر وغنـي لـه كمـا يقـول المعلم". . كان واقفا في مكان معتم وكأنه يقطع سكتي. . سألني عن سر تأخيري حتى هـذه الساعة، فهمت كلامه بصعوبة قلت له: أشتغل في قهوة في المغربلين تشطب فـي منتصـف الليل، شتمني واتضح أنه لا يفهم ما أقوله. . وعاد يمشي في اتجاه القلعة. . سبقني بمسـافة وأنا بدأت أتسكع حتى لا يراني ويضايقني. . تذكرت المطوة. . اطمـأن قلبـي. . قلـت لنفسي : لو كنت تذكرتها لما كلمني وشتمني ما خفت منه. . كنت أمشي بجوار الجامع فـي العتمة. . انتصب عبد الحميد قبالتي بوجهه الذي ينضح الدم. . كانت التقاطيع واضحة رغم غطاء الدم الذي ينزف من الجبهة. . ارتعبت. . طنت في أذني كلماته : اقتلـه. اقتلـه يـا حسن وريحني في قبري. . " راح بعيدا. . لو حصلته وحاولت ربما يقتلنـي لأنـه مسـلح وسكران. . تخوفني يا عبد الحميد وأنا جئت مصر أزور قبرك ؟. . أخاف أعملها. . أبوك لم يعملها. . إسماعيل قال لي المطوة تحميك. . من اللصوص، لأنـه لـم يـذكر الإنجليـز السكارى. . عاود عبد الحميد كلامه بصخب أشد. . اقتله وفك قيدي، المطـوة. . المطـوة "أخرجتها من جيب الصديري وفتحتها. . عند منحنى ضيق ومعتم تماما كنت أتحسس أنفاسي بأذني. . كان يدندن بلغة غير مفهومة. . ربما هو قاتلك يا عبد الحميد. . لا يهم. . حتـى لو كان غيره، أولاد كلاب، إسماعيل يكرههم. . حاذيت الرجل تمامـا. . تـأخرت خطـوة واحدة فأصبحت خلفه. . برق شعاع خاطف. . لم أعرف من أين أتى لكنه أضـاء حـولي فرأيته. . أشاح بيده وكأنه أفاق لنفسه وأمرني بالابتعاد عنه لكنه كان ساكنا. . " ابتعد عنه يا ولد أحسن لك. . إسماعيل بات في التخشيبة من يومين لأنه تحرش بواحد إنجليزي مثله. . سأقتلك وليس لك دية، ركبني شيطان مخطط بألف لون ولون. . " السكة مقطوعة والمطـوة في يدك وهو سكران ولا يدري. . لو قاوم أجرحه وأهرب. . لو كنت أقوى منه خاص عليه ولا من شاف ولا من دري. . من الخاف. . أمسكه من الخاف. . أخنقـه واضـرب. . " كتمت أنفاسي. . لم أعد أسمع غير صوته وحده يدندن مبسوطا. لم يراع ما يدور خلفه. . " ليلتك سودة ". . بسرعة أمسكته من رقبته. . جعلتها محبوسة بين الذراع والزنـد. . مـت عليها. . أخرج صوتا خافتا لكنه ذاب في الفراغ المعتم. . غرزت المطـوة فـي جنبـه. . غاص طرفها في لحمه. . نزعتها وعاودت غرزها. . ونزعتها وغرزتهـا. . بسـرعة. . بسرعة وهو يخور كعجل جاموس " جرب يا حلوف طعم الموت. . الموت " فشلت محاولاته في حماية نفسه. . بدأت تقل وتنعدم. . كف عن الحركة. . أحسسته ثقيلا فـي ذراعـي. . كان صامتا تماما. . أنفاسه كفت عن الهمس أو الأنين. . تركته يتهـاوى علـى الأرض. . نزعت المطوة من جنبه ومشيت. . وجدت زقاقا جانبيا فانحرفت ناحيته. . كانت المطوة في يدي غارقة في لزوجة الدم حتى مقبضها وراحتي تستشعر اللزوجة والدفء. . نسمة الهـواء

تجعل الدم يبرد ويبرد. لم أعد أطيقه " دمه زفر. . ونجس ". . فركت راحتـي بالرمـاد وفركت المطوة أيضا ووضعتها في جيب الصديري. . سرت متلصصا. . همس عبد الحميد في أذني هذه المرة مرتاحا، قال جدع. . ريحتني. . لم أكن أعرف من أين أصل إلى البيت لكنني وصلت. . شيء ما كان يشدني ويحركني في اتجاهه. . وجدت إسماعيل جالسا علـى طرف الحصيرة يدخن الحشيش. . لم يلاحظ بقع الدم التي لاحظتها أنا في الضوء الخافت. . خلعت الجلباب وتاويته في السبت. . جلست أدخن. . " لو جاءوا ليأخذوني الآن أقتل نفـرا غيره وأكون أخذت حقي وحق عبد الحميد أيضا ويا دار ما دخلك شر. . ".

صحاني إسماعيل في الصباح لأفطر. . قال : اشتريت الفول والعيش فقم، قال وهـو ينظر إلي: بت عريانا في البرد. . سكت. . سألني عن سر الدم فوق جلبـابي قلـت محـاولا خداعه:

ـ حرامي طلع لي.

غمز بعينه وكأنه رآني أعملها.

ـ تقصد إنجليزي؟ وفيها إيه دا مات. . ولا يهمك كاب وراح. . فتشته؟

قلت لإسماعيل أستفسر : يمسكوني؟

قال بهدوء:

ـ اركز. . ما حدش عارفك هنا. . إن كنت خايف زوغ يومين.

سألته :

ـ أروح فين؟ أصلي غريب.

قال بضيق:

ـ غريب إيه وبتاع إيه يا جدع أنت؟ ؟ كلها بلاد مسلمين. . دا اليهود عايشين فيها.

سكت. .. قال بحماس:

ـ ما تبقاش كمشان كده وخايب. . واتلحلح. . اسمع. . روح إسكندرية، لما تكـون بطال اسأل على أكل عيشك هناك. . صاحبي يمكن يلاقي لك شغل. . بس ارجع تـاني. . اوعى تقول غريب. . دي مصر واسعة ومساعية كل ملة. . مد يـده بجنيـه قـال: خـذه وسافر. . قلت : لا. . قال خذه.. وأضاف:

إنما شاطر والله والعظيم. . اغطس يومين ولما ترجع آخذ منك الجنيه.

كنت مبسوطا من كلام إسماعيل وأحس لأول مرة بأنني في بلادي بحـق. . " مصـر واسعة" وفي الطريق إلى باب الحديد كنت ماشيا بجلباب إسماعيل المخطط وكلما رأيت نفـرا منهم أبتعد عنه وأمشي من الناحية الأخرى. . ركبت القطار بلا تذكرة ودفعـت الغرامـة. . وكلما ابتعد عن مصر ارتاح وأهدأ. .. ونزلت إسكندرية وكان معي عنوان صاحبه.

قال لي ولد فلاح لا أعرفه :

ـ إزيك يا عم حسن.

قلت له : أهلا وسهلا، سألته عن أحوال أبيه. .. قال بحماس وفرح :

ـ بيسلم عليك، سيد كان حدانا من يومين.

" تذهب إلى الكفر دون علمي يا سيد. . يا نخلتي التي زرعتها وسقيتها ولما كبـرت مالت وظللت على غيري ". . سلمت على الولد وسرت وحدي " قلت له لا تذهب إلـيهم. . لكنه عاندني. . في الشهر الفائت قال لي : لا أذهب. . يضحك علي بكلمتين ناعمتين وينفـذ رأيه. . اعرف أخباره من الناس صدفة. كلامي ما عاد يعجبه أو يرضيه. . كلما تكلمنا في هذا الموضوع يسكت. . في دماغه كلام يحرص على إخفائه. . ينظر إلـي ولا يـتكلم. . يضحك علي بكلمتين فارغتين ويمشي قائلا أنه مسافر مصر.. ويسافر الكفر. . هو حـر. . أنا نبهته. . دماغه طاقق. . أبدا. . عقله في رأسه يعرف خلاصـه. . هـو حـر مـالي وماله. . يظل شهورا يشتكي من قلة الفلوس فأمتنع عن أخذها منه. . يحسبني أسـتجدي. . في المرة التالية لن آخذ منه شيئا. . لو أعطاني أرفض. . تغور فلوسه. . ما زلت بصحتي وأستطيع أن أعيش معتمدا على نفسي. . العوض على الله في شقائي وتعبي. . يذهب إلـى شوق. . مرة جاءني مع ولد منفوخ. . قال يعرفني به : شاكر. . أخي. . قلـت لنفسـي : ابن شوق. . لكنه ثقيل الدم. . قلت لسيد أسأله:

ـ طالع فيها قوي على إيه؟

قال ضاحكا:

ـ غلبان

" كلهم عندك غلابة. . صالح غلبان. . شاكر غلبان. . لا تعرف عدوك من حبيبك؟ كبرت وعقلك ما زال صغيرا. . قلت له : خللي نفسك عزيزة عليك. . ضحك من كلامـي. لو قلت نكتة ما ضحك بهذه الصورة. . دائما تضحك. . يحسب نفسه متعلما ويفهم. مـاذا علموه في الجامعة. . الهبل وعدم الدراية أو الإدراك. . ومن لا يطاوعني لا يكون ابني من صلبي. . ربما ابن حرام. . ابن حرام جاء وضحك علي وجعلني أربيه وأعلمه وآخرتها لا يسمع الكلام. . هو حر. . ما لي به. . أولاد حرام هو وصالح. . يـأتي ليطمـئن علـى أحوالي في الشهر يوما ثم يمشي. . لما طردته جاء بعد شهرين. . ليته ما جـاء. . كنـت ارتحت منه. . قلبي حن عليه لكنه لم يفهم. . لو جاء اطرده وأضربه أيضا. . ليس كبيـرا على شيء. . أنا كبرته وعملت له قيمة. . من غيري كان يضيع في الشـوارع. . صـالح يأتي ويبوس يدي في كل مرة. . لم أعمل لصالح شيئا. . ربته أمه وجده. . أنا ربيت سيد وحرقت دمي لأجله لكنه ينسى. . ابن شوق ليس من جماعتنا. . من جماعة شـلبي هـو. .

صالح من صلب جماعتنا. . لو كان يروح لصالح لهان الأمر. . أخوه. . أما شاكر هذا. . لو يحن قلبي على صالح يوما. . أسأل نفسي لماذا ارتاح لهذا الولد ولا اطمـئن لصـالح. . عوضي على الله، لو أنسى ما فات. . لو أنسى. . هو حـر. . يـذهب إلـى الكفـر ولا يعرفني. . يكذب علي لما أسأله. . يعرف كيف يضحك على عقلي بكلامه. . مرة أخـرى لن أصدقه مهما قال. . يكون على حق أحيانا. . مسألة صـالح. . صـحيح. . لا بـد أن أنسى. . قال سيد مرة : حاول أن تنسى ما جرى. . افتح قلبك له. . لكن كيف يفتح الواحد منا قلبه المسكوك؟ بالكلام؟ لما يأتي أسأله. . كيف أفتح قلبي المسكوك لصالح. . أحيانا أحن عليه. . أود لو أزيح جدارا بيننا لا أراه لكنه يحجبنا. . لما يأتي سيد أسأله.

ولما نزلت إسكندرية وجدتها غريبة. . إسكندرية أخرى غير التي جئتها مـع عبـد الحميد. . ربما أنا الذي كبرت لأنني أطل إليها بجسارة غير هياب كما كنت أنظر إليهـا أول مرة. . خوافا ضربه ولد أسمر خاف حتى عن رد إهانته بالضـرب واكتفـى بالشـتيمة. .. اليوم أراها بشكل آخر. .. ربما كلام إسماعيل. . لست غريبا. . سألت عن عنوان الرجـل حتى وجدته. . كان يلبس معطفا صوفيا فوق جلباب بلدي. . له وجه ضاحك. . قال أهـلا وأي خدمة. . أعطيته جواب إسماعيل فرحب بي بحماس وقال وعلى وجهه بسمة ندية كنسمة فجر تشرح الصدر. . أحيانا يرتاح الواحد منا للناس هكذا ولا يعرف لذلك سببا. هذا الرجل له شكل مريح وابتسامة تجعل الواحد مطمئنا إليه. . قال: أهلا بك. . نورت إسـكندرية. . جلس يحدثني بود وكأنه يعرفني هو أيضا منذ سنوات طويلة. . سألني عن أحوالي. . عـن بلدي. . عن أهلي. . ذكرت له كل شيء، قلت له وأنا أستحضر ما قاله إسماعيل لـي عـن الشغل:

ـ ما تشوفلي شغلانة كدة آكل منها عيش. .

نظر إلي وسهم وقال ببسمته العريضة:

ـ أنت ضيفنا. . ترتاح يومين وبعدين تشتغل.

أحسست أن في الجو شيئا غريبا. . كانت الفلوس معي لا تكفي أن أرتـاح يومـا. . أخذني إلى حجرة بها سرير وقال : ارتاح من السفر. .. مر يوم. . قلت له أشتغل. . قـال ارتاح يومين قلت لنفسي : بني آدم ثقيل. . خرجت أبحث عن الشغل. . لما رجعـت إليـه سألني أين كنت. . قلت له : لم أجد شغلا. . أسافر مصر. . قال :

ـ يومين كمان لحد المسألة ما تتوه.

" أنت تعرف إذن حكايتي يا رجل. . تفتح لي بيتك. . غيرك يبلغ عنـي البـوليس. لكن كيف عرفت الحكاية. .. الجواب. . ربما جواب إسماعيل. ..

في صباح اليوم التالي عرض علي فلوسا. . قال : من جنيه لعشرة. . قلـت معـي أجرة السفر. . قال : أرني. .. لم يكن معي غير قروش قليلة. . قـال : خـذ ولا تعمـل فارقا. . كلنا في الهواء سواء. . بلدنا والكلاب نجسوها. . وأنـت تسـتحق المسـاعدة. . أخذت منه. . " يتكلم عن بلدنا. . في البدء كنت أحسب أن بلدنا هي الكفر. . خارج الكفـر لم يكن يخصنا في شيء. . فرحت لما ضربنا رجال العزبة. . فرحت واعتبـرت أن بلـدنا كسبت العركة. . بلدنا. . أحسست أنها كبيرة كما قال إسماعيل. . كبيرة وفسيحة وممطوطة ولي فيها أصحاب. . إسماعيل في مصر وعبد الكريم في الإسكندرية. ..

قال عبد الكريم :

ـ يكون أحسن لو اشتغلت في مصنع القزاز شهر أو شهرين. . بعدها ارجع مصـر واشتغل مع إسماعيل.

غمز بعينه وهو يذكر كلمة الشغل فعرفت ما يعنيه " شغل مع الإنجليز يـريحهم مـن هموم الدنيا ". .

أخذني عبد الكريم لواحد أفندي. . عينوني في مصنع الزجاج. . ولم يرض لي بالسكن بعيدا عنه. . وكل مدة لما أقبض أحاول أن أعطيه أجرة السكن فيرفض وفـي عينيـه لـوم ويقولها : أنت ضيف والناس لبعضها. . قال مرة ونحن نتعشى. . إسماعيل بعـث يطلبـك ويطمئنك على الموضوع. . المسألة نامت، لكن من رأيي تنتظر شهرا آخر. . وجاء جـواب من إسماعيل قال فيه أنهم رفعوا قضية نفقة وبعثوا الإعلان على القهوة فلم يسـتلمه أحـد. . قلت لو رجعت مصر يكون الإعلان في انتظاري. . الشغل هنا أريح. . عبد الكـريم كـان لطيفا ومحببا. . كلمني كثيرا عن الإنجليز. . عن سر وجـودهم هنـا. . عـن ضـرورة خروجهم، وحدثني بصراحة أنه هناك عملية مقاومة لهم تتم سرا وأن إسماعيل يشارك فيها. .

قال إن الحكومة تطاردهم وكان من الواجب أن تساعدهم. . غضبت مـن الحكومـة والملك. قلت له عن عبد الحميد فقال : لكنك أخذت بثأره. . باقي ثأر كثير. . ثـأر البلـد. قلت له : أنا معكم. . قال أنت معنا من زمن.

كنت طالعا على السلم فوجدت عبد الكريم وسط البوليس. .. خفت. . رفع حاجبـه وكأنه يأمرني بمتابعة الصعود دون أن أبين أنني أعرفه. . ظللت أطلع وعبد الكـريم يهـبط السلم مع العساكر. . " مسكوه. . ربما قتل أحد الإنجليز فجاءوا إليـه ومسـكوه. . ربمـا يجيئون ويأخذوني أيضا. . خفت. . فاتت أيام قبل أن يأتي إلي العسكري فـي المصـنع. . سألني إن كنت أنا حسن عوف فقلت أبدا، أنا حسن عرفة. . قال : دوخنا الملعـون. . مـن مصر لإسكندرية. . ناولته سيجارة وهدأت خاطره. . قلت:

ـ عمل إيه؟

قال : مطلوب منه نفقة. . الإعلان داب.

قلت : منه لله. . " من عرفهم عنواني. . الشيخ سـعد؟ ربمـا هـو لأنـه حنبلـي ويعملها. .. " لعب في عبي فأر منجوس. . قلت للعسكري انتظر لما أنادي زميلـي حسـن عوف. . جلس العسكري في الاستراحة. . هربت من الباب الخلفي من المصنع. . تركـت العسكري ينتظر.. أخذت ملابسي من الشقة " جاءك الموت يا تارك الصـلاة. . الحكومـة تريدك " اهرب، غلطت لما بعثت لك يا سعد عن أحوالي. . ما كنت أحسبك تعملها. .

ونزلت مصر هذه المرة مغتاظا من الشيخ سعد. . قلت لا أعرفـه مكـاني أبـدا. . رحت أسأل عن إسماعيل فقال صاحب المقهى : بطل من هنا من مدة. . رحت إليه مسـكنه فلم أجده. . قالوا شال عزاله ومشي. . رجعت لصاحب المقهى وقلت لـه أشـتغل قـال : يفرجها ربنا بعد أسبوعين، ولما فت عليه مرة ثانية قال: تفوت علينا بعد أسبوع. . نزلت من الحجرة التي دفعت إيجارها أبحث عن الشغل لأن النقود خفت وأول الشهر قرب. .. عرفـت الجوع والخوف لما يتسللان إلى الواحد منا فينكدان عليه عيشته. . قرصني الجوع وطالبتني صاحبة السكن بالأجرة فقلت أطلع أبحث عن أي شغل. . انهد حيلي مـن البحـث. . قلـت اذهب إلى المحطة وابحث عن شيلة أشيلها. . صادفني أفندي فحل وأشار إلى قفة كبيرة على الأرض. . شلتها وسرت خطوتين. . بعدها سقطت. . لفت سيقاني على بعضها وسـقطت على الأرض. . وقعت القفة فوقي وتدحرجت. . راح الأفندي يضربني وأنا عاجز عن القيام أو حتى الصراخ. . والناس لما التفوا حولنا يمنعونه قال لهم أنني تسببت في كسر قدرة سمن بلدي. . وحلف لا يتركني أبدا إلا لما أدفع له ثمنها، وجاء رجل طيب وعجـوز. . أمسـك ذقنه وقال له : من أجل شيبتي سامحه. . خجل الأفندي وفك طـوق جلبـابي الـذي كـان يمسكه. . سألني الرجل العجوز لماذا شلت القفة وهي ثقيلة؟ قلت له وأنا لا أعي كيف قلتها:

ـ جعان.

والتفت الأفندي ناحيتي وقال لي في إشفاق:

ـ بتقول إيه؟

لم أستطع قولها مرة أخرى. . ذابت في حلقي. . في كل حياتي لم أقلها مرة أخرى، أبدا أبدا لم أقلها. . طعمها في الحلق مر كالحنظل. . فيها مذلة وانكسار وتسليم. . طعمهـا مر وغير مبلوع أبدا. . لم أقلها. . قالها الرجل الطيب للأفندي. . قال الأفندي الفحل وفـي عينيه شيء كالدمعة يحاول أن يداريها :

ـ حقك علي. . ما كنتش أعرف حكايتك. .

مد يده ناحيتي يعطيني نقودا. . لم أرض أبدا. . ناولها للرجل العجوز، وكأنه يهرب من غلطة وقع فيها ويصعب عليه إصلاحها. . قال وهو يحمل القفة على كتفه فوق القمـيص الأبيض دون أن يهتم :

ـ خليك معاه يا عم.

والرجل راح واشترى لي أكلا وقال : كل. . وأنا لولا الجوع ما أكلت أبدا. . " لـو كان الإنسان بلا معدة. . لو كنا بلا معدة يا رب، ما أحسسنا بكل هذا القهر والمذلة. . لماذا كانت البطون؟ ما دامت نقمة ولعنة وسببا في الهوان يا رب؟ " كنت آكل في نهم. . الرجـل العجوز يجالسني على الرصيف رغم جلبابه النظيف ويربت على كتفي في إشـفاق وحنـو. . بعد ما شبعت وهو يتظاهر بأنه يأكل معي، أخذني وقال : نشرب شايا. . جلسنا فـي ركـن مقهى. . قال:

ـ باين عليك ابن ناس.

" كلنا يا عم أولاد ناس. . " قال : الدنيا حجر طاحون. . يوم في العالي ويوم فـي الواطي. . قلت : الجوع كافر. . قال : الأصل في عينيك. . قلت : أصلك فعلك.

سألني عن بلدي فقلت له. سألني عن أهلي فقلت له. . قال أنه يعرف جماعتنا، يعرف جدي مصطفى بالذات. . وأنه تاجر على باب الله يبيع القماش ويلف بلاد المسلمين. . يعرف ناسها. . وراح يحكي عن نفسه كثيرا ليؤكد أنه يعرف جدي. ..

قال :

ـ تشتغل معايا ورزقي ورزقك على الله.

قلت لنفسي أجرب. .. وسافرنا سويا. .. حملت على كتفي أثواب القماش ودرنا في البلاد والكفور التي يعرفها. .. يعرف ناسها. .. ولما فات أسبوعان رجعنا، والرجل أعطاني حسابي وقال : الشغلانة تعب عليك وصحتك ضعيفة. . قلت له: فعـلا، أسـافر إسـكندرية وأشتغل في المصنع مرة ثانية. .. قال : أحسن لك لأنك تخجل من الناس ولا تنفع في التجارة أبدا. .. وودعته وذهبت وجمعت ملابسي وعدت إلى باب الحديد ناويا علـى السـفر إلـى الإسكندرية.

عند باب الحديد لمحته. . خبطت بيدي على كتفه في ود. . التفت ناحيتي لما رآنـي أخذني في أحضانه. .. لم يصدق عينيـه. . تعانقنـا. . وضـعت السـبت علـى الأرض ونسيته. . كأنه أخي ولدته أمي وغاب عني عمرا قال بحماس:

ـ دوختني عليك. .. رحت لك إسكندرية

قلت له أنني سألت عنه في السكن والمقهى فضحك. . قال مـداعبا: شـكلك تغيـر أصبحت ابن بلد بحق. . بص إلى السبت وقال : إلى أين؟ قلت إسكندرية. . المصنع، كنـت

أنوي الرجوع لما عجزت عن مقابلتك. .. قال كثيرا عن أحواله. . سألني عن عبد الكـريم فقلت له. . قال: إنهم مسكوا نفرا آخر. .. جلسنا في مقهى قريب وذكرت له ما جرى لي.. قال: حظي كان أحسن. .. أضاف متباهيا وكأنه لا يصدق نفسه. .. فتحت محـل حلـواني وبقى لي مركز. . عملت عملة وطلعت منها بقرشين تمام. .. همس : ضابط إنجليزي وقـع في سكتي إياها ولما فتشته وجدت جيبه عمرانا، وقعـت علـى كنـز، وبعثـت أطلبـك لأن موضوعك نام بعد أن عمل زوبعة كبيرة. ..

قلت له : فرجه قريب. .

سألني عن وجهتي فذكرته برغبتي في العودة إلى الإسكندرية لأرجع المصـنع، قـال والضحكة الساخرة تملأ عينيه فتدمعان من كثرة الضحك:

ـ يا ناصح. .. زمانهم رفدوك يا حلو. . ما فيش غير الدكان، والمكسب بالنص. . حتنبسط. . قلت إيه ؟

قلت في عقلي أنه يضحك علي ويجاملني لكنه قطع تفكيري وأخذني إلى ميدان العتبة وأراني الدكان. . عجبت لأحوال الدنيا. . قال تكتب عقد شركة؟ قلت : هو مجنون ليجعـل لنفسه شريكا في الملك. . قلت : أنا مطمئن وجلسنا في ركن الدكان وأخذ يحدثني عن نشاطه خلال فترة غيابي. . قال أنه طلبني لأنه رتب عملية في كامب إنجليزي قريب مـن القلعـة، وأنه يحتاجني معه لأن زميله في المنطقة ممسوك مثل عبد الكريم. . ولما قلت له: يمسـكونا قال باستهانة أن هذا لا يهم في شيء وحتى لو وقعنا في أيديهم نكـون أخـذنا حقنـا ونفـذنا العملية. . أفهمني أنه رتب كل شيء وحسب حسابه. .. ولما أخذني ليكتب عقـد الشـركة الدكان قلت له أنه لا لزوم لذلك لأننا أخوان ولو طلب رقبتي أسلمها لـه. . ورحنـا الشـقة وقال : حط السبت وخذ راحتك. . وعشنا أياما وكنا نكسب كثيرا ويعطيني كل ليلـة نصـف المكسب بعد محاسبة العاملين. . شاركني في الحلوة والمرة وكان يعرف الكثير مما أجهلـه، حتى اللغة الإنجليزية كان يتكلمها وحاول أن يعملني. .. وكان يحكي لي عن أنواع الأسـلحة وأسماء الباشوات وأصحاب الأملاك، والباشوات يعرفهم بالواحد ويتعامل مع الدنيا بجرأة ولا يهتز أبدا مهما حصل له. . حتى لما كنت أحكي له عن عبد الكريم لما مسكوه لا يهتز أبدا. . وكلما قلت له عن العملية يقول أصبر وما صبرك إلا بالله. ..

قال مرة :عندي شغلانة صغيرة أعملها وأرجع لك بعد يومين. .. قلت له : أشاركك؟ فافهمني أنها عملية بسيطة تحتاج لنفر واحد. .. وذكرني بضرورة بقائي في الدكان وسـاب المحل أمانة وغاب أياما. .. كنت أحتفظ له كل يوم بنصف المكسب كما علمني وأحس أنـه سوف يأتي ويفلت منهم. .. والغائب حجته معه. . وفعلا جاء في ليلة ودخل الـدكان فلـم ألاحظه. . ولما طلب طلبا عرفته من صوته وهللنا سويا وراح يحكي عما حصل ففرحت به

وأعطيته الفلوس فقال: خليها معك واستعد للعملية الكبيرة بعد يوم أو يومين، وقلت له: اتفقنـا وكنت مشتاقا بكل حماستي للعمل معه في هذه العملية. ..

وسألني إن كنت أستطيع ضرب النار فقلت أتعلم: وعلمني كيف أستعمل الطبنجـة. .. وليلة العملية أعطاني طبنجة واحتفظ لنفسه بواحدة وقال حطها في جيب البالطو ـ وانتظرنـا حتى منتصف الليل.. . كان الطريق مظلما وساكنا ولكنه كان يعرف السكة كأنه مشى فيهـا عشرات المرات. .. تسللنا من ناحية الجبل وكنا نرى الكامب مضيئا مـن بعيـد. .. قـال إسماعيل : لو أمسكوني أهرب، المهم أن تهرب لأنك لن تستطيع أن تعمل لي شيئا، قال إنـه عملها مع زميله الممسوك وأنه هرب في عملية مشابهة. . وعرفت أنه سوف يحرق الكامب ويحاول الهرب. .. وعرفني بمكان في الجبل أتوارى فيه حتى الصبح. .. كـل التفاصـيل قالها وقال أنه علي أن أطمئن عليه فعمر الشقي طويل. . كنا نضحك ومن مكان معتم قـال ارفع السلك فرفعته وتسلل هو. . . كان علي لو شفت عسكري الخدمة الإنجليزي أن أشغله أو أقتله بحيث لا يصل إلى إسماعيل. . وحتى عسكري الخدمة لـم يظهـر أبـدا. . واختفـى إسماعيل في الظلام فمسكت قلبي بيدي وخفت ثم سمعت صوت طلقـة وانفجـارات متواليـة وتحركت أنوار كشافة في كل اتجاه وكأنها تبحث عن إسماعيل. . وكانت الأنوار تلمع وتلف فتذكرت ما قاله إسماعيل عن ضرورة الهرب. ..

كان الجبل فسيحا فاتجهت ناحيته وظللت أجري. .. وفي مكان ما وجـدتني أرتمـي دون أن أفهم إن كان هذا المكان مأمونا. .. أمسكت الطبنجة وانتظرت فلـم يـأت أحـد. .. وعند الفجر قلت لنفسي لو صادفني واحد منهم أقتله وأهرب. . وكانـت السـيارات تعبـر الطريق الجبلي ولا يلتفت إلي أحد. .. ووصلت الدكان وانتظرت إسماعيل دون أن يأتي حتى يئست من عودته يوما. ..

كرهت أقول للناس أنني خلفت. . ولدين فاسدين. . أولهما يظهر الخوف في عينيـه ممزوجا بالجسارة، الإحساس بقوته الغشيمة والرعب في حدقتي العينين ولا أعرف كيـف. .. والثاني قلت إنه عاش عمره معي فلا بد أن أفهم كل حركاته وسكناته، لكنني عجـزت عـن فهمه. .. يقولون أنه فسد هناك في مصر وفاتني هنا وغاب. .. في كل شهر يبعث خطابـا في البوستة به حوالة " هل خلفتك يا بن الكلب من أجل حوالات تبعثها في كل شـهر. . أنـا خلفتك لتكون ذراعي ونور عيني لما يعجز الذراع والبصر. . " يغيـب عنـي شـهورا ولا يأتي. . صالح صار يأتي " يحسبونني طفلا يضحكون على ذقنه. . لعبة هي يلعبانها معا. . " لما قلت له : أنا بدأت أحب صالح وأكرهك، بان في عينيه شيء كأنه الانتصار ففهمـت. . يحسبني لا أفهم. . أنا ربيته وعلمته. .. لعبة مكشوفة. . يغيب هو ويظهر صـالح، حتـى صالح تحركه يا سيد. . ولد خبيث. . لعبتك مكشوفة يا سيد أفندي " ينسى أن الحب شيء لا

يملك الإنسان صنعه أو منعه. . صحيح أشفق على صالح وأضيق بما يعمله سيد. . يقولون أنه دار على حل شعره في مصر. . إنه يلعب على هواه. . هو نفسه قال لـي عـن بنـت يعرفها نسيت اسمها الآن. . لا بد أنه يصرف عليها مكاسبه. . " كان جدي مصطفى عليـه الرحمة يقولها لنا : الحريم. . آه يا فرعنا الخائب لماذا لتمتد أطرافك المائلة ناحية سيد؟ "كان يحكي عنها كثيرا لكنه كف. . ربما تزوجها دون علمي، لو صدق هذا الظـن أذهـب إليـه وأكسر رقبته كسرا. . وهل أنا منعته من الزواج ليخفي عني أخباره ؟. . شتمته فعلا لكنني طوال عمري أشتمه وأضربه أيضا ولا يفتح عينيه في وجهي. . هذه المرة عمـل غضـبانا وغاب عني. .. الآن عمل كبيرا علي ولم يحتملني. .. أنا عجوز وما لم يحتملني هو فمـن يحتملني؟ قالوا لي أرفع عليهما قضية فأنت كبير. . لكن هل من الممكن أن أعملها أنـا ؟. . أشتكي أولادي؟ مهما حصل منهما لا يصح أن أشتكيهما. .. من أجل النفقة أقف أمامهما في المحكمة على آخرة الزمن؟ ما تبقى لي من العمر لا يستحق الشكاية. . لو مت بعدها يلعنوني كل يوم. . ليست النفقة هي غايتي أبدا. . أريدهما معا. . أراهما وأحادثهما معا. . لا يكفي أن يأتي الواحد منهم ويختفي الآخر. . حتى سيد لما كان يأتي وحده كنت أفرح صحيح، إنما لا تكتمل الفرحة أبدا. . صالح أيضا له في قلبي مكان لم يفتحه أحد. .. ولما يـأتي صـالح ويغيب سيد أحس بأن هناك شيئا غير مكتمل ولا مريح في قلبي. .. كلاهما ابـن حـرام. .. ولدين فاسدين، كله من هذا الولد سيد. . هو الذي أتى بصـالح فحـرك المشـاعر النائمـة والمدفونة منذ سنوات. .. صحاها من نومها الطويل. .. صالح أيضا له حق عليك " قالهـا سيد مرة فأحسست بوخزة في ركن قلبي. . رغم معارضتي أحسست أن في كلامه شيء من الحق. .. لو أنني أخذته معي. .. لو أخذتهما أخذت سيد وربيته ربما كان يرتاح، لما جـاء منذ أسبوعين كان يكلمني محاولا أن يبدو رجلا لكنني كنت أراه طفلا. . أصغر مـن سـيد نفسه. . طفل ضخم له شوارب كبيرة يتخللها شعر أبيض. .الطفل الكبير كلمني محـاولا أن يبدو رجلا. . أسائل نفسي إن كنت سعيدا أو تعيسا فأعجز عن الجواب. .. بعد يومين أذهب إلى الولد سيد في مصر أشوف أحواله وبعدها أرجع.

وكأنما كان الدكان الذي فاته إسماعيل أمانة في رقبتي وغاب سببا. . " سبحانك يـا مسبب الأسباب " الشيخ سعد كان يأتي بجبته الكشمير وعامته التي بـدأ يهـتم بحسـن لفهـا ويعوجها على جنب. . يجلس متمتما ـ كما يفعل الفقهاء في البلد ـ بالـدعاء لـي : ربنـا يزيدك من نعيمه. . يكفيك شر أولاد الحرام. . " ولما أقول له أن الدكان ليس لي ينظر إلي مستنكرا " ويقول " ومن شر حاسد إذا حسد " نافيا عن نفسه أنه سوف يحسدني، وأقول بينمـا يأكل قطع الكنافة بعد البسبوسة أن الدكان أمانة، فيعمل ما سبق أن عمله مرارا. .. يخرج من جيبه شلنا ويحطه على الترابيزة ويقول: خذ الحساب، فأعيد إليه الشلن وأقول له لـيس مـن

الأصول أن تدفع وإنما أقول لك الحقيقة. . يقول هو أنه لولا اطمئنانه أنه يأكل في دكان أخيه الصغير ما أكل دون أن يدفع. . وفي كل مرة يأخذ اللفافة التي أحضرها له ويتاويها في جبته ويخرج. . ما كنت أخشاه أن يدلهم على عنواني فيصلني إعلان طلب النفقة عليه. .. ولمـا جاءتني رسالة خفت أستلمها وقلت ربما تكون إعلانا، فنظر إلي الرجل مستغربا وقال جـواب عادي. . فأخذتها منه وأعطيتها لأفندي كان يجلس في الدكان يأكل وأفهمني لما قرأها أنها من برهومة يعرفني أنه سوف يصل بعد أسبوع. .. كنت أخشى وصول أبي لكن برهومة جـاء وحده، ففرحت به ونسيت خوفي منهم لأن عينيه بان فيهما الود. . كان شابا باسما له عـود ممدود مستقيم لولا شحوب خفيف. . كان يضحك فيتمنى كل من يراه أن يكون أخاه. . قال أن أبي بعثه إلي لأوصله إلى حكيم يعالجه من مرض خفيف يحسه، وراح يحكي عن خناقـة بين أبي وصالحة لما طالبته بأرضها:

ـ أبوك قال لها: الأرض لبرهومة واللي يخطي فيها أكسر رقبته بأيدي وأدفنه فيها.

ويشرع في الضحك ويفهمني أنه لا بد من تقسيم الأرض بيننا مهما حصل. . ولمـا سألته عن قضية النفقة قال أنها تنازلت تحت ضغط أبي وأنها ربما تتزوج ابن عمها أمـين. . وصدقت كل ما قاله برهومة ولما رحنا للحكيم وصف له العلاج ولـم أعـرف بعـدها عـن المرض شيئا. . وقال لي : ارجع معي فقلت له حكاية الدكان وأنه أمانة، فقال حـافظ علـى الدكان ولما يظهر صاحبك سلمه له وارجع الكفر. . وأخذته معي وفرجته على الأماكن التي عرفتها فكان مبسوطا وأصر على عودتي للكفر ولو ليومين وارجع. . وطول مدة إقامته معي لا يجعلني أدفع مليما في شيء ويقول حافظ على فلوس صاحبك يـا حسـن. . وأنـا أقـول لنفسي : " عادت المياه لمجاريها يا برهومة لكن الخوف من أمك ".

قال برهومة : أمك خطبت لك ووصتني بإبلاغك. .. وأضاف: تنسـى مـا جـرى وترجع تعيش في أرضك وتربي صالح والدنيا لا تدوم على حال. .. وحتـى لـو عـارض الرجل أتنازل لك عن نصيبك ويخبطوا دماغهم في الحيط لأنني أحس الوحدة، وكنت أصـدق ما يقوله : قلت: الدكان أمانة. . ومن آمنك لا تخونه. . أول ما يرجع صاحبه أسلمه دكانـه وفلوسه وأرجع الكفر. ..

ولما نزلنا الكفر فتنا على أمي أنا وبرهومة. .. رحبت بنا وقالت لي أنها شافت لـي عروسة حلوة وأنها سوف تعجبني. .. سألتها: من؟ قالت : شوق بنت عبد الستار شـلبي. .. قالت : كانت صغيرة لما خرجت من الكفر وتلعب في الشارع.

قالت : كبرت وأصبحت عروسة ثم :

ـ يا واخد الصغير يا حرامي السوق. ..

ورحنا لأبي فقابلنا مقابلة حسنة وسألني عن أحوالي فقلت له كل شيء فضحك وقال :

ـ غلبتنا معاك. . . اللي كنت خايف منه راح. . صالحة دار عليها أمين ووافقنا.

قلت : طيب على خيرة الله. .. قال :

ـ تغور في ستين داهية. . ما دامت الأرض في عبنا خلاص. ..

ولما قلت له عن حكاية شوق قال : لا مانع خذها. .. عبد الستار نزيه وإن كان يبيع أرضه كل يومين فدان. .

وأمي راحت هي وخالي محمد وخطبوها وقالت لي إنهم فرحوا وعزمـوني أتعشـى عندهم. . ولما رحت شفت شوق، كانت حلوة. .. وجه مدور كصحن بنـور وعـود فـائر وتقاطيع طفلة وابتسامتها تخطف القلب. . كانت مكسوفة لما دخلت وجلست ساكتة. .. لكـن أمي أخذتها في حضنها وراحت تلاعبها والبنت تضحك كأنها لا تعـرف سـبب الزيـارة. .. وكل مدة تنظر إلي في توجس ربما تقول أنني غريب عن الكفر لأنني تغيرت ولبست طربوشا ومعطفا صوفيا وجلبابا له ياقة خلافا لمن تراهم في الكفر. . قلت لها بشقاوة ابن بلد وكـأنني ألاغي بنتا تشتري من الدكان: دمك خفيف يا شوق. . فاحمرت خدودها بسـرعة ورمحـت خارج المندرة. . قالت أمها تلومني بفرحة:

ـ كسفتها

وقرأت الفاتحة مع أبيها وشرطنا شرطها وقلت لأمها وأنا أخرج من دارهم والفرحـة تزغرد في قلبي : خذي بالك منها.

دس في يدي نقودا فنظرت إليه متعجبا. . كنت قد نويت على السفر وأفهمـت أبـي أنني سوف أرجع قريبا. . قلت له : معي قال : خذ، فلوس صاحبك حافظ عليها وسلمها لـه وارجع. .. أخذت ما أعطاه لي وسار معي يوصلني ويسألني عن شوق فقلت له فبان عليـه الانبساط بصورة لم أعهدها فيه، وبرهومة يغمز لي والدموع توشك أن تطفـر مـن عينيـه فأعرف أنه وراء ما حصل من تغير في لهجة أبي " قلبك أبيض يا برهومة. .. لكن قلب أمك له لون آخر. . أنت قلتها هناك في مصر : كسروا أنفه بحكاياتي وعملـوه مضـغة فبعثـك ليصلح الغلطة، وصالح كان يمشي وراءنا في سكة البندر ويقول لي بحمـاس وهـو يتعلـق بطرف البالطو :

ـ أقعد معانا على طول يا با

وأنا أقول لنفسي أنني سوف ارجع لأجله ولأجل برهومة. .

" وقال أبي سامحني فعجبت لطلبه. . ولما قلت له سامحتك زفر في ارتياح وكـأنني أزحت بالسماح صخرة محطوطة على صدره. . وحكى لي عن كابوس طـارده. . ثعبـان كبير التف حوله وغرس أسنانه في لحم صدره. . وكان يصرخ ويسمع الصوت يدوي : فوق لروحك يا عبد القادر وراضي ابنك الغريب، وكان يناديني بعزم صوته ويسمعني بعيدا بعيدا،

كأنما يأتي الصوت من تحت الأرض، والثعبان يضغط ويضغط وأنفاسه تضـيق. .. وجـاء برهومة معي فخف الضغط عن صدره وانزاح الثعبان وأحس بالراحة". . وقـال أيضـا: إن الخير الذي أصابني كان من أثر دعواته التي طلبها لي في صلاة الفجر. . هـو إذن أصـبح يصلي؟ وكنت أضحك في سري من كلامه. . وسايرته. . " طـول عمـرك يـا رجـل لا تركعها، ولا ترى حالي أبدا أو تسمع صوتي ولما يزورك ثعبان في المنام تخاف؟. . تخـاف وأنت مثل فحل الجاموس. . رب سلط عليه في كل ليلة ثعبانا يقلق نومه ويخوفه مـا دام لا يعرف الخوف دونه. . ثعبان شراقي يلهفه في المنام ويصبح الصبح فيحسن معاملتنـا لمـا أرجع".

ولما قامت الحرب خفت على سيد. . قلت : مصر خطر. . لو يأتي أطمئن عليـه. . بعد أيام جاء. . صوته مبحوح وعلى وجهه أمارات هم لم أرها أبدا على تقاطيعه. .. حكى لي عن النكسة بمرارة. . وعن اليهود والأمريكان. .. فسر لي أسبابا سـبقت الحـرب لـم تخطر ببالي" ما لنا بالحرب يا سيد؟ ؟ لا نحتمل الحرب يا سيد. .. هم أقوى مـن الإنجليـز والإنجليز قتلوا عبد الحميد في عز الظهر. . كنت تهتف ضد مـن ومـع مـن؟ لـو شـافك الأمريكان يقتلوك. . لو عرفوك ما فتوك. . كن في حالك. . ترتـاح وتريحنـي " قـال : انهزمنا فعلا لأننا استهزئنا بهم ولم نعمل حسابا سليما لشيء. . تواكلنـا واندفعنا بحمـاس نتباهى فانكسرنا. . قلت له : ربك يحلها. . قال : لو أمكن للناس أن يذهبوا أذهـب معهـم وندافع. . سكت. . لو عارضته ما أفادت المعارضة. . في حرب بور سعيد أخـذ البندقيـة وسافر ولا أدري كيف سافر أو كيف عاد ومن أين أتى بالسلاح. . هو أدرى بمصـلحته". .. كان يحكي بحماس الواثق من صدق ما يقوله. . كنت أصدقه، للحظة أحسست بالرغبة فـي مشاركته الحماس. .. الذهاب معه حيث يتمنى الذهاب، الموت في رأيه لا يسـاوي الخـوف منه. .. الموت الذي يصفه موت آخر. . موت محبب" حتى الموت لما تحكي عنه يا سـيد يكون حيا" من أجل البلد. . لم أحك لك كل شيء. .ما كنا نعمله على أيامنا من أجل البلـد. . كنا نواجه الموت مع الأفندية وأولاد مصر. . نهتف ونحمل الذين يتساقطون بيننا. . نحملهم ونظل نهتف. . وعبد الحميد لما سقط حملوه وظلوا يهتفون من قيعان الحناجر وكنت ما زلت صبيا خوافا، حماسك أكبر منك يا سيد. . أيامنا كنا نعمل ما نعمله ولا نبوح. . أحيانا أقـول لنفسي أنكم تتكلمون كثيرا. .. ترى هل تقول للناس مثل ما تقولـه الآن ؟. . أحسـب أن لا شيء يعجبك أحيانا. . ربما تخاف. . أنا جربت الخوف. . لكنه لم يستمر معي. . اسكت يـا سيد. . ربما تسكت أنت أيضا لما تخرج من هنا وتواجه الدنيا. . أستطيع أن أحـارب لكـن القدرة هزيلة. . لا يهم الموت. . الكلام الذي أسمعه منك يجعل الدم يفور ويغلي. أنت تجعـل من الموت قيمة ومن الحروب ضرورة من غيرها تفقد الحياة معناها.

ولما سافر سيد لم أكن خائفا عليه. . حتى لو حارب. . لو قالوا إنه مات ما أحسست بالحزن المر. . ربما أحزن لكنه يكون حزنا خفيفا على القلب يجعلني أتباهى بـه. . وأنـا الذي حسبته عربيدا ويتسلى ويلعب ويشرب ويحب ويتميع كل يوم أكثر من اليوم الفائـت. . حسبته ولدا تائها بلا هدف. . قلت له في سري : ربنا يحميك ويهديك يـا سـيد ونمـت. . أسترجع أيام القدرة والحماس وإسماعيل.

وعرفت طعم الفرح ليلة شوق. . أبي بجلالة قدره كان مبهورا يزغدني والضـحكة تملأ وجهه المبسوط الذي سرح في عوالم بعيدة. . يقولها:

ـ والله صبرت ونلت يا وله. . دي تسحر العابد.

وعمي إبراهيم يبربش بعينه متصنعا. كأنه يواجه الشمس ويطل إليها فأضـحك مـع الناس. . يقول لأبي بصوت عال:

ـ وشرف المصطفى يا عبد القادر يا خويا اللي حدانا ما هم حريم، دول جريد نخـل منصوب هياكل.

ويسهم أبي ويقول وهو يلتفت لبرهومة في حنو:

ـ عقبالك يا وله. .. دي ليلتك حتبقى ليلة.

ويضحك برهومة وكأنه لا يهتم بما يقوله أبي ويكتفي بفرحة الليلة. . ويتابع ما كـان يقوله:

ـ تبارك الخلاق. .. تقولش لهطة قشطة. . عقبالك يا برهومة وتكمل الفرحـة يـا ولاد. .

ويمسك عصاه القصيرة ويبدأ الرقص، هكذا أنت دائما رغم كل عنفوانك وقسوتك تبدو طفلا يتراقص في الأفراح كأنما يبحث عن الفرحة بأي شكل، والضجيج يرتفع. . أرقب شوق بطرف عيني في ثوبها الأبيض. . يكشفني برهومة ويقول بضحكة : أصبر. .. وأنا لم أكن مصدقا لكل ما يدور حولي. كأنني أحلم. .. رجالنا ورجال شلبي يتسـابقون فـي إظهـار الفرحة. كأنما الكفر كله يغني من أجلي أو من أجل شوق أو من أجلنا سويا. . مشوار الزفـة كان طويلا من دارهم إلى دارنا. . حبات الملح تتساقط فوقنا والزغاريد والغناء. . وحبـات الملبس أيضا تتساقط فيتخاطفها الأطفال. .. وأصوات البنات البكر تلعلع بدلال:

كتبوا كتابك يا نقاوة عيني. . والطشت فضة والمعالق صيني. .

ولما وصلنا المندرة جاء عمي إبراهيم وشد امرأته فاستجابت لدعوته وهـو يـدفعها ويقول:

ـ هزي طولك يا ولية خلينا نفرح. . دا انتي ندراها لحسن.

وأبي يدخل الحلقة الضيقة ويتلاعب مع عمي إبراهيم بالعصى في ود. ولما يخـرج أبي يبدأ عمي إبراهيم محتارا قبل أن يكتشف امرأته التي يبدأ في ملاعبتها وكأنـه قرداتـي يلاعب قردا وسط الضحكات والتهليل وزوجته لا تدري سبب الضجيج، ولما تكتشفه تكف عن الرقص فيزداد الضحك. . وشوق تضحك كأنها طفلة تلعب في مولد أو تتفرج على أراجـوز مضحك، وتنظر إلي خلسة. . هذا هو الفرح بحق. . الفرح لما يعيش في القلب فيجعله خفيفـا يوشك أن يطير. . الفرح لما يشمل كل الناس من حول النفر فلا يحس بوجود شيء يـنغص عليه اللحظة، وتسللوا من المندرة وفاتونا معا. . الوجه بدر والقوام ملفـوف والبسـمة حييـة مرتاحة على الملامح ومتوجسة في سكون. . وبريق العينين ينصب علي وحدي ويحكي فرحة القلب الصغير. . والصوت نغم هادئ خجول خال من الجسارة. " لهم حق في صب نظـرات الغيرة منك يا شوق. . " وأنا آخذها بجواري لم يكن في الدماغ شـيء غيـر الارتيـاح. . ارتياح لم أجربه أبدا. . والصباحية لها لون جديد. . لون حلو. . وأنا آخـذها معـي فـي العربة المخصوص إلى مصر وكأنني أؤكد لنفسي أنها صارت لي وحدي. . والحجـرة كـم كانت فسيحة في نظري. . كأنما انتقلت الجدران وأصبحت هي العالم كله. . الدنيا كلها ملكي وطوع يدي " قال جدي مصطفى : الحريم دنيا لا لها أول ولا آخر " صحيح. . كان يقصـد شوق. . وأنا أهمس لها: نورت مصر. . وهي تطرف برموش عينيهـا فتغطيهمـا خجـلا، وأنتظر حتى تفتحهما لأطل إليهما : " لن أجعلها تخرج أبدا من البيت. . حتى لـو رجعـت الكفر فسوف أحجبها عن العيون ولا أدعها تخرج ليراها غيري" والأيام الحلـوة. . أبـدا. . حتى الساعات كانت تفوت علينا وأنا تائه. . وساعة الجيب التي اشتريتها كانت تكذبني كلمـا سألتها عن الوقت الذي فات منا. . وطعم ما كانت تصنعه وتقدمه إلي ما زال علـى طـرف اللسان. . أستعيد حلاوته كلما أردت. . حلاوة مخزنة لا تنفذ أبدا. . وأنا أحاول تخويفها لما شفتها تنظر من النافذة فتنكمش مدركة أنني لن أضربها مهما حصل لكنهـا تتصـنع الخـوف باطمئنان. . تقول : كنت أنتظرك. . والدكان نسيته. . حتى إسماعيل نسيته. . لا شيء إلا رغبتي في البقاء معها. . أضاحكها وأسليها. . ألاعبها كما كانت تلاعبها أمي.. وفي الـدماغ فكرة وحيدة ورغبة وحيدة. . شوق. . حتى لما تنام قبلي أظل سهرانا سـاعة أنظـر إليهـا وأتسمع أنفاسها الخافتة وأقول لنفسي أنني دخلت الجنة. وأسأل نفسي إن كان من الممكـن أن أخرج منها يوما "وحتى لو جاء إسماعيل وأخذ الدكان فسوف أرجع إلى الكفر وأعيش سلطان زماني في أرضنا مع شوق ففيم الخوف" وكلما أتوانى عن فتح الدكان فـي الصـباح البـاكر تصحيني وتدفعني في رقة وتقول: اذهب.. ولما أتكاسل متدللا وكأنني طفل تقـول لـي: إن الرزق يفوت على الدكاكين في الصباح الباكر ويغضب من الأبواب المسكوكة. . أسألها مـن علمك هذا؟ تقول أبي. . وأقول لها : طيب أنزل بشرط أن يكون الغذاء حلوا فتسألني إن كانت

تعمل شيئا لا يرضيني فأنفي، وأخرج. . ولما أخرج من الشقة أكون فرحانا غير عامل حسابا للشغل أو شقاء اليوم. . كل الأشياء أيامها كانت تتم وأنا مرتاح. . ولما يجيء الظهر أرجـع وأخطف لقمة معها وطعم الأيام على طرف اللسان. . وصوتها في طبلتي الأذنين ما زال. . وكأنه صوت لا يعرف الموت أو الغياب. . ما زالت أطـراف أصـابعي تسـتعيد نعومتهـا وطراوتها. . وكل شيء ما زل في الدماغ صاحيا. . حتى الدموع التي كانت تنسـال علـى خديها دلالا أو لوما أو شكاية. . كل شيء ما زال. . أستطيع استعادته متى أشاء. .

ومرة رجعت البيت ملهوفا فوجدتها تنتظر. .. قلت إنها كل مرة تنام ولمـا أرجـع أصحيها لتحط العشاء وتتعشى. .. قامت وغرفت الأكل وحطته ولم تجلس معـي لتأكـل. . نظرت إليها وقلت لها: كلي معي يا شوق. . . قالت : لا.. عجبت وقمت إليها أسـألها عـن السبب فقالت وشيء كأنه الخجل يرف على وجهها :

ـ ما ليش نفس للطبيخ.

وعجبت.. قلت لها : كلي حلاوة جبتها معي فقالت:

لا. .. سألتها عن السبب.. قالت:

ـ عايزة فسيخ.

قالتها بسرعة والدم يوشك أن ينضح فوق الجلد الأبيض الصافي. .. أخرجت الساعة ونظرت إليها فوجدتها تقترب من منتصف الليل.. " نصف الليل وتطلب العشـاء فسـيخا. . ربما مجنونة، ربما عقلها خف.. أو. . أو بطنها ثقلت. . تمام. . بطنها ثقلت " نظرت إليهـا مدققا استفسر منها عما دار في رأسي فأطرقت. . رفعت ذقنها ونظرت إلي الوجـه فغطـت برموشها عينيها. . همست لها بود: صحيح؟ أجابت: أكثر من شهرين. . أخذتها في حضني وأنا فرحان بها إلى حد الهوس " تتوحمين يا شوق. .. أنت تتوحمين؟ آه لو كانـت المدينـة صاحية مثلنا لدرت أشتري لك طلبك وأقول لكل الناس "شوق حملت" قلت لها: الصباح ربـاح يا شوق. . من عيني. . وبان عليها الفرح. . وزغردت في القلب فرحة. . ورقصت علـى الشفاه أغنيات رحت أغنيها بصوت خافت جانب شوق.. وهي تضحك منـي فرحانـة هـي الأخرى في محاولة أن تخلص من كسوفها. . ذلك الكسوف الذي غطى الملامح ولبد علـى الوجه وتركز في أغوار العينين وامتد لكل البدن. . كانت ليلة. . ودرت في الصـبح أبحـث عن طلباتها وأشتري بكثرة وأتمنى أن تمضي الأيام بسرعة. . بسرعة. . لأراه أو أراها تلك التي تحركت في بطن شوق. .

قلت للشيخ سعد لما جاء:

ـ ابعث أم علي لشوق

وسألني عن السبب فقلت له وأنا فرحان فانبسط وقال أول ما أوصـل البيـت أبعثهـا وأضاف: واجب تعرفهم بجواب. . قلت أكتب لهم الجواب وأسجله لهـم اليـوم. . وكتـب الجواب وسجلته ورحت أشتري خزينا للبيت وأزود. .

دخلت الشقة فوجدت أبي وبرهومة وأمها وأبيها. . سلمت عليهم وباركوا لي ودعـوا لشوق :

ـ ربنا يجبرها وينتعها بالسلامة.

وكأننا نصبنا الفرح من جديد. . أبوها قال لها:

ـ ما تجيبي يا بت صيغتك دي أبيعها وأشتري لك بها عجول أسمنهم لجل العيل اللي في بطنك ما يبقاله رسمال ينفعه.

نظر أبي إلي وعيناه تقولان: لا وأنا لم أرتح للفكرة.. الخير كثيـر ولا لـزوم لبيـع الذهب. . شوق حلوة وربما أشتري لها أكثر. . وهي سألتني بنظرة وفي عينيها رغبة لتنفيـذ كلام أبيها قلت لها: لا. قالت:

ـ لا ليه. . دي على ما تدور السنة يبقى لنا مراح.

فتحت الدولاب وأخرجت الفلوس التي كنت أحتفظ بها لإسماعيل ووضـعتها أمـامهم فبرقت عينا بعد الستار. . قال:

ـ حاطط الفلوس في الدولاب؟ ده القرش صياد. . الفلوس تجيب فلوس. . هاتهم يا جدع هاتهم.

قال برهومة:

ـ لم فلوسك يا حسن ورجعها مكانها. .

والتفت إلي عبد الستار وقال:

ـ لما يرجعوا يبقوا يشتروا اللي هما عايزينه يا با عبد الستار.

وسكتنا لحظة. . لكن شوق قطعت الصمت وخلعت الذهب كله وقدمته لأبيها وكأنهـا تصفعني. . أخذه الرجل وقالت هي:

ـ أنت حر في فلوسك وأنا حرة في صيغتي.

قلت لها البسي ذهبك فلم تطاوع. . لوت بوزها. . وأنا أحسست بخبطة تقـع علـى دماغي. . وزن دماغي كأنما سكنته خلية نحل. . "قلت لها خذي الذهب فلم تطاوع. . أبـي قال إن عبد الستار يبيع أرضه كل يومين فدان. . ربما يلعب بنا وتكون مشاكل. . مـا لنـا بالمشاكل. .؟ واجب تسمع الكلام"

قال أبي وكأنه ضاق بمعارضتها:

ـ ما لكيش حق يا شوق.

لكنها تحمست لفكرة أبيها وردت على أبي بطريقة ساخرة، كأنها تقول له : كـن فـي حالك ودعنا في حالنا. . وسكت أبي. . للمرة الأولى أراه منكسر الخـاطر ولـم أملـك إلا الخروج من الحجرة فتبعني برهومة وأبي وخرجنا وقعدنا في القهوة القريبة ورحـت أدخـن الجوزة وأبي يتأفف وإن حاول تهوين الأمر علي. . قلت لنفسي " كسرت كلامي وكلام أبـي فلا أمان لها، قال برهومة وكأنه يشير إلى أمر خفي علينا:

ـ عبد الستار دكانه فضي وعايز يملأه.

تحمس أبي:

ـ رزق الهبل ع المجانين.

كانت اللحظة ثقيلة وغبية. . وثرثرنا حول عبد الستار شلبي الذي باع أرضا ورهـن أرضا ويطمع في خلق الله. . ولما رجعنا كانت شوق غاضبة من خروجنا دون أبيها قالت:

ـ بقى تفوتوه وتطلعوا؟ مش ما لي عينكم يعني؟

وفضلت السكوت. . وقبل أن يمشي عبد الستار زن على دماغ البنت وأخذ الفلـوس أيضا ولما قلت له يتركهم، عملها نكتة وظل يلاوعني ويقول إنني خائف على الفلـوس منـه وأنني أخونه وبعدها حط الفلوس أمامي وقال أنه كان يمتحنني وكان يحسب أننا أصبحنا واحد لا فرق بيننا أبدا لكنه لم يخرج الذهب ويرجعه لشوق. . وسافروا وكانت شـوق غضـبانة بصورة غير مفهومة وحاولت أفهمها أن على الواحدة أن تطاوع رجلها ولا تهتم بأبيهـا فلـم تفهم وراحت تبكي كلما كلمتها وأحيانا تصرخ ووجهها الغاضب يتهمني. . قلت أنني رجـل ولست شرابة خرج فخاصمتني.. كان خصامنا طويلا وقاسيا ومرا. . قلت لها إن كان بسبب الفلوس أبعثها الكفر. . قالت إن حالة أبيها متعسرة ويحتاج لمساعدة، وأنني احتفظ بما أحتفظ به بينما لا أرغب في مساعدته، فقمت أبعث له ما يطلبه. وبعثت نفرا من الكفر بمبلـغ كبيـر لعبد الستار من أجل إرضاء شوق وأفهمته لا يعرف أبي أبدا، فسافر بالمبلغ وحسبت أن شوق سوف ترضى وتنسى الخصام.

قال عسكري مصري جاءني الدكان: صاحبك إسماعيل محبوس في القلعـة وكلفنـي أعرفك لتزوره قلت له: طيب وجلست أفكر. . " ما عدت أساوي شيئا يا إسماعيل. . أنـت سلمتني الأمانة فخنتها. . صرفت المكاسب ووزعت الباقي، كل ما قلته لـك عـن الأصـل كذبة. . كيف أزورك والجيب خال من نصف حقك؟ " وقلت لشوق أسافر يـوم وأرجـع. .. ولما قابلت عبد الستار قال: فلوسك في السوق وأنتظر لما أجمعها بعد أسبوع وأبعتها لـك. . ورجعت أنتظر. . لكن الأسبوع فات وأسبوع آخر فات دون أن يصلني شيء فجعلـت ألـوم نفسي لأنني طاوعت شوق وأعطيته فلوس الخلق يتحكم فيها لما احتاجها. .. بعد الأمان جاء الخوف. الخوف من المستقبل. . من مواجهة إسماعيل. .. من عبد الستار. .. من شـوق

نفسها، من نظرة اللوم في عيون إسماعيل. . أنا رجعت مصر لأسلم لـه الـدكان والإيـراد وأرجع. . أصبحت لا أساوي مليما في نظره. .. اسود وشي في عينيه لأني لا أقوى حتـى على زيارته في الحبس، قلت لها:

ـ كنت زعلانة لأجل أبوكي. . أهو ضحك علينا وسود وشي.

ولكنها سكتت أولا قبل أن تدافع عن أبيها:

ـ بكره يرجعهم لك. . هو خطاف ولا نصاب؟

قلت لها لو كنت حافظت على الذهب كنا بعناه وتصرفنا. فقالت إنني أبحث عن غلطة أمسكها عليها وأنني أكرهها، أكره أن أسلمك رقبتي فتسلميها لأهلك. . أن أكون شرابة خرج في يديك. .. أن يعرف أبي تفاصيل الحكاية فيركبه عفريت، قلت:

ـ أراهن أنه ضيع الفلوس... بقالة شهرين أهه ولا إحم ولا دستور. ..

وضاقت هي بكلامي قالت : إن العيشة معي لا تحتمل وإنني أضايقها كل يـوم بهـذه الحكاية. . ومرة رجعت فوجدتها تلم أشياءها فلم أمانع. . قلت تغضب وربما يحس عبد الستار بالخطر فيتصرف في الفلوس وأزور إسماعيل. .

وأخذتها الكفر. . أوصلتها لدارهم وما حسبته لقيته. . أبوها لم يكن بالكفر. .. أبـي قال إنه طفش فلم أصدقه. . قلت له أنا رجعت شوق لتلد في الكفر. . قال باقي لها شهرين أو أكثر يا حسن. .. قلت ترتاح يومين هنا عند أمها. . وسافرت. .. وأخذت فـي الانتظـار لأخبار عبد الستار والفلوس دون أن يصلني شيء. .. ونسيت كل شـيء إلا إسـماعيل. .. ومرة جاءني جواب من أمي تقول لي أن شوق خلفت ولدا ففرحت في قلبي لكنني أحمل هـم إسماعيل. . ولما جاء عسكري آخر قلت له خذني لصاحبي. . ودخت السبع دوخات حتـى وصلت لإسماعيل، قال إنه يحتاج فلوس وأنه بعث إلي أكثر من مرسال ولا أسأل فلم أعـرف كيف أرد عليه. . كان ممقوتا ومغموما رغم محاولاته أن يكون مرحا. . كدت أبكـي مـن أجله لولا الحياء. . قال : ولا يهمك شوف العسكري وراضيه، فأعطيت العسـكري نصـيبه وأخرجت كل ما كان معي ساعتها وأعطيته لإسماعيل فبان على وجهـه شـيء كالشـك أو العجب.. قلت له: لم أعمل حسابي هذه المرة وبعد يومين أحضر لك. . قـال : أجـر لـي محامي يا حسن، وأضاف: حبسوني لمجرد الشبهة. . لم يلاحظني أحد. . مجـرد شـكوك لوجودي في المنطقة. . أمسكوا خمسة آخرين وإذا لم أعترف. . كلها شهرين وأخرج مـن هنا. . إنما أكلت كذا علقة ولم أعترف أبدا. .. همس محاولا السخرية لكن ملامحه فضحت ما كان يحسه من مرارة: هدوا عافيتي أولاد الأبالسة. . ما زلت أذكر الـذعر فـي أغـوار العينين. . محاولة السخرية تتحول إلى نبرات مريرة ومطحونة وهشة : أنت رغـم السـجن

تتكلم برجولة. . أنا عيل. . أحس بالعفونة في داخلي ولا أستطيع الهرب. . أحس بالنذالـة والخسة، وخرجت من القلعة وقطرات العرق تبللني وتجعلني أحس برعشة لم أحس مثلها أبدا.

رحت لأمي وقلت لها كل حكاياتي مع عبد الستار وشوق. .. قالت اصبر على البنت يا حسن لأنها صغيرة ولا تدرك. .. لا تكن مثل أبيك غشيما. . قلت لها: والعمل؟. . قالت رح لها. . قلت لها روحي أنت لأنها كانت غضبانة وجسي نبضهم وعرفيني. . ولما راحت رجعت وتقاطيعها هادئة. .. دائما لما يحصل شيء لا يرضيها ترسم الهدوء على تقاطيعهـا وكأنها لا تهتم أو تقول لمن يراها، شفت كثيرا فلن تهزني الأشياء البسيطة. . سألتها قالـت: من جابها لنا يأتي ويأخذها. .. واغتظت منهم ولكن أمي هدأت خاطري وقالت : حتـى لـو ضايقوك. . البنت خلفت ولدا فلا تخرب بيتك بنفسك وصالحها ولم يعجبني كـلام أمـي. .. رحت لأبي. . قال والغل ينضح على رموش عينيه : ناويين على الشر. . لو كانوا يرغبون في الصلح لرجعوها مع أمك. . قلت إن كلام أبي معقول. . كنت أرغب في رؤية الولـد. . وأسأل نفسي إن كان حلوا مثل شوق، قال أبي : بدأوا بالشر ويرغبون في إذلالنا على آخـر الزمان. .. نجوم السماء أقرب لهم، وراح يتندر على جماعة شلبي كلها وعلى أبيهـا الـذي لازمه الفقر فطفش من الكفر، وكلاما كثيرا عن الأصيل والخسيس وأنا أفكـر فـي الولـد. . أكتفي بالنظر إلى وجه أبي وأرى في عيني برهومة عجزا عن المشاركة في الموضوع يجعله ساكتا وغير قادر على الكلام. . قال أبي: نبعث لهم لأن كرامتك من كرامتي. .. لن أطيـق عليك كلمة تجرحك. .. أرسلنا النفر فعاد وقال شتموني وقالوا ابعث حسن، قال أبـي وهـو يضغط على طرف العصا. . لو رحت لهم طلقها أو لا تكون ولدي طول العمر. . أضاف: زودوا العيار وخلوها خل. . عيونهم قارحة ولا يستحون وكأنهم ورثوا الكفر عن جدودهم. .. وخاف أن يربيهم ويكسر أنوفهم التي بدأت تشمخ، كنت ألمح في عيني أبي شيئا كأنه التهـور المحبوس. .. نوعا من الذعر والتوجس الغريب. . كان يشع من عينيه شعاع بريق صاخب لا يتهيب لكنه لما يتكلم عنهم ينزاح ويحل مكانه شيء كالتوجس. . شيء جعلنـي أتـيقن أن جماعة شلبي أصبحت شيئا آخر غير زمان. . أنهم ربما وقفوا علـى حـيلهم، أن جماعتنـا أصبحت أقل قوة، ربما بدأت تتهالك وتتهاوى. . لم يعد لنا إذن مركز الصدارة ؟. . خفـت أن أجر أبي إلى العراك معهم فأخذت برهومة معي وقلـت لـه : نـذهب وأمرنـا لله بـدل المشاكل. .. وسرنا دون أن يعرف أبي وجهتنا الحقيقية. . قالت أمها إنني كسـرت خـاطر البنت.. قلت لها : أشوف الولد. .. بدأت المندرة تزدحم بالرجال. . كأنما انتظروا دخولنـا وبدأوا يتسللون إلى المندرة. . برهومة راح ينظر إليهم باستهانة وهـم يتزايـدون ويمسـك بالعصا باستهانة فكرتني بنظرات عبد الحميد. .. قال عمها : دخلنـا بـالمعروف ونخـرج بالمعروف. . سكت. . قال: فلوسك بدل العفش والمؤخر. . قلت : هاتوا بنـتكم أسـألها. .

قالوا : عملنا حسابها. . " لو جاءت ربما تقول أرجع من أجل الولد. . لو قالتها أضعها في عين العين ولا أفوتها ولو كانوا ألف رجل. . جاءت تحمل سيد على يديها. . سألتها وفي نفسي يقين بأن غضبتها راحت: رأيك يا شوق؟ قالت: اخلاص. سمعتها غريبة. .. زام الرجال استحسانا، قلت أحمي نفسي من نظرات الشماتة: أنا مستعد إنما بشرط، آخذ الولد معي. . قالوا : موافقين. . اقتربت شوق مني بالولد، نفس الخطوات العفيفة الجسورة والتقاطيع الحلوة يغطيها غضب لا أعرف من أين كان ينبع.. غضب وتحد غريب على التقاطيع، كأنهم رسموه على وجهها في شهور الغياب.. اقتربت مني أكثر ومدت يدها بالولد.. أخذته.. " تطلبين الخلاص باللسان والفعل أيضا يا شوق؟ هانت عليك العشرة حقا؟. . حتى الولد ترمينه وكأنه لعبة ؟ الكلبة في دارنا كانت تنهش لحمنا لو اقتربنا على خلفتها. . طيب يا شوق".

قال عمها متسائلا : خلاص؟ رميت عليها اليمين. . خرجت وقلت لأمها عند باب المندرة: ورقتها تصل بالبوستة. .. كان سيد في يدي. . قطعة لحم طرية لكنها دائمة الصخب والحركة كأنه أحس بما جرى فاحتج عليه. .. برهومة جنبي ينظر إلى الكل في تحفز وكأنه ينوي العراك، أو ربما يقوم بدور الحماية لي. . احترت فلم أعرف على أين أتجه. . أخذته على أمي فتناولته مني وهي تبسمل. .. عرفت الحكاية فقالت: حرام عليك. . حاولت إفهامها أنني لم أملك إلا تخليصها فقالت: مصير المياه ترجع لمجاريها. . لم أصدق أن المياه سوف ترجع. . كنت مغموما ومقهورا. . حتى خطواتي في دروب الكفر ناحية دارنا كانت مهمومة. . أكره حتى نظرات الخلق وأقول إنهم يعرفون ما حصل ويشتمون "عملتها يا عبد الستار؟ لكن شوق ترمي الولد وكأنه غريب عنها. . ربما ليس ابنها؟ ابن من إذن؟ ابنها، ابني كنت أحسبه قادرا على صلحها. . حسبتها تندب وتلطم ولا تفوته. . تتمرغ على التراب لو انتزعوه منها. . قدمته إلي بنفسها، ربما أهلها فرضوا عليها أن تعملها. . لكن أي أم هذه؟ مهما كانت صغيرة. "هل من الممكن أن يعيش هذا الولد ابن الشهور الثلاثة؟ قالت أمي: لا تشغل بالك وكن في حالك. . شف مصالحك وأنا أدبر أموره. . يحلها الحلال. . لو عادت المياه إلى مجاريها حقا. . لو عادت من أجل الولد. .. وشوق. .. شوق أيضا. .. أيام الفرح قليلة وأنا حسبت أن الدنيا راقت لي. .. الدنيا لا تطاوع. . من يحسب أنها طاوعته مغفل ".

هذا الولد مجنون. . يحكي لي عن البنات في الجامعة وكأنه أهبل، يحب.. مالي أنا؟. . أيامنا لم أقدر حتى على ذكر كلمة الحب لأبي. . بنت اسمها " سالي " اسمها عجيب. . زمن عجيب. . أقول له: التفت لدروسك فيسألني سؤاله المعتاد : هل خيبت أملك مرة واحدة ؟. . أقول : لا. . " آخر سنة يا سيد فلا تجعل الأعادي يشمتون فينا. .. خذ

بالك من روحك يا ولد. . يضاحكني وكأنه لا يقول شيئا غريبا. .. دائما لما يعرف بنتا يأتي ويحكي. . رحت معها السينما ؟. . طيب. . مسـكت يـدها ؟. . هائـل. .. تحبـك؟. . طيب. . أنت مجنون. .. تحسبني صاحب؟. . ربما أنا بالفعل صاحبك. . لسـت أعاملـك كأنما أنت ابني. .. الابن يخشى أباه. . لماذا تجرؤ على قول كل شيء، أنا تركت لك الحبل على الغارب. .. أحسن. .. أيامنا كنا نخشى الظهور أمام أعمامنا، مجرد الظهور. . نشتغل ونتعب ولا نرفع العيون بالمطالب الهزيلة. . كنا نكرههم فعلا. . أنت لا تكرهني ما دمـت تحكي كل شيء فلا يمكن أن تكرهني. . زمانكم تغير عن زماننا كما تقول. . فـي عرفنـا كانوا يقولون عن هذا الكلام: قلة أدب وعدم ربابة. . أيامكم تسمونها صراحة. .. من يـوم أن كبرت عاملتك كأنك أخي. .. أدعك تتصرف كما تريد. . أكتفي بالتحذير وأنـا أحسـدك على الجسارة في القول. .. حتى عن لياليك العجيبة مع أصحابك تحكي. . كنا علـى خطـأ لأننا كنا نخشى الكلام مع من هم أكبر منا كأننا سنقع في بئر غويط. .. كنت رجـلا ولـي ولدين وأخاف نظرة من أبي. .. حتى بعد أن مات ظل خوفي منه في داخلي. . حتى اليـوم لما أذكره أخاف. . أتوهم أنه سوف يخرج من القبر ويأتي ماسكا شمروخه ولا يعجبه حـالي فيضربني أو حتى يلومني. . علموك في الجامعة أم علمتك السماحة أن تكون جريئا معـي؟ أنت حر. . قلتها لك ألف مرة. . ما دمت تنجح فأنت حر. . أنا لن أتمكن من مراقبتك مهما حاولت. .. ما دمت لم تخيب أملي فأنت حر. . كل مرة أيام الامتحانات أشتري زجاجـات الشراب والسكر وأنتظر وصولك. . مجرد وصولك أيام النتائج لأوزعه. .. أحيانا لا أسألك، أكتفي ببل السكر ووضع الشراب وتوزيعه وأنا أقرأ في عينيك فرحة النجاح، أبـدا لا أخـاف عليك. . شيء ما يجعلني أنتظر نجاحك وكأنه شيء لا بد أن يحصل، لم أتصور مـرة أنـك سوف تفشل في الدراسة، كل النصائح أداء واجب تفهمه أنت دون قول أحيانا. . قلـت إنهـا تحبك وتحبها. . طيب. . الامتحان على الأبواب كأنك تذهب إلى فسحة وتعود، لمـا تـنجح تزوج هذه البنت. . لكن عرفني. . على الأقل عرفني. . لما تشتغل تتزوجها. . أحضر أنا مصر وأخطبها لك. . تحبك حقا؟... شوق أحبتني أيضا. . حبنا كان له طعم آخر. . حبكم غريب. . مفضوح ومكشوف ولا يدعو إلى الخجل مثل حبنا أيام زمان. . " قلت لـه : قـم ونام، وأعطيته المصاريف في الصبح وسافر. . بعد شهر سوف تأتي إذن. . مع السلامة يا سيد".

ولما نزلت الكفر شفت الولد معلولا ونحيلا كأنه عود حطب أصفر. غطيته وتركتـه عند أمي. . . رحت لأبي. .. حاولت إفهامه حكايتي مع إسماعيل، لم يفهم، قال ارجـع يـا حسن. .. قلت له يعطيني مبلغا أخرج من الورطة قبل العودة. .. قال : اسكت يا حسن ولا تقلب المواجع. .. قلت أنا في عرضك، فبان عليه عدم الارتياح لكلامـي. .. قـال وكأنـه

يهرب من الموضوع: الدار داركم وأنا أحافظ عليها لكم، لا عرضي ولا طـولي. .. أخـوك برهومة، اسأله. .. اطلب منه. .. " اطلب من برهومـة. .. أنـا الكبيـر وأصـغر ؟. .. تصغرني إذن ؟. . ما دامت دارنا وغيطنا وأنت حي فما له برهومة؟ قلت: الـدار مسـتورة وثمن بهيمة يخلصني. . قال يداعبني:

ـ يا بت يا مبروكة. .. هي المواشي باسم مين؟

قالت ببراعة امرأة أب مقتدرة:

ـ النبي حارسه برهومة.

قلت لما يرجع برهومة. .. لكنه لما رجع جلس ساكتا. . نظرات أبيه أسكتته بعد أن ظللت أشكي. .. مبروكة ظلت " تتنقور" علي وتتسلى وتلعب بأعصابي، قلت لها اسكتي فلـم تسكت. .. شتمتها بعد أن فاض بي الكيل. .. قال أبي :

ـ اتشطر على جماعة شلبي اللي. ..

قال عبارات قبيحة فجعل الدم ينتفض في عروقي والهم يثقل علـى قلبـي، تكلمـت مبروكة. .. قلت له: سكتها فضحك. .. قلت دون أن أدري:

ـ سايبها تتنقور علي وقاعد مدلدل ودانك ؟. . لها حق تركب وتهز رجلها. . مـا تسكتها يابا.

نظر إلي بغل ورماني بقلة كانت بجواره. .. لم يعجبه كلامي، خابت القلة فانكسرت في الجدار وطالتني حصوة أو حصوتين. .. وامتدت يده ناحية الشمروخ. .. من جنبه أفلت قبل أن يمسكه. .. خرجت من باب المندرة ودخلت القاعة. .. سنكرت بابها مـن الـداخل وضربات الشمروخ المجنونة تجعلني أسـرع وأضـع الدكـة خلفـه والبـاب يهتـز بفعـل الضربات. .. والكلام الذي خرج من فمه كان لمجنون جريح يرغب في تحطيم شيء يحـول دونه باب لا تكسره الضربات رغم قوتها. .. والدار ازدحمت بالناس. .. قال أبي بصـوته المهدود من كثرة الضرب. .

ـ هاتي الفاس يا بت. . النبي لاحش رقبتك. . بقى حسنة وأنا سيدك ياللي خيبتك ما حصلتش حد. .. ما تشوف جماعة شلبي عملوا فيك إيه يا عرة.

استمر يلعن ويخبط. .. يسب ويخبط وأنا أرتجف. .. حتى سمعت صوته يبتعد. .. كأنما أزاحته قوة جبارة خفية وأبعدته عن الباب. .. قال عمي إبراهيم من وراء الباب : افتح يا حسن. .. خفت. .. قال بود : افتح يا ولد ـ أبوك خرج من الدار. .. فتحت بحـذر. .. قال متكدرا:

ـ ولما بتخاف بتطول لسانك ليه؟. . أنت انهبلت يا وله؟

أخذني من يدي. . مشى بي خارجا إلى داره. . قال هامسا:

ـ دا راجل دماغه ناشف يا حسن. . مبروكة لحساه في نافوخـه بالكتابـة. . كـل يومين تكتبله عمل. .

ظللت ساكتا. . ولما وصلنا البوابة كان أبـي جالسـا مـع بعـض الرجـال علـى المصطبة. . لما شافني قام فحاولوا إجلاسه فلم يجلس، ظل منصوبا والشمروخ في يده والدم ينضح في عينيه. . قال:

ـ ما شوفش وشك هنا يا صايع يا بن الكلب. . إني بريء منك ليوم القيامة. . ولا حتى تمشي في مشهدي. . فاهم؟. . ولا حتى تمشي في مشهدي.

وتواريت خلف عمي إبراهيم وهو يشدني من يدي لأبعد عنه. . قال عمي:

ـ عوضك على الله.. ما عدش شايف غير مبروكة ولا سامع غير مبروكة. . وأنت غلطان. . حكاية عبد الستار عملتها من دماغك وهو زعل. .

أفهمني أن أبي عمل شيئا غريبا بعدها. . راح عند جماعة شلبي بالشمروخ يطـالبهم بالفلوس التي أخذها عبد الستار. . قالوا: أقصر الشر فاسـتمر يلعـنهم ويـتهمهم بالسـرقة والخسة. . ولما غلبوا منه التفوا حوله بعصيهم وشماريخم وانتظروا أن يضرب. . ولكنه لم يضرب، اكتفى بالسب واللعن لأنه كان وحيدا. . خاف أن يضرب. . وبعدها فـتح لنفسـه طريقا وسطهم وقال لهم: حدودنا البوابة لا تخطوها ولا تعدوا من دربنا أبدا. . ومن يومهـا وهو مهموم من جماعة شلبي. . لم أهتم بالحكاية. . خاف يضربهم؟ إذن فقد أصبح يخـاف من جماعة شلبي؟ قال:

ـ اللي تعوزه خده مني.

كنت خجلانا من نفسي. . حزينا من أجله أيضا. . كأنني مسلم وقـع فـي حـارة يهود. . كأنني لص ممسوك في مولد. . كل النظرات التي شيعتني أقرأ فيها حروف الاتهام: خائب ولا يساوي شيئا، جاب العار لأهله، قطعوه من أهله، مقطوع من ناسه، خائب، ضحكوا عليه جماعة شلبي. . خرجت من الكفر ورجعت مصر. . كل ما أفكر في إسـماعيل يزيـد الهم. . وسيد وشوق وأبي. . ظللت أحتفظ بالفلوس من أجل إسماعيل حتى جاءت الحكومـة وأخرجتني من الدكان أنا والعمال وسنكرت الدكان وشمعته بالشمع الأحمر، وأنا لم أفهم أبـدا لماذا. .. أسألهم فيقولون في نفس واحد:

ـ أمر النيابة العامة. .

في الشارع من جديد. . لا أرض ولا دكان ولا زوجة ولا ولد.. قال ربيع الذي كان يشتغل معي في الدكان وكأن الأمر لا يعنيه:

ـ اللي بنا مصر كان في الأصل حلواني.

قلت له أنت تتسلى والهم حولنا قال أبدا. . قلت : الدكان ضاع. . قال ولا يهمك. . صينية كنافة أو بسبوسة نسرح بها وتبات مستورة. . ربك يقطع من هنا ويوصل من هنا. .

مثل ربيع عملت صينية كنافة ودرت بها محمولة على كتفي. . حلواني بـلا دكـان، ومن بنى مصر كان مثلي حلواني. . ربما كان حافيا وما زال لدي حذاء، عاريا ولدي ثيـاب نظيفة أكويها وأغسلها. . أكل العيش لا يحتاج الكسوف كما قال إسماعيل مرة. . ما أكسـبه يروح يوما بيوم.

قابلني ربيع في العتبة قال: مسافر المحلة. . تعال معي، في الشركة طلبـوا عمـالا، أحسن من اللف والدوخة. . قلت أسافر معك. . سافرنا. مصـر أو المحلـة كلهـا بلـدنا، يحتاجون المئات فكنا بينهم. . عمال نسيج أو غزل لا يهم. . نتعلم. . نقف على الدولاب أو ندور المكن. . نشم الهواء المشبع بذرات القطن المتطايرة. . تدخل أنوفنا وحلاقيمنا فتسدها ونبصق في البداية لكننا نعتاد اللون الأبيض المشحون بذرات القطن في الورديـة الليليـة أو الصباحية فلا يهم. . آخر المدة نقبض وأبعث مبلغا لأمي من أجل مصاريف سيد. . أحيانـا أشتري له قماشا من الشركة. . وربيع يعيش معي ويبعث إلى أولاده فـي مصـر أيضـا. . يقول أنقلهم بعد شهر أو شهرين لما تتعدل الأحوال. . أقول أجعل أمي تأتي هـي الأخـرى بسيد ونسكن وحدنا. . مكتوب علينا الشقاء من أجل اللقمة. . نظل نكدح هكـذا لا نعـرف رأسنا من أرجلنا. . كأننا جزء من ماكينة النسيج الكبيرة. . لكننا نتنفس نحلـج أو نغـزل، يخصموا لنا أياما لما نتكاسل، لا يهم، حتى لما أخذوني إلى ورشة النجارة وافقـت. . قلـت أشتغل. . أتعلم وأشتغل واشتغلت. . تعلمت. . صنعة نظر كما يقولون في الورشة، ما عاد هناك شيء اسمه العيب في شغل البنادر. . قاطعوني في الكفر. . ما لنا حيلة غير أن نعرق ونأكل. . وجاءت أمي بالمولود وعاشت معي. . من أجل الولد. . هو دائمـا مرضـان. . أمي ترعاه لكنه لما يراني يشب ناحيتي. . يحبو. . يمشي ينطق الكلمات الأولى. . يـزيح الهم الثقيل لما أرجع. . يداوي الجروح التي تتخلف عن شغل الورشة. . افرح به لما ينطق الكلمات. . كلماته مكسورة لكنها حلوة. . يطلب المطالب الصـغيرة. . حلـوى، قـرش، صندل، لعبة، قطة، أهتم بالولد. . " أمك تزوجت يا سيد. . لو تعرف. . لم تصـبر علـى روحها. . وفت العدة وتزوجت بسرعة. . "لو تتحسن صحته ترتاح أمي. . أمي فاتت بيتها ومعاشها وجاءت لتعيش معي في حجرة من أجل الولد. . لولاها لمات. . غدا يكبر وأعلمه في المدارس. . لا بد أعلمه في المدارس حتى لا يدوخ مثلي. .

يموت الموت أحيانا ويحيا. . مات موت عبد الحميد وبرهومة وأبـي أيضـا وكـل أعمامي. . موت سيد لا يهدأ. . كلما دفنته رجع يطل من ركنه. . ينفض عن نفسه سـتائر النسيان الرقيق. . يأتي في الدماغ. . أحيانا أراه يحبو. . أحيانا أراه يضحك. . أحيانا أراه

يبكي. . ويتكلم بحماس جديد. . يفكر أحيانا في أمور أعجز عن فهمها. . لكنه يأتي. . يأتي ليحرك الجرح والمواجع المدفونة تحت تراب هش يعجز عن إحكام تغطيته. .

"في الدماغ. . مثل عبد الحميد. . ضربوه في الدماغ. . عبد الحميد راح قبـل أن تأتي يا سيد. . كان مثلك حليما وطيبا ويصعب تغيير رأيه في الأشياء وراح أيضا. . قلـت لك أبتعد عن الكفر لكنك كنت تكسر كلامي وتأتي. . رحت في شربة ماء. . أسـأل نفسـي لماذا تخيروا الدماغ؟" محاولات النسيان تعجز. . حتى الذاكرة الضعيفة تعي ما جرى لسيد. . صادوه في الدماغ. . في الدماغ كانت الضربة. . الدماغ حيث العقـل الصـاحي والعينـين البراقتين والبسمة على الشفاه تستخف بكل شيء حوله. . حتى مـرارة الأيـام وقسـوتها. . كيف صادوه ؟. . ولماذا قال صالح أنه سمع الطلقة فقام مفزوعا من نومه. . سمع الناس في الكفر يقولون أن نفرا مات، بعدها راح يجري حتى وصل إليه قبل عسكر البندر. . قـال إن الدم كان ينزف من مقدم الدماغ ويغطي البشرة. . العينان ظلتا مفتوحتين، والشفتان منفرجتين عن بسمة ترف مستهينة "وعبد الحميد أيضا ظلت عيناه مفتوحتين وعلى تقاطيعه شيء مرتاح كأنه البسمة. . حقيقة كنت تبتسم يا سيد في تلك الليلة الساكنة ؟. . علام كانت الابتسامة يـا سيد. . ؟ من أجل اللقاء الذي كنت تسعى إليه أم أن فكرة خطرت في خيالك؟ ربمـا اسـتهانة بالفاعل أو بالموت. . أفلحت الضربة فلم تملك أن تعبس التقـاطيع المبتسـمة. . أسـكتتك الضربة يا سيد؟ " ما عاد يقولها : ذاهب إلى الكفر الليلة لأراهم. . ما عاد يأتي في بـدايات كل شهر يتحسس بنظراته الأشياء. . كأنه يقيسها ويقـول: يظهـر أحوالـك الماليـة مثـل أحوالي. . يمد يده ناحيتي قائلا: خذ ما تحتاجه. . ما كان لي حاجة لغيره. . كان يكفي أن أراه يأتي. . أسمع صوته. . أحادث الناس عنه. . من بعده لم يعد للكلام طعما. . عمـن أتكلم. . ؟ كان هو الدنيا والكلام والفرح وحتى غم اللحظة الذي يذوب كأنه سـحابة صـيف كاذبة. . تطوحها النسمة وتتبدد بفعل الضحكة. . بعده لم أعد قادرا على الكلام أو النظر أو حتى التفكير في شيء. في الدماغ. . مقدم الدماغ. . هل هي صدفة؟ هل رجع الإنجليـز؟ جاءوا يأخذون مني ثأرا قديما لم ينسوا أبدا؟ ماذا؟ هل جننت؟ من عملها ؟. . لو عرفته مـا استطعت أن أفعل له شيئا. . فقط أود لو عرفته. . أنظر إليه بالنظر الكليل مرة. . وأظـل أكرهه بكل ما في القلب من قدرة على الكراهية التي تتولد عن الحسرة ما تبقى لي من أيـام، عملها جبان مقتدر، يخشى أن يواجه نظرة من عجوز مثلي، نظرة كليلة من نظر كليل لائم. . يا هذا الذي عملتها مهما كنت قلها واجعلني أغرس في لحم وجهك نظرتي وأموت بعـدها. . ربما لو طال العمر أبصق فوق الملامح فأحتمل لأنها بصقة مرة. . مرة مـرارة العلقـم. . أمر من العلقم. . وأسمع أن حدث لعنة من صوتي الخافت المهزوم تنصب عليك، لعنة بـلا رنين ولا أمل. . كم حيرني التفكير. . لطالما أسرح في عوالم بعيـدة راغبـا فـي معرفـة

الفاعل. . مجرد معرفة. . لو كان لصا أسرقه. . لا لم يكن لصا. . " ماذا قالت شوق ؟. . يقولون حزنت. . وأي حزن يا شوق ؟. . صالح أرى في عينيه حزنه. . حسبته لن يهتم. . لكنه اهتز هو أيضا. . وأنت يا شوق ماذا كان طعم الحزن في حلقك ؟. . عندك غيـره يـا شوق. . ترى كان لسيد سعرا عندك يا شوق؟ كان عندي يساوي الدنيا كلها، من كـان لـي غيره؟

كم هو مر طعم الموت عندما يبتلعه الأحياء بلا رغبة. .. كم هو مر طعم القتل لمـا يجهل الواحد منا وجه القاتل. . مجرد تقاطيعه وشكله، وحتى الحياة لم تتزايد قسوتها بجهـل الواحد منا لماذا تكون القسوة أصلا. . من يطيق؟ من يطيق موته؟

" ارقصي يا خطواتي برعشة العجز والحيرة. . ارتعشي يا عصاي القديمة فأنا أرمي عليك حملي. . ارقصي على سكة الكفر فأنا ذاهب إليـه فـي قبـره منهزمـا. . معترفـا بالهزيمة. . مستسلما له. . بهزيمة القلب الأخيرة التي لا تعادلها هزيمة. . بعده لا يهم حتى نصرا أو هزيمة. . حتى لو انطبقت السماء على الأرض لن تكون هزيمة أمر أو أقسـى. . ارقصي يا خطواتي في دروب الكفر فسوف نصل إلى المدفن ونقعد. . ويا عيون الناس كفي عن النظر والمتابعة فقد كرهت دنيا الأحياء ورحت بمحض اختياري لأتنفس مع الأموات حتى يجئ الموت نفسه".

جاءني صالح في المحلة. . شابا فتيا في جلبابه الأزرق ومشروع شارب. . فرحت به. . قلت له: ابق معي ما داموا غلبوك وأتعبوك. . قلت أشغله في الشركة ويبقى، وملعونة أرضهم التي كسروا نفسنا من أجلها. . وعاش الولد وسيد يلعب معه فيضحك. . وفاتت أيام وصالح يحكي عن الكفر. . عن جماعة شلبي التي لا يهمها في الكفر رجلا. . عـن أبـي الذي يحتد مع برهومة. . وعن برهومة الذي راح للحكيم مرات ولا يعرف لماذا. . وقـال أنهم سخروه في الأرض وحده يشتغل في الأرض وبرهومة يتدلل وأبي يأمر وينهي ويكتفـي بأن يشق على الأرض ويعمل عليه مهندسا. . وكيف أنه قال لهم : أنا كبـرت فـاكتبوا لـي أرض أمي ولا يهم نصيب أبي فصهينوا عنه وأنه لما قال لهم : آخذ بنت عمي سخروا منـه وقالوا: أنت عيل، فطهق منهم وقال أنا مثل " التمللي " أشتغل بلقمتي ولن أغلب بنفسي وسأل عني ودلوه على العنوان فجاء. . قلت : ترتاح هنا يا صالح ما دمنا طلعنا من مولـدهم بـلا حمص. . عمك ورث الأرض وكتبوها له وسيدك حي. . وهو رجل غشـيم. . يضـربك ضربة تروح فيها. . قال أنه لما شم نفسه جاء. .

بعد أيام جاء أبي وبرهومة. . قال أبي للولد : طفشان يا بن الكلب : وضـربه كفـا فوق صدغه فسكت الولد. . كأنه ضربني أنا. قلت له غاضبا أبعد يدك الثقيلة عن الولد فهو ليس حملك. . قال : أنا ربيته وأنا حر فيه. . قلت هو ابني على كل حال فشتمني وسكت. .

أسرعت وجمعت جماعة من الرجال يسكنون معنا وعملنا مجلسا. . قالوا: نسأل الولد. . قال أنا حر ولا أحد يتدخل. . قال أحدهم: البندر ليس فوضى. . هنا حريـة وهـو يختـار. . وسألوا الولد فقال أبقى. . ولما خرجوا بقى أبي وبرهومة وصالح. . قال أبي:

ـ كتبنا لك الفدانين بتوع أمك يا صالح وتقول استنى هنا. . تاكل طوب وتدوخ فـي البنادر ؟. . دي آخرة تربيتي فيك؟ لمعت عينا الولد وبان فيهما عدم التصديق فمد أبي إليـه يده بورقة مطوية. . نظر فيها ونظر إلي. . " في عينيك شيء جديد يا صالح فما هو؟ " قال الولد : أسافر معكم ما دمت أخذت أرض أمي. . قال برهومة:

ـ كلمنا أبوك محمد عن زكية ووافق كمان.

وبان في عينيه فرح. . أخذته على جنب لأحذره منهم لكنه قال إنهم كتبوا لـه أرض أمه ولو بقى تروح منه. . قلت له : والعمل؟ قال أسافر. .

كنت محسورا لأن الأرض أخذته مني. . خجلت أن أنظر إلى وجه أبي الـذي بـان عليه أنه انتصر وأخذ الولد مني رغما عني. .

قال برهومة وأنا أوصلهم : قلبي تعبان وأريد أن أكشف عند الحكيم هنا. . أبي سمعه والتفت إليه وشده قائلا:

ـ خطي قدامي وبلاش تماحيك. .. ابقى اكشف في طنطا. ..

كان وجه برهومة مجهدا ومريضا بالفعل. . حاولت أن أجعله يبقى ليكشف، لكن أبي أصر على أخذه في تلك الساعة والسفر به وبصالح. .. وسافروا. . كنت أعجب لإصـرار أبي على أخذه. . ربما كان فرحانا لأنه أخذ صالح. . ربما يشك أن برهومة يبتغي الفسـحة في المحلة معي. . حملت صالح سبت الفواكه وأعطيت برهومة التذاكر التي قطعتها لهـم. . قلت لصالح على جنب:

ـ لو ضايقوك ارجع. . أديك عرفت السكة.

وقال الولد:

ـ آجي وآخذك يوم الكتاب بس إوعى ما ترضاش.

وانشغلت في تقديم أوراق سيد للمدرسة. . واشتريت المريلة ودفعـت المصـاريف وجاء صالح. . لما شفته من بعيد فرحت. . قلت جاء يأخذني أحضر الفرح. . كلما اقتربت منه أحس بالفرحة تموت في قلبي، لما سلمت عليه قال:

ـ أبويا برهومة متأخر وطالبك.

اهتز قلبي. . " رقد برهومة؟ وقد تأخر وطلبني. . كل هذا بسببك يا رجل. . تقتل أولادك ولا تهتز أبدا؟ " أسرعت مع صالح وأنا أقول لروحي ربنا يسـتر. . أخـذنا عربـة مخصوص من المحلة حتى الكفر. . دخلت عليه المندرة. . أصفر ومعلول وعـاجز عـن

الحركة. . كأنه عجوز. . صوته عاجز وعيناه زائغتان في دنيا غير الدنيا. . لمـا شـافني حاول أن يعتدل فلم يفلح قلت له: ارتاح. . وقعدت جانبه على طرف السرير. . قال : الحمد لله، كنت أريد أن أراك قبل ما أودع. . وأبي كان مطرقا برأسـه وواقفـا لـم يهـتم حتـى بوصولي. . مد برهومة يده إلى يد أبي وأخذها وقربها ناحيتي وقال لأبي: سلم على حسن. . خاص أبي يده برفق وقال لي: برهومة طلبك يا حسن. . نظرت إلى برهومـة. . سـاعتها نسيت كل شيء حتى قسوة أبي. . نسيت كل ما فات إلا رغبتي في أن أراه يقف كما كنـت أراه قبلا. . قال بصوت جاهد أن يكون مسموعا لكنه كان متقطعا وعاجزا عن الإسماع:

ـ لو مت يا با الأرض تبقى لحسن. . ولو عشت نقطع الورق اللي انكتب ظلم، يأخذ حقه وهو حر فيه. . الدنيا منافقة يا با.

قلت أريحه من الكلام : كن في حالك. . شد حيلك واجمد. . أسكتني بإشارة من يده وتابع كلامه:

ـ كوم الطماع ناقص. . أمي طمعت، يمكن ذنب أخواتي وربنا بيخلصه مني.

تقطع قلبي ولم أعد أحتمل المزيد. . حاولت أن أداري دموعي لكنها كانـت تسـيل، وكلما نظرت إليه وإلى أبي المهموم في صمت ازداد حزنا عليه. . وبـدأ الصـوت يخفـت أكثر. . والعينان تغيبان. . وكل مدة لما يفيق من غفوته يمسكني من يدي ويضغط عليها ثم يغيب من جديد. . كأنه يتمسك بشيء في يدي ويقول كلاما بلا رابط لمـا يفيـق. . كأنـه يخرف. . خلصت يدي منه وخرجت قلت : ننادي الحكيم. . ورمحت خارجا من الـدار. . قال صوت كأنه صوت برهومة. . أو صوت أبي جريحا وواهيا بينما أخرج من باب الدار:

ـ ما فيش فايدة. .

وقبل أن أصل إلى البوابة سمعت صوتا نسائيا يشق الصمت وينفذ ليس إلـى آذانـي وإنما إلى صميم قلبي. . رجعت أرمح ودخلت فنظرت إلى الشفتين في حركتهمـا الأخيـرة والروح تجاهد أن تخرج من خلالهما. . والفم يحاول إبقائها لحظات لكنها تفتحه بعزم أشـد وتخرج. . تنفذ الروح فيهمد البدن. . يكف عن التنفس أو الأنين أو الحركة. . دموع أبـي تنسال على وجهه دون أن يتحرك من وقفته، مطرقا كما تركته كأنه صخرة جامـدة تبكـي، "تعرف البكاء لما تشوف الموت، لكنك لا تعرفه مع الأحياء أبدا " وحتى لما رفع عينيه لحظة كنت أقرأ فيهما شيئا كأنه الخجل. . الخجل من الموت. . " أنت خجلان من الموت أو مـن دموعك وكنت سببا في خرابنا وضياعنا. . ظلت تزن عليك وتزن حتـى خربـت الـدار. . وأنت تطاوع. . دائما تطاوع. . تحسب أن الدنيا كانت ملك يديك تعطي لمن تشـاء وتمنـع عمن تشاء. . وأنت يا برهومة؟ هل انتهيت فعلا. . يا حسرتي على شبابك الذي ضاع منـا قبل الأوان ". من الموت كان يخجل الرجل. . في المندرة وأنا جالس أسمع كلام النـاس. .

يتهامسون بأصوات قادرة على النفاذ إلي ربما بالشماتة، أو محاولة لإظهار الـود أو العطـف علي "ربنا خلاف الظنون، مبروكة طردت الأولاد وقعـدت علـى الكـل، زرعـت الشـر وحصدته. . ذنب أخويه خاص. . " وأنا جالس آخذ العـزاء وأنظـر ولا أسـتطيع الكـلام "اتركونا لهمنا يا ناس. . ابعدوا عنا فالأعمار بيد الله..".

ولما دخلت الدار في الليل كانت مبروكة تجلس وسط الحريم وعلى رأسها طين جـف وتيبس، وعلى وجهها صبغة لونها أزرق.. كانت تندب فلما شافتني كفـت، قامـت نـاحيتي وكأنها كلبة مسعورة. . أمسكت طوقي وكأنني بعثت الموت لأخي يأخذه، كانت تصرخ فـي جنون حقيقي، عيناها تنضحان هما وغما وحشيا يصعب على الكافر لكنه يخيف. . يرعب. . كانت تهزني ورذاذ من فمها يتناثر على جانبيه ويصل إلى وجهي لما تتكلم:

ـ جاي ليه يا حسن. . ؟ جاي ليه يا حسن. . برهومة مات. . برهومة مـا. . ت برهومة. . ما. . ت جاي تورث فيه. . عايز تورث فيه ؟. . الصغير مـات. . الحلـو مات. .. الغالي مات. .

كنت مرعوبا. . مرعوبا أرتعش من الهلع والشفقة "حتى أنت يا مبروكة تثيرين فـي النفس شفقة؟ خلصوني منها بعد جهود شاقة وأصابعها مغروزة ومستميتة في طوقي. . خلفت في العنق جروحا وفاتت على طوق الجلباب طينا وصبغة.

قال أبي وهو ينظر إلي في حيرة:

ـ خليك ويانا بقى. . نشوف أحوالنا.

قلت له: مبروكة لن تطيق وأنت شفت بنفسك، فسكت.. قال بعدها وكأنه يفهمني شيئا فاتني : حرقة الموت " وأنا ألم أحترق عليه ربما بنفس القدر وإن كنت لا أندب أو أمسكك أنت من خناقك لأنك كنت بلا شك سببا من الأسباب؟ قلت لك اتركه يكشف عند الحكيم فلم تـرض أبدا. .." قال بحسرة : عوضنا على الله. .

ودخلت مبروكة هذه المرة وعاودت ما سبق أن عملته في المرة الأولى. . وقام أبـي يخلصني منها بعافيته التي عجزت إلا بعد أن خربشتني في وجهي. . قلت والغيظ يملـؤني ويجعلني أخرج عن طوري : الدار لا تسعني أنا ومبروكة قال: قلبك أسود.. قلت لـه هـذه المرة دون أن أهتم بما يعمله: أنت رجل خنزير. . وهي تلعب بك طوال عمرك، من يـوم أن دخلت الدار تلعب بك.. ولم يبد عليه أنه سوف يتحرك ليضرب.. الموت هده. . أفهمته أنني لن أرجع على الدار ما دامت مبروكة فيها تجلس وتنعق مثل البومة..

هذه المرة لم أكن أخافه، ربما كانت هذه المرة الوحيدة التي لم أخافه فيها. . ربما لأن الموت أزاح الخوف مني وسلب منه الجسارة والقسوة. . ربما لأنه أحس بأنه أخطأ في كـل عمره، أحيانا يحس الواحد أن عمره كان غلطة، كان هذا هو المرسوم على وجهه فـي ذلـك

المساء البليد البارد. . كأنه عجز عن الرد "وأنت يا مبروكة. . الغل في قلبك. . حتى فـي الموت تكرهين. . حتى لما مات برهومة لا يأخذك الحزن من حضن الكراهية فتحزنين دون أن تكرهي ولو مرة؟ ".

على سلم الموت أرقص رقصتي الأخيرة. . في كفر عسـكر حيـث المـدافن أزور الموتى كلما ساعدت القدرة. . عدت إلى الأرض بعدما انهدت القوى. . وسيد يرقـد حيـث رقد أبي وبرهومة وأعمامي. . "لو كنت يا عبد الحميد معهم لغنيتم غنوة النهاية " أسمع أحيانا في مدافن الحاج عوف صوت الماضي تردده أشجار النبق العتيقة همسا مرتعشـا شـاكيا. . ألمح الأطياف تتسلل إلى أفرع الصفصاف المحنية. . أجلس ساعة القيلولة حتى يأتي صـالح أو أحد أولاده يأخذني إلى الدار أتعشى بعد صلاة المغرب. . كلما قال لي وكأنه يوصيني: لا تذهب إلى المدافن. . أخالفه وأذهب. . اليوم أعرف سر عودتي الملهوفة. . نـداء الرمـاد ينفذ في صلب الواحد منا فيعجز عن المقاومة أو التأجيل، يأتي ويجلس. . وحتى لما أتمثـل صوت أبي أو ألمح طيفه لا أخاف. . الموت يجرده من جبروته ورعونته. . يجعلـه ودودا وحنونا، وبرهومة بنظرته الأخيرة وصفاء قلبه ينير وجهه. قلبه الذي مات معلولا، وسـيد. . " يا شجرتي التي زرعتها وحسبتها مالت لتظلل على غريمي. . الآن أعرف، مـال الفـرع ليرجع إلى الأرض فلكل أجل كتاب. . ما عاد في خيالي وجه لغريم واحد. . كأنه لما غبت عني غابت العداوة واختفى الغريم القديم. . أيامها كنت أحسبك نسيت، ما جاهدت عمري من أجله. . شقاء الأيام ودوختي عليك. . قلت أيامها وأنا أجهل الحقيقة: انجرف فـي تيـارهم ونسي، وقلت أن الكفر عتمة وغيطانه تغطيها الرطوبة. . سككه معفـرة وبيوتـه كالحـة. . وكل شيء فيه كئيب ومعتم، حتى وجوه الخلق كئيبة ومهمومة وساكتة. . كأنها مـراح غـنم يمرح في الفجر ويعود قبل المغرب دون أن يتبدل فيه شيء إلا الزيادة أو النقصان في العدد، إنما القطيع هو القطيع. . قلت هذا لنفسي ناسيا نداء الموتى. . نداء أمواتنا الـذين سـبقونا ورقدوا واستراحوا، اكتفوا بالإطلال علينا من مراقدهم ومتابعة خطونا المنتشي كل فجـر. . في انتظارنا بيقين في عودتنا. . **أينما كنتم يدرككم الموت ولو كنتم في بـروج مشـيدة** اسمعها فاهتز. . وأنت لم يكن لك برج لتتوارى من وجه الموت ساعة. . والموت أراه فـي الأحيان فأعجب من أمر الدنيا. . وكل ما يدور حولنا، الغيطان والمصارف وناموس البـرك والسكك الملوية، البيوت العفشة المسقوفة بكتل الخشب التـي اسـودت مـع حـزم البـوص المحترق، وكل شيء للموت يمضي. . جئت للموت إذن، وأنت يا سيد كنت تـأتي للمـوت هنا. . أيامها كنت أسائل نفسي عن سر مجيئك المتكرر كل يومين. . أتخيلك تمشـي فـي دروب الكفر بينما جماعات نسوة الكفر يجلسن على الأبواب وينظرن إليك وأنت تمر عليهن، ثم يشرعن في الحديث عنك. . ابن من ؟. . لماذا يأتي؟ لمـن يـأتي؟ ومـاذا يعمـل؟. .

وينصبوا على سيرتك قعدتهم، أبدا لم يكن هذا يهمك. . كنت تأتي لأن الموت هنا كان يناديك وليس رجال الكفر المناظر ذوي الشوارب المبرومة والأعواد الفارعـة. . وحماسـهم فـي دعوتك لشرب خناصر الشاي الأسود. . كأنهم يتسابقون لنيل شـرف دخولـك دورهـم. . كرمهم المعجون بالغربة في التفاخر وكأنهم في سباق مع أنفسهم أولا. . لا شيء من هذا كان يشدك. . الموت هو الذي أخذك. . شدك مني. . وأحسبك يا سيد كنت تلاحظ أن الأمر كان يتحول من احتفاء متحمس في البداية. خطوات التباهي بابن الجماعة الذي عاد ليمشـي فـي دروب الكفر مع الرجال المناظر. وتكرار الواجب بكثرة تتحول إلى عبء ثقيل ثقل المسئولية المرمية فوق الأكتاف. . وجماعة الحاج عوف التي هزمهـا العنـاد وصـلابة الـدماغ. . أصبحت أعجز من الاستمرار في دور الكرام. . وحتى لو كنـت أنـت وراء تربيـة أولاد البعض منهم في المدارس وأنك كنت فخرهم في مواجهة الآخرين يوما. . كل هذا لا يهـم. . ليس الأهل والأولاد وإنما الموت شدك. وأنا بدوري جئت أنتظر. . أحلم بالموت يأتيني وأنا في المدافن..".

الشيخ شعبان يقرأ ما تيسر. . على روح الرجال يقرأ. هسيس أشجار النبق العتيقـة يتردد شيئا كالهمس البشري. . نبرات أصواتهم تتجاوب مع صوت الشيخ شـعبان. . قـال سيد: أنت قطعت نفسك من شجرة " كانت شجرة الحاج عوف الكبير التي ما عـادت تطـرح الرجال القادرين، واكتفت بالهياكل معدومة الحيلة والغارقة في كذبة الاسم القديم. . وسـواد القلب من سواد الحال. . وأنت تراني يا سيد كل يوم. . أنتظر وأرضى بكل رغبتي أن أبقى هنا رغم ما كان في الزمن الفائت. . والحسرة تذوب مع اليقين الذي تسلل إلى الـرأس بـأن الحزن فوق طاقة الاحتمال، وإنه عندما يكتشف الواحد منا أن العمر كله كـان كذبـة وأنـه خسره. . وإن ما كان يتمسك به كان غلطة كبيرة لا يحلها إلا الموت نفسه. . ساعتها يذوب الشعور بالحسرة في لحظة الكشف. . أجيء إليك لأتمثلك مرة كما أتمثل أبي وبرهومة وجدي والآخرين. . وتعز صورتك أحيانا. ولما أتسمع دبيب خطو صالح أفقد الأمل فـي رؤيتـك وأعود معه إلى الدار. . والحجر الدائر ولطشة الجدار. . جدار الموت لطشك. . هـا هـو صالح يأتي. . الخطو الثقيل. . والتقاطيع الجادة. . وبقية اعتزاز بلا معنى. . رجل فـي قلبه جرح قديم لا يداويه القول أو العزاء. . يداويه الموت يا صالح. . حتى لـو تظـاهرت بالقوة والعنفوان والقسوة، فأنت لها مثل سيد. . للتربة. . للتربة.

ولما جاءني الجواب سافرت. . " هدك الموت إذن يا أبي فعرف المرض طريقك أنت أيضا..؟ آت إليك أنا والقلب لا يحمل إلا الحنو والنسيان " لما دخلت الدار وجدته جالسا فـي صحنها على دكة النورج. . قلت وأنا أتجه ناحيته: بعد الشر عنك، ظل ثابتا في قعدته وعلى تقاطيعه خطوط هم غويطة.. قلت لنفسي " ما زال مهموما وحزينا على موت برهومـة. . "

مددت إليه يدي فظل جامدا في قعدته دون أن ينظر ناحيتي أو يمد يده. . جلست جـواره. . جاء صالح وسلم وجلس على الأرض عند قدمي الرجل، وبعده بانت مبروكة فـي السـواد. . قالت: شفت؟ نظرت إليها بغل. . "فصل سخيف وشربته. . تبعثون جوابا تدعون فيه مرض الرجل بينما يجلس قصادي يطل ولا ينطق كأنما قطعتم لسانه أيضا؟" لم أتكلم وسكت. . قال أبي يقطع الصمت الذي حام حول الدماغ كدبور فقد قدرته على الزن واكتفى بالدوران حـول الرأس ليجعلها تتابعه وتدور هي الأخرى. . هيه؟ وبعدها بدأ يحرك عصـاه فـي صـعود وهبوط متتابع فتدق الأرض بطرفها وكأنه يأمرنا بالإنصات بينما نحن صامتون؟

ـ أنت شايف إيه يا حسن؟

كان في صوته شرخا لا يود أن يبين. . يجاهد أن يخفيه. قلت متوجعا من نبرته:

ـ شايفك حلو يا با. . البركة فيك.

قال بصوت متهدج، مهزوم ومستسلم أيضا وهو يهز دماغه وكأنه ينكر قولي:

ـ لكن أنا بقى ما نيش شايفك. .

وللحظة أدركت كل شيء. . استعدت الموقف من أوله وأنا أطل إلى عينيه العسليتين الصافيتين واللامعتين كعيني قط بري أو ربما ذئب. . عجبت لأننـي لـم ألاحـظ شـيئا. . ارتعبت وأنا أدقق النظر في الملامح المتهدلة المتراخية كأنها لا تخصه. . كأنما العينان كانتا تحرسان الملامح وتشدانها وتبعثان فيها الحياة.

فلما غابتا أصبحت التقاطيع بلا حارس فتراخت وتهدلت. . أصبحت مجرد كتل لحـم عجوز محطوطة بلا معنى. . إلى هذا الحد رأيت الملامح ميتة فانتفى وجودها كله.. حتـى خطوط الزمن تكذب. . تجاهد التقاطيع أن تقول شيئا فتعجز. . لا شـيء غيـر اللـوم أو الاستكانة يطلان علي من خلال البريق الأعمى الضرير الذي لا يميز.

" ميزت في ماضيك كثيرا حتى أتعبك التمييز. . نظرت بالعينين فخوفت الكل حتـى نفذ من العينين الشعاع. . والآن تجلس. . لا تملك حتـى أن تـدخل بيـت " الأدب " بـلا مساعدة. . والذي انقضى راح وولى. . الموت في الملامح. . ربما الحزن على برهومـة وعبد الحميد والأخوة. . ترى هل كانت حياتك بأسرها غلطة متتابعة الحلقات كأنها قيد شدك كلما حاولت الخروج لتعود وتسقط في دوامة التعسف الغشيم والتجبـر. . ومعاركـك التـي حصلت بفعلها على الاسم والتي ما زالوا يتحدثون عنها وكأنها حواديـت مـا حصـلت ولا كانت. . وماذا يقولون اليوم في كفر عسكر؟ ربما فرحوا بالبلوى التـي حطـت. . ربمـا تحسروا وأنت تتهاوى قبالتهم من مكانك القديم ومكانتك وتقعد على دكة النورج فـي صـحن الدار كالحريم لا ترى عدوا من حبيبا ".

لم يكن هناك ما أستطيع قوله أو أجسر على البوح به. . كأنما قطعت قعدته السـاكنة لساني. . خيم السكوت والعجز عن فتح أي موضوع. . قال وهو يهتز أماما وخلفـا وكأنـه مقرئ الرواتب الكفيف الذي يتلو آياته بلا حماس ولا انفعال، بصوت كأنـه صـوت العجـز البائس:

ـ العمر عدى وفات. . ما عادش غيرك. . برهومة راح. . عبد الحميـد راح. . وحتى النظر راح. . وياما سمعت معيرة بسببك أنت وعبد الحميد وقاومت لما كـان العـزم شديد. . لو ترجع يا حسن يا بني يرجع العزم ويشتد الحيل المهدود. . أشوف بعينـك أنـت وصالح.

للمرة الأولى أحس أنه أبي. . في كل عمره أحسسته خصما يستحق الكراهية. . مرة حاولت قتله. . حتى وهو يقول لي ارجع الكفر لم أكن أهتم بالرجوع. . كنت أفكر فيـه. . أشفق عليه. . كأنما قرأ هو ما يدور في دماغي. . برقت عيناه في لحظة فحسبته يـدخل. . يتسال إليه ويقرأ ما يدور فيه. . كأنه هزم العمى والعجز وبدأ يراني. . من داخل الـداخل يراني. . ساعتها ارتعبت رغم الإشفاق عليه من نظرة اللوم المطلـة مـن العينـين وكـل التقاطيع. . التقاطيع التي عادت تحيا بعد الموات. . هذه المرة أحست أنني بجوار أبـي. . كأنما ولد إحساسي به في تلك اللحظة بعينها. . لم أعد أحتمل. . جعلت أنهنه. . من أجلـه كنت أبكي. . أسكتني. . قال : الظفر لا يطلع من اللحم. . الدم لا يبقى ماء وسكت مدة، ثم ابتسم، كأنما استعاد نفسه. . كأنما لما اطمأن أنني ابنه وأنه استعادني عـاد يحيـا. . تحيـا التقاطيع وتنتعش وتفيق. . تنفض عن نفسها البلادة وتحـس وتقـول. . والنبـرات تقـاوم الارتعاشات، وراح يحكي، منبسط الملامح والنبرات. . من حيرتي كنت أقول لنفسي: لـيس أعمى، فها هما العينان تبرقان ببريق الوعي والإحساس والحياة. . وكلما قال شيئا يزداد فـي قلبي الصخب. . أود لو أحتويه كله. . أجعله يراني. . وأتوارى بدمعة مجاهدا ألا يحسـها ويحسها هو، يقول : ما زلت تبكي فأنفي بالدموع. . يقول: أخذنا أيامنا فلـن نأخـذ زمـان غيرنا.

كان صالح ينكت الأرض بعود حطب جاف ولا يواجهني لما يلمح في عيني الدموع، كأنه تعلم أن من الرجولة ألا يرى دموع الرجال. . قلت لأبي : كنت زينة الرجال. . قـال بأسى: راحت أيامنا "مرة تعاركنا مع أولاد العزبة وأخذنا فـي ضـربهم بـالطوب والطـين اليابس. . وطاروا هربا وجاء الرجال وعبروا الترعة وضربونا وكنا نصرخ. . ولما شـافنا عبد الحميد أسرع وحده يتعارك مع كل الرجال فضربوه أيضا. . وقلنا لمـا شـفناه يسـقط وسطهم : مات. . ولا ندري كيف تسلل عبد الغفار من وسطنا ونـاداك. وأنـت ضـربت بشمروخك أكبرهم سنا. . رأيتك تهوي على دماغه بالشمروخ وأنـا خلـف النخلـة أرقـب

وأنتظر. . كان الرجل فحلا بشوارب مرفوعة فسقط ولم يقم أبدا. . وأسرع الآخرون يفرون من حسم ضرباتك التي جرحت من طالته فعجزته. . يخوضون فـي الترعـة التـي كانـت غويطة، لكنهم كانوا يخوضون في الماء البني وأنت تتابعهم بالشمروخ فيجرون. مـن يومهـا أصبحت الترعة لنا نلعب على كلا الشاطئين ولا يظهر من العزبة ولد. . والذي مات يا رجل راح دمه ولا أدري كيف. . وكنت دائما تجرؤ على فعل ما يعجز الرجـال عـن فعلـه. . عركتك مع برابرة السلطة. . لما جاءوا يطلبون أنفارا من الكفر وأخذوا واحدا من جماعتنـا وقلت لهم هاتوه. . والكرابيج التي انهالت عليك كانت أعجز من الشمروخ. . هرب الرجال السود على الجمال وفاتوا الكفر وما شفتهم أبدا. . وحتى لما كانوا يعودون لا يهوبون ناحيـة البوابة ويكتفون بأخذ الأنفار من الأهالي في صمت وبلا ضجيج. . ودخولك علـى جماعـة شلبي بعد حكاية شوق دون علم جماعتنا. . وتاريخك معنا مزحوم بالضربات، وفي أطـراف الواحد منا آثار الضربات والعاهات المستديمة. . واليوم تقعد؟ ".

كان يحكي عن أيام العزوة القديمة، ولمة الرجال حول جدي مصطفى. . يحكي عـن الماضي فيبعثه من جديد ويحياه، ناسيا لحظته بكل ما فيها من أمارات العجز. كنـت أسـمع وفي يدي خنصر الشاي الذي قدمته زكية. . قال أبي: متى ترجع ؟. . قلت متوددا إليه :

ـ كام شهر كدة يا با. . ع السنة ما تخلص وأحول أوراق الولد لمدرسة البنـدر. . بدل السنة ما تروح عليه.

وسكت مدة. . ساد صمت طويل. . قال بعده بحماس وعروق رقبته تنتفض وتـزداد احتقانا وغلظة:

ـ "علمه. . علمه. . حتى لو بعت كل الأرض علمه. . أولاد شلبي كسـرونا لمـا علموا عيالهم. . طلعه حكيم أو محامي المهم علمه. . إياك تنسى مهما حصل.

وعاد الصمت وصدى كلماته يترجرج في طبلتي الأذنين ويرف في الـدماغ وكأنـه يتجسد حماما أبيض يستدعي الرعاية والحنو.

وجاء سيد من الكفر. . قلت له : أنت معووج فاعتدل. . قال : لست معووجا، راح يجادلني لأول مرة في حياته بحدة وحماس. . كأنه اكتشف شيئا جديدا. . دائما لما يرجع من الكفر يهوى النقاش والمعاندة. . سألني إن كانت أمه قد أتت به إلي طفلا في مصر، قلت له: جاءت. . حصل بالفعل أن جاءت تحملك. . أخذتك من أمي وجـاءت تحملـك إلـي فـي الدكان. . قالت ارجع لأربي سيد. . " تأتين بعد ما كتبوا كتابك على ابن عمك؟ تـدعين أن سيد يحتاجك؟ اليوم يحتاجك وبالأمس لم يكن يحتاجك؟ انتظرتم اكتمال العدة وكتبـتم الكتـاب فقطعتم على خط الرجعة " قلت لها : عودي يا شوق. . ارجعي الكفر وكفانا مـا جـرى. . ولما بكت لم أصدق دموعها، تذهب إذن إليها وتسألها وتصدق كلماتهـا ؟. . تـدعي أننـي

رفضت إعادتها رغم أنها جاءت بنفسها من أجلك؟ طيب. . سوف أعرفك " قلـت لروحـي ساعتها: لكم هي جريئة لتأتي إلي وهي على ذمة رجل آخر. . لم أصدق ما كانت تدعيه من رغبتها في العيش معي. . قلت لها: روحي لرجلك يا شوق وكفاني ما حصل مـنكم، وأنـا خلصت من ذنبك، أبوك ضحك علينا ولما قلت لك لم أخلص منك. . لم تسمعي الكلام وامتـد بوزك شبرا. . وأمك طولت لسانها علي في مندرتكم. . وأهلك جاءوا وكأنهم يرغبون فـي العراك. . وأنا لم أنطق إلا بعد أن طلبت أنت الخلاص. . والولد قدمتيه إلي أمامهم، وأبـي عملتوه لبانة على آخر الزمان. . قالت: لا أرغب في العودة إليك من أجلك أنت وإنمـا مـن أجل الولد. . أحسست بالعار. . ها هي تكيدني بك. . كأنما أحسست بالغيرة منك يومها. . لأنني لم أكن أساويك عندها. . تعود من أجل طفل في لفته قدمته إلـي بنفسـها وتخلصـت منه. . تعود بعد أن انكشف ذيلها لرجل آخر. . رغم كل المساعي التي عملناها قبل أن أصل إلى الكفر وبعد أن خلصت، قطعوا علينا خط الرجعة وكتبوا كتابها على ابن عمهـا المحتـرم كأنما حسبوا الأيام لتوفي العدة بينما كنت أنتظر".

قلت لها ارجعي يا شوق فما فكرت في استعادة بصقة لفظتها حتى لـو كانـت فيهـا حياتي. . قالت وكأنها قطة شرسة مسعورة: وأنا رميتك وبصقت عليك ألف مرة ولولا سيد ما رجعت لخسيس مثلك "أنا الخسيس يا سليلة تجار الملح ورسمال الحمام والتمر المعفن؟ "غلـى الدم في عروقي. . كدت أضربها في الشارع ولكنها كانت تحملك. . تحتمي بك مني "قالت: خذ ابنك وحطتك فوق الدكة. . نفس المشهد القديم. . في المرة الأولى قلت: أهلها. . هـذه المرة كان أهلها لا يعرفون حتى أين راحت. . ما كان بيننا غيرك. . أنا ما كنـت لأدعـك تتربى على حساب ابن عمها يا سيد. . وما كنت قلت لأمي أن توافق على أن تأخذك منهـا لترميك من جديد. . تسألني إن كانت جاءت. . حسنا. . رح واسألها متى جاءت. . اجعلها تحكي بصدق متى جاءت واحكم أنت بنفسك. . تلومني لأنني لم أقبلها من أجلـك. . وهـل قبلت أنت البنت التي عرفتها وفاتتك وصاحبت قريبا لتكيدك ؟. هل قبلتها لما رجعت تقول لك أنها تحبك أنت وتريدك؟. . أنت تحاسبني وتنسى نفسك يا سيد. . كنت أرضى بها لو لم يكن ذيلها انكشف لرجل غيري. . وحتى لو رضيت يومها. . هل كنت أضمن أنها سوف تخلص من ابن عمها هل كنت أصدق أنها باعته من أجلك فعلا؟ . ولماذا باعتك منذ البداية؟ أسكت يا سيد. . أسكت. . أنت لا تعرف ما جرى منها. . أبدا لا تعرف ما جرى منها. . أنت ترى دموعها تنسال فتصدق. . ودموع الواحدة منهن قريبة. . أقرب من الهم على القلب. . كـان قد انكسر شيء ما بيننا في قاعتهم. . انشرخ جدار كان يسترها فبانت على حقيقتها. . كـان من الصعب علي أن أصدق أن الأمر سوف يعود كما كان. . ما جرى كان شـائها ومشـينا

ويصعب احتماله. . اسكت يا جدع ولا تقلب علينا المواجع القديمـة. . أسـكت. . ارقـد أحسن. .".

سقط الرجل وهو يعافر فوق السطح دون أن يطلب منهم مساعدة. . سقط فوق حجـر الطاحونة القديمة فانخلعت مفاصله ورقد عاجزا عن الحركة. . جاءني الخبر وأنا مشغول في تحويل أوراق سيد لمدرسة البندر. . فرمحت وسافرت إلى الكفر بليل. . وجدته راقدا وعلى وجهه غطاء. . رفعته من لهفتي ورحت أناديه ولا يرد. . أخذوا سيد بعيدا ثم شدوني وأنـا ذاهل حتى عن كلماتهم. . " السر الإلهي طلع. . طلبك ولما غبت قال اطلبوا منه السـماح. . البقية في حياتك " كنت أطل إليهم ولا أميز الوجوه. . لا أعرف إلا أنها مجموعة من الأفواه والعيون المطلة. . ولما طلع النهار وباتت الشمس كنت قاعدا وحدي في ركن الـدار. . ولا أعرف كيف سرت معهم في الجنازة. . حملت الخشبة فأزاحوني وسندوني وساروا بي فـي اتجاه المدافن. . كانت مقابلتنا الأخيرة ماثلة في خاطري. . كنت قد أحببته. بعد أن أحببتـه جاء الموت وخطفه.. كأنني كنت مشتاقا إلى الأب فلما وجدته أعطيته كل الحب الذي حجبتـه عواصف الأيام السود. . ليتني كنت أكرهه. . جلست في المندرة آخذ العزاء من النـاس. . طلعنا عليه الخميس الصغير. . انتبهت لنفسي وأنا ألمح سيد يلعب مع أولاد الدار، تـذكرت الأجازة والمدرسة التي حولت إليها أوراقه، أخذته معي للمدرسة وسألت عن الأوراق فقـالوا وصلت. . تركته وأوصيت زميله أن يعرفه سكة الكفر. . سألني صالح عن سيد قلـت راح المدرسة. . بان عليه شيء كأنه الاستياء. . سألته : مالك؟ قال : أبدا. . في الليـل بـدأت أرقب الوجوه، صالح بجانب زكية التي خاف منها ولدا يرضع. . ومبروكة التي تقعد متكدرة في ركن القاعة لا يبين منها غير عينين ضيقتين تلمعان. . وسيد الجالس ينظر إلى الكل فـي توجس، يلاعب بنت الشيخ حسنين أحيانا ويكف وكأنه يخشى الاستمرار في اللعـب. . قـال صالح:

ـ لزومها إيه المدارس يا با؟ دي الأرض عايزة رجالة. .

سكت وكأنني لم أسمع ما قاله. . تحمسـت مبروكـة وقالـت وكأنهـا تـداعبني أو تضاحكني بينما يتوارى في نبراتها معنى يمكن اكتشافه:

ـ طب د أنت نسيت الفلاحة يا حسن. . هيه. . عمر طويل بقى. . يكون في عونه صالح.

قلت : والعمل ؟.

قالت:

ـ بقول سيد يقعد في الدار مع أخيه يساعده. . يشيل على الحمار. . وأهو الخيـر كثير. .

سكت. . قال صالح بحماس من وجد من يسنده هذه المرة:

ـ قلنا كدة قالوا اطلعوا من البلد.

قلت لصالح محاولا إنهاء المسألة كلها:

ـ لا تطلع ولا تنزل. . أنا وياك ذراعي بذراعك لحد ما يكمل تعليمه. . أبويا قـال كدة. .

قالت مبروكة:

ـ يبقى زي الشحط ويأكل من كدكم؟

" ليلتك مهببة يا بوز القرد " قلت لها:

ـ أهم ولادي والاثنين أخوات. .

قال صالح وكأنه يكشف شيئا مخيفا:

ـ يعني هو يروح المدرسة ويبقى أفندي وأنا أنزرع في الطين؟

قالت زكية وكأنها تلطف الجو ولكن لغير صالحي:

ـ يعني اللي راحوا المدارس عملوا إيه يا با حسن. .. ؟

قالت مبروكة والغيظ يلمع في عينيها الضيقتين:

ـ إحنا كمان مش حمل مصاريف مدارس. .

قلت :

ـ تتدبر.

قالت مبروكة :

ـ هي شوق ولا صالحة اللي بنت أصول يا حسن يا بني. . ؟ ابن شوق يبقى أفنـدي وابن صالحة يطفح الكوتة في الغيط؟

قلت لنفسي : " شوق أحسن من صالحة ألف مرة. . أحسن منها ياكركوبـة " وسـاد صمت. . واستمر لحظات. . في اليوم التالي جاءني سيد في الغيط خلف نقلـة السـباخ. . كانت في عينيه دموع وعلى خده آثار كف. . سألته فقال إنه صالح. . " ضربتني أنـا يـا صالح ".

سألت صالح عن سبب ضربه للولد فعرض صدغه ناحيتي وقال بغطرسة:

ـ وإيه لما أضربه يعني؟ يا ما الواحد شاف وانضرب. . حاكم أنت كنت في مصر ويا شوق يا با. . دانت بتخاف عليه قوي.

قلت له:

ـ دي العيشة كدة ما تنفعش أبدا. . طب ضربته ليه ؟. . اتكلم. .

ولم يتكلم. . ظل معرضا صدغه ناحيتي وكأنه يدفعني لضـربه. . تماسـكت، قـال صالح:

ـ اللي تشوفه مشيه. . إنما حكاية المدرسة دي ما منهاش فايدة. .

في العشاء قالت مبروكة وكأنها بكل شيء عليم:

ـ صالح أيده طويلة يا حسن. . لو كنت خايف على ابنك وديه لأمه تربيه.

وتكلم صالح كلاما عجيبا. . قال إنهم يعايرونه في الكفر ويقولون له: أبوك جاء يأخذ الأرض. . ويقولون له: طلع لك أب على آخر الزمان من تحت الأرض بعد ما كنـت بـلا أب. .

قالت مبروكة:

ـ قصر الكلام كدة. . لو فضل ابنك في المدارس وابن بنتي يجري عليه أطلع مـن الدار وأفوتها لكم. .

قلت لها:

ـ في ستين كسحة. .. والمركب اللي تودي.

قالت:

ـ حياك حياك. . لهو أنت فاهم إن الدار بقت دارك؟ يا كبدي؟ ؟

قلت لنفسي أن مبروكة ما زالت في الدار تأمر وتنهي كما كانت في الماضي. . حتى صالح علمته أن يكون باردا ونطعا. . علمته وسيرته على هواها. . لـو عاركـت صـالح يلومني الناس. . مصير الحق يصل أصحابه. . تذكرت ما قاله جدي عن الحـريم. قلـت أحسم المسألة كلها:

ـ داري أو دار صالح ما يهمش. . أنا راجع المحلة.

ولم يمانع أحد ولو بكلمة. . كأنما كانوا ينتظرون مني أن أقولها بنفسي. . طرد لكنه مختلف. . طرد بالمعاملة. . وخرجت بليل. . أخذت أمي وسيد وركبنا. . كنت أتحاشـى مقابلة الناس وأتخفى وكأنني سرقت شيئا. . ولم يطلع صالح ليوصلني بل ظل جالسا مكانـه يشفط الشاي بصوت وكأنه يعاندني هو الآخر. . ركبنا ووصلنا البندر. . وطول السكة أقول لنفسي " الدار دار أبونا والأغراب يطردونا " وأمي كانت تعجب وتضرب كفا بكف وتقول عن مبروكة أنها قارحة ولا تخجل أبدا. .

في الشركة قالوا : وفرناك. . قلت : كملت. .. " صنعة في اليد أمان من الفقر ". . رجعت إلى مدرسة سيد القديمة وتحايلت على الناظر وسقت عليه الناس ليقبل عـودة الولـد والرجل راكب دماغه. . والكبار يحتاجون كلمة من الكبار فيهون كل أمر كبير ويصبح سهلا ويسير التحقيق. . قلت أبحث عن رجل كبير ووجدته. . أعطيته مبلغا وقـال ابعـث ابنـك

مدرسته في صباح الغد. والولد دخل المدرسة والناظر قابلني ببشاشـة وكـأنني صـاحبه. . قلت: أنه على كل شيء قدير، القرش عمل عمايل.

كنت أشتغل في ورشة النجارة والحالة أفضل من أيام الشركة. . قالت أمي مرة : خذ روحية بنت عمك رجب. .. من دمك وتصون عرضك وتكون حنونة على الولد. .. قلـت آخذها. .. سافرت الكفر. .. لم أر صالح. أخذتها بعد ليلة ساكنة بلا فـرح ولا زفـة. .. رجعت المحلة بها. .. قالت أمي بعد أيام أسافر البلد. . . قلت : لا. .. كان الولـد يتعلـق بها. . رغم محاولات روحية أن تبدو حنونة على الولد كان ينفر منها. . تعللت أمي بضيق المكان لكنني لم أوافق. .

قالت أمي : روحية ضربت سيد على دماغه. . أخذت روحية في ركن وسألتها عـن السبب. .. قالت: كسر القلة. .. ضربتها وقلت لها : لو كسر أغلى شيء هنا لا أسمح أنـك تضربيه. .. قالت والدموع ترحمها من يدي: حرمت ولن أعملها أبدا. . " حتـى أنـت يـا روحية تضربين ؟. . ظللت تتمسكنين حتى حسبت أنك تمكنت. . نسيت أنك في القدم مداسا أخلعه لو ضايقني وأشتري غيره؟ " بعد أيام قال سيد لنفسه : شتمتني بكلام قبيح عن أمي. .. ضربتها مرة أخرى. . . قلت لها : كله إلا الكلام القبيح وقلة الأدب. ..

وقالت أمي: لا تضربها كثيرا. . خوفها فقط فربما تسم الولد وأنت لا تعرف " بدع " الحريم يا حسن. . الولد يروح في لعبة. . وخفت على الولد من روحية وأخذت في تحذيره منها فيقول لي أن أمي أفهمته نفس ما أحاول أن أفهمه. ..

وجاءني إعلام الوراثة على البيت. . سافرت وذهبـت إلـى المحكمـة فـي اليـوم المحدد. . وجدت صالح يقف بعيدا ويرقبني دون أن يتقدم ناحيتي خطوة. . والقاضـي لمـا سأله قال أنه اشترى ودفع الثمن. . " أنت تدعي أنك اشتريت الأرض ودفعت ثمنها. .. من أين جئت بالثمن يا ضلالي؟ عرفت أنه يكذب. .. وأن الأوراق التي قدمها مزورة. . سألني القاضي إن كنت مستعدا للطعن في أقوال صالح ؟. . قلت لنفسي أنه يمكن أن أكسب قضـية الأرض وأخسر الولد. . ربما يقع في قضية تزوير ويروح فيها ويقولون في الكفر أنني كنت سببا، وإذا كسب يقولون إنني حاولت الإيقاع به عند الحكومة ولم أفلح. .. وفي كلا الحـالين أكون معيرة الناس ولبانة يتشدقون بها. . ظللت ساكنا. . قال القاضي : أجر لك محامي مـا دمت عاجزا عن الكلام ولا تعرف شيئا. .. وأجل القضية شهرين.

قالت أمي : سفرني الكفر أموت هناك بدل الموت في الغربة. . وأخذتها وأوصـيت عليها الأهالي وعدت إلى المحلة. .. كنت مهدود القوى وخائفا على الولد مـن روحيـة. .. كانت أمي تراعيه وتحرسه واليوم تنفرد به البنت وربما تتعبه كنت ألاحظ اتساخ ملابس الولد وصفرته. .. كأنه معلول. . أصبح كأولاد الشوارع. قالت الساكنة جارتنا إن روحية تجوع

الولد وأنت في الورشة. . قلت لروحية : فوقي لنفسك وكفي عن مضـايقة الولـد، صـلحي أفعالك أحسن لك. .. وكل ليلة أرجع من الشغل فأسأل الولد إن كان أكل فترد روحية بسرعة وتقول إنه تعشى. . ولما يسكت سيد ويمد يده للأكل ويأكل أعرف أنه كان جائعـا. . ولمـا أسهر في القهوة مع أصحابي أصحيه وأكتشف أنه بات بلا عشاء. .. كنت أخاف أن تعمـل شيئا للولد ما دامت أمي في الكفر والولد طول النهار معها.

ولما نجح الولد في الابتدائية كثر زنها على دماغي تطلب أن أشغله في الشركة وقلت: تعلم وأصبح يحمل شهادة على كل حال وأنا خلصت من ذنبه. . دفعت لواحد مـن الأفنديـة رشوة فأخذها ووعدني بتعيين الولد. . لكنه أخذ الأوراق ولم يعينه والمدارس كانـت بـدأت الدراسة وأوراق الولد ما زالت عند الأفندي. . وصاع الولد في الشارع، وكل يـوم أذهـب للرجل الذي أخذ الفلوس فلا أجده وإذا وجدته يتهرب مني ويعد وعودا تجعلني أتشكك في أنه نصاب. . واشتكت روحية من شقاوة الولد وقالت شغله في صنعة بدل الرمح في الشارع. ..

ولما صهينت عنها أخذته هي بنفسها وراحت به ورشة حدادة واشترت لـه ملابـس قديمة للورشة. .. واستقام الولد أياما ثم بدأ يهرب. . يقول إنهم ضربوه، وأخذتـه بنفسـي لورشة ميكانيكي سيارات لكنه كان دائبا على الهرب منها كلما وجد الفرصة. . . قلت لنفسي: الولد أخلاقه فسدت، بدأت أسمع كلام روحية وأضربه لأربيه وأعلمه. . قال زميلي محمـود: ابنك صحته تعبت. . قلت له كلنا تعبانين في عيشتنا وهو ليس صغيرا ليهرب من الورشة. . قال لي: أنت التفت لابن روحية ونسيت سيد. .. قلت لنفسي أن محمود يدس أنفه في أمورنا ولا يعرف ما يجري من الولد. .. لو بقى في الشارع يتعارك مع الأولاد ويسـبب المشـاكل ولو راح الورشة يهرب ولا يستقيم، والأفندي أخذ الرشوة ليعينه وضحك علينا. . وروحيـة خلفت ولدا صغيرا وليس هذا شيئا غريبا لو اهتممت به هو أيضا. .. كنت فرحانـا بالولـد الصغير أكثر من فرحتي بسيد يوم مولده لأنه جاء في أيام أحلى وظروف أحلى. ..

قال المحامي الذي وكلته بعد أن أخذ مقدم الأتعاب والرسوم : الولد ابنك لعـب فـي الأوراق واستعمل ختم جده وزور عقد بيع وأنا اطلعت على الملف بنفسي في المحكمة وشفت التزوير. .. سألته: والعمل؟ قال: إذا كنت تريده يروح اللومان يروح، وإذا كنت تخاف عليه اتركني أتصرف في الموضوع. . تتنازل عن القضية وتسكت بعد ما نهدده ونأخذ منه قرشين ينفعوك، واتفق معي على نسبة ما يأخذه مما يدفعه صالح. .

بعد مدة ذهبت للمحامي أساله فتغيرت لهجته وقال إن الأوراق سليمة فلعب في عبـي فأر الشك وبدأت أتوجس شرا، ربما يكون المحامي اتفق مع صالح على إفساد القضية وأخـذ شيئا. . كلهم مثل المناشير طالعين نازلين حش في تعب الخلق" قال: ما يعرضه عليك ابنـك خذه ولا تعارض فما تحصل عليه يكون من حنك سبع، الأرض تحولت لصالح بموجب عقـد

بيع رسمي غير مشكوك في صحته. .. ويوم القضية كان المحامي الذي وكلته مع صالح في انتظاري، قال لما شافني موجها كلامه لصالح: أبوك مستعد للتنازل عن القضية لكن تشـوف خاطره. .. وسكت صالح مدة ثم قال: كتر خيرك. . كنت أراهما يتكلمان بـالعيون وأحـس أنها اتفقا علي أنا. . " استمر في القضية لآخر الشوط ولا أتحول إلـى مسـخة يضـحكون عليها؟ " قطع علي تفكيري صالح بأن شدني من كوعي ومشي بي إلى ركن وقـال وكأنـه يخاص نفسه من ورطة وقع فيها: بدل المصاريف والفضائح خذ ما تريـده مـن دون علـم المحامي لأنه أخذ مني ثمن الصلح. . " تساومني بعد أن زورت العقد؟ وتتفق مع المحـامي أيضا وتأتي لتعرض على الصلح؟ أأجر محامي آخر أم أصالحك يا صالح؟ " قال : لن أهـون عليك مهما كان الحال فأنا ابنك " وهنت أنا عليك لما خرجت بليل من الكفر وكـأنني عملـت عملة؟ " جاء المحامي : قال في حماس من يريد أن يخاص نفسه ويأخذ: نتفق قبل الجلسـة. . تتنازل وتخاص. . قلت لصالح : طيب يا صالح. . أخرج من حافظته نقودا ومدها نـاحيتي وهو يقول : ثمن المواشي، بعتها كلها وجبت ثمنها من أجاك. . صعب علي حاله. . قلت له وأنا أنظر إلى المحامي وكأنني أطرده : ربنا يغنيها بالحلال يا صالح. . حط فلوسـك معـك واشتري مواشي فأنا مسامح ولا أريد شيئا. . " وجه المحامي كان ملهوفا وأنا أفسـد عليـه رغبته في الأخذ مني " قال المحامي مستفسرا: بقية الأتعاب؟ قل له : بعد التنازل. . ودخلنـا عند الموظف وكتبنا التنازل ومشي المحامي ينتظر فقلت له: ربنا يسهلك من غيرنا يـا عـم "كفاك ما أخذته وعملته : وجذبت صالح وخرجنا من المحكمة وكأنما اكتفى المحامي بما أخذه أو خاف من الفضيحة فتأخر عنا ونحن نمشي خارجين من المحكمة. قلت لصـالح : أنـا لا أطمع في شيء أكثر من أن يتصل حبل الوداد الذي انقطع. .. قال : عرفـت أنـك سـوف تتنازل. . وعرفت منه أنه كان يرغب في التسجيل فأوقفوه وأرسلوا علي إعلام الوراثة، لكني لم أهتم بما حصل. .. وتركت صالح وسافرت رافضا أن آخذ منه مليمـا واحـد قـائلا أن الأحوال رضا. ..

قلت لروحية عما جرى فقالت وكأنها هي التي خسرت الأرض والقضية:

ـ يا دي الخراب. . أتنازلت دا إيه ؟. دانت كنت تاخذ منه حبابي عنيـه. . لجـل عيالك يا راجل.

قلت لها اخرسي فلوت بوزها. . قلت أنها لا تهتم إلا بابنها هي ولا تعرف أن صـالح ابني أيضا ولا يهون علي. .. وسيد. .. سألتها عن سر غياب سيد فقالت لا أعـرف عنـه شيئا منذ الصباح. . سألتها : جاء يتغذى ؟. فنفت أنه جاء. . ولما رحت الورشة أسأل عنه وجدتها مسكوكة. . قلت: ربما الولد حصل له شيء أو طفش من البلد. . وقلبي بـدأ يـدق والخوف عليه يسيطر أكثر وأكثر. ..

في منتصف الليل سمعت أصوات خطوات على السلم. . فتحت عينـاي وانتظـرت، كان خبط على الباب وهمس. . لما فتحت وجدت سيد محمولا على أكتاف وادين مـن أولاد الورشة. . قال أكبرهم سنا: داست على رجله عجلة فلوتها وأخـذناه للمجبراتـي. ونـزل الولدان وفاتوا سيد جالسا على الكنبة يتألم، فلما أغلقت الباب واقتربت منه بدا خائفا يتزحـزح ناسيا ألمه. . كان يحسبني سوف أضربه لإهماله في نفسه. . كلما ابتعد عنه وأنظـر إليـه خلسة أراه يتحسس قدمه المربوطة ويتألم. . أحيانا يئن في خفوت مذعور. . لما أقترب منه يكش في نفسه وينظر إلي نظرة مذعورة متوجسة. قلت أبتعد عنه وأجعله يرقد. . نظـرت إلى روحية فوجدتها صماء وكأن الأمر لا يعنيها. . تلاعب الولد ابن الأسبوعين وتنظر إلـي وكأن سيد لا يهم في شيء. . تذكرت خوفي من أبي. . قلت لنفسي : دماغـك دارت مـع روحية يا ولد. . الولد يخافك مثلما كنت تخاف أبيك. .. تمام. . أصبحت أنت عبد القـادر، وسيد حسن، وروحية مبروكة. . نفس الحكاية القديمة تتكرر وأنت غارق حتى أذنيـك فـي حواديت روحية. . ليلتها لم أنم. . روحية نامت وحتى لما كانت تقوم من أجل الولد لا تهتم بحالتي ولم تسأل حتى عن سيد. .

كل يوم يأتي المجبراتي يدلك رجله المكسورة الملوية. . والولـد لا يتحسـن حالـه أبدا. . كل يوم تزداد الرجل ورما وزرقة. . شافه زميلي محمود فبص إلي بصة لوم وقـال خذه للمستشفى. . أخذته إلى المستشفى الأميري. . قال الدكتور حالته سـيئة جـدا. . لـو تأخرت يومين آخرين كنا قطعناها له غصبا. . بدأت أحس بالخطر حولي. . تخيلته برجـل واحدة فأمسكت يد الدكتور الشاب وحاولت أن أقبلها راجيا إياه ألا يقطعها أبدا. . قال: لا تخف فسوف نحاول، وشد يده مني. . سألني عما أصابه، وسر الإهمال في علاجه، وكيف رضيت أمه بمثل هذه البلادة؟ رحت أقول لذلك الشاب الغريب عني كل ما حصل لي. . حكاية سـيد من أولها. . كل ما أحضر لزيارة سيد يعرف عنه الدكتور مزيدا من التفاصيل. . وكل مرة ينظر إلي مستنكرا وكأنه يلومني ويضيق بي. .. لوما لا أستطيع دفعه. . نظرته يمتزج فيها الاشمئزاز والضيق والكراهية وربما الاحتقار أو الإشفاق. . لكنه كلما ينظر إلي هذه النظرة لا أكف أبدا عن السرد وكأني لا أهتم بغير كشف كل الحقيقة. . وهو في كل مرة ينظر إلـي تلك النظرة وكأنه يرى شيئا غريبا وليس إنسانا. .

قدمت أوراق الولد إلى المدرسة كما أوصاني الدكتور. . لما خرج من المستشفى كان يمشي على ساقيه ويتوكأ على عصا أحضرتها له. . لكنه دخـل المدرسـة مـن جديـد. . وارتاحت تقاطيعه نوعا. . واستقام في المدرسة. . كل يوم يزداد تحسنا لأنني أراعيه في كل شيء وأكف عن تخويفه أو ضربه. . والولد الصغير لما جاءته الحصبة حاولت علاجه، فـي ليلة ازدادت حرارته وقلت إنها الحمى. . ولما مات حزنت عليه أياما. . لكن سيد أنسـاني

موت الولد الصغير. . الذي حيرني أن روحية بعد أن كانت تتخفى في مضايقة سـيد بـدأت تضايقه حتى وأنا موجود وكأنها لا تهتم حتى بي. ولولا حزنها على الولد لضربتها مثل أيام زمان، لكنها كلما أسكت لها تزيد في أفعالها ضد سيد. . قلت لها مرة تعرفين أننـي تربيـة امرأة أب يا روحية، وأفهم شغل الحريم. . غضبت مني. . ليلة امتحان سيد كانـت تبعتـه يشتري لها جاز وسكر وكبريت وملح وسبرتو وعيش. . كل شيء مشوار كأنها تعطله عـن عمد. . لما قال لها أنا تعبت ضربته في وسط الشارع بالمداس فوق رأسه. . قالوا أنها دست بوزه في فم الولد وحاشوها عنه وهو يبكي. . لما رجعت قالت لي واحدة من الشـارع عمـا جرى فرمحت. . قالت الساكنة جارتنا نفس الشيء. . كان سيد نائما فلم أشأ أن أصحيه. ..

من سكات أخذت روحية إلى الكفر. . جمعت ملابسها وحملتها لها وأوصلتها إلى دار أهلها. . عملوا لي مجلسا فقلت للرجال: عيشها انقطع. . قال عمي: فهمنـا مـا جـرى. . قلت : ضربت سيد. . قالوا نضربها أو تضربها أنت بنفسك، قلت : غلبت معها. . كل واحد يأخذ نصيبه. . كانوا يريدون صلحا لكنني ركبت دماغي وقلت أبدا. . قالوا ادفع مؤخرهـا قلت أدفعه. . قال أبوها : الآن وأنت جالس بيننا ولا تتحرك من مكانك. . " عملت حسـابي وأكملته وأحضرته لأقطع كل الألسنة لما تطول ". . قلت طيب. . قال عمي إبراهيم وكأنـه يعجزني بنكته : خمس ورقات في عشرة. . لا نقبل جنيها مفكوكـا. . قلـت : موافـق. . أخرجت لهم مؤخرها وجاء المأذون وخلصتها وتركت المجلس ورجعت للولد.

بعد يومين جاءوا إلينا في السكن وشالوا العفش كله. .. المكتوب في القائمـة وغيـر المكتوب. . وكلما اعترض على أخذ شيء يقولون رجعها ولا تركب دماغك في الشر مثـل أبيك فأقول: أبدا. . وتركوا لنا السكن على البلاط وفرشنا قش الأرز على الأرض وبتنا وكان الجو صيفا فحمدت الله. . قلت تتدبر الأمور بإذن الله وأسدد ديوني وأشـتري فرشـا جديـدا ويكفيني أن يستريح سيد.

كنت أخاف عليه من عيون الناس. . لسانه طويل ودائب على الثرثرة. . لا يكـف عن الكلام أبدا. . بعضهم ينظر إليه بحسد والبعض الآخر يضيق به. . مـن يومـه لسـانه طويل. . يحكي كل ما يسمعه أو يدور في دماغه لأي الناس. . لما كان ولدا صغيرا يـتعلم كيف ينطق الكلام راح الكفر وجاء يقلد كل من رآه هناك. . أضحكني علـى عبـد السـتار شلبي. . راح يمشي مثل أبي فمت على روحي من الضحك. . كل ما كان يسـمعه يـدور حوله يتذكره. . أفرح به وأخاف عليه من عيون الناس. . النـاس لا تتـرك النـاس فـي أحوالها. . " الكعكة في يد اليتيم عجبة ". . من صغره يثرثر، هذه الأيام تتزايد ثرثرتـه. . يعجب الناس في الورشة لأنه أخذ الابتدائية. . ينظرون إليه كأنه فتح عكا. . يقول لهم دون حياء: وركنت سنة في ورشة الأسطى كمال وعلى سرير المستشفى. . اغتاظ منه. . يجعلهم

يعرفون أحوالنا. . ابن صاحب الورشة أكبر منه، سيد في الثانوي وهـو فـي الابتـدائي. . يجالسه الحاج ويتكلم معه. . ألمح في عينيه حسدا للولد. . أبص للولد لأمنعه من الاسترسال في الحكي والثرثرة فلا يكف. . أحسه يكيدني ويحكي مع صاحب الورشة. . كلما كبر يزيد كلامه. . أكره طولة اللسان. . أكره أن يتباهى النفر بروحه وبما يعرفه. . أريده ناصـحا لروحه لا يأمن لأحد. .

لما كنت أشتري له ملابس جديدة ويلبسها يكون شكله مثل أولاد الملوك. . من يومه تليق عليه الملابس وأفرح به وإن كنت أخاف عليه. . خفت عليه من نزول الكفر. . عيونهم هناك لا ترحم. . قالها واحد: العين كسرت الحجر نصفين. . أخاف عليه أن تكسره العين. .

بت مقهورا لما جاءني الخبر. . إحساسي باليتم يكتمل. . لم أهدأ ليلتها في انتظـار الصبح. . في الصبح لم أتمكن من الحركة المعتادة. . قلت أرتاح ساعة أو ساعتين وأسـافر وألحق الدفنة. . طالت راحتي كل اليوم. . كل ما أحاول المشي أتعب بعد خطوتين فأقعد. . ازداد الهم فوق صدري. . كلما أجدني عاجزا عن المشي والسفر لحضور الميتم يزداد الهـم والأسى" هكذا تموتين بينما أنا عاجز حتى عن الحركة لحضور دفنتك. . وحتى المشي فـي جنازتك وأنت كل ما تبقى لي يا أمي"؟.

دخل المرض قاسيا ورهيبا. . أشد من كل المرات السابقة. . قلت أنـه الروم‌ـاتيزم يعود فيعض المفاصل ويدغدغها دغدغة. . وطال رقادي فقلـت أنـه شـيء أخطـر مـن الروماتيزم. . وصاحب الورشة زارني مرة وانقطع، بحث لنفسه عن عامل غيري فما تهمـه غير مصلحته ولولا أنني كنت أفيده ما شغلني عنده، طالت الأيام فلن يكلـف نفسـه زيـارة أخرى". انقطع الرزق وغاب الأمل زاد الضغط على القلب والخوف حاصرني. . سيد فـي التوجيهي. . والهم يتسرب إلى نفسه هو أيضا. . يبدو مهموما وإن كست ملامحه محاولات للظهور بمظهره المعتاد. . أعطيته كل ما كان معي. . راح يتصرف وحده في كل شـيء. كنت أحس أن سيقاني أكياس رمل ثقيلة يصعب علي جرها على الأرض. . أتلوى من الألـم وأكتم الآهات حتى لا أسبب لسيد مزيدا من الأسى والحسرة وأجعلـه يلتفـت لـي ولا يهـتم بامتحانه. . كلما أراد أن يسهر معي أجعله يتركني لكنه يعود ليرى طلباتي ويجهد نفسه معي ويذهب إلى الامتحان كل صباح، ولما يأتي يفوتني أن أسأله عن الامتحان. . ولمـا انتهـى أخذني وركبنا حنطور وذهبنا إلى دكتور قريب فكشف علي وأخذ سيد على جنب وقـال لـه كلاما بصوت خافت فاحتقن وجه الولد واحتبس الدم فيه. . لما خرجنا سألته فلم يفصح أبدا. . قلت له: يظهر أنني أودع، فرت من عينيه دمعة وقال: اصبر واحتمـل. . كـان يلازمنـي ويداوم على تقديم العلاج الذي اشتراه. . لكن العلاج لم يثمر. . قلت له : ضـاقت أحوالنـا فابعث لصالح خبرا ربما يأتي وينفعنا. . قال أسافر إليه. . " صالح نسانا يا سيد ولـو كـان

يهتم بنا لجاء مرة بعد حكاية القضية " وسافر سيد. . ولما عاد عرفت من نظرتـه أن أملـه خاب في صالح فلم أشأ أن أسأله، قال سيد : قابلت عمك إبراهيم وطلب العنـوان وقـال إنـه سوف يأتي.

في مساء اليوم التالي جاء عمي إبراهيم. . عجوزا يحمل في يمينـه سـبتا صـغيرا وخلفه رجل يحمل قفة كبيرة. . حطها عنه وناوله الأجرة وأشرق وجهه بضحكة. . تاهـت التجاعيد وهو يقول لي:

ـ فز قوم يا بن الكلب. . راقد كده ليه؟

قلت وأنا أتماسك أنني عجزت عن القيام والحركة. . ارتسم على وجهه غم كثيـر. . جلس على طرف السرير وراح يربت على كتفي مهونا " شدة وتزول. . يومين وتقوم مثـل الحصان. . " بان في كلامه إنه يداري أمرا. . قال: صالح غرقان في دودة القطن. . "دودة القطن. . وأنت جئت وفاتتك دودة القطن " قال : وحداني. . يكون فـي عونـه. . "وأنـت تعرف أن المرض يبين العدو من الحبيب. . " تفكر عمي لحظة قبل أن يقول : صالح سوف يأتي. . يقول إنه ينتظر حتى يستعد، همهم يائسا ثم جرت على خده دمعة. . في حياتي لـم أر غير ابتسامته، لم أر لون دموعه، كنت أحسبه لا يبكي طوال عمره. . يضحك، حتى لمـا مات ابنه الكبير في عز صباه قال لامرأته أمام المشهد:

ـ بطلي ندب يا وليه. . الله جاب. . الله خد. . الله عليه العوض.

قالوا يومها قلبه صخر لا يحس بالهم، وقالوا بحبوح لا يحمل للدنيا هما، ولمـا بكـى قبالتي رأيت في عينيه إنسانا يبكي دموعه المحبوسة. .. كأنه ركزها في دمعات تنسال خلسة بعد أن ظلت محبوسة عمرها الممدود بطول عمره. . دموع حزن قديم ينفجـر فـي لحظـة كذب؛ لأنه كان يكذب في كل ما قاله عن صالح. . اضطر تحت وطأة اللحظة أن يكـذب. . أحيانا تجرنا الكذبة المقصودة إلى الدمعة. . " ربما هي دمعة حزنه القديم تنفجر في لحظـة ضعف لم يكن يعمل لها حسابا. . "ترى هزمك الزمن الـدوار يـا عمـي مثلمـا هزمنـي المرض؟".

رفع رأسه وكأنه ينفضه. . نظر إلي سيد وأخرج حافظة نقوده ثم قال:

ـ خذ يا وله. . اشتري لي ثلث دخان وتعالى. .

" ما كنت تدخن يا رجل " وعندما خرج سيد رفع الوسادة تحتي وحـط شـيئا ولمـا نظرت إليه همهم يسكتني فلم أتكلم. . استعاد ملامحه القديمة وكأنه بعد ما حط ما حطه تحت الوسادة نفض أحزانه وهمه. . كأنه لم يعمل شيئا يستحق مجرد التعليق. . قال وكأنه يسخر من شيء فات لكنه بقى أثرا:

ـ تعرف يا حسن يا بني أبوك الله يرحمه بقى، كان غشيم زي الزمن، بيقولوا لقـوا مطرح دماغه يوم الغسل قالب طوب أحمر.

كنت أعرف أنه راغب في إضحاكي لكنني لم أضحك. . كان قادرا على إضـحاكي في الماضي. . قالوا إنه يقدر على إضحاك طوب الأرض. . لو أراد يضحك طوب الأرض وأنا عجزت عن الضحك. . حتى ولو على سبيل المجاملة. . كان الهم فوق صدري وربمـا صدره أثقل من أن تزحزحه نكتة قديمة عن دماغ أبي. . يقولها بينما قلبه يبكي في خفوت مع قلبي. . " وأنت السبب في كل هذا يا صالح. . ترى ماذا قلت لسيد. . وهل عرف عمي ما دار بينكما فجاء ليعوض ما حصل منك؟ ".

قام وبدأ ينك تحبيشة السبت ويخرج طعاما ساخنا. . يرصه بجانبي على السـرير. . ولما دخل سيد راح يداعبه ليزيل عن وجهه الكدر والولد حزين. . حلف يمينا ما لم ننس الهم ونكون رجالا لا يبيت عندنا الليلة. . حاولت أن أبتسم وحاول سيد. كأنما المحاولة أثمرت. . اندمجنا في الضحك. . كأنما نسينا المرض والعوز وموقف صالح الـذي هـرب منـا فـي الشدة. . قلت لعمي: نسينا الهم يا عجوز. . ضحك وقال بطلوا هبل وكلوا. . كان يطعمنـا بيديه. . ولا يأكل ويكتفي بسرد الحكايات عن أبي وأعمامي وجـدي. . يتخيـر مـا يثيـر الضحك. . قلت له وأنا أضحك:

طول عمرك صاحب واجب. . قال : أنتم أولادي. . ليس لي غيركم اليوم فأسـكت وبطل كلام فارغ.

قام في الفجر وصلى. . صحانا وعمل شايا بنفسه " شاي البندر خفيف مثـل عقـول أهله " قالها فضحكت. . قال : هناك مثل يقول عن الضيف : أول يوم بدر منور. . ثاني يـوم رغيف مقور ثالث يوم عفريت مصور. . وأضاف: وأنا لا أريد لنفسـي أن أكـون عفريتـا وكفاني أن أكون رغيفا. . عرفت أنه ينوي السفر. . قلت: لا.. قال: لا بد أسافر اليـوم. . سلم علينا. . هم سيد أن يخرج معه فحلف عليه ألا يخرج ادعى أنه ينوي المشي وحده ليتفرج على حريم المدن دون رقابة من سيد أو غيره. . ومشى. . وساد صمت بيننا بعد أن خـرج الرجل، أشرت إلى سيد فجاء. . أشرت إلى الوسادة فرفعها سيد من تحت دماغي وأخرج من تحتها حزمة جنيهات كان الواحد منها يساوي ألفا في تلك الأيام السود.

قال الدكتور : سافر مصر. . ادخل القصر العيني. . لن يفيدك علاجي.

سافرنا مصر. . أتعبونا كثيرا حتى سمحوا لي بالـدخول. . بـدأت أشـم أنفاسـي وأرتاح. . جاء سيد يزورني بعد أسبوع. . قال : قدمت أوراقي في كلية الحقوق. . فرحـت "ستكون كما كنت أتمنى. . محاميا يختلف عن النصاب الذي أفسـد القضـية وبلـع نصـف الأتعاب وضيعنا يا سيد؟ ".

كان نجاح سيد هو الذي جعلني أمشي وأدب على أرضية المستشفى. . لم يكن العلاج وحده يكفي. . ولا العملية التي أجراها أستاذ كما يقولون. . كان علي أن أقوم ما دام سيد قد نجح. . ها هو يدخل الجامعة كما كنت أحلـم ويحلـم. . لا بـد مـن الشـغل لأوفـر لـه المصاريف. . لا بد أخرج من هنا لأواجه الناس وأكلمهم عن سـيد ونجاحـه. . هـا هـو المشوار يبدأ من جديد. . لكنه يهون كل شيء ما دام سيد يتعلم ويتقدم. . سوف تفوت الأيام السود ويصبح الولد محاميا له اسم كبير. . يومها أنزل معه الكفر وأفخر به وأتبـاهى فـي خطواتي. . أجعلهم يقولونها : ابنه أفلح. . أنظر إلى وجه صالح وألومه. . أهـز الـدماغ له. . ولا أتكلم. . أجعله يفهم أنه لا يساوي شيئا. . والجرح يومها ما كان يـؤلمني رغـم عمقه وقسوته. . كان في سلسلة الظهر جرح طويل مفتوح. بمشرط أسـتاذ طبيـب لكنـه ملموم. . كل ساعة أرغب في هرشه وأمنع نفسي وأتماسك ليطيب. . لكن الجرح الذي فـي القلب كان يجعلني عاجزا عن التوقف عن الإحساس بالأسى رغم كل شيء. . حتـى نجـاح سيد ما كان قادرا على جعلي أنسى صالح. . "حتى وأنا مربوط في سرير مستشفى لا تـأتي لتراني يا صالح. . كأنك ابن حرام. . كيف يطيب جرح القلب منك وأنت تعرف كل شـيء ولا تهتم. . ؟ ما لم تكن أنت مع سيد معي وحولي وفي خيالي فمن غيركما يكون معي. .؟". . ولما جاء سيد يوم الخروج نسيت نوعا لكنني سألته : كيف يطيب جرح القلب يا سيد وصـالح لم يكلف نفسه مشقة المجيء ليراني؟

ولما رجعت المحلة اشتغلت في ورشة أخرى. . لكن المكاسب كانت أقل. . قلـت : مطالب الجامعة كثيرة ولا تكفي اليومية. . في البيت وضعت العـدة وكنـت أشـتغل للنـاس أيضا. . وسيد عمل اشتراكا في القطار وكان يسافر كل يوم ويعود في المساء. . لكنه كلمـا أراه أفرح. . أقول يهون الشغل ما دام الولد في الجامعة. . أنتظر نجاحه بفروغ صـبر. . أحس أنه لا بد أن ينجح. . لو تنقضي الأيـام بسـرعة. . لـو تفـوت الأيـام ويـنجح. . ونخلص. . ولما نجح في المرة الأولى اطمأن قلبي. . كل ما كنت أخشاه أن أعجـز عـن الشغل قبل أن يكمل تعليمه ويصبح كما يرجو وأرجو. .

شمروخ أبي في يدي وأنا أستند إليه. .. مشواري على المدافن اليـوم فـي طـراوة الصبح. . مربعات الأرض المزروعة بالخضرة. . والنسيم يهف فيفيق الـدماغ ويحـس.. كلما يموت في الكفر نفر يأتون ويندبون "فيم الندب والبكاء ما دمتم تعرفون أنـه لكـل أجـل كتاب".

صباح العيد. . والأحياء يأتون يطلبون الرحمة للأموات. . أشعر بالونس. . أجلس بعيدا وإن كنت أحس بالونس. . . يتسامرون أم يعزون ويطلبون الرحمة؟ في الصـبح لطـم الحريم وندبهن، وفي الليل الشماتة والسمر. . الأولاد يأتون وفي عيونهم أشياء: البنـات. ..

"وكنا مثلكم نأتي إلى المدافن في صباح العيد ننظر إلى البنات ونتمنى أن نلعب.. أن نلعب مع البنات لعبة الكبار التي نسمعهم يتباهون بها. . ولما يحس الواحد منا بأنه أصبح قادرا وراغبا يأتي مع الأولاد الكبار. . تشغل البنات بنا. . نتصنع أننا حفظنا القرآن ونتلو ما يجيء على الخاطر. . على روح الأموات تقرأ الآيات التي نذكرها. . لما ننسى نكمل مـن أي جـزء آخر. . كله قرآن. . تضحك البنات وكأنهن يعرفن أننا نتلاعب وندعي. . ومـن طـرف العين نرقب الوجوه المحجوبة. . نرفض أخذ الرحمة فنحن أولاد ناس جئنا نقرأ مـن أجـل الرحمة للأموات وليس بثمن. . طلعة العيد أيامنا كانت تختلف. . البنات. . الوجوه النسائية التي حجبوها عنا. . نسأل من يعرفون عن الأسماء. . نعشق من بعيد. . لا نجسـر علـى القول. . لا شيء غير القرآن لغة. . غاية ما كنا نقدر عليه النظر إلى وجوه وصدور البنات الفائرة. . تأتون أنتم وتتصنعون الحزن على أمواتكم.. أسأل إن كانوا يعرفون الحـزن كمـا عرفته ؟. . يتسامرون أكثر الوقت. . الرجال والحريم في أحواش المدافن وعلـى مـداخل الترب. .. الأولاد والبنات يبدأون الرمح وأحيانا الضحك بصوت عـال مكشـوف. . فـي الأركان يكون النظر واللمس. .. أشياء كثيرة تتم خلف الحيطـان بعيـدا عـن الأعـين. . أعرف.. أعرف ولولا كبر السن لمارست لعبة المدافن الجديدة في فجر العيد. ..

كلما قابلت ولدا شقيا يبحلق في ولا يخاف. . صادفت بنتا شفتها وكانت تحسبني لـم أرها تعبث مع الولد. . في المدفن كان العبث وتابعت هي المسير قائلة في غير اهتمام:

ـ ما تروح داركم يا با حسن. .

تنثني في مشيتها. . الولد في أثرها. . " الحريم. . بدع الحريم، والولد لمـا كـان يتسلل خلفك ويلبد معك خلف تربة علي شلبي. . ولا أراه حقا ـ وإنما أسمع صوته مخلوطا في همسات رفضك الأولى قبل أن تكون الاستجابة. وبعدها تعودين ولما تسألك أمك تقـولين بصوت مطمئن واثق :

ـ كنت باعمل زي الناس.

أي ناس يا فاجرة؟. .. أنت حرة. .. والولد يلف مثل النحلة. . يحوم حـول الكـل ولا يسأله أحد. . ومن يسأل الولد. .؟ ".

يقولون إنني بكثرة زيارتي للمدافن أدفن نفسي حيا. . أنتم الموتى. هنا الدنيا كلها.. الرجال الكبار الراقدون في سكون. . يرقبون كل شيء ولا يتكلمون. . لو كانوا بيـنكم مـا رضي نفر منهم بما يراه ويسكت اليوم. . فيم الغضب والخجل ؟. . كانوا يفعلونها ولو بشكل آخر. . والحريم كن يعملنها علنا أو في الخفاء. . حلالا أو حراما. . ليكون أولاد وبنات. . لتكون الدنيا. . رجال وحريم. . ليظل الكفر يعطي نسله المبروك. . ها هو أراه قبالتي من جديد. . بوجهه الأسمر وعوده الممدود.. " طالت غيبتك هذه المرة يا سيد. . عطاك أبي أم

برهومة؟ " أستعيد نبرات صوته. . في الجنة أنت يا ولدي. . حولك حور الجنة. . أسمعهن يغنين لك، يتزاحمن حولك الآن، أبي. . برهومة. . أعمامي. . جدي. . أمي، يتوه صوتك يا سيد. .. تتوه ملامحك أراهم يزحفون حولـك. . الأولاد والبنـات والأطفـال والرجـال يتحركون. . يفسدون علي رؤية الموكب الحقيقي. . موكب الرجال الذي أهواه. . لا يتكرر كثيرا يا أهل الكفر فانزاحوا لأراهم. . يدبون الأرض فيضـيع هسـيس المـوتى وصـوت الأغنيات المألوف. . تتوه الرؤيا. ..

وانا أسعى هذه اللحظة بشمروخ أبي أتوكأ عليه. . أدب الأرض مثله. . مـن أيـن تأتيني كل هذه القوة على كبر. . ؟ كأنني أبي. . أناديهم بالاسم ولا أسمع غيـر صـوتي. . يكتفون بالالتفات ناحيتي. . أصابهم صمم. . ربما صوتي محبـوس... لكننـي أسـمعه. . أصرخ. . سيد. . برهومة. . أبي. لا رد. .

يأتي الأولاد. . أولادنا الصغار. . يرشون ماء القلة الباردة.. أفتح العينين وأكتشف الخدعة. . كأنهم تخفوا في وجوه القدامى ولما رشوا الماء بانت الحقيقة. . امشوا يـا أولاد الأبالسة. . الأسماء نفس الأسماء. . برهومة. . سيد. . عبـد الحميـد.. سـيد آخـر. . سلومة. . شعبان. . عبد الغفار. . عبد القادر. . إبراهيم. . الأسماء القديمة محطوطة في أبدان صغيرة. . أسماء الموتى على الأحياء. . دوري يا ساقية الأيام ولا تكفي أبـدا عـن إعطاء النسل الجديد.. اجعليه يأتي.. اجعلي الكل يأتي من جديد.. يذوب في الفـراغ لكـن الاسم حي في آخرين.. التراب الناعم تسفحه الريح وأنا أتكئ على أكتاف الأولاد الصـغار.. أسألهم إن كنت قد نمت؟ يقول البعض أنني كنت نائما والبعض يقول أنني غبت عـن نفسـي مدة.. التراب الناعم من أثر خطوات من سبقونا تسفحه الريح.. يـدخل المنخـار .. أشـمه أولا .. أجده يتسلل إلى البلعوم.. أبتلعه.. أذوقه.. تراب مدافن الرجال الناعم فـي الحلـق.. نبتلع التراب قبل أن يبتلعنا.. غدا يبتلعنا التراب يا أولاد الأبالسة.. تحيطونني كأنني عريس ليلة الزفة.. أضربكم بالشمروخ لو كنتم تعبثون.. يقول الرجال لما يلمحون خطـوي: كأنـه عبد القادر يعود من المدافن بعد طول غياب.. عبد القـادر يعـود يـدب بالقـدمين ويلـوح بشمروخه في وجه الريح....

" لما أموت يأخذ صالح الشمروخ.. يمشي في دروب الكفر يخوف الأولاد.. لكنـه جيل لا يخاف.. يتجاسر علينا ويطل ويتكلم... زمان جديد.. أنت يا ولد.. أنت يا ولد يـا ابن الكلب خذ يدي فالظلام حل وما عدت أميز الطريق إلى الدار".

ادخل الدار.. الليلة أجلس فوق دكة النورج.. اليوم عيد عند الأموات كما هو عيـد عند الأحياء.. تأتي البنت بالأكل.. هذا طبيخ ولحم.. " لحمكم وقيع يا بنت الكلب.. كأنـه لحم جمل عجوز.. أنتم مساكين..على أيامنا كنا نشرب السـمن شـربا ولا نشـبع.. أولادك

مساكين يا صالح. البصل ومش الجبن هرى جوفهم.. اللحم في المواسم والأعياد.. البـيض للبندر.. السمن للبندر.. الطيور للبندر.. ويتبقى الجبن إن تبقى.. أيامكم فقر في فقر.. يا فرحتي بزيادة العدد.. تأكلون لحم الوقيعة.. تفرحون.. وأنت يا صالح أراك ساكتا.. كأنك انحنيت أنت أيضا.. مصاريف الأولاد في المدارس.. الجمعية والكسب.. والكيماوي ودودة القطن والرش.. أيامنا لم يكن هناك رش.. نقلة السباخ كانت تكفي.. عبد الـوارث أفنـدي صاحب الجمعية حرامي قارح.. وجماعة شلبي ركبت أنفاسنا بعد أن علمـت أولادهـا فـي المدارس والجامعة.. لو ظل سيد.. استمر يا ولد في تعليم الولدين والبنت.. محمد حكـيم.. أحمد محامي، علمهم يا ولد ولا تتراجع مهما كان الأمر.. لو بعت مـا تبقـى مـن الأرض علمهم..

البنت تأتي بخنصر الشاي وتمد إلي الجوزة.. تحط النار جنبي وتغطس في المندرة.. صالح يأتي ويجلس بجانبي.. أناوله الجوزة.. دخن يا صالح لتنسى المشاكل.. تأتي البنـت بخنصر شاي لصالح وخنصر آخر لي.. شاي مر وأسود.. " منذ أيام اختفى الشـاي.. داخ صالح.. التموين لا يكفي.. من غير الشاي ترجع اللقمة.. " صالح يناولني ورقة المعسـل ويقول إنه ذاهب لصلاة العشاء.. تعلمت الصلاة يا صالح؟ يأتي الولد الصغير ويحوم حولي.. آخذه وأقعده على حجري.. أخرج من جيبي كوز الذرة المشوي.. أناوله للولد.. يفرح به.. يغرس أسنانه في حبات الذرة.. كأنه لم يشبع.. ومن يشبع هذه الأيام؟ الجوع في أسنان الولد الصغير.. لسانك أخرس فلا تطلب مزيدا من الأكل أم أنك تفهم الحكاية من أولهـا لآخرهـا رغم صغرك؟ كل يا شاطر كل..

قابلت سعاد في سكة البندر.. جاءت ناحيتي وسلمت.. مشت تحكي عـن الجامعـة "كان سيد مثلك في الجامعة" دعوت لها بالنجاح.. "ها أنت يا شوق تجدين عوضا عن سـيد.. وأنا أيضا.." في عينيها حب وصدق.. كأنني خلفتها.. لماذا لا تكون هذه البنت بنتي أيضـا، أحس بالحب لها.. افتح لها قلبي.. أقول لها إنني أذهب إليه كلما ساعد الجهد.. تقول إنهـا تعرف.. تحبني.. أحبها.. بنت طيبة.. كأنها شوق أيام أخذتها معي.. يرتاح الواحد لها.. تحكي ـ المواصلات صعبة قوي هنا.. الواحد يمشي ولا يفضلش ملطوع يستنى.

قالتها لتفتح موضوعا جديدا، قلت لها إننا كنا نمشي هذه المسافة دون أن نحـس أنـا مشينا.. من أيام الكيماوي ما دخل الزراعة قل الخير.. الناس أصبحت أضعف.. تضـحك تظهر بنايات كفر عسكر الطينية.. نصل إلى الكوبري.. تقول لي.. تفضـل عنـدنا.. أود لو.. أقولها دون وعي .. ليته من الممكن أن أحضر معك.. لكن مسـتحيل. مـن جعـل المستحيل مستحيلا يا سعاد؟ الناس.. الناس جعلوا المستحيل مستحيلا.. أشوف شـاكر.. لا أرتاح له أبدا.. أرتاح لك.. سيد كان يرتاح لك أكثر.

ـ شاكر طينة لوحده.

أعرف أنه دائم المشاكسة.. ليس مثلك يا سعاد.. تطول الوقفـة أود لـو أقولهـا.. سأقولها..

ـ اسمعي يا سعاد.. سلمي لي على شوق.

أسير وحدي.. لم يعد هناك خصوم لي.. صالحت الكل.. بعدك يا سـيد مـا عـاد عندي من أخاصمه.. قلتها مرة أخرى:

ـ صحيح يا سعاد.. سلمي على شوق.

صالح عوف

* ----------

1925 ـ 1971

" في كفر عسكر لا يكون الحلم سيد الأخلاق،
تنقلب الآية ليصبح العنـف سـيد الأخـلاق، هكـذا
عرفتهم، ربما لأنني كنت بينهم مثل عيسى ابن مريم
بلا أب يمنحني الحماية "

وجاء الزمن العويل بأيامه الخسيسة، فانزاحت الأصول القديمة تداوي جراحها التـي أسفرت عنها المعارك، تلعن الزمان الغادر وتلعق الجراح، وما تبقى لأولاد الأصول إلا الفرار إلى حضن الأيام الخوالي بنصف الوعي الباقي أثر الامتصاص الدءوب لدخان الحشيش، حتى الصنف غشوه وأصبحت الغيبوبة في أغلب الأحيان زائفة، يتطوح الدماغ بفعل الهم الراسـخ على الصدور المنهوكة من كثرة الشد المسعور لسحابات الدخان، تعز لحظة التجلي المأمولـة فنرتضى بالتوهان، نجاهد في عسر أن نستعيد ما كان، هروبا من خسة الأيام، نحكي عن العز القديم ونرتعب من لحظة الإفاقة التي تحطنا وجها لوجه مع ما صرنا إليه، عمدة بلـدنا مـن جماعة شلبي. وكان الله بالسر عليما..

شيخ غفر بلدنا من جماعة شلبي.. والله على كل شيء قدير.. صراف بلدنا من جماعة شلبي.. وهو الغفور الرحيم.. لنا مشيخة البلد ولهم دوار، والجدار الواطي تخطيه الكلاب. كنا في نومة فعبروا فوق أبداننا وداسوا اسمنا لما حطوا النعال على أرضنا المسـلوبة.. الرجـال السمر القدامى راحت أيامهم وما عاد لأي اسم منهم نفس الرنين، عبد القادر عـوف، الحـاج مصطفى عوف، سعد عوف، عبد الحميد عوف وأخيرا وهو الأدهى سيد عوف.. كلهم راحوا وخلفوا مساخيط تجعجع من باب التباهي بما تبقى.. يتحايلون على الحياة بما تحت أيديهم من قراريط لا تجود بالخبز إلا بعد الضني وهد الحيل.. أصوات تتقاطع وتتزاحم فـي محـاولات صبيانية لتأكيد وجودها شبه المعدوم.. يحكي مهرجنا العجوز الذي تبقى من جيل الرجال عما كان فنسكر بالحديث يسخر مما فعلوه وما قالوه فيضحكون، أتمثل وجه جـدي عبـد القـادر فيستعصي على الدماغ نصف المدرك، أتذكر زنده الملفوف القابض على الشمروخ فأسـتعيد الملامح، وجهه الصارم الذكر وعوده الممدود وكأنه مارد من عالم بعيد أحس الحسرة، وأقول لنفسي بينما أطالع الوجوه أمامي إنه سيكون عسيرا بحق أن تأتي من ظهور جماعـة عـوف خلفة قادرة على إعادة الزمن الأصيل، أقول أن حقل الرجال الشداد أجدب، أن بذورنا خابـت لأن من غرسوها ـ مطمئنين إلى قدرتها على الإثمار ـ نسوا أن يحسنوا رعايتها، هـا هـم أولاد جماعة شلبي بوجوههم المخطوفة يسودون ونكتفي بالثرثرة، وها هم أولادنـا سـاكنون على كل المهانات، راضون بكل ما يجري.. يتصارعون فيما بينهم حول القراريط، بـارعون في الوشاية.. أولادهم حفاة، لا يخجلون من تأجيرهم للفرقة لقـاء نصـف الريـال اليـومي، يرددون فيما بينهم ما سبق أن سمعوه.. جماعة عوف أصل البلد، تشرفنا، جماعة عوف نطفة طاهرة، أهلا وسهلا بنسل الحسين.. جماعة عوف كانوا وكانوا، يا هنانا ويا سعدنا.. يخطفني

اسم جدي عبد القادر على لسان الجد إبراهيم: كان سيد الرجال.. " ينسى أن نعل مداسه كـان يساوي عشرات من أعناق الرجال الهياكل في كفر عسكر ".. ألف رحمة تنور قبرك يا زيـن الرجال، يا آخر طرح مبروك في شجرة أولاد عوف الكبار، بعد أن رحلت يا رجل عجزنـا عن لم الشمل، واجهنا ليل الزمان العويل غير الراغب في الانتهاء، وحتى ما تبقى لم نحسـن حراسته، الأغراب يتسللون إلى دربنا ويسرقون، ونجتمع لنعرف مـن أخـذ مواشـي العـم مصطفى فيتحول المجلس إلى سهراية لا نفع منها ولا جدوى.

وسيد عوف قتلوه في مدخل الكفر وكأنه غريب، والفاعل مجهول.. هكذا بعد الأربعين لا يستحق النفر منكم إلا مصمصة الشفاه وإلقاء العظات: الأعمار بيد الله، كلنا أموات، اعطني عمرا وارميني البحر.. والرجل هناك في الدار فاقد لنصف عقله بعد ما مات سيد، في الـدار وليس فيها، يراني ولا يفهمني " جئت تنعي ابنك الآخر وترمي علي هموما لا تطـاق، جئـت عاجزا وهزيلا لتؤكد لأولاد الكفر أنك أبي الضائع على مدى السنوات ورفضت أن تبقى لمـا كان العزم والعقل عندك؟ ولا حيلة لي في إعادتك واعيا بما يدور حولك، قمت من مجلسـهم رافضا عروض البقاء.. وحدي أقطع الدروب إلى الدار وتنبح الكلاب.. وحدي أنعـي كفرنـا الخسران وتنبح الكلاب. وحدي كما عشت عمري ونباح الكلاب المسعورة لا يكف.. وعتمـة الكفر لا تبعث إلا على الخوف مما تأتي به الأيام.. الكلاب الغريبة دائبة على النبـاح كأنهـا تغيظني بنباحها المتواصل وتقول إنها جاءت لتحرس من أصبح الكفر كفـرهم ونحـن لهـم تابعون، تحرسهم كلاب وتتكل على من لا يغفل ولا ينام، ولكن كيف سرقوا مواشـينا ومـن سرقها؟ " الفاعل مجهول " جواب مريح على كل الأسئلة حتى ولو كانت تخص من قتلوه عند مدخل الكفر وكأنه غريب " لماذا جئت يا سيد في زمن أصبحنا فيه غرباء في كفرنا الملعون؟ لماذا لم تأت في زمن القدرة؟ ولماذا كان علي أن أعيش لأرى انطفاء شعاعنا القديم، محبوسا في خدعة اسمها الدار والأولاد؟ " في السوق يسألونني لما أقول لهم أنني من كفـر عسـكر. تعرف الحاج مصطفى شلبي؟ تعرف الدكتور صلاح شلبي؟ ولا المهندس ممدوح شلبي؟ ولما ادعى عدم المعرفة يقولون: أنت تخدعنا.. من في كفر عسكر لا يعرف جماعة شلبي؟ النـاس تنسى، نسوا جماعة عوف، نسوا الحاج بدر عوف والحاج مصطفى عوف والشـيخ سـليمان عوف وصالح عوف الكبير وعبد القادر عوف، كأنما ورثتنا جماعة شلبي على الحياة، ربمـا لأنهم يلعبون بالجنيهات ببجاحة، عيونهم مفتوحة وتجارتهم رابحة، يزودون في ثمن البهيمـة بالخمس جنيهات ويضحكون، والأرض التي أخذوها من نسـلنا الطـاهر وزرعوهـا فواكـه وحوطوها بالأسوار تئن طلبا لمن يرفع عنها الأقدام ولا من يسمع.. جماعتنـا فـي توهـة، يتكاثرون إنما بلا قيمة ، فالقراريط هي القراريط لكن في وضع الاستعداد لمعـاودة التقسـيم

ووضع الحدود، قال جدي عبد القادر: علموا الأولاد في المدارس، قال سيد عوف: عيبكم أنكم تجاهلتم وجود المدارس والجامعة ومراكز التدريب.

ـ مين هناك؟

وسكت الصوت، ابن بهية يقولها وينام أو يتحسس بالكشاف طريقه ويبـرش بعينيـه ليعرف بعسر على العابرين قلت:

ـ أنا صالح عوف، وأنت مين؟

لم يرد، كان الكشاف عند آخر الشارع يتعثر ويحاول أن يجد لنفسه طريقا مسـتقيما، قلت لأعرفه مكاني فربما لم يسمع، ربما فقد أذنيه أيضا:

ـ انطق يا لطخ.

كان الكشاف يقترب.. ينير الشارع وتتبعه الخطوات.. أصبح الكشاف موجهـا إلـى وجهي.

قلت بضيق:

ـ ما ترقد يا بن بهية وبلا زغللة ف وش الرايح والجاي.

ـ والدرك؟

ـ لأ فالح يا وله، وبهايم أبوك مصطفى لما راحت م الدار كنت فين؟

ـ ف الدرك.

ـ الله يرحم خالك، ما تقوللي يا وله، ابن مين اللي سحب جـوز البهـايم؟. حـديك خمسين قرش.

ـ وأنا أش عرفني بقى.

ـ طب روح لأمك تعشيك.

لطشته على كتفه حامل البندقية وأزحته عن طريقي.. زمن أعوج، ابن بهية يحـرس الكفر، أعمش ومسلول ويحرس الكفر من لصوص الليل؟ ألم أقل أنه زمن عويل؟. الناس فـي توهة والكفر في نومة.. ما عاد الحلم سيد الأخلاق.. العنف سيد الأخلاق يا كفر عسكر، مـن سماها كفر عسكر؟ من عين ابن بهية لحراسة الكفر؟ من سحب المواشي مـن دار مصـطفى عوف؟ دارك واطية يا عم مصطفى.. قلنا أن الجدار الواطي تخطيه الكلاب، ليل شتاء الكفـر طويل والرطوبة تنفذ في العظم، والسهرة كانت كعدمها.. حتى الصنف غشوه، حتى الصـنف غشوه؟

قال سيد عوف قبل مقتله بشهر: بالعقل تنحل المشاكل وليس بالعنف وحده يا صالح.. قلت لنفسي يومها: هو أفندي ناعم تربى مع تلاميذ المدارس وتوظف مع أفندية يخاف الواحـد منهم أن يتعفر كم قميصه، هنا دنيا أخرى.. بالعقل لا تنحل مشكلة، لو كنا كما كنا هـل كـان

سيد عوف يرتمي رمية الكلاب عند مدخل كفر عسكر، وكنا نعجز عن معرفة الفاعـل كمـا حدث، لو كنا أقوياء هل كانوا يسحبون مواشينا من دورنا؟ العمدة قال إنه لا يعرف وأضـاف أنه غير مكلف بحراسة مواشينا، دلدول وناصح مثل بقيـة أولاد شـلبي.. شـبعت بطـونهم فتحركت ألسنتهم إنما لا يفكرون في أخذ المواشي، فلصوص العالم درجات كما قال سيد، ربما أولاد الزفتاوي، لكنهم تابوا بعدما مات أحسنهم في المعتقل، العمارية، السلامية، تيوس جماعة سعد الله، ربما مرزوق بن سليمان، لا أعرف لماذا يلح على دماغي طوال هذا اليـوم، كلمـا أبعدته يعود " بالعقل تنحل المشاكل " دارهم قريبة من دار العم مصطفى، لهم باب على السكة الزراعية، الولد كان محبوسا وله في الكفر سوابق، مرزوق ابن سليمان يعملها، ربما غمز ابن بهية بجنيه أو جنيهين، ابن بهية دلدول، يفرط في شرف أمه لو شم رائحة الفلوس، يبيع الكفر كله بأنبوبة مرهم بنسلين تبرد التهاب جفونه الدائم، ملعون سنسفيل جدود من كان سـببا فـي تعيينه. مرزوق يعملها، كان يحوم في طرقات الكفر ويتبصص على شيء يلهفه، رمى بـلاه على شاكر وأخذ علبة السجائر وطالبه ببقية الجنيه، شاكر حلف بشرف أمه أنه لم يأخـذ مـن مرزوق مليما، أبعدته عن البوابة وقلت له كلمتين وزغدته مرتين.. لما قرأت في عيون ابـن بهية اسم الولد مرزوق لما سألته عمن سحب البهائم، لكن كيـف تعكـس عينـان دامعتـان موجوعتان اسما لشخص غائب؟ عينا الولد ابن بهية كانتا تزوغان مني، لـو كنـت عـاودت السؤال ربما كان قالها: مرزوق، زمن أغبر، القوالب نامت وقامت الأنصاف، أنصاف الرجال قاموا يعبثون، رقد الرجال فاستباح العيال مالهم، استغلبونا على آخر الزمان، استغلبوا جماعة عوف.. كأنهم سرقوني أنا، من يكون مرزوق وسط أولاد الليل الذين قطعنا دابرهم من الكفر؟ ابن ليل جديد يطل علينا ويرعبنا في الزمن الخسيس؟ ترى هل باعهم في سوق البندر أم أنـه خاف، ربما سار بهم في الليل بمعرفة ابن بهية، ربما يبيعهم غدا في سوق الخميس، يسـحبهم ويرميهم لأي جزار ويأخذ أي ثمن.

دخلت باب الدار المفتوح.. كان الرجل قد نام والأولاد ناموا.. باب الدار مفتـوح لـو دخل أي نفر وسحب مواشينا ما أحس به أحد، المال السائب يعلم السرقة المال السائب يعلـم السرقة.. دورنا مفتوحة في زمن غير الزمن الأول. الباب المسكوك يمنع القضاء المسـتعجل، لكن من يعودنا قفل الأبواب وقد عودونا أن الدار أمان والدنيا بخير، دعبست حتـى وجـدت الحرام، تلفعت به وخرجت ولم يشعر بدخولي أو خروجي أحد، ربما انتصف الليـل.. عـدت متجها إلى دار سليمان، قلت لنفسي أجرب ما دام النوم طار من العينين، كان الـدرك الـذي يحرسه ابن بهية يغط في نومه بعدما نام حارسه، حومت حول الدار وتسمعت الأصوات فكان السكوت جوابها، لو كان عملها لكان هناك على الأقل صوت أو حركة، قلت هي ليلة يعلم بها

ربنا، وخبطت على الشباك، لم يرد أحد، بعد معاودة الخبط فتحت أمه الشباك.. سألت بفـزع وهي تتبصص على من خبط:

ـ مين؟ من اللي بيخبط؟

قلت وأنا أغير صوتي وأتخفى بالحرام:

ـ واحد زميله.

ـ زميل مين يا خويا؟

ـ زميل مرزوق.. مش ده برضه دار مرزوق.؟

ـ أيوه.. بس هو نايم.. عاوزه ضروري..؟

ـ لا.. أبدا.. أبقى أفوت عليه الليلة الجاية.

ـ طب أنت مين اسم النبي حارسك أقوله.

وتركتها دون أن أرد.. لا بد أنني جننت.. ترى أليس في هذا الكفر لص إلا مرزوق، لو كان سرق المواشي لباعهم ساعتها، ولو كانوا في داره لخاف.. ولو تجاسر وأبقاهم لطلـع بهم الليلة إلى سوق الخميس.. لا بد أنني مسطول " ليلة كحل وقطران " مالي حتى بمواشـي العم مصطفى " المال السائب يعلم السرقة " هو حر في ماله.. أكون في حالي.. لما تعاركـت مع أنفار الوسية كان يراني ولا يفكر حتى في المجيء ليرى ما يجري في المعركة.. كل واحد غرقان في أحواله، من منهم تحمس من أجلي في شيء؟

ودخلت الدار.. كان الباب الموارب يسمح بخروج خط الضوء الرفيع علامـة تميـزه عن كل الدور المغلقة، سمعت الرجل يكلم نفسه فلم أشغل نفسي بالرد عليـه.. التففـت فـي اللحاف ورقدت.. سمعت صوت الشيخ سليم عوف يجلجل في وسط السكون بـآذان الفجـر.. وبدأت في أعقاب كل تكبيرة أصوات الديكة تؤذن والكلاب تنبح.. بعدها تداخلت الأصوات ولم أعد بقادر على تمييزها وسط النحنحات المتحركة في اتجاه الزاوية في مشـوارها المتكـرر لأداء الصلاة.

لما كان الأولاد يسألوني عن أبي أقول كما سمعت: مسافر مصر، وأضيف من عندي: وراجع، في أول الأمر كنت أحس نوعا من التفوق لكون أبي في مصر، إنما بعدها بـدأت ولا أدري متى أحس بالخيبة كلما سألوني عنه، ربما بسبب الولد محمد ابن شلبي الذي قال للأولاد مرة أن أبي " طفشان " من الكفر، وكلما كنت أواجه عيون هذا الولد فـي " الكتـاب " أجـد السؤال المطروح وأقرأ الجواب أيضا، كنت أنسى ما كنت قد حفظته من آيات، أتلعثم عنـدما يحل علي الدور " لأسمع "، وكان الشيخ مرعي يربطني في الفلقة ويرفعها ولدان إلى أعلـى بالقدمين ويظل هو يضرب بالعصا حتى أحس الوجع يسري من بطن القـدمين ليصـل إلـى وجهي ورأسي، بعدها يأمرني بالرمح في شارع " الكتاب " ويطاردني بعصاه وسـط شـماتة

الأولاد، مرة سألت أمي عن أبي فقالت والغيظ باد على وجهها: مات، راح في نصـيبه.. لـم أفهم فعاودت السؤال ربما لأنني أنكرت أنه مات فقالت بغل أكثر:

ـ ما تجبش سيرته.. فاهم، ربنا لا يرجعه.

ساعة العصر كنت أسحب لجدي الركوبة.. " ويشق " هو على الأرض، لما ينزل من فوق الركوبة آخذها وأربطها في " الخارجة " ويظل يدب بقدميه فوق الأرض فتهتـز تحتـي وأوشك أن أسر له بمخاوفي من أن يخرقها وأسقط في داخلها، يده الضخمة تهتز عند مستوى رأسي وبريق فص خاتمه الكبير يشد بصري إليه، كان يشير إلى حدود أرض جماعة عوف:

ـ ومن أول الحديدة دي لغاية الزراعية الكبيرة طوالي كان أرض سيدك مصطفى - الله يرحمه، ومن الزراعية لغاية عزبة الكوم كان كله بتاعنا، ولحد النهـاردة وبكـره اسـمه حوض جماعة عوف، حاكم أسيادك كانوا رجالة الناحية كلها، وأرض جناين ولاد شـلبي دي كلها في الأصل بتاعتنا، الله يرحمه سيدك مصطفى وسيدك علي، رموهـا بتـراب الفلـوس، حاكم الأرض تكره اللي يفرط فيها، تكرهه موت، تفضل تلعنه لحد يوم القيامة، الأرض تحب اللي يصونها، إنما جماعتنا كانوا طيبين وفاتوها زي ما تقول زكا عن عيالهم، الغرض.. أهي الأرض دي أرضنا إحنا في الأصل.. حاكم زمام البلدين كان بتاعنا ".

وكنت أقول لنفسي أنني سوف أكبر وآخذ أرضنا من جماعة شلبي وأجعلها كما كانت ملكا لنا، يقول جدي:

ـ ولولا أبوك وعمك فاتوا البلد كنا بقينا عيلة، ما كناش فتنا الخمس فدادين اللي عنـد الجميزة ولا كنا فتنا الفدانين اللي جار أبوك عبد الغفار.. حاكم الأرض تحب الرجالة، تحـب اللي إيده فيها، سيبك م الأنفار، عمر النفر منهم ما يراعيها زي صاحبها، ما هي الأرض زي العيل الصغير، من غير أمه وأبوه يغاب في الدنيا، أهي الأرض تبور لو ما تلاقـيش رجالـة قلبهم عليها كدة.

وأوشك أن أسأل الرجل عن أبي، عن سر غيابه لكنني أتخوف من نظراتـه الحـادة ساعة أن يذكره، أبتلع السؤال وأمضي جواره، ولما أركب فوق حمل البرسـيم فـي طريـق العودة وأراه ماشيا والأرض تحته تهتز وعيون الخلق ترقبه باحترام وخشية أحـس بـالزهو وأفرح بوجود الرجل المهاب ذو القدرة، أحس بالاطمئنان لأنه جدي، أتصور أبي فـي مثـل صورته، أتباهى بنفسي وأحلم بعودة أبي وأن نجتمع معا، جدي وأبي وخالي برهوم وأنـا، أن أصبح رجلا مهابا مثل جدي، أن نسوق أولاد شلبي بطول الكفر وعرضه، أن نجلعهم يتركوا أرضنا لنعاود زرعها بأيدينا، لكنني أحس بالخزي كلما اكتشفت أن الأيام تمضي وأبي لا يعود أبدا، كان الرجل الذي لم أره أبدا هو عاري الدائم وحلم انتصاري أيضا، يطاردني ويطردني،

كلما حاولت أن أدفعه عني أو أن أجذبه نحوي لا يتزحزح وكأنه حجـر الطاحونـة الكبيـر المحطوط تحت سلم الدار.

في " الكتاب " سألني الولد محمد شلبي عن أبي، لطشته بكل عزم كفي فوق صرصور أذنه، صرخ الولد ثم سقط على الأرض، جاء " سيدنا " لما سمع الأولاد يقولون إنه مات، رش كوز ماء بارد فوق وجه الولد فأفاق إنما على صدغه علامة الكف ظاهرة، ولما سـأل الأولاد أشاروا إلي، هز دماغه ومدني كعادته، إنما الولد محمد شلبي كف عن معاودة السؤال عن أبي خوفا على صرصور أذنه الأخرى.. قلت لنفسي وأنا أقرأ سورة مريم.. ربما ولدت بـلا أب مثل عيسى ابن مريم، كدت أن أقولها للأولاد لكنهم لم يكونوا يسألون، ولما سمعت سورة مريم قبل كل الأولاد تعجب الشيخ مرعي للأمر وضرب كل الأولاد الكبار الذين لم يحفظوا وجعلت يومها أقرأ ولا أخطئ والشيخ مرعي مبسوط، وكنت أتمهل عند بعض الآيات ولا أدري لماذا

قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا * قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا * قال كذلك قال ربك هـو علـي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا * فحملته فانتبذت به مكانا قصـيا

لم أكن فاهما لمعاني الكلمات، إنما كنت أقرأها بحماس لا أعرف مصدره، حماس كأنه يقـين في حق يكتشفه الإنسان لنفسه وكان غائبا عن ذهنه..

وتعارك جدي مع منصور شلبي وأولاده.. كنت مع جدي وكان منصور يقـف فـي عرض الطريق مع أولاده، تكلما معا بانفعال لم أعرف أسبابه ثم وجدت النبوت في يدي جدي يتحرك.. تفاداه منصور بالجري ثم عاد النبوت يطارده في سرعة غريبة كانت ضرباته وسط العصى الثلاث تفوز.. تخيب كل ضرباتهم وضرباته تصيب.. يده القابضة على النبوت كأنها يد جن مصور تعرف متى وأين تضرب.. بطح منصور وابنه الأكبر.. رمح منصور وتـرك أولاده.. تركهم جدي أو ربما تركوه، إنما طاله، لم يهدأ إلا عندما طاله عنـد التوتـة، ناولـه خبطة فوق وسطه، كنت قريبا منهما وسمعت منصور يعتل وكأنه تحت وطأة حمل ثقيل، كان سالم ابنه قد اقترب من جدي محاولا ضربه من غير أن يراه. صرخت محذرا فالتفـت إليـه وناوله واحدة جعلته يرتمي على الأرض قريبا من أبيه، ابن منصور الأكبر كان هناك حيـث بدأت المشاجرة، جالسا على الأرض، كان منصور يتحدث إلى الناس الملمومين فـي عسـر شديد من خلال فم يتدفق منه خيط الدم، لم ينطق ابنه سالم.. اكتفى بالنظر المفزوع إلى أبيـه، كان الناس يتكاثرون وجدي واقف مكانه ينظر باستهانة إلى وجه منصور ولا يتكلم.. عنـدما ساعد الناس منصور على ركوب الحمار وسندوه قال جدي موجها حديثه إلى منصور:

ـ النوبة الجاية بحش أجلك يا ابن المفضوحة.

وقال الرجال من جماعة عوف لجدي:

ـ عفارم عليك سبع.

في الدار عرفت أنه تعارك بسبب أبي وعمي أو بسبب كلام قاله منصور عنهما، لـم أفهم إنما أحسست بنوع من الخوف.

في الكتاب عرفت من الأولاد أن جماعة شلبي خافت من جدي فلم يفكروا في معاودة العراك معه، وأن منصور شلبي راقد في داره، حتى لما مات اكتفوا بأخذ العزاء في المنـدرة وأشاعوا أنه كان مريضا بالقلب ونفوا ما كان يتردد من أن خبطة جدي عبد القـادر حشـت حزامه وعدمت صحته، وأنه عاش أسبوعا بعد المعركة عاجزا فيه عن الكلام أو الحركة، أما ابنه سالم فكان يمشي في دروب الكفر معصوب الدماغ أصفر الوجه فاقدا لجسارته القديمـة.. كأنه بنت فقدت شرفها كما كانوا يرددون، من يومها عرفت أن العصا هـي الشـيء الفعـال والحاسم في كفر عسكر، أن كل الأصوات تخفت عندما يلوح الإنسان بالعصا، كنت أتـدرب على حمل العصا في دروب الكفر، الصبية الصغار مـن أولاد العيلـة يطلعـون الأشـجار ويقطعون فروعها يهذبونها ويعملون منها عصى صغيرة، وكنا نعمل معارك وهميـة فأصـر على أن أقوم بدور جدي عبد القادر، ليس فقط لأنه جدي أنا، بل أيضا لأنني أعرف حركاتـه وأستطيع تقليد صوته ومشيته، عندما كنت أبدأ في تقليده يهلل الأولاد قائلين:

ـ اهرب يا وله، أبوك عبد القادر أهه وفي إيده الشمروخ.

ويفرون، أحس وأنا أمسك فرع شجرة التوت أنني هو عبد القادر مصـطفى عـوف، كبير بحق وحقيق، قادر على إرعاب الكفر كله، لا يعترض طريقي رجل.. ألعب مـع الأولاد لعبة أبوهم عبد القادر مع أنفار السلطة كما سمعتها، ألعب لهم دوره فـي عركـة المصـرف الكبير، ومع منصور شلبي وأولاده، وعركته مع برابرة الهجانا كمـا سـمعتها.. أدب علـى الأرض كما يدب، يهللون لي فأحس بالنشوة وبالقدرة على الانتصار لكن يوما سلط الولد محمد شلبي ولدا من العمارية ليقول وسط تهليل الأولاد:

ـ لو كنت شاطر بصحيح أعملنا أبويا عبد القادر مع ولاده حسن وعبد الحميد.

ساعتها أحسست بحرج شديد وعجزت عن الاستمرار في اللعب، قلت للولد وأنا أنظر إلى وجه محمد شلبي:

ـ بكرة، أنا عارف اللي مسلطك.

ودخلت الدار، كان الأمر فوق قدرتي على السكوت، قلت لخالي برهوم أسأله:

ـ هو سيدي عمل إيه مع ولاده يا خال؟

فنظر إلي مدهوشا من السؤال ثم ضربني بقبضته فوق صدري وقال: غـور امشـي. ولما بكيت وسأله جدي عما جرى هز دماغه ونفى إن هناك شيئا يسـتحق القـول.. كانـت الحكاية في الدار سرا مفضوحا حتى بالكتمان، كنت أعرف أن هناك معركة خسـرها جـدي

طوال عمره وأن هذه المعركة كانت مع أبي الغائب وعمي الذي مات في مصر، أما التفاصيل فكانت صعبة المنال، وتصديق الأمر كان أصعب، وكنت أكتفي بالتخيل، ربما ضربوه وهـو نائم أو وهو غافل، تخيلتهما مردة من الجن استطاعوا مرة أن يواجها الرجل المهـاب فحلـت عليهما اللعنة " وبالوالدين إحسانا " خرجوا عن طوع الأب فلعنهم وغضب عليهم قلبه، تقـول جدي مبروكة إنهم "تاهوا في الغربة وتشتتوا في البلاد بسبب دعوات أبيهم عبد القـادر، وأن عمي عبد الحميد مات بسبب هذه الدعوات وغضبه عليهما" كنت أقول لنفسي أحيانا أنـه مـن الممكن أن يموت أبي أيضا قبل أن أراه.. ربما يقتله الإنجليز كما قتلوا عمي في الأزهر كمـا يقولون، أسألهم عن أبي فيسكتون، كأنهم أخرجوه من حسابهم تماما.. حتى خالي برهوم كـان عندما أسأله لا يجيب وأمي لما أسألها عنه تطلب من الله ألا يرجعه إلينا أبدا، وكنت أعجـب من شدة كراهيتها له وأقول لنفسي أنه من الممكن أن يجيء وأراه مرة قبل أن يموت، لكنه أبدا لا يجيء.. لا يفكر في أن يأتي ليكيد أمي ومبروكة ويصالح جدي عبد القادر ويساعد خـالي برهوم وربما يحكي لي عما جرى بينه وبين جدي عبد القادر قبل موت عمي عبد الحميـد.. ظلت الأيام تتوالى واشتياقي إليه يكثر، واللعبة التي كنت أجيدها ظلت ناقصة وظل وجه الولد محمد شلبي الشامت يساط الأولاد وكأنه يعايرني بأبيه ويذكرني بفقدان أبي الغائـب ويشـوه سمعة جدي عبد القادر الذي أحبه لدرجة لا تسمح بأي شك في قدرته على كل الناس.. وكنت كلما ازداد شوقي لرؤية أبي أزداد كراهية له وحقدا عليه.

يوم الأربعين رحنا المدافن، صحانا الرجل قبل الأذان وظللنا نسـتف الرحمـة فـي السبتين، شالت البنات رحمة " سيد " وذهب الرجل، قلت ربما يخف الحزن القديم لكنـه زاد، قرأت الفاتحة على روحه لكن الرجل كان كالغائب عن الدنيا، يسألني ربما للمرة الألـف مـن قتله يا صالح؟ والسؤال ينفذ من طبلتي الأذنين مسمارين محميين يعرفان الطريق إلى القلـب، وعجزي عن الرد يجعلني أحس بالعار، كل العار، هانت جماعة عوف إلى حد أن قتلوا حفيـد عبد القادر عند مدخل الكفر، هان صالح عوف إلى حد أن قتلوك يا سيد، كأنهم لما قتلوك قتلوا كل ما تبقى من كرامة لنا وقيمة، ذبحوا أصلنا القديم عند مدخل الكفر وسـال الـدم وغطـوه ببعض الحشيش الجاف، والأيام التي فاتت منذ ذلك المساء اللعين لم تخفف حمية نارك يا سيد في الصدر، ومهما تحايلت لأظهر قويا أمام أبي فأنا مجروح بجرح لا تداويه كـل الـدموع، شيطان يترصد فرعنا وحده من جماعة عوف، أبي بوجهه الشاحب يعاود السؤال وكأنه خرج هو الآخر من أحد المدافن هاربا، الموت في العينين والشفتين وفي النبـرات الغريبـة علـى الأذنين:

ـ بقى ما كانلوش ف الكفر عدوين يا صالح؟

الرجل انهدت قواه، مثلما انهدت قوى جدي عبد القادر منذ سنوات، ها هـو يرتمـي على الأرض في وضع متهالك منهار، يخرف يسأل الجدران الصماء ويتحسس فتحة المـدفن وكأنه يربت بكل حنان الأب على رأس طفله، حتى ولا أي أم شفتها طوال عمـري تتحسـس جسد طفل لها مهما كان عزيزا بمثل هذا الحنو، أوشك أن أكرهك يا سيد رغم موتك لكننـي أيضا أحبك، فقط لو كنت ترجع للحظة وتحكي عما جرى، تصف لي وجه من قتلك، ربمـا لا أكتفي بتقطيعه مهما كان وجعله عبرة وما يكون بعدها لا يهم، لأعود إلـى طرقـات الكفـر مرفوع الرأس، لكنك تعز علي حتى في الأحلام، لو تستجيب المقبرة لكف الرجل المعروقـة المستجدية والمستجيرة بكل ذرة فيها وترجع، تطل وتحكي، الرجل يهذي، فقد عقلـه، عـار آخر، في الماضي كان عاره أهون " طفشان " إنما اليوم وهو بيننا وعلى مرأى من كل نـاس الكفر مجنون أو حتى نصف مجنون يتحدث إلى أشباح خفية، معيرة كان أهون منهـا غيابـه الطويل، لو فتناه ينام في المدافن ويفضحنا، فضحنا فعلا، سيرتنا لبانة في كل الأفواه. فكـف يا رجل عن كل هذا التهالك الذي لا يليق، ها هم يتبصصون علنيا من بعيد، لا يودون حتى أن يقتربوا، كأنهم يعلنون أنهم يرون ويسمعون فقط من بعيد، تماسك يا رجل في هذه اللحظة حتى يفوت الناس، اصبر، لكن ما معنى الصبر في مواجهة الموت، القتل، الليلة نعاود دفن سـيد، الأربعين وليلة الأربعين، برهوم أيضا لما مات عملنا ليلة الأربعين وبدا لي ساعتها أن أحزان الرجل الكبير تضاعفت، سوف تتأجج النار أكثر في صدر الرجل، ربما يزداد جنونـا علـى جنونه، تزيد النار فيزيد العار، ها هو صالح عوف ينكسر عوده ويقف عاجزا بعد كل ما كانه حيال أب فاقد لوعيه وأخ قتيل يا كفر عسكر، إنما لكل عقدة حلال، مهما كانت الجراح غويطة فلا بد من دواء.. أولاد عوف عاشوا عمرهم قادرون على رد الصاع صاعين يا كفر عسكر..

البنات يوزعن الرحمة وكل مقرئ يأخذ نصيبه ويتلي ما تيسر، لصـوص الجبانـات يحوطوننا ويأخذون الرحمة ثمنا لكلام الله، يخطئون في الآيات ويلغوشون كـل مـنهم علـى الآخر.. في الضحى سندت الرجل فقام، لو تركته لظل جالسا دون أن نعرف إلـى منتصـف الليل، لولا الصدفة ما عرفنا طريقه بعد أن دخنا في كل الدور عليه وسألنا وكأننا نسأل علـى طفل تاه والخزي يشل اللسان عن تكرار السؤال.

دخلنا الدار، جلس هو على دكة النورج القديم، تماما مثلما كان جـدي عبـد القـادر يجلس، كأنه هو بعث من جديد إنما العود أكثر نحولا وأقل قدرة، أشرت لزكية أن تولـع لـه نارا لزوم الجوزة، أن تعمل له شايا، الشاي اللعين سحبوه من السوق أيضا، لا يوجد في الكفر شاي، أدوخ في المركز بحثا عن باكو الشاي فلا أجد، التموين لا يكفي، شاكر شلبي يغمزنـي كل مدة بباكو الشاي وكأنه يعطيني "قرش حشيش" أو حتى أفيون.. ترى هل يسـتمر الأمـر هكذا.. يا أولاد الكلاب، أخذتم مال البلد وستفتم دكاكينكم بكل الأصـناف، الممنوعـات لهـا

رفوف سحرية والأسعار كما تطلبون، إنما المهم أن يتواجد الصنف، غشوا الشاي مثلما غشوا في الزمن القديم كيماوي الأرض وخلطوه بالملح، يأخذ ثمن الشاي مضاعفا ولا يستحي وكمـا يقولون " اللي عاجبه الكحل يتكحل " لو درت في كل المركز ما وجدت غير شايك المخلوط يا شاكر، هذا الشاي يشربه الرجل مع الجوزة، هو زاده الوحيد، لولاه لخف البرج البـاقي فـي عقله. سيد عوف يا شاكر أخوك من الأم فهل نسيت، هل أصدق أنك غيرت سلوكك معي بعد موت سيد بسبب حزنك عليه أم إنها مجرد مظاهر تحرص عليها أمام الناس، وأن كل ما تقوله مجرد غلاف تداري به فرحتك فيه أو فينا كلنا يا شاكر؟.

قال أبي وهو يوسع مكانا على دكة النورج ويربت عليه براحته المفرودة:

ـ ما تقعد يا صالح يا بني.

ـ أيوه يا با أشوف العيال عملوا إيه وأرجع.

دخلت اسأل عما جهزوه فلم أجد غير بقايا الرحمة وطلبت من الولد محمد أن يـذهب إلى الشيخ راضي وينبه عليه هو والشيخ سليم بضرورة الحضور الليلة من أجل سهرة ليلـة الأربعين في المندرة.. وكانوا في الصباح قد كنسوها ورشوها وفرشوا الحصر علـى الـدكك والمصاطب كما أمرتهم.. عدت إلى مدخل الدار، قال أبي:

ـ هي الجميزة الكبيرة خابت ليه؟

ـ ما هي عتقت يا با، بأقول نقطعها ونستنفع بحق خشبها، بس بيقولوا حرام.

ـ أيوه.. أيوه.. كان على صحوي جدانا مطرح الطمبوشة كرم نخـل، جـه سـيدي مصطفى قطعه، من يومها قل الخير وقلت البركة، حاكم نخل البلح مبـروك، سـنة والتانيـة وسيدي مصطفى مات.

ـ بيقولوا قطع البلح حرام، أصل البلح ملك، والنبي وصى على التمر.

ـ وعم برهوم سنة ما قطع العنبة اللي كانت في الجنينة ربنا اتولاه.

ـ ما هو العنب راخر نعمة من ربنا.

ـ الغرض يا صالح، قطع النخلة بقطع الأجل، هو الولد محروس راح فين؟

ـ تلاقيه بيلعب.

ـ يلعب دا إيه، قصر له شوية خليه يلتفت لدروسه، الله يرحمه سيد خد الابتدائية وهو زيه كدة.

ـ وسي عطية اللي كان حيلة أبوه فدان واحد أتربى وبقى عال العال.

ـ الله يرحمه سيد كان شاطر قوي، مرة وهو صغير بأبص في كراسة الحساب لقيته واخد ستة على عشرة، ضربته، قلت له لازم تأخذ عشرة على عشرة، وعنها، فضل شـاطر طول عمره.

ها هو يعاود الحديث عن سيد، كلما حاولت أن أجره بعيدا عنه يرجع.. سيد يـا حلـم الرجل وأمله الضائع متى ينساك؟ سيد يا ماضيه وحاضره ومستقبله رغم موتك متى تنـزاح ليعيش ما تبقى له في سلام؟ ولماذا تلح لكل هذا الإصرار على عقله نصف الواعي رافضا أن تمنحه نعمة السكون في الأيام الأخيرة؟ ألا تخجل من روحك وأنت تحوم حوله كل ليلة تسلبه لذة الحياة وتحرمه المنام؟ ".

جاءت زكية بخنصري الشاي، أخذ خنصره بيد مرعوشة وبدأ يشـرب " يـا خيبـة وحطت علينا، خنصر شاي، أعرف أنك كييف والشاي ماسخ كما أرى، لو تطول اليـد، إنمـا الشاي ممنوع وأنت كييف، الشاي غشوه، والصنف غشوه، لعبوا في كل شيء ".

ـ الشاي دا طعمه غلس يا وله.

أخذت منه خنصر الشاي، تذوقته، ماسخ وخفيف مالك أنت بكيفية الحصول على باكو شاي من شاكر شلبي، كفاك همك، ناديت زكية وناولتها خنصر الشاي، قلت لهـا: اضـبطيه، أخذته ودخلت أعرف أنها سوف تفرغه في البراد وتغليه ثم تعيد صبه، ربما تضع فيه ملعقـة سكر وتعيده، إنما ما حيلتي، أخذت الجوزة وجلست بجواره، ناولتها له وجعل يأخـذ أنفاسـا متلاحقة ويكح بين النفس والنفس.. دخنت أنا أيضا، لا أحب المعسل بلا حشيش، إنمـا لا بـد أرحم صدره المنهوك وأحتمل طعم المعسل لأحميه من الموت بفعل الـدخان، عـادت زكيـة بالشاي، أخذه منها:

ـ الله يباركلك يا زكية يا بنتي، معلهش، بني آدم تقيل، استحملوني يومين لحد الأجل ما ينتهي، أرقد وأرتاح جنب الرجالة اللي راحوا، جنب سيد.

ـ ربنا يديك طوله العمر يا سيدي.

قالتها زكية وهي تدخل. أعرف أنها تضيق بك يا رجل إنما لا تجرؤ علـى التلمـيح، قال:

ـ ولما أموت يا صالح تحطني بإيدك جنب سيد، مش عايز حاجة تانية، تحطني جنبه وبس ويبقى كتر ألف خيرك يا صالح.

كدت أبكي، تماسكت، قمت من جلستي واتجهت إلى الباب " الوسـطاني ".. غلبتنـي الدموع عند باب " الزريبة " جعلت أنهنه مجاهدا ألا يحس بي أحد، أنهنه بحرقة، كان الـركن خاليا وكنت وحدي جالسا على طرف " الطوالة " أبكي.. سمعت صوته ينادي.

ـ يا صالح.. يا صالح.. هو راح فين يا ولاد؟

قمت، مسحت عيني بكمي وأفرغت أنفي قبل أن أرد:

ـ أيوه.. جاي أهه.. العجل كان حل وبربطه.

سمعته يقول محدثا نفسه:

ـ ولا حل ولا حاجة.. يا صالح.

ذهبت إليه محاولا ألا يكون قد بدا علي أي تغير، سألني:

ـ هو أبو الخير لف ع الكفر.

ـ أيوه، من بدري.. لف نوبتين.

ـ ما تبقاشي تخليه يلف لما أموت، سيد كان شباب ويستاهل إنما أنا عضـمة كبيـرة بقى ولا له لزوم العزا ولا الميتم حتى.

كنت أسمع صوت أبو الخير ينادي منبها الناس إلى ذكرى أربعين سـيد، لا بـد أنـه سمعه، فاتت البنت زينب.. في عينيها حزن.. لولا ما حصل لدخلت في القطن، مهرها مدفوع وجهازها أوشك أن يتم، زواج البنات سترة.. ترى أي أجل سوف تتعطل دخلتها؟ حظها سيئ، قال أبي:

ـ إلا القطن إزي حاله السنة دي؟

ـ اللي ف الساقيات على ما هو إنما الشوية اللي تحت الجنينة حلوين شوية، الـدودة خربت الدنيا والرش ولا هو نافع.

ـ على أيامنا ما كانش رش، عمك عبد الحميد الله يرحمه بعد ما ختم القـرآن كـان واخذ باله م الأرض.

ـ تعيش أنت، دا لولاش الواحد إيده في الزرعة كانت الأرض تعدم.

ـ وفي شارع الأزهر، ما هو كان مجاور ف الأزهر، ضربوه بالعيار في رأسه طب ساكت زي سيد أخوك.

ـ الله يرحمه.

ـ أنا ما كانليش في الزراعة من يومي، دخت في الغربة.

ـ ولولاه عليا كنت مت، حاكم كان شهم، كان شبه سيد الله يرحمه كدة. بس اندفن في مصر.. سيدك ما جاش إلا بعد الدفنة..

قلت لنفسي أن الاستمرار مع هذا الرجل سوف يودي بعقلي أنا الآخر.. مـا عـادت للحياة لذة، هذا الرجل قادر على نسج الأحزان في كل جنبات الدار، عند البوابة وجدت شاكر واقفا قال:

ـ كنت ناوي أحصلك.. هو عم حسن لسه في الترب؟

ـ لا.. رجع من بدري.

ـ حاكم أمي عملت رحمة وناوية توصل لغاية الجبانة.

ـ طيب، تعيش وترحم.

ـ ما تأخذنيش يعني، ما أنت عارف.

تركته، قلت لنفسي أنه سخيف وفاجر، ماذا يريد، الرحمة، يا شوق ما زلت تتمحكين، "كانت خالتي وخالتك وتفرقت الخالات" لا نريده أن يوزع رحمة، يريد أن تنفرد أمه بالجبانة، تماحيك حريم، وماذا لو ذهبت وكان الرجل هناك؟ بعد كل هذه السنوات ماذا لـو شـافته أو شافها.. أمور غريبة، ما كان بينهم راح، ومن كان بينهم مات، حتى وأنت ميت يا سيد تطارد روحك المشاكل؟.. ميت وكل منهما يحاول أن يؤكد امتلاكه لك وحده دون الآخـر، تسـتحق رحمة الطرفين إنما لا تحصل إلا على نصف الرحمة، ماذا أفعل مع الرجل يا شوق؟ أربطه؟ أمنعه لما تفكري في تشريف الجبانة؟ أقول له حضرتها ترغب في زيادة ابنك وحدها؟ جماعة شلبي توشك أن تحتكر حق زيارة الجبانة.. تكاد أن تطلب تحديد حركتنا في زيارة أمواتنا، في الخميس الكبير عملوها وبلعناها، أخرنا الرجل حتى بعثوا لنا مرسـالا يعرفنـا أنهـا زارتـه ورجعت، كأننا سوف نظل هكذا رهنا لإرادتهم، في العيد طلبوا منا أن نزوره قبلهم وأن ننهي الزيارة بسرعة، صحي الرجل قبل الفجر، زار ورجع قبل طلوع الشمس، أخذناه غصبا قبـل أن ينهي الزيارة من أجل شوق.. ترى هل كان يعرف، هل طاوعنا لأنه أحس بما كان يـدور دون علمه؟ كلاب أنجاس لا يحسون بما نحن فيه، أذهب يا شاكر واجعلهـا تـذهب لتوزيـع الرحمة على روح قتيلنا الذي توشك أن تأخذ منا ذكراه أيضا بعد ما أخذته منا في أحلى أيـام شبابه.

عدت إلى الدار وأنا أغلي من الغيظ، جاهدت أن أبدو طبيعيا، كان الرجل قـد دخـل المندرة مع محروس وكان صوته يبدو طبيعيا وهو يجادل الولد في مسألة حساب. قلت لنفسي ما زال لديه شيء من القدرة على التمييز والأمل رغم كل شيء..

في الليل كان الشيخ راضي ينافس الشيخ سليم في قراءة ما تيسر وجاء خلق كثيـرون للعزاء.. كان أبي يجلس عند طرف الدكة ويتوه أحيانا فلا يرد على من يجيئون لأخذ الخاطر، طلبت من محمد أن يأخذه إلى الدار وبقيت حتى تمت الليلة، وكان شـاكر قـد أصـر علـى ملازمتي طوال الليلة في أخذ العزاء كأنه يعلن لكل الكفر أنه شريكي في سيد.

وأمي أيضا طلعت من الدار، زفوها لأمين شلبي بعد عركة حول الأرض، ميراثها من أبيها شقيق جدي عبد القادر الذي مات وترك أرضه وابنته وزوجته ليأخذ الكل جـدي عبـد القادر.. يتزوج جدتي مبروكة ويزوج ابنتها لأبي ولما يتركها تظل في الدار، ومرت السنوات وهي في الدار، ولما طلبها أمين شلبي فكرت في أخذ حقها من الأرض فظل خالي برهـوم ـ وهو عمي أيضا ـ يغريها حتى وافقت أن تتنازل عن حقها قال جدي:

ـ بقى عايزة الأرض تديها لابن شلبي، ليه؟ وابنك الغلبـان ده يتربـى ازاي، إيـاك حسك عينك تفكري في قيراط بصابعك.

ارتحت لما عرفت لأول مرة أنني المستحق لميراثها وأنني بذلك أصبح لي من الغـيط نصيب، وكنت أستعيد ما كان يقوله جدي عن حوض جماعة عوف الذي باعوا أكثره برخص التراب وغالبا لجماعة شلبي، وها هم يأخذون أمي أيضا، كرهتها في ذلك المساء وأنا أراهـا تتزين من أجل ابن شلبي، تبدو كئيبة الوجه خائنة، في أحلامي كنت أتوقع عودة أبي إلى الدار ليجدها في انتظاره، إنما ضيعت أحلامي بقبولها الزواج من آخر، ربما مـن يومهـا ازدادت كراهيتي لأولاد شلبي، وكلما تعاركت مع أحدهم ينهرني جدي ويحاول إفهامي أنهم ناسـبونا وأصبحوا منا، وكنت أشعر أنه يخدعني وأن ما في قلبه يستحيل أن يخرج إلا بخروج الروح، شيء ما كنت أجهله أجبره على تزويج أمي لأمين شلبي، ولما سمعت أن أبي تكلم عن بنـت عبد الستار شلبي ازددت حيرة وكراهية لكل صنف شلبي، ولا أدري لماذا تزايدت كراهيتـي لهم. هل بسبب أنهم أخذوا أمي وربما يأخذون أبي أيضا أم بسبب ما كان يقوله جـدي منـذ سنوات عن الأرض التي سلبوها سلبا من عائلتي، وكلما تعاركت مع صبي في مثل عمـري من جماعة شلبي يلومني جدي وأحيانا يحاول ضربي فأهرب، إنما كنت أحيانا أحـس رغـم كلمات اللوم والزجر الخفيف بأنه سعيد لنفس السبب، قال مرة لخالي برهوم:

ـ الولد ده من جماعة عوف بحق وحقيق، دماغه ناشفة وعندي.

قال برهوم مرة وهو ينظر إلي بنوع من الحب.

ـ عايز تشوف أبوك يا صالح؟

أجبته بلهفة:

ـ الله يخليك يا خال خدني وياك مصر.

ـ كدة مرة واحدة، طب أنا راح أكشف حدا الحكيم وأنت تروح ليه؟

قلت متخابثا:

ـ ماني عيان برضه وعايز أكشف حدا الحكيم.

ضحك هو وجدي حتى رأيت عيني جدي تدمعان فعجبت كيف تدمع العينـان بينمـا الوجه يضحك. كان وجه برهوم يزداد شحوبا، وكانت مشاويره إلى الحكيم في طنطا تتزايـد، أحيانا كنت أوصله بالركوبة إلى البندر، إنما هذه المرة عرفت أنه ذاهب إلى " مصر " وأنـه سيرى أبي أيضا، كان برهوم يبدو أكثر ضعفا من أي يوم آخر وكانت في عينيه لمعـة قلقـة وحيرة خفية المصدر. وكانت سلطاته في الدار تتناقص، ربما بسبب المرض أو كثرة خلافاته مع جدي، وسافر خالي برهوم وغاب، قال جدي وهو يلحظني خفية:

ـ مسيره خالك يرجع وتشوف أبوك يا صالح. ما هو أتكلم على بنت عبد الستار.

كنت في الغيط، بالتحديد فوق شجرة التوت، عندما سمعت الولد جلال ينادي بعلو حسه من عند سكة المصرف القديم:

ـ يا صالح.. يا صالح.. خالك برهومة جه من مصر.

قفزت فرآني وظل يرمح ناحيتي وهو يتكلم:

ـ وأبوك حسن وياه يا وله وعايز يشوفك.

رمحت ناحيته، تقابلنا عند المنحنى، أخذت ذيل جلبابي في أسناني مثلما فعـل جـلال وطرنا في اتجاه الكفر، قال جلال:

ـ دا طول سيدك عبد القادر ولابس طربوش زي بتاع الصراف.

سبقت جلال بمسافة فجاهد أن يطولني: قال بعسر من خلال أنفاس متلاحقة.

ـ ومعاه سلال كبير جايبه من مصر.

كنت أسمعه بصعوبة بينما الريح تصفر في أذني.

ـ على مهلك يا صالح.. ما هو قاعد، في المندرة الكبيرة.مع خالك وسيدك. وأبويـا وياهم كمان.

كنت قد ابتعدت عنه تماما، لم أكن أفكر في جلال، كنت أفكر في أبـي، أن أراه، أن أسمع صوته، ألومه على كل هذه السنوات التي غابها عني، أن أحكي له عن المصحف الـذي "ختمته " عن عدم رضاي عن جماعة شلبي وأملي أن أرى جدي معه، يتصالحان، أن أطلـب منه البقاء معي في دارنا.. تعثرت في حجر، وقعت على الأرض كانت الوقعة شديدة فزحفت مسافة، تسلخت ركبتي وكوعي وراحتي اليمنى، لحقني جلال، أفقت لنفسي بسـرعة وقمـت، شدني جلال لما فكرت في معاودة الرمح.. طلب مني أن أغسل الدم عن ركبتي فلم أطاوعـه، كنا عند مدخل الكفر، نفض جلال جلبابي وسرت أعرج، سبقني جلال، وصـلت إلـى بـاب المندرة الكبيرة، تأملت الوجوه، بحثت عن الطربوش فوق الرءوس فلم أجد، وجـدت جـدي وخالي برهوم وعمي عبد الغفار يحوطونه، كان الطربوش بجانبه وكان يبتسم في حيوية، كان شبيها بجدي إلى حد كبير، ربما هو أكثر قربا إلى جدي من برهوم بمراحـل، كـان يرتـدي بالطو كشمير فوق جلباب وفي قدميه حذاء أسود وجنبه الطربوش والرأس عار، اقتربت بحذر لأتأمله أكثر، كانوا يتحاورون بحماس شغلهم عني، ازددت اقترابا، قال جدي وهـو يلمحنـي قبلهم:

ـ واد يا صالح.. مالك وشك أصفر كدة وينهج، أنت جاي رمح م الغيط؟

التفت هو إلي، تفحصني مستطلعا، قال برهوم:

ـ طب قرب كدة وسلم على أبوك.

كانت عيناي مركزتان عليه وكانت عيناه مربوكتان بيني وبينهم، اقتربت أكثر، فـتح ذراعيه فوجدت صدره مفتوحا لأخذي.. ارتميت في حضنه وظللت أبكي، أحاطني بذراعيـه وكانت يداه تجوسان عبر الظهر والكتفين وصوته المشروخ يردد اسمي دون أي كلام آخر:

ـ صالح.. صالح.. صالح.

كنت أبكي بصوت، نسيت كل ما سبق أن علموه لي، السلام باليد وبخشونة تحول إلى ارتماء في الأحضان في استسلام ضعيف، لا كلام، ولا كلمة كانت على طرف اللسان تقدر أن توضح ما كنت أرغب في قوله.. أحسست بقطرات ساخنة من دموعه تتساقط فـوق رأسـي وفوق عنقي.

قال جدي:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.. حسن..

وظللت في أحضانه غير راغب في الابتعاد ويداه تتشابكان فوق ظهري.. قال عمـي عبد الغفار:

ـ دا الفراق صعب يا رجاله، ربنا ما يحرم حد من ضناه..

قال جدي:

ـ أهو بقى راجل أهه.

ـ ربنا يخلي.

قالها عمي عبد الغفار.

قال خالي برهوم وهو يربت على كتفي:

ـ دا أبوك جايبلك جوز جلاليب جوخ معتبر يا وله. محدش لبسهم ف الكفر لسه.

شال جدي الطربوش ووضعه على دماغي، ضحكوا فضحكت، قال جدي وهو ينظـر إلي:

ـ طب علي الحرام الخالق الناطق حسن ابني بس من غير شنب.

وضحكوا.. عملوني فرجتهم وموضوعهم في ذلك النهار الدافئ، ولأول مرة أفهم قيمة أن يكون للإنسان أب، رغم كل شيء كنت أشعر أنني أخصه أولا قبل جدي وخالي برهـوم، أجلسني أبي بجانبه ورحت أتطلع في وجهه شارب أسود منسق وذقن حليق وسمرة أقل وجبهة أعرض من جبهة جدي، ولولا نحول خالي برهوم وشحوب وجهه لكان أكثر منه شبها، كانوا قد شرعوا في الحديث عن مصر وناس مصر، عن دكان حلواني في مصر وعن شريك لأبي فيه، حدثنا عن الإنجليز بكراهية فكرهتهم أكثر، قال برهوم:

ـ طب قوم يا صالح أغسل وشك وتعالى.

لما هممت بالوقوف وضع أبي يده في جيب البالطو وأخرج منه نصف ريال فضـة، نظرت إلى جدي محتارا، قال جدي وهو يضحك:

ـ إيه، بتبص لي ليه؟ دا أبوك، يعني تأخذ منه ولا إحم ولا دستور، ويا داخـل بـين البصلة وقشرتها.

قال أبي:

ـ روح اصرفه كله، ما تخليش ولا مليم، ولما يخلص قولي أديك غيره.

أخذت منه نصف الريال بينما يحادثني وخرجت من باب المندرة، دخلت الدار، فكرت أن أداري نصف الريال في مكان أمين، احترت، طلعت إلى السطح، دخلـت قاعـة اللـبن، وضعته تحت الصندرة ثم أخذته، وضعته في الطاقة ثم أخذته، فتحت له بالمنقرة في الأرضية، لففته في قطعة قماش قديمة وردمت عليه، نظرت إلى الأرض فوجدت الأثر ظاهرا، داريتـه بتراب ناعم حتى تأكدت من عدم ظهوره، نزلت وغسلت وجهي بسرعة ومسحت دم ركبتـي براحتي المبلولة، قالت جدتي مبروكة وهي تلحظ لهفتي في الغسيل.

ـ على مهلك يا ضنايا، أهو أبوك افتكر وجه بعد ما بقيت راجل، لا ربى ولا شـال ولا حط.

نظرت إليها غير عارف بماذا أرد عليها، كان واضحا أنها غير مرتاحة لوجود أبـي، في هذه الساعة كرهتها، تمنيت أن تموت، كانت تحادث نفسها بأن أبي لم يأت من أجلي وإنما من أجل شوق بنت عبد الستار شلبي، وإنه لم يفكر في طوال السنوات، قلت لها محاولا تقليـد خالي برهوم في جسارته عندما يحدثها:

ـ ما بلاش دوشة يا ولية.

سمعتها وأنا أتجه ناحية الباب الكبير تقولي " يخيبك " لم أهتم. عند باب المندرة وجدت جلال قلت له بسرعة:

ـ أبويا إداني نص ريال.

ـ إيه، بقى نص ريال بحاله؟ طب قول قرش.

ـ والمصحف الشريف نص ريال.

ـ طب هو فين؟

ـ شلته.

ـ شلته فين؟

ـ وأنت مالك.

تركت جلال غير المصدق وجلست بجانب أبي، كان جدي مبسوطا من أبـي وعلـى خلاف ما كنت أتصور وأسمع في الدار، لم يكن هناك عداء ولا حرب ولا كراهيـة، وكـان خالي برهوم منهمكا مع عمي عبد الغفار في حديث عن الزرع والمحصول.. وأنا سعيد وسط الكل إلى حد لا يطاق.

لما جلسنا معا حول الطبلية وجاء العشاء حرص أبي على إجلاسي بجانبه، كان أبـي يعطيني قطع اللحم بيده، آخذ منه وآكل شاعرا بحلاوتها في فمي، لم يكن مهتما بنفسه بل كان يطعمني بيده، وكأنني كنت آكل من طعام الجنة الذي يصفه الله في المصحف، قال جدي:

ـ كل بقى يا حسن، الولد حيهيفك، حياكل منابك.

أضاف متضاحكا:

ـ دا مفجوع وابن كلب.

قال أبي:

ـ دا الخير كتير قوي، خليه يأكل من إيدي يا با.

قال جدي:

ـ عرفت بقى إن الضنا غالي؟ أهو أنت والمرحوم كنتوا غاليين قوي، بس النصـيب غلاب.

قال أبي وهو يحاول إضحاكهم:

ـ كل يا صالح، تلاقيهم بيجوعوك يا وله.

قلت وأنا أمد إليه يدي بنصيبي:

ـ طب كل أنت بقى منابي.

برفق أعاد نصيبي أمامي وقال لجدي وهو يضحك:

ـ ما تسيبونا ف حالنا بقى، خليني أشبعه من إيدي يا با.

قال جدي:

ـ دانت أهبل، والنبي يا حسن يا بني لو تأكل صالح بإيدك على طول تشبع، والخيـر كثير والحمد لله.

ـ ربنا يسترها، بس حكاية الدكان، لولاه كنت فضلت، دي دار عبد القادر عوف اللي يدخلها يشبع.

ـ دارك يا وله، أنا فاضلي مين غيرك أنت وبرهوم؟

في الليل كانوا يتكلمون عن شوق بنت عبد الستار شلبي، فهمت أن أبي خطبها، قلـت لنفسي ما دام ينوي الزواج من الكفر فسوف يعود وأراه، قال لبرهوم:

ـ وريت صالح الهدوم؟

قام خالي برهوم وجاء بقطعتين قماش صوف ثقيل ناولهم لي قائلا:

ـ حاجة معتبرة يا صالح، تعرف يا حسن أن صالح ختم القرآن وبقى راجل آهه.

كان يضحك وأنا أقلب في القماش مبسوطا، واحدة لونها أخضر غامق والثانية رمادي فاتح، قال لبرهوم:

ـ تفصلهم له عند عبد الرحيم ف البندر، اللي يعوزه يأخذه. بقبطان مجوز، وعـايزك تفصل له جزمة كمان وتهيئه، أوعى يغشك ف الجلد، أجلسيه وزي ما يقولك أدفع يا برهـوم، إنشا الله جنيه.

فرحت، تخيلت نفسي في الجلباب الرصاصي والحذاء قلت بسرعة:

ـ بزراير

قال جدي:

ـ هو إيه اللي بزراير؟

قلت:

ـ عايزها جزمة برقبة وزراير زي بتاعة عطية ابن أبويا السيد.

نظر أبي إلى برهوم باسما وقال:

ـ شفت بقى، برقبة وزراير بتبرق وأحسن كمان من بتاعة عطية.

كنت مسنودا إليه، أشعر بأن كل مطالبي يمكن أن تتحقق، شاعرا بأن وجوده يجعلنـي أكثر قدرة على المطالبة بما أريد، أن يكون الواحد منا مسنودا على أب، شعور جديـد كنـت أعايشه للمرة الأولى في كل عمري، وكان وجهه الباسم المريح يجعلني أطمئن وأرتاح.

في السكة يوم كنا نوصله أنا وخالي برهوم قلت له أنني أريده أن يعود ليعيش معنا في الدار ووافقني، كنت فرحانا والدنيا لا تسعني، كدت أطير من الفرح، قلت وأنا أبتسم له:

ـ والنبي ما تتأخر يا با

ـ حاضر.

أخرج من جيب البالطو الداخلي ورقة مطوية ودسها في يدي، لم أفهم إن كان يداريها من برهوم أم أنه أعطاها لي هكذا غمزا ليكون بيني وبينه سرا يجهله الكـل حتـى برهـوم، وضعتها في جيبي كلص يداري غنيمة وأنا أراقب خالي برهوم بطرف عيني خائفا أن ينكشف السر، نظرت إليه بامتنان وحب ولم أتكلم، جاء القطار وحملنا له الزوادة، وضـعناها علـى الرف، قبل أن يصفر القطار أخذني في أحضانه وطبع على خدي قبلة ووصى برهـوم علـى العناية بي وأن يسرع بتفصيل الحذاء والجلبابين، نزلنا بعدما صفر القطار ولوحنا له بأيدينا.. كنت أرمح بينما القطار يتحرك فمنعني برهوم خوفا علي وظللت أنظر إليه حتى غاب القطار نفسه وتاه في فراغ الأرض المزروعة ناحية شبين.

لما دخلنا الدار أسرعت إلى بيت " الأدب "، كنت متعجلا أن أعرف ما أعطـاه لـي وأعبث بالورقة طوال السكة، عندما أخرجتها وجدتها نصف جنيه جديد، طلعت بسرعة راغبا في إعلان الخبر. وجدت جدي في مواجهتي قلت بفرح:

ـ شفت يا سيد أبويا إداني إيه؟

أخذه وراح يتأمله مبتسما وقال:

ـ ياه نص جنيه بحاله، طب خليه معايا وابقى خده ف العيد.

كنت لا أهتم ساعتها بالمبلغ، كنت أريد أن آخذه وأفرج عليه جلال وعطية والصبيان أمثالي في كل الكفر، إنما خفت أن أقول لجدي ذلك، كرهت نفسي ساعتها، إنما تذكرت نصف الريال فانزاح نصف الغم، وقلت لنفسي أن العيد آن وإن أبي سوف يعود هـو أيضـا، وأنـه سوف يعطيني ما أريد فسرت غير مهتم حالما بالعيد وبأبي.

كانت الأيام تتوالى وأسأل عن موعد عودته فيقول برهوم الغائب حجته معـه، وأنـه سوف يأتي في الأيام التالية، إنما الأيام كانت تتوالى بطيئة، والأسابيع تتكاثر دون أن يبعـث حتى رسالة ولما جاء ونظرت إليه لائما وجدته لم يفهم نظرتي وظل يحدثني وهو ذاهل عني، نسى حتى أن يبارك لي على الجلباب الجديد أو الحذاء ذو الرقبة الذي حرصت علـى إبقائـه ليوم عودته. حتى لما طلب منه جدي أن ينتظر لتناول الغذاء رفض ونظر في سـاعة جيبـه وخرج قبل أن نتبادل إلا حديثا قصيرا، قالت جدتي مبروكة:

ـ هو كان جاي لنا ولا إيه؟ دا جاي لجل بنت عبد الستار يا ضنايا.

قال جدي:

ـ عقبال برهوم، يا وليه اتهدي واسكتي.

قالت هي:

ـ طب حتى كان يراضي العيل الصغير، هي حاتطير يا عبد القادر، قال علـى رأي المثل، من لقى أحبابه نسى أصحابه، معلشي يا بن بنتي ربنا يتولاك.

في الفرح كنت تائها، كنت مغلولا من كل الناس، من شوق وأمها وأبي وجدي عبـد القادر الذي بدا فرحانا أكثر مما كنت أتصور، لم يلتفت هو إلي بل كان ينظر إلى شوق، فـي الزفة من دارهم حتى دارنا كنت عاجزا عن رؤيته، وبعد الدخلة أغلقوا عليهما باب المنـدرة ولم أره إلا في اليوم السادس عندما خرج معها إلى باب العربة المخصوص التي جاءت عنـد الباب لتوصلهم إلى مصر، وكانت شوق حلوة بشكل لا يدعو إلى الاطمئنان إلى فكرة عودته، لو كنت مكانه لظللت في مصر دون أن أفكر في العودة إلى الكفر، ساعتها فقدت ما تبقى لـي من أمل في عودته إلى الدار أو حتى مجرد زيارته لنا أو الاهتمام بـأموري ولا أدري لمـاذا خطر في خيالي أن أفتح المصحف وأقرأ سورة مريم من أولها لآخرها في ذلك المساء.

الناس لها الحاضر ، ها هم أولاد شلبي يترصصـون علـى المصـاطب بجلابيـبهم الكشمير ورءوسهم العارية، عمد وأولاد عمد، أخذوا منا العمودية وخلعوا رءوسهم وداروا في الكفر على هواهم، وشاكر شلبي عمل مصطبة جنب دكانه ولم حوله الشبان من أهله، ورثـوا الجسارة بالقرش ونسوا الأصول، دكانهم مفتوح في وش البوابة وكأنه شوكة مدفوسة في نـن

عيون أولاد عوف، نسوا حكايتهم القديمة، نسوا جدهم الكبير الذي دخل الكفر حاملا خرجـه على ظهره متلمسا في الكفر من يشتري منه ربع تمر أو بقرش خروب، ها هو شاكر يجلـس بجلبابه المغسول المزهر والمكوي ورأسه العاري يلمع بـدهان شـعر كالبنـت القارحـة.. يتبصصون علينا وينهشون بالعيون لحمنا وبالألسن، لو كان حيـا لطـردهم ولعـن سنسـفيل جدودهم وسألهم عمن ورثهم الجسارة ليجلسوا عند بوابة جماعة عوف، لو كان الرجال الكبار ظلوا لخرجوا عليهم بالشماريخ وشتتوهم في دروب الكفر كما كانوا يفعلون، إنما من يسـندني لأعملها معهم، والعمدة منهم ولديه في الدوار طابور خفر تحت الأمر ورهن الإشارة. ولهـم حق.. فمن تبقى من جماعة عوف؟ شعبان الذي يشارك الدكتور بطرس ويعيش على الهامش، أم محمود الأهبل الذي تعلم في المدارس ووظفوه لكنه أهبل جعله التلاميذ مسـخة يضـحكون عليها كلما مر أمامهم " بالبيجاما " الباهتة، وغانم المرابي الذي تبرأنا منه، والجالس على باب داره ينتظر من تأتي إليه بحلة نحاس أو بطشت ليساومها على الفائدة، والذي لا يخجـل مـن نفسه ويظل طوال النهار يعاير خلق الله بكل معايبهم ويسرد عليهم كل مخازيهم غير شـاعر بأن وجوده نفسه عار وخزي لا يدانيه عار ولا خزي، ولطفي الأعرج الذي برع في السمسرة وخراب البيوت، يعرف البائع ويعرف الراغبين في الشراء، يخدع الكل ويتوسط مقابل عمولة مزدوجة ويزن على دماغ أصحاب الأرض ليبيعوها في سبيل العمولة، كل هؤلاء ينتمون إلى جماعة عوف، والرجال الذين يعتمد النفر عليهم قلة وسط كثرة تائهة في مشكلاتها الخاصـة، هل هو الزمن الخسيس أم أنه غيم سوف ينزاح كما انزاحت من قبله غيوم.

وعندما قال سلومة ما قاله لم أسكت، دفست بوزه في طين المروة، كـان يحـاول أن يعمل فصيحا بلا لزوم، ساق الهبالة على الشيطنة وعلق جاموسته في الطمبوشة وهو يعـرف أنني آت لأسقى، جاء بالولدين يحتمي فيهما حاسبا أنني سوف أسكت، قلت له في البدء: حـل الجاموسة يا سلومة فلم يعجبه الكلام، قال كلاما لم أبلعه قال أنني غشيم وأنه سـوف يسـقي قبلي، قلت له عيب فلم يعجبه الكلام، قال: كل واحد يشوف روحه، قلت لنفسي أنني لو سـكت له فسوف يستمر، ربما يذكرني بما جرى لسيد وبحالة أبي لإذلالي. هذا الصـنف يخـاف ولا يستحي، تذكرت ما كان قد قاله عند البوابة عن جدي عبد القادر: كان غشيم، صحيح أنني لما سألته أنكر إنما لم أصدقه، قلت لنفسي أيضا، أنت مجروح الآن يا صالح ولو سـكت للكفـر يركبوك ويهزوا سيقانهم، مسكته من خناقه ودفست بوزه في طين المروة، كان هزيلا في يدي وكأنه فرخ "بربر" نظرت إلى الولدين الآخرين فدلدلوا آذانهما ولم يتكلم أحد، تركتـه يمسـح "الروبة" عن وجهه وشخطت في الولدين طالبا منهما الابتعاد. استدارا فـي صـمت الخـائف وحياد الجبان، كأنهما كلبين أجربين غريبين، لما وجد نفسه وحيدا جلس كحرمـة منكسـرة، شكله أضحكني فضحكت، لما شاف ضحكتي ترف على شفتي تجرأ وقال:

ـ ربنا يهدك يا صالح، أنا كنت بهزر معاك.

قلب وأنا أحل جاموسته وأعلق الثور مكانها:

ـ النوبة الجاية حتفطس في إيدي، وإن كنت جدع إبقى هات رجالة يحموك.

ـ عيب يا صالح داحنا ولاد عم.

ـ ما بقيش إلا أنت يا بن المراكيب تتنقور علي؟

ـ داحنا قرايب.

ـ قرابة مهببة وجيرة زي عدمها. أشوف روحي دا إيه؟

ـ كنت بضحك وياك.

ـ تضحك ولا عايز تضحك علي ولا شلبي يا نتن؟

تركته قائلا لنفسي إنه لن يفوتها بسلام، أعرف أنه سوف يدبر أمـره، هـذا النـوع يتمسكن عندما يحس بالهزيمة، ربما يفكر في الاستعانة بأحد ويترصدني، فكرت في ضرورة الاحتفاظ بسلاح في "الخارجة" احتياط وسرت في اتجاه "الحوال" لأحول مجرى الميـاه إلـى أرضي. "العنف سيد الأخلاق في كفر عسكر، لو أعرف من قتل سيد لمسـحت عـاره هـذه الساعة ولتنقطع كل الألسنة من عند اللغاوغ وليسكت ولد مثل سلومة، ينخرس لسانه ولا يجرؤ أن يقول ما قاله" كل واحد يشوف روحه "آه يا ابن الخنازير. هكذا مرة واحـدة: كـل واحـد يشوف روحه؟ كأنني أصبحت معيرة تنصبون القعدة على حسي، تعملوني لبانة فـي الأفـواه التي تساوي والتي لا تساوي، كأنكم ظللتم تبحثون عن جرح تعايرونا به حتى تنتظرون لحظة الشماتة فينا، أصبحنا سيرة في كفر عسكر، فرعك يا عبد القادر يا عوف لا يواجـه أغـراب الكفر وإنما يواجه أيضا كل فروع جماعة عوف، كانت الطمبوشة تـدور وصـوتها يزغـرد ويغيظ سلومة " العنف سيد الأخلاق يا كفر عسكر، لن يكون هناك حلم بعد ما جـرى لنـا"، لمحت محمد آت من بعيد، قلت لسلومة:

ـ فز طس وشك بشوية ميه أحسن محمد لو شافك يعرف يا بن تفيدة، وابقى لم لسانك اللي عامل زي الفرقلة.

قام سلومة وغسل وجهه من التركيب وجلس، كان محمد قد وصل، قال وهـو يخلـع الجلباب:

ـ أنا نازل الأرض أسقيها يا با.

قلت:

ـ متخليك أنت وأنزل أنا.

لكنه كان قد نزل، تأملته وفرحت بصباه وجرأته، ينتقل في خفة عصفور ويفتح السدود الصغيرة ليسمح لمياه الرية بالوصول إلى كل الأرض، قلت لروحي أن هذا الولد من صـلبي. شاطر بحق ولا يهاب، من نسلنا بحق، قلت لسلومة:

ـ وكنت ساحب ولاد عثمان شلبي حماية؟

ـ بلا كلام فاضي، يعني مش لاقي إلا ولاد شلبي أتحامى فيهم، أنت اللي مستقل بي، عاملني مسخة وناسي القرابة، داحنا ولاد عم يا صالح، كنت أحسبك تبقى معايا مش علي.

ـ يعني أنت اللي فاكرها، أشوف روحي دا إيه؟ وقصاد ولاد شلبي كمان.

ـ لك حق يا صالح، أنت الكبير برضه وعيب الواحد يقيم عينه فيك.

ـ طب يا سلومة، خلاص، صافي يا لبن، قوم بقى ساعد محمد، واللي فات مات.

قام وقد انزاح عن وجهه الكدر وذعر لحظة العراك وبدأ يتحدث مـع محمـد فقلـت لنفسي أنني أتسرع أحيانا في تصرفاتي إنما ربما كان ذلك بسبب ما أعانيه من مشـاكل بعـد موت سيد لدرجة أنني بدأت أشك في كل الناس ولا أميز العدو من الحبيـب. ولمـا ركنـت دماغي على فرع التوتة غفلت مدة حتى صحاني صوت سلومة:

ـ صالح.. اصحى.

وقمت، كان يبتسم وكأن شيئا لم يحدث ومحمد جاء يغسل نفسه ويلبس الجلباب، قلـت لسلومة:

ـ بعد ما تسقي ابقى تعالى حدا أبوك إبراهيم، أهو نسهر هناك الليلة.

ابتسم سلومة وقال:

ـ أي والله من زمان وحشاني حواديته.

تركته وركبت الحمار وسحب محمد الثور والجاموسة والعجلين وعدنا إلى الدار.. بعد العشاء خرج محمد، سحب نفسه كعادته وخرج، فكرت في أخذ أبي معي إلى دار الجد إبراهيم إنما وجدته تائها في ملكوت الله، قلت لنفسي أذهب وحدي حتى لا تتحول السهراية إلى مندبة، الجد إبراهيم لا يكف عن الثرثرة في الأمور الفارغة لكن الليلة تفوت، لو أخذت أبـي معـي لحول الجلسة إلى كلام مسنون وجارح، خرجت في اتجاه دار الجد إبراهيم، عند البوابة كـان الولد محمد واقفا وسط جماعة من الشبان، عوده الممتلئ عنهم وصوته الآمر وسطهم وثبـات حركاته ذكرني ببرهوم أيام صباه، خفت عليه من العيون، قلت له عارفا أنه لن يسمع الكـلام وإن كان يهاودني:

ـ روح يا وله بدل اللطعة دي.

ـ طيب.

قالها وهو ينظر إلي غير مرتاح للأمر، يعرف أنني غير جاد في مثل هذا الطلب وأنه لن يستجيب، عادة يسهر مع أصحابه إلى ما بعد السهرة بمدة، أحيانا يـأتي فـي وش الفجـر ويخبط على شباك المندرة وكأنه يود أن يجعلني أراه بنفسي وأفتح له بنفسي، على أيامي كنت أهوى السهر مثله إنما كنت لا أجرؤ على إظهار ذلك، كان خوفي من جدي عبد القادر يجعلني أتسلل خفية، أطلع إلى " المقعد " وأتظاهر النوم ثم أتسلل على سطح الحاجة مسعدة ومنه إلـى جدارها المهدوم إلى " العليوة " إلى شارع ضيق أنفذ منه إلى البوابة وفي طريق العودة كنـت أتخوف أن يراني أو يسمع صوتي، كنت أتعلق على الكتلة البارزة أو ألف من ناحية "العليوة"، إنما لم يخطر ببالي أن أخبط على شباك المندرة مثلما يفعل محمد معي، له حق محمد لأننـي مهما فعلت معه فلن أكون قاسيا مثلما كان جدي، على العموم أنا كنت ابن ابنه الذي لم يرض عليه.

قال الجد إبراهيم وهو يصب شايه الأسود في الأكواب:

وكان سيدكم الحاج مصطفى عوف عمدة بحق وحقيقي، دواره مفتوح للغريـب قبـل القريب، طوال شهر رمضان الدبايح تندبح على بابه واحنا ناف على الخلق أنا وإخواتي، عبد القادر وعلي ومحمد وعبد الغفار ندي كل حي كوم، كنت لما أطهق م الشيلة أرمي اللحمة ف الترعة أو أحطها عند نفر من الأنفار وأرجع قبل الكل، أقول لروحي أن الرجل ده أهبل لمـا يدوخ عياله لجل شوية تملية ومقاطيع.

يضحكون، يقولون إنه لم يغلبه غلاب، قادر على تخليص نفسـه مـن أي إشـكال أو مسئولية بنكتة أو بعمل غير محسوب، قال ابنه عبد العزيز مرة أنه طلب "عباية" لزوم العيـد ولما اعتبروها نكتة ولم يهتموا باعتبار أنه رجل كبير ولا يجوز أنه يهتم بالعيد، وجدوه يـأتي إليهم لابسا العباءة ويدخل الدار مختالا بنفسه فضحكوا لكنه داوم في أيام العيد علـى إحكـام عمامته وليس العباءة وأنهم لما سألوه عن مصدرها أفهمهم أنه رهن فدانا من أرض "المعرج" يقول عبد العزيز عنه: باستسلام سكتنا أنا وأخي والأولاد ثم تجاسرت وسألته:

ـ إزاي بس يا با تعمل كدة؟

وإنه رد بحماس مدافعا عن نفسه:

ـ ما قلت لكم يا خنازير محدش جاوبني، كنتوا عيازيني أعيد بهدوم قديمة؟

وأنه من بعد ذلك اليوم داوم عبد العزيز على الاهتمام بمطالب الرجل، يقـول تعقيبـا على هذه الرواية عندما تثار:

ـ طب وإيه يعني، علي النعمة أبويا باع خمسة فدادين على رأس غيط "المدار" برطل حلاوة طحينية.

نتظاهر بعدم التصديق فيخرج المصحف الذي يحتفظ به في جيب صداره ويحلف ثـم يضحك منتشيا بإسكاتنا حتى تدمع عيناه ويعقب:

ـ أصل زمان الأرض كانت كتير والناس قليلة، كان الكفر زمامه كبير على اللي فيه، كان خير كتير ولا كانش حد يعرف الطمع زي أيامكم الغبرة.

أقول لنفسي إن هذا العجوز الذي تعدى سنواته المئة بأكثر من عشرين سنة، عاش في خير وإلا لما احتفظ بكل هذا النشاط والصحة والوعي، وأن أبي الذي يعتبر أصغر من عبـد العزيز ابنه فقد قدرته على التمييز، ربما لأن الجد إبراهيم ظل يرتع في خير الكفر ولم يتـرك الأرض، ظل سيدا لأرضه وعبدا لها في آن واحد، ربما لسبب إحساسـه بالأمـان لـم يفقـد نشاطه، وأنه بالحتم لا بد بسبب وجوده في الأرض ما زال يعيش، يضحكون على عبارة قالها ثم أجده يحلف مرة أخرى بالمصحف فأفهم أنهم جرجروه للحديث، أنه انفتح وسوف يسترسل، ما دام يحس أنه محط ريبة فيما يقول لا يكف عن سرد الحكايات القديمة محاولا أن يدلل بكل حكاية على صدق ما سبق أن قاله وسوف يستمر هكذا حتـى يجـد لـدى الأولاد والأحفـاد همهمات استحسان وتصديق.

ـ طب علي الحرام من ديني، أبويا الله يرحمه قال لي أنه اشترى عشرين فدان بـور من واحد تركي بزعبوط فل وبردعة نص عمر، وبعيني دي اللي ح يأكلها الدود شايفه بيبيع غيط بحاله بشوال تمر، ومرة كنت وياه في السوق شفته بيأخذ حق جوز تيران تقولـوا كـام؟ قمع سكر وشرف النبي.

يشعر أنهم ما زالوا في مرحلة عدم التصديق، والضحكات علـى الأفـواه مبسـوطة لإمكانية استرسال الرجل، يسترسل:

حا نروح بعيد ليه، أنا واخد المصحف ده من راجل مغربي تقولـوا بإيـه؟ بزرعـة برتقان بلدي، كانت الجنينة تيجي تسعة فدادين، وده جه فات علي وقاللي اقـرأ لـك الكتـاب بحجر برتقان، قلت طيب، قعد يقرأ، بابص للمصحف وعايز أشوف جواه إيه؟ قفله وبص لي وقاللي: أنت عايز تطفش العفريت؟ ببص على العفريت حاشني، قاللي إنه مصحف مخصوص للمغرابة اللي بيقروا الكتاب، ولو خدته منه يبقى بتاعي وأقدر أقرأ لأيها واحد، يعنـي أقـرأ الأول آية الكرسي وأفتحه يطلع لي ملاك أبيض يشاور ع الكلام المكتوب وأقرأه وبس، وقاللي إنه تعب م اللف وعايز يرتاح، الغرض مرضيش يديني المصحف أبدا إلا لما حمـل زرعـة البرتقان على جمال مغربي وحلفني ما فتحش المصحف إلا بعد العشا عشان المـلاك يصـلي المغرب أحسن حرام، وبعد العشا بفتح المصحف لا لقيت ملاك ولا جن ولا كلام بيضوي زي الرجل ما قال، أبويا سألني ع اللي حصل وريته المصحف وقلت الحكاية ضحك لمـا فطـس

على روحه وقال لي دا مش بني آدم، دا يمكن جبريل عليه السلام وجالك ووصـاني أحـافظ على المصحف لأنه جاي من عند ربنا وشويه فيه كنوز الدنيا كلها.

ضحكوا عليه فاغتاظ أو تظاهر بأنه اغتاظ منهم وأوشك أن يحاف على مصحفه لـولا أنهم منعوه وسأله عبد العزيز عن سر اهتمام جبريل به دون خلق الله فيقول:

ـ حاكم احنا نسل طاهر، فينا شيء لله، قلبنا تلاقيه أبـيض زي الحليـب وضـميرنا خالص ونصدق كل حاجة، ما هو إحنا من نسل الحسين بن علي عليه السلام.

انظر إلى عينيه الواعيتين فأحسده وأكره شعرة الهبل فيه، أتذكر جدي عبد القادر الذي كان يحكي عما كان يجري في أيامه مؤكدا أن الجد إبراهيم كان عبيطا رغم أنه كان أكبرهم، ويؤكد أيضا أن الجد مصطفى أبوهم كان مزواجا مطلاقا وأنه أنفـق نصـف أملاكـه علـى الحريم، حتى لما باع أرضه برطل الحلاوة أو قمع السكر كان في سبيل امرأة نالها ودفع مـن أرضه الثمن، كان جدي عبد القادر أنصحهم وأقواهم ولو كان أكبرهم ما تبددت أرضنا، كلامه صادق ومضمون كالجنيه الذهب، أما الجد إبراهيم فهو مهزار وهلاس وله مع الحريم فضائح ونوادر لا تحصى، يحكي وهو يلتفت ناحية سلومة الساكت:

ـ كنت فاتح قهوة مطرح الدكان اللي على البوابة وجايب واحد بربابة يقـول للخلـق سيرة أبو زيد وكان وياه ثلاثة رقاصين من سنباط الواحدة تقول للبدر قوم وأنا أقعد مطرحك.

يقاطعه عبد العزيز متعابثا:

ـ كانوا بيرقدوا فين يا با؟

يرتبك ويزوم ثم يقول محتدا.

ـ ياك لسه مصدق المرحومة أمك؟ كانوا بيرقدوا ف القهوة بعد ما أسكها عليهم.

يتجاسر عبد الونيس ويقول وفي صوته نبرات الراغب في الإغاظة:

ـ سمعت يا با إبراهيم من كام سنة لكن مش مصدق.

يحس الرجل أنه سيصبح محط للهجوم فيكشر ويلوي بوزه ويدفع عن نفسه قائلا بثقـة الكبار:

ـ سمعت إيه يا ابن المراكيب أنت راخر؟

ـ قال بيقولوا إنهم ظبطوك مع هانم بنت مقادية في قاعة التبن من سنتين.

يقول وهو منفعل بحق:

ـ بقى من سننتين يا بن ستين كلب، دي الحكاية دي من سن عبد العزيز ابني.

يضحكون فأضحك لأن هانم نفسها في دور أولاد أولاد عبد العزيز، ربما كانت مقادية من دور عبد العزيز، هانم مفضوحة وسيرتها في الكفر معروفة وليس من البعيـد أن تكـون ضحكت على الرجل من أجل غرض، إنما يقولون أنهم ضبطوها معه فعلا وكانت عارية كما

ولدتها أمها، يحس الجالسون أن الجو سوف يتوتر وأن الجد إبراهيم سوف يستاء من مجلسـنا فيحاول عبد الونيس إصلاح الحال.

ـ وهو حد يصدق الكلام ده يا با إبراهيم برضه؟

ـ ربنا ينكد عليك يا عبد الونيس يا بن أبو العنين.

يسود الصمت إلا من كركرة الجوزة في صمت المندرة وتزايد سحب الدخان الأزرق، تعميرة هذا المساء أفضل من سواها، جابها عبد الونيس من درويش الأعور، أشعر أنها أحسن أجدني أبدأ في الضحك، تنزاح كل المتاعب وأضحك، يقول سلومة وهو يصفق بيديه فرحا:

ـ صلوا على حضرة النبي المختار: السهرة احلوت.

ينظر إليه الجد إبراهيم شاعرا أنه لفت الأنظار إليه وترك الرجل الكبير ساكتا يشـرع في الحديث:

ـ على صحوي بقى كان سيد بيبني الدوار اللي ع البوابة. كـان واقـف والرجالـة بتفحت الأساس، قام واحد عبد كان اسمه بشير لقى زلعة سليمة بيقول لسيدي قاله:

ـ كسرها يا وله وارميها ما حناش ناقصين زلع، العبد طلعها سليمة وجه يشيلها لقاها ثقيلة، بيفتحها لقى فيها كنز، جنيهات ذهب بندقي من بتاع زمان، يمصمصون الشـفاه وفـي خيال الواحد منهم جنيه بندقي واحد، يقول سلومة:

ـ يا خويا هديت وبنيت لا لقيت ذهب ولا فضة، ولا قرش أبيض يوحد الله.

قال الجد إبراهيم:

ـ هو اللي زيك يا أرشل يلاقي حاجة، الكنوز دي لناس ناس، طب أبويا ما ضـحك عليه راجل مغربي ست سنين، يقوله فيه كنز في دار العيلة، فضل يعزم ويقرأ ويكتب ويقول هدوا الجدار ده نهده هدوا الجدار ده نهده لما خرب الدنيا والآخر قال أن حارس الكنز زعلان ومش ناوي يفك عنه إلا بعد خمسين سنة، اللي يحسب يلاقيهم فاتوا، يعني أكيد ف دار العيلة كنز بس ينفتح لواحد وشه سمح مش زيك يا سلومة كدة.

نضحك على وجه سلومة المستطيل والذي غاصت فيه حفر الزمن الصعب وجعلتـه يبدو أكبر من عمره، الهم تحت الضحكة العصبية المصنوعة والتي يشدها اغتصابا من داخله ويرسمها بينما العينان تقسمان أنه مهموم بعبء أيامه وإن كان لا يبوح بما عنـده عنـادا أو ضعفا أو قدرة، لكننا برغم كل شيء نضحك، نغتصب الضحكات ونفرشها على الوجوه لتحلو السهرة وكأننا نحرص على أن يكون ثمن قطعة الحشيش لم يضع منا في الهواء بلا مقابل.

يسود الصمت بيننا، يعود كل واحد إلى نفسه، يتفكر أحواله، يمصمص الجد إبـراهيم شفتيه ربما سخرية من أحوالنا، يحكي للمرة الألف حكاية العب المسحور الذي اشتراه جـدنا الكبير، يعرف أنا حفظنا الحكاية لكنه لا يود أن يكف عن تكرارها، هذا هو طبعه، كل حكاياته

محفوظة إنما يشعر الواحد في كل مرة أنه يسمع حكاية جديدة، يصوغ الحكايات بطرق عديدة، عن العبد المسحور يحوم بالكلمات.

ـ وكان سوق الثلاث مشهور بالخيل، أحسنها مهرة بعشرين جنيه، كـان سـيدي الله ينور قبره غاوي، ولما شاف الحصان لبد جنبه، تقولش مسمروه، أنا كنت عيل وفرحان اللـي رايح معاه السوق، الغرض، كان حصان أبيض وزي القشطة، ما فيهش شعرة سودة، تقـولش البراق النبوي، اشتراه ورجع فرحان زي اللي لاقى لقيه، وثاني يـوم بعـت بشـير يسـحبه ويسرجه لقى مطرح الحصان عبد أسود غطيس مربوط في المربط من رجله وواقف يتلفـت حواليه، يومها جه سيدي وبص له لقاه بيرطن بربري، مفهمش حاجة منه، قال لنا يا ولاد دا تلاقيه عبد مسحور من بلاد بعيدة، فضل ف الدوار يومين ولقيناه بينطق بالعربي، سيدي قـال سيبوه على راحته، سبناه غطس ما بنش، خرج م البلد ولا شفناش وشه بعدها، قالنا سيدي أنه ملك من ملوك الجان، وصلي على النبي.

ونشعر بقشعريرة رغم أن الخوف لا يناسب أعمارنا، أوشك أن أصدق أنه حدث مـا قاله الجد إبراهيم وإن دارنا فيها جن مسحور ما زال يلحظ حركاتنا ويترصدنا، يحلو للعجـوز أن يسترسل في حكاياته عن الجن والمردة وعروس البحر التي طلعت له وكادت أن تخطفـه، عن جمالها الفتان الذي سحره، عن لحظة الاختيار الحائر التي واجهها بين مملكة البحر كلهـا وحياة الأرض، أكذبه بيني وبين نفسي إنما لا أفكر في معارضته راغبا في أن يكف عن ذكر هذه الحكايات، يسترسل في حكاياته عن شياطين الليل:

ـ مرة وأنا ماشي ف الليل قرب الفجر جنب جدار زاوية عوف لقيت أرانب صغيرة بترمح، لونها أبيض على أسود كدة، كانوا صغيرين وحلوين والقمرة ضهر، قلت آخذهم وأبقى أديهم لأصحابهم بعد الصلاة، خدتهم في حجري ومشيت، وقبل ما حصل باب الزاوية لقيـت جحش ماشي من غير بردعة، عمال يعلى ويوطى، يعلى ويوطى، قلت ده عفريت بيسـتعبط، قلتله: اتشطر على اللي قتلك بصيت ما لقيتوش وعلى باب الزاوية لقيت جدع واقف باحقق منه وأنا فرحان وبقوله قال يا خويا الجحش طالع يخوفني، رد علي وقال: جحش إيه يـا جحـش وفص ملح وداب، من يومها طلعوا علي قولة إبراهيم الجحش.

يسأله عبد العزيز وكأنه يساعده في إكمال الحدوتة:

ـ والأرانب يا با.

ـ ما نا جاي لك أهه، أنا ربك والحق خفت، لسة داخل من باب الزاوية وبـبص ف حجري لقيت انصاص قوالب طوب أخضر، قلت يا بركة سيدنا النبي ورميت الطوب وسمعت صوت الشيخ سليمان بيقول الله أكبر.

يكف عن الحديث، أحس بالضيق من المجلس، أقوم قائلا لنفسـي أن النـوم أفضـل، أبحث عن مداسي التائه وسط زحمة المندرة بينما يضحكون فأشك في أنني أقـوم بحركـات مضحكة فلا أملك إلا أن أنفتح في الضحك بلا توقف وعندما ينتهي الضحك يمد الجد إبراهيم يده بفردة المداس ويقدم إلي عبد العزيز الفردة الأخرى مؤكدين أنني مسطول.

قال الولد من جماعة شلبي لما عاركته:

ـ متفرعن على إيه، دا نت بتشتغل "تمللي" بلقمتك.

عندما نظرت إلى حالي يومها تأكدت من صدق الولد، عرفت أنهم عملـوني عبـرة وأنني لا أختلف عن أي " تمللي " في الكفر، صحيح أنني أشتغل في غيطنا كما قلت للولد ابن شلبي، وصحيح أنها أرض جدي وخالي، إنما هل هذا يكفي، أن أصبح في الـدار آخـر مـن يعملوا حسابه، كنت في البداية صبيا لا أدرك إنما حتى لما أصبحت رجلا في مثل طول جدي وأعرض من برهوم لم يصبح لي أي رأي في أي شيء، برهوم الجالس دائما على مصـطبة من مصاطب البوابة، ووجهه الشاحب يعلن لكل من يراه ضعفه يأتي إلى الدار، يأمر وينهـي في غيبة جدي، وجدي كلماته أوامر هو الآخر، قلت لروحي: أنت غريب يـا ولـد ومهمـا اشتغلت فلن يلتفتوا إليك لن تلتفت أنظارهم إلى وجودك، فكرت أن أطالبهم بتزويجي من باب إشعارهم بأنني موجود لكن الفكرة لم تعجبني لأنني أصلا لا أفكر بجدية في الـزواج، ممكـن طبعا أن يزوجوني ولن يكلفهم الأمر الشيء الكثير، وتبطل حجتي، إنما كانـت عينـي علـى الأرض، على الأقل جزء الأرض الذي يخصني، ما تركته أمي ونصيب أبي فيهـا، فكـرت كثيرا وبحثت عن سبب لعمل معركة أغضب بعدها وأترك لهم الدار في انتظار حـل، كـان برهوم في وسط الدار وأنا راجع بالجمل والحمار، قلت له دون أن أنظر إليه:

ـ حمل النقلة دي يا خال.

كأنه لم يسمع لأنه لم يرد، كررت طلبي فقال وهو يتفحصني مليا.

ـ حملها واتكل على الله بعيد عني يا وله، أنا فايقلك؟

قلت وأنا أقصد إثارته أكثر:

ـ يعني أنت على إيدك الحنة، قاعد تبص لي يا خال ولا حتى بتساعد في الغـيط ولا في الدار؟

ـ طب علي الحرام مانا عامل حاجة ف نهاري يا صالح، أنت ح تشغلني يا وله؟

ـ حرام دا إيه، شاطر بس تحلف لي بالحرام والحلال، طب والمصحف ما أنا سارح بعد النهاردة إلا رجلي على رجلك لهي الدار دي دارك لوحدك واحنا مالناش فيها؟

كان برهوم مهدودا بفعل المرض، كان وجهه الأصفر يزداد شحوبا وجسـده يـزداد نحولا، في هذه اللحظة نظر إلي وكأنه فوجئ بي هكذا في مثل طوله وأكثر منه قوة، مد يـده

وأخذا عصاه المعووجة من جنبه وناولني بها فوق كتفي فأمسكته من طوق جلبابه وصـوت النسوة، وجاء رجال ليفصلوا بيننا، كان هو ينهج منفعلا ومحموما بالمفاجأة وكنت أجلس فـي مواجهته في وضع استفزازي جعله لا يكف عن السباب المتلاحق لي ولأمي ولأبي مسـتكثرا على نفسه أن أمسكه وكأنه صعق بما جرى، لما جاء جدي وسأل برهوم عما جرى لم يـتكلم، أشاح بيده ثم قام تاركا الدار، قلت أنه سوف يسألني فأدافع عن نفسي لكنـه سـأل مبروكـة، عرفت ساعتها أن حبها لبرهوم يمكن أن يجعلها تكذب وتكذب وتضيف ما لم يحدث لتؤكد لـه خطئي، لو كنت مكان جدي لصدقت كذبها المحبوك الذي كانت بارعة في اختلاقه وكل لحظة تقرر أنني هجمت عليه وخنقته بيدي وهو يخلص نفسه قائلا: عيب يا صالح روحي طلعت.

ـ الواد يا عبد القادر زي الشحط ولا حدش كاسره، دا كان حيصور لنا قتيل النهاردة.

والتفت إلي الرجل، لم يبد عليه أنه صدق أكاذيب مبروكة، وقف قبالتي ورفت علـى ثغره نصف ابتسامة، لم يسأل ولم يتح لي فرصة للكلام، كانت يداه خاليتين ونصف الابتسامة تشرع في أن تكون أكثر اتساعا، لكنني لم أر غير نصف ابتسامة لأنني سقطت من طولي، لم أدر ما يدور حولي، دارت الدنيا بي ودارت، حاولت أن أتشبث بالأرض فمادت بـي وكـأن رأسي يخبطها رغما عني، لم أكن في صحوي تماما ولم أكن غائبا عن كل الوعي، كنت بين بين، سمعت أصواتا ولمحت برهوم وعمي عبد الغفار وآخرين يمنعون جدي مـن الوصـول إلي، جاءني جلال والشيخ عطية وساعداني على الوقوف، رأيته رغم الحصار يفـتح لنفسـه طريقا وسط الأجساد المرصوصة بيني وبينه، في هذه المرة كانت في يمينه العصـا، سـمعته يجعر بصوته ويغطي على صوات مبروكة:

ـ بقى يا خايب يا بن الخايب عايز تخنق خالك، عايز تقتله وأنا لسة على وش الدنيا، طب علي الحرام ما أنت بايت في الدار.

كنت أود فقط أن أنفذ من الموقف بالخروج حيا، خفت أن يضربني بعصاه فينتهي كل شيء، ساعدني الشيخ عطية على الانفلات من باب الدار وأخذوني عندهم.

قال الجد إبراهيم:

ـ يخيبك، بقى عايز تخنق برهوم ويأخذوك قصاده؟

قال الشيخ عطية أنه من الأفضل أن يتركوني وحدي لأهدأ، حامدا لله لأن كف جـدي لم يطل أذني وإلا لقتلني، بعد ذلك قلت له كل شيء، عن أرض أمي التي كتبوها باسم برهوم، عن أرض جدي التي آلت إلى برهوم حارمين أبي من حقه فيها، عن شغلي في الدار كواحـد من الأنفار وبرهوم مرتاح وجدي يأمر فقط ولا يمد يده في شيء فسكت الشيخ عطية وسألني عن مطالبي فقلت بسرعة:

ـ يكتبوا لي الفدانين بتوع أمي ويجوزوني وأنا أشيلهم على رأسي من فوق.

وسكت الشيخ عطية لكن الجد إبراهيم قال ساخرا:

ـ يجوزوك دا إيه؟ برهوم أكبر منك بكام سنة ولسة.

قلت لنفسي أن برهوم معلول وخائب ولا يصح زواجه إلا بعد أن يسترد عافيته، لـو كان برهوم في صحته لضربني، ولو كنت ضربته ما تحمل الضرب، في دارنا يكون العنـف سيد الأخلاق، بالعنف سيطر جدي على الدار ودرب عوف بأسره، وبالعنف خـوف جماعـة شلبي، لو ظللت ساكتا على حقوقي لأكلوني لحما ورمـوني عظمـا، برهـوم يخـافني الآن، والرجل الكبير سوف يعمل لي حسابا من الآن، أن يكون الواحد منا قويا فـي داره بحيـث لا يتوه كأي شيء تافه فهذا هو المطلوب، في اليوم التالي لما دخلت الدار لـم أهـتم بنظـرتهم، واجهتهم بكل ما استطعت من جسارة، دخلت الدار وفي تقديري أنني أما قاتل أو مقتول، لمـا لحظ جدي أنني لم أعد مهتما بشيء نظر إلي وضحك قائلا:

ـ عشنا وشفنا، ابن حسن عايز يجوز هو كمان، جاتك لهو، على أبوك اللـي خيبتـه محصلتش حد.

قلت:

ـ ما هو اللي يعيش في الدار دي لازم يخيب.

ـ امشي انجر وجع ف رقبتك.

مشيت، من يومها بدأت أدس أنفي في كل أمور الدار، أفتي بما أراه دون أن يسألوني، أحاول إشعار الكل إنني موجود بها، أن لي حقا في هذه الدار وعليهم أن يسـلموا بـه، فـي وجبات العشاء أدعي الغضب رافضا أكل أصناف لا تروق لي تماما، أفضل الجـوع علـى التسليم هكذا لهم بكل شيء، أجعلهم يعملون حسابي، وإذا جاءني الغذاء على غير هواي أعيده كما هو قائلا لجدتي مبروكة أنني أطفح الدم في الشغل ولا يمكن أن يسعفني أو يسندني غـذاء بسيط.

قال برهوم مرة وكان قد جاء يشق على القطن:

ـ يا صالح اعقل بقى وسيبك م اللي في دماغك.

ـ عايز إيه يعني، أفضل كدة شغال من غير أجرة؟ دا ابن شلبي بيقول علـي تمللـي باشتغل بلقمتي، طب إدوني أجرة زي الغريب.

ـ يا وله اختشي على دمك، الأرض ما هي قصادك أهه، هو أنا شايلها على دماغي؟

ـ أيوه صحيح الأرض قصادي، أنما مكتوبة عليك.

ـ دانت دماغك ناشفة طب روح حملها وشيلها.

قالها وكح بحيث أصبح عسيرا علي أن أتابع الحديث معه، ولما غاب عن نظري قلت لروحي إنهم لن يحسنوا معاملتي إلا إذا ابتعدت عنهم وأحسوا بالحاجة إلي.

قلت لجدي مرة وأنا أضاحكه:

هو أنا مش بقيت راجل قدامك، مستقل بي ليه؟

نظر إلي باستهانة وقال: هم، تابعت كلامي:

ـ جلال وسلومة من دوري واتجوزوا، تكتبوا لي على زكية بنت الشيخ فضل.

قال وعلى ثغره ابتسامة ساخرة:

ـ همك ع النسوان من دلوقت زي أبوك؟ طب استنى لما نجوز برهوم.

قلت:

ـ أنا مالي ببرهوم، هو اللي مش عايز، يعني لو طلب حتقـول لأ؟ الواحـد يطفـش منكم.

زام الرجل مستاء من كلامي فابتعدت عنه بخطوات حذرة متوجسة، أن يكون الإنسان في متناول يد هذا الرجل فهو الموت بعينه، الأولاد في مثل سني لا يضربهم أحد، كان علـي أن أحمي نفسي بالحذر، صارت بيني وبين الرجل عداوة غير معلنة، إنما في كل مرة كنـت أزوغ منه قبل أن يفكر في ضربي، كنت أقرأ في عينيه وعيدا بأنه لن يترك لي فرصة تتـاح له لإذلالي، مرة كنت راجعا من الغيط راكبا الجمل، قابلني عند المصرف القديم وقال متعجبا وآمرا في آن واحد:

ـ صلاة النبي أحسن، راجع بالجمل فاضي؟ مش هاين عليك تحمله؟

لم أرد عليه فتوقف قبالة الجمل وقال متابعا ما قاله:

ـ طب نخ الجمل وانزل يا خايب يا بن الخايب.

ظللت في طريقي إلى الدار متجاهلا ما كان يقوله، عندما عاد كنت قد عملت حسابي، وقفت في صحن الدار أنتظر وصوله، الجمل بارك بحمله وفي يدي "شعبة" أتظاهر بأنني أسند بها الغبيط، كان الفأس ناحيتي وفي متناول يدي أيضا، والشيطان يلعب فـي دمـاغي لعبـة المخاطرة، قلت لنفسي ساعة أن رأيته: لو بدأ بما يوحي أنه يريد ضـربي أخبطـه قبـل أن يخبطني، يقولون إن أبي وعمي اشتركا في ضربه، هو عظمة عجوزة ولن أخافه، كان يمشي ناحيتي على مهل، نظر إلي فوجدني أتحفز، يدي الممسكة بطرف " الشعبة " تسلتها من حلقـة الغبيط وطرف عيني يتأكد من وجود الفأس مكانها ناحيتي، نظر إلي متفحصا وكأنه يقيسـني ويعرف مدى استعدادي للتمادي في مشوار الشر، ظل منتصبا مكانه دون حركة، فـي يمينـه الشمروخ وفي عينيه مزيج من الرغبة في الضرب والامتناع عنه، وشـيء مـن الحسـد أو الكراهية لي يشع ويتوهج فوق الملامح، لوح بيده الخالية وهز رأسه، كـدت أن أنهـزم فـي مواجهته، لم يكن الخوف وإنما التذكر أن هذا الرجل هو بنفسه عبد القادر عـوف الـذي لـم ينهزم من أي رجل من رجال الكفر، عبد القادر عوف الذي أحبه أيضا وأكره أفعاله، تماسكت

وظلت عيناه تتفحصان وتجوسان بحرية في كل ما بان مني خلف الجمل البارك بيننا، طالـت النظرة المتبادلة بيننا والصمت يمتد لزمن لا أحسبه كان قصيرا، بعدها قال الرجل وهو يسـند شمروخه على جانب من جوانب الدار ويلتفت إلي قائلا باستهانة من يعرض نفسه للمواجهـة بلا شيء يحميه، عارفا أنه بوجوده المجرد يقدر أن يدفع عن نفسه أشد الأخطار وأقواها:

ـ اسمع يا وله، أنت ما لكش عيش في الدار دي، شوف لك داهية اتلقـح فيهـا مـن دلوقت أهه، أنت سامع؟ مش عايز أشوف وشك هنا.

قال ذلك ثم استدار يعبث ببعض الأشياء وكأنه يتكبر على الدخول معي فـي صـراع وجها لوجه مستهينا بي إلى حد جعلني أشعر بالضآلة والصغر، لحظات ثم خرج مـن الـدار دون أن يلتفت إلي أو يعاود الحديث معي، قلت لنفسي أنه من الأجدى أن أخرج قبل عودتـه، إنه لو عاد ووجدني ما تركني لحالي، رجعت أجمع ملابسي فـي سـبت دون أن أرد علـى "مبروكة" التي كانت تسأل عن وجهتي دون أن تظفر بشيء، لما حاولت هي منعي دفعتها عني وخرجت، وعندما شافني برهوم وحاول إعادتي خلصت ذراعي من قبضته وسرت وحدي إلى سكة البندر، سألت الغباش عن عنوان أبي مدعيا أنني ذاهب لزيارته في المحلة الكبيرة، ركبت القطار ووصلت، أوصلني حنطور ولم يكن أبي هناك، كان في الشركة لكـن جـدتي لأبـي عرفتني ورحبت بي، سألتني عن الأحوال وعن ظروف الكفر، قلت لها إنني جئت لأشتغل في المحلة لأنهم طردوني، قالت إن مبروكة هي سبب كل هذا الضياع، كان علي حجرهـا طفـل صغير، أشارت إليه قائلة: سيد ابن شوق، حكت لي عما حدث من انفصال أبي عن شوق، عن حيرته وارتباكه بالولد والذي ترعاه هي، عن زواج شوق بعد إتمام العدة من ابن عمها، قالت إن أبي تسرع بطلاقها وإنه كان من الواجب أن يصبر من أجل الولد، قالت إنه من العسير أن يظل حيا بسبب أنه لم يرضع لبن أمه بما فيه الكفاية، عن فلوس أبي التي راحت عليه وسـفها عبد الستار، كانت حجرة وحيدة فيها سرير وكنبة وعلى أرضها حصير مفروش، عملت لـي شايا، قلت لنفسي أن جدتي " مبروكة " حذرتني منها قائلة إنه من الممكن أن تسمني لو أخذت منها شيئا يؤكل، كانت هي تنظر إلي وأنا متردد في شرب الشاي، كأنهـا فهمـت، فأخذتـه وتذوقته أولا ثم أعادت وضعه في الكوز وصبت كوبين وأخذت واحدا منهما وراحت تشـرب قبلي واكتفت بأن وضعت الثاني أمامي، بان أنها فهمت فأسفت لأنني نسيت أنها جـدتي هـي أيضا وربما تحبني أكثر من مبروكة، قالت إن أعز الولد ولد الولد يا صالح يا بني.

لما جاء أبي قابلني بوجه بشوش خلافا لما كنت أتوقع ما كان يشاع عنه في الدار أنه لو رحت له لرماني في الشارع خلاصا من مشكلاتي، قلت لنفسي أنهم ظلموني طـوال هـذا العمر وكرهوني في أبي حتى أظل عبدا لهم، وإنهم لما وجدوني واعيا لنفسي طردوني، قلـت

لأبي كل شيء من بداية الخلاف بيني وبين برهوم حتى لحظة الرغبة في معاركـة الرجـل وضربه، قال أبي متخوفا:

ـ لا يا صالح، سيدك غشيم ويمكن كان خبطك خبطة تروح فيها، دا ربنا ستر، فاكر أنه خاف منك. دا ما يخافش م الجن، دا قاتل يا صالح.

اغتظت لأنه أنكر علي خوف جدي مني، قلت أنه ما زال يحسب جدي في نفس قوته الأولى وأن الرجل لم يعد كما كان، قال أبي أنه سوف يسعى لتشغيلي في الشركة، قال: كتبوا الأرض لبرهوم عندا في أنا، سكت وأنا أقول لنفسي: لو كنت مكانه ما تركتها أبدا وما هربت، لعن الأرض ومن يبكي عليها.

قائلا:

ـ يا وارث مين يورثك؟ رزق هنا رزق هناك، وأهي لقمة بنأكلها.

قال إنه استغنى عن الأرض ولم يمت، إنه عاش مستورا وعـوض عليـه الله، لكنـه عندما نظر إلى سيد الراقد على حجر جدته كشر وبدأ غير مرتاح ربما بسبب مرضه، قال إنه لولا عركته مع جدي لجاء إلى الكفر ليراني ويطمئن على أحوالي، قال إنه كان يرسـل إلـى برهوم رسائل ويتلقى منه رسائل يطمئن فيها على راحتي، وأنه يكره الكفر وناسه ولا ينـوي الذهاب إليه أبدا بسبب ما حصل له هناك يوم طرده جدي من داره ولعنه وأوشك أن يضربه.

بعد أسبوعين أو ثلاثة جاء أبي ووجهه مخطوفا كأنه هارب من عند الأمـوات قـال لجدتي ولي:

ـ أبويا جه المحلة هو وبرهوم.

قلت وأنا استكثر عليه خوفه الزائد:

ـ وإيه يعني، ما ييجوا ح يعملوا إيه:

قال:

ـ دا راجل شرس وطبعه غلس يا صالح.

قلت متذكرا وقفتي قبالته غير مهتم به:

ـ غلس على روحه، يعني حيقطع الرقابي.

ـ أنا كلمت نفرين م البلد يحضروا وياه.

كان واضحا أنه خائف بشكل زائد، لم يعجبني خوفه عرفت أنه عاجز عن حماية نفسه من رجل عجوز وأنه عاجز بالقطع عن حمايتي: أن حياته في المدن جعلته يعمل حسـابا لأي شيء أكثر مما يستحق، إن ناس المدن يخافون من خيالهم ولا يقدرون على مواجهة أحـد، إن أبي القديم واجه هذا الرجل وهو في عز أيامه لكنه اليوم يخشاه وكان من الواجب ألا يعمل له حسابا، قال هو:

ـ أنا حبقى أسألك قصادهم: عايز تعيش هنا ولا تسافر البلد، لجل يروحوا من غيـر مشاكل.

قلت أنه يخاف على روحه ويصدرني أنا لمواجهتهم. وأنني ما عدت أخشاهم حتى لو أخذوا روحي، وعرفت في هذه الساعة أن جدي رغم كبر سنه أكثر رجولة مـن أبـي وأنـه علمني الجسارة وعدم الخشية بينما يعلمني أبي الخوف والرعب مـن أول تجربـة، فـي أول موقف جاء يرتعد وكأنه داخل على جهنم.

عندما جاء جدي وبرهوم والضيفان كان أبي مخطوف الوجـه مرعـوش الكلمـات، مخنوقا بحبل خفي جعله يتهته في حيرة وينظر إلى الضيفين وكأنه يسـتمد منهمـا الحمايـة، سألني أحدهما إن كنت أرغب في السفر إلى الكفر فقلت: لا، قام برهوم وضربني كفا هـزيلا على صدغي وأنا ساكت أنظر إلى أبي وأنتظر رده لكنه قال في حذر:

ـ مالكش حق يا برهوم، هو عمل إيه بس.

جعجع جدي كثيرا لكنني لم أهتم به، ظللت ساكتا بلا جواب. خرج الضـيوف وبقينـا وحدنا، أنا وأبي وجدي وبرهوم، أخرج برهوم عقد بيع أطيان وناوله لي، قرأت فيه أن ميراث أمي أصبح لي ببيع وشراء قلت لنفسي: فرجت، الآن اعترفتم بوجودي، قـال جـدي وكأنـه يصالحني بالكلمات الجافة:

ـ وشرطنا لك يا هبل يا ابن الكلب على زكية، وإن مامشيتش أقل من ذلك ح نقطـم رقبتك.

أخذت أبي خارج الحجرة، أفهمته أنني أفضل العودة لأنهم سلموا بما طلبـت وأنهـم سوف يغيرون معاملتهم معي، خاف أبي من أن يكون في الأمر خدعة فطمأنته أنني لو ظللت أشتغل هنا طوال عمري ما ادخرت ثمن فدان واحدا وأن ما أطوله أحسن من حبات عيونهم.

كان أبي غير راض عن ذلك الرأي، بان في عينيه شيء من الكراهية لـي والـذعر منهم، قال لجدي وهو مستسلم تماما:

ـ ما دام يرتاح هو حر.

قلت لنفسي أنه أسلمني لهم دون أن يجعلني عزيزا، وكان من الواجب أن يتظاهر بأنه سوف يصر على بقائي ليعرفوا أن لي أبا يدافع عني ويفتح لي بيته في أي وقت، صـحيح أن عودتي إليه ربما لا تحدث إنما كان الواجب أن يجعلني عزيزا عليهم قدر الإمكان ولو بالكلام.

لما قمنا للسفر لبس بنطلونه الأصفر وسترته الصفراء فبدا لي كحاجـب المحكمـة أو فراش المآتم، يحمل سبتا وضع فيه بعض الفواكه وقمع السكر وقطع الصابون ويمشي خلـف جدي وكأنه تابع راض عن تبعيته، رفض جدي أخذ السلال منه إنما برهوم أشار إلي بأخـذه ولا أعرف إن كان من باب عدم إحراج أبي أو أنه جعلني آخذه لنستفيد به، وفي القطار قـال

جدي عنه أنه أهبل وأنهم ضحكوا عليه وأخذوا ماله وصرفوه ثم أخذوا منه شوق أيضا وأنـه سيظل طوال عمره سواحا في بلاد الغربة. وأنه سيظل تائها إلى أن يموت في الغربـة لأنـه اختار ذلك ورضى به جاهلا كيف يطالب بحق من حقوقه في هذه الأيام التي لا يعيش فيها إلا الأقوياء القادرون على أخذ حقوقهم وحمايتها.

وأصبح لي في الدار حسا بعد ما كنت موجودا كعدمي، شعرت بأن لي سعرا بعد مـا كنت بلا سعر، عندما باعوا القطن جهزوا المندرة الصغيرة ودخلت على زكية، عرفت يومها أن جدي أحسن لي من أبي، سايرت الرجل الكبير ففتح لي قلبه وعاملني بالحسنى، لـم يعـد ينظر إلي تلك النظرة القديمة على أنني مجرد صبي بلا أهمية، صرت في عينيه رجـلا لـه رأي في الزرع والحصاد ونظام الدار، بدأت أحتل عنده مكان برهوم، كان برهوم يزداد ضعفا وإصرارا على الفساد، الحشيش والحريم والسهر دون حد معقول، كان الصراع قد بـدأ بينـه وبين الرجل الكبير بسبب علاقات برهوم المشينة مع مقاطيع الكفر وسهراته غير المناسبة في دور مشبوهة، كان إسرافه يزداد وتتكاثر حوله الأقاويل وكلما نصحه جدي بالاسـتقامة هـز دماغه وسكت استهانة بالرجل أو أطال لسانه وشتمه والرجل صابر عليه ومتحامل على نفسه مراعيا ضعفه البين، لما كان ينفرد بي كان يبدي غضبه عليه وكثيرا ما كان يطلب من الله أن يكون أجله قصيرا، كان برهوم عندما يحتاج إلى الأموال يبيع ما يطوله، البهائم والمحاصـيل ويرهن الأرض، واستمر حاله على هذا النحو حتى جاء اليوم الذي رقد فيـه عـاجزا عـن الحركة متهالكا منهارا على نفسه، ظل قرابة الشهر وجدي رافض حتى أن يوجه إليه أي كلام أو يدخل عليه حيث يرقد بعلته التي حولته إلى عود حطب أصفر وهش إلـى حـد مؤسـف، عندما دخل عليه للمرة الأولى لم يتبادل معه كلمة، نظر إليه مليا وظل مصلوبا في وقفته ينظر إليه ويتسمع صوت أنفاسه المتلاحقة المنهارة. في المرة التالية جلس جوار فراشـه وزاغـت عيناه وهو يهمس في لوم:

ـ بقى كدة يا برهوم، تعمل ف روحك كدة؟

طالت رقدته وفقدنا الأمل في أن يعود كما كان، كل ما طلبه كنا نجيبه إليه وكأنه كان معروفا لكل من بالدار أنه ضيف راحل عنا في غد قريب وعلينا إكرامه، لما طلب أن يـرى أبي سافرت إليه المحلة وعرفته بأن خالي صحته متأخرة ويطلبه. قلت له إن الحكيم قـرر أن أيامه في الدنيا قليلة، عندما دخل عليه أبي كان وجهه أكثر احتقانا وزرقة، شاف أبي بالعينين وربما لم يدرك بالعقل أنه أبي، لما أفاق مد يده إلى أبي وأمسك يده وكلمه عن الأرض، عـن ضرورة عودته إليها مهما كانت الظروف، قال لجدي أنه لن يرتاح إلا إذا عاش أبي في داره وأن الدنيا لم تدم لأحد والأرض خابت لأنهم ظلموه، لعن أمه الواقفة وقال إنها السبب في كل شيء سيئ بعدها لم يتكلم كلاما موزونا، كان يخرف وسطنا وروحه تأبى أن تخرج بهـدوء،

ومرت الأيام الثلاث التي غاب فيها عن وعيه وجاءت اللحظة التي خرج فيها السر الإلهـي، كانت مبروكة تصوت وأبي واقف والدموع تتساقط من عينيه متلاحقة وكأنه " حرمة " عاجزة عن السيطرة على عينيها، وجدي جامد الوجه والبدن كصخرة لا تهزها الأحـداث وعينـاه لا تطرفان، نظرته ساهمة مفجوعة إنما صلبة، وحتى عندما انسالت الدموع من عينيه غصبا لـم ترف عيناه وكأنه يتأبى الاعتراف بالدموع ويرفضها أما أبي فكان يندب ويهز البـدن الراقـد ولعابه يسيل على شدقيه كأنه مجنون، قلت لنفسي: إنه من الممكن أن يكون كل هـذا مجـرد افتعال مصنوع أثر ما قاله برهوم عن الأرض وضرورة أن تعود الميـاه لمجاريهـا، أي أن يعود أبي إلى الدار والأرض التي لعنها، أن يرث الأرض التي تركها كـل هـذه السـنوات ويشاركني ابنه من شوق في الميراث، سألت روحي إن كان يستحق وكنـت أحسـب أنـه لا يستحق في أرضنا شبرا لأنه فاتها وكأنها لا تستحق اهتمامه واستماتته من أجل شبر منها ربما يبيعها ويصرف ثمنها على الحريم، "روحية" الثالثة بعد أمي وشوق تبدو حويطـة وغويطـة، تضيع الأرض لقاء بعض الدموع والكلمات المحبوكة، ووصية رجل فاقد لوعيه وغارق فـي حمى المرض حتى شعر رأسه، لما كان في وعيه لم يفكر إلا في نفسه.

قالت مبروكة وعلى رأسها طين تيبس وعلى وجهها حسرة:

ـ شمتوا الحبايب والعدا فيك يا جدع، مين يسقي غيطك يا جدع، قولوا لأبوه مـالوش ولد، قولوا ما عادلوش سند، راح الولد، راح السند والدار خراب بعد الولد.

كانت تندب وكان أبي مدهوشا من الكلام الذي يعني بالنسـبة لـه الكثيـر، إنكـاره والتشكيك في وجوده، وجدي ساهم وكأن ما يدور حوله لا يخصه، في الخميس الأول وزعنـا الرحمة بكثرة على المقرئين والطالبين حتى فاضت، قالت النسوة لجدتي مبروكة التي شـالت سبتا فيه بقايا الرحمة في اتجاه الدار أن دخولها الدار ببقايا الرحمة لا يبشر بخير فربما يعنـي موت واحد من رجالها، زوجها أو ابن بنتها لكنها بدت كما لو كانت قد تعمدت أن تدخل الدار بشيء منها، عندما فقدت ابنها لم تعد تهتم بشيء، لو مات رجال الكفر ما هزها أو حرك فيها شعرة، أعطت أبي حفنة تمر من سبت الرحمة، لم يكن قد فكر أنها تمنحها إياه ليأكلها فوضعها جانبا، أمسكته من خناقه وراحت تصرخ:

ـ خايف على عمرك يا حسن، خايف م الموت يا ضنايا؟ عايز تورث يـا خويـا ف الغالي، عايز تضيع الأرض على النسوان؟

كان أبي محتارا وعاجزا عن الجواب، لم يكن يتوقع منها عراكا في مثل هذا اليـوم، في صباح اليوم التالي سافر أبي بعد أن عارك جدي ومبروكة، خرج من الدار غاضبا، قالـت مبروكة إنه كان ينوي بيع الأرض وصرف ثمنها على الحريم، قالت إن خراب الدار سيحل لو بقى في الدار وأنه لو ورث زمام الكفر لضيعه، استشهدت بزواجه الثالث من روحية وإمكانية

أن يخاف منها هي الأخرى في أجل قريب، أشارت على جدي بأن يكتب الأرض باسمي لكنه كان تائها وغارقا في همومه لدرجة جعلته عاجزا عن الموافقة أو المعارضة.

آخر مرة شفت فيها سيد مصادفة، كان عند الكوبري مع سعاد بنت شلبي، أخته مـن شوق، قال وهو يداري خجله إنه فات على الدار ولما لم يجدني ترك سلاما وخرج، عرفت أنه ينتظر عربة يركبها في طريقه إلى مصر، هكذا دائما نراه صدفة أو يأتي ليطل علينا ويسرع بالسفر ولما تكون الأجازة طويلة لا نراه، نسمع أخباره من الناس، أحس بالعار من بقائه عنـد أمه وعدم التفكير في المجيء، في كل مرة يقول إنه ينوي المجيء إلينا مخصوص، هو حـر، وهل مجيئه يفيدنا في شيء، وهل طالبناه بشيء ليتهرب منا على هذه الصورة، لا يربكني في الأمر إلا كلام الناس، الناس لا تترك الواحد في حاله، أن يزور أمه شيء لا عيب فيه، إنمـا العيب أن يجعل دار جماعة شلبي مرساة فيها يبيت ويبقى وإن زارنا فمن باب المجاملة وأداء الواجب في الكفر.

أحس بالحرج من كلام الناس، يسألوني عنه وكأنهم يعايروني بوضعه، كأنني مسئول عن تصرفاته، هو حر، دارنا مفتوحة إنما لا يمكن أن أجبره على شيء، علموه في المـدارس أن ينسى الأصول، أن ينزل كفر عسكر دون أن يدخل دار جده عبد القادر إلا من بـاب أداء الواجب، كأنه من جماعة شلبي، يجهل ما يقال عنه، أبي نفسه لا يرتاح لدخوله دارهم، شاكر دائما معه، ما أن ينزل الكفر حتى أسمع أخباره مع شاكر، كان مع شاكر في السوق كان مـع شاكر في الدار، كان مع شاكر في مندرة شلبي.

أخذني سيد من يدي وابتعد عن أخت شاكر، همس في أذني سائلا:

ـ شفت أبوك يا صالح؟

قلت وأنا أشعر بحرج لأنني وعدته بزيارته ولم أذهب إليه.

ـ والله يا سي سيد انشغلت في الأرض ومملكتش أروح.

ـ طب يا صالح، بس ابقى روح شوفه، لما أكون غايب تكون أنت مكـاني، عـايز أعرف أخباره منك.

قلت لنفسي أنني أذهب إليه فأجده ملويا بدون أسباب، وأنه يجعلني أشعر أنه غريـب عني، يقوم بواجبات الضيافة وكأنني غريب عنه، لا أشعر أنني في دار أبي، أخـرج بعـاري ولا أجد مبررا لمعاودة زيارته، بعد كل محاولاتي معه أن يأتي ليعيش في الكفر لم أجد لديـه إلا الرفض، الرفض ليس من أجل شيء إلا إشعاري بأنه يرفضني أنا، يـرفض الاعتـراف بأنني ابنه، كلما حاولت الاقتراب منه ابتعد وكلما حاولت الابتعاد عن سيد اقترب، قال سيد:

ـ إيه سرحان ف إيه يا صالح؟

ـ ولا حاجة، ما أنا كنت مستني نروحله سوا.

ضحك وسلم ولما طلبت منه أن أوصله شكرني وقال إنه لا لزوم للتعب وأشار إلـى البنت، في الدار وجدت زكية وسط البنات لما شافتني قامت وتبعتني إلى المندرة، قالت:

ـ أخوك سيد كان هنا، بص وهو واقف ومشي مع أخته الصغيرة، بيقول مسافر بيها مصر.

ـ قلت:

ـ شفته.

قالت:

ـ هو عامل كده ليه؟ وأنا بقيت ف نص هدومي م الخلق. ده مرضيش حتـى يقعـد يشرب كباية الشاي.

أضافت:

ـ الواحد بقى ف نص هدومه من عمايله، دا الغريب يراعي كلام الناس، ومحمد ابنك مسك فيه ما فيش فايدة.

قلت لنفسي إنه عرانا من كل ما سترنا أمام الناس، أنه لو كف عن المجيء إلى الكفر يكون أحسن، قلت لنفسي أنه حر وأنني لن أطلبه بلساني، لن أحاسبه على أفعالـه ويكفـي أن يحاسب هو نفسه فليس جاهلا، كل مرة يعد فيها ولا ينفذ وعده. ربما لا يجدني مـن مقامـه، مقامه ابن شلبي الذي خاب من المدارس أما أنا فمهما كنت في نظره فلاح، مرة قـال وهـو يضحك:

ـ والأجازة الجاية أقعد عندكم لحد ما تزهقوا مني.

من علمه أن الأخ يزهق من أخيه، صحيح لسنا من أم واحدة إنما الأم ماعون، المهـم العصب، سيد قلب الآية، اهتم بأخوته من الأم وأهمل أخيه من العصب، ربما كان أبـي هـو الذي أوصاه بذلك، إنما الرجل لا يرتاح لدخوله دار شلبي، لو عاش أيام أجازته معنـا يقطـع ألسنة الناس، هو يدخل الدار كالخيال ثم يخرج حتى في المرات القليلة التي يبقى فيها ليلـة أو ليلتين يجعلنا نتعلق به ثم يهرب، كلما حاولت الإمساك به يهرب، كأنه خيال أو وهـم أشـعر بالراحة لما يأتي، أمشي معه مرتاحا ورافعا رأسي أمام الناس " ها هو سيد حسن عـوف يـا كفر عسكر، ابن من تاه في بلاده الغربة، ابن حسن الذي عايرتوني به طوال عمـري، هـو أخي، أفندي مصروف عليه ثقله، دخل المدارس والجامعة وأصبح أستاذ بحق، له وزن وهيئة وقيمة ومقام، سيد أخي يا كفر عسكر فهل فيكم من يقدر على إنكار أن جماعة عـوف فيهـا أساتذة يفوقون أولاد شلبي. حتى سيد الذي خرج أبوه من الكفر بلا شيء رباه وعلمه وأصبح كما ترون".

لو لم يكن الماضي منصوبا بيني وبين أبي، لو لم يكن الرجل صاب الـرأس عنيـدا لأصبحنا أحسن دار في درب الحاج عوف، سنوات ويتم عبد القادر تعليمه ويلحقه محـروس، سنوات وتصبح دارنا مزحومة بالأفندية، أحسن من دار العمدة، إنما أبي لا يسمع الكلام، سيد قال له مرة: انسوا الماضي وابدأوا من جديد، كان يرغب في تصفية الجو، قلت لنفسي ساعتها إنني مستعد لذلك بل إنني كنت لا أحلم بغير ذلك، إنما أبي كان يلوح لي بما جرى، يـذكرني بغلطتي الوحيدة ويلوح لي بالأيام التي كنت فيها في نصف وعي، أعود مرة أخرى، راجعـا من أمنيات نسجتها إلى حقيقة ما يدور حولي، ها هو أبي يرفضـني بإصـرار، يـرفض أن يصدقني، وأخي يحاول جهده أن يردم على الماضي، لو كان أبي وحده لما عاملته، فـي كـل مرة يسترجعني إلى الأيام القديمة، يجرني لأتكلم بمنطقها، يفسد كل شيء بفتح جرحنا القـديم المشترك، الأرض ميراث كان له وأخذته فماذا يهمه، جدي عبد القادر أعطاه لي، حتى ولـو كنت أخذته بالزور فهل أنا غريب، أرض عبد القادر عوف وأنا ابن ابنه.

لما كنت أحاول توضيح الأمر لسيد يطلب مني السكوت لم يكن يرغـب فـي سـماع حكاية الأرض، كنت أعرف أنه سمعها مني أكثر من مرة لكنني كنت أشعر بأنه من اللازم أو أؤكد له ما جرى، أن أوضح له أن أبي يفهم وأنه يحكي على هواه، يدعي أنني أخذتها بالزور بوضع اليد، أحيانا كنت أقول لنفسي أنه لا يصدقني، أنه يتظاهر بتصديقي ليرتاح، أنه لو كان يصدقني لجعلني سره ولجعل داري مقره، ربما يرتاب في أمري، الناس في كفر عسـكر، لا يكفون عن الثرثرة، ربما أفهموه أن له في الأرض نصيب، لو كان له حق ما منعته، أي حـق وهو الآن موظف له مرتب شهري وهو ما زال بطوله، الناس في الكفر بارعون فـي إفسـاد الجو، المظهر لا يهم، مظهره لا عيب فيه إنما هل أعرف ما في قلبه؟ الأمور الخفية خفية ولا يعلمها إلا الله، كلام الناس عنه كثير، مرة قال لي نفر:

ـ دا أخوك سيد ده ناب أزرق.

خفت ساعتها وسألته عما يقصد لكنه لم يوضح أكثر من هذا، جعلني أشك فيه، أخاف منه، ربما يأتي ليعرف أسراري. ربما يدبر لي مكيدة، إنما كيف أصدق كلام الخلق عنه، لـو كان يسر إلي بما يسمع عني، يوهموه أنني أخذت نصيبه بأخذي الأرض وحدي، وهل كنـت أرفض أخذها وهي جزء من حياتي، بها أعيش وعلى خيرها أربي الأولاد، بامتلاكها يكون لي في الكفر سعر، من غيرها أصبح بلا قيمة، هكذا وجدتني مقطوعا لها ومربوطا إليها، لملمتها قيراطا على قيراط، فككت رهونها وسددت ديونها التي خلفها برهوم، هي بالنسبة لأمثال سيد تعني مبالغ قابلة للضياع والصرف، من يعرف إن كان مستقيما في معيشته في مصر أم إنـه فاسد جاء يبحث عن حق قديم أصبح لا يخصه، ما له بي ولماذا أخشاه ولا أرتاح لـه تمـام الارتياح، ربما بسبب الأرض، خوفي على الأرض وعلى مستقبل الأولاد يزرع الشـك فـي

قلبي، لما طلبت منه أن يعود أبي إلى الكفر وافقني بسرعة، كأنها فكرته ونيته المبيتة، أخذني إليه بعد انقطع حبل الوداد بيننا لسنوات طويلة والرجل لم يوافق، عندما زرته في المولد قـال إن سيد فاسد وإن سيره لا يعجبه، قالت امرأته الجديدة إنه لا يهتم بها كما كان يفعل، إنه لـم يعد يدفع لهم شيئا، ومرة قال لي نفر من الكفر:

ـ دا سي سيد أخوك داير على حل شعره ف مصر، ابن خالي راح شقته لقـى فيهـا واحدة ست وحلف أنه شافه سكران، دا كافر.

أمسكته من زنده وقلت ساعتها:

ـ ورأس سيدي عبد القادر لو كلمة طلعت من حنكك ليكون بحش أجاك، حسك عينك تتكلم عليه قصادي.

يومها كنت أشعر أنه من الواجب علي أن أحميه من كلام الناس، لم يكـن أول مـن يكلمني عن سيد مثل هذه الأشياء، يشرب الخمر، يعاشر النسوة، لا يصلي، صـحيح إننـي لا أصلي إلا في المناسبات وأنا حامل كتاب الله، إنما هو لا يصلي حتى أيام الجمع رغم أنه لمـا ينزل الكفر يكون محطا للأنظار، يحسبون عليه خطواته، ربما تؤكد شكوكهم فيـه أحاديـث الناس عنه، يكونوا في حالهم، يصلي أو لا يصلي فهو أمر لا يخصهم، يحاسبون النـاس ولا يحاسبون أنفسهم، يأمرون الناس بالمعروف وينسون أنفسهم، كفرنا غارق في الذنوب، الخيـر فيه قليل والشر زائد، حريم الكفر يتظاهرون بالعفة وفي الدور تسترهن الجدران وفي الحقول تسترهن أعواد الذرة وعتمة الأمسيات، أكثر من دار معروفة يلعب فيها رجال الكفر القمـار ويتباهون بالسهرات، مقاطيع الكفر يتكاثرون ولصوصه يتزايدون، دار شـفيقة ودار زبيـدة وعدلات أوكار للفساد، القمار والحشيش وأحيانا راحة الرجال في أحضان النسوة، مالهم بنـا، جدي عبد القادر كان يصلي في الأعياد وقلما كان يصلي في أيام الجمع فهل كفر هو الآخـر **إنك لن تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء** وكما يقال إن الله أدرى بمـا تخفـي الصدور، وأنا هل يقال عني بالمثل إنني كفرت، هل يكفر الواحد لو كف عن أداء فرض الله؟ الصلاة عماد الدين وأنا حامل لكتاب الله ومن نسل الحسين فهل سقطت عني الصلاة؟ ألـيس الله غني عني وعن صلاتي وصيامي، ربما كنت عاصيا وربما كنا نسل شياطين وحكاية نسل الحسين خدعة اخترعها جدنا الكبير ليداري بها خفاياه، بنى الجامع والزاوية وانشغل في أمور الدنيا. والحشيش هل هو حرام مثل الخمر؟ ولو كان حراما فكيف يسمح الشيخ مرعي لنفسـه بتدخينه؟ كلها أمور خفية، أعرف أن الله غفور رحيم، كلما فكرت في هذه الأمور يخف عقلي، أوشك أن أتوه عن الدنيا، أن استرسل في هذا التفكير حتى أشرف على الضياع التام في منطقة بين الكفر والإيمان فأهرب بنفسي مستعيذا بالله من الشيطان الرجيم قارئا **قل أعـوذ بـرب**

الناس* ملك الناس إله الناس * من شر الوسواس الخناس * الذي يوسوس في صدور الناس * من الجنة والناس .

بعد موت برهوم زادت هموم الدار، حامت حولها الغربان وعشش الغم في الجدران، تحولت الدار إلى المندرة تتلقى فيها العزاء طوال النهار وجزء طويل من الليل، داستها نعال الخلق والعدو والحبيب، انكشف ما كان مستورا، حتى أولاد شلبي جاءوا لم يتخلف منهم نفر، توافد الناس على مدار الأيام وانهدت قوانا من تلقي العزاء، أحيانا يسألون عن أبي ويستنكرون غيابه عن الدار في مثل هذه الظروف وجدي ذاهل عما يدور حوله، كلما جاءه وافد يعزيه تنحدر من عينيه الدموع، تتزايد عندما يذكرونه بأبي، وشاعت في الكفر حكايتنا " عبد القادر عوف بكى يا رجال، راحت الجسارة وخفت الصوت العنيف وحل السكون المهموم على ملامح الرجل الكبير "في أول الأمر لم يكن من السهل أن أكلمه في شيء، كنت محطوطا في جو الغم ومغمورا بفعله، تهت في زحمة الأنفار وذابت كلماتي وسط الهمهمات، ولما لاحظت حمرة العينين في اليوم العاشر قلت له: ارحم نفسك، فنظر إلي وبكى بحرقة، قلت: الأعمار بيد الله فانسالت الدموع، لم يكف أبدا، ظل يبكي بلا صوت، أنصاف الكلمات التي تخرج من بين شفتيه جعلته يبد مختلفا تمام الاختلاف، وكأنما أصبح الرجل فرجة لكل من يراه، قلت لنفسي أن من يأتون لا يأتون من أجل العزاء وإنما لرؤية الرجل في وضعه الجديد، إن الدموع التي عزت عليه طوال العمر جعلتهم يأتون، خزين عمر الرجل من الدموع ينسال ويزيح عن وجهه كل أمارات القوة والقدرة القديمة، يشيخ هكذا ويبين عليه الكبر الذي دارته القوة أعواما بطولها. لو يكف الرجال والنساء عن المجيء ربما تخف الأحزان، لو كفوا عن ذكر برهوم ربما تروق عينا الرجل وينتبه لنفسه مرة أخرى، لكنهم داوموا على المجيء وشاركوا في الأحزان بالمظهر بينما يرقبون الرجل بالعينين كل معز بدوره، وعندما تغلبني الأحزان أتوارى بعيدا عن الخلق حتى لا تتم المهزلة ويلمحوا دموع الحسرة على ما صرنا إليه، جدتي مبروكة تتصدر مجلس الحريم، تنصب المندبة وتسبق الندابة في النواح والتعديد على برهوم، تلطم الخدين.

قال الجد إبراهيم لأخيه: فوق لروحك يا عبد القادر. شوف أحوالك الأربعين فات ولا لزوم للاستمرار في الأحزان.

كان جدي يتسمع والدموع تتساقط على لحيته التي تركها تطول فبانت الشعرات البيضاء أكثر من السوداء مؤكدة أنه شاب، كان صوته المنهوك مصحوبا ببحة غريبة تخرج من الكلمات المتقطعة فتجعلها غير مفهومة وغريبة على الآذان، وعوده ربما كان هو إنما انحنى واستسلم لانحناءة لم يكن معتادا عليها، وأسأل إن كان قد انحنى بسبب برهوم الذي لم يتوقع موته بمثل هذه السرعة أم أنه انحنى ليزيد فينا شماتة الأحياء؟

أصبحت دارنا خرابا وجفت الأشواق، حتى المواشي جفت وما عادت تـدر الحليـب، وكرم البلح لم يطرح وكأنه عاندنا هو الآخر، وكلما نزلت إلى الأرض حسبتها أكثـر سـوادا وغلاظة، كأنها اسودت بالحزن هي الأخرى على ما صار، جفت ليس فقط لانشغالنا عنها بـل أيضا لأنها شاركتنا حزن الدار، والطين المتيبس فوق غطاء رأس جدتي المشدود على جبهتها بالطرحة السوداء أصبح علامة لها تتوج به نفسها وكأنها تقول لكل الناس إن النهاية المحتومة لأمثالها لا يمكن أن تنتهي إلا بتاج الطين، رفضت أن تزيله لما طلبت منها زكيـة أن تفعـل، رفضت أن تستحم، قالت بتصميم لا يقبل النقاش: في الميعاد. حسمت أمرها على أن يسـتمر الحزن عاما بطوله.

وكان علينا أن نحتمل، حتى لما ولدت زكية لم نشعر بغير العار فالطفلة التي كانـت تجعل للدار حسا أصبحت هي الأخرى غريبة في مجالس الهم المتكررة، والولد الصغير كـان يحس بها يجري في الدار فيخرج إلى الغيطان، يسرح بالمواشي أو يلعب بعيدا ونسأل عنه فلا نجده، كانت مبروكة هي صانعة الحزن وهي التي فرضته على الدار فرضا، كأنهـا باركـت حزن جدي ودموعه وجرته جرا لأن يستمر كل هذا الزمن وانقاد الرجل لها وسبقها، والشهور تمر وئيدة متأنية والعام لا يود أن يكتمل لينزاح عن الدار كابوس الهم المعشش، كانت عينـاه تزدادان احمرارا رغم أنه أصبح عاجزا حتى عن إفراز الدموع، نضب خـزين عمـره فـي الشهور القليلة وما عاد له إلا الصوت المغموم المقهور علامة تميزه عن كل الأصوات، وكلما ذكروا له اسم برهوم انسالت دمعة أو دمعتان بعسر شديد وتحولت حدقتي العينين إلى جمرتين ملتهبتين.

كان الولد مصطفى يرمح في صحن الدار وشافه الرجل، قال وهو يمسك عينه اليمنى بيده:

ـ بعد عني يا وله: طرفت عيني.

جاءت زكية لإبعاد الولد، قال هو:

ـ سيبيه يا بت، دا مش هو، دي حاجة كدة دخلت عيني وبتلهاب.

نظرت هي إلى عينه وبحثت عن شيء فلم تجد، إنما في نفس الليلة، بعد أذان المغرب قال:

ـ ما تولعوا يا ولاد.

كانت اللمبة تنير صحن الدار، عيناه تلمعان وتعكسان بريقها وسط الحمرة التي شملت بياض العينين فبانتا عينا ذئب جريح، قلت له أن اللمبة مشتعلة قال جادا.

ـ وبتكذب علي يا بن الكلب.

قامت جدتي مبروكة من مقعدها واتجهت إليه، نظرت إلى حبـات عينيـه وخبطـت صدرها بيمينها قائلة:

ـ مالك يا عبد القادر يا خويا؟ إوعى تكون انعميت.

كانت أول مرة أسمع فيها أو أفكر في عماه، لم يخطر ببـالي إنمـا الكلمـة رجتنـي فاهتزت يدي القابضة على كوب الشاي وسقط على الجلباب، اقتربت منه فوجدته يطل إلينا من خلال عينين مفتوحتين عن آخرهما إنما لا تطرفان، لم أصدق أنه أصيب بالعمى هكـذا مـرة واحدة، رفضت ما سمعته قلت وكأنني أدفع عنه العمى بالإنكار:

ـ يا ولية اخرسي كدة بلا تلطيش.

لم يحرك جفنيه، ظلت العينان تلمعان في ضوء اللمبة ولا تتحركان، ظللت واقفا قبالته حاملا في يدي اللمبة وفكرت في شراء مرهم أو قطرة نداويه بها، بعثت إلى صبحي الحـلاق فجاء، ترك لنا زجاجة قطرة حمراء في الصباح كانت العينان كما هما، صوتت مبروكة فـي وجهي:

ـ سيدك انعمى يا صالح، سيدك انعمى.

كان الصوت كئيبا ومخيفا وحاسما في آن واحد، صوت واثق لا يقبل النقاش، كأنمـا تراهن على صدق ما تقول على حساب نور عينيه، أبعدتها عني قائلا:

ـ انكتمي يا ولية.

لكنها ظلت تؤكد وتؤكد وتسرد الحكايات عمن فقدوا النظر في ظروف مشـابهة أثـر ضياع الولد أو الأخ، وحتى لما كان صبحي الحلاق يضع له المرهم كانت تصوت:

ـ خلاص يا عبد القادر، خلاص يا خويا، انعميت، وقعدت زي البسيوني وأم إبراهيم؟

وهو جالس في مقعده لا يتحرك ولا ينطق بحرف، كأنه أسلم نفسه لها أو عاش فـي عالم غير عالمنا، بهدوء رهيب وتقاطيع صارمة لا تلقى أدنى اهتمام بما يدور، كأنما اللسـان توقف هو الآخر أو تأكد من لا جدوى الكلام، وكأنما الأذنان كفتا عن السماع، البدن كله قاعد في اعتدال لا يكتمل بفعل الانحناءة التي أصابته مؤخرا. فجعلت منظره كلـه يبعـث علـى الإشفاق، للمرة الأولى منذ فتحت عيوني لأراه أشعر ناحيته بالإشفاق، طوال عمري لا أشـعر بغير الخوف منه ومن قوته، وحتى يوم واجهته كنت أتخوف منه وأتوقـع حـذرا أن ينـالني بأذى، كان الإشفاق أمرا جديدا لم أعمل حسابه، جديدا على الوجه الصارم والبدن الواثق الذي عرفته كل عمري، ولم أكن راضيا بتصديق شيء. كل ما وصفوه عملناه ولم يثمر، ولما جاء الحكيم من البندر لم يفلح علاجه، قلت نذهب به إلى حكيم مشهور في مصر، يومها قال لي:

ـ ابقى امشي جنبي يا صالح ومتخليش حد يلاحظ.

ومشيت جنبه حتى ركبنا وأنا أحس أن كل العيون تنصب علينا مؤكدة أنهـا تعـرف الحكاية، والحكيم في مصر همس في أذني بأن الأمل ضعيف فهززت الرأس وعدت به إلـى الكفر وسط عيون مستطلعة عارفة وهمسات شامتة أو مدهوشة أو محزونة على الرجل، على عبد القادر عوف سيد رجال كفر عسكر. "لم تنفعك الدموع الذي مات ارتاح في مرقده، وأنت ما زلت تدب الأرض بالقدمين العفيتين إنما لا ترى عدوا أو حبيبا، قتلت فيك القدرة أحـزان، كانت بلا معنى ولم تكن تليق بك يا سيد الرجال، ربما استرسلت في البكاء حزنا على دموعك فبكيت، استرسلت في إفراز الدموع بعدما سقطت غصبا عنك دموع، بكيـت انهزامـك أمـام الموت لما عجزت معك الحياة، ربما لأنك تذكرت وحدتك في نهاية الأمر بعد مـوت برهـوم وموت عبد الحميد قبله وابتعاد حسن، تذكرت وحدتك وسط أخوة تتزايد خلفتهم وأنت وحـدك تتناقص أنفاس الخلفة في داراك".

في التاريخ الذي حدده الحكيم أخذته وذهبنا، بلسانه قال إن الأمل ضعيف ورغم ذلـك دفعنا له ما طلبه ثمنا لإجراء العملية على أمل أن يعود إليه البصر الضائع، ولم تثمر الأحلام، عاد كما كان كفيف البصر مجروح المشاعر، جلس على دكة النورج وسط الدار، كـف عـن الكلام إلا الضروري منه، ولما شكوت له الحال وعدم أمانة الأنفار قال بانفعال:

ـ روح لأبوك يا صالح، هاته يسندك في الغيط والدار.

قالت مبروكة:

ـ خللي أبوه في حاله، هو فاضي إلا للنسوان.

ولأول مرة يحتد الرجل بعد عماه، طوح عصاه ناحية الصوت وتعثر فـي خطواتـه ناحيتها، كان يلعنها بتصميم وكراهية:

ـ اخرسي يا بنت المراكيب، يا صنف واطي، حد سألك يا مسحوبة من لسانك.

أجلسناه غصبا وحاولنا تهدئته لكنه لم يهدأ، ظل يرمي عليها مسئولية خـراب الـدار وتشتيت أولاده وحتى أبي الذي لم يكن راضيا عليه في أغلب الأحوال بدا راضيا عنـه كـل الرضى ناسيا أخطاءه وتركه للدار، لائما جدتي مبروكة وجاعلا منها السبب الأوحد متلمسا له أعذارا جديدة، قلت لنفسي إنه لما فقد برهوم راجع نفسه فقرر أن يتشبث بوجود أبي ردا على ما كانت تقوله مبروكة من أنه فقد الولد وأصبح بلا سند، قال وهو محتقن الوجه:

ـ تبعت لأبوك مرسال ييجي وأنا لي كلام معاه، فاهم يا وله؟

كان مغلولا بصورة لم أشهدها قبلا، عيناه الكفيفتـان تلمعـان ببريـق عنيـد ملـيء بالإصرار والحماس.. قلت:

ـ حاضر، أبعث له.

جدتي مبروكة لم تكن مرتاحة لكنني كنت مجبرا على تنفيذ رغبة الرجل، لما جاء أبي واكتشف ما جرى لجدي جعل ينهنه ويبكي، لكن جدي استعاد قدرته الأولى وصـلابته وراح يربت على كتفه مهونا الأمر قائلا إنه لم يعد له في الدنيا مطالب وأنه شـبع منهـا، الأمنيـة الوحيدة هو أن يراه في الدار، أن يحس بأنفاسه مرة أخرى، أن ينصلح ما كان فاسدا وتعـود المياه لمجاريها كما قال برهوم، أن تظل الدار مفتوحة بحسه.

قال أبي في يوم سفره:

ـ يومين بس على ما أحول أوراق الولد لمدرسة البندر.

قلت لنفسي يحول أوراق ابن شوق ويعلمه في المدارس بينما لم يسـأل عنـي ولـو برسالة. تركني لهم أطفح الدم ولما رحت له خاف منهم وسلمني لهم، يـأتي وتعـود الميـاه لمجاريها، تصبح الأرض له ويورثها لابنه الأفندي تربية المـدارس ولأولاد روحيـة الـذين يخلفهم على مدى السنوات التالية، يصرف على ابن شوق من كدي وعرقي وهو جاهـل فـي أمور الفلاحة وسوف يجلس في الدار عمدة مثل برهوم، لم أكن بقادر على قول شيء إنما أبي لاحظ عدم ارتياحي لفكرة جدي فسألني:

ـ رأيك إيه يا صالح؟

ـ وأنا لي رأي في الكلام دة برضه.

وتركتهم وخرجت. ولما عدت عرفت أنه سافر لتحويل أوراق سيد وشحن الفرش لكنه غاب، وكان الرجل يبدو قلقا ومنطويا على نفسه، خاصمنا ولم يعد يكلمنـا لإحساسـه بعـدم رضانا عن تصرفاته الأخيرة، كان لا يود أن يتبادل معنا أي كلام، ظل ينتظر ولما يقلق يتوكأ على عصاه ويطلع إلى السطح دون أن يفكر في الاستعانة بأحد منا، لو كان ابنـي مصـطفى موجودا يطلب منه أن يقوده، لكنه في صباح يوم من الأيام قمت مفزوعا على صـوت هبـدة رجت الأرض، تلتها صرخة أو أنه خافتة فتحت عيوني فتسمعت الأنين، بعد لحظات سـمعت صوت جدتي مبروكة تنادي:

ـ يا وله يا صالح.. الحقني بكوز ميه.. سيدك وقع ع الحجر وبيلقف.

أسرعت ناحيتها فوجدته مرميا على حجر الطاحونة القديمة والمركون تحـت السـلم، كان الدم ينزف من كوعه الأيسر وركبته اليمنى وكان يجاهد باستماتة أن يقوم فترتعش أطرافه وتخرج من حنجرته أنصاف آهات متلاحقة مستجيرة، سندته فلم أجـد عزمـه قـادرا علـى مساعدتي للانتصاب به، كان علينا أن نحمله، وضعناه على مرتبة مفروشة في أرضية القاعة، بعسر شديد كان يأخذ أنفاسه ويتحسس سلسلة ظهره، كان يئن أنينا موجعا ويتحسس ظهـره، اقتربت منه مبروكة وراحت تلطم خديها وتسأل:

ـ عبد القادر، إيه يا خويا اللي كان مطلعك فوق السـاعادي؟ دي وقعـة مـوت يـا نضري، دي وقعة موت.

لم يكن بقادر على إسكاتها أو أخذ أنفاسه، ولما قربت من فمه كوز الماء أزاحه بيـده وألقى برأسه على الوسادة وعلى الوجه آلام مكتومة، ربما كتمها بنفسه وكز على أسنانه فـي استماتة وإصرار على عدم الشكاية بالآهة أو بالكلمة. ولما راح في إغفاءة تركناه، قالت جدتي مبروكة إنه سقط على سلسلة ظهره على سن الحجر وأنها لما شافته وجدته يجاهد أن يسـتدير وأنها سمعت عظمه الظهر وهي تنتقل من مكانها مؤكدة أنه سوف يموت خلال أيام قصـيرة، سمعناه في الليل ينادي بصوت جريح متقطع ونصف مدرك:

ـ يا ولاد.. اسقوني يا ولاد.. اسقوني.

ناولته زكية كوز الماء فكان يعب منه عبا بينما ينحدر من كوز الماء خطين نحيلـين عبر الأشداق في اتجاه اللحية التي طالت وازدادت شيبا. عندما ارتوى رفع رأسه عن الكـوز وتجشأ ثم جاهد أن يعتدل في رقدته فعجز، ساعدته ليرتاح فسمعت صوته السائل:

ـ أبوك ما جاش يا صالح.

قلت:

ـ لا

سكت، كأنما أغلقت بنفي مجيء أبي كل الأبواب إليه، مص شفته السفلى ثم أغمـض عينيه وكأنه يطردني ويطلب مني أن أتركه وحيدا، وفي صباح اليوم التالي بدأ يئن في خفوت منهار كأنه انهزم إلى الحد الذي جعله يرتضي بالأنين ، تماما مثلما بكى في مـوت برهـوم واسترسل في البكاء، بدأ الأنين واسترسل فيه حتى لما زاره الرجال الكبار أمثاله لـم يشـعر بالعار لأنه يئن ويتوجع على مسمع منهم، كأنه خلع عن نفسه ما تبقى له من برقـع الحيـاء وتوقعت منه لما زاره الجد إبراهيم أن يطلب خروجي ليسر إليه بكلام لكنه لم يفعل، بل إنه لم يسأل عن أبي، حتى لما جاءت سيرته دعا له بحسن التساهيل والسـتر، ولمـا خـرج زوار الصبح سألني:

ـ بقى ما تحصلش أبوك.. كده برضه؟ كان نفسي أسمع صوته قبل ما ودع.

قلت متحمسا دون أسباب:

ـ أبعث له تلغراف م البندر.

كانت نبرات صوته تجعلني أحس بالحزن عليه، وكنت أرغب في تنفيذ مطلبه الوحيد إنما جدتي مبروكة حذرتني من سرعة إرسال الخبر ومن وصول أبي:

ـ سيدك ميت ميت، يعني هو ح يحوش رجل النعش، ندبر أمورنا وبعدين نبعت له.

ـ إزاي؟

ـ دلوقت الجو خليلك، يعني تقدر تكتب ورقة بالأرض بيع وشـراء، الراجـل لسـه صاحي وأنتم ويايا أهه.

ـ يبقى حرام.

ـ حرمت عليك عيشتك، عايز تطلع م المولد بلا حمص؟ على كيفك.

ـ أمال أعمل إيه؟

ـ يا ضنايا فوق لروحك، ما هو لو جه أبوك بمراته وابنه ترجع تملاـي زي الأول، تشتغل بلقمتك، هو حيفضل من غير خلف؟

ـ...

ـ دا حتى فدانين أمك متسجلين باسم سيدك وأنت لا سجلت ولا لك لو مات قصبه.

أحسست بالخوف، بالكراهية لكل من بالدار، لجدتي مبروكة التي فكرت ودبرت ليس من أجل سواد عيوني وإنما لتمنع أبي من أخذ شيء. ولما كان برهوم حيا ظلت كـل الأرض باسمه وكرهت أبي الذي استمر في العمل في بلاد الغربة في انتظار لحظة الميراث الجـاهز، وكرهت جدي لأنه لم يعمل حسابي واكتفى بطلب عودة أبي ليرث الأرض ويصرف منها على ابن شوق وعلى زوجته التي كانت حامل وسوف تلد له خلفه يعلم الله عددها، وكرهت نفسـي أيضا لأن الشيطان غلبني وجعلني أوافق على رأي مبروكة كحل وحيد يضمن لي حقـا فـي الدار التي استعبدوني فيها سنوات العمر كله، والأرض التي سقيتها بعرقي وجهدي وعزقـت طينها بعزم صباي وحملت إليها السباخ لتسميدها بشقاء طفولتي كل هذا من أجل برهوم الذي ظل يلهو ويعبث حتى مات من كثرة الفساد، ومن أجل الرجل الذي ظل قـادرا وقويـا حتـى بعدما أصابه العمى، وبعدها أعود عبدا مصبوغا لأبي الذي لم أعرفـه ولأخ منـه أو أخـوة يعلمهم في المدارس بينما أشقى، كرهت الكل كرهت أمي التي فاتت الدار وتزوجت في وقـت كنت أحتاجها إليه، خلفت هي الأخرى وعاشت، وجدي مارس قدرته وقوته في ضرب الجميع ولم يتركني لحالي إلا لما شعر بالحاجة إلي. حسبتها في دماغي فوجدت كلام مبروكـة فـي صالحي.

من سكات كتبنا عقد بيع وشراء باسمي وكان الختم مع مبروكة فختمنا العقد واحتفظت به، مع نصف الريال الفضي القديم الذي ظل، احتفظت بالعقد ثم أرسلت تلغرافا للرجـل، لـم تمض ساعة حتى تزايدت آهات الرجل، كنت أود أن أخلص ضميري وأقول له مـا جـرى، أسرد على مسمع منه دفاعي عن نفسي والسبب الذي جعلني أطاوع مبروكة في كتابـة عقـد كاذب مستغلا رقدته، لكنني كنت أخشاه، حتى في هذه اللحظة كنت أخشاه غيـر مصـدق أن الآهات والأنات تخصه أو تقلل من قوته، شهودي على العقد أخذوا نصيبهم وخرجوا، كانـت مبروكة قادرة على تدبير كل شيء، دبرت الأمور كلها ولم تترك شيئا للصدفة.

في الليل تزايدت آهات الرجل وجاء الجد إبراهيم بالكفن، في منتصـف الليـل أسـلم الروح لخالقها فارتاح وفي الصباح جاء أبي وبكى، بكى إلى حد جعلني أفكر في مصـارحته بكل ما جرى أحسست بالعار من نفسي، إنما مبروكة كانت تلحظني وتفسد علي كل محاولـة لإكمال التفكير في هذا الأمر دون أن تتدخل، تقتحم دماغي وتعشش فيه بكلماتهـا المسـنونة الأطراف، ولم أكن أعرف إن كانت هي الشيطان الرجيم أم أنها ملاك بعثه الله لينقـذني مـن ضياع العمر الآتي..

ينطفئ شعاعنا الأصيل وتزداد من حولنا العتمة، نصبح غير ما كنا، يجـيء الـزمن الخسيس فينشر على دربنا عباءة الأحزان، حتى الفانوس الذي كنا نضيء به مـدخل الـدرب وفرناه وتركنا الدرب بلا علامة تميزه عن كل الدروب المحكومة بالعتمة، نجاهد للنفـاذ إلـى البراح، للتشعب في حيز أكثر اتساعا فلا نملك، في الزمن الفائت كان الزمام براحا يرتعـون فيه لكنهم لم يورثونا إلا القليل، وحتى ما جاهدت لامتلاكه أصبح بلا قيمة، الأرض التي فتحت عيوني وحسبتها قادرة بطرحها على ستر الدار ناءت بحملها البشري، في صباي حسبتها تكفي وأنهم لم تفرض عليهم حدودا وإنما اختاروها عند المدى الممكن لنـا أن نرعـاه، واكتشـفت الحماقة عندما وجدتها أضيق من جهدنا، وأعجز من أن تفي بالمطالب، كبر الأولاد وآن لنـا أن نفكر في نصيب الولد ونصيب البنت، أن نسأل أنفسنا إن كان يكفي لفتح بيت الولد مـنهم فدان يتيم، مصطفى علمناه صحيح ووظفناه صحيح إنما بعشرة جنيهات، دبلوم التجارة الـذي يحمله آخر ما كنا نتمناه في مشوار الصرف عليه ومحمد ظل في الدار، أصبح في مثل طولي وأعرض مني وجرؤ لسانه على المعارضة والعناد، عينه على الأرض وحساباته تدور حولها، ومحروس أصغر الصبيان علمناه أو كدنا أن نعلمه إعدادية عامة ومدارس الجيش كانت ملجأه المختار. أما البنات فما كن يطلبن إلا الستر والجهاز. وهـل يجـوز أن يـرثن فـي الأرض ويتركن الأخوة في عسر وضيق؟

فجأة يفيق الواحد من نومه الطويل رغم أنه كان يحسب روحه صاحيا وواعيـا لكـل شيء، يفيق لنفسه فيجد روحه محشورا في زمرة المساكين بحق، يكتشف أن مسـتقبل الأولاد هزيل، الفدان الوحيد الذي سوف ينوب الواحد منهم ربما يساعد واحدا مثل مصـطفى لكنـه يعجز بالطبع عن فتح دار لولد مثل محمد، محمد يطلب منا بعناد أن نزوجه تماما مثلما كنـت أفعل أيام برهوم وجدي عبد القادر، عينه على الأرض، على أنصبة البنات، يقـول بثقـة إن أرض البنات له بالرضا أو العراك، أقول لروحي إن فرعنا خاب وأن دربنا كله لم يفلح فـي شيء، سوف تتكرر الحدوتة القديمة، يطمع الولد في نصيب الولد والولد في نصيب البنت وكل واحد يجاهد أن يزرع الحد بعيدا عن حده الشرعي ليعيش. ولما يكتشف الواحد مـنهم ضـيق الحيز الموروث يسخط، ربما يجحمني في تربتي ولا يطلب أيهم لنا الرحمة.

نحكي عن الستر وعدم الفضيحة، سترنا أكذوبة تكلفنا شراء ثوب الكشمير لزوم حسن الهندام، نتمسح في سعر المتر وأجرة التفصيل، ليقال عنا لخلق الله إننا ما زلنا مستورين، أما الفضائح فهي آخر ما يمكن أن تلحق بنا، على الأقل لن تصل إلى أسماعنا فنحن أولاد الأصول، فما زال لنسل الحسين حقا في حسن السيرة وسلامة الأصل يا كفر عسكر فمن فيكم يا رجال الكفر من نسل الحسين ليدخل معنا مباراة الأصول؟ أصلنا بشهادة الكل ثابت وفرعنا في السماء، أن يقال عنا ما يقال دون أن يصل إلى آذاننا فهو مباح، أن يقتل على مشرف كفرنا واحد منا بيد مجهول فليس في الأمر عار أو مهانة، ألم يستشهد جدنا الحسين ويصبح سيد شباب أهل الجنة؟ أن يتوه ثأرنا ويخفى على جهد وكيل نيابة المركز فيسر إلي بأنه حفظ التحقيق في مقتل سيد عوف لأن القاتل مجهول شيء بسيط وليس فريدا في نوعه، أن يتعلق أبي حتى هذه الساعة على وهم قدرتي على الثأر له أو حتى معرفة الفاعل وأعجز عن الفعل شيء لا يعيب، المهم أننا ما زلنا ندب على أرض ورثناها ولم نفرط في شبر منها، امتزجنا بها وراعيناها قدر المستطاع، عشنا على ثمارها وطرحها المبروك، لم نعرف الغش ولا سرقنا ولا قتلنا الضعفاء ولا حتى دخلنا المركز في تهمة، ومهما ثرثرتم يا هياكل كفر عسكر حول ما أصابنا به الزمان من بلوى فلن تنالوا منا، مهما تراجعنا أو انزحنا غصبا عن مركز الصدارة في الكفر فنحن أيضا أولاد عوف.

قال جدع أفندي ممن يتسكعون على البوابة:

ـ هو ده صالح عوف؟

لما سمعت الاسم وقفت فسكتوا، ظللت واقفا في انتظار أن ينطق لكنهم ظلوا صامتين، كنت أنظر إليه متوقعا أن يبدأ بالحديث مرة أخرى، همس أحدهم في أذنه فضحك وقال:

ـ واحنا مالنا، اللي على رأسه بطح يحسس عليه.

كانت المسافة بيني وبينهم خطوات، وكانت العصا في يدي عندما لوحت بها رمحوا ما عدا هذا الأفندي، قلت لنفسي: أبطحه هو ليتحسس بطح رأسه بدلا من أن يعرض بنا على البوابة، كان طرف العصا قد فتح جبهته وسال الدم وتجمع الخلق وسألوني عن السبب فلم أرد، سألوه فكان صادقا لما قرر ما قاله بالحرف، قلت له:

ـ حسس على رأسك بقى.

وضحك البعض بينما اهتم الآخرون بربط الجرح بشاش من دكان شاكر الذي خرج وجاء إلي وجاهد أن يفهمني أن الأفندي لم يخطئ في حقي وأنه لم يكن يعنيني في شيء وأنني تسرعت وربما كنت أصبته إصابة خطرة وهو ابن عمه ولولا القرابة ما كان يسكت، أشحت له بيدي قائلا:

ـ خبر إيه يا شاكر، انتوا حتعلقوا المشانق ع البوابة؟ لامم شـوية صـياع حواليـك وفاضيين للتريقة ع الرايح والجاي.

ابتعد شاكر، قلت إنه من غير العنف ما عشنا في كفر عسكر، لولا قدرتنا على الدفاع لداسونا وضحكوا علينا، في الطريق إلى الدار كنت أسأل نفسي عن البطح الـذي قـال عنـه الأفندي، ربما حالة أبي، وربما موت سيد، لكن سيد ليس غريبا على شاكر، هو أخـوه مـن شوق فكيف يعايرني به قريبه، أليس له في العار نصيب إن كان موته يستحق المعايرة؟

أيام الصبوة كنا نسوق أولاد شلبي أمامنا، هذه أيام خسيسة، يتصدرون لنا في وسـط البوابة، العنف أيامها كان عنوانا للجسارة والقدرة واليوم وسـيلة للـدفاع وإسـكات الألسـنة المفلوتة، فليأت أولاد شلبي كلهم، فليأت رجال كفر عسكر بما فيهم أولاد عوف أيضا، فلأكـن وحيدا في مواجهة الكل، الناس لا تتركنا في حالنا، أما كفاهم ما صرنا إليه، أي بطـح علـى رأسي لابن الزانية، أي بطح هذا الذي يتكلم عنه، صالح عوف يلعب معهم؟ مـالهم بصـالح عوف، الزمن دوخ الخلق وهم يتسكعون، زمن أغبر حير النـاس والأفنديـة ذوي الـرءوس العارية يتمسخرون على أسياد أسيادهم، يتنطعون متجاهلين عارهم المبين، كل رجال الكفـر يعرفون حكايات جماعة شلبي وفضائح نسوان جماعة شلبي، ربما كان لكل رجل من رجـال جماعة عوف فضيحة تخصه، قد يقولون عن غانم المرابي الكثير تماما مثلما نقول نحن عنه، نحاس دارنا في حوزته رهنا لسلفة، هو أعرف على كل حال بسقطاتهم، في دماغه سجل كامل عن كل العورات التي انكشفت لحريم جماعة شلبي، ربما كانت حميدة من أقاربك يا شـاكر، إنما هي من نفس السلالة، اسمها حميدة مصطفى شلبي، وحكايتي معها معروفة، لولا سيد مـا كنت توقفت عن معاشرتها، كنت أعاشرها عيني عينك وعلى رءوس الأشهاد، فـي أرضـها كنت أمارس معها اللعبة ولم يجرؤ رجل من أولاد عمومتها على فتح فمـه بكلمـة، عشـيقة مجانية من نسلكم يا أسياد الكفر ركبها صالح عوف، أي بطح فوق رأسـي، سـلاحي غيـر المرخص كان يزغرد في الأفراح وفي ليالي الري والحصاد، أسكتكم يا من تحملون البنـادق المرخصة ولكنكم في الداخل من أنفسكم جبناء، تعرفون أن أيامكم في الدرب لن تطول، أنـه سوف يجيء الزمن الآخر ونستعيد بالغضب ما ضاع، ولو حتى ظللتم على حالكم فلن يطولنا موكب الأنذال والمتنطعين، ربما أجرتم على سيد من يقتله، ربما لم يضع دمه هدرا وتنكشف الأسرار يومها ينسى الواحد كل شيء ويحمل سلاحه في وضح النهار ويقضي على الفاعل أو من أجره مع من يتعرضون له، وينتهي كل شيء.

كنت قد أمرتهم بعمل راكية نار وتدثرت باللحاف، وكانت الرطوبة تنفذ فـي العظـم، غفلت عيناي بعدما أحسست بالدفء يطرد الرطوبة من المندرة، في النوم رأيت جـدي عبـد القادر، كان يعاركني في المنام، لكني حاولت الفرار منه يلاحقني، ينظر إلي بغل ويطـاردني

فأرمح، في يده طفل وليس للطفل ملامح مميزة لكنني كنت أرغب في أخذه وأعجـز، كلمـا اقترب منه استخدمه في ضربي بدل العصا، يتحول الطفل في يده إلى عصا، أسـرع الخطـو فيلاحقني بها، أتعثر وأقع وأوشك أن أستسلم فأجد الطفل يهوي فوقي وكأنه حجر طاحون كبير فأفز من رقدتي، أهرب، أرغب في أخذه فأراه معلقا في الفراغ لا يسـقط ولا يختفـي، فـي متناول اليد وبعيد عنها، أحس الخوف من احتمال سقوطه وتفتته وكأنه ولد من أبنـائي، أجـد جدي يعود، يلتقط الحجر الطفل ويغيب بينما أناديه بعزم صـوتي ولا يجيـب، يغيـب عـن الأبصار وأناديه وأحس اختناقا في صدري وأئن صارخا بلا صوت، أجدني مقيدا وعاجزا عن الحركة الطليقة، عن إخراج صوتي المحبوس، أجمع كل قواي في صرخة: إوعى، إوعى يقع، وعيتها وسمعتها واضحة، صوتي الخارج من داخلي سمعته ففزعت، كان اللحاف ملفوفا على ساقي اليمنى بحيث يشل حركتها، نظرت حولي فوجت الدخان المتجمع في أركـان المنـدرة جعلها تعوم في سحاباته المتكاثفة، نظرت فوجت الراكية ما زالت تدخن. قمت وأخرجتها مـن المندرة لاعنا الأولاد الذين سكتوا ولم أسمع لهم صوتا، تناولوا جميعا بعد أن أوشـكوا علـى خنقي بالدخان، خفت من المنام، قلت اللهم اجعله خيرا، تذكرت كابوسا شبيها ليلة مقتل سـيد، أحلامي تفسرها الأحداث التالية، خفت على مصطفى، واستعذت بالله من الشيطان الرجيم، لـم يكن النوم راغبا في معاودة المجيء فجلست وحدي، سمعت صوت الكلب يعوي، نفس العواء الجريح ونفس الكلب الغريب، خفت وتجسد في دخان المندرة وجه سيد وغصبا عنـي بـدأت أسترجع ما جرى ليلتها وحلم الليلة يشغلني على مصطفى ابني.

كان الكلب يعوي وكلاب الكفر تنبح وتجاوب مع النباح والكلب يعوي، ليلتها نظـرت من شباك المندرة فوجدته يقعي تحتها ويرسل عواءه، قلت للكلب: امش لكنـه ظـل يعـوي، كررتها فكرر هو العواء، أخذت العصا وفتحت الباب واتجهت ناحيته فابتعد خطـوتين وراح يزوم ويعوي، اقتربت فابتعد محتفظا بالمسافة بيني وبينه بحيث يصعب أن تطولـه العصـا. تكررت خطواتي ناحيته وخطواته بعيدا عني، تناولت حجرا فابتعد أكثر، كان كلبا أسود الشعر فحلا، تبرق عيناه في الظلمة وعواءه الجريح المهان يتردد على مسمع مني ولا يود أن يكف، كدت أطارده إنما قلت لنفسي: أنت مجنون يا صالح لتطارد كلبا في منتصف الليل، كل كلاب الدنيا تنبح ويستحيل إسكات الكلاب، سمعت عيارا ناريا ينطلق ورجعت متخوفـا أن أصـاب بنزلة برد ظللت أتقلب في السرير والنوم سلطان عزيز لا يجيء، ليلتها تذكرت سـيد، هـف على دماغي بلا مقدمات وجعلني أفكر فيه.

في الصباح فات محمد عطا بالمواشي، كان براد الشاي يغلي والفطور على الطبليـة، ألقى تحية الصباح وعزمت عليه بالفطور، قال وهو يعبر باب الدار تتبعه المواشي:

ـ بيقولوا فيه نفر مضروب عند أول البلد.

سألته من باب العلم بالشيء:

ـ مضروب بإيه؟

قال مكملا ما قاله دون أن يبدو عليه أنه سمع السؤال:

ـ دا الدنيا مقلوبة هناك والعمدة بلغ المركز.

لم أهتم، كفر ملعون، كل يوم عركة ووجع دماغ، بدأت في الفطور، بينما كنت أشرب الشاي وجدت الولد محروس يدخل الباب رمحا، وقف مكانه ينهج، كان الوجه مخطوفا وكأنـه هارب من أحد قمت بسرعة أنظر من الباب فلم أجد أحدا. سألته:

ـ مالك يا وله، حد كان بيرمح وراك؟

سكت الولد فعدت أسأله:

ـ جرى إيه، كنت بترمح ليه؟

ـ رحت عند الكوبري أتفرج، الناس بتقول عمك سيد..

سألته.

ـ ماله عمك سيد، أتكلم.

ـ بيقولوا هو اللي مضروب عند الكوبري..

لم أسمع ما تبقى، تناولت العصا ورمحت حافيا في اتجاه الكوبري، حسبته يتعارك مع أحد ويمكن أن أجده ما زال يتعارك وربما أصل قبل أن يفلت من عاركـه، سـمعت النسـوة يتهامسن:

ـ أخوه، إيه ياختي؟ ـ دا صالح ابن عوف، أخوه.

عندما وصلت لم أر سيد، وجدت العمدة واقفا وجنبه ابن بهية وضابط المركز وبعض الرجال وجمع من النسوة في ركن من أركان الطريق الزراعي.

أحسست أنني جريت مشوار بلا فائدة، احترت فلم أعرف كيف أرجع، شعرت بشـيء من الحرج من نفسي، وقفت مكاني فاقترب مني نفر لا أعرفه وهمس:

ـ دا مضروب ظرف ف قورته من ليلة امبارح.

ـ ابن مين؟

نظر إلي واستنكر عدم معرفتي قال:

أنكرت أنني أعرف، جاء آخر وآخر قال أحدهم:

ـ أنت ما تعرفش؟

ـ دا سيد أفندي.

ذهلت، كان يشير إلى كومة من الحشيش الأخضر.

واقتربت ناحيتها لأرى، منعوني لم أمتنع، قال العمدة:

ـ دا أخوه يا حضرة الضابط.. اللي بعتنا له يتعرف عليه.

خلصت نفسي من قبضة العسكري وامتدت يدي إلى أعواد الحشيش الأخضـر، لمـا رفعتها ورأيت الحذاء والبنطلون الأسود

أسرعت إلى الناحية الأخرى ورفعت الحشيش وفوجئت بوجه سيد، كان الدم يغطـي الوجه ويداري الملامح وعلى الجبهة وفي الجانب الأيسر ثقب غويط يمتزج فيه الـدم بسـائل أبيض لعله المخ، العينان مفتوحتان في ذعر مستسلم والفم ملوي ربما عن آهة أو صـرخة أو نداء، تمنيت لو كان ما أره كابوسا يمكن أن ينزاح لو أفيق وأصحو، إنما كان ما أراه حقيقـة، الضابط يجرني بمساعدة العسكري والخفراء وكنت أناديه بينما يقوم أحد العسـاكر بمعـاودة تغطيته، كانوا في انتظار النيابة وعندما جاء وكيل النيابة سألني وأنا ذاهل إن كنت أعرف لـه أعداء فلم أعرف بماذا أجيب، لم يكن له في الكفر أعداء، إن كنت أتهم أحدا بعينه فلم أستطع، قلت لهم لا أعرف، ربما يعرف شاكر لأنه كان أكثر معاشرة له مني إنما لم أقـل أي شـيء، كنت مذهولا، في طريق العودة جاءني أحدهم بالعصا التي نسيتها جنب الجثة نظرت إليها ولم أمد إليها يدي، ما قيمة العصا، كنت قد أتيت لأحميه بها لكن الموت غلبني وأنهى كل شيء.

وجاء الطبيب الشرعي وقيدوا الحادث ضد مجهول وقالوا سـوف يعرفـون الفاعـل فالحكومة لا تخفى عليها خافية، ولما صرحوا بالدفن واشترى فتحي كفنه غسلناه وظللنا ننتظر الرجل عصر اليوم التالي فلم يجئ، ولما دفناه جاء، وصل إلينا ونحن في المدافن، كان بـاب المقبرة ما زال طريا لم يجف طينه، كاد أن يفتحه ويدخل لكنهم منعوه، كان يتحسس بأصابعه باب المقبرة ويسألني عمن قتله، كنت عاجزا عن الجواب لأن السؤال كان مطروحا في دماغي ويحتاج إلى جواب: كنت أتماسك خوفا من مشاركته البكاء أمام الخلق في المدافن، هم علموني أنه من العيب أن يبكي الرجال، من علمهم أنه على الرجل أن ينضح غلا وقهرا ويمتنع علـى البكاء، من فرض عليهم التماسك في لحظات المهانة والتهالك، ولماذا انهار عبد القادر عـوف بنفسه وبكى وهو معلمي وكان سيد رجال الكفر كله، وهل من الواجب علي أن أصـمد فـي مواجهة الدموع أكثر مما صمد؟ لكنني كنت أرغب في البكاء، في أن أنفرد بنفسي وأبكي على كل حالنا، وربما كانت دموعي يومها في طريق العودة هي البطح فوق رأسي، هي العار الذي أستحق عليه المعايرة، إنما من في الكفر يحتمل كل هذه الأحزان ولا تدمع عيناه؟

كأن حياتي كلها مجرد استرجاع يتلوه استرجاع شبيه لـذكريات المـوتى، اجترهـا وأمتص لحظاتها المرة، كأنما الموت هو لحن عمري الحزين غطى على كل الأفـراح التـي صادفتها من خلال عنف ضرباته الرتيبة الصاخبة والتي لا تكف، مشدود للموت والأمـوات بحبال قوية تمنعني من لحظة أعايش فيها الفرح اليسير وأذكره، الـذكريات السـود انسـدلت ستارا أثر ستار يحجب عني أشواق العمر بأسره، فتحت عيوني فلم أر الشعاع وإنما وجـدت

العتمة، كأنما الموت هو قدري وعالمي، لربما كان صدفة أنني جئت في وقت لأشهد سـقوط فرعنا من شجرة جماعة عوف، شاهد مطعون في جده وخاله وعمه وأبيه وحتى الأخ الوحيد، وربما تدور العجلة وتطوي في حياتي واحدا من الأولاد، أشهد الفرق بـين أمسـيات الـزمن الفائت والتهاوي المهان لكل الرجال، وأبقى وحدي هكذا لأروي على من يجيئون من خلفتـي سيرة الرجال، وربما تنتهي المناحة وتشرق شمس الأيام البيض، ينزاح الغم وتولد الأشـواق، تأتي خلفه جديدة قادرة على زرع الأحلام وطرح الأمنيات، على شد الزمن الأصيل من حيث غاب والاحتماء به من مطاردات الموت أو استرجاع لحظاته.

أيام نعيشها مستورين أو واهمين في الستر، تجبرنا قلة الخير على السعي بحثـا عـن شريك يدفع لنا ثمن البهيمة ونسرح بها نسمنها ثم يجيء الوقت الذي يفرض علينا فيه أن نبيع ونقتسم للكسب، بأخذ الثمن المدفوع ويقتسم الفارق من أجل مجرد الاستمرار. نرضى يا رجال كفر عسكر بكل شيء، نرضى بتسليم خير الدار لتاجرة البيض والسمن، نرضى بـأن يـدينا شاكر بثمن السكر والشاي والدخان، لتظل الدار مفتوحة، ليبقى من رائحة عبد القادر عـوف نفس أو أنفاس تتردد تحت سقف داره، ليقال إنه لم يعجز عن مواجهة الأيام العسيرة، ولعـل الخير يأتي، لعل ضروع البهائم الجافة تمتلئ بالحليب والدسم، ولعـل الأرض تـزود غلتهـا وتمتلئ الأجران في مواسم الحصاد التالية، لعل الخلفة تفلح وتعوضنا عمن راحوا، كلما رأيت مصطفى تذكرت سيد، وكلما برطم محمد تذكرت صبوتي وعنادي، ولعل من راحوا خلفوا لنا بركتهم، لعلهم يحومون حولنا يطلبون أن نبقى، لنذكرهم بالخير ونترحم عليهم كلمـا جـاءت سيرتهم وإلا فمن لهم في هذا الكفر يطلب الرحمة ويعيش حاملا من بعدهم أمانة الاسم الأصيل في هذا الزمن العويل؟

*

حكايات المدندش

في كفر عسكر

النّسافة وزمانها

• ----------

سوف أحكي لكم حكاية الست النسافة وعيالها قبل أن يحين الأجل المحتـوم وينتهـي العمر فينساها الناس أو يغيروا ترتيب أحداثها أو يصبح عاليها واطيها شأن كل شيء يفـوت عليه الزمن الدوار أسرع من الساقية، والناس في كفرنا وكل الكفور المجاورة يولدون البغلـة ويعملون من الحبة قبة، صحيح أنني منهم، من نفس ناس الكفر "الأزرق" لكنني أختلف عنهم، عشت وسطهم صحيح لكن لكي أتفرج عليهم قبل أن أفرجهم على أرواحهم، أقلد أصـواتهم أو خطواتهم فيضحكون، حتى حضرة جناب العمدة الجديد يضحك عندما أقلد مشـيته أو أتنحـنح مثلما يفعل شيخ البلد العجوز في أنصاف الليالي، وربما أقلد لهم صـوت الثـور الهـائج أو الجحشة طالبة العشر، أو أنادي مثلما يفعل رجب الأعور عندما يسرح في دروب الكفر بحثـا عن فردة حلق مسلوتة من أذن طفلة أو بطة شردت فوق أسـطح الـدور وتاهـت أو حتـى صديري طيرته الريح، ينادي ويمني الخلق بالمكافأة الحلال، أنا حسنين المدندش، حلاق حمير الكفر ومداوي جراحها، طبال الكفر وزماره، رداح الكفر ونداب الموتى والمغـدورين وكـاتم أسرار النسوان، لا خلفة ولا عيل وأنا الذي ولدت المواشي، تنفتح الأبواب إذا قصدتها، أتعشى وأشرب الشاي ولي من كل ذبيحة نصيب معلوم، ولساني حصاني المفلوت يوشك أن يرمينـي في الهلاك لولا لجام العقل، في طفولتي وصباي حفظت نصـف كتـاب الله وحملتـه علـى صدري، لكنني في صدر شبابي استدرت وانحرفت وسافرت ورجعت وقرأت كتب الأفنديـة وتلامذة المدارس، كنت أشحذها شحاذة أو أسرقها سرقة، أقرؤها وأداريها دون غرض معلوم، كتب عن الجن والناس والبلدان البعيدة وتواريخها، عن البحار والجبال وأنساب القبائل القديمة وسلالات الغجر، سافرت ورجعت، ومن حدود بلاد النوبة قبل التهجير حتى شـطوط البحـر المالح عرفت ناس وعرفني ناس، ورغم الفقر وقلة الحيلة معدود في الكفر ومحسوب حسابي، وأنا غرضي أن أحكي لكم حكاية النسافة، وأعرفها لمن لم يحضر أو يشهد أو يعـايش مثلمـا فعلت، وأنا لا لي في الثور ولا في الطحين، غاية ما هناك أنني ضحكت في عبي مرة، كانت ضحكة عاقلة في الأول، وكان من الممكن أن تفوت مثل آلاف الضحكات التي فاتـت، لكنهـا كبرت وزادت عن حدودها، مطها شيطان ومطها حتى جلجلت في أركـان الـدار وخرجـت

للشارع، سرحت في دروب الكفر مثلما كان رجب الأعور نفسه يسرح في دروب الكفر، قال الناس للناس إن حسنين المدندش قد انخبط في عقله وأنه على جناب العمدة مسـئولية طلـب السراية الصفراء التي هي في العباسية أو التي هي في الخانكة، أنا نفسي قلت لنفسي إن العقل الموزون الساكت قد أصابته بالفعل لطشة غير معمول حسابها، وكنت أقف في أمان الله أمـام جثة المرحوم رجب الأعور مشرفا على الولد ابن بحر الذي يغسله وبعينه الحولاء ينظر إلـى الكفن المفتخر من الحرير الياباني سبع طاقات، لعلني فكرت أن الولـد ابـن بحـر سـوف "يسلته"من فوق جثة رجب الأعور بعد أن يدفنه، لعلني فكرت أن رجب الأعور الـذي عـاش عريانا وجوعانا أو هفتانا وفي بعض الأحيان مضروبا على قفاه أو مزغودا في صـدره هـو نفسه رجب الأعور الذي تجمع من أجله كل أكابر الكفر والكفور المجـاورة بمـا فـي ذلـك حضرات العمد، مسكينا عاش ومستورا من حيث لا يحتسب يموت، لو رأى نفسـه لدقيقـة واحدة وهو محاط بكل هذا الاهتمام لتخلص من فقر الـدم والبلهارسـيا ودود الـبطن وتلـك الأمراض الأخرى المخفية التي كان يحملها ولا يعرفها أحد، لعلني فكرت في كل هذه الأشياء في لحظة واحدة فانفلتت الضحكة، ولعلني قرأت في عيون الناس خوفهم، أراهن بكل ما تبقى من عمري أنهم جميعا كانوا يرغبون في الضحك ويكتمون الرغبة، ناس كفرنـا "البرتقـالي" تنقصهم الجرأة يا ناس، نقصت قدرتهم على أن يقولوا للأعور: أنت أعـور، نقصـت فـيهم الرغبة في الضحك والفرح ونسيان الهم الراكز على القلوب، ولأنني ضحكت وحـدي وفـي حضرة كل أكابر الناحية فقد أبعدوني بالقوة الجبرية وأنا أضحك وأضحك، أتمثل وجـه ابـن النسافة وقد زاغت عيناه وانحنى قفاه. وأراه وقد ارتمى على الأرض بحثا عن مداس حضـرة العمدة ابن العمدة "وأنا في عرضك وطولك، وأنا وقعت من السماء وأنت يا جنـاب حضـرة العمدة تلقيتني، ما لي في الكفر غيرك، أنت أهلي وناسي وعزوتي إن كانت لي فـي الكفـر عزوة"، وكلام مثل هذا كثير سمعته والعمدة جامد في مكانه لا يرد بخير ولا بشر، لا يعد ولا يرفض وكأنه يشجع الولد على الاستمرار، كل هذا رأيته مثلما رآه غيري لكنني ركبته علـى بعضه وزودت عليه ما كنت أعرفه عن النسافة وابن النسافة ولا يعرفه الناس فكبرت الضحكة والموت حاضر يحوم معلنا عن نفسه بالارتكاز على جثة رجب الأعور، وفي كفرنـا وكـل الكفور ينكتم الكل في حضور الموت، أشقى الأشقياء وأضعف الضعفاء، أغنى الأغنياء وأفقر الفقراء يتساوون مثلما يتساوى الأتقياء والمفسدون في الأرض، كلهم كلهـم يحصـلون علـى الرحمة ودمعة الإشفاق، الغريب والقريب، العدو والحبيب، لكنني نسيت وضحكت، أضـحكني ابن النسافة فأنساني الأصول، ويلزم أن أبين لكم أن موت رجب الأعور في هذا الوقت بالذات كان بكل الحسابات نكبة لعصام ابن النسافة، وقد علا نجمه في السنوات الأخيرة أكثر من كل من علا نجمهم، وكأنه الوحيد المسموح له بالامتلاك من بعد انعدام الملك، ثـم تزويـد حيـز

الامتلاك ومعاودة تزويده في الأرض وعارف سر الزمن، يلاعب الكل ويكسب دائما، وأن أمه النسافة دعت له في ليلة قدر واستجابت السماء، وقال البعض الآخر أنه مجرد "هلفوت"بلا مبدأ باع كل شيء وفرط في كل شيء من أجل القرش وأنه لف ودار حول نفسه وحول الناس مثل حجر طاحونة مشروخ في أساسه وإن لم يلحظ الشرخ غير القلة القليلة التـي قـال بعضـهم للبعض الآخر إن الحجر المشروخ الدائر لابد من لطشه أو كسره، وهاهي لطشـة لا كانـت معمول حسابها عنده ولا خطرت على بال أمه، تلك التي عاندت وعاندت وعانـدت، ركبـت رأسها ولم تستجب لرجاء الكبار أو الصغار، والعند في كفرنا "الزهري"يـورث الكفـر كمـا يقولون، العند يعمي المعاند فلا يلحظ ما هو أبعد من ظل قدمه، وليس في كل مرة تسلم الجرة كما تعرفون، يوم طلاق بنت زهيرة كان يوم، خرجت بقميص النوم، ولولا أن سترتها أمهـا بثوبها وشالها لشافها الناس وهي خارجة من دار النسافة نصف عريانـة ويـا مـولاي كمـا خلقتني، تنازلت عن كل حقوقها، ذهبها وعزالها ومؤخر صداقها وحضانة الولدين، بـل إنهـا قالت لرجال المجلس الملموم من ذوي الشوارب إنها على استعداد لأن تقص شعرها الـذهبي الناعم وأن تهديه للنسافة أم الولد عصام إذا طلبته، وحقي برقبتي يا ناس، لعل المجلس الملموم والذي جاء ليشهد شعر بالحرج فأعفاها وإن كان لا يؤيد جرأتها في اتهام المرأة وابنها بالبخل ودناءة النفس، لكنها على كل حال وبحسابات أكثرية ناس كفرنا ضيعت حقوقها بكلام فـارغ نطق به لسانها المفلوت ساعة غضب، وربما كان هذا الكلام الفارغ نفسه سببا فـي إسـراع النسافة بإعادة تزويج الولد، اختارت بنت نفيسة وضحت بالكثير، استجابت لكل الطلبات وكأنها تنفي بما تدفعه عن نفسها تهمتي البخل ودناءة النفس، صحيح أن بنـت نفيسـة كانـت فـي الإعدادية لكن ما قيمة الإعدادية إذا ظهر العريس المستور في كفرنا؟ قلت لكم فـي الأول أن الزمان دار واستدار، وأنه في كفرنا "الوردي"ارتفع نجم ناس وانطفأ سراج ناس، انكشف مـن كان في الأصل مستورا، وتغطى في غفلة منا من عاش عريانا خلال تلك السنوات الأخيـرة التي تعد على أصابع اليد الواحدة، لكن الأمر لا يثبت على حال أبدا، وسبحانه علام الغيـوب فمن كان يعلم أن زواج ابن النسافة من بنت نفيسة سوف ينتهي تلك النهايـة التـي ذكرتنـي "بدحديرة"الواطية أيام زمان، أيامها كان أشجع ولد فينا يحاول النزول على مهل فيجـد نفسـه يتدحرج غصبا حتى يصل إلى فراغ الواطية وأرضها التي غطاها النشـع، ينعـاص جلبابـه ويجلس في شمسها حتى يجف ويفرك الثوب دون أن يفلح في إزالة كل الأثر مهمـا حـاول، ربما لأن طين الواطية كان لا يخلو من عطن أخضر يلبد في نسيج أقمشة جلابيب العيال ولا يزول أبدا.

يوم وصول العبدة البربرية وعيالها زمام الكفر:

كان حر "بؤونة الحجر"يشويني، وكان حجر جلبابي المملوء بثمار الخيار يرطب قلبي ويشفيني، كان شيطاني قد أغراني في الظهر الأحمر فطاوعته وأعطاني، ساعدني على جمـع خط الخيار من "مدادة" الحاج مصطفى، وكانت الدنيا من حولي ساكنة إلا من طنـين الـذباب السارح من ناحية المدافن، ومن وسط الشرد سمعت صوتها ينادي:

ـ إدلعدي ياللي فايت.

قلت لروحي "صوت غريب" قبل أن ألتفت وأراها بعودها النحيل وسمرة ملامحها التي تميل إلى السود أكثر، أسنانها منتظمة ومشرقة البياض، شـيء مختلـف يؤجـل المشـاوير المستعجلة، قلت وأنا أفرغ حجر جلبابي عند جذع الجميزة العجوز:

ـ نعمين.

وكنت أشرب من زير إبراهيم السقا المحطوط سبيلا لله والذي لا يساويه أي زير فـي كل الناحية في تبريد الماء أو الجوف وأسمعها تكلمني:

ـ يسترها معاك تدلني على دار شبل المنسي يا خويا.

نظرت فرأيت إلى جوارها طفلتين جميلتين، بياض بحمرة وشعر أسود مدهون بزبـدة والعيون شاردة لغزالتين في الثانية والثالثة من العمر فقلت يا سبحان الله، وكـان هنـاك فـي الناحية الأخرى بالقرب من كوم الخيار ولد في الخامسة بعينين مدورتين تنظران بجرأة بينمـا يقضم الفم من خيارة وفي القبضة الأخرى خيارة، أمتلكهما وتأكـد مـن امتلاكهمـا والعبـدة البربرية تقول بصوتها الخافت الذي يؤيد أكثر مما يحتج:

ـ يا وله..

ـ سيبيه.

قلت لها وأنا أتناول خيارتين وأمسحهما في ذيل جلبابي وأناولهما للبنتين المتـرددتين في الأخذ لولا التشجيع:

ـ غريبة يا ست؟

ـ غريبة وقريبة.. يستر عرضك ويقويك.

أقول لكم الحق، تعاطفت معها، كانت تبتسم ببشاشة وضعف فتبرق أسـنانها القويـة المنورة، وقلت لنفسي أنه من الممكن أن يعشق الرجل امرأة بسبب انتظام أسنانها وينسى أنها بربرية، ثم استعذت بالله من شياطين الظهيرة، قلت وأنا ألمح العربجي حسن عمـارة يسـوق البغلة المعاندة:

ـ لمي الخيار ويايا لجل ما نركب مع العربجي اللي جاي دهه.

شاورت لحسن عمارة فأوقف البغلة "الحرنانة" بعسر حتى ركبنا، وعندما ساقها سألني:

ـ على فين يا مدندش بالضيوف اللي ويالك؟

ـ دار شبل المنسي، وصلنا أنت بس لحد البوابة.

ـ أمال الخيار ده كله منين؟ بتاعك؟ دا لسة صابح بنواره.

ـ بتاعي وشاريه م البندر، ح أتاجر فيه يا جلاب البلاوي.

ـ وماله.. بتاعك بتاعك..

عند بوابة أولاد عوف كانوا في الأركان يحتمون من سخونة الشمس ببعض الظـلال التي تكسو واجهات الدكاكين ومداخل الدور، نزلت وساعدت البربرية وعيالها علـى النـزول بينما كان حسن عمارة يشير إلى الخلق وكوم الخيار، يكيدني ويدعوهم لمكايدتي:

ـ خيار المدندش، جايبه لكم مخصوص تبلوا ريقكم وتدعوا له، يعنـي هـو شـاريه بصدق؟ مد إيدك منك له وخذ.

كنت أنظر إلى كوم الخيار الذي يتناقص بسرعة، والبغلـة المعانـدة وقـد طاوعـت بالوقوف ثابتة، والبربرية وقد حملت الولد على كتفها وسـحبت البنتـين إلـى ركـن ظليـل تنتظرني، قلت لحسن عمارة وأنا أشير للبربرية لتتبعني:

ـ اللي يتفضل م الرجالة تودیه الدار ياللي ينحش أجاك.

سمعتهم يضحكون وسمعت تعليقاتهم التي تكشف سر خياري وشيطاني الذي أغرانـي وأعطاني ولكنه تخلى عني وما حماني، جاملت البربرية بكلام لا أذكره حتى وصلنا إلى باب الدار الموارب والغطسان مسافة درجتين سلم تحت مستوى الدرب، خبطت بالسقاطة الحديـد فرأيت وجه أم المحمدي تنظر ناحيتي والبربرية والعيال وتأكل من خلال ما تبقى في فمها من أسنان مكسرة غير منتظمة:

ـ عاوز إيه مننا يا مدندش؟

ـ غريبة وبتسأل ع الدار يا أم المحمدي.. خبر إيه؟

ـ عاوزه إيه يا ختي؟، أنا لا أعرفك ولا شفتك قبل كدة.

ـ أنا مرات المرحوم فرج الله اللي مات في السد، ودول عياله.

بذلك ردت البربرية على أم المحمدي، وعلى غير توقع انسك الباب الكبيـر وسـمعنا صوت "الضبة"وهي تسكن في المشقبية الخشبية، تبادلت مع البربرية نظرة استنكار وقبـل أن أقول لها رأيي في أم المحمدي وقلة أدبها قالت هي وكأنها تفتح أمامي طاقة مسكوكة:

ـ وديني لحضرة العمدة يا مدندش، ينصرك على مين يعاديك.

قالتها برجاء وصدق وعشم جعلني أشعر بأنني على استعداد لأن أسـلمها روحـي إذا طلبت، أنا الغلبان الحاوي فاعل الأفاعيل الذي لم ينتصر على من يعاديه مرة في كل عمـره،

أنا القوال الذي يحتال كل يوم لكي تستمر الحياة ولكي أحمي نفسي من اكتمال الهزيمة، بـلا سند حقيقي يسندني، لا عزوة ولا أرض ولا دار عليها القيمة، وتأتي تلك الغريبة لتدعو لـي بالنصر، كأنها عرفت جرح عمري وحاولت بدعوتها أن تداريه، يعاديني في الكفر فقري وقلة بختي والجهل الحاكم المتحكم في مصائر الواعين، هي القسمة غير العادلة التي ورثناهـا دون أي اعتبار للقدرة، كنت أفكر وأنا في اتجاه دوار العمدة البعيد، وكانت تحمل الولد راكبا علـى كتفها وأحمل البنت الأصغر، ومن درب عوف لدرب شلبي يا قلبي لا تحزن، كانـت أخبـار الخيار قد سبقتني لكل الناحية، وكانوا يشاكسونني على عادتهم لكنني لا أرد، وعندما وصـلنا الدوار طلبت مقابلة العمدة، لعله كان قد صحا من تغفيلة القيلولة لحسن الحظ لأنهم سمحوا لنا بالدخول دون انتظار طويل، عرفته على البربرية وقلت له كلاما في صـالحها وكأنهـا مـن لحمي ودمي لدرجة أدهشت جناب العمدة، لكن المرأة أدهشتني وهـي تقـول للعمـدة بـدون مواربة:

ـ عندي كلام ما يتقالش غير لحضرتك، بيني وبينك يعني، ما تزعلش يا مدندش.

وكأن العمدة كان ينتظر منها أن تقول ما قالته، أشار ناحيتي بإصبع يده فخرجت وأنا أسمع صوته الآمر:

ـ استنى في السلاحليك لحد ما أبعث لك يا وله.

وطال انتظاري واحتمالي لسخافات الخفراء يسخرون مني وهـم ينظفـون السـلاح ويشربون الشاي المصبوب قبل دخولي ويتوعدونني بالحبس في السلاحليك شأن اللصـوص ومن تجوز عليهم "الجرسة" متناسين أنني من أتباع العمدة نفسه، لكن خفراء كفرنا لهم طبـع واحد، يتباهون بالسلاح الميري في الدوار وقد يرتجف الواحد منهم وهو يحمل نفس السـلاح في "الدرك" إذا سمع بدخول شقي إلى زمام الكفر أو عبور جماعة من أولاد الليل مـن سـكة الكفر الزراعية، وعندما يحصل الواحد منهم على كوب شاي فإنه لا يتركه إلا خاويا، يلـوك رشفاته بتلذذ وكأنه يعاير الدنيا بأسرها لأنه يشرب الشاي، هل أغفيت في جلسـتي المركونـة إلى الجدار أم أنها كانت إغماضة عين صحوت منها على نداء البسطامي يطلبني للدخول إلى مضيفة جناب العمدة، كانت البربرية تجلس على الدكة المفروشة والعيال إلى جانبهـا، قـال العمدة شاخطا:

ـ شوف يا مدندش، ح تأخذ وياك اثنين غفر، البسطامي ومرعي، تدخلوا دار شـبل المنسي، وسيان برضاهم أو غصب عنهم ح تسكنوا أم العيال دهه قاعة ستك "عالية"، ومن أي ناحية تدبروا لها فرشة وغطا تكفيها هي والعيال، واللي يعترض جرجروه ع الدوار.

كنا مثل جيش محمد علي الطالع لفتح عكا، البسطامي ومرعي فـي الأمـام وعلـى كتفيهما البندقيتان، وأنا والعبدة البربرية حاملة الولد الراكب "حماري" على كتفها الأيمن، وأنـا

أحمل البنت الأكبر هذه المرة بينما تحمل البربرية البنت الأصغر على صدرها والناس تطـل ولا تفهم، يتبادلون الهمس بعدما نعبر، وعند البوابة وجدنا عشرات الرجال من أولاد عـوف يتقدمهم شبل المنسي نفسه الذي اقترب من البربرية واختطف الولد بشوق ولهفة يشبعه تقبـيلا وضما ثم يفعل نفس الشيء مع البنتين وكلنا في دهشة، لكنه كان يتباكى ويفسر لمـن يطلـب التفسير:

ـ ولاد ابن عمي فرج الله، ولاد الغالي اللي راح ولا رجعش، اللي غطس يا ولداه ما قبش وهو ف عز شبابه، ما عتروش على أثره، زمايله قالوا إنه اندفن ف جسم السد العـالي نفسه، أهم دول اللي فضلوا لنا من ريحته، بس اللي خاف ما ماتش يا ناس، اللي خلـف مـا ماتش.

مصمصوا الشفاه ترحما وإشفاقا وتعجبا واندهاشا ومجاملة، وسبقنا شبل المنسي وقـد احتفظ بالبنت الأصغر يحملها ويضمها ويقبلها، وكان الباب المسكوك قد انفتح على مصراعيه باختيار سكان الدار الكثار، ربما شعر الباب نفسه بقوتنا فانفتح، وكانت أم المحمدي هي التـي استقبلتنا بالترحيب، وفي حضنها أخذت البربرية وعيالها بالتتابع وأشبعتهم تقبيلا حتى شـعرنا بالملل، بعدها شالت المساند إلى الحصير ووضعتها مسنودة إلى الحيطان في قاعة الست عالية المكنوسة، كانت تتودد للبربرية وتعتذر عن جهلها والأخرى تسمع ولا تصدق وتبدو لنا مـن النوع الذي إذا قدر فهو لا يعفي، لكنها سكنت بعيالها في زحمة الدار وخرجنا كل واحد فـي اتجاه، الخفيران المسلحان لناحية دوار العمدة لتقديم التمام، وأنا في اتجاه داري أفكر إن كـان العمدة قد قدم للبربرية خدمة أو أنه عمل فيها فصلا بتسكينها تلك الدار وهو العارف لحالتهـا وطباع سكانها، وقلت لروحي إنه سوف يكون من الصعب أن تحتمل الدار سكانا أكثر وهـي التي تضيق بمن فيها، شبل المنسي وأم المحمدي وأولادهما، ورجب الأعور في المقعد العلوي وسطح الدار، وأم شبل فوق الفرن ووسط الدار تخدم نفسها بنفسها رغم العمى وثقل الحركـة، ثم نعمة الله بعيالها الخمسة الصبيان منذ طلقها مصطفى الجزار وأقسم بأنها بهيمة إسكندراني لحمها أبيض بحمرة لكن مخها جملي، يرمي لها وللعيال "سقط" ذبيحة من كل أربـع ذبـائح يذبحها مدعيا أنه الشرع بحساباته بافتراض أنه زوج لأربع أو من الممكن أن يكـون زوجـا لأربع، تسكن قاعة الست "زين" وحجرة الواجهة محجوزةومسكوكة على أشياء تخص الأستاذ فهيم كاتب الشهر العقاري في البندر، كبير الدار بكل الحسابات وإن لم يسكنها لربع قرن بعـد أن حصل على الابتدائية وعينوه كاتبا يسكن البندر ويطل على الكفر في الأعياد والمناسبات ثم يرحل محاطا بكل سكان الدار حتى يركب بعد أن يدس في كف رجب الأعور ما تجـود بـه نفسه لأقرب الأقربين وهو العارف كما يعرف كل ناس الكفر أن دخل الدار منعدم لا قيـراط

ملك ولا قيراط إيجار ولا بهيمة تحلب، ولولا مواسم الحصاد وزكاة المال والأعياد ما دخلـت الدار حفنة حب ولا انخبز في فرنها رغيف.

نسافة الكفر: نسافة الناحية:

أول شيء اشترته البربرية من البندر كان مجموعة غرابيل، كل غربال شكل وحجـم وعمق، مجموعة غرابيل مختلفة في كل شيء لدرجة تجعل الإنسان يراجـع نفسـه ويسـأل الآخرين الذين لم ينتبهوا مثله إلى وجود كل هذه الأنواع من الغرابيل، وفي كفرنا "النعنـاعي" تسرح الأسئلة وتبحث عن الجواب الكافي الشـافي، سـألوني باعتبـاري مسـئولا فسـألتها وجاوبتني، أراحتهم وأراحتني:

ـ مش كل حبة ولها كيال؟، طيب، يبقى كل حبة ولها غربال، خبر إيه يـا مدنـدش؟ بقى غربال السمسم ينسف الشعير؟ ولا غربال حبة البركة ينفع مع القمح؟ طيب الـذرة كـام نوع؟ والرز والحلبة وتقاوي البرسيم و.. يوه.. نسيت أولع ع الشاي.

قالتها وقامت، شطفت أكواب الشاي المشطوفة، وحطت براد الشـاي فـوق الراكيـة مصقولا ورائقا يفتح النفس، وكانت أسنانها تلمع فيرفرف القلب مثل يمامة وحيدة ولا أجـرؤ على الكلام، أسمعها وأحفظ منها، أكتشف أنه من الممكن أن يكون في هذه الدنيا غرابيل بعدد أنواع الحبوب التي تطرحها الأرض، كل أنواع الأراضي في كل بلاد الدنيا المسكونة، وهـي تمد يدها بكوب الشاي رجعت لقاعة الست عالية وسمعت البربرية:

ـ ح اشتغل نسافة يا مدندش، تساعدني؟

ـ تحت أمرك.

وكان علي أن أفي بالوعد، عرفتها بالأجران في كفرنا في كل مواسم الحصـاد، ثـم ذاعت شهرتها وذاع صيتها فوصل إلى كل بلدان الناحية، يطلبونها بالام "العبدة البربريـة أو البربرية النسافة" أو أم الولد الأسمر "والبنتين البيض" واتفق كل الناس أنها أبرع مـن أمسـك بالغربال لينسف الحب وينظفه من كل الشوائب، واختصرنا اسمها وصار الكل يناديها "النسافة" ويتحدثون عنها "النسافة" وكأنها الوحيدة التي تستحق الاسم وكأنه قبل أن تجيء لم تكن هنـاك نسافات ولا نسف.

قالوا إن العمدة عمل كل الممكن والمستحيل ليحصل لها على معاش باعتبارها أرملـة المرحوم فرج الله واعترض البعض لأن فرج الله اختفى ولم تطلع له من الحكومة شهادة وفاة، وأنه لابد قبل الموافقة على صرف أي معاش رسمي من شهادة وفاة رسمية مختومة بالنسـر، لكن العمدة تبع الحكومة ولن يغلب في استخراج شهادة وفاة، وقالوا إنه ساعدها فـي امـتلاك الدار من كل الورثة غير المقيمين فيها، أولاد حبيبة وأولاد زاهية وأولاد الست عالية وورثـة

الحاج مرسي، والحقيقة التي أعرفها أن المرأة أرادت أن تؤمن وجودها فدارت علـى بيـوت الورثة وهي تسحب عيالها تستدر العطف وتطلب التنازل عن حصص هزيلـة مـن ميـراث هزيل في دار هزيلة هي في واقع الأمر أوطى دار في الدرب وكثار كان الورثة وكثيرة كانت مشاويرها لكنها أثمرت على كل حال حق الولد في امتلاك أربعة أخماس الدار، بل إن الأستاذ فهيم كاتب الشهر العقاري أخلى لها حجرة الواجهة التي ظلـت طـوال السـنوات مسـكوكة ومسكونة بالفئران وعناكب الجدران.

أية واحدة مكان أم المحمدي كانت تشيط مثلما شـاطت وأكثـر، ولأن أم المحمـدي معروفة في الكفر أكثر، ولأنها تدخل بيوت الخلق أكثر- تساعد في خبيز أو عجين أو تطحن حبا أو تبني صومعة للغلال فوق سطح دار أو تساعد في غسيل أو طبـيخ أو أي شـيء، أي شيء يحتاج لجهد مبذول بمقابل أو بغير مقابل إلا الود والسماح لها بأن تفك نفسها بكلام عـن النسافة وأفعال النسافة وكيد النسافة وبحرها الغويط الغويط الذي لا يعرف النـاس "قـراره"، كانت النسوان في كفرنا تسمع وتهمس في الآذان بما تسمع، حتى تلك الحكايات التي يصـعب تصديقها عن عشق رجب الأعور للنسافة ورغبته في الزواج منها وتضحيته بشـقاء عمـره طوال السنوات لكي يرضيها، وكيف أنها وعدته ولم تصدق أبدا، واريت له باب الرجاء ولـم تفتحه أو تقفله فصار خاتما في إصبعها تسيره بحسب ما تشاء وقتما تشاء لكنها فـي الآخـر قالتها له بعد أن فاته كل قطار وما عادت فكرة الزواج منها أو من غيرها تشغله بحق مثلمـا كان في السابق، قالتها له:

- دا حنا أخوات يا رجب، ومن غير جواز أنت سندي وراجلي طول السـنين اللـي فاتت، يرضيك يا خويا معاش العيال ينقطع؟ ما هي اللي بتتجوز معاشـها ومعـاش عيالهـا بينقطع.

ورد عليها بشهامة وهو الأبيض وهي البربرية:

- لا.. ما يرضنيش.. بلاش جواز يا أم الولد.

تقول أم المحمدي لنسوان الكفر إن رجب الأعور كان يسرح في الغيطان أو يشـتغل في دور الخلق ويرجع للبربرية يفرغ أمامها ما حصل عليه من ثمار، خضراوات أو فاكهـة، أو قروش نقصت أو زادت، يرميها على الحصير في متناول يدها ويقـول عبارتـه التـي لا تتغير:

- رزق العيال.

وأي واحد مكانه كان من الواجب أن يعمل ما عمله رجب الأعور، أولا لأنه ابن عـم المرحوم فرج الله، ملزوم بالصرف على الأولاد، وثانيا وهو الأهم أنه لم يجد فـي الـدار أو الدرب صدرا حنونا أو قلبا طيبا يريحه وهو العطلان أكثر منه الباحث سعيا عن رزقه في كل

الحالات يأتيه لباب داره، وفي كفرنا لم يمت واحد بالجوع كما تعرفون، وهو وإن جار الزمان واحد من أولاد عوف، أصل البلد رغم كيد الكيادين.

تزويج البنت الأكبر:

دخلت كفرنا سيارة ملاكي أكبر وأفخم من سيارة المأمور ومن سيارة ابن الباشا الكبير ساكن "سرايته" في وسط البندر، أنا لا أعرف في أنواع السيارات ولا أسعارها لكنني آخـذها بالشبه، والسيارة التي دخلت كفرنا في ذلك الصباح الصيفي الرائق كانت أفخم سيارة رأيتهـا في حياتي، رمحنا نتأكد من دخولها ناحية البوابة فرأيناها، كان السائق البربري يحاول أن ينفذ بها داخلا الدرب ولا يفلح، حتى عندما تدخلت متطوعا لأكون دليله لم ينجح فـي أن يفلتهـا ويدخل، ولم يكن ذلك بسبب نقص براعة في القيادة كما قال البعض، كان السبب الحقيقي هـو طول السيارة وعرضها وضيق مدخل الدرب وزاوية البوابة، ما غاظني وجعلني أفعـل مـا فعلت أن الزجاج المسكوك كان معتما لا يكشف من يركب بداخلها، قلت للسائق البربري الذي نزل وجعل ينظر إلى المسافات الخالية من الأركان الأربعة إننا نستطيع لـو أراد أن نحملهـا بعون الله فاستمهلني وفتح الباب الأمامي وتحدث إلى الراكب الوحيد في المقعد الخلفي شارحا له فكرتي، فهز رأسه لا بس العقال موافقا، اغتظت وقلت لروحي إنه لو كان الملك فـؤاد أو الوالي محمد علي نفسه نزل كفرنا في الحلم راكبا مثل هذه السيارة لفضل النـزول والمشـي حتى يصل إلى دار من يقصده، سألت السائق البربري عن قصد الراكب لابس العقـال فقـال بأدب:

ـ دار الست هانم أم عصام فرج الله.

كدت أضحك من بلاهة البربري لأن الدار كانت على بعد خطوات قليلة ولأنـه قـال على البربرية النسافة ست هانم، لكنني لم أضحك، قلت أعمل ما يشفيني وناديت على الرجـل ثم هتفت:

ـ هيلا هوب، بإيدينا يا رجالة وشباب الزمن الوردي في الكفر الوردي، هيلا هـوب ارفع، وانزل بشويش.

كانت السيارة قد أصبحت خلف خلاف، مقدمتها اليسرى مدفوسة في جـدار المـدخل الأيسر ومؤخرتها اليمنى في تجويف جدار "الملقف"، شيء مسخرة معمول بفعل القوة الغشيمة عندما تطاوع دون أن تفكر في غرض من يقودها ولو انكسر فانوس أو انعوج رفرف مثلمـا حدث بالفعل وقد انحشرت السيارة "بورب" بحيث أوقفت الحركة من الناحيتين، وفـات وقـت قصير لكنه كان كافيا لأن تتحول البوابة إلى سامر حقيقي من الناس والدواب تتوسطه السيارة، يطالبونني دون خلق الله بتخليص مدخل البوابة من الخازوق المعدني المحطـوط بميـل فـي

مؤخرة البوابة، قلت لهم توسع لبوز السيارة حيزا من زاوية جدار المـدخل الأيسـر المبنـي بالطوب الأخضر والطالع من طين أرض كفرنا "الأخضر" فزاموا بين رافض ومؤيد وسـاخر يرغب في إطالة الزمن الضائع، فبدا لي كفرنا "أخضر بزرقة" تلمه زمارة ولا تفرقه عصا ولا شمروخ ولا سلاح في أغلب الأوقات، قلت لنفسي أتصرف، وبإشارة مني فتح السـائق بـاب السيارة الخلفي لأدخل وأجدني إلى جوار الرجل لابس العقال والجلباب الأبيض وقـد احـتفظ بربع لحيته مهذبا بإتقان وبراعة، قلت أستعجله:

ـ ح تتفضل تنزل وتمشي خطوتين، العربية مش ح تدخل.

ـ إيش لون؟

كررت كلامي بأكثر من طريقة وبدا لي أن الرجل يفهم ويتظاهر بعدم الفهم، نوع من العناد الحصاوي الذي يركب البني آدم لأسباب لا نعرفهـا أو بـدون أسـباب فـي الـزمن "الأخراني"، لكن الرجل كان يبدو كالملسوع وهو يهدر بما لا أفهمه مع أنه عربي، وللحظـة انحطت نظرتي على العكازين المعدنيين المركونين في الناحية الأخرى مسنودين على البـاب الآخر، لعلني كنت أراهما ولا أعرفهما، لعلني فكرت أنها لا يخصانه هو رغم أنه أشار إليهما عدة مرات، شعرت بالوجع يمسك كل بطني وأحشائي، بل أنني شعرت بالقرف مـن نفسـي، وبعسر أمسكت روحي، ثم ارتميت ناحية الرجل أقبل رأسه وكتفيه والجزء العلوي من صدره ربما كنت أهدر بالبكاء وأنا أعتذر.

ـ سامحني يا خويا.. المسامح كريم.. سامحني ما كنتش أعرف.

والرجل في حيرته يهدئني بعبارته المكررة:

ـ لا تشغل بالك.. لا تشغل بالك.

كان بطني ممسوكا لا يزال وهم يطلون من الأبواب بانـدهاش وحيـرة، يضـربون الكفوف ويفسر البعض أمرنا للبعض الآخر على أنه قرابة كبيرة وغياب طال ومفاجـأة لقـاء غير محسوب:

ـ يمكن واحد من ولاد عمه.. ولا أخوه اللي من أبوه اللي كان بيحكي عنـه، كـانوا بيقولوا مات تحت قطر، خبر إيه يا مدندش، ما تحمد ربنا اللي لقيته بعد غيبـة، وحـد الله... والله طلع لك أهل يا مدندش على آخر الزمن.

وكلام كثير سمعته، ولابد أن كثرة الكلام، أعادتني للمـأزق الـذي صـنعته عنـدما طاوعت شيطاني الذي أغواني وما أعطاني غير وجع البطن، قلت لروحـي أتـوب وأعمـل الطيب وقررت أن أحمل الرجل على كتفي لحد باب الدار، ومن دون كلام شعرت أن الرجـل فهم غرضي فسلمني روحه أحمله بالطريقة الأفضل، وكان السـائق ينظـر ناحيتنـا بعينـين مطفأتين لا بريق فيهما ولا وهج ولا فهم، نظرة تليق بعبد بربري ينتظر الأمر وينفـذه وقـد

أمرته بإحضار العكازين المعدنيين وأن يتبعنا فنفذ أمري، والعبد يا سادة نوعان، عبد بربـري وعبد غير بربري تماما مثل الحر، حر بربري وحر غير بربري، لكنه شاع في بعض مجالس الجهلاء أن العبد لا بد أن يكون بربريا أسود، لكنني عرفت على امتداد العمر الـذي عشـته والناس التي عرفتها والبلدان التي زرتها والبيوت التي دخلتها عبيدا ببشرة ناصعة البيـاض، عبيدا بمعنى كلمة عبيد في مراكز محترمة وجادهم أبيض، نفوسهم تقبل الضيم وعلى استعداد لتقبيل الأيادي، كل الأيادي، ربما يقبلون يد العبد الأعلى منزلة وهم يعرفون أن نفـس العبـد يقبل في الخفاء يد العبد الأعلى أو السيد الأدنى، وسبحانه موزع الأرزاق على عباده والقـادر وحده على تخليص العبيد من وضاعة أفعالهم وانحطاط نفوسهم، تبارك جل شأنه أعطاني حس الفقراء الذي لا يخيب وزرع في قلبي الجسارة فعرفت أن الدنيا "برطوشـة" قديمـة يسـكنها التراب ويغطيها، وأن الأكابر مناظر والسواقي تدورها المواشي وأن الشـمس رغـم قوتهـا وشدتها لا تقتل دود الأرض، وأن العصا السابقة سابقة، ولأن الموت نهاية كـل حـي كمـا تعرفون فأنا أشهدكم على غيظي من هؤلاء العبيد الذي قبلوا أن يعيشوا أعمارهم عبيدا مع أنه في إمكانهم أن يعيشوها أحرارا، حتى لو كانوا أفقر الفقراء أو أعجـز العجـزة أو أضـعف المحكومين فكل ذلك لا يمنعهم من أن يعيشوا أعمارهم أحرارا، على هذا النحو كنت أفكر يـا سادة وأنا أحمل على ظهري الرجل الخفيف الخفيف مثل "شمال" برسيم محشوش سرقة مـن غيط عدو.

كانت "بحراية" الدار غويطة لكن واحدة من البنتين كانت تضع كرسي حمـام يسـاعد على النزول وكأنها كانت تعرف غرضي قبل أن أصل، وبسلامة الله نزلـت وقـادتني نفـس البنت في اتجاه حجرة المدخل المحطوط تحت شباكها كنبة وتحت الكنبة حصـير مفـروش، أنزلت الرجل بحرص وأجلسته على الكنبة ثم جاورته، وكانت البنت ما زالت تنظـر ناحيـة الرجل وتنتظر، كأنها حسبته لعبة من ألعابي أحركها بمفاتيح مثل "الشيكو بيكـو" فـي مولـد البدوي، لكن الرجل نطق وهو ينهج من التعب:

ـ يعطيك العافية.. ويعطيها.

قال الكلمة الأخيرة وهو ينظر ناحية البنت التي اكتشفت فجأة خطأ وجودها في المكان فغطست في بطن الدار التي بدت لي على غير العادة ساكتة "هس"، ومرة أخرى سمعته يقول لي وهو يبتسم فتظهر أسنانه المنتظمة المشرقة وراء ابتسامته الودودة وهو يمد يـده نـاحيتي بالورقة الخضراء:

ـ يعطيك العافية.

ترددت فدسها في كفي مطوية وكأنه يتعجلني قبل أن يرانا أحد، أخذتها ودسستها فـي جيبي فبانت على تقاطيعه المتسامحة علامات انشراح، وعندما دخلت النسافة أم الولد والبنتين

تبتسم وترحب بالحاج زايد الذي نور المكان والبلد وكل الناحية تأكد لي أنها تعرفه منذ زمـن طويل، كانت ترطن معه بنفس اللهجة، تفهم عنه ويفهم عنها، وكنت أنا مثل الأطـرش فـي الزفة لا أفهم، لكنها اكتشفت وجودي فجأة وتذكرت فجأة أو تظاهرت بأنها تذكرت.

ـ يقطعني، مش عارفة مين اللي كان عيزك على البوابة يا مدندش.

قلت أسلم وأقوم، فكرت وأنا أتلكأ على البوابة وقد خلت من السـيارة التـي تركتهـا محشورة في مدخلها خلف خلاف ولا أدري كيف ولا متى أبعدوها، وقلت لنفسي وأنا سرحان في اتجاه السكة الزراعية أن البربرية طردتني من دارها بلطف وأدب بعـد أن أديـت دوري وأخذت الثمن، تذكرت الورقة فأخرجتها، وتأملتها، كنت قد سمعت عنها ورأيتها مـن بعيـد، لكنني لم أمتلكها أو أحلم بامتلاكها، من غيرها يمكن أن يعيش أمثالي، ومن أجلها خرج شباب الكفر ورجاله، ساحوا في أركان الدنيا، يسافرون، ويرجعون ويتحدثون عن الورق الأخضـر وأسعاره بدلا من سعيهم السابق من أجل تغطية أرض الكفر بالنبت الأخضر، عادوا ولونـوا الكفر باللون الأحمر، بالطوب الأحمر، بنوا الدور الجديدة على جانبي السكة الزراعية وعلـى امتداد البصر ثم دخلوا وهدموا الدور القديمة المبنية بالطوب الأخضر وأقـاموا مكانهـا دورا جديدة بالطوب الأحمر، صار كفرنا الأخضر كفرا أحمر بفضل الورق الأخضـر، يتبـاهون علينا بالقرش البراني ويؤكدون أنه قادر على تبديل الناس وأسعار الناس، زمن برانـي فـتح السادات للخلق بابه فتبدلوا ورطنوا بلهجات غريبة، وفي الزمن الفائت كنا نقول عن القـرش المغشوش والشلن المغشوش ونصف الريال المغشوش والريا المغشوش "براني"، كان أصحاب الدكاكين يدقونه بمسمار على باب الدكان أو جداره أو حتى الفاصل الخشـبي الـذي يفصـل التاجر عن زبائنه.

كنت في الخلاء أدعو الله بصوت ويسمعني:

ـ "يارب الأقوياء امنحنا القوة حتى لا نضعف مثلما ضعف كل شيء مـن حولنـا، الزرع والضرع وفحولة الثيران والتيوس والكباش، خلصنا من الوهن الـذي طـال مجـرى الرياح الذي هو تفريعة من نهر نيلك، ساعدنا على الصد والرد ومقاومـة الـزمن البرانـي والقرش البراني، أجرنا لأننا قبلهم عرفناك وقبلهم عبدناك ولا مجير سواك".

تحت شجرة السنط شحيحة الظلال قعدت، لا تراجعت ولا استخسرت، كانت الورقـة الخضراء مفرودة في يدي وكان عود الثقاب الذي أشعلته يقترب من طرفها باللهب، يشـعلها وتسرح فيها النار حتى تحولها إلى رماد يميل إلى السواد عدا تلك المساحة التي كانت ممسوكة بالإصبعين الملسوعين يتخلصان منها بالرمي في الوقت المناسب فتظل النـار حتـى تحـول الجزء إلى نفس الرماد الأسود المتماسك في البداية لكنه الهش القابل للتفتت عند أقل ضغط.

جهلي في الكفر أكرم لي من معرفتي، جهلي أو ما يبدو لهم أنه جهلي يعيشني بيـنهم، وإذا أظهرت لهم معرفتي بالأشياء جرجروني إلى سكة المشاكل وعاصوني بالهباب، جربـت نفسي عشرات المرات وما اتعظت، ظللت على حالي مفلوت اللسان إذا لزم الأمر وزادت عن حدها المساخر، مكتوما وساكتا إذا هانت ولانت وفاتت على خير، لكن يا سادة هل كان يجوز لرجل مثلي ضرب الدنيا برطوشة أن يسكت وقد شاع في الكفر أن الرجل الخفيف مثل "شمال" برسيم محشوش من غيط عدو قد عقد قرانه بالفعل على البنت الأكبر من عيال النسـافة فـي نفس عصر هذا اليوم بينما كنت أدعو الله في الخلاء أو بعدها بقليل، هل كنت أسكت؟

قلت ما قلت وردحت ما طاب لي الردح للنسافة والمأذون وشاهدي عقد الزواج، قلت أنها باعتها وأخذت الثمن ورقا أخضر، لكن كلامي ذاب في زحمة الأصوات التـي تسـكتني وتلك التي تلعنني والأخرى التي تحذرني لكنني لم أتوقف حتى حملوني حملا ووضعوني فـي حجرة "السلاحليك" ربطوني بالحبل وضربوني بالشوم فانهدت قوتي وانشرخ حلقي من كثـرة الصراخ، فتشوني وسألوني عن الورقة فما صدقوني بأنني حرقتها، لكـن العمـدة صـدقني وأمرهم بحل الحبل، أخجلني يا سادة لأنني كنت قد عرفت أنه أول الشاهدين على عقد القران، شهد العمدة لصالحي يا سادة:

ـ المدندش ده بركة ما حدش ياخد على كلامه، دا درويش وزاهد ف الدنيا ولا حدش عارف قيمته، علي النعمة نهار ما يموت لأبني له مقام على حسابي.

قلت لنفسي أسايره، أبين له ولهم علامات جهلي وقلـة معرفتـي، جهلـي يعيشـني ومعرفتي تهينني وتقلل من قيمتي، تعوصني بالهباب وسخام النيلة، هل كنت بارعا وأنا أحول أكابر الكفر إلى سامر يتفرج على ملاعيبي ويضحك، أو أنهم هم الذين كانوا يرغبـون مثـل العمدة أن أكتفي بدور الطبال الزمار النداب الحاوي، أفرجهم علـى أرواحهـم ولا أتجـاوز حدودي؟ وهل عقدنا في تلك الليلة صلحا مثل صلح الذئب على الغنم؟ ربما نكون قـد اتفقنـا والصلح خير كما تقولون ونادرا ما تصدقون.

تزويج البنت الثانية:

إذا كان العجوز العاجز ساكن البلاد البعيدة قد استطاع خلال ساعات أن يأخـذ بنـت النسافة الأكبر ويسافر بها ويتسبب في كسر واحدة من أسناني بسبب قلة عقلي وانفلات لساني، فهل كان من الحكمة أن أفتح حنكي بكلمة مع أو ضد حضرة الصول عسران ابـن الأصـول ساكن الدرب المؤمن الذي لا يتخلف عن صلاة في موعدها؟ لا يحب الكيد ولا النميمة وله من الحاجة أمينة بنت عمه خمس بنات، زواج مرتاح، له أرضه وماله ولها أرضها ومالها، عاقلة وراضية بنصيبها لكنها تشاركه القلق وحلمه في أن يخلف ولدا ليرثه ويحجـب مطـامع أولاد

العم والأخوة وأولادهم، ولأنه رجل تقي وعاقل فقد فوض الحاجة أمينة ذاتها لكي تحل المشكلة بما هو لائق.

قال الناس للناس أن الصول عسران رجل أصيل، صبر وطال صبره ولم يطلب مـن الحاجة أمينة إلا بعد أن انقطع عنها الدم وصارت مثل البئر القديمة لا تعطي أو حتـى تعـد بقطرة ماء، وقالوا إنها فكرت واهتدت إلى أنسب الحلول، بنت النسافة، صبية حلـوة تغـوي العابد وهي من نفس العائلة مهما قيل إنها من الفرع المائل، مقدور عليها ومقدور على أمهـا النسافة وعلى الولد ابنها وأقل شيء يرضيهم، هكذا قال الناس للنـاس قبـل زواج الصـول عسران من البنت بأيام، وقبل أن تذهب الحاجة أمينة بنفسها إلى دار النسافة وهي التـي لـم تخرج من دارها أبدا أبدا لتدخل أية دار في الكفر، كانـت تخـرج طبعـا فـي المناسـبات الضرورية، زيارة المأمور في البندر أو الذهاب إلى الطبيب لعمل فحوص يصعب أن تتم في الدار، زيارة الحسين أو السيد البدوي أو السفر لابن عم الصول عسران ساكن القـاهرة قبـل موعد الطائرة الذاهبة إلى بلاد الحجاز أيام الحج، وفي كل الحالات كانت السيارة المخصوص تقف أمام الباب في انتظارها وهي تخطو من باب الدار إلى باب السيارة وقد غطاهـا الملـس وغطى وجهها طرف الطرحة "الشيفون" السمراء بحيث يحق لكل ناس الكفـر أن يقولـوا إن أحدا لم ير ذيل جلبابها أو كعب قدمها أو كفها على امتداد السنوات التـي عاشـتها فـي دار الصول عسران قبل أن يصل إلى رتبة الصول، قالوا إن النسافة لم تعترض على شيء ولـم تطلب أي شيء أكثر من مجيء الحاجة أمينة بنفسها إلى دارها تشرفها وتطلب بلسانها البنـت لحضرة الصول عالي المقام ابن الأصول الطيب، مالنا إذا كانت الحاجة أمينة قد اعترضـت على الزيارة أو لم تعترض؟ مالنا إذا كانت النسافة تقصد أو لا تقصد أن تقول لأهالي الكفـر إن رأسها برأس الحاجة أمينة سواء بسواء، مالنا نحن لكي نفتي بما لا نعرف؟ الذي حدث هو أن الحاجة أمينة راحت بنفسها لدار النسافة وأن حضرة جناب العمدة حضـر الاتفـاق، وأن البنت راحت بزفة إلى دار الصول عسران، لكن ناس الكفر قالت لناس الكفر بعد مرور الأيام والشهور والأيام والشهور أو بعض السنوات أن الصول عسران راحت أيامه، وأنه لـم يعـد بقادر على سقاية الأرض العفية العطشانة، وكلام يولده الغل والشماتة في الرجل الطيب، يقابله كلام ناس آخرين للناس بأن البنت رغم الصبا والجمال كانت أرضا بورا وعاجزة عن رعاية البذرة الصالحة أو إخراج النبت المأمول.

وقال ناس الكفر إن الحاجة أمينة عملت بأصلها، غصبت على روحها وراحت لـدار النسافة ماشية وطلبت بلسانها أن تأخذ بنت النسافة الأصغر ضرة لها، وتعهدت بـأن تحميهـا وترعاها كواحدة من بناتها، وأن الصول عسران لم يستطع أن يداري عشقه للبنـت الصـبية الحلوة الكيادة التي ظلت تعده بالولد، وكم من أمسيات احترق فيها قلب الحاجـة أمينـة بنـار

الغيرة والبنت الصبية الحلوة تزداد حلاوة وتحمل بدل الجنين لحما طريا يـرتج إذا قامـت أو قعدت أو سارت أو نامت، حتى ادعاءات الحمل والتظاهر بالوحم وتأكيدات كل الحكماء الذين زاروها في الدار بأنها أرض مالحة وعاجزة عن رعاية الثمرة لم يمنعها أو يمنع النسافة مـن إشاعة أخبار الحمل الكاذب المتكرر ومؤامرات الضرة العاقر أم البنات الأكبـر منهـا التـي تسحر وتكتب وتكيد لها حتى لا يكبر الجنين، الغريب أن الصول عسران صدق وعاش علـى الوهم في صف النسافة وبنتها، وقال الناس إن موت الحاجة أمينة المفاجئ كانت وراءه حكاية كبيرة شاركت فيها النسافة وبنتها والصول عسران للخلاص منها بالسم بـدلا مـن الانتظـار والاحتمال حتى يجيء أجلها المحتوم، وقالوا إن خلو الدار لبنت النسافة سـيدها وزود دلالهـا على الصول عسران، تطلب فيلبي وتشير فيطاوع، نسى خلفة الولد وانشغل بالبنت، وقالوا إن البنت كانت وراء ما بدا للناس من حماية الصول لابن النسافة، تلك الحماية التي جعلته يتاجر في الورق الأخضر الذي كان يأتيه بشيكات أو تحويلات أو عملة منقولة من البلد البعيد بعلـم الغريب العاجز أو بغير علمه، لكن الولد كان يتاجر في الورق الأخضر مثلما كان يتاجر فـي حديد التسليح والطوب الأحمر والأسمنت وزيت التموين وعلف المواشي والسماد، الممنوع قبل المسموح والكل يفوت له إكراما لحضرة الصول من أول المأمور حتى عمدة الكفـر مـرورا بمفتشي التموين والزراعة والصحة والضرائب وكل مصالح الحكومة حتى امتلك وزود حيـز امتلاكه ثم امتلك وزود حيز امتلاكه وهو الجاهل الذي لا يفك الخط لأنه ببساطة لـم يـدخل مدارس مثل البنتين، ذلك أن أمهم النسافة قالت بعد وصولها زمام الكفر بأيـام إنهـا فقـدت شهادات ميلاد العيال في مشوارها الطويل الذي قطعته كما كانت تدعي مشيا على الأقدام من جنوب أسوان وحتى دروب كفرنا المنقوشة كفوفه بالحنة الحجازي تماما مثل كفـي النسـافة وقدميها، وفي كفرنا المنقوش بألف لون لا يسأل الناس عن علو نجم النفر أو دخوله في بـرج سعده ما دام مسنودا ومحميا بالحق أو بالباطل.

كبار صغار: صغار كبار:

يوزن النفر في كفرنا بما يملك، المسألة بسيطة ولا تحتاج إلى دليل، يكبر الصغار في غفلة منا ونراهم وقد زاد طولهم وكبروا ولا يحق لنا أن نعترض علـى ولـد زاد طولـه أو عرضه مثلما قال الصول عسران للولد عصام في محاولة خفية لكي يذكره بحاله قبل أن تبدله الأيام بمساعدة الصول نفسه، ربما كان يحلم بشيء من العدل المفقود في عقد البيع الأخيـر، وإذا كان للبيع والشراء أصول في رأي البعض فهو في رأي البعض الآخر صيد فـي المـاء العكر، البيع والشراء شطارة كما قال الولد عصام وهو ينظر ناحية أمه النسافة وأخته السمينة التي سحرت الصول ولعبت بعقله حتى فرط في كل ما كانت تملكه يـداه ومـا ورثـه عـن

المرحومة أم البنات بأبخس الأثمان ولنفس الولد عصام ابن النسافة، ربمـا كـان اعتراضـه الأخير على هيئة الولد البخيل النحيل ـ الذي وضع على كتفيه عباءة عربية مشغولة بخيـوط الذهب ـ مجرد رفرفة ذبيحة فات على عنقها نصل السكين الحامي بأسرع مما كانت تتوقـع، كان الرجل كما قال لي بعدها يا ناس يراجع سنوات عمره ويشعر بغربة عن روحه والنـاس الملمومين في قاعة داره الجوانية ليشهدوا على عقد البيع وكلهم مسدودة أفواههم ببقايا العشـاء الدسم الذي أعدته البنت بمساعدة أمها النسافة، لكن شيخ البلد قالها ضحك في جد:

ـ مالكم مستعجلين ع الراجل كدة ليه، براحته، ما هي بيعه تهريبه؟ وما هو موافق ع السعر، وقدروا أنه رخيص، يعني هو ح يروح فين؟ مش أخو مراته اللي باسطاه ومريحـاه، أهو أولى من أخواته وعيال أخواته اللي عايزين يورثوه ع الحيا.. ولا إيه يا عمدة؟

ـ مظبوط يا شيخ البلد.

قالها ودارى ضحكته فدارى كل واحد في المجلس ضحكته حتى وقع الصول على عقد البيع، نزل مقامه بمساحة الأرض التي باعها، لكن هل كبر مقام الولد بمساحة الأرض التـي امتلكها؟ انطفأ سراج وكان من الواجب أن ينور في القاعة سراج، فهل نور ابن النسافة مكانه وملاه؟

كنا قد اتفقنا على أن يوزن النفر في كفرنا بما يملك فهل لعبت بعقلي عقـول النـاس؟ نفس الناس من أهل الولد هم الذي أنكروه وتندروا عليه، قالوا أنه لو ملك البسـيطة فسـوف يباركون له، إنما هل تدخل في دماغ أحد مثلا أن يتصدرهم في المآتم والأفراح أو أن يرجعوا إليه في أمور زواجهم وطلاقهم وبيع دورهم وغيطانهم ومواشيهم مثلما كانوا وما زالوا يفعلون مع كبراء الدرب؟ ربما تكون المسافة قد تعجلت وبعدت الولد في المناسبات التي تصـادف أن مرت على كفرنا "الملاوع"، موت بنت خال الصول وظهور ابن مهران المنسي عوف ثم سفر عدنان المنسي ابن عم فرج الله نفسه، وفي كل هذه المناسبات وقف الرجال الكبار للولد بغيـر ود، يزيحونه إلى الخلف ويتقدمونه وقد يمتنعون عن مصافحته أمام الناس وهو مـن لحمهـم ودمهم، ولا بد أن يكون الولد قد شكا لأمه من أفعالهم، وربما يكون قد بكى من قلـة حيلتـه وعجزه عن حماية روحه من غمزاتهم وهمساتهم، ذلك أن النسافة لبسـت جلبابهـا الأسـمر وراحت بنفسها على دار عدنان المنسي، وجهت كلامها للصول عسران وهو يتوسط الأكـابر أولاد عمه، تقصدهم وترمي كلامها عليهم وإن اتخذت من الصول عسران سلما تستند عليه:

ـ هو الصغير بيفضل صغير يا جوز بنتي؟ دي الدنيا دواره، شـايلين عصـام ابـن المرحوم فرج الله وزاعقين له يا كبار؟ دا ما يجيش قد عيل من عيالكم، خذوه فـي وسـطكم وكبروه.

وإذا كانت حيطان المندرة اهتزت أو نطقت يكون الكبار اهتزوا أو نطقوا، اسـتكبروا أن يرودا على حرمة بربرية أم ولد باهت لا لون ولا طعم شاءت أن تحشره حشرا في وسـط الكبراء شفاها الله ونولها مرادها في زمن غير زماننا ووسط ناس غيرنا، وشفانا وشفاكم مـن سكوتنا الطويل عن الحق لمصلحة الباطل.

أصل النسافة:

ـ حسنين صار حرامي، أسرق فلوس أنا يسامح، أسرق هدوم أنا يسامح، أسرق أكل شرب أنا مش يزعل أو يتكلم، لكن أسرق أموات بلد عشان دهب أنا موش يسامح، بيع جـدود أموات عشان فلوس أنا أسلم بوليس، أنت روح سجن.

كنت مجرد صبي سفرجي، وكان السفرجي نوبي في خدمة "الخواجة" مـن سـنوات، شغلوني قبل السفر بأيام، وركبت "الذهبية" من ساحل روض الفرج ونزلنا بحر النيل، كانـت أول مرة وآخر مرة أركب فيها بحر النيل، نزلنا شطوط وشفنا بلاد وكلمنـا نـاس لا كنـت أعرفهم ولا حلمت بأن أراهم، وعرفت من عم دهبين هدف مشوارنا وشاركته الفرحـة لأنـه راجع لبلده وناسه في بلد اسمها "أبريم" بين الشلال الأول والثاني، كـان الخواجـة إنجليـزي دفعت له الحكومة آلاف الجنيهات ليكشف بلاد النوبة من أول شلال لحـد الشـلال الرابـع، وعرفت بلاد النوبة وناسها سمر الوجوه ذوي القلوب الطيبة، ظللت في خدمة "الخواجة" أساعد عم دهبين ثلاث سنوات، أراهم يحفرون مدافن الملوك ويأخذون الكنوز، ذهب وجواهر وأشياء لم أر مثلها أبدا، ويقولون إن تعلية خزان أسوان سوف تغرق كل هذه الأماكن بالمياه، وعرفت من عم دهبين وغيره أسرار المدافن، مدافن فيها ذهب وكنوز ومدافن نهبها ناس مـن أهـل البلاد أو من الغرباء، مدافن لا لها عد ولا حصر وكلها مبني بالطوب الأخضر، ووسوس لي شيطاني فأغراني، قلت أعمل للزمن الآتي حسابا، ووسوست أنا في أذن ولد من سكان البلـد عارف مداخل مدافن، كان يعرف ويداري، يتفرج عليهم وهم يحفرون في عكس المداخل ولا يدلهم على الحقيقة، ومرة سمعته يتحدث إلى عم دهبين بسخط وغيظ من "الخواجـة" سـارق الكنوز بموافقة الحكومة وفلوس الحكومة أيضا، حاول عم دهبين أن يغير فكرته لكن الولد كان يظن أن كنوز المدافن هي ملك لأهل البلد التي سوف تغرق بعد تعلية الخزان، كان البلد اسمه "بلانه" وكان الولد اسمه ونيس، قلت له يا ونيس لا تعتمد على عم دهبين، دهبين شـغال مـع الخواجة من سنين، وقلت له شاركني وأنا أفيدك، أنا غريب عن بلادكـم فسـاعدني وسـاعد روحك، واتفقنا ونزلنا بليل، وحفرنا أنا وونيس وسط السكون وضوء القمر يرشدنا حتى طلـع الفجر وبانت لنا بوابة المدفن، جمعنا من فوق عظام الموتى خلاخيل وعقود وأساور وحلقـان ومكاحل وأشياء أخرى لم أر مثلها أو أعرف لها اسما لكنها كانت مـن الـذهب الخـالص أو

الفضة، وأخذنا كنزنا وأخفيناه في حفرة، ثم نقلناه في اليوم التالي في حفرة أكبر، وبعـد أيـام اقتسمناه وأخذت نصيبي وأخذ الولد نصيبه وما عدت أراه، ولا أعرف من رآني وعرف سري وباح به للخواجة الإنجليزي، ورأيتهم يرمحون في كل اتجاه، يطلبني عم دهبين ويسألني عـن الكنز المخبوء فلا أبوح، يأخذني إلى الإنجليزي فيسألني ولا أبوح، يأتي ضابط وأفندي نـاعم البشرة هادئ الملامح يسألني ويعدني بالسماح فلا أبوح، يحبسونني في قاع الذهبيـة أيامـا لا أبوح فيها بشيء، ثم أفاجأ بالولد ونيس وقد جاءوا به لا أدري من أين، ينكشـف كـل شـيء وتظهر الأشياء المدفونة في حرتين، صار ما كنا نحسبه ملكا خالصا لنا في حوزتهم، غضـب الخواجة مني أكثر من غضبه من الولد ونيس، وحبسوني فترة ثم رحلوني إلى مركز كفرنـا وأمروني بألا أفارقه إلا بإذن مكتوب ومختوم من مأمور المركز نفسه، كنت أشـعر أيامهـا بالغضب والسخط، لكنني اكتشفت بمرور الأيام أنني كنت أعمى القلب لأنني وأنا واحـد مـن أولاد البلد المسلوب كنت أسلبها وأحسبني من الشطار، لم أكتشف إلا بعد أن قرأت وقرأت ولم أبح بما فعلته لأي إنسان على وجه الأرض، دفنت كل شيء في مقبرة من صنعي ونسيت كل شيء، ربما من بعدها هان عندي أي شيء، وعشت على هواي إن كان لي هـوى، محبوسـا باختياري في حدود الكفر بعد أن انتهت سنوات الإقامة الجبرية في حدود الكفـر والمركـز، أعيش بجرأة من يملك أي شيء مطلوب يملأ خواء البطن، كل شيء يسـد الجـوع مسـموح لأمثالي أخذه، وكلام الخواجة الإنجليزي في ذاكرتي محفوظ، أتذكره وأعيده لنفسـي بنفسـي وبصوت كأنني عيل في كتاب فرحان لأنه حفظ الواجب واطمأن على قدرته على تسميعه في أي وقت، لكنني كنت الولد والفقي في نفس الوقت، أنا حسنين المدندش الذي صدق الغريب ذا الوجه الأحمر عارف حرمة الأموات والغاضب من أجل آثارهم أصدق غضب، عـالم وأنـا جاهل بأغراض الغرباء.

ذات مساء وأنا عند النسافة قالت لأم المحمدي تسكتها:

ـ وأنت تسأليني ليه عن أصلي وفصلي، أنا من بلاد النوبة أحسن وأشرف ناس فـي البر كله.

ـ نوبة إيه، قال نوبة قال.. بلدك إيه وأهلك فين؟

ـ مش ح أرد عليك..

لكنها ردت على سؤالي عندما سألتها لأي البلاد في النوبة يرجع أصلها، ذكرت اسـم بلد الولد ونيس عارف مدافن "بلانه"، تذكرته ساعتها وحدثتها عن سفرجي اسمه عم دهبين من بلد اسمها أبريم فقالت بلهفة:

ـ خالي دهبين الله يرحمه، أنت شفته فين؟

ولم أرد، خفت أن أحكي أي شيء مما جرى لي أيام السفر في الذهبية، لكنها كانـت تسألني على فترات متباعدة إن كنت قد ذهبت إلى بلاد النوبة أو صاحبت واحدا مـن أهلهـا فأنفي ذلك وأسألها بدوري عن بلادها فتذكر في كل مرة اسما آخر وبلادا آخر حتى بدا لي أنهـا ذكرت أسماء كل البلدان بين الشلال الأول والشلال الرابع، وبيني وبينكم لا يكفي أن يعـرف الواحد منا أسماء البلدان ليكون من أهلها، ومهما قالت هي أو قلتم فأنا لا أصدق كل رواياتهـا عن طفولتها وصباها أو كيف عرفها فرج الله وأعطاها اسمه ونسله واسم الكفر الذي تلجأ إلى دروبه إذا غاب عنها أو أصابه ضرر، ويزيد شكي في النسافة التي لا شفنا معها عقـد زواج ولا شهادات ميلاد للعيال ولا صورة تجمعها مع فرج الله فأقول لنفسي لا هي أم العيـال ولا تزوجها فرج الله ولا هي من بلاد النوبة ولا من شمال أسوان، أقول إنها مجرد عبدة بربريـة من حدودنا مع السودان عثرت على العيال وعرفت أصلهم وفصلهم وكفرهم فجاءت لتـداري نفسها بيننا ربما هربا من عملة عملتها أو حكم صادر ضدها، لكنني أراجع نفسي وأسأل عـن الكيفية التي حصل بها العمد للنسافة على معاش وهو المعروف بعدائه لأولاد عـوف، وهـل أكذب نفسي وأصدق أنه عملها خدمة لله بدون غرض غير خدمة امرأة غريبة أم أيتام غـاب رجلها وما عاد، كنت أبحث عن سر اهتمامه بالنسافة وعيال النسافة ومعاش النسـافة حتـى سمعت الست فطوم تقول في قعدة نسوان:

ـ ما هي من لحمنا ودمنا، أمها بربرية سودانية وأبوها شلبي، ساعدناها وكبرنا لهـا عيالها ولسة كمان ح نكبرهم.

كانت تنظر ناحيتي وكأنها اكتشفت وجودي فجأة فسألتني:

ـ مدندش، إحنا بنتكلم على مين؟

ـ لا بسمع يا ست ولا بشوف ولا بأنطق.

ـ عفارم عليك.

لكن قرب الأجل غيرني، خلق في عقلي دبورا زنانا، يلسعني ويجبرني على البوح بما كان، هو نفس الدبور الزنان الذي جعلني أضحك على جثة رجب الأعور الملفوف في الكفـن الحرير الياباني سبع طاقات، تذكرت يومها مدافن الملوك والملكات المنهوبة وقلـت إن الولـد ابن بحر لن يرقد أو يهنأ باله إلا بعد أن يسلت الكفن من فوق جثة رجب الأعور ليقابـل رب كريم عريانا كما عاش بيننا.

بنت نفيسة:

طول بعرض وصحة وبنت خال العمدة من بعيد، أنتم تعرفون أن ابن عـم الأم فـي كفرنا هو أيضا خال ولكن من بعيد، طلبها الصول عسران لابن النسافة قبل مرضـه الأخيـر

بأيام، ولابد أن النسافة ضغطت على الصول عسران عن طريق البنت ليذهب ويطلب البنـت للولد رغم علمها بعدم حب العمدة للرجل، لكنه راح ووافق العمدة على تزويج بنت نفيسة لابن النسافة بشروط أملاها وكتبها الصول عسران على مضض تنفيذا لرغبة العمدة، وعندما نقـل الشروط للنسافة وافقت، وافقت أن تجهزها بجهاز جديد وأن تكتب لها باسمها أرضا كانت قـد اشترتها من عم البنت بياع الأرض عرفان، وأن يكتب لها مؤخر صداق كبير، وأن تعمل لها فرحا كبيرا يدعى له الأكابر وتذبح ذبائح حددها تكفي لتغذية كفرنا "الهفتان" يومين أو ثلاثـة، وأشياء أخرى مثل الذهب والنحاس والصيني، طلبات لتعجيز النسافة وابنها، هي في حقيقتهـا رفض بأدب وإهانة في نفس الوقت، نوع من التحدي أو التحكم في الولد، لكن النسافة قبلـت كل شيء وفي بالها أنها تخطو آخر خطوة في سكة الطلوع لأعلى مكان في الكفر، وكأنه كان هناك شرط سري عرفناه يوم دخول الولد على البنت، ذلك أنه توافق وأن كان هو نفسه عصر يوم خروج الصول عسران من دنيانا ودفنه في مشهد رج الكفر وكل الناحية فـي الظهيـرة الحامية الملتهبة في الخامس من بئونة الحجر، سمعناهم يقولون إن النسافة نصبت الفـرح وأن العمدة راح بنفسه عصرا فكان من الواجب علينا أن نشارك رغـم التعـب والصـهد والغـم والسؤال الخبيث الذي يتردد على الألسنة وكلنا نعرف أن كل شيء كان جاهزا ومركونا بـلا تحديد ثم جاء الأجل فاختطف الصول عسران ونقلوا البنت للولد، هي "دقة نقص" علـى كـل حال شارك فيها كل من حضر الفرح وكنا كثارا، نسينا الموت وتفرجنا على الغوازي وأكلنـا اللحم قرب منتصف الليل مشويا ومقليا ومعمولا على هيئة شرائح ومسـتطيلات ومربعـات غطسانة في أطباق الأدام و "الدمعة"، وكل أولاد عوف أهل الصول عسـران حزانـى علـى الميت وعلى الأصول التي ما عاد يصونها أحد، قاطعوا الفرح، حتى أطفالهم الصغار قاطعوه، وانشرخ كفرنا فوق شروخه القديمة شرخا جديدا، هو شرخ نافذ في القلوب يصعب أن يداويه طب أو دواء، لكن ربك سلط أبدانا على أبدان، سلط بنت نفيسة على النسافة أو سلط النسـافة على بنت نفيسة فطارت في الدار نار ولم تنطفئ أبدا، كل يومين عراك وردح وقلـة قيمـة، غضب وصلح ومجالس يحضرها العمدة أو مشايخ البلد، ثم عـراك جديـد وردح وغضـب ومجالس لا يحضرها العمدة، يحضرها واحد من مشايخ البلد، ثم حمل وعراك جديـد وولادة وعراك جديد وغضب ومجلس بلا عمدة ولا شيخ بلد ولا حتى خفير، وتطول ألسنة النسـوان فتخوض في السيرة مرة لصالح بنت نفيسة ومرات لصالح النسافة، تلك التي احتملت واحتملت على عكس ما كان يظن كل الناس، وفسر الناس للناس حكاية احتمال السباب من زوجة الابن للحماة على أنه خوف من فقدان الأرض المكتوبة باسم البنت أو دفع مؤخر الصداق أو خراب الدار عندما تأخذ جهازها المكتوب في القائمة الشاهد عليها العمدة ومشايخ البلـد، وقـالوا إن النسافة جرؤت في لحظة غضب أن تلعن العمدة الذي تحول إلى لبانة على لسان البنت تهددهم

به وتخوفهم وتتحداهم لأنه خالها ويخاف على مستقبلها، جرؤت النسافة ولعنـت العمـدة فـي القاعة الجوانية التي ورثوها من الصول عسران، لكن حيطان القاعات رغم قـدمها لهـا آذان تسمع وتسجل وتوصل في الوقت المناسب، وعندما عرف العمدة بما جرى أقسم يمينا بالطلاق من زوجاته الثلاث ألا يتدخل أو يسمح لواحد من أعوانه أو أصحابه بأن يتدخل في النزاع بين البنت التي هي قريبته من بعيد والنسافة التي كان يحسبها مؤدبة وتحفظ الجميل لمن سـاعدها بشهادة كل ناس الكفر أيام كانت حافية القدمين تكمل عشاءها والعيال نوما، فلولاه ما حصـلت على معاش الفقيد المفقود الجثة، ولولاه ما تزوجت البنت الأولى من الغريب الذي فـتح لهـم باب الرزق بلا حساب، ولولاه ما اشترى الولد في زمام الكفر قيراطا أو تاجر في أي شـيء، ولولاه أيضا ما تزوجت البنت الثانية أو انتقلت أملاك الصول عسران وأملاك الحاجة أمينـة إلى الولد الذي لا يساوي في نظر حضرة العمدة شعرة في ذيل كلب، ولولاه ولولاه ولـولاه، كلام كثير قاله حضرة العمدة لرجاله وأنا بينهم، تغيرت نفوسنا من ناحية النسافة وفكرنا فـي عمل كل شيء يطلبه العمدة لكن الرجل لم يطلب، ترك لنا مسئولية رد شرفه وشرف بنت بنت خاله، وبين يوم وليلة كره أكابر الكفر من الناحيتين نسافة الكفر، ونادرا ما يكره أكابر كفرنـا المقسوم نصفين نفس النفر، ولا أحد يدري إن كان الكبار قد أثروا في الصغار أو بعضهم على الأقل أو أن الصغار كرهوها لأسباب أخرى غير تلك التي تخص الكبار، لكن كفرنا المقسـوم نصفين عاد وانقسم على روحه عدة أقسام أكثرها لا يحب النسافة ولا ابنها المتهم بعـدة تهـم جديدة غير الشح وكونه مثل خيال المآتة لا يهش ولا ينش، قالوا إن الصول مات مسموما بيد الولد أو لحسابه، وقالوا مات مغموما من طول لسان الولد الذي كان ينطح بالكلام مثل كـبش مخصي أو تيس مطلوق وسط ثيران، وقلنا إن الحكاية من أساسها مشكوك فيها وتحتاج إلـى أكثر من إثبات، إذ كيف تفد على الكفر امرأة غريبة ومعها ثلاثة عيال فتعيش في ظل الأكابر والعمدة لسنوات ثم تطلع على السطح العالي وتجرؤ فتخاصم الكبار من النـاحيتين بالفعـل أو بالقول؟ ولو كان لها أهل في الأماكن التي ذكرتها للناس فهل كانوا يتركونها هكـذا تحـارب وحدها وتعيش وحدها وتتصرف في كل شيء من دماغها وهم أكثر الناس حرصا على صـلة الرحم والدم، لا يفرطون في أي إنسان عاش بينهم وشرب ماءهم أو أكل خبزهم مهما طـال السفر أو الابتعاد.

ولدت بنت نفيسة ولدين توأمين فحسبنا أن العداوة بينها وبين النسافة سوف تـزول أو حتى تنقص لكنها زادت، زادت وفاحت رائحتها عفنا وتهما متبادلة بالفسق والفجور وكل مـا يشين الطرفين، الخطير أنه لم يعد هناك من يهتم بالتدخل لإطفاء النار، ربما تدخل ناس فـي السر لتزويدها اشتعالا، ولم يعد هناك أي رجاء في التعايش بين امرأتين أكلت كل واحدة مـن لحم الأخرى بحسب قدرتها على الأكل والهضم، وقال عقلاء لهم أغراض للولد:

ـ زي ما دخلتم بالمعروف، تسيبوا بعض بالمعروف.

ووافقت النسافة، لكن العقلاء نصحوها:

ـ بس خسارة اللي ح تأخذه.

ـ ما هو إحنا ما فيش ف إيدنا غير كدة.

ـ لا فيه..

أشار العقلاء بنقل ملكية كل شيء لشخص مأمون، شخص من اللحم والدم لا رجـاء منه ولا خوف من أطماعه، شخص مضمون في اليد اليمنى للنسافة وابـن النسـافة، وكـان الشخص هناك في نفس الدار يتحرك أمام العقلاء، عريانا أو شبه عريان رغم تبـدل أحـوال أهلها، كان رجب الأعور أمامهم وأمامها مثل كتاب مفتوح على صفحات بيضاء خالية من أي كتابة، لا يملك هو نفسه إلا براد الشاي المخصوص وعلبة الدخان وفيها دفتر البافرة "الملوكي" يلف الدخان في أوراقها إذا رغب في أن يعتدل مزاجه أكثر أو أن ينسجم أكثر فيـدخن لفافـة لفها بأطراف أصابعه ليوفر في تكاليف التدخين أيضا مثلما يوفر اللقمة والهدمة لصـالح ابـن المرحوم فرج الله، اليتيم المحتاج إلى كل قرش ليسنده بحسب ما كان يقول لكل الناس صـادقا وهو يدافع عنه إذا اشتكى منه أحد.

ـ يا ناس حرام عليكم.. دا يتيم ومقطوع ووحداني، اللي زيه تجوز عليـه الصـدقة وفلوس الزكا.

ـ أصل أنت نايم على ودانك يا رجب، عصام دخل ف ديوان الأعيـان وأصـحاب الملك الأكابر، أنت أهبل ولا بتستهبل؟

ـ ولو.. ولو.. برضه غلبان.

ولم يكن هناك أي جدوى من الاستمرار في مجادلة رجب الأعور حول فكرتـه عـن عصام ابن النسافة وابن فرج الله.. كانوا يريحون أدمغتهم ويكفون عن مجادلته ما دام مصدقا نفسه على هذا الحد وعاجزا عن اكتشاف كل ما تغير في حياة الولد وحياة أمه منـذ زوجـت البنت الكبرى للغريب لابس العقال وبعد أن زوجت الصغرى للصول عسران وجرؤت مـرة على سب حضرة جناب العمدة عندما بدا لها أنه انحاز إلى بنت نفيسة، ولأنها كانت بحساباتها عركة العمر كله فقد تعاملت مع كل الناس من أول وجديد بحسب مواقفهم معها أو مـع بنـت نفيسة، ولأنها عركة العمر كله رمت النسافة بكل ثقلها بأمل أن تنتصر، كأنما أعماها العـراك عن رؤية ما كان يلزم أن تراه، كان العقلاء أو من فكرت هي أنهم عقلاء يـأتون ويتكلمـون بحسب هواها وبحسب ما تود هي أن تسمع، وفي كفرنا المنقوش بكل الألوان ينطـق اللسـان أحيانا بغير ما هو في القلوب، وربما في مثل هذه الحالات ينطق اللسان بحماس أكثر وببراعة أكثر، قال ابن الغباشي للست النسافة وهو ينظر إلى رجب الأعور في ذلك المساء:

ـ علي الحرام من ديني أطلعكم منها زي الشعرة ما بتطلع م العجـين، هـي حتـة الأرض المكتوبة باسمها وبس اللي مش ح أقدر أتصرف فيها براحتي.

ـ حتة الأرض دي ما هي خلاص يا بو الغباشي، دي معاها عيلين وح تأخـذ نفقـة ومؤخر صداق وعدة.

ـ بلاش طلاق يا ست أم عصام؟

ـ لا ح يطلقها.. لما يكون آخر يوم ف عمري وآخر حفان قمح في داري..

ـ نبقى نشوف كلام أبو الغباشي.. أهو شغال ف المحاكم طول عمره ويعرف سـكة الخلوص يا ست أم عصام، إحنا تهمنا مصلحتك.

على هذا النحو تحدث أقدم شيخ بلد في الكفر، الحاج داود أبو راضي، فجهزت النسافة نفسها لسماع كلام ابن الغباشي، ذلك الذي اقترح نقل ملكية الدار والأرض وكافة ما تملك هي أو يملك عصام إلى رجب الأعور وساعتها لو لفت بنت نفيسة ومعها ألف عمدة مثل عمـدة كفرنا على أبواب المحاكم فلن تحصل على شيء، لا مؤخر الصداق ولا نفقة لها قيمة لهـا أو للولدين التوأمين، واشترط أن تكون الكتابة والتسجيل قبل الطلاق، تهريبة يلجأ إليهـا النـاس عندما يتكايدون ويتعاندون فيكفرون بالنعمة وينكرونها، كلام سمعناه قبل ذلك مئات المـرات ورأيناه يتحقق بالفعل، لكن العبرة بالختام، ختام لحكاية النسافة وابن النسافة لم يكن يخطر على بال كما تعرفون، وأنا فكرت أنه ولا بد كان وراء تلك النهاية تدابير وترتيبات معمولة بوعي، وعي شياطين وأبالسة يستخدمون الناس لتحقيق أغراضهم، ومهما كان وعي النسافة فهو وعي امرأة غريبة جاءت من خارج حدود كفرنا "التفاحي" لتعيش وتصعد وتملك وتجعل اسمها على كل لسان، لكنه خانها الوعي، خانها الوعي لأنها صدقت كل ما كان يقال لها بهدف إرضـائها أو مجاملتها أو التظاهر بالوقوف إلى جانبها في وجه خصومها، والعناد يـورث الكفـر كمـا تعلمون بالإضافة إلى قلة التمييز الواصل إلى حد العمى، كان شيخ البلـد داود أبـو راضـي والذي هو ابن عم عمدة الكفر يذهب إلى دار النسافة، يجبر خاطرها بكلمات طيبة، يطالبهـا بالسماح والصفح عن البنت التي قل أدبها وطال لسانها على أم رجلها وصاحبة الفضـل فـي تنصيبه نفرا معدودا وسط ناس الكفر، كلام لا شبهة فيه ولا شك، ورجل يقصد الخير والصلح ومعه في مشوار الذهاب والرجوع ابن الغباشي الذي كان يحرث لها الأرض، أرض الخصام طبعا بلسانه المدرب على الكلام في قضايا المحاكم وأقوال المحامين والقضاة وموظفي الشهر العقاري وغير ذلك من الجهات، يحرث أرض الخصام والبنت في دار أمها غضبانة ولا مانع عندها من الرجوع لو تنازل عصام وتعطف بحسب ما كان يقول شيخ البلد، لكن الولد ركـب دماغه وركبت أمه دماغها، رأساهما وألف سيف أن لا بد من رد الصاع صاعين، وقلة الأدب بانتقام لا كان ولا جرى، وأنا نبهت النسافة بأنه في مثـل هـذه الحـالات يكـون الخـروج

بالمعروف أفضل، أو الاستمرار بالمعروف أرحم من أجل التوأمين، سمعت كلامي وتغيـرت لهجتها في الكلام، بدا لي أنها وضعتني في خانة أنصاف الخصوم وأنا الخـائف عليهـا مـن التمادي في كل هذا العناد، قلت لروحي لو جاءك الغصب يـا مدنـدش فاعملـه طوعـا ولا تخسرها، كنت مندهشا مما أصابها إلى حد الشك في كلامي وهي التي كانت تعـرف طـوال الوقت أغراضها وتحققها غرضا في إثر غرض، وكانت تعرف كيف وإلى أي حـد تخاصـم ومتى تتساهل وتصالح أو تسامح أو حتى تسعى للحصول علـى عفـو الخصـوم أو تتشـدد وترفض، لكنها في هذه المرة كانت قد فقدت التمييز بين الصاحب والخصوم، اخـتلط عليهـا الأمر وبدا لي أنها تضرب دماغهما في جدار صلب ولا تحسب حسابها لاحتمالات الخسـارة، على الأقل خسارة الناس الذين وقفوا إلى جانبها ومن بينهم العمدة، صدقت كل ما قالـه ابـن الغباشي عن إمكانيات تسليم الأرض المكتوبة باسم بنت نفيسة إلى من يزرعها ولو بعقد إيجار مزور، وأنا يا ناس جربت ناس كفرنا المدفونة في قلوبهم كلمة الحق والمنطوقة على بعـض ألسنتهم الأكاذيب المزوقة بمعسول الكلام، قلت لروحي: أنصح صاحبك مـن الصـبح لحـد الضحى.. وأمسك لسانك حتى لا ينفلت مثل جواد جامح بلا لجام ويقول الكـلام الصـريح، الكلام الصريح يا مدندش يكره فيك الأكابر ولا يحمي الفقراء أو الطالعين على السلم ينظرون إلى أعلى ولا يعملون حسابا للرماد والتراب ينزل فوق رءوسهم ويعرف حدقات العيون.

قال دواد أبو راضي للنسافة:

ـ كانت غلطة يا ست أم عصام، البنت دي ما كنتش من قيمتكم، طيب علي الحرام لو طلبت عيلة من عيالي كنت أجهزها وأوصلها لحد باب الدار..

ـ وهو حصل إيه يا شيخ البلد؟.. الغلط يتصلح، وأنت أقل واحدة من بناتك ح تشرفنا وتطلع بينا العلالي، بس أنت توافق..

ـ يحلها ربنا..

ـ نقرأ الفاتحة..

وقرأنا الفاتحة.. وانفتح مشوار نقل الملكية باسم رجب، وبين يوم وليلة صار المالـك الرسمي لكل الأرض وما تحتويه الدار، لكن رجب خدع الكل ومات، مات دون مقـدمات، لا مرض ولا رقاد ولا شكوى من أي شيء.. الأعمار بيد الله طبعا، لكن الله جعل لكل شيء في هذه الدنيا سببا، وأنا سألت نفسي عن أسباب موت رجب في ذلك التوقيت الغريب فلـم أجـد عندي أو عند غيري جوابا للسؤال، كانت الأسئلة تدور في مدارات أخرى، الورثـة، ورثـة المرحوم الذي لم يخلف للدنيا من صلبه وريثا شرعيا والذي تتشعب فروع ورثته الشـرعيين وتتزاحم، تتداخل مثل فروع جميزة كبيرة في كل اتجـاه، أخـوات وأولاد أخـوة وأخـوات وأصحاب ديون مكتوبة لم يكن يحسب حساباتها أحد.. ديون مكتوبة ومختومة بخاتم المرحوم

وبصمة يمينه، وأنتم تعرفون ما يجري في مثل تلك الحالات، تتـوزع التركـة بحسـابات لا فصال فيها ولا عواطف، الغريب أن كل الأوراق كانت لا تزال في قبضة شيخ البلـد وشـيخ البلد تابع للعمدة، والعمدة في مثل هذه الحالات حاكم بالعدل والشرع والأصـول، والغريـب الغريب يا ناس أنه في عصر نفس اليوم كانت بنت نفيسة قد حصلت على كل محتويات الدار المسجلة في قائمة المنقولات، أخذتها وتركت الدار على البلاط فعلا، وكما يقولون في كفرنـا الليموني مال تجيبه الرياح تأخذه الزوابع، فهل كنست زوبعة العمدة كل مـا حوطـت عليـه النسافة وابن النسافة في غفلة منا، كنسته وأعادتهما إلى أيام البدايات الأولى التي تعرفونهـا، لكنه لم يكن قد تبقى عند النسافة نفس القدرة على معاودة النسف في الأجران، ولا كانت قـد حافظت على عطف الأكابر عليها أو استعدادهم لمساعدتها في أن تصلب طولها وسط نـاس الكفر أو تقيم للولد عوده الذي انحنى قبل الأوان.

لكنه لا شيء يبقى وأنتم تعرفون، حتى حضرة جناب العمدة الذي هو في نهاية الأمر من بني آدم مثلكم لم تطل فرحته، فلقد جاءت نهاية الأفندي المغدور لينشغل الناس بها زمنـا وتلهيهم عن المصير الذي صار إليه الكفر وناس الكفر وعمدة الكفر "المشمشي" فـي الـزمن "المشمشي".

المغدور وأيامه

• ----------

سأحكي لكم عن أيام المغدور المعدودة والمحسوبة، تلك الأيام التي يصـعب نسـيانها والتي شاعت أخبارها في كل الناحية والنواحي المجاورة لكفركم "الحنبلي"، عن ابن البلد الذي قالوا وهو مرمي ينزف قطرات الدم الساخن أنه غريب مضروب بعيار غريـب آخـر، أنـا صدقت والناس صدقت أو كانت عندنا جميعا رغبة في التصديق، ولناس كفرنا قدرات مشهودة في التظاهر بعكس ما يعرفون والنطق بمعكوس ما يرغبون، كان المنظر غريبا على العـين محيرا للعقول، بدن مرمي ومحاط بذيول جلابيب الخفراء، والعمدة مسنود على حديد الكوبري وسط رجاله يشيرون إلى كل خارج من حدود الكفر بالرجوع، اقتربت أنا من حضرة جنـاب العمدة وسألت وجاوبني، نصحني بتأجيل الخروج من دائرة الكفر لحين وصول النيابة وحكيم المركز للفحص والتحقيق، خوفني من أن يطول ذيل جلبابي نقطة مـن دم الغريـب تجرنـي غصبا عني للسؤال الصعب عن علاقتي بالغريب، قلت لروحي ساعتها أنه لا شأن لي بمـن يعبرون فيسقطون عند حدود كفرنا "السنجابي" والعمدة رغم حداثة عهده بعمادة الكفر عـارف مصلحة الكفر وناسه، وأنا كدت أرجع مثل كل الناس الصاحية في تلك الساعة البدريـة بعـد الفجر وصلاته وبزوغ ضوء النهار، لكنه حدث أن سمعت أنة مجرد أنة أعادتني وألقت بـي في سكة العناد الحصاوي فكان ما كان مني ومنهم في ذلك النهار البعيد، كل هذا لا يهم الآن، لا يهمني على الأقل لأنني سوف أبوح لكم بكل شيء في الوقت المناسب، ما يشغلني الآن هو سر انشغالي بالمغدور ابن عوف، أنتم تعرفون أن كفرنا مفتوح من كل نواحيه على "البحري"، ناس تدخل وناس تخرج والناس يا ناس أنواع، ناس تدخل وتخرج مثل ريـح الـبطن لا وزن ولا معنى، ناس فاترة وعابرة مثل أي شيء فاتر وعابر، لا تلفت الأنظار ولا تنبـه العقـول عكس سيد أفندي، سيد أفندي كان جمرة نار لهيبها يخطف العيون الغفلانة ويصحي النفـوس "السهتانة"، وصوت الجمر يا ناس لا يسمعه إلا الموعود بالسمع والمكشوف عن قلبه الحجاب، وأنا بعد الذي جرى وكان في أواخر الأيام زاد عشمي في ناس الكفر من جديد، صحيح أننـي كنت في بعض الأوقات أيأس منهم، نركب خيبة أملي فيهم جمل الملامة والعتاب ونسرح فـي

الدروب، أقول لروحي "أنت يا مدندش تؤذن في مالطة" تعدد مثل النسوان وتندب، وأنا أبـوح لكم الآن بكل ما كان، حتى خوفي الذي أسكتني أبوح به وأعترف لكم بأنني خواف بطبعي من لساني المفلوت، لساني اللتات العجان الفتان المعاند، واللسان المفلوت قادر أن يشـد صـاحبه وراءه إلى أجله المحتوم قبل الأوان بأوان، وأنا شفت بعيني رأسي موتي ومـوت المغـدور، شفت دم الموت وهو يتقاطر نزيفا يوحي بالصحو إلى الأرض فتشربه الأرض الخرساء التـي لا تشبع أبدا، أنتم تعرفون أكثر مما أعرف أمواتكم القدامى الذين غدرت بهم نبابيت وشماريخ وبنادق الخصوم، وأنا لم أشعل أيامها بالتعديد قلوبكم المردوم عليها بنعمة السكوت والنسـيان، بيني وبينكم كانت عدودة أمل يا ناس، عدودة تحلم بإزاحة الهم الثقيل الراكز علـى القلـوب، عدودة وجعت قلب عمدة الكفر أيامها أكثر مما وجعت قلوب الناس، وسوف أبين لكم ذلك في وقت آخر، أنا نفسي كنت قد وعدت بأن أكف، وعدت العمدة مرة، لكن وعد اللسـان شـيء والقدرة على إسكاته شيء آخر، ثم إنني كنت أقولها لروحي، لكن عيال الكفر ملاعين سمعوها وداروا في دروب الكفر ورددوها، سمعتها نسوان الكفر وقالتها العجائز بتحريفات غيـر مـا قلتها في المغدور الذي عرفته وجالسته وسمعته، عرفت أشواقه الساكنة في حشـا قلبـه كـل سنوات غيابه عن كفرنا "الدندراوي"، كلام لا يخص ندابة ولم تسمع على وزنـه الآذان فـي سيرة الأموات.

ميـن رجعك يا بنـي مين رجعك للموت؟
إزاي كـدة تسيبني للنطع والهلفـوت؟
مش كنـت جاي تبني وتوعي ناس البيوت؟
يطولوك نيـاب الديابة وينهشوك وأنت ساكت؟

أنا قلت لكم أنها كانت مجرد أنة، أنة واحدة سمعتها منه، هل جرب أحدكم أن يصحو من نومه العميق على صوت أنة أو همسة لطفل أو طفلة تسبح في بحر نومها؟ أنا لم أجـرب ذلك أبدا لأنني لم أخلف للدنيا أي خلفة من صلبي، نصيبي من الدنيا أن أكتفي بالنظر والسماع والقول، وفي هذا الصباح البعيد سمعت وقلت ونظرت ودخلت التجربة من أوسـع الأبـواب، كأنني كنت الأم والأب يصحوان معا على أنه الموجوع، كأنني عوضت حرماني من الخلفـة في تلك اللحظات، سمعته فأحياني من مواتي وأنا الغريب المقطوع من شجرة الأموات جربت، صحيح أنني عشت في كفركم "الشلبي" وحدي، لا زوج ولا خلفة ولا حتى حلم في مسـتقبل، لكنني جربت وأنا أسمع الأنة، أستعيدها على مسامع نفسي بنفسي، وكأنها شريط غنوة ترتاح لها غفلت عن سماعها لحظة واستعدتها لنفسك بنفسك، صحيح أن الأنة كانت وحيدة ولم تتكرر لكنني استعدتها وأفقت لروحي فالتفتت، ولم أتردد في الرمح ناحية البدن المرمي، ناحية سـيد أفندي المغدور والمحروس بأبدان الخفراء وبنادقهم، أطل على الوجه المطلـي بخيـوط الـدم

وأرى العينين الصاحيتين تنطقان بكل اللوم وكل الرجاء وكل الوجع وكل العشـم، تتحركـان ناحيتي فتجعلني حبلا واصلا بين احتمالات الموت المدبر بخسة وإمكانيات الحياة، لو كان أي واحد منكم مكاني يا سادة من كان يسكت؟ لو تأكد لأي بني آدم أن المرمي عند مدخل الكفـر هو فلان ابن فلان ابن فلان ابن فلان ولتاسع جد حسب ما تحفظ الذاكرة، لو تأكد النفـر مـن الشبه وأشكال الملابس وخصوصية النظرة ونبرات الصوت بينما الخفراء يحرسونه ويحيطونه بأمر حضرة العمدة حديث الوعي والخبرة، الجاهل بالناس ومقامات الناس، القائل عـن ابـن أصل الكفر غريب مجهول، مجرد عابر سبيل مضروب ودمه الذي ينزف في تلـك السـاعة البدرية من الصباح، لو حصل ما حصل وكشفت الكذبة العرجاء عن خسة التدبير فهل يملـك الإنسان المقدرة على السكوت؟ هل يستطيع أن يطبطب على كتف العمدة ويقول لـه عفـارم عليك يا سبع؟ هل كان يقول لروحه "وأنا مالي"؟ ويهرب بجلده، أن يحتاط ويلاوع ويتظـاهر بأن المرمي على الأرض يستاهل ما جرى له؟ لا أظن.. لا أظن، ومع ذلك ليته حصل، ليتني فعلت، لكنني نسيت روحي ونسيت أنني في زمام الكفر "الشلبي" ونطقـت، كرهـت سـاعتها العمدة وأباه وجده، وطال لساني أو حاولت، بكل عزمي حاولت أن أعمل لهم مقدمات جرسة، لكن كفوف الخفراء الخشنة وكعوب بنادقهم أسكتتني، نزل على لساني شلل وعلـى أطرافـي شلل، انخرست، أبوح لكم بسر، أشعر أنني ساهمت في قتله، في تصفية دمه علـى التـراب، صعب علي حاله فأخطأت ونطقت فانضربت وانخرست وفهمت أن حركتي في المكان تساوي موتي، لعلني خفت على روحي فحافظت على حياتي بالانكماش فـي المكـان مشـاركا فـي الجريمة بالسكوت، لعلني لو كنت حويطا لكنت تظاهرت بالتصديق وتباعدت في اتجاه البنـدر أبلغ الحكومة أو الإسعاف، أو حتى أتراجع إلى الكفر أهمس بما جرى لأي واحـد مـن أولاد عوف وهم كثار كثار مثل ذكور النحل الذي يسعى وراء الملكة، مجرد سعي ناتج عن الفراغ ودون أمل كثير في أن ينالها، وحتى بوعي أن الذكر الذي سوف يصل إليها وينالها مقضـي عليه وهالك بعدها، لم أفعل أي شيء، لا هربت ولا قمت ولا سكت ولا حتى تنفست بكلام له معنى، حتى بعد أن جاءت شمس الضحى وزادت الحركة وتبادل خلق الله الحكاية الحقيقية عن المغدور ابن عوف الذي تلقى رصاصة في دماغه أودت بعمره والأعمار بيد الخـالق طبعـا، حتى عندما اكتشفوا الخدعة المدبرة لم ينطق أيهم بشيء فهل كنت أنطق؟ حتى عندما أيقنـت أنه انتهى وما عاد فيه أي رجاء لم أنطق، رأينا صالح عوف يجـري فـي اتجـاهي بقدميـه العاريتين، يرفع عن البدن نبات الحلفا وحشائش الجسر، يتأكد أنه هو مثلما تأكدت أنـا قبلـه، يلطم كما تفعل النسوان ويهدر مثل ثور هائج مسلوق ومسلوخ جلده حي في نفس الوقت، كان يهدر ويرج الأرض وأنا أنظر ناحيته فقط، لعلني كنت أنظر إليه مثلما فعل الأفندي معي قبـل ساعة زمن وهو حي، يدعوني لأن أحاول، أكتم بيدي جرحه، أو أحمله على كتفي وأرمح في

سكة البندر، أطلب الإسعاف فلعل وعسى أن تكون الطلقة على السطح جارحة لكنهـا ليسـت بقاتلة، لعلني كنت أنظر إلى صالح بنفس الطريقة ولعله لم يلتفت أو التفت التفاتة هينة لانشغاله بما هو أهم وأخطر، كنت أنازع بوهن وحذر أرغب في البوح بشيء وأعترض علـى فكـرة البوح في ذات الوقت، كنت قد أسلمت روحي للموت والشلل في ذات الوقت، مثل أرنب بري لا يملك القدرة على تخطي حاجز الهلع والخوف الكامن داخله من البني آدم الذي كان في ذلك النهار الأغبر مجرد عمدة مبتدئ في كفرنا "العجوري" ، وعندما جاء وكيل النيابة قلـت لـن أقول، هكذا فكرت، لو قلت، لو تجرأت وبحت وقلت هل كان يصدقني، وإذا صـدقني فمـن أدراني بحقيقة الفاعل، قد لا يكون للعمدة الشلبي صلة من أصله بمن ضرب، وربمـا كانـت مجرد صلة تحريض ينحبس فيها عدة سنوات "وتبوش" القضية، وإذا لم يصدقني وكيل النيابـة فهل يسكت العمدة؟ أم أنه سوف يستف لي التهم ويأتي بشهود زور على جنـوني وإجرامـي وقلة أدبي، شهود من كل أكابر الناحية على سرقاتي من غيطان الخلق، وشهود على علاقاتي بأولاد الليل وقطاع الطرق، وتهم كثيرة تلبسني مثل ثياب تفصيل وبالمقاس، دبرتها في عقلـي وباختياري أطفأت نار قلبي بالخرس، وتواطأت مع العمدة الذي قالت عيناه بدلا مـن لسـانه، تتوعدان باقتدار وقدرة، أنا لم أجرب أن أعرف من هو أكثر منه قدرة على الفجر في كل من عرفتهم في كل عمري، كان قادرا فاجرا بحق، لا خجل ولا حياء والعينان الضيقتان تتسـعان غضبا في محاولة للتخويف، قلت لنفسي أفوت عليه وعلي الفرصـة، ألعـب دور الخـواف، الأرنب البري الغريب الذي تخطى حدود المسموح. كان الأمر قد انتهى وعمل الناس ما يلزم، أخذوا تصريح الدفن وحافظوا على كرامة الميت، وفي كفرنا "البقري" يقولون إن كرامة الميت دفنه، دفنوه مثل العار في الليل الساكت الذي يزود سواده اللطم والندب والصوات، وأنا قلـت في نفسي العدودة قبل أن ينطق بها اللسان بزمان، ومن كان له في كفرنا ظهـر يـا نـاس لا ينضرب على بطنه، فما بالكم بمن له في الكفر ألف ظهر وظهر؟، وما بالكم بمن نزف الـدم حيا في حراسة عمدة جاهل بحقيقة خلق الله في الكفر "الترابي"، أنا لا قلت ولا بحت، سألوني من بعيد لبعيد عن أشياء، سألوني من بعيد لبعيد عن أيام المغدور وكلام المغدور فجاوبت من بعيد لبعيد، وعندما اعترض حضرة جناب العمدة على آخر عدودة قلتها في "الجدع" سـألوني عن سر اعتراضه، قلت لهم قلبه خفيف وجلده ناعم، وعندما سألوني عن أسباب ابتعادي عـن الدوار وقعودي عند بوابتهم قلت لهم إنني أميل لهم، لدربهم، لناسهم، لشهامة رجالهم فهل فـي هذا أي شيء غريب؟ لحم أكتافي من خير أولاد عوف يا ناس.

ـ "إن قلت ما تخاف وإن خفت ما تقول".

قالها صالح وهو يقيسني بنظرة، كان معه حسان ابن طه وابنه طالب الحقوق، قلت له أن يتركني في حالي، وقلت له إن العين وإن كانت بصيرة فهي لا تعلو عن الحاجب، دعـاني

حسان لشرب الشاي فاعتذرت بأنني كرهت الشاي وضياع وقت الناس في إعداد الشاي، قلت له إن أكره شيء كرهني في شاي الغيطان هو انطفاء اللهب والجمر تحت بزبوز براد الشـاي المغلي في الراكية، وقلت:

- المرحوم كان جمرة نار.
- ولسة في الحشا جمره يا مدندش.
- خايف يكون كلام في الخلا يا زين شباب الكفر، يا عم الشباب وخالهم وأبوهم.
- أقعد يمكن تكون دليل التايه وينوبك م الحب جانب.
- يا ريتني كنت شفت ولا سمعت، كنت اتكلمت يا سي حسان.
- ولا حتى شميت ريحة الريح؟
- يا ريت.

هربت من الجواب بالسكوت وهربت من كوب الشاي، لكنني نظرت إلى صالح نظرة، ربما أكون قد تواعدت معه، نسج السكوت بيننا خيطا نحيلا نحيلا مثل خيط عنكبوت في قاعة مهجورة، وكان للخيط النحيل بيني وبينه طرفان مثل كل الخيوط المنسـوجة بينـي وبينـه، علاقتي به كان لها طعم ولون غريب، فكان كل واحد منا يعرف أن الآخر هنـاك، موجـود وحاضر، سامع وفاهم حتى ولو كان الكلام موجها للغير، كان يبدو دائما أنني لا أهمـه فـي شيء، أنني أقل من أن يعترض على وجودي، صالح لم يعترض أبدا على وجودي في المكان، لكنني كنت أشعر أنه يفهمني ويقدرني من غير اعتراف منطوق، ما جدوى البوح بالرضا عني من واحد مثل صالح عوف، وما دامت علامات الرضا بالسكوت ظاهرة فماذا كان ينقصـني منه؟ وهو الغشيم الغشيم المستعد أن يعارك الناموسة إذا زنت على مقربة من أذنه، كان فـي بعض الأحيان يوجه الكلام لغيري فأفهم أنه يقصدني، تصلني رسالته، وكنـت أقلـده، أقـول الكلام لغيره في حضوره وأشعر أن رسالتي وصلته وفهم قصدي، ربما كنا أولاد نجم واحد أو ندور في فلك واحد ونخشى الاصطدام، نتحاشاه ونتباعد رغم القرب، وربما لم أوافقـه فـي عمادة الكفر التي تركها تطير من بين أصابعه وكأنه ـ أستغفر الله ـ يرفس النعمة، لو كـان احتفظ بها ولم يفلتها هل كان يحصل في كفرنا "السنجابي" ما حصل يا ناس؟ لكنها على كـل حال راحت عليه وعليهم.

نرجع لحكاية الخيط العنكبوتي الواصل بيني وبينه، شدني الخيط في تلك الليلة ومشاني من داري لحد غيط صالح البعيد عند الترعة الكبيرة التي تفصل زمام كفركم عن زمام أرض سكان عزبة "الغرباوي" وكان صالح قد هجر الكفر والدار، سكن الغيط البعيد وصار ينام مثل وحش البراري في خلاء الغيطان أو في زريبة المواشي، طلباته يقضيها له البعض من الكفـر أو من دكاكين العزبة، لكنه حرم على نفسه السكن والحريم وغسل الثياب أو تبديلها بعـد مـا

حصل الذي حصل للأفندي المغدور، لعله كان يشعر بالذنب لأنه لم يكن هناك ليحميـه مـن العيار الطائش الذي طاله أو العيار المتربص الذي أودي بعمره، ولعله كـان يلـبس عـاره ويتوارى به بعيدا عن عيون الخلق، لكنه كان هناك في الطل رغم برد الشتاء يتغطى بحـرام خفيف مثل الشاش، فيه من الحرام اسم الحرام ومن الصوف ملء قبضة يد في بـرد "طوبـة" وعراء الغيطان، كان قد صام عن الكلام ونصف الزاد، يأكل الضروري ليحافظ على عمـره، يكثر من شرب الشاي وتدخين المعسل، يدخن حتى تركبه الكحة ويحتقن وجهه بالدم، تحمـر عيناه فتبدوان للناظر مثل عيني ذئب شارد وهربان من قطيع كلاب صيادة لا تكف عن النباح، كان خيط العنكبوت يسحبني ناحيته وسط النهار أو بدايات الليل قبل ذلك، لكنه لم يسحبني إليه مثلما فعل في تلك الليلة بعد أن انتصف وقبل أن يؤذن فجرها للصلاة، ووسط ناس الكفر كنت أتوه، أشاركهم جلسات القيلولة أو سهرات الصمت حول براد الشاي وجمرات اللهـب وهـي تحرق المعسل وكأنها تطفئ ما هو قابل للاحتراق، ووسط الناس كنت أتحاشـاه ولا أتصـادم معه. لكنه كان في ذهابي إليه في تلك الساعة وأنا العارف أنه ربما نام أو أحاطه القلق فارتكز نصف نائم نصف صاح وقد توحد مع روحه مثل نجم وحيد في سماء شتوية ملبـدة بـالغيوم والسحب وإمكانيات الرعد، كان المشوار طويلا والتلفيحة التي أحطت بها رأسي وأذني وعنقي عاجزة عن صد الريح، لكنها قدماي تتابعان السير، كأنه كان نذرا ويلـزم أن أوفيـه رغـم الصعاب، وأنا من وفى في كل عمره كل نذر، هل كنت نذرت نفسي مرة من غير علم نفسي لريح الشتاء وعواصف الأيام؟.. هل كان يلزم أن أذهب إليه في تلك الساعة لأشير إليه بطرف إصبعي فيفهم عني رغم السكوت وعدم النطق؟ ربما كنا قد تواعدنا علـى المكـان وحـددنا الزمان في غفلة منا، ذلك أنني وجدته على نفس الحال الذي تخيلته، مرتكزا على كفه المسنودة على ذراعه المسنودة على كوعه المسنود على "طوالة" المواشي الخالية وسط "الزريبة" عينـاه تنظران إلى السماء المعبأة بالسواد والسحب المعتمة، لعله كان يجاهد أن يصطاد نجما بعيـدا يتخفى وراء السواد، يجاهد بيأس كامل وأمل عنيد في أن يراه.. وعندما دخلت لم يتحرك من مكانه ولم يلتفت ناحيتي أو حتى يهتز.. سمعت صوته الآمر يهمس بود:

ـ اقعد يا مدندش.

وقعدت، لعلني نظرت في اتجاه الفراغ الذي كان ينظر إليه أبحث بدوري عن الـنجم المستحيل أو الشهاب الغارق في بحر السواد.. وكان هناك في الراكية بقايا جمـرات توشـك على الانطفاء تحت رمادها الهش، نفخت الرماد فبان ضوء اللهب الشحيح وكان هو مـا زال على حاله، ومن البعيد البعيد سمعت صوته رغم الاقتراب إلى حد التلامس:

ـ ولع الراكية.

كنت أعرف الركن الذي وضع فيه عيدان الحطب وقطع الخشب الجاهزة للاشـتعال، فتحسست بكفي وحصلت على عيدان الحطب، لكنني لم أجد غير كتلة خشب مستطيلة، شريحة وحيدة أطول من طول ذراع، أخذتها وركنتها إلى جواري بينما كسرت عيدان الحطب الجاف وألقيت بها فوق بقايا الجمرات الملتهبة، ونفخت فيها عدة مرات، ولا بد أن رمـاد الجمـرات غطاني قبل أن يتناثر الشرر القليل ثم يتكاثر ويتزايد قبل أن يندلع لسان النار، أسمع طقطقات العيدان وهي تزغرد للسان النار أو تزغرد به، وأراه وما زال على حاله وإن التفت نـاحيتي بنظراته نصف التفاتة، بطرف عينه يراني وبطرف تلفيحتي أراه، وضعت كتلة الخشب فـوق الراكية فبدت لي مثل "معدية" عريضة فوق شاطئين لبحيرة مدورة يطلع منها لسانان من لهب عنيد، يحوطانها وهي ساكنة على حافة الراكية رغم هوس النار ووعيدها المسموع، وبـدأت في ضوء اللهب أراه ويراني، يعجز كل منا عن إنكار وجود الآخر، أما أن يسعى أحدنا وراء الآخر مسلما له بحق التقدم عليه أو أن نتعارك، نتقاتل مثل أي وحشين غريبين في مثل هـذا العراء وذلك الصقيع الذي يحيطهما رغم وجود النار وقد تمكنت من منتصف كتلة الخشـب، أحاطتها مثل حزام عريض ونالت وسطها فاشتعل رغم سـلامة الطـرفين وابتعادهمـا عـن النيران، وبكفه ولا أدري لماذا فعل، رأيته يهوي على كتلة الخشب الملتهبة والساكنة في وسط النار.. يهوي عليها فيقسمها نصفين، والغريب أن النصفين لم يكتفيا بالانقسـام وإنمـا سـمح أحدهما لآخر بأن يركبه ركوبا كاملا.. وفي وسط الراكية صارت كتلة الخشب كلها محاطـة بلهيب النار بعد الانقسام.

ـ قول..

قالها فشعرت بأنني قابل للانقسام إلى نصفين تماما مثل كتلة الخشـب، وفكـرت أن الكتلتين من الخشب تطولهما نفس النار رغم ركوب الواحدة فوق الأخرى في قلب الراكيـة، نظرت إليه وقلت باستسلام:

ـ كان جمرة نار.

ـ قول..

ـ أنا كنت ناوي على سوق الخميس منعوني..

ـ غنيها يا مدندنش..

غنيت الغنوة وشعرب بالدفء، كان خيط العنكبوت قد تحول إلى حبل تيـل مجـدول قادر على جر فحل جاموس، ابتسم لي واتفقنا بالصمت الذي أحاطنا على عدم الكلام فـي أي موضوع، كان قد عرف ما يكفيه وكنت أعرف أنه عرف ما يكفيه ويعرف أنني عرفت أنـه عرف ما يكفيه، كان الصهد يحوطني ويزيح عني رعشة البرد التي أوشكت أن تسكن بطني، وكانت السماء هناك مشحونة بالسحاب والرعد وربما بماء المطر أو كرات الثلج الصـغير ،

وكان فراغ الغيطان يشهد أنني لم أبح بشيء ولا هو فكر في أن يسألني عن شيء على وجـه التحديد، تمددت على الأرض فغطاني بطرف حرامه الخفيف الذي كان يسمح لصـهد النـار بالدخول إلى أطرافي يدفئها، وقبل أن أغفل أو أنام سمعت صوت الأذان ينادي لصلاة الفجـر من زاوية عزبة الغرباوي، ربما سمعته بصحيح وربما خيل إلي أنني سمعته قبل أن أغطـس في النوم ولا أصحى لروحي إلا على هزة من كف صالح، وكانت هناك رغـم سـواد الليـل شمس طالعة ونهار قلت فيه الريح وسرحت إلى الأفق البعيد منه سحاباته المعتمة التي كانـت تملأ سماء الليل ولا تنزاح.

لا أذكر كيف رجعت إلى داري في الكفر ولا أعرف بماذا كنت أحس، لعلنـي كنـت أشعر بنشوة تحت الجلد وخجل في الدماغ، شيء مختلط ونادر الحدوث، كنت أسـحب نفـس وأتسحب في دروب الكفر وأنا ذاهب إلى داري، لا أرغب في النظر إلى أحد أو أن ينظر إلى ناحيتي أحد، كأنني كنت عذراء فقدت عفتها باختيارها ورضاها لحبيب قلبها الذي رغبت فيـه وتمنت وصاله، سعت إليه ووهبته روحها ثم أفاقت على ضرورة الرجوع إلى دارها لتسـكن وتتدبر أمرها في مستقبل الأيام، كأنني كنت فارسا قطع الطريق الصعب إلى مخبـأ الغـول، وبالحربة أو بالسيف مزق أطرافه وسيح دمه على الأرض ثم عاد، وعندما كنـت فـي داري شعرت أنني كنت أتشمم رائحة الريح وأرى على نحو خاطف ما سوف يجـري فـي كفرنـا "العواف" من أمور في مستقبل الأيام.

ليلتها كنت أقبع في ركن المندرة المزحومة بالرجـال، يحيطونـه ويصـبون عليـه النظرات، وكان هو يتكلم بحماس لا يشوبه أي حذر، كأنما لم تكـن للحيطـان آذان فـي دار صالح، حتى عندما حذره حسان ابن طه مداعبا:

ـ الكلام ده يودي ورا الشمس لو حد مننا قاله.. بس أنت يا سي سـيد بـاين عليـك مسنود.

ـ مسنود بالناس.

ـ محدش في الحاجات دي بيعمل حساب للناس.

ـ طيب نسأل المدندش.

قالها سيد أفندي وهو ينظر ناحيتي، وكأنه مد ناحيتي حبلا وطلب مني أن أتعلـق بـه وأخرج من أعماق الجب الذي كنت أتوارى فيه، أطلع إلى السطح وأبدي رأيا وسـط أكـابر ومدرسين وطلبة في الجامعة والمدارس، قبلها قلت لروحي كن في حالك يا مدندش، كل لقمتك بالسعي وأحمد ربك، مالك أنت بأيام الملك الذي طردوه أو أيام عبد الناصر التي جاءت بعـد اللواء محمد نجيب، صحيح أنك يا مدندش بني آدم، لكني هل كل بني آدم منا مسموح له بـأن يقول للخلق رأيه في الحكام؟ والرأي شيء غير التعليق السريع أو النكتة العابرة، قلنـا نكتـا

كثيرة في الملك واللواء وقلنا أكثر في عبد الناصر ونقول في السادات، لكن هل النكتة تقدم أو تؤخر يا ناس؟ ألف نكتة تفوت وألف نكتة تفوت، وألف ألف نكتة تتوالد وتموت لكن الحـاكم يبقى حاكما والمحكوم محكوما، وهذه طبيعة الدنيا بأسرها، لكن يا مدندش الرأي شيء آخـر، وما يقوله سيد أفندي رأي في الحاكم والناس ويلزم أن تقف معه أو ضده، كنـت يائسـا مـن الناس وسكوت الناس وكلام الناس، وكان هو يحلم بناس غير الناس، ناس تقـول الـرأي ولا تتردد، ناس تدافع عن حقها بلسانها وعقلها وفعلها، وجادلته، قلت له إن نـاس كفرنـا وكـل الكفور المجاورة اختارت السكوت لأن الكلام طنطنة حروف، ولأن أدوات الفعـل معدومـة والوعي القليل مزروع في سكك السعي وراء اللقمة، وقلت له ما كنت أعرفـه عـن هوجـة عرابي وأيام سعد زغلول والحماية وبنادق الإنجليز، وسألته إن كان الدم الذي سال قد بنى في الأرض قصرا للمكافحين أو حتى عشة؟ وقلت وقلت وقلت، كأنني كنت في جـرة وخرجـت للناس، كأنني كنت محبوسا في قمقم وفتح لي سيد أفندي الغطاء فتجاسـرت ونطقـت ونلـت استحسان الكل بما فيهم سيد أفندي نفسه وختمت كلامي بالرأي الصريح:

ـ عبد الناصر كسر قلوبنا بالهزيمة وسلمنا للسادات. والسادات باع واشترى فينا وخد عمولته من دمنا!؟

كنت جريحا وكانوا جرحى، وكان سيد أفندي مثل جراح محبوس في غرفة مملـوءة بالآهات والوجع، عاجزا عن معالجة الكل في نفس الوقت وعـاجزا فـي ذات الوقـت عـن الاختيار، من أين يبدأ؟ وإلى أي موجوع يمد يده ويحاول أن يداوي ويخفف الآلام وبأي حـق يترك الآخرين وهم ينزفون ويصرخون ويطالبون بتخفيف الوجع، وربما أشفقت عليه ساعتها وهو يتعرض لسخرياتهم في حلمه المستحيل، يستشهدون بكلامـي وكأنـه نهايـة المطـاف، خلاصة الحكمة الساكنة في القلوب وهي تواجه كلام الأفندية المطلي بآراء العقلاء الذين قرأوا كلامهم في كتب الجامعة ومطبوعات الحكومات، وأنا قرأت بعض هـذه الكتـب وكـادت أن تبدلني، تغيرني، تنزع عن جلدي جلدي وتغطيني بجلد غيره، لكنني كنت مزروعا في طـين الأرض، محميا برائحة الغيطان ونسيم الفجر وخبث الناس وحيطتهم من غريب حتى ولو كان أفنديا سرح في أركان المدن البعيدة مع أب له فات الكفر برضاه في رأي البعض وغصبا عنه في رأي البعض الآخر، وفي كفرنا يحق لك الخروج والدخول طبعا ولن يتغير شيء بشـرط أن تكون على ذمة الكفر، مربوطا معه بخيوط الود أو حتى العداوة، سيرتك موصولة ودائمـة وكأنك تارك فيه ظلك أو بعض نفسك، أولادك أو دارك أو ميراثك أو زوجك أو حتى عملـة عملتها فنلت بسببها الإعجاب أو الغضب، تخرج وأنت على ذمة الكفر وترجع في أي وقـت حتى ولو عدت في أرذل العمر بعد تأبيدة قضيتها في اللومان مثل السعيد ابن نجاتي الذي قتل عمه وأمه ودافع عن شرفه فاستحق أن يبقى اسمه على ألسنة الناس رمزا للسـكوت الطويـل

انتظارا للوقت المناسب، وعندما جاء الوقت فعلها وسلم روحه لمأمور المركز، أيامهـا كـان ناس من الكفر تقول إنه شهم وناس تقول إنه خسيس لسابق معرفته بمسألة علاقة أمه مع عمه التي فاحت رائحتها وزكمت كل الأنوف، كان يبدو مثل عبيط مفتوح الشدقين بمناسبة وبـدون مناسبة، يسمع الكلام الجارح ولا يرد، وكان بعض شباب الكفر يزغده في صدره أو يلطشـه بالكف على صدغه، لكن السر كان في قفاه، ذلك أنه عندما تلقى أول صفعة على قفاه أفـاق، كان عباس ابن بحر هو الذي صفعه على قفاه وقال له في ساحة المولد:

ـ عمك راكب على جدار داركم حماري يا تيس.

يومها تحسس قفاه وردد:

ـ تيس، تيس، وكل وقت وله أدان يا عباس يا بن بحر، ياللي بنـت عمـك فرشـت تراكيب الغيطان بثوبها للي يسوى واللي ما يسواش.

وضحك الناس، وضحكت أنا مثلهم، لكن ضحكنا تحول إلى اندهاش في فجـر نفـس الليلة ونحن نسمع ما جرى لأم السعيد ابن نجاتي وعمه، كان الرجل والمرأة هناك في نفـس الدار أشباه عراية وفي وضع فاضح رغم حرصهما لحظة المفاجأة على التستر، وكان هنـاك إلى جوار الجسدين رأسان مفصولان على ما يبدو بضربة واحدة محكمة التصويب، ضـربة قادرة ومغلولة ومفلوتة بعد طول السكوت، وكان السبب كما لاح لي ولكل الناس مجرد كـف على القفا، لسعة غير محسوب حسابها جاءت من حيث لا يحتسب، من راحة يد عبـاس ابـن بحر، ذلك الذي اختفى هو أيضا في نفس الوقت، كان السعيد قد أسلم نفسه لمأمور المركـز، أقر واعترف بما فعل، وفي المحكمة دافع عن شرفه بكلام قليل لكنه كان حريصا على إبـلاغ من جاءوا من الكفر بأن يقولوا لعباس ابن بحر إنه مديون بدم بنت عمه لناس الكفـر، طلـب المحامي الذي عينته الحكومة للدفاع عنه من قاضي الحكومة الرحمة وتخفيف الحكـم علـى الجاني الذي نزع الله من قلبه الرحمة، فنطق القاضي بالمؤبد بدلا من الإعدام، من يومها ظل السعيد ابن نجاتي في ذاكرة الناس، لكن ابن بحر الذي اختفى لم يختف من الذاكرة تماما، ظلوا يذكرونه ويذكرون المثل القائل بأنه هناك في هذه الدنيا ناس بيوتها من زجاج لكنها لا تكـف عن رمي الناس بالطوب، وأنا يا ناس كفرنا "المستكاوي" مندهش من ناس كفرنا "العنـدليبي" الذي يتصرفون في بعض الأمور المتشابهة بطرق مختلفة، يتذكرون الجسور والرعديد، القاتل والمقتول، الجاني والضحية بشرط أن يكون ذلك في زمام الكفر وعلى ذمته، أما من تباعد أو ابتعد فلا يخصهم في شيء.. حتى لو كان ما يربطهم به هو الاسم والدم وتقـاطيع الملامـح وهيئة الأبدان.

نرجع لحكاية سيد أفندي:

هل كنت أنا أقرب إلى ناس كفرنا "العنابي" من سيد أفندي؟ هل كنـت أنـا الغريـب الحقيقي المقطوع من شجرة الأموات أقرب لقلوبهم منه إلى هذا الحد؟ هل ظلمه الناس حيا وقد جاء إليهم بعد طول الغياب إلى حد أنهم كانوا يودون لو كنت أستطيع أن أنتصر عليـه أو أن يشهدوا هزيمته ولو كان ذلك عن طريق الغريب المدندش؟ أعرف أنه تربي في الغربة لكنـه مولود في كفركم "القراقيشي" عاش في المدن البعيدة، على غير إرادة منه، ومهما اختلفتم أنتم في مسألة حسن عوف مع عبد القادر فهو يا ناس منكم، رجع لكم بعد أن طاف ولف ودار في المدن البعيدة، صحيح أنه راجع ليكون قريبا من قبر ابنه، لكنه رجع، ناس من عواجيز الكفر قالت أنه أخطأ عندما ترك الأرض والناس والأهل وانقطع، وأنه أسلم روحه للمـدن البعيـدة، جعل شوارعها تسكن ذاكرته وذاكرة ابنه بدل الغيطان والسواقي وريح الأرض، واستسلم فـي أول عراك فاستحق النسيان، بينه وبينكم مسافة يصعب اجتيازها، مثله مثل الولد، ذلك الـذي جاء بإرادته ليعرف ويتعرف ويكتشف، ربما لأن البعيد عن العين في كفرنا "الكمـوني" بعيـد عن القلب، ما علينا، ناس أخرى من عجائز الكفر قالت كلاما آخر، قـالوا إن حسـن كـان أضعف من أن يقف في وجه الأب القادر، وقالوا إنه اشترى عمره بالابتعاد.. وقالوا إن الولـد مسكين على كل حال.. لكنهم جميعا، كل عجائز الكفر شعروا أنه لم يعد يخصهم، لا هـو ولا ابنه الأفندي الراجع، كان الكفر بكل ناسه رغم اختلافاتهم اتفقوا عليه، كأنهم لم يباركوا يومـا دخوله حدود كفركم "البنفسجي" أو معاملته على أنه واحد منكم، أنا أثرثر مجـرد ثرثـرات، أعرف ذلك، لكنني أفكر معكم بصوت مثلما كان هو يقول.. أفكر بصوت فاسمعوني.

المسألة في غاية البساطة، كان من الممكن أن يطلع منكم برضاكم أو غصـبا عـنكم، ويعود إليكم بالمثل، برضاكم أو غصبا عنكم، شيء مثل نقطة الدم التي تعصرها من إصـبعك بعد شكة بالدبوس أو الإبرة، بإرادتك أنت رغم الوجع تعتصرها وبرغبتك أيضا تمتصها، دون أي احتمال للشعور بالقرف، هي نقطة من دمك أنت تدخل في فمك أنت باختيارك، ولو أجبرك الحكيم على ذلك ربما ترددت ألف مرة، ببساطة كان هناك حاجز غامض لا أعرفـه يفصـل بينكم وبينه، بيني وبينه لم يكن هناك أي حاجز أو مسافة، ربما لأنه وسط الزحام كان يبدو لي وحيدا مثلما أنا وحيد، وحيدا وحزينا ويحاول أن يتصالب بعسـر، أن يحـدثكم عـن تـاريخ الفراعنة أو يحكي لكم تواريخ الثورات أو عادات القدامى، كان يجاهد أن يصل إلـيكم مثلمـا أجاهد أنا منذ نزلت ميدان كفركم وورثت صندوق الدنيا وطبلة المدندش الكبيـر وصـاجاته، ثوبه وزعبوطه وطرطوره وطول لسانه، أنا حسنين المدندش ابن حسنين المدندش مولود وسط ناس الكفر ورغم الاغتراب والابتعاد كنت أعود، لم يعترض أي نفر منكم علـى سـفري أو رجوعي، ربما لأنني كنت أسافر وأنا على ذمة الكفر، ذاهب أو راجع، غائب أو مقـيم وأنـا على ذمة الكفر، أما هو.. فكان كما قال الجد طه في إحدى السهرات:

ـ ابن البلاد البعيدة، مين يعرف إن كان هو هو اللي يخصنا ولا الخلق في المـداين بدلوه، لبسوه بدلة وغيروا لهجته فصار منهم، يخصنا منه اسمه وكسمه، لكـن بيننـا وبينـه حدود..

كان بينه وبينكم حدود.. وكانت بينه وبين صالح مسافة باتساع الغيطان التي زرعهـا صالح وانزرع فيها، وكان يغني في الأمسيات أحيانا والخلاء يحوطنا وفي صوته أسى غويط غويط:

"أنا المصري كريم العنصرين "

فأوشك أن أقاطعه وأسأله إن كان بالفعل كذلك، لكنني كنت أخجل من نفسـي، أوبـخ روحي لأنني نسيت أنه أول طرح مبروك ما بين أولاد عوف وأولاد شلبي، هـؤلاء القـدامى وهؤلاء الجدد على الكفر الذين أوشكوا على امتلاكه، وأحيانا كنت أرد عليه بحماس أكثر من حماسه:

"أنا المصري كريم العنصرين "

فأينا يا ناس كان المصري كريم العنصرين؟

بيني وبينه زالت كل الفواصل والحدود، ارتحت له وارتاح لي، كان يكاشفني وأكاشفه، يحكي عن سنوات اغترابه وأحكي عن سنوات الرحيل، السعي المجنون وراء اللقمـة وأيـام العشق التي جرجرتني وراء بنت العرب التي جاءت الكفر مرة تستجدي ما يجود به الأكـابر فخطفت عقلي، أسرت قلبي وروحي. جعلتني أسعى خلفها منشدا للسـيرة النبويـة والهلاليـة وسيرة عنترة، أغني وترقص هي ومن كنت أحسبه شقيقها يلم النقوط، يكنز الجنيهات بدعوى أنه ينوي تجهيز البنت يوم يتقدم لها ابن الحلال الذي يستحقها، أيامها كنت أحسب أننـي ابـن الحلال الذي يعنيه حتى كان ما كان، حكايتي مع وهيبة قلتها له بكل ما كان فيها من تفاصيل، وكان يحسن السماع، يدعوك لأن تواصل الحكي دون حذر، تحكي وكأنك تقول لروحك فـي الخفاء دون أي خجل أو تردد أو رهبة، وهيبة لحست عقلي وتوهت روحي وأفقدتني كل أمل في الدنيا وبعثت في مشاعري كل ألوان الرجاء والحلم، وهيبة التي لم أبح بكل سيرتها لأحـد غيره غيرتني وأعادتني للكفر مدندشا آخر، وأنا قلت لكم بعض ما كان من وهيبة، لكنني لـم أقل لكم كل شيء، وقد لا أقول لكم كل شيء أبدا، يكفي أن تعرفوا أنها كانت وراء انفـرادي بروحي كل هذا العمر دون زواج أو خلفة، من أجلها سرقت ولوثت كفوفي بدم البشر، وكانت هي السكين الذي سرق عمري، سكين مسنون النصل شديد النعومة إلى حد الذبح دون وجـع كثير، ذبح الناعم كالحرير وأنعم، ذبح يبقى الرأس مكانه ولا يظهر أثر النصل فـوق ثنيـات العنق، هو نوع من الذبح المخصوص ذلك الذي جربته مع وهيبة، ووهيبة كانـت أعرابيـة، دخلت كفركم "السهران" تهز وسطها وتطلب الثمن فطالتني بعينيها الحويطتين المكحولتين تحت

جبينها الهلالي وصوتها مثل كروان يسبح في الفراغ بحمد الله على الصحة والجمال والسـتر، سرحت وراءها دون علمكم طبعا، لكنها كانت وراء هجرتي وعودتي، غيـابي ورجـوعي، وراءها درت في كل بلدان البر، الريف والحضر، بحري وقبلـي، الجبلـي والصـحراوي، وهبتني وهيبة من حسنها أقل القليل لكنها أشبعتني وروتني، توهتني وأعادتني لأصلي، ولـولا كلامها ما رجعت إلى كفركم "المسامح" أعيش وسطكم وأحصل على رزقـي، ويبـدو أنهـا حسبتها حسبة صحيحة لأنها كانت بارعة في الحساب، عرفت منتهى عزمي وأدركت أنني لا أقوى على الاستمرار معها وحولها وهي محط أنظار ناس تشبه الغيلان، رأتني مثـل عـود قصب معصور وممصوص خيره فأوحت لي بأن أرجع، وأنا مع البدوية كنـت أطـاوع دون مناقشة، كنت مثل خاتم في إصبعها، طيعا مثل قط رومي ووفيا مثل كلب أرمنـت، رجعـت وصدقت أنها سوف تتخلص من كل ما يعوقها عن الحياة معي وترجع إلى كفرنا "النعنـاعي" تعطيني بقية عمرها وتأخذ ما تبقى من عافيتي، قلت لكم إنني صـدقت ورجعـت، انتظـرت وانتظرت، لكنها لم تأت قط، لا جاءت كفرنا أو أي كفر أو بلد في كل الناحية، مـن نـاحيتي عملت بالوصية:

ـ إوعاك يا مدندش تبص لحد غيري.. إوعاك أرجع ألاقيك متجوز واحدة من بنـات الفلاحين.. استناني، مهما طال الغياب استناني.. ح أرجع لك وأعيش ويـاك، وح أعوضـك وأنسيك سنين الحرمان والغاب.

بذلك قالت البدوية، وأنا من ناحيتي صدقت الوعد، وقلت انتظر، وطال انتظاري ولـم تظهر علامة الرجوع أبدا، لكنني لم أيأس، كنت أستعيد عينيها الحويطتين وأسألها عن موعـد الرجوع فتهرب مني مثل جنية صغيرة، أسرح بالخيال في أعقابها ولا أطولها، لكنه يبقى فـي ركن القلب بعض الرجاء في أن ألتقي بها في العمر مرة، مرة واحدة، ظـل حبـل الرجـاء ممدودا وموصولا بيني وبينها، سنوات وسنوات فاتت من عمري، خرج السعيد ابن نجاتي من حكم المؤبد بعد أن قضى ثلاثة أرباع المدة، وأنا لم يصدر حكمها بالعفو عني، قلت كل شيء لسيد أفندي، قلت كل شيء وكان يسمعني، يدعوني للاستمرار في الحكى، أراحني، خفف عني وضاحكني وأزاح عني وهم الانتظار بلا جدوى، أكد لي أنها ما دامت قد وعدتني فسوف تفي بالوعد، وحكى لي شيئا عن وعد الحر، وعد العربي الحر، كان الأفندي يحب العـرب، كـل العرب والأعراب والبدو المتنقل، وكان يحب عبد الناصر ويكره السادات، وكان يحلم مثلمـا أحلم بالأعرابية، يحلم بوحدة العرب ويحلم بالزمن العربي ويبثني أشواقه لذلك اليـوم البعيـد الذي تعود فيه وهيبة ويتوحد كل العرب، وكنت أشعر أنه مصاب بنوع نادر من أنواع الخبل، خبل العرب إن جاز لي أن أقول: كان يرى أنه من الحتمي أن يجيء اليوم الذي يتوحد فيه كل العرب، يتقابلون في واحدة من عواصم العرب، يتعانقون ويختارون قائدا أو زعيمـا يتـولى

أمرهم في مسائل الحرب والسلام، العجيب العجيب أنه كان يتخيل هذا القائد أو الزعيم ويصفه لي فأرى وجه عبد الناصر الطالع وقد تألق بالشباب وازداد وعيا بدوره الكبير، ما علينا، مـا لنا بعد الناصر الذي اختلفت معه في شأنه، ثم ما لنا بالسادات الذي أوشكنا أن نتفق في شأنه، ثم من أكون أنا ليكون لي رأي في المسائل السياسية وهي وظيفة الأفندية؟ ربما يكـون سـر تباعد ناس الكفر عنه هو هذا الاهتمام الزائد عن حاجتهم بالسياسة، اهتمامه هو طبعـا الـذي يزيد عن مقدرتهم على الانشغال، السياسة في كفرنا لقمة عيش وثوب ومسكن يريح النفر فيه جنبه ويقيه سخونة الحر في الصيف ورعشة البرد في الشتاء، السياسة في كفرنا شاي وسـكر وزيت ودقيق وسمن وقرش جار في الجيوب وسداد ديون، ما لنا بالسياسـة؟ وهـل نفعتنـا السياسة أبدا، راح الملك وصفقنا لمحمد نجيب، ذهب محمد نجيب وجاء عبد الناصر، صـفقنا لعبد الناصر حتى أدمينا أكفنا من كثرة التصفيق وراح عبد الناصر فطلع لنا السادات، حكـى لنا كل يوم حكاية شكل عن جدته وأخواته وناس كفره الأصغر من كفرنا وكأننا لم نذهب إليه أو نعاشر فيه ناس، هل أطعمنا السادات كما قال؟ وهل؟ وهل وهل؟ وما قيمة السياسة ومـن يشتغلون بها إذا كان ما نتمناه لا نلقاه وما نحلم به لا يتحقق؟ الناس في كفرنا وكـل الكفـور المجاورة تموت بالمرض الناتج عن الإهمال والجوع أو تموت بالغدر مثل سيد أفندي، وهناك دائما ذلك المجهول المعلوم لنا، مجهول لهم هم يحرصون على تأكيد وجوده وكأنه من مصلحة البعض أن يظل البعض مجهولا للبعض رغم كونه معروفا للناس، أرزاق هي تتـوزع فـي الخفاء والعلن لكن رائحتها تفوح حتى ولو كانت في البعيد البعيد، ربما لأننا ورثنا في خلايانا المقدرة على كشف الأسرار فصار كل شيء في حياتنا واضحا وظاهرا مثل شـعاع الشـمس وكل المطارات السرية والحسابات السرية وشروط المعاهدات السرية مثلما قال لي ذات مساء صاحبي الذي خطفه المجهول المعروف، سيد أفندي المغدور قال لي وصحاني من غفلتي، أو قل إنه أكد لي صدق ظنوني، كان بالنسبة لي مثل كتاب مفتوح وكنت بالنسـبة لـه معروفـا ومقروءا، فهل مت أنا في ذاكرته بينما مازال يحيا في ذاكرتي؟ وإذا كان ذلك كذلك فمن منـا الذي مات؟ وإذا كانت ذاكرته التي انطفأت مثل سراج وهاج انتشر ضوؤه قبل أن تعصف به الريح الصرصر العاتية فانطفأنا وساد حولنا الظلام بينما هو باق، كأنما أخذنا نحن من منطقة النور إلى منطقة العتمة بعيدا عن أي ضوء أو شعاع فدعاني لأن أندب نفسي فيه وقد توحدت فيه زمنا لا يفصل بيننا فاصل، تصاحبنا وتساوينا وتبادلنا الكلام المفتوح بلا حواجز أو حدود، دعاني لأن أفتح مغاليق نفسي وأن أفسح للساني حرية البوح والقول بلا تردد أو مخافة، دفعني دفعا لأن أعلن خلافي معه ولا أكتمه. كنت أفعل أحيانا لكنه ليس دائما فلمن أبوح مـن بعـد رحيله بسر المفاسد والأكاذيب؟ ولمن أشكو وقد شاخ القلب وشابت خلايا الدماغ من كثرة مـا شفنا في عمرنا من مراوغات؟ مراوغات الكبار.

قبل أن أعرف سيد أفندي كنت أتفنن في سرقة الكتب لأقرأها، وكنت أصدق نفسي بأن من يملكون الكتب نادرا ما يلتفتون إليها أو يضيعون الوقت المناسب في القراءة، يقرأ الكتـاب من لا يملكه، على الأقل يتمني قراءته، وفي الكثير من بيوت الأكابر كنت أرى صفوف الكتب وقد غطاها الرماد الدقيق بما يؤكد أنهم لم يقلبوا صفحاتها مرة، كنت أحتال وأسرق الكتب من أكابر هذا الزمان المقلوب إذن، أقول لروحي إنه حلال لأمثالي أن أعرف أي شيء آخر غير ما أعرف، بيني وبينكم تهت، الكتب متاهات ودهاليز ومسـالك ملفوفـة لكنهـا تـدعوك لأن تتحسس السكة رغم السواد والعتمة، ما علينا، أخطر شيء، أخطر شيء في هـذه الـدنيا أن تتبدل، تتغير أفكارك عن الأشياء، باختيارك أحيانا ودون وعي في حالات أخرى، وما جـرى لي بعد أن قابلت سيد أفندي هو شيء من هذا، سرقت منه كتابا، كنت قد أوصـلته إلـى دار صالح في ثالث زيارة أراه فيها، حملت عنه حقيبة وسألته:

ـ مالها ثقيلة كدة ولو أنها صغيرة.. معبيها زلط يا سي سيد؟

ـ أبدا.. فيها كتابين..

قلت لسيد أفندي بيني وبين نفسي "أنت الجاني على روحك" تحمل كتب أفندية البنـادر إلى كفرنا "الفركوحي" وتظن روحك قادرا على الخروج بها وأنا موجود؟..

جاوبته على أسئلته في السكة من دحديرة الكوبري حتى دار صالح، ناولته الحقيبة عند الباب واستأذنت رغم دعوة أهل الدار لي بالدخول، وعدته بالمرور في الليـل، وفـي الليـل نصبوا في المندرة سهراية شاركتهم فيها، وأنا خارج دفست الكتاب في عبي، كنت قد رأيتـه وأنا داخل فوق رخام الترابيزة المحطوطة أسفل دولاب الحائط في قاعة صالح، قبلها كنت قد امتلأت، حصلت على "ورك" ذكر بط محمر لزوم إكرام الضيف وضيفت الضيف، وفي داري أخرجت الكتاب وفي ضوء المصباح الخافت عرفت بيرم غير بيرم مؤلف أهل الهوى يا ليل، بيرم شاعر دمه خفيف عارف للناس وطباع الناس، سهرت الليل بطوله حتـى قـرأت آخـر صفحة من الكتاب، أقول لكم حقيقة غابت عني، بيرم حببني في سيد أفندي، ربط بيني وبينـه برباط خفي، شيء غريب لم يحدث لي من قبل، أن يحببني كتاب مسروق في صاحب الكتاب المسروق لكنه حدث، كان النهار الطالع يملأ وسط داري بشمس الله الدافئة، وعنـدما رحـت أفتح الباب للطارق كان قد لمح الكتاب بنظرة خاطفة سارع بتفويتها، رحبت به وأنا منـدهش أشد الاندهاش، دخل الدار ببساطة وجلس على الحصير الذي فرشته تحت شمس الضحى، قلب في الكتاب وسألني ببساطة:

ـ قريت فيه؟

ـ قريته كله يا سي سيد.. ده دنيا بحالها.

ـ غريبة..

كانت عندي تلقيمة شاي وعلية سكر كاملة، فشربنا الشاي واتفقنا أن آخذ منه الكتـب لأقرأها وأعيدها إليه بعد القراءة، حدثته عن الكتب التي قرأتها وتلك التي سرقتها ولم أكملهـا فتخلصت منها بالبيع، وحدثته عن طعم الكتب المسروقة التي يقرؤها النفر ويخرج لسانه مـن بعيد لبعيد لأصحابها:

ـ أنا يا سيد أفندي لا دخلت مدارس ولا كتاب، بس اتحايلت واتعلمت، شغلت روحي بالحروف والكلام وقريت، ساعدني العيال الصغار ف الأول، وعاندت روحي لحد ما صـار كل الكلام المكتوب مقري.. تصدق بإيه؟ لحد النهاردة ما عرفش أكتب اسمي، مكتوب عليك يا مدندش تقرأ وتقرأ وتعجز عن الكتابة، شفت واحد زيي كدة يا سيد أفندي، يقرا ما يكتبش..؟

ـ وشفت اللي بيكتب ولا يقراش..

ـ عجايب.. دي الدنيا على كدة مدورة بصحيح..

ـ مدورة فعلا يا عم حسنين.

كانت أصدق عم حسنين سمعتها في كل عمري، ومن ساعتها بدأت علاقتي معه تأخذ شكلها المخصوص.

طلب مني علام أن أفوت على داره، أشوف طلبات أهل الدار، ذهبت فوجدت الست أم شاكر مشغولة بتجهيز زيارة، أول ما شافتني وصفتني بأنني ابن حلال.. طلبت مني ان أرافق شاكر إلى شقة سيد أفندي في الحلمية الجديدة، دست في يدي ما قالت عنه أجرة السـفر لـي ولشاكر، وأشارت إلى سلة الزيارة، المشوار لا بأس به لكن زمالة الطريقة صـعبة، وشـاكر لسانه مقلوب وغلاط وأنا لم أعد أحتمل سخافات الصغار ولا أوامر الكبار. كان سيد أفنـدي يتراءى لي ويمنعني من الاعتذار عن المشوار. استعنت بالله وحملت السلة، طلبت من شـاكر أن يلحقني عند السكة الزراعية لكنه زام وبرطم قبل أن نبدأ المشوار:

ـ مستكبر تمشي ورايا بالسبت يا مدندش؟

ـ اختشي عيب يا شاكر.

قالتها أمه قبل أن تلتفت إلي لتطيب خاطري وتزيح ترددي وقد وقفت عند الباب مبديا عدم ارتياحي لكلام الولد: عيل.

ـ معلهش يا مدندش، عيل وما يدركش، عشان خاطر سيد. أنت مش عـاوز تشـوفه ولا إيه؟..

من أجل سيد احتملت شاكر حتى وصلنا إلى شقة سيد أفندي، كان في الشقة مجموعة من الشباب في مثل عمره، هللوا وهم يتشممون محتويات السلة، يتضاحكون وهو واقف مكانه يرحب بنا بينما هم جاهزون للترحيب بمحتويات السلة، كانت زيارة عمرها قصير، زيارة بنت ساعة زمن بفضل الأسنان المسنونة للأفواه النهمة، لكنها كانت أكلـة فطيـر وأرز مدسـوس

ودجاج محمر تشبع، شبعوا وشبعنا ثم تسللوا مغادرين وتركونا، أنا وسيد أفندي مـع شـاكر، كان شاكر يبدي غضبه من أصحاب سيد أفندي الذين بدوا له متطفلين لا يخجلون، وكان سيد أفندي يدافع عنهم يقول إنهم أصحاب عمره وأنهم لولا الحب ما فعلوا ذلك الذي فعلوه، كنـت مشغولا بالكتب فوق رفوف المكتبة بطول الجدار، كتب كثيرة تصلح للسرقة لكنها تحتاج إلـى جرار بمقطورة، تناولت كتابا لأقرأه فوجدت شاكر يسألني:

ـ أنت جاي تقرا هنا؟ قوم وديني عند بنت عمتي.

كأنني كنت عبده الذي اشتراه علام، كدت أغلط وأفرد لساني لولا سيد أفنـدي الـذي تدخل في الوقت المناسب، هدأ شاكر ووعده بأن يوصله بنفسه إلى أي مكان، في الليل جاءوا، نفس المجموعة ومعهم شيخ ضرير يحمل عودا ملفوفا في ثوب قديم.. وبسرعة أخرجه وجلس يدندن ويختبر الأوتار.. غنى لنا الشيخ أغنيات جديدة لم نسمع بها أبدا، أغنيات عن الحـرب والسلام والجرح الذي ينزف الدم ويجرح الكبرياء.. وكانوا يرددون وراء الكفيـف أغنياتـه بحماس، أنا نفسي حفظت بعض الكلام بسرعة وجعلت أردد مثلهم أغنيات الشـيخ الضـرير المعاند ضد الحكومة والحكام، وبيني وبين نفسي شعرت بالفرح، ها هو بعض ما نرغب فـي البوح به يقال ويتغنى به أولاد المدن بينما لا نسمع غير نشرة الأخبار وبرامج تنظيم الأسـرة والمسلسلات البلهاء، وكان الليل قد انتصف من ساعتين أو أكثر عندما فكروا فـي الرحيـل، تركونا بعد أن أشعلوا في الذاكرة ما كنت أحسبنا نسيناه ونساه كل الناس.

كانت شقة الحلمية كشفا جديدا، فيها تعرفت على أفندية مثـل سـيد أفنـدي، أسـاتذة وشعراء وأولاد ليل حزانى من أجل البلد، عرفت فيها أن ما يملكه الواحد منهم هو ملك للآخر في ذات الوقت، يتبادلون السجائر والقروش وبعض الثياب، يتحاورون ويتجادلون حتى صباح اليوم التالي، يبحثون عن الحل المستحيل وليست في متناول أياديهم أدوات الحل، كنا في تلـك الأيام نعيش الذكرى الثالثة لهزيمة جيشنا في سيناء، جيشنا المحروس هزمته جيوش الأعداء، وكان على الناس أن تصير جيشا لكنه كان مستحيلا، وكانوا يشعرون أحيانا بالغضب واليأس، لكنهم أيضا لم يفقدوا كل الأمل، كانت مجرد أيام تلك التي عايشتهم خلالها لكنها كانت كافيـة لأن أعرفهم ويعرفونني، أصير صاحبهم ويصبحون أصحابي، يستعيرون الكتب من سيد أفندي ويحملون إليه الكتب التي لا يملكها ويرغب في قراءتها، ها هي الكتب في متناول اليد لكنها لا تدعوك للتفكير في سرقتها يا مدندش ربما لأنها لا تستقر في المكان، تتحرك، تتناقلها الأيـدي وتطالعها العيون الجسورة الباحثة بين سطورها عن الحل الكبير لهمنا الكبير بعد الانكسـار، الكتب لمن يقرؤها والسجائر لمن يدخنها والقروش لمن يقترضها والخبز القليل لكل الأفـواه، دنيا غريبة لم أعتدها أبدا، لكنها جديرة بالتأمل والتفكير فيها، وسيد أفندي مجرد واحـد فـي وسط ناس تقول كلاما غاضبا عن الحرب والهزيمة، تتجادل في ترتيب المسئولين وتتفق فـي

العداء لصهاينة اليهود والأمريكان، كلام مثل كلام الراديو وكلام عبد الناصـر لكـن بشـكل مختلف لأنه يدين الكل، الحكومة وعبد الناصر والاستعمار والأغنياء في كل أطراف الدنيا.

كانت زياراتي لشقة الحلمية قد أصبحت عادة، كلما زهقت من صندوق الدنيا أذهـب إلى هناك، أجالسهم وأشاركهم كل شيء السهر والكلام والغضب وبعض الفرح والتنكيت على الكبار، يسألونني الرأي ويدفعونني لأن أقول فأقول، يهلل فاروق أفندي.

ـ سامعين الكلام يا أفندية يا بتوع المدارس.. الأمل في الشعب.

ـ المسألة مش بالبساطة دي يا فاروق.

ـ لأ.. هي بالبساطة دي، لازم تنزلوا للناس، تسمعوا الناس، تتعلموا منهم، قول لنـا موال يا عم حسين.

كنت أستجيب لفاروق أفندي أكثر مما أستجيب لأي واحد منهم، أشـعر أنـه يرتـاح لوجودي وكلامي وصمتي، كأنه مسئول عني وعن تفجير مشاعري، أقـول مـوالا فيهلـل، تتداعى في ذاكرتي مواويل الهم المدفون في الأحشاء فأنطق بها، أنسى روحي حتى اكتشـف بدايات انشغالهم عني، أسكت في الوقت المناسب أو أنسحب خارجا من المكان مدعيا حـاجتي إلى الرقاد، أسمعهم يتحاورون وأسمع باب الشقة وهو ينفتح ليدخل صاحب جديـد أو يخـرج صاحب طالت قعدته، وكثيرا ما كان الصبح يطلع وهم على نفس الحال، ليلهم نهار ونهـارهم ليل وأنا رغم السن مأخوذ بهم ومعهم، كأنهم بهية العربية التي جرجرتني وراءها وسـحرتني وجعلتني على الرغم مني مستعدا للسرقة والقتل لأرضيها، لكن بهية رغم كل فسادها لم تكـن تشعر بقلقهم وإحساسهم الدائم بالمطاردة، كانوا يتحدثون عن المباحث وأمن الدولة والمخابرات العامة التي لا بد أنها تراقبهم والتي ربما تزرع في وسطهم جاسوسا أو أكثـر بهـدف نقـل أخبارهم، ولم أكن أنشغل بمثل هذا الكلام حتى سمعت فاروق أفندي الذي كنت أحبه يسأل سيد أفندي هامسا بينما كنت أرقد في الحجرة المجاورة:

ـ أنت متأكد منه؟

ـ عادي.. دا راجل غلبان.

ـ المصيبة أنهم ما بيشغلوش إلا الناس الغلبانة.

ـ معقول..؟ دي تبقى مصيبة.

ـ إحنا اتحمسنا له أكثر من اللازم.. لازم نحتاط منه..

ـ وطي صوتك ليسمع.

كنت قد سمعت، وبخت نفسي بنفسي على التردد عليهم والإقامة المتواصلة بيـنهم، لا هم من سني ولا مركزي يناسب مراكزهم، وأنا رغم كل شيء مجرد طبال ونـداب ومنـادي وحافظ كلام فارغ أضحك به على العيال وهم ينظرون من العدسات إلى الرسوم التي تظهـر

لهم في صندوق الدنيا، ما لي بالأفندية أصحاب الرأي من الشعراء والسياسيين ومن يكتبـون للإذاعة والصحف ويغنون كلاما ساخنا عن الأحوال؟

كنت قد قررت أن أبتعد لكنني ابتعدت ببطء، انتظرت عدة أيام بعـد ان سـمعت مـا سمعت حرصت خلالها على قلة المشاركة في جلساتهم، أدعي قضاء مصلحة لي في الحسـين أو السيدة وأظل ألف وأدور حول الأماكن وحول نفسي حتى يهدني التعب وأرجع، أعتذر لهم وأرقد في أي مكان، أرى نظرات الدهشة في عيونهم ولا أقدر على تفسير ابتعادي رغـم مـا قاله فاروق أفندي مرة:

ـ أنت بتغطس تروح فين يا عم حسنين؟

ـ بزور أهل الله يا سي فاروق أفندي والمعارف.

ـ أهل الله؟ كويس أن لك معارف مش بقولكم؟

قال عبارته الأخيرة وهو يجول بنظراته في كل الوجوه، كدت أبكي وأنا وحدي فـي تلك الليلة، لكنني في الصبح كنت راكبا أول قطار في سكتي للكفر وكأنني مطرود مـن جنـة الدنيا إلى جحيمها، يسألني أهل الكفر عن مصر وناس مصر فلا أمد حبل الكلام علـى غيـر عادتي معهم، كنت أحاسب نفسي وأحذرها من أن تطلع مني كلمة زائدة عـن سـيد أفنـدي وأصحابه، وما دمت أنا قد تعرضت لمخاوفهم مني وشكوكهم في أمري فلا أمان لأحد، هكـذا منعت نفسي من مشاوير السفر وجاهدت لأنسى شقة الحلمية وناسها وكلامهم. وبـدا لـي أن الأمر لم يعد يشغل أي واحد من ناس الكفر حتى كان ذلك المساء الذي استدعاني فيـه عمـدة الكفر وسألني:

ـ إيه حكاية شقة الحلمية اللي كنت لابد فيها يا مدندش؟

ـ مفيش يا حضرة العمدة.

ـ لأ فيه.. أنت فاكرني نايم على ودني؟ أنا جاياني إشارة م المديرية بتسأل عن سيد عوف، أصله وفصله وأهله وناسه وأصحابه..

ـ ونا يخصني إيه بس ف كدة يا حضرة العمدة.. أنا كنت باشيل له الحاجـات اللـي الست والدته بتبعتها له أو اللي سي صالح بيشيلهالي، موصلاتي يعني.

ـ بقى ما تعرفش أنه كافر وشيوعي يا مدندش..؟

ـ شيوعي..؟ يعني إيه يا حضرة العمدة؟ وكافر كمان؟

ـ أيوه يا خويا.. ومقبوض عليه من شهرين، أنا لولا باقي عليك كنت حطيت اسـمك وسط الأسامي.

ـ أسامي مين يا حضرة العمدة يستر عرضك..؟

ـ اللي ح تروح ورا الشمس، هما فاكرين الحكومة نايمة على ودانها؟ الكـلام ده إن دار في دماغك يبقى يحش أجاك، روحك ف إيدي م النهاردة، اقدر أرميك في سفا العفاريـت وأقدر أداريك وأداري عليك لو طاوعتني.

ـ أنا خدام التراب اللي حضرتك بتدوس عليه يا عمدة.

ـ فز قوم بقى، على دارك عدل تلزمها لحد ما أبعث لك إنما قوللي الأول.. لما كنت بتروح هناك يا وله.. كنت بتشوف إيه.. بتشوف مين؟ وكانوا بيقولوا إيه.

ح أقول لحضرتك كل حاجة.. بس اعفيني دلوقت، أعمل شارب زيت خروع وحاسس أني مكتوم.

ـ خطي أطلع بره جاتك القرف اللي يقرفك، وأنا أقول الريحة النتنة دي كلهـا جايـة منين.

أسرعت بالخروج هربا ورهبة قاصدا داري، الغريب الغريب أنني في المسـافة بـين الدوار وداري كنت أشعر بثقل شديد وليونة في الطبيعة تصل إلى حد العجز عن احتمالهـا أو الإسراع بخطواتي إلى داري لأدخل بيت الراحة وأرتاح قبل أن ينفلت عيـاري فـي وضـح النهار.

في كفرنا "النوري" تعيش "البهاليل" أمثالي على طاعة الحكام، بإشارة من أصغر خفير أو شيخ خفراء ينقلب ميزان الدنيا من الأبيض المزهزه إلى الأسود "الغطيس" ومهما قلت لـي عن وسع الدنيا ورزقها المقسوم للبني آدم يناله هنا أو هناك، مهما قلتم لـي عـن إمكانيـات الخروج والسعي فلن تتغير فكرتي بأن الدنيا هي حدود كفرنا "الشرشابي" وأنا أعـرف أننـي مقطوع فيه، لا سند لي من أهل معمول حسابهم أو أرض ملك فـي الزمـام تتطلـب البقـاء والرعاية أو حتى رزق مضمون أو ضمان، لا شيء، لا شيء من كل هذا يملكه البهلول الذي هو أنا ولا يفكر في الرحيل، وحتى إذا رحل فعلى موعد متعجل للرجوع، وأنا خرجـت مـن كفركم يا ناس وغبت، غبت وغبت ورجعت لأنني كنت على ذمة الكفر مثل امرأة مكسـورة الجناح في عصمة رجل جبار ومفتري وقادر لا تملك مثل هذه المرأة الجرأة على الفرار مـن دارها إلى أي دار، وإذا خرجت من بابها بدون رضاه أعادها ذليلة على بيت الطاعـة بحكـم الشرع وبحكم القوة والقانون، كفركم "البهلولي" يا سادة هو سكني وموطني وميراثـي وبيـت طاعتي من قديم الأزل وحتى نهاية الأجل، وأنا لا أقول لكم ذلك بسبب خـوفي مـن فكـرة الخروج وكأنني قرموط سمك طالع من بطن الترعة ومرمي على شطها يتلوى فـي سـخونة شمس "بئونة" الحجر، قرموط سمك يقاوم الموت بنفسه الطويل أكثر من كل الأسـماك التـي عرفناها، يطول الوقت أو يقصر لكن عمره مرهون بعودته إلى بطن الترعة، من هذه الناحية اعتبر نفسي قرموطا من سمك ساكن في قاع الترعة وقد جرب الشط وتاب عـن الخـروج،

صحيح أن الرزق في القاع شحيح والعطن والعفن أكثر لكن ما هو البديل؟ الخروج للبهلـول القرموط موت محتوم وفناء، يقول بعض الأكابر إنني كنت في صباي وشبابي خفيف الحركة والدم واليد والعقل واللسان وأنا لا أعترض، لكن خفة الحركة والدم واليد والعقل واللسان ضد الرحيل، صدقوني، أنا رحلت وجربت، حملت صندوق الدنيا وسرحت فـي البنـادر البعيـدة وكانت الدنيا براحا مفتوحا بلا حدود، لعبت مع ناس البنادر مثلما يلعـب القـط مـع الفـأر، شاغلتهم وشاغلوني، شغلوني في كل شيء من بواب إلى فران إلى صبي جزمجي أو قهوجي أو عتال نصف عطلان أو أشغال أخرى قمت بها برضاي أو غصبا عني لأدفع عن روحـي تهمة العجز أو عدم القدرة على الاحتمال، لكن أي نوع من الاحتمال يا ناس؟ هل تنبت الحبة الصالحة في أرض غير أرضها؟ أنا عرفت مثلا أن ثمار البلاد الباردة لا تطيب فـي الـبلاد الساخنة، وزرع الصحاري غير زرع الجبال، وأنتم أهل الزارعة من قديم الزمان، هل جربتم مرة أن تغرسوا حبات القمح في طين الأرض أيام الحصاد؟ لا بد أنكم جربتم أو أن أجـدادكم جربوا وتأكدوا بأنه لا يطيب الحب والثمر إلا في أوانه وأرضه، ومن هذه الناحية أيضا أراني مثل بذرة أو حبة مدفوسة في طين الكفر خروجها موت وفناء، طيب إذا كان الأمر على هـذا النحو فكيف لا أستمر في الحياة وكل ما أرجوه لقمة تسد الجوع وهدمة تستر البدن بينما تتكفل جدران الدار بحمايتي من الشرد وعواصف الريح ووحل الأمطار؟

نرجع في الكلام إلى عمدة كفرنا "النوري" وما طلبه مني بسيط وسـهل مـن ناحيـة وصعب مستحيل من ناحية أخرى، يتوقف الأمر على فكرة البني آدم عن نفسه وفكرته علـى الآخرين، يمكنني مثلا أن أكذب من كثرة الخوف أو احتيالا للحصول على وجبة دسمة تسـند قلبي، كذبي في هذه الحالات مفهوم ومكشوف واضح وضوح الصدق، ويمكنني أن أساير أي واحد من أهل الكفر في كلامه عن غيره، كل واحد في نفسه سلطان ويحق له أن يرى نفسـه أفضل أو أقوى أو أضعف أو أذكى أو حتى أغنى من غيره أو أفقر، وعندما أسمع فلا بـد أن أساير وأدعم وأشجع وأهدي، وأحيانا أضع على شعلة النار مزيدا من "السبرتو" أشعلها نـارا حامية وأنا عارف حدودها ومداها وإمكانيات ضررها، في أوقات أخرى أعترض وأقوم بدور عسكري المطافئ حامل الخرطوم الكبير الطويل والماء يندفع بشدة لتخمد النيران في أقصـر وقت، أقوم بذلك أحيانا، كل وقت وله أذان كما يقولون، وكل إناء ينضح بما فيه كمـا يؤكـد الشيخ رجب خريج الأزهر المعجباني ملفوف شال عمته الحرير الأبيض بطريقته الخاصة جدا والتي حاول العشرات وربما المئات تقليدها دون نجاح، ظلت عمامته في الكفر وكل الكفـور المجاورة وربما البنادر ملفوفة بشالها الحرير الأبيض على نحو مختلف ومخصوص وصعب تقليده أو حتى وصفه، والناس كلها سلمت للشيخ رجب بحق الاختلاف والانفراد بهذه العمامـة حتى صارت علامة مسجلة يضعها فوق الكرسي فيعرف الناس أن الشيخ رجب موجود فـي

المكان، يظهر لهم فيتبادلون معه الضحك لأنهم عرفوا وجوده عندما وجدوا عمامته، العمامـة والشيخ رجب شيئان لا ينفصلان، توأمان وعلامتان من علامات كفرنـا "البرقـوقي" الـذي يحرص كل نفر فيه على أن تكون له علامة أو سيرة وصفة، فاسمحوا لي بأن أظل كما كنت بينكم بصفات مختلفة تدعو إلى الضحك والسخرية أحيانا وتثير العطف والشفقة فـي بعـض الأحيان، هذا من ناحيتكم أنتم، أما من ناحيتي أنا فالأمر يختلف لأنني ببساطة إنسان مختلـف وجد نفسه بينكم وتعلق بهواكم على طريقته، تزعجه الأحداث فـلا ينـزاح وتطـرده الإدارة فيحتال ليبقى، وكل ما هو مطلوب من البلهول أن يعرف متى وكيف يميـل ناحيـة الاتجـاه المضبوط في الوقت المناسب، هي لعبة مثل المشي على السراط، شغل بهلوانـات وبهاليـل وأرجوزات في هامش الهامش على ما يظهر للإدارة وهم في قلب القلب من نبض الحياة فـي كفرنا وكل الكفور المجاورة يا ناس.

أحكي لكم إذن عن ضرورة الطاعة، طاعة المتخاصمين، لنفرض أن بهلـولا مثلـي تقابل مع عمدة الكفر مرة وسمع منه مثل ما سمعت من عمدة كفرنا حول ما كنت أسـمعه أو أراه في زياراتي لسيد أفندي عوف وقد وعدني وتوعدني في نفس الوقت، بيني وبينكم شعرت ساعتها بالرهبة، كنت أظن أنه ليس هناك غير واحد من اختيارين لا ثالث لهما، أن أبوح بمـا قد يضر من فتح لي بيته وقلبه فأفوز برعاية العمدة وأنا في الواقع أخـون عـيش صـاحبي وملحه،كلامي عنه لحضرة العمدة من أولاد شلبي معناه أنني سوف أسلمه سلاحا قادرا علـى الطعن في ظهر واحد من أولاد الخصوم، واحد ممسوك في قبضة الحكومة لأسباب لا أعرفها ولا يعرفها عمدة كفرنا نفسه، عمدة كفرنا كان يتودد للمركز وعساكر المركز، يتحـدث عـن المأمور وكأنه ملاك نازل من السماء أو نبي مرسل وكان عمدة كفرنا كذابا يا ناس وكل مـا يهمه هو البقاء في مركزه لا مانع عنده من رشوة المخبرين والعساكر وصغار الموظفين فـي الشهر العقاري وتحقيق الشخصية وتفتيش الري والزراعة والصحة وكل من يظن هو أن لـه علاقة بالمأمور أو أعوانه، وأنا أعرف كما تعرفون أن عمادة الكفر لم تنتقل من أولاد عـوف إلى أولاد شلبي ببساطة ويسر، كانت وراء المسألة مصاعب ومشـاحنات وثـأرات ودمـاء مهدرة، كان الأمر عسيرا بحق، فيه سعي متواصل من ناحية وكسل متراخ بليد من الناحيـة الأخرى، وقد فكرت في أن أجرؤ وأذهب بنفسي إلى حضرة المأمور أحدثـه عـن أفكـاري ومخاوفي من إمكانيات أن أتعرض للخطر إذا أبديت أي نوع من الاعتراض على أن أتحـول إلى نمام في موضوع لا أعرف قيمته أو أهميته لأنني ببساطة لا أعرف أي شيء في السياسة أو بحورها الغويطة، لكنني تراجعت لأنني قلت لروحي "كل مأمور فوق منه مأمور أكبر فلأي المأمورين تلجأ؟" وقلت لروحي أيضا "لا بد من وجود الحل الثالث" على وزن العـالم الثالـث الذي يحكي لنا عنه الراديو والتليفزيون في نشرات الأخبار، وأنا وصلت للحل الثالـث عـن

طريق الست شوق، قلت لروحي: شوق بنت عم حضرة جناب العمدة وهي في نفس الوقت أم سيد أفندي، ومهما طال ابتعاده عنها أو قل اقترابه منها فهو قطعة منها، بينها وبينه حبل سري ممتد على امتداد العمر كله، وفي ساعات الخطر تحمي الأمهات أبناءها بالأنياب والأظـافر، هكذا علمتني الحياة.

في المندرة كنت وحدي مع الست شوق أحدثها عن كل ما دار بيني وبـين حضـرة جناب العمدة، أذكرها بما كان من أمر ذهابي إلى سيد أفندي بأمرها ولأجل خاطرها، وأنه لو أصابني ضرر أو أصاب ابنها مكروه من ناحية حضرة العمدة فسوف تكون هي السبب ولـو بشكل غير مباشر.

ـ والحكاية يا ست شوق ف إيدك وإيد ابن عمك، واللـي أعرفـه أن الضـوفر مـا بيطلعش من اللحم، وأن طلع يبقى بالدم.

كانت مثل قطة أصابها سعار أو وحش جريح محبوس في قفص حديد، عيناها زائغتان تبحثان عن سكة للحل، والحدقتان تتسعان وتضيقان وشرايين البياض تزداد حمرة فتلونه بلون الدم القاني، شعرت بالخوف منها أو عليها وندمت لأنني فاتحتها في الأمر، كنـت حـائرا إن كانت قد عرفت ما جرى لسيد أفندي قبل أن أعرف أو أنها فوجئت بأخبار حبسه مع أصحابه، كل ما فعلته أنها قامت، مدت يدها لتأخذ "الماس" وتتغطى به، تنظر ناحيتي وكأنهـا اكتشـفت وجودي في المكان، تشير بسبابتها وتحذرني وكأنها في نفس الوقت تصرفني:

ـ اللي قلته يا مدندش ما يتحكيش لحد، بأجلك لو فتحت حنكك.

وببطء تسحبت من المكان خارجا وقد عاهدتها بهزة من رأسي تعني الموافقة، وفـي سكتي للدار وقد خرجت من دارها بدا لي أنني سمعت خطواتها المتعجلـة فـي اتجـاه دوار العمدة، ذلك أنني لم أجرؤ على الالتفات خلفي وقد كانت السماء ملبدة بالغيوم وسحابة كبيـرة سوداء تداري ضوء القمر وتعتم السكة وتبعث في القلب المخاوف.

في الكفر قالوا إنهم سمعوا صوت العمدة مجلجلا في منتصف الليل الساكت، يتعـارك مع أهل بيته ربما ويردد نفس العبارة التي يقولها في كل الحالات الصعبة لتبرير ما لا يعجب الخلق من أفعاله:

ـ أنا ما لي.. أنا عبد المأمور.. بقولك عبد المأمور..

وربما لم يفسر الناس كلام العمدة أو يعرفوا على من كان يتوجه بالكلام بنفس طريقتي في التفسير، وربما كنت قد أخطأت التقدير أو أخطأوا لكنني على نحو غامض شعرت بنـوع من الارتياح وإن لم أتخلص من أوجاع بطني أو ليونة الطبيعة عندي، أو من ذلـك الانتفـاخ الذي أصابني وفجر من الفتحتين رياح البطن تنطلق رغم الإرادة وتنتشر في المكـان رائحـة العفونة الخانقة.

مات عبد الناصر فبكيناه، بكاه الصغار والكبار، لكن رجالا من ناس الكفر لم تنشـغل بالأمر أكثر من عدة أيام، وفكرت أنه لا يخصهم في شيء من يتولى حكم البلاد، ما يخصـهم هو الضيق أو الفرج، سهولة الحياة أو مصاعبها، لكنني كنت مخطئا، ذلك أنهم رغم ما يبـدو في الظاهر ينشغلون، لكنه انشغال من لا يشارك إلا في أيام الاستفتاء، يذهبون بتثاقل مخافـة أن يدفعوا الغرامات إذا تخلفوا، يؤشرون في خانة الموافقة رغم الاعتراض، أو هكـذا يؤكـد البعض منهم للبعض الآخر:

ـ مش وافقت برضه؟

ـ وافقت.. ما هو وافقت ولا ما وافقتش ح ينجح، هو فيه غيره؟ خليها على الله.

ـ واللي ما راحش العمدة سدد قصاد اسمه الله يستره.. يعني ما فيش غرامات النوبة دي..

ـ العمدة بيقول أنه قريب السادات.

ـ قريبه من أنهى ناحيه؟

ـ أهو كلام.

ـ بس الراجل ده باين عليه نبله.

ـ العمدة ولا السادات؟

ـ الاثنين يا أخي.. مش بتقول إنهم قرايب؟

يقولون ويضحكون، يضحكون وكأن الأمر لا يشغل بالهم في قليل أو كثير، الناس في كفرنا مثل الآبار الغويطة يصعب الوصول إلى قرارها، ولا بد أنهم يختلفون عن ناس البنادر، ناس البنادر يطلقون النكات ويقولون الرأي أحيانا دون لف أو دوران وكأنهم يستندون علـى جدران صلبة تحميهم، أنا شفت وسمعت في شقة سيد أفندي كلاما يوصل لأبـواب الليمـان، كانوا يتبادلونه بجرأة وجسارة في وجود من يعرفونهم لأول مرة، كانوا يقولـون عـن عبـد الناصر ما قاله مالك في الخمر على مسمع مني وبلا حذر، صحيح أن فاروق أفندي حـذرهم مني لكنهم لم يخففوا من كلامهم أو يتبدل رأيهم، وصحيح أنهم أخـذوهم وحبسـوهم بحسـب رواية العمدة التي لم أتشكك في صدقها هذه المرة رغم شكوكي في الكثير الكثير من أقوالـه، كانت الشواهد كلها تؤكد أنهم أخذوه وحبسوه مع كل أصحابه، ما كان يدهشني أنهـم كـانوا يتكلمون بنفس الطريقة التي يتكلم بها الراديو والتليفزيون في نشرات الأخبار، صـحيح أنـه كانت هناك بعض الفروق لكنها فروق بسيطة، وليس من الممكن أن يتكلم كل النـاس مثلمـا يتكلمون في نشرات الأخبار طبعا، كان سيد وأصحابه يتكلمـون عـن الاشـتراكية والحـل الاشتراكي والرأسمالية العالمية وتذويب الفوارق وبيان 30 مارس وإزالة آثار العدوان والأمم المتحدة والاتحاد الاشتراكي والوحدة العربية والتصنيع والسد العالي وتأميم القناة، وكـل هـذا

الكلام سمعناه بآذاننا، فكيف سمح عبد الناصر لعساكره وضباطه بحبس هؤلاء الذين كانوا في الواقع يرددون أفكاره وكلام إذاعاته؟ كنت أسأل نفسي وأنا الواثق من أن سيد أفندي كان مـن أشد المتحمسين لعبد الناصر ومن كلامه ما زلت أذكر بعض العبارات:

ـ كفاية يا مدندش إنه أول مصري يحكمنا من آلاف السنين.

ـ عبد الناصر زعيم بيحب بلده.. بس يا خسارة.

ـ رفع رأسنا في كل بلاد الدنيا.

ـ عاوز يعمل وحدة عربية ويحرر الشعوب.

وكلام غير هذا كثير سمعته بأذني ووافقته عليه، لكنه انحبس في زمن عبد الناصـر وخرج في زمن السادات، في أوائل زمن السادات، رأيته وهو ينزل من باب السيارة وبدا لي أن حركته كانت أبطأ وأن وزنه كان أزيد، اقتربت منه بلهفة لأساعده وأحمل عنـه الحقيبـة، ابتسم لي وهمس:

ـ ازيك يا عم حسين؟

ـ الله يسترك، حمد الله على سلامتك، بقى هي مصر واخداك مننا على طول كدة يا سي سيد؟ هي البلد دي ما لهاش فيك نصيب؟.. دانت واحشنا خالص، طيب تآمن بإيه، كنت ح آجي أزورك في شقتك الجديدة، أيوه، ما أنا عارف العنوان.. بس بعيد عنك رجليـا تعبـت م اللف والدوران.. زرجنت يعني، وأهو زي ما أنت شايف كدة حطيت مرة واحدة.

كان يسمع كلامي ويبدو هادئا وكنت حريصا على أن أسمع كل من يرانـا صـوتي، كنت أرغب في إعلان وجوده دون أي إشارة إلى أسباب غيابـه التـي أعرفهـا وربمـا لا يعرفونها، وكان هو قد أحاط نفسه بالصمت الكامل فلم أفرغ كل ما كان مخزونا فـي قلبـي وعقلي وعلى أطراف لساني من أحاسيس ومشاعر وأسئلة، وبدا لي وأنا أسير إلى جواره عند شاطئ الترعة أنه تباطأ في نفس المكان الذي أخرجته طفلا موشكا على الغـرق فـي مائـه، تذكرته طفلا ولا بد أنه تذكر لأنه كان ينظر ناحيتي متأملا وكأنما يتأكـد أننـي هـو نفـس الشخص الذي كانت نجاته من الموت على يديه، لكنه لم يتكلم، وزنت بالقرب من أذني ذبابـة ملحاحة فتذكرت ما قاله فاروق أفندي في آخر مرة زرته فيها، وخفت أن يكون قد ظـن هـو الآخر أنني غير أمين على الأسرار، غطاني عرق مباغت لا علاقـة لـه بشـمس الظهيـرة الطالعة، وعلى غير إرادة مني سألته:

ـ على أنهي ناحية يا سي سيد؟

ـ الوالدة.

فرحت، أحسست أنني سوف أوصله لها وقد عاد بعد طول غياب كابدت فيه الخـوف والقلق، وأنها لا بد سوف تتذاكر تلك الليلة التي حدثتها فيها في أمره وما كان عمدة الكفر قـد

قاله عنه وكيف حافظت على السر مكتوما لم أبح به حتى لنفسي في وحدتي بين الجدران، لكن ما حدث خيب رجائي فعند الباب كان هناك علام يتناول مني الحقيبة ويرحب بسـيد أفنـدي ويكاد يسد فراغ الباب الموارب ليمنعني من الدخول، بل إنه قال بجفاء وغلظة:

ـ كتر خيرك يا مدندش.. ابقي عدي علي بعد المغرب في الدكان، عاوزك..

كأنه ألقى على جردل ماء سكن بين ثيابي وجلد بدني، رجعت من حيث أتيت وقد جف حلقي وزاغت نظراتي وانطفأ في القلب شعاع الفرحة وكدت أتعثر في خطواتي بينمـا تنـبح كلاب الواطية على غير عادتها وكأنني غريب ترتاب الكلاب في أغراضه وتوشك أن تمنعـه من العبور.

في الليل الساكت كنت وحدي، مقهورا وعاجزا عن احتمال وحدتي في الدار أو القدرة على الخروج بحثا عن سهراية في أي ركن من أركان الكفر، شيء يشبه الحبس الذي سمعت عنه ولم أجربه، والحبس ليس مجرد جدران وحارس يمنعك من الخروج والدخول بحريتـك، الحبس أنواع، وأقساها ذلك النوع من الشعور بضيق الدنيا من حول النفر منا، ذلـك الضـيق الذي يسك كل السكك في الوجه وينفي وجود الأماكن رغم وجودها وكثرتها، شيء مثل الشلل والسواد وكراهية الوجود نفسه، إنه حبس بغير حراسة ولا جدران، ليلتها كنـت أدور حـول نفسي في دائرة صغيرة صغيرة، كأنني كنت نحلة تدور في نفس المكان، يتوه عقلي الـدوران في المكان وامتداد الزمان، شيء يشبه الكوابيس التي تصيب المكبوس فتكتم أنفاسه وتمنعه من الصراخ أو الحركة، يتوقف الأمر على قدرة المكبوس على تحريك طرف أو إخراج صـوت، علام كان في تلك الليلة كابوسي الذي يحاصرني في مكاني ويحبسني في بدني، يجعلني أدور على كعبي ولا أملك القدرة على الخروج من مداري، لكنه كان كابوس الصحو الذي يختلـف عن كابوس الرقاد، لعله شدني لأن أستعيد كل ما جرى لي في كل عمري، كيف دوختني الدنيا وحرمتني من القدرة على الرد، كيف سلبتني كل الحقوق ووضـعتني فـي خانـة الضـعفاء والمحصورين، وعلى أي أساس أخذت مني وأعطت لمن هم أقل وعيـا وإحساسـا بالنـاس وتصاريف الأحوال؟

مطرود أنا من كل مكان وإن كنت موجودا في كل الأماكن، لا حساب لي رغـم مـا يبدو لي في لحظات الانبساط أنني محسوب ومرغوب ومطلوب، لكنه في اللحظات الحاسـمة أراني في هامش الهامش أكابد السكوت رغم امتلاء القلب برغبة الصراخ وقدرة اللسان علـى البوح والشرح والكلام، كأنني مقطوع اللسان بالفقر والعوز وعدم الاستناد الحقيقي إلى شـيء أو أحد، وحدتي بعد كل هذا الزمان من السعي قاسية، ربما يصيبني مرض فـلا أجـد مـن يرعاني أو يحوطني بالعطف أو الاهتمام، لا زوج ولا أولاد ولا مال وعزوة، لكننـي أيضـا

وفي نفس الوقت أكره السكوت، كأنني مسئول من غير تكليف بأن أتكلم في كل شأن من شئون كفرنا الغفلان.

كنت أراني طائرا في منعطفات الكفر وأركانه والظلام يحيطني، ولم أكن أملك أجنحة الطيور لأرتفع إلى أعلى البيوت في مساحات الفراغ، كنت فقط أشعر بأنني أخطو في الخطوة الواحدة مساحات ومساحات، أدفع بأطراف أصابع القدم أرضية صلبة فأرتفع إلى مـا فـوق الأرض ذراعا أو باعا، مفتوح الساقين وشاعرا بمخاطر السقوط دون سقوط، وعنـدما أهـبط وألامس الأرض أدفعها بأطراف أصابع القدم الأخرى فأعاود الارتفاع لكنني أستشعر الخطـر من إمكانيات الاصطدام بأي جدار أو باب مسكوك، معلق أنا ولا حيلة لـي أو قـدرة علـى التحليق عاليا للخلاص من كل السواد وكل العتمة أو حتى الوقوف في المكان، وكنـت أقـول لنفسي إنني أحلم فقد عزت الأحلام، ولعلها كانت هي الـريح التـي حركتنـي وهزهزتنـي وأعادتني إلى حالة الصحو لا أعرف أنها كانت مجرد تغفيلة أفقت منها في نفس اللحظة التـي سمعت فيها صوت الشيخ رجب وهو يؤذن لصلاة الفجر وينادي بصوته المميـز أن الصـلاة خير من النوم، كنت أشعر بالوجع في أطرافي وبدني وكان النوم يغالبني فتركت صحن الدار حيث كنت في غفلتي وتمددت على طرف الفرش، غطيت نفسي لأطرد رعشتي ولـم أشـعر بشيء حتى سمعت الخبطات على باب داري، قمت بكسل لأفتح البـاب وأراه، كـان واقفـا والشمس ساقطة على رأسه من الخلف، أفسحت له فتحة الباب أكثر ودعوته للدخول:

ـ اتفضل يا سيد أفندي.. اتفضل، دي خطوه عزيزة، اتفضل، دانا زارني نبي، الدار مش قد المقام.. ما تآخذنيش يا سيد ع الفقر اللي محاوطني، دقيقة واحدة أفرش الحصـيرة ع المصطبة.

أسرعت لأرفع الهلاهيل من فوق المصطبة قبل أن أفرشها وأمسـك البـاب، جلـس يتأملني ويتأمل المكان قبل أن يسألني:

ـ ازي صحتك يا عم حسنين؟

ـ بخير يا سي سيد، بخير، المهم أنت، ازي حالك، أجيب لك فطار ولا أعمـل لـك شاي..؟

ـ ما تشغلش نفسك.

ـ يا خبر.. دانا لو أملك أعمل لك اللي يليق بيك، بس الحال زي ما أنت شايف، الفقر يا سي سيد بيحرم البني آدم من حاجات كثير، حتى من القعاد مع اللي غاب، مجـرد القعـاد والطمان، لك وحشة..

ـ ما تزعلش يا عم حسنين.

ـ أنا اللي زعلني إني اتحرمت أقعد معك وأسألك، أشوفك وأتأملك وأسمع كلامك اللي اتحرمت منه، منهم لله اللي غيبوك عنا الوقت ده كله، بس أنت كويس، أيوه أنت كويس أهـه، الست الوالدة قالت لي أكفي ع الخبر ماجور، وأنا لساني مـا نطقـش بحاجـة لا سـمح الله، الحاجات دي يلزمها الكتمان برضه، بس أنت كويس..

كنت حائرا ومشحونا بعشرات الأسئلة، وكنت خائفا أن أنطـق بمـا لا يليـق وكـان يسمعني ويتابع حركاتي بينما أجهز له ولي براد الشاي، أصبه وأناوله الكوب فيأخذه ويشرب ربما ليرضيني ولا يشعرني بالفارق بيني وبينه، لم أذكر له ما جرى من العمدة أو ما قاله عنه أو ما قلته أنا للست شوق، كنت أشعر بالارتباك وأخشى أن يفرغ كوب الشاي قبل أن أفرغ له ما كنت أمتلئ به من الأشواق أو أعرف ما كان من أخباره، لكنني كنت فـي نفـس الوقـت عاجزا عن السؤال المباشر، ولابد أنه اكتشف قلقي قبل أن يباغتني:

ـ العمدة كان عياز منك إيه يا عم حسنين؟

ـ كان عيازني أبعبع شوية، بس أنا خفت عليك، خفت أغلط في الكلام، ما هـو أنـا أكيد كنت ح أغلط ف الكلام، أنا ما عرفش في الحاجات دي اللي يفيد م اللي يضر.. بس قلـة الكلام أحسن.. ولا أنا غلطان؟ هي طبعا الست الوالدة لا بد أنها قالت لـك، أنـا مـا كـانش هاممني نفسي، على رأي المثل، إيش ياخد الريح من البلاط؟

ـ فاكر فاروق يا عم حسنين؟

ـ إلا فاكره.. بس أنا واخد على خاطري منه، أنا سمعته بودانى بيقـول كـلام مـا يصحش إنه يتقال.. كتمت ف روحي ورجعت، إوعاك يا سي سيد تكون..

ـ واحنا في المعتقل يا عم حسنين اكتشفنا أن هو اللي كان بيكتب عننا تقارير..

شعرت أنني خرجت لتوي من قاع القاع إلى سطح الدنيا، ونورت الشـمس بضـوئها قلبي، كان هو يتكلم ويحكي عن أشياء لا أفهمها، عن الغدر وبيع الصحاب، عن البوح بمـا لا يجوز البوح به للحكام، عن الوشاية بالخلق والخداع، وعن الحبس والضرب وأوشـك علـى البكاء، لكنني في ذات الوقت كنت أشعر بنوع من الارتياح، ربما لأنه كان في هذه اللحظـات ماثلا أمامي يتكلم بصوته، وربما لأنني رغم الجهل لم أخدع أو أنخدع أو أخون.

يوم نشلته من بطن الترعة:

زاد البحر الكبير وملأ الترع فامتلأت ترعة كفرنـا بالمـاء والطمـي، نـزل الأولاد وعاموا بين الشطين، سحرهم البحر ونساهم "صندوق الدنيا"، كنت أراهم يرمحون عرايا كمـا ولدتهم أمهاتهم يرمحون ويرتمون بقفزاتهم نحو الماء، ينزل الصغار أكثر بحذر مـن جنـب الشط ثم يتراجعون، صعب أن يحصر البني آدم أطفال الشطآن أيام الفيضـان، لكننـي كنـت

أراهم وأنا أجلس فوق الدكة جنب صندوق الدنيا، حيلتي ووسيلتي لاكتساب الرزق فـي تلـك الأيام، قمت أطرد ولدين يترامیان بحفنات الطين، يغترفانها من قاع الترعة ثم يرمح الواحـد منهم وراء الآخر، يرمي "بجالوص" الطين الأحمر في اتجاه الآخر ثم يفر منه ويغطس مـرة أخرى في ماء الترعة، أصابت حفنة من طمي الترعة غطـاء الصـندوق فقمـت أطردهمـا وألعنهما بغضب، وبدا لي وأنا أنظر ناحية البنت حميدة التي كانت تركب كتفي الولد عـزوز "المنحنح" بدا لي أن فقاعات تطلع من جوف الترعة، فقاعات صغيرة لكنها مستمرة، صرخت في البنت فقفزت مبتعدة وقفز الولد عزوز أيضا وغير مكانه، وبدا لي أنني رأيت ظهر كـف صغيرة تضرب السطح الغريني ثم تختفي، وربما كانت نظرات الولد العبيط والبنت "الهبلـة" هي التي دلتني وأكدت لي ظنوني، كان سطح الماء ما زال يأخذ الفقاعات الصغيرة، تصـعد إلى السطح قبل أن تتلاشى، وبالمداس دست على طرف شط الترعة، ومددت يدي، علق بكفي شيء، فتحسست وأنا أنزل أكثر وكأني أصيد قرموطا بكلتى الكفين، أمسكت البدن الغارق في بطن الترعة، وسحبته، كان ضئيلا ونحيلا وخفيف الوزن، وكان الطمي بقاع الترعـة عالقـا بنصفه الأسفل كله، كأنه عود مغروس في الطمي، وبعسر خلصت نفسي وخلصـت الولـد، وفقدت مداسي، قلبت الولد وطبلت على بطنه فأفرغ من المنخارين والفـم رشاشـات المـاء، وأحاطني الخلق لا أدري كيف من كل اتجاه، سألوني إن كنت أعرف ابن من هذا الولد، كـان في الثالثة وله ثياب تشبه أطفال البنادر فلم أجاوبهم، كنت مشغولا بإفراغ ما تبقى في جوفـه من ماء الترعة، وعندما أفرغ الولد الماء المخلوط ببقايا الطعام الذي لم يهضمه اطمأن قلبـي، كان الولد يبكي ويزيل خوفي من أن يكون قد اختنق بالغرق، وبدا لي رغم الخوف البادي في عينيه أنه ولد من جديد، فرت البنت الهبلة والولد العبيط من المكان، وحملت الولد في حضني أدفئه وكان يرتعش حتى جاءت امرأة من درب شلبي وأطلت على وجهه ثم خبطت صـدرها بفزع:

ـ يا دي اللهو يا دي اللهو، يا خيبتك يا شوق يا بنت عبد الستار..

ساعتها عرفت أنه ابن شوق من حسن عوف، كانت المرأة بنت فضالي أمامي تنـدب وأنا أحمل الولد في حضني وأحاول إسكاتها دون فائدة ـ حتى وصلنا دار علام شلبي، وهناك جرى ما جرى، أم الولد أخذته في حضنها لكن علام لطم خديه قبل أن يلطمني بالكف ويسبني بأوسخ الشتائم:

ـ وجايب لنا نصيبه لحد باب دارنا يا خنزير؟

ـ ما هو صحيح.. آخرة خدمة الغز.

ـ غز إيه يا ابن ستة وستين كلب؟

ومرة أخرى صفعني، كنت في داره ، أسمع شتائمه ولا أعـرف كيـف أرد عليهـا، صعب علي حالي "ومداسي" الضائع وعجزي عن الرد، وصعب علي أنني عملت الخير فيمن لا يستحق أو يقدر.. لكن أم بكري سحبتني من المكان، زغدتني في صدري بخفـة قبـل أن توضح رأيها وكلانا في وسط الدرب بعيدا عن دار علام:

ـ ما هو أنت برضه غلطان يا مدندش، طلعت الولد م الترعة يبقى كان تكمل جميلك وتوديه لسته أم أبوه ف الناحية التانية، جايبه لجوز أمه؟ دا جوز أمه.

وتنهدت، تذكرت، كلام المرأة بنت فضالي أعماني وسحبني لسكة الندامة، وكـلام أم بكري هداني وذكرني بما أوشك أن يغيب من بالي، ونصحتني أم بكري بأن آخذ الولد وأسلمه لأهله هناك في الناحية الأخرى، كنت مترددا وخائفا من زفارة لسان علام، لكنني تذكرت مـا قاله عن الولد، وعدت وسخونة الأرض تلسعني وقد انتصـف النهـار وزاد صـهد الشـمس فذكرتني سخونة الأرض بمداسي الذي ضاع مني، وقبل أن أصل إلى باب الدار كنت أسـمع الصراخ والأصوات تتداخل، وعلى الباب وقفت فساد صمت مؤقت وعاودوا الصراخ، لكننـي كنت ما زلت أقف مكاني كصاحب دين يرغب في استرداده، سألت بنت فضالي وهي تلومني هي الأخرى:

ـ عايز إيه تاني يا مدهول، عايز تخرب عليها يا للي ينحش أجلك؟

كانت تنظر ناحية الست شوق، تلك التي كانت تجلس على الأرض، مربوطة الـرأس بطرف طرحتها وكأنها قاعدة في "محزنة" نسوان، والآخر جالس يهز بدنه فـي كـل اتجـاه، لليمين واليسار للأمام والخلف، كأنه فقي من نوع غريب، ساكت غصبا، ربما لكي يحرمنـي من معرفة أسباب غضبه بمزيد من الكلام، وعلى غير إرادة مني نطق لساني دون تردد:

ـ هاتوا الولد..

تبادلوا النظرات، هل ترددوا أو أنهم كانوا يرغبون في ذلك ولا يهتدون إلـى الفكـرة التائهة عن عقولهم؟ ببطء حملته بنت فضالي من "حجر" شوق وناولته لي، أخذته في حضـني وخرجت من دربهم بسرعة، ولم أشعر بسخونة الأرض وأنا أدخل الدرب الآخر حيـث أهـل الولد وناسه وجدته لأبيه التي قابلتني واختطفته مني خطفا وهي تستدير في اتجاه دارها، تنهج من أثر الرمح وتقول بعسر:

ـ يسترها معاك يا مدندش، يسترها معاك يا مدندش، يسترها معاك ويخليك، الخلـق قالت لي ما صدقتش.. عمر الولد ده على إيديك.. يسترها معاك..

وفي وسط الدار كنت أجلس وقد غيرت للولد ثيابه، وحطت لي على الطبلية ما كـان حاضرا من خبز طري وجبن ولبن وعسل أسود، وتعتذر لأن الدار ليس فيها طبـيخ، تربـت على ظهر الولد بحنو وتعدني بمداس جديد.

في كفرنا "النعناعي" لا ينضرب على بطنه إلا من ليس له ظهر، ولا ينضرب على ظهره إلا من ليس له سند أو عزوة أو نسب يحميه، والبهلول البهلول الناصح يحتال على الدنيا ويلاعب خلق الله، يهرب منهم إن كان الهرب ضرورة، ويداديهم إن أفلح، وإذا انقلبت أحوال الدنيا فلا مانع من أن ينقلب البهلول ويسبح في التيار، لكن الليثي ابن ابن الشحات - صبره الله على ما بلاه - لم يكن بهلولا ولا ناصحا، مجرد نفر "تمللي" بلا أهل له وزن أو قيمة ويجرؤ على نزول غيطان الأكابر، يجمع من جنينة الحاج مرسي ملء غبيط من العجور فيراه أنفار الحاج مرسي ويطاردونه ويمسكون به ويتوجهون إلى دوار العمدة الجديد الذي جاءته عمادة الكفر بشقاء العمر وحفاء الأقدام بين البندر والمأمور وأكابر المديرية، مثل هذا العمدة لا بد أن يثبت لناس الكفر أنه قادر وعادل ولا يحيد عن الحق شعرة، يزرع هيبته على حساب البسطاء وضدهم بدون رحمة، الحرامي في كفرنا بعملته حتى لو كانت السرقة خط عجور أصفر أو مدادة قثاء.

كنا في أواخر الصيف والشرد كابس على الأنفاس عندما طلبني شيخ البلد وطالبني بأن أزف الليثي ابن الشحات في دروب الكفر، جرسة مخصوصة والقصد منها تخويف الناس من حضرة جناب العمدة، وأنا طبال الكفر وزماره أعرف أصول مهنتي، أنسى صاحبي في مثل هذه الحالات وأقوم بما هو مطلوب مني لأعيش في منطقة الأمان، باختصار جرست الليثي ابن الشحات ودعوت الناس للحضور أمام دوار العمدة ليشهدوا بأعينهم ويسمعوا بآذانهم ما سوف يكون بعد التجريس، أنزلناه من على الحمار وأخذه الخفراء وربطوه بحبل قنب، إلى شجرة البأس، ظهره للخارج وبطنه وكل حاله في حضن الشجرة، وبالمقص قص أحدهم جلبابه من الناحيتين بحيث انكشف ظهره تماما لأن الجلباب كان ملبوسا على اللحم، نادى عمدة الكفر على البرقوقي الذي كانوا يخوفون به العيال أيام كان قاطعا للطريق وقبل أن يعينه حضرة العمدة خفيرا لا ندري كيف، لكنه عينه وهو الوحيد صاحب الحق في تعيين الخفراء على أيامنا، ناوله الفرقلة المعمولة من التيل الأبيض المجدول بإحكام وأمره بضرب المربوط على مهل ودون استعجال، برم البرقوقي شاربه المبروم وفرد ذراعه الطويلة ونزل على ظهر الليثي فاهتز جرع الشجرة واهتزت الأوراق، جعر الليثي بعزم صوته:

- آه.. أنا في عرض حضرة جناب العمدة.. سماح يا عمدة، أحب على إيدك، أحب على رجلك..

لكن العمدة أشار للبرقوقي ليواصل فواصل، كانت العلامة الثانية أبعد من العلامة الأولى وأقرب من العلامة الثالثة والولد يجعر:

- وأحب على مداسك يا حضرة جناب العمدة.

لكن العمدة أشار للبرقوقي فواصل على مهل حتى لم نعد نتبين الخطوط التي تداخلت وتقاربت ولونت ظهر الليثي بالأحمر المائل إلى الزرقة، وكان صوت الولد قد بـح وأصـبح خافتا والفرقلة تتلون بالأحمر القاني، كان ظهر الولد ينزف الدم وتيل الفرقلة يتشبع بالدم ثـم يتلوى طرفها على الأرض في حركة مقصودة فتسف الترب وتسود قبل أن تتجه إلـى ظهـر المربوط الذي انقطع صوته قبل أن يشير العمدة بطرف إصبعه للبرقوقي فيكف، قـال النـاس للناس:

ـ العمدة ده مفتري.. الليثي غلطان.. دا انحش أجله، لا.. دا كدة انقطع خلفه يا ولداه، ملعون أبو الزمن الشلبي.

وأنا قلت لروحي أن الليثي انتهى، إن عاش يعيش مثل خيال المآتة، وإن مات فلحساب عمدة الكفر الجديد، ذلك أنه في مثل زماننا لا يجرؤ أي واحد أن يقول إنه غلطـان، حرامـي ممسوك بسرقة، صحيح أنه لم يسرق البهائم أو الدور، لكنه سرق الزرع فـي زمـان غيـر الزمان الفائت، سرقة الزرع في السابق لم تكن تسمى سرقة، كان الأكابر يقولونها للأنفار:

ـ ما دام يا ولد بتاخد م الغيط لجل أكلك وأكل عيالك تبقى ما بتسـرقش، دا الغـيط سبيل للسائل والمحروم.

على هذا فتحنا عيوننا وعقولنا، فهمناها مثل كل ما فهمناه من عادات وأحكام وحكـم، لكنه جاء اليوم الذي يتمزق فيه ظهر من ليس له في الكفر عزوة أو أهل مـن أجـل غبـيط عجور، وأنا راجع سألت نفسي بيني وبين نفسي، هل لو كنت مكـان الليثـي كـان العمـدة يضربني؟ واستبعدت الفكرة تماما وفكرت أنني غير الليثي وغير كل "تملية" الكفر، أنا بهلـول وطبال، زمار ونداب، عمال جرس وفضائح، رقاص ورداح ومعدد على الأموات، من غيري لا يستقيم حال الكفر، أنا غير الأنفار، كاتم أسرار النسوان وأشباه الرجـال فهـل ترعشـني وتخوفني فرقلة في يد البرقوقي مزقت لحم ظهر حرامي عبيط بواس أيادي ومداسات؟ أنا نفر غير كل الأنفار، أنا البهلول الأوحد، ربما أكون قد فكرت بهذه الطريقة لأنـه مثلمـا لسـاني طويل فيدي طويلة وخفيفة، بل إنه يصعب أن أتذكر يوما فات دون أن أمد يدي على زراعات ناس الكفر، الفقير قبل الغني، حضن برسيم للأرانب، حزمة فجل أو سريس، سـيالة مملـوءة بقرون الفول أو ملء منديل جميز أو توت أو طبخة بطاطس أو قلقاس، طيب لو أنني لم أفعل في أحد الأيام فكيف أعيش؟ آكل طوب؟ ملعون أبوك يا ليثي قلبت ميزان عقلي وشككتني في روحي".

مثل الوسواس الخناس ركبني عفريت الليل، شيطاني الكافر الزاني، أخرج لي لسـانه العقربي ولسعني بالسؤال: هل تجرؤ بصحيح يا ولد أن تنزل أي غيط من غيطـان الأكـابر؟ وجاوبت الوسواس الخناس بأنني أقدر فسألني إن كنت أجرؤ على نزول "الجنـاين" الملفـوف

على أشجار الكازورين التي تحيطها سلوك فيها أشواك؟ فقلت لشيطاني: أقدر، كنت أعرف أنه يقصد زراعات الأكابر من ناحية العمدة الجديد الشلبي، وكنت أرغب في إسكاته وإنهاء الكلام، لكن لسانه الممدود كان يسكن لساني وينطق بالكلام بصوت هو صوتي فأرد عليه بصوت هو صوتي، كأنني واحد ضد واحد يتجادلان في أمر مهـم، يتبـادلان الاتهامـات والسـخريات ويتعابثان، يتضاحكان ويتعاركان ويتشاتمان، هي عادة اعتدتها كلما اختليت بنفسي في أوقـات القلق التي تطرح فيها الأسئلة التي لا أعرف لها ردا، أو أوقات الرغبة التي لا أملك لها حلا، انقسم إلى قسمين، بني آدم وشيطان، ملاك وإنسان، رجل وامرأة فاجرة، طفل وكهل، مملـوك ومالك، حاكم ومحكوم، وعشرات أخرى من الأزواج المتضادة، الغريب الغريب أننـي كنـت أفض الاشتباك وأصل إلى رد السؤال أو تحقيق الرغبة، أهمد وأرتاح وأسكن مكاني، وما كان يخيفني في مثل هذه الحالات إلا ظهور الشخص الثالث، العاقل الذي لا ينحاز إلى أي الطرفين والذي هو أنا أيضا ولكن في منطقة الفرجة بعقل وعندما كنت ألمح ظله كنت أسارع بإسكات النفرين المتشاحنين، أسكتهم لأنه لو لم أسكتهم لطاش ميزاني وفقدت توازني وطـار البـرج الساكن دماغي وهذا هو ما تسمونه الجنون وما هو بجنون، هو فـي حسـاباتي نـوع مـن الاستغناء عن كل ما هو خارج حدود الوعي والبدن، نوع من الكفاية والقدرة على اسـتمرار اكتشاف السراديب والمسالك لكي تستمر الحياة، استقلال أو اكتمال ولو بالوهم لأن الكمـال لله وحده ولعبده وسيد خلقه نبي الإسلام محمد شفيع المنكسرين والمنهوبين والمضـروبين علـى بطونهم وظهورهم وأقفيتهم في يوم الدين.

قلت لكم إن الوسواس الخناس ركبني حماري وسلط نصف لساني على نصف لساني، حطني أمام روحي فأما أنني مجرد نفر بلا قيمة ولا وزن ولا قدرة، نفر لا يحسب الأكابر له حسابهم وهو ما أميل إليه، أو أنني برغم كل هذه الصفات التي قد تبدو على السطح للجهلاء، أقول أنني شخص مهم وله قيمة ووزن وقدرة، محسوب حسابه وله امتيازه الخصوصي عنـد الأكابر والأصاغر، وعلى رأي المثل "الماء الجاري يكذب الغطاس" وأنا غطاس ركب دماغه شيطانه الكافر الزاني وسيره على هواه، رماه في جنينة الحاج مرسي في وضح النهار، جعله يأخذ ملء حجر جلبابه عجورا أصفر رغم أنه لا يحتاج لأكثر من واحد أو اثنتين، ومن تحت السلك خرجت كما دخلت، وفي السكة رآني من رآني، شاكسوني بمرح وذكروني بما كان من أمر الليثي عند الدوار، لعل البعض منهم كان يرغب في استنكار ما جرى للولد أو ينفيه مـن دماغه، لعل البعض منهم شاء أن يطمئن نفسه بأن العدل الذي ادعاه العمدة لم يكن عدلا، ولعل البعض أراد أن يوقعني في شر أعمالي فلكل نفر في هذه الدنيا حساده وكارهو الخير له مهما كان هذا الخير قليلا لا يزيد عن حشو الجوف مجرد حشو الجوف وسـترة البـدن، وأنـا لا أعرف حسادي بالاسم وإن كنت أشم رائحتهم من بعيد البعيد، صحيح أن العبد وسيده على باب

الله وأن الأمر لا يستحق لكن نفوس الناس لا تتشابه، وخسة الطبع تنمو وتـزداد كلمـا قفـز الوضعاء بلا أسباب فملكوا ما لم يكونوا يتصورون أو يتصور الناس أنه من الممكن أن يئول إليهم أو يصير في حوزتهم، تزداد خسة الطبع عند العبيد الفقراء أو الفقراء العبيد وهم عكـس الفقراء الأحرار كما تعرفون. ويا ويل الفقراء الأحرار من الفقراء العبيد يا ناس.

يومها كنت أمسك ذيل جلبابي المرفوع عاملا من فراغه "حجرا" تظهـر منـه ثمـار العجور، ولم أكن قد وصلت إلى الساقيات الثلاث عندما سمعت الصوت الطـالع مـن قلـب حوض أولاد عوف يحذرني وينبهني، لم أكن أعرف صاحب الصوت رغم أنه كـان مألوفـا وهو يخصني بالاسم:

ـ اهرب يا مدندش، الغفر بترمح وراك.

كانت مجرد التفاتة لمحت فيها وجه البرقوقي جنب فرحان الشوكي وهمـا يسـرعان بخطواتهما ناحيتي، مشي بهمة كأنه الجري، مشي يليق بالخفراء والعسكر في البنـدر وهـم يحملون البنادق على أكتافهم، كانت بيني وبينهما مسافة تسـع ثـورين أو بقـرتين وحمـار مسحوبين بحبل ساعة الرواح، فتحت قبضتي على ذيل جلبـابي فتسـاقطت ثمـار العجـور متدحرجة في منحدر ترعة المروي وشعرت بأنني خفيف وقادر على الطيران، وفـي وسـط الزرعات وعلى مجاري التراكيب كنت أرمح والخفيران يتصايحان وينقسمان إلـى فـريقين يتناديان ويطلبان ممن يلقاني من الخلق اعتراضي أو الإمساك بتلابيبي، كأنهما عصـابة مـن قطاع الطريق يحاصران ضحية في وضح النهار ويهددان بضرب النار، وكنت مثـل الـريح الطيارة أفر وأرمح حتى وصلت إلى البناية المعمولة زريبة لمواشي عبد القادر عـوف عنـد رأس غيطه، من لهفتي دخلت أحتمي بها وأطل من فتحاتها لأرى إن كنت على مرأى من أي واحد منهما أو إن كان قد اقترب، رأيته بشاربه الكثيف الذي اشتهر به وهو يقف في منتصف فراغ مدخل الزريبة فضمنت النجاة، قلت أستجير به وأنا ألتقط أنفاسي:

ـ أنا ف عرضك يا با عبد القادر.

ـ بترمح من مين يا وله؟

ـ م البرقوقي والشوكي، عايزين يضربوني بالنار..

ـ نار.. نار إيه؟ أنت قاتل قتيل ولا عامل عمله، تعالى الناحيادي.

وأنا أقترب منه خارجا من فتحة الزريبة متلصصا بنظراتي بقلق أقل فكرت قبـل أن أرد:

ـ ورحمة العمدة الكبير ما عملت حاجة تستاهل، طب أهو أنت يا با عبد القادر ابـن عمدة، وكان ممكن أنك تبقى عمده، بقى هو اللي ياخد عجورتين يأكلهم ينضرب بالنار؟

ـ كدهه.. عجورتين؟

ـ ورحمة أبويا عجورتين، ليه ما هم مقطعين جلد الليثـي ابـن الشـحات عشـان عجورتين، دول ناس مفتريين.

ـ طيب اقعد.

قعدت بينما ظل هو واقفا، كان البرقوقي قد ظهر لي دون أن يخيفني، كأن الأمر لـم يكن يخصني، وهل كان يحق لي أن أبدي أي انشغال وأنا في حماية عبد القادر ومسنود على جدار زريبة مواشيه؟ كانت خطوات البرقوقي الذي اقترب تتباطأ وتصير تسكعا بلا هـدف أو تردد، وفي الناحية الأخرى انطلق نباح الكلب الأبيض الكبير فنظرت لأراه يعترض فرحـان الشوكي الواقف قرب مدار التابوت المهجور وقد أمسك بندقيته بكلتى يديه وكأنـه عسـكري يهودي على الضفة الأخرى يحرس المكان، لكن الكلب كان ينبح بثقة مالك الزمام، ينبح ويهز ذيله ويتقدم ليستعيد مسافة والشوكي ساكن في مكانه ويوشك أن يكون حائرا بسلاحه، وكلمـا تقدم الكلب أكثر هوش ناحية الكلب بطرف سلاحه فيزداد الكلب صخبا وعنادا وتقـدما حتـى أجبر الشوكي على التراجع، علق سلاحه على كتفه ولم يفلح في أن يداري خزيـه، انسـحب الشوكي واستدار فلم يتقدم الكلب أكثر، نبح نباحا مطمئنا وأسرع ناحية أقدام عبد القادر ليقعي وهو يهز ذيله المنتصر مثل راية، كلب أبيض أصيل من سلالة كلاب أصيلة، كلب ناصح يشم رائحة الظالم والمفتري وابن الحرام، كلب ابن عمدة ابن كلب عمدة راحت من فـرع أسـرته عمادة الكفر فضيعها الفرع الآخر لحساب محدثي نعمة مفترين على الفقراء من خلق الله، كنت أتأمل الكلب بإعجاب ودهشة عندما سمعت صوت البرقوقي وقد وقف إلـى جـواره فرحـان الشوكي الذي لف ودار ليحتمي بزميله:

ـ العواف عليك يا با عبد القادر؟

ـ يعافيك يا برقوقي.. ما لكم؟

ـ مفيش حاجة تستاهل يا با عبد القادر.. مفيش، بس أنت حقـاني ومـا يخلصـكش عمايل المدندش، بيبهدل ف زراعة الخلق ويدهوس في الجناين، وما دام احتمى فيك ما لنـاش عنده حق، لجل خاطرك أنت ما لناش عنده حق، وسماح يا مدندش بس تتعهد لنا قصاد أبـوك عبد القادر أنك تستقام، هو حد ف الكفر بيتأخر له ف طلب يا با عبد القادر؟ لزومه إيه بقـى تقليع الزرع؟

نظر عبد القادر ناحيتي فأصابني خجل، كان ينتظر جوابي ولا أجد ما أقوله غير مـا قلته:

ـ اللي تؤمر بيه يا با عبد القادر ماشي على رقبتي.

ـ وأنا ضامنه يا برقوقي، بس إن غلط ترجعوا لي وبلاش حكاية الرمح ف الغيطان، هو أنتو فاضيين؟ اتفضلوا الشاي.

بذلك قال عبد القادر فأراحني، طمأنني على ضمان حمايته لي ومن ورائه كـل أولاد عوف، شوكة العمدة وناسه الساكنة في حلوقهم، ألقى البرقوقي تحية السلام فرد عليـه عبـد القادر وهو يجلس إلى جواري، يتابعهم في صمت وهم يتباعدون بينما راحتـه تـداعب رأس الكلب في حنو وكأنه طفل رضيع، قام وقد تذكر شيئا فطاف بنظراته في أركان الغيطـان ثـم ثبت نظرته على مجموعة من الأطفال ترمح بين نخلات البلح فنادى.

ـ يا سيد.. سيد.. تعالى بسرعة، أوعى تقع.

كان سيد يرمح في اتجاهه بفرح، ارتمى في حضن جده وقد مال ليلتقطه ويحمله، كان الرجل يضحك بغبطة وسعادة وأنا أقترب منهما، أتأمل الولد الذي أنزله جـده علـى الأرض قائلا:

ـ لأ.. لأ.. إحنا ح نتخاصم يا حسنين أنا والولد ده. أنت يا ولد مش متفق ما تبعدش عني..؟

قلت أشاركه الفرحة بسيد:

ـ بسم الله ما شاء الله.. بسم الله ما شاء الله.. معلش يا با عبد القادر، ما عادش يبعـد تاني..

أشار عبد القادر إلى شجرة التوت وهو يأخذ كف الولد الصغيرة في يده:

ـ نزل السبت المتعلق ده وطلع لنا الغدا على ما أغسل للعكروت ده إيديـه.. شـوف إيدك بقت عاملة إزاي يا سيد؟

كنت أسمعه رغم انشغالي بإنزال السلة المعلقة على فرع الشجرة وإخـراج الطعـام لأضعه فوق الحصير المفروش تحت العنبة، أسمعه وهو يهدهده ويلاغيه ويغسل يديه من ماء القلة، يمسح عن وجهه بكفه المبلولة آثار اللعب والعرق ويجففه بطرف جلبابه الخفيف.

يعود في اتجاهي ويجلسان، يتذكر:

ـ الولد ده كان عمره على إيديك يا حسنين، ومهما عملنا لك مش ح نقدر نكافئك.

ـ يا خبر أبيض يا با عبد القادر، تكافئوني إيه وأنا لحم كتافي من خيركم؟ دانا عايش على حسكم ف كل الناحية، طيب دا كفاية وقفتك معايا النهاردة، دي تسوى الدنيا بحالها، أصل أنت ما شفتش اللي عملوه ف الليثي.

ـ محدش منهم يستجري يبص لك.

ـ بحسك برضه..

ـ وأصل دول ناس لمامه، شبع من بعد جوع، أنت إيه اللي كان وداك؟

ـ يمين بالله ما أنا عارف يا با عبد القادر، أنا حتى ما بحبش العجور.

ـ تبقى رزالة يا ولد.

ـ وماله يا با عبد القادر لما النفر يتازل ويلقح بلاه ع الناس دي؟ يسـتاهلوا ولا مـا يستاهلوش؟ دول كلهم كده.. ولا على إيه؟ بلاش عشان سواد عيون سي سيد، إنما ما قلتلـيش يا سي سيد، بتحب جدك قد إيه؟

فتح ذراعيه على اتساعهما فضحكنا، ربت عبد القادر على ظهره قبل أن يضـع فـي فمه لقمة صغيرة ويدعوه لمضغها وهو يمثل للولد كيفية مضغ الطعـام بطريقـة أضـحكته، وساعتها صدقت المثل القائل إن أعز الأولاد هم أولاد الأولاد، لم تأت سيرة حسن ولم أشأ أن أسأل عنه حتى لا أقلب المواجع لأن مثل هذه الجراح لا تطيب ولأنـه لـيس لهجـر الأرض والأهل طب ولا دواء، قلت إنه مغفل لأنه ترك الكفر وناسه، وأنه فشل في زواجـه مـرتين وجنى على الولدين، وأنه يوم يموت عبد القادر فسوف تكون تلك بداية خراب الدار.

ـ رحت لحد فين يا مدندش؟

أفقت على سؤاله وكاد لساني يبوح بما كان يدور في عقلي لكنني منعته، قلت للرجـل وكأنني أرمح هاربا:

ـ ح أروح فين يا با عبد القادر؟ أنا وياك أهه.

لم يكن يصدقني لكنه تنهد، نظر إلى الولد وقال بينما يهز رأسه:

ـ أبوه ح يتجوز تاني اليومين دول.

ـ تاني؟

سألت باندهاش فتابع هو:

ـ خلصناه من بنت شلبي بطلوع الروح، كانت ح توصله للقتل، وأهي جابـت عيـل ملوش ذنب، يروح فين ده؟ أفرض أني مت ح يروح فين عيل زي ده؟ لجوز أمه ولا مـرات أبوه؟

ـ يديك طولة العمر يا با عبد القادر، يديك طولة العمر، حسك في الدنيا بحالها، وربنا يخليك لهم، أهم بيدلعوا عليك.

ويبدو أنني طيبت خاطره ففتح لي في تلك الظهيرة قلبه فرأيته صندوقا مسكوكا علـى تل من الأحزان، ورأيته كتابا مفتوحا واضح الصفحات على عكس كل ما كان يقـال عنـه، أشفقت عليه وأنا المقطوع الضائع والمحروم، قلت لروحي إنه لا المال ولا الصحة ولا عزوة الرجال تقدر أن تداوي جرحا مثل جرحه، وقلت إن النعمة ثقيلة على بعض الناس، ثقيلة على واحد مثل حسن ذلك الذي لم يكتف بالفرار، وإنما رمى هموم خلفته علـى الرجـل، وقلـت لروحي إن الرجل بانت عليه علامات الشيخوخة فجأة وأنه مثلنا يشكو وقد كنت أحسبه ماردا لا تطوله الأحزان، لكنه كان حزينا في تلك الظهيرة ولم يكن يداري حزنه، كأنما اطمأن إلـى

قدرتي على الكتمان أحيانا، حتى عندما جاء صالح وجلس إلى جوار سيد لم يتوقف الرجل عن البوح بأسباب حزنه وقهره في أواخر أيامه:

ـ اللي زيي كان يقعد يرتاح في وسط عياله وعيال عياله، مش يفضل ناعي الهم على طول..

ويبدو أن صالح لم يكن يرضيه أن يسمع تلك النغمة من الرجل، ذلك أنه بجرأة قاطعة وملء فمه بقايا طعام:

ـ يا سيدي افتكر لنا حاجة حلوه تفتح النفس.. ما تقول حاجة يا سيد أفندي.. يا غالي يا بن الغالي، هو يخاف وغيره يربي ويعلل ويشيل الهم.

قال عبارته الأخيرة وهو يربت ظهر الطفل الذي لم يكن قد أكمل عامه الخامس بعـد والذي كان ينظر باندهاش وعجز عن الكلام، وزام عبد القادر معترضا على طريقـة صـالح الخشنة، وتقابلت نظرات الرجل مع الشاب المفتون بصباه والذي يتجاسر على المقاطعة علـى غير ما كنت أتوقع، لكن عبد القادر لم يفوتها له، قال وكان يعني ما يقوله:

ـ قوم من قصادي دلوقت لحسن أقوم أدفس رأسك ف الطين.

وبخفة قام صالح، تباعد وهو يبرطم بكلام غامض لكنه اعتراض الواثق من الفوز في نهاية المطاف وربما المتأكد من تحقيق كل أغراضه في الزمن الآتي.

سوق الخميس في البندر تجار وسماسرة وشطار ولصوص مواش وجزارون وضحايا ونصابون، القرش فيه صياد واللسان سلاح مسنون وله حدين، ولأمثـالي فـي السـوق رزق بسيط لكنه يرضيني، شيء مثل الحسنة المخفية أتناولها في كفي بغمزة عين أو ضغطة كـف، أدسها في جيبي وأنصرف لحالي أو أبقى مع من أعطى إن كان يميل إلـى مشـاركتي سـكة الرجوع، نثرثر في سلامة البهيمة وسعرها المعقول إن كان شاريا أو نجاحنا فـي الحصـول على الثمن المناسب وإفلاتنا في نصاحة التجار وحيل السماسرة إن كان بائعا، أتحـول إلـى شريك مرفوع في سكة الرجوع وأستشعر الدفء إن دعاني للغداء احتفالا بالنجاة علـى هـذا النحو إن كان وقوفي معه بالفعل قد نجاه، وأنا نوادري في السوق قليلة وخبرتي به أقل، غاية ما هناك أنني في العادة أذهب لأشعر بونس آخر غير ونس السهرات فـي الليـل الممـدود، يسرقني نهار السوق من هم النهار كما تسرقني السهراية وحسن الصحبة من هم الليل، ولأنني لا أحب السمسرة لا يرتاح لوجودي السماسرة لأنني بحسب أقوال البعض منهم مثل قطـاعين الأرزاق، لساني مفلوت وقادر على تنبيه من يهمني أمره في الوقت المناسب، وقد حاولوا معي عشرات المرات فلم أتعلم أو بدا لهم أنني لن أتعلم، والحقيقة أن المسـألة ليسـت سـحرا ولا طلاسم ولا حتى خبرة كما يقولون، المسألة قلة ضمير، السمسار الشاطر الشاطر هـو الـذي تخلص من ذمته أو على الأقل تركها في الظل عند باب السوق قبـل الـدخول، يتـآمر مـع

الطرفين إن استطاع أو يتآمر مع طرف على الطرف الآخر، يبيع البائع للمشـتري أو يبيـع المشتري للبائع، لكنه في كل الأحوال لا يترك الطرف الذي تآمر عليه قبل الحصـول علـى أتعابه وبإلحاح ثم يستدير ليأخذ ممن لعب لحسابه في الخفاء ويأخذ، ورشاد الأعـور سـاكن الدار المجاورة لداري يفعلها في كل خميس ويعرف في كل سوق كيف يفلـت مـن ملامـة المخدوعين، وفي ذاك الخميس كان رشاد الأعور هناك، وكنت أراه وأعرف من نظراته أنـه باع ابن بلده الفقير للتاجر الجزار، كانت جاموسة ابن الشرشابي واقفة وإلى جوارها عجلهـا الرضيع، جاموسة تستحق بصحيح لكن رشاد الأعور الملعون غمز بعينه الوحيد لمعارفه مـن السماسرة بما يعني عدم الاقتراب، ومن بعيد كنت أراه يحوم حول التاجر الجزار ويتهـامس معه مبديا على ما بدا لي أنه بارع في توقيف الأحوال، باختصار وبدون الدخول في تفاصـيل صعب علي حال ابن الشرشابي وهو واقف إلى جوار الجاموسة وعجلها تحت الشمس الحامية دون أن يقترب منه واحد يوحد الله، وعندما جلس على الأرض في يأس جاءه رشاد الأعـور وتحدث إليه بكلام، اقتربت فأشار إلي رشاد طالبا مني الابتعاد:

- أسرح في حتة تانية يا مدندش.
- لهو كان سوق أبوك يا رشاد؟
- لم لسانك لأحط البلغة في حنكك.
- بلغة مين يا بو بلغة، علي الحرام أقطعها على نافوخك.

كان ابن الشرشابي يبدو مثل غريق تعلق بقشة التي هي رشاد الأعور، لكـن القشـة تتعارك وربما تطيرها رياح العراك، قام ابن الشرشابي واتجه ناحيتي وأوصاني بأن أقصـر لساني من أجل خاطره، وبأن آخذ حقي من رشاد في الكفر بدلا من الفضائح في السوق وسط الغرباء، بيني وبين نفسي لم أكن مرتاحا لكلام ابن الشرشابي لكنني طاوعته وسكت، بل إنني تباعدت واحتميت بظل شجرة توت في ركن السوق، طلبت من البنت التي تصب الشاي مـن برادها أن تصب لي كوبا وأوصيتها بتزويد السكر، وأنا أحب الشاي الزائد سـكره، جلسـت وهدأت وأوشكت أن أنسى عراكي والنسيان نعمة، لكنني سمعت سمسارا من عزبة الشـراقوة يتحدث مع سمسار آخر بصوت مسموع عن الجاموسة وعجلها التي سوف تباع بنصف الثمن، انتبهت ونظرت فرأيت التاجر الجزار ورشاد الأعور وسمسار عزبة الشراقوة يحيطون بـابن الشرشابي، وزن في دماغي دبور: "ربما يا ولد عاركك رشاد لكي يبعدك، وربما ضحك على ابن الشرشابي بأي كلام، ربما لو ظللت في نفس مكانك يخسر ابن الشرشابي جاموسته وأنت موجود لكنه وجود كالعدم، وقلت لروحي ما لك أنت بابن الشرشابي يا مدندش؟ كن في حالك يا مدندش، أنت تجر على نفسك البلاوي يا مدندش، لا هي جاموسة أمك ولا عمـك ولا ابـن الشرشابي من أهلك، قلت لروحي ولكن كلامي لروحي مردود عليه، هو كلام فارغ في واقـع

الأمر، نوع من الهروب والخوف وتبرير السكوت على الغلـط، المهـم أن سمسـار عزبـة الشراقوة رجع وهمس في أذن الآخر فتبعه بهمة، كنت أراهم يحيطون بابن بلدي مثل نصابين مولد البدوي، وقلت إنني ما لم أتدخل فسوف يبيع ابن الشرشابي بخسارة كبيرة ولن يرتاح في تلك الليلة ضميري، وقمت ولحسن حظ ابن الشرشابي في الوقت المناسب، عندما رآني رأيت في عينيه نظرة انكسار المغصوب المغلوب على أمره والذي أجبرته الحاجة على البيع بسـعر بخس ربما ليسد دينا استدانه أو يقضي غرضا طارئا لم يعمل حسابه، قلت لأقطع كل الألسـنة التي كانت تحاصره بكلام يكسر المجاديف مثل: خاص روحك، الفلوس جاهزة، توكـل علـى الله.. السوق انفض.. بارك له يا جدع.. سلمه حبلها.. بكيفه.. طلع الفلوس وعدها لـه علـى البركة.. عصابة يا ناس فهل كنت أسكت؟ لم أسكت، أمسكت حبل الجاموسة في يميني وقلـت للتاجر:

- مش ح نبيع.
- وأنت داخلك إيه؟ امشي انجر من قصادي..
- أمش إزاي؟ دانا شريك في الجاموسة دي.. ما تتكلم يا شرشابي..
- أيوه شريك.. شريك بالربع.
- بقى ده وش شركة ده؟
- مش وش شركة ليه، ناقص إيد ولا رجل؟

وطال الكلام ووقفت المركبة على شط الأمان قبل أن تنجرف في منحـدر الخسـارة الظاهرة، ومن جديد بدأ الفصال، زاد السعر خمسين جنيها لأجل خاطري كمـا قـال التـاجر وأعوانه وطلع ابن الشرشابي من الحفرة التي حفرها له رشاد الأعور، واحـد غيـر رشـاد الأعور كان يطق يموت، تصيبه حمرة الخجل وقد انكشف كل غطاء سـاعة عـد الفلـوس، فالتاجر الجزار وقد بدا له أنني حويط وغويط وقادر على تسيير دفـة المراكـب أو توقيـف المراكب التي تسير فكر بسرعة أن يشتريني لحسابه، ناولني ما فيه النصيب فلم أمانع، أخذته وأضفته إلى الفلوس التي قبضها ابن الشرشابي لأؤكد للكل أنني شريكه بحق وأنني لم أتـدخل رغبة في التدخل أو الربح أو قطع الأرزاق، واحد غير رشاد الأعور كان ينكتم كتمة المدمس لكنه بعبع وهاج وطالب بأتعابه من الجزار التاجر، أتعابه وأتعاب أتباعه الذي عطلوا أشغالهم من أجل هذه البيعة فنظر إليه التاجر باستخفاف وقال:

- علي الحرام من ديني أنت ما تنفع سمسار ولا تستاهل في السوق خمسة أبيض.
- عيب يا معلم، أنت في سوق بلدنا وما يصحش.
- أنت خليت فيها عيب يا أعور؟ بلدك إيه يا بو بلد. أنا مش دفعت الفلوس بزيادة يا أعور..؟ دفعت إنما مبسوط ع الأقل كسبت راجل، امش بقى غور من وشي منك له له.

قالها وعيناه تقدحان شررا مشرورا قابلا لإشعال كل ما يعترضـه، تسـحب رشـاد الأعور خطوات ثم فوجئت به يرجع وقد رفع فردة مداسه ونزل بها فـي اتجـاهي لـولا أن سترها الستار فأبعدت دماغي في الوقت المناسب، وطارت في السوق شرارة العراك واكتشفنا أن للتاجر الجزار في أركان السوق أعوانا وصبيانا جاهزين للضرب بالسـكاكين والعصـي ويقدرون على الفرار في أنسب الأوقات وقد فعلوها، تركوا في أرض السوق قتـيلا مجهـولا وخمسة جرحى أو مصابين بكسور قطعية تنزف ومن بينهم رشاد الأعور نفسه وأنـا كنـت أفترش الأرض وأبكي حالي ما زلت بسبب ما فعله رشاد الذي رفع مداسه بغـرض ضـربي وإهانتي فرماه الله بمن هو أقوى منه وأقدر، التاجر الجزار أسلم حبل الجاموسة لواحـد مـن صبيانه وكأنه فص ملح ذاب في فرع النيل، كان ابن الشرشابي على جانبي، يطيب خـاطري ويستشهد بما جرى للسماسرة على يد أتباع الجزارين، يطالبني بأن أحمد الله وأشـكر فضـله فأحمد الله وأشكر فضله، عيبي بحسابات هذا الزمان أنني كنت دائما أحمد الله وأشكر فضـله على الصحة والستر والرزق القليل، وعيبي أنني أحببت كل ناس الكفر وأحببت تراب الكفـر فهل يستحق مثلي في هذا الزمان ضرب المداس؟ يضربني رشاد الأعور وقد كبـرت وقلـت قدرتي على الحركة المألوفة؟ وماذا لو لم يكن هناك ذلك النوع من الرجال الـذي قـال أنـه كسبني باعتباري رجلا وليته ما قال لكي يعفيني من مشروع الضرب بالمداس الذي هو إهانة ما بعدها إهانة، أنا حسنين المدندش الذي شفت في عمري كيف تغيرت الأحوال وتبدلت وكيف كانت مصائر الكبار والصغار تأتي مخالفة للبدايات، فاروق الملك نفسه بدا تقيا ونقيا وأشاعوا أنه يصلي فروض اليوم في أوقاتها، ملك مثل الحلم والأمل يخيب فيـه الرجـاء فـي آخـر المطاف، يطرده عساكره وضباطه بعد أن فاحت رائحة مفاسده من كل ناحية، قمار وحـريم وعربدة وسمسرة في السلاح وخيانة بلد، ومحمد نجيب الذي حدثنا عـن القناعـة والسـماحة ولقمة نرميها للقطة، أزاحته مطامح ضباطه وحددوا إقامته كما قال أصحاب سيد أفندي، كأنه مسجون في المرج حتى يحين أجله المحتوم، وعبد الناصر الـذي بشـرنا بانتهـاء عصـر الاستعباد، طالبنا أن نرفع الرءوس، وارفع رأسك يا أخي، وأيها الأخوة المواطنون، والنصـر في بورسعيد بعد تأميم القناة الذي لم أكن أفهم معناه وأوافق عليه، حديد وصـلب وجمعيـات زراعية واشتراكية عربية وإحساس بأن البلد بلد البسطاء أمثـالي هـؤلاء الـذي اسـتعادوا كرامتهم رغم ما كان يشاع عن إهدارها في الخفاء خلف أسوار السجون والمعتقلات، أشـياء سمعت عنها ولم أشهدها بنفسي لكنني تأكدت من حدوثها عندما أخذت عساكره سـيد أفنـدي وأصحابه، والغريب الغريب أن من وشى بهم وكتب عنهم التقارير كان فاروق أفندي، كأنمـا تأتى للنفر الضربة من حيث لا يتوقع فتطحنه وتتوه وعيه وتفقده الثقة في الدنيا والناس، وكيف انتهى عبد الناصر الذي كان مثل الشهاب الطالع، الزارع في القلوب حلم المسـتقبل والقـادر

على تحريك مشاعرنا في الاتجاه الذي يريده، كيف انتهى عبد الناصر وقد انكسرت شـوكته وتحامل على عوده الفارع الذي كان يداري موته بحسرة قبل الموت بسنوات، بدايتـه غيـر نهايته، والسادات الذي انحنى لصورة عبد الناصر وعاهدنا أن يمشي على هدى خطاه، الوفي للذكرى والذي بدا للناس في العباءة وبدلة التشريفة وياقات قمصانه البيضـاء وكلامـه عـن حكايات جدته وناسه في ميت أبو الكوم القريبة من كفرنا الموعود بأولاد شلبي، يتقافزون مثل القرود ويملكون، يصاحبون أولاد الليل ويدفعون لهم كي ينفذوا أغراضهم، يأخـذون عمـادة الكفر من الفرع الخائب في أولاد عوف ويركبون على أكتاف الفقراء ويسلخون جلـودهم إذا فكر الواحد منهم في أن يرفع رأسه، الخطير الخطير أن أشكال الظلم وأنواعه تختلف من زمن إلى زمن لكنها أبدا لا تنتهي أو تزول، يظل الفقراء مطية لمن يملكون ويحكمون ويتحكمـون، حتى من شارك الفقراء فقرهم زمنا يتناساه ويردم على ماضيه إن استطاع وينسى ذاكرة الناس أو يتوهم أن ما فات مات رغم أن ما فات يبقى ولا ينتهي أثره بهذه البساطة، ما لنـا بـزمن السادات الذي انتهى بضرب النار، لا شيء يأتي من فراغ كما يقول الأفندية وتقـول الكتـب المطبوعة، كان السادات يحكي لنا الحكايات، ويبدو أنه كان يحلم في الليل ويفسر لنا الأحـلام كلاما يطير النوم من عيون البعض ويجلبه للبعض الآخر، لكنه حارب اليهود وكسب الحـرب خلافا لكل ما تصورناه، وصالح اليهود أيضا خلافا لكل ما توقعناه، وأنا لا أفهم في السياسـة شيئا، لكنه أفرج في أوائل أيام حكمه عن المحبوسين في مسائل السياسة إلى حد القول بأنه لم يكن في المعتقلات مساجين ثم انتهى أمره بحبس الآلاف والآلاف من أصحاب المناصب ومن كانوا بحساباتنا يعملون لحسابه، ولأنني لا أفهم التفاصيل فإنني أكتفـي باسـتخلاص العبـرة الظاهرة من تبدل الأحوال واختلاف المصائر عن البدايات كأنه مكتوب علينا أن ننتهي علـى عكس ما بدأنا، شيء خطير ذلك الذي يصيبنا يا ناس، فلماذا نحن دون سائر خلق الله في كـل أركان الأرض يحصل فينا؟ وهل نستحقه؟ وهل أستحق أنا البهلول الحـاوي والعـارف كـل مخازيهم والساكت على بلاويهم أن يرفع رشاد الأعور مداسه على مشهد ومرأى من كل ناس السوق غرباء ومعارف، يرفع مداسه قاصدا رأسي أو دماغي أو عقلي؟ رشاد الأعور؟ النهاب السراق النصاب السمسار معدوم الذمة، وهل جاء زمنه وزمن أمثاله بحق وغربـت شـمس أمثالي من القانعين بالستر وعشاق الخير لكل الناس؟ صحيح أنني بحسابات البعض "ولا فـي الكير ولا النفير" لكنني أشارككم في المكان والزمان، أنا بحسب كلام عبد الناصر مواطن ولي في بلدكم ميراث، وليس من الضروري أن يملك النفر في زمام الكفر الذي يعيش فيه أرضـا ليحصل على حقوق المواطنة، ويحصل عليها كل من عاش وتربى وشارك واحتمل وتحمـس للمستقبل وحافظ على صفحته بيضاء وبشرف عاش، وهو مجرد كلام في كـلام فـي كـلام بحسابات من طلعوا على سلم الصعود فوق البسطاء في غفلة فصاروا بشرا من نـوع آخـر

جديد غير البشر الذين كنا نعرفهم في الزمن القديم أو الذين كنا نتمنى أن نلقاهم في مستقبل الأيام. وفي كفرنا وكل الكفور البعيدة يعيش البعض منا ليحافظ على النسل والبعض الآخر ليحافظ على الثروة وحيز الامتلاك لكنه هناك ناس تعيش لتحافظ على ما حفظناه عن الأجداد من أقوال وأمثال وسير وأفكار سواء كانت في علاقة الرجل المخلوق بربه أو بغيره من عباد الله، ولأنه لا شيء يبقى على حاله تتبدل في الظاهر أمور وتبقى في الكامن أمور لا تقبل التبديل، وربما بسبب ذلك حبسوا ثم قتلوا سيد أفندي وأمثاله، هؤلاء الذين عاموا في عكس اتجاه الريح، ولأن رياح التبديل فاتت على كفرنا فتسيد التجار والسماسرة وبياعو الكلام الحلو من طرف اللسان فصعدوا فلا بد أن دور أمثالي قد انتهى وراح أو لا بد من أن ينتهي ويروح، لكنهم يعيشون في غفلة إذا حسبوا أن الأمر سوف ينتهي بإهانة في سوق الخميس يرتكبها سمسار خطاف لا يعرف الحياء معدوم الضمير يدخل السوق وقد ترك على بابه ما تبقى من ذمته إن كان قد تبقى منها شيء، ينزع من قلبه كل أشكال الرحمة ويتاجر دون رأسمال في مواشي الخلق ولا يتراجع إذا جاءته الفرصة لبيع الناس وشقاء الناس وعرق الناس، سوق الخميس والقرش الصياد والعمولات المستورة والمكشوفة وزمن من يتسيدون دون أن يصبحوا بالفعل سادة، ذلك أنهم يتبعون السادة الأكبر الذين ساعدوهم على أن يتسيدوا على من هم أكرم منهم وأوعى إلى حد أن يتخطى سمسار نصاب حدوده مع بهلول حر لم يبع روحه للسفهاء.

موت عبد القادر كان نهاية زمن وبداية زمن، على الأقل في داره ونسله وأرضه، مشهده جمع البعيد والقريب، الذين خاصمهم وخاصموه والذين احتملهم واحتملوه، كان رغم العمى المفاجئ الذي أصابه في أواخر أيامه حاضرا ومؤثرا، موجودا في أذهان الناس وصاحيا، لكنه عندما مات تحول إلى مرحوم فات تركة يلزم أن يتسلمها وريث أو رثة، ورغم وجود حسن كانت الناس تعزي صالح أكثر وكأنه الأصل والآخر فرع، حسن نفسه لم يكن واعيا بما يدور حوله، لقد رجع ومعه سيد الصبي وزوجة جديدة من أهالي البندر، والدار لم تكن خالية لتسعه مع الآخرين الذين توافدوا وأقاموا كأنما عن قصد وبأهداف مبيتة دبرها أكابر الفرع، حسبوها وانتهوا إلى اختيار صالح وأولاده، سمعنا عن مشاحنات بين الحريم لم نعرها في البداية أي اهتمام، ورأينا سيد يرمح وراء الحمار ببنطلونه القصير وقميصه الأبيض وحذائه الأسود، لبس مدارس يخالف ثياب الفلاحين، وقلنا إنه لابد سوف يحول أوراقه إلى مدرسة البندر لكنه لم يفعل، كأنما كان حسن يعرف أو يحس أن وجوده في الكفر مؤقت، ومثلما جاء رحل، جاء بليل ورحل بليل وتحدث الناس عن أوراق مكتوبة ومختومة تنقل ملكية الأرض والدار إلى صالح بالبيع مدفوع الثمن وبشهادة إبراهيم ابن إبراهيم وعطية ابن علي وهما أقرب الأقارب، قلنا إنه من الممكن أن يكون عبد القادر قد وقعها بالفعل وختم عليها

بخاتمه أو بصمها ببصمته كي يحافظ على ميراثه في يد من يحميه ولا يبدده، وقلنا إنـه مـن الممكن أن يكون بريئا من مثل هذا التصرف الذي لا يرضي الشرع أو الأصول، ويمكـن أن يكون العقلاء من فرعهم قد دبروها لحسابات حسبوها، فكروا أنه مـن الممكـن أن يبعـدوا الوريث الأصلي لينفردوا بصالح وهو قليل الخبرة ويمكن زحزحته أو حتى تسـييره حسـب الهوى والمصلحة، ولكل واحد في هذه الدنيا حساباته، فرع شوكته بارزة وقد لاحت الفرصـة لكسرها حتى تتساوى الفروع فلماذا لا يفعلون؟ وقد فعلوا بتدبير أو بـالتواطؤ أو بالسـكوت، وهكذا تحول موت عبد القادر إلى نهاية زمن وبداية زمن، نهاية زمن الطيف السـارح فـي البلاد البعيدة والممكن رجوعه إذا تصالح مع عبد القادر يوما، كان حسن في كل الأذهان طيفا قابلا للرجوع وريثا لعبد القادر لكنه عندما خرج كان الطيف الغائب قد اختار أن يبقى هنـاك، أن يتباعد عن ذاكرة الناس وتنمحي سيرته باعتباره من ناس الكفر، يغيب غيبته ويرجع عندما يحين الوقت، قلت لكم مرة إنه لم يكن على ذمة الكفر وهذا صحيح إنما بعد موت عبد القادر، قبلها كان على ذمة الكفر وكنا ننتظره، لكنه لم يرجع إلا ليشيع الجنازة مثله مثل أي غريـب، وكانت الناس تتكلم قبل أن تعرف ما سوف يحدث، عن الميراث الشرعي الذي سوف يصـل إليه رغم التباعد والابتعاد، فالشرع في كفرنا هو الشرع، لكنه ليس بالشـرع وحـده يتعامـل الناس في مثل هذه الأمور، كنت أتذكر جلستنا يوم العجور الذي احتميت فيـه بعبـد القـادر فحماني، أتذكر كيف كان يحنو على سيد الطفل ويداعبه بكل الحب وكل الأشواق كـأي جـد يتمنى إسعاد حفيده عندما يراه بعد طول غياب، كيف غضب من صالح وثار عليـه وأمـره بالابتعاد لمجرد أنه تحدث إليه بطريقة لا ترضيه، صحيح أنني فكرت يومها أن صالح سوف يكسب في نهاية المشوار لكنه لم تخطر ببالي احتمالات أن يسكت أو يوافق مثل هذا الرجـل على ظلم حفيده الأصغر لحساب حفيده الأكبر، وربما بسبب ذلك فكرت أن في الأمـر حيلـة مدبرة لم يعرف عنها الرجل أي شيء أو يفكر في تدبيرها في حياته، والمسألة من أولها إلـى آخرها مجرد اجتهاد، اجتهاد نفر بعيد عن الدار وأهلها، شيء أقل بكثير من اجتهاد المحـاكم والقضاة الذين يحكمون في قضايا المواريث وعندهم كل الأوراق وكل إمكانيات العدل، ومـع ذلك لا يتحقق كل العدل، وهل تحقق في كفرنا العدل أبدا؟ العدل كلمـة منطوقـة ومكتوبـة ومقروءة، كلمة لها وزن وقدرة على إراحة النفوس إذا تحققت مرة، وعلى إزهاقها عندما يعتم على نورها جدار الظلم القادر أن يحجب عنا شعاع الشمس، لكنه يحدث أن يعرف النـاس أو يعرف القاضي حقيقة الأشياء وينطقون عن الهوى، يقول الناس معكـوس الحقيقـة لمصـلحة محسوبة أو محتملة، ويحكم القاضي بعكس ما يشعره لأنه محكوم بـأوراق وشـهادات بشـر وبراعات محامين في الدفاع عمن دفعوا لهم الأتعاب، ولأن العدل لم يتحقق أبدا فقد كان مـن الممكن أن يحدث ما حدث عندما خسر صاحب الحق الشرعي قضيته أمام ابنه رغـم اقتنـاع

الناس وحسن نوايا من نطق الحكم محكوما بما لا يملك تجاهله مكتوبا في الأوراق، وآه مـن الأوراق، تحكمنا وتتحكم في مصائرنا، تخدعنا أو تنور طريقنـا، تعلمنـا الحقيقـة أو تفسـد أدمغتنا، تروى عطشنا أو توردنا في صحراء الكذب ناحية السراب، تفيدنا أو تضرنا ولا نملك إذا عشقناها إمكانيات الخلاص من أثرها أو سحرها على مدى الأيام.

في كفرنا "الخروبي" يذكر الناس محاسن موتاهم ويتناسون المعايـب، ولأن المـوت نهاية كل حي فهم يذكرون محاسن الأموات دائما وكأنهم يبادلون ما يفعلونه اليوم بما سـوف يفعله الأحياء يوم أن ينتهي أجل الواحد منهم في الساعة المكتوبة، هو عمل طيب علـى كـل حال وإن كنت أشك أحيانا في أنه خالص لوجه الله وحقيقة الموت، ذلك أن البعض ينسـى أو يتناسى تلك الحقيقة البسيطة المتكررة ويتعامل مع الدنيا وكأنها سوف تدوم، مع أنها لـم تـدم للنبي المرسل ولا دامت للملوك أو الأكابر أو حتى للفراعين الذين حكمـوا الـدنيا بأسـرها وتذكروا حقيقة الموت فحنطوا الأبدان وابتنوا مدافن وأهرامات لحفظ تلك الأبدان وكأنما لنتعلم منهم تلك الحقيقة، ولقد حاولنا في كفرنا أن نذكر محاسن حضرة جناب العمدة القتيل فعجزنـا في أول الأمر لأن سيرته خلت من المحاسن، وتذكرنا عباءاته وجلابيبـه وشـيلان عماماتـه وقفاطينه وطاقياته المشغولة بالإبرة وبغرزة رجل الغراب لا ندري لماذا، وموت الأغنياء في كفرنا "البطيخي" غير موت الفقراء مثلما هو موت الصبي غير موت العجوز ومـوت التقـي غير موت الفسدان، كان المرحوم الذي لا تجوز عليه غير الرحمة "فلاتيا" وكـذابا وسـكيرا ومقامرا ونهابا وظالما، حتى في موته كان ظالما للفقراء، يرحمه الله فللأموات حرمة وللكفار نار جهنم وكل شيء بعلم الواحد القهار.

بيني وبينكم أنا مكتوم وأرغب في البوح، بالأمس حضرنا ذكرى الأربعين فيحق لنـا أن ينفلت اللسان ويشهد بما كان، انضرب العمدة برصاصة مجهولة المصدر عند باب الـدوار ونزف الدم حتى جاءت الإسعاف، حملته السيارة مع أهله وناسه وبينهم الدكتور برهان ومـن باب الاحتياط أخذوا الزناتي ابن الشحات، وتبادلنا الأسئلة عن السبب فالزنـاتي مجـرد نفـر "تمللي" يشتغل في الغيط والدوار بلقمته وكسوته وخمس قراريط يزرعها خلافـا لكـل أنفـار الكفر، النفر في كفرنا يأخذ من القراريط عشرينا أو يأخذ فدانا لحسابه مقابـل كـده وشـقاء روحه، إنما الزناتي منكوب بالشغل سخرة طرف حضرة جناب العمدة، مص دمه حيا وميتـا، وهي المرة الأولى التي يمص فيها إنسان دم إنسان حتى ينهي أجله، كـان الـدكتور برهـان يعرف ولا ندري كيف أن فصيلة دم الزناتي هي نفس فصيلة دم العمدة الذي انضرب بالنـار، ولأنها فصيلة نادرة طلب الدكتور برهان من الزناتي ابن الشـحات أن يركـب فركـب فـي استسلام وطاعة ولم يكن يدري أنها آخر ركوبة، من دمـه نقلـوا للعمـدة فـي المستشـفى المخصوص بإشراف الدكتور برهان كل ما طالوه، وأنا أمرني شيخ البلد بـأن ألـف وأدور

وأنادي على من يتطوع للعمد بدمه نظير وعد بمكافأة، أدور وأنادي فلا يتحمس الناس، حتـى أهله لم يتحمس منهم غير العارف أن فصيلة دمه مختلفة، ومن لا يعرفون في مسألة الفصائل لا يذهبون، وطالت ساعات السعي والانتظار حتى جاءت الإشارة بانتهاء أجله المحتـوم فـلا نفعه دم ابن الزناتي ولا دم شفيقة بنت المساح تلك التي أخذوها من بين من أخـذوهم غصـبا عن أنوفهم وحبات عيونهم بالتخويف والتهديد فاستسلموا وأسلموا أنفسهم وركبوا عربات أولاد شلبي المخصوص وراحوا للمستشفى المخصوص تكشف عليهم الممرضات فلا يجـدن غيـر شفيقة بنت المساح التي ينفع دمها من بين كل من راح برضاه أو غصبا عن أهلـه وناسـه، المهم أن العمدة الجديد راح في خبر كان وبعيار واحد مطلوق في الكبد حسب ما قال الدكتور برهان ابن عم القتيل، ذلك الذي لم يهدأ طوال الوقت أو يرحم الزناتي أو بنت المساح، فبعـد ساعة واحدة من موت العمدة مات الزناتي بهبوط في القلب كما قالت الحكيمة ونهايـة أجـل وطبيعي كما قال الدكتور برهان للناس، المهم أنه في الصباح التالي اتجهت إلى مدافن كفرنـا جنازتان، واحدة يتقدمها أكابر الناحية ورجال الإدارة ومأمور المركز وبعض أهـالي العمـدة بينما كل ناس تمشي في جنازة الزناتي ابن الشحات "ويا دايم أنت الدايم ولا دايم غيـر الله.." يرددونها مثلما رددوها في جنازات الشهداء، طال اليوم وطال وحل المساء فانفتحـت منـدرة العزاء المجاورة للدوار فلم يذهب من الأهالي إلا بضعة أنفار، ربما لأنهم كانوا فـي منـدرة أولاد الشرقاوي التي انفتحت لأخذ العزاء في الزناتي ابن الشحات، وربما كانت هـي المـرة الأولى التي يتفوق فيها الفقراء على أصحاب السلطان في منادر العزاء، وخلافا لكل ما كـان مألوفا انقلبت حسابات الأكابر عن كفرنا الغويط الغويط مثل بئر يوسف عليه السلام.

امتلأ الكفر بالعسكر والمخبرين وعاد وكيل النيابة بعد أيام ليعاين المكان مرة أخـرى رغم أنه عاينه يوم ضرب العمدة، قلنا إنه لا بد قد وصلت إليه معلومات جديـدة حقيقيـة أو شكاوى كيدية تتصل بما جرى، وكان المأمور هناك في الدوار، ودوار العمدة بناية جديدة من أيام الحاج مرسي، مخفية من الخارج وراء سورها من شجر الكازورين والكافور الموصـلة جذوعه بالأسلاك الشائكة ما بين كل سلك وسلك قيراطان أو ثلاثة قراريط بمقاس أصابع اليد وحتى ارتفاع قامة أطول رجل في الكفر، والدوار محـروس بـالخفراء وكـلاب المرحـوم المشهورة بأكل اللحم والتي لا تكف عن النباح عمال على بطال وتوشك أن تقطع الطريق على العابرين، بناية في وسع على سكة مخصوص، وربما بسبب كل ذلك احتار حضـرة وكيـل النيابة وغضب المأمور، من شدة غضبه حلف بشرفه أنه لن يهدأ أو يهنأ له بال قبل أن يعرف الفاعل المجهول، وربما بسبب اليمين الذي حلفه عاد وكيل النيابة ليعاين المكـان مـن جديـد ويسأل الخفراء، ومن ناحيته عين المأمور حضرة الصول عرفان لحفظ الأمن وحماية الضعفاء من الأقوياء وإدارة شئون الكفر، أصبح كفرنا "المستقيم" بغير عمدة فترة من الـزمن طالـت

وطالت خلافا لكل الظنون، صار الأمر في يد العساكر الذين يأمرهم حضرة الصول عرفـان، وصار كفرنا "البهلولي" اسما على مسمى، بيني وبينكم ارتحنا من سخافات البرقوقي والشوكي والبهنساوي ومشايخ البلد الطماعين مفتوحي الحلوق والبطون بلا خجل ولا حياء، وغاية مـا كان يتكلفه ناس كفرنا الكرماء هو اللقمة اللائقة يقدمونها للعساكر ولحضرة الصول، ناس في مهمة حراسة كفر وقد تركوا بيوتهم وأولادهم في البندر من أجل خاطرنا فهل يستخسر نـاس الكفر فيهم اللقمة أو كوب الشاي أو السيجارة أو أي شيء يحتاج إليه الغريب الساكن في غير مسكنه، أنتم تعرفون أن الكلام في مثل هذه الأمور عيب، لكن بعض ناس الكفر كانت تـتكلم عن اتساع بطون العساكر واتساع ذمم المخبرين وصل الأمر إلـى مبالغـات وتشـنيعات لا يصدقها العقلاء حول دخول عسكري إلى دار يطلب الشاي أو الدخان أو يشارك فـي وجبـة عشاء فيأكل اللحم ويترك لأهل الدار الجلد والشغت والعظام، وصل الأمر إلى اتهام الـبعض بطلب الطيور الحية وعلب القشدة والسمن المقدوح والجبن القريش، يطلبونها الواحد تلو الآخر قبل أن يسافر إلى بلده في أجازة الأسبوع، سمعنا هذا الكلام وأكثر منه مثلمـا سـمعنا عـن الصول عرفان الأكثر جرأة والذي كان يطمع في الخروف الحي أو النعجة، يهدد بإمكانيـات توجيه التهمة المعلقة في دائرة المجهول ما لم تنفذ له كل الطلبات، طلباته وطلبـات حضـرة المأمور، ولا مانع من ذكر وكيل النيابة والطبيب الشرعي وبعض أهل الحل والربط في إدارة المركز، وصحيح أن مثل هذه الأمور يمكن أن تحدث مع الأكابر، لأن الأكابر يملكون وغالبا ما يدفعون ولا يتكلمون لأسباب لا يعرفها أمثالي من الفقراء، يمكن مثلا أن الأكابر من أهـل العمدة كانوا يسعون من ناحيتهم إلى معرفة الفاعل بكل الوسائل، ولابد أنه من بـين الوسـائل المشروعة إرضاء من يملكون إعطاء الموضوع اهتماما يزيد وينقص حسب الأحوال ودرجة رضاهم عن أصحاب الدم وضد من أراقوه على عتبة الدوار.. الغريب الغريب أن القتـل تـم على عتبة الدوار يا ناس، لا أحد رأى ولا كلب نبح ولا ظل نفر بان فهل جاءت الرصاصـة من ناحية جن أزرق يتخفى عن عيون الناس أو طبت من السماء؟ ولأن المأمور مـن أنشـط المأمورين فقد أمر بتفتيش كل البيوت المشكوك في أمرها أو المحتمل أن لأصحابها دورا ولو من بعيد، عثروا بالطبع على بنادق ومقاريط وأسلحة أخرى بدون تراخيص فصادروها وأخذوا أصحابها رهائن لحين التأكد من استخدام أحد هذه الأسلحة في الحادث، وطال الاحتجاز رغـم ما قيل من أنه ولا سلاح من تلك التي صادرتها الحكومة له علاقة بالرصاصـة المطلوقـة، عملوا قضايا حيازات بدون تراخيص طبعا قبل أن يخرج من أخذوهم ظلما، وربما بسبب مـا جرى لهؤلاء بعد القبض العشوائي غضب أكثرية الناس في كفرنا "الصـالح" مـن المـأمور ورجال الضبط ومن كل الحكومة، تلك التي تعرف ولابد أن القتيل له أعداء من الكفر ومـن خارج الكفر وأن سمعته سيئة وسيره أعوج فكيف انقلبت من أجله الدنيا ولـم تحـرك نفـس

الحكومة واحدا يسأل الناس رأيها في تصفية دم الزناتي الشحات قطرة قطرة وحتى آخر نقطة تفصل بين الموت والحياة من أجل سواد عيون العمدة الذي لم يكن في كل عمره عـادلا فـي شيء، وهل للفقر والغنى في نظر الحكومة كل هذا التأثير، ألم يلاحظ رجالهم ليلـة العـزاء انعدام المعزين من ناس الكفر عن الاتجاه إلى مندرة العمدة التي بناها الحاج مرسي بعـد أن عينته الحكومة عمدة فكان يراعي الأصول أحيانا ولا يخلع برقع الحياء كما فعل ابنه من بعده، صحيح أن كليهما افترى لكن هناك فرق، وصحيح أنه بعد موت الليثي الشحات الـذي مـزق البرقوقي ظهره العريان بأمر الحاج مرسي، صحيح أن الحـاج مرسـي أخـذ أصـغر أولاد الشحات ورباه من خيره، لكنه ليكون عبدا مجانيا قليل التكاليف، يخدم ولا يحق له أن ينطـق وهو في قبضة العمدة وابنه الذي تولى من بعده، كأنه بهيمة لا يحق له الشكاية إذا تعـرى أو جاع أو صفوا دمه بشهادة الجميع مدعين أنه تطوع باختياره لينقذ ولي نعمتـه، سـيده وابـن سيده، لكنهم لم يعرفوا أن الناس في كفرنا "الصالح" تتناسى بإرادتها زمنا لكنها لا تنسـى، أن أسباب الغضب كانت ساكنة في قيعان القلوب وجاهزة لمن يطلقها بسهم آخر جديد فتظهر على السطح شتائم وتشنيعات وشائعات ونكات حزينة عن العمدة ونجاسة ذيل العمدة وأصل نـاس العمدة، بداياتهم غير البعيدة وهم يفدون إلى كفرنا بالحيل والألاعيب واكتساب ثقـة البسـطاء أولا ثم الانقلاب عليهم وقد امتلكوهم، وربما التقط المخبرون والعسكر مثل هذا الكلام وأبلغوه لحضرة الصول عرفان فأبلغه إلى حضرة المأمور الذي أمره بالبقـاء وزوده بقـوة إضـافية وأرجأ تعيين عمدة جديد إلى وقت آخر، ربما إلى أن تهدأ النفوس وينسى الناس مـا جـرى، ورتب العساكر أمرهم على مأمورية طويلة ورتب الناس أمورهم على احتمال المزيـد مـن واجبات الضيافة الجبرية، يؤدونها غصبا وعلى مضض "واصبر على جار السوء" وبقدر مـا استباح العساكر خبز البيوت بقدر ما سمح الناس لبعضهم في استعادة سـيرة العمـدة وذكـر بلاويه المخفية والظاهرة، كان المرحوم مصيبة وحطت على أدمغة الفقراء حيا وميتا، الكـل خسر في وجوده وبعد رحيله، وأنا خسرت الكثير الكثير ما بين موت سيد أفندي غدرا وموت العمدة قصاصا عادلا من رب السماء، ذلك أنه طوال هذه الأيام كان أتباعـه مـن النمـامين والخفراء والواشين الكذبة يضعونني حيثما كنت تحت الملاحظة، ولا بد أنهم كانوا يحسـبون خطواتي ويسجلون أقوالي لينالوا عنده الحظوة وتزداد ثقته فيهم، قبلها أيضا لم يكن بيني وبينه عمار، مرة طلب مني أن أكون جاسوسه على سيد أفندي فدافعت الست شوق عن سيد أفنـدي وعني، وفي زمنه تجاسر رشاد الأعور ورفع مداسه بهدف ضربي أمام الناس في السوق لولا شهامة الغرباء، وفي زمن أبيه أيضا طاردني الخفراء لولا حماية المرحوم عبد القادر، كيلـي منه طفح وفاض مثل بقية خلق الله من الفقراء، وإذا نسيت كل شيء فهل أقدر علـى نسـيان وجه الزناتي وهو راقد وخرطوم مص الدم مثبت في ذراعه وقطرات من دمه تتساقط بضعف

في الزجاجة بينما الزجاجة الأخرى المملوءة بدمه معلقة في ذراع العمدة، امتصـاص لآخـر قطرة بأمر الطبيب الجاهل برهان ابن زاهر ابن هارون، ساعتها طردني برهـان لكنـه لـم يخدعني لأبدل فكرتي بأن ما كنت أراه هو امتصاص دم الفقير العاجز لحساب الغني المالـك القادر الذي تجبر واستباح كل شيء حتى دم شفيقة بنت المساح التـي أصـابها شـلل لكنهـا بالإشارة تبوح رغم الخرس إذا ذكرتها بما جرى في ذلك النهار البعيد، يومها وأنا راجع مـن سكة البندر تمنيت أن يغور من الدنيا ليتأكد لي عدل السماء، ويومها طال السـوس مخـزون القمح في داري لأول مرة رغم أنه كان في "الزالوع" فوجئت بالسوس يزحف خارجا من فتحة صغيرة، كنت أشعر بالحزن والوجع والخوف من ذل السؤال وقد فسد المخزون، لكنني أيضا خلعت طاقيتي ورفعت رأسي للسماء أطلب عدلها ومن الله رحمته فاستجابت السماء وجـاءت الإشارة في نفس الليلة بأنه مات وأنه لم ينفع معه طب ولا دواء ولا مد الدم المسـلوب فـي عمره يوما، بانت لي الأمارة وتحقق الرجاء ففرحت بيني وبين نفسي ونسيت همـي وقلـت للسوس اشبع بقمح "الزالوع" فسوف يأتيني رزقي ولن أجوع، وليلتها رأيت في المنـام سـيد أفندي المغدور ينهض من رقدته على الأرض، رأيت الدم الممزوج بالأرض يتطهر من كـل الشوائب ويرجع إلى مكانه، وبيده شد على يدي مرحبا ثم ناولني حقيبة خفيفة كما كان يفعـل، وإلى جواره سرت في المنعطفات حتى دخلنا دار صالح الذي أخذه في حضنه وكأنما استعاده من قبضة الموت، فهل كان صالح هو الذي استعاده بالفعل، لا أدري، لكنني عندما صـحوت من نومي كنت أشعر بالراحة وكأنني بالفعل استعدت للحياة سيد أفندي المغدور.

حكم العساكر كفرنا بعد موت العمدة يوسف ابن مرسي، كان الصول عرفـان ينـام ويقوم ويجلس في النقطة الثابتة والعساكر والخفراء والمخبرون وبرابرة الهجانة يتوجهون إليه ومنه يأخذون الأوامر، ورغم السعي وكثرة الأسئلة لم تتوصل الحكومة إلى بداية الخيط فـي مسألة موت العمدة يوسف أو موت الزناتي في المستشفى الأميري، كانت الناس فـي الكفـر ساكنة على غير عادتها، ربما بسبب وجود العساكر الغرباء والصول الداهية لم يعد ناس الكفر يثرثرون، حتى الأطفال كانوا لا يتكلمون مع أي غريب، كأنهم اتفقوا فيما بينهم على الكتمان، وأنا كنت في السابق أظن أن ناس الكفر مجرد فئران داخل مصيدة مفتاح بابهـا فـي جيـب المأمور أو من يتبع المأمور، لكن ما جرى أكد لي أن فكرتي كانت غلطا في غلط، وعنـدما طال وجود العساكر الغرباء والصول الداهية، لم يعد ناس الكفر يثرثرون، حياتهم بشكل جديد، طلباتهم يدبرونها قبل غروب الشمس من الكفر أو من البندر إنما قبل غروب الشمس وبدايـة منع التجوال، كأنهم كانوا بذلك يريحون الصول من طلباتهم بأن يسمح لهم بقضاء الحاجات أو الحركة في دروب الكفر ليلا بإشراف العساكر، أو كانوا يريحون أنفسـهم، وهـؤلاء الـذين اعتادوا السهر في المقاهي كانوا يسهرون في البيوت، كل ليلة في بيـت، يتجمعـون حـول

"راكية" الدار ويدخنون المعسل السادة أو المغموس بالحشيش، والغريب أن بعـض العسـاكر والمخبرين كانوا يأتون ويشاركونهم السهر، يتحدثون عن الجنازة الحارة والميـت الكلـب أو الذئب أو الحنش الذي تسبب في اغترابهم وابتعادهم عن بيوتهم وعيالهم والذي حـرمهم مـن الرقاد المرتاح، يقولون مثل هذا الكلام في محاولات متكررة لفتح سيرة يوسـف أو معرفـة أسماء أعداء يوسف من أهالي الكفر، لكن الناس كانت تتبادل النظرات ولا ترد، كانت دائـرة المراقبة تضيق وتضيق حول الناس لكنهم لم يفشوا سرا أو يبح أي واحد منهم بشيء ولو كان مجرد ظنون أو شبهات يفكرون فيها، كأنهم آمنوا أن الحكومة حكومة وأن الأهالي أهالي وأن من وظائف الحكومة حماية الأمن والنظام ومعرفة أسباب الجرائم وأسماء من ارتكبوها، كأنه كان الناس في كفرنا يعيشون في واد والحكومة في واد آخر، وصحيح صـحيح أن الكثيـرين كانوا يعرفون أو على الأقل يظنون لكنهم سكتوا، ورغم الكلام عن العدل وضرورة أن يبـوح من يعرف بما يعرف ليتحقق في الدنيا عدل الحكومة وحتى لا تسود في دروب الكفر فوضى لا نهاية لها، وكلام كثير مثل هذا قاله الخفراء والعساكر والمخبرون لكن الناس ظلـت علـى حالها ساكتة، ربما كانوا يقولون لأنفسهم مثلما كنت أقول لنفسـي.. وأيـن كانـت الحكومـة وعساكرها أيام مقتل سيد أفندي؟ وأين كان رجالها ومخبروها عندما تمت تصفية دمـه؟ أم أن الأمر من أوله لآخره مجرد غابة يتحكم فيها ويحكمها من يقدرون ضد من لا يقدرون؟ كانت المسألة بحساباتي وربما بحسابات الناس هي تحقيق العدل الرباني في الوقت المناسب لأنه من قتل يقتل، ولأن الله مالك الملك يمهل ولا يهمل، عدله سبحانه أعدل من عدل كـل حكومـات الدنيا، لكن حكومتنا كانت عن هذه الحقيقة البسيطة غفلانة أو جاهلة، والوحيد الوحيـد الـذي استفاد من وجوده كل هذا الوقت في النقطة الثابتة كان الصول عرفان، لعله كان يطلب من الله أن تظل هذه القضية منظورة ووجوده ممدودا إلى أجل غير مسمى.

كان الأكابر من أولاد شلبي يذهبون إلى مكتب المأمور ومكاتب الإدارة لمتابعة آخـر الأخبار، وشاعت إشاعات عن إكراميات قدمها البعض منهم لأتباع المأمور أو للمأمور نفسـه لكي يرضى عنه ويزكيه لمنصب العمدة الخالي، وقال البعض إن المأمور لم يمانع في إعطاء الوعود لأكثر من واحد منهم، ولابد أنهم تأخروا كثيرا قبل أن يكتشفوا الخدعة، فالمأمور نفسه صدر قرار بنقله إلى البداري وهي مركز في الصعيد الجواني لا يذهب إليه غير المغضـوب عليهم من رجال الإدارة، ضاعت الهدايا والإكراميات على الساعين والصيادين في الماء العكر وجاء مأمور جديد بوجه جديد ورأي جديد فتمنينا أن تعود عمادة الكفر إلى أولاد عوف مـرة أخرى، لكن الصول عرفان كان هناك لا يزال في النقطة الثابتة يفتي ويتكلم عن استحالة عودة نظام العمادة إلى كفر مشاغب مثل كفرنا كل يوم يسقط منه قتيل وناسه مثل العميان الطرشان أو المخروسين الساكتين، يقول ويضحك ثم يمد قدميه ويخلع مداسه الثقيل فتفوح من قدميه تلك

الرائحة النتنة التي تزكم الأنوف وتجبرنا على الالتفاف إلى ناحية أخرى قبل أن نتباعد عـن نقطته الثابتة أو نفكر مجالسته وقد دعانا للجلوس.

سلمان ودواره

• ----------

سلمان ابن بنت هارون أعطاني عمري وأعطيته عمره وسبحان مسبب الأسباب فقـد كان كلانا منذورا للموت أو هكذا قالوا، قالت أمي لنساء الكفر وقال أبي لرجاله وقال النـاس للناس، سلمان تربي في حضني وتربيت أنا في حضنه وكان الناس يقولون لنا دائمـا.. أنتمـا أخوان شقيقان، ولا بد أننا كنا في ذاك الزمن البعيد مثل توأمين لا نتباعد عن بعضـنا أبـدا، كنت أحسبه شقيقي ابن أبي وأمي حتى تكشفت لي في طفولتي بعض الأمارات وبانت لي وله بعض معاني الحكايات، لكنه لم يكن لمثل هذه الأمارات أو الحكايات في ذاك الوقت أي أثـر محسوس، كان سلمان بحسب ما قالوا ابن بنت هارون التي ماتت بعد ولادته بساعات، وكانت أمي في نفس الليلة تلدني، ولقد ولدت أمي من قبلي تسعة عشر بطنا خائبة بحسب مـا كانـت تقول "تلد وتدفن" تلد وتدفن بعد ساعات أو أيام وفي أحسن الحالات بعد ثلاثة أسـابيع، وفـي حالتي اختلف الأمر، حملوا إليها سلمان فأرضعته من لبن "المسمار" مثلما أرضعتني، نيمتنـي إلى جواره فحماني من غضب الجن الساكن تحت الأرض.

كان أبي أيامها يطبل لهارون ونسل هارون، وكان يقول أن خبز دارنا من خيرهم وأن أدامهم يملأ بطوننا مقابل رعاية سلمان الذي بقى معنا، كان أبي يتباهى بوجود سـلمان فـي دارنا وكانت أمي هي الأخرى ترعانا بالعدل دون أن تميز أحدنا عن الآخر:

ـ والنبي يا ختي كنت أمد إيدي والدنيا مدغشة وأرضع العيل منهم لحد مـا يشـبع أرجعه مطرحه وآخد التاني ما عرف أنهو منهم ابني وأنهو ابن بنت هارون، وربنا شاهد على كلامي.

كانت أمي وبقيت تملك ثديين مدرارين، أرضعت من قبلنا كل أطفال الناس في كفرنـا أو على الأقل أكثرهم، ومن هذه الناحية فأنا شقيق للكل مثلما أنا شقيق سلمان، وكانـت أمـي النحيلة تؤكد للكل أن الجن الساكن سابع أرض يركبها وأنه يتجلى لها في الظلام ويحذرها من أي تفرقة في رعاية سلمان ورعايتي، كانوا يهددونها فتعدهم بالعدل الكامـل، وكانـت تنفـذ وعدها بحذر ودقة، فمن نفس اللبن كنا نتغذى وعلى نفس الفراش كنا ننـام، وبـنفس الغـذاء فطمتنا مثلما كانت تنظف جسدينا في نفس الوقت، كانت تخشى، إن هي فرقت بيننـا فـي أي شيء من غضب الجن الساكن سابع أرض، ولها معهم تجارب مؤكدة، هو جـن غضـاب لا يرحم، فبضربة كف كان ينهي عمر كل مواليدها قبلي، كان يضرب المولود فـي كـل مـرة

ويترك آثار الكفوف ظاهرة لها وواضحة على أجزاء متفرقة من أجسام المواليد الذين فقـدتهم قبل مولدي.

ظل سلمان في دارنا حبلا سريا يجذبنا إلى دار هارون وبسببه كان خير دارهم يصل إلينا، فالزائر منهم يأتي بجلبابين أو بقميصين ولباسين، والمانح في الأعياد يعطيني مثل سلمان القرش الأبيض فتفرح أمي أو أم سلمان أيضا التي هي أمي وأمه بخالص السـماح والرضـا والقدرة على التربية حتى كبرنا وصرنا نذهب معا إلى الكتاب كل صباح ونحاول وسط العيال أن نحفظ دون أن نفهم معنى الآيات.

سأحدثكم عن يتم الفقراء، الفقراء يتامى يا ناس حتى فـي وجـود الأب والأم، كنـت صغيرا عندما أخذوا سلمان إلى دار خاله عزت شلبي، عزت شلبي ابن هـارون جـاء فـي المساء وجلس في صحن دارنا، كانت أمي تبكي وكان أبي ينظر ناحيتي ولا يتكلم، لكن عزت كان يحتضن سلمان وحده ويبعدني، وعندما قام حمله وحده وأزاحني عن سكته، أمر أمي بأن تسكت وأن تسكتني أيضا وأنا أصرخ وأطلب منه إعادة أخي سلمان، وأمسك بي أبي، حـاول إسكاتي بالكلام فلم أسكت فحط كفه على فمي وحملني وأنا أرفس الهواء وجلباب أبي وبطنـه وعزت شلبي يخرج من دارنا ويخلو مكان سلمان فيصبح الفراش باردا وأشعر بضياع نصفي، وفي الصباح أهرب وأذهب إلى دار عزت شلبي، أبحث عن سلمان ويسعى نـاحيتي، نهـرب معا إلى خلاء الغيطان حتى يعثروا علينا، ومن جديد يأخذونه بعيدا عني ويأخـذونني بعيـدا عنه، ولا بد أنني كنت في الرابعة أو الخامسة من عمري في تلك الأيام ولا بد أنني لـم أكـن على استعداد لتصديق تلك الأكاذيب التي كرروها على مسامعي قائلين أن سلمان لـيس أخـي وأنه ابن بنت هارون التي ماتت بعد مولده وأن أمي أخذته لترضعه مثلما أرضعت العشـرات قبله وبأجر، لم أكن أصدق الكلام المسبوق بكلام عكسه حول أننا أخوان شقيقان، سلمان نفسه كان يهرب من دار خاله ويأتي إلى دارنا، يلعب معي ويوسخ ملابسه التي كانت تختلف عـن ملابسي، وكانوا يأتون ويأخذونه بغضب وفي بعض المرات كانوا يوبخون أمي أو أبـي لأن ابنهم سوف يفسد الولد ابن الناس ويحرضه على الهرب من دار العز التي يملكها خاله عزت إلى دارنا الخربة، كانت أمي تبكي وأبي يسكت ونادرا ما كان يرد، لكنني وجدت الحـل فـي الذهاب إلى سلمان، ألعب معه دون صوت وأكتم أنفاسي، وساعة العشاء يضعون لي شيئا من طعام على سطح لقمة جافة فآكلها لأسد جوعي من كثرة اللعب والغياب عن دارنا، كنت أبقى هناك حتى يصرفوني بخشونة أو بسخرية غليظة فأنصرف، كان سلمان في دمي وكنت فـي دمه، وكنت كلما حصلت على شيء يقبل القسمة أرمح إليه وأقتسمه معه، برتقالة أو حفنة بلح تمر أو حتى "شرش" جزر، وكان هو من ناحيته يفعل نفس الشـيء أو يحـاول ولا يـتمكن فيحدثني في اللقاء التالي عن عنقود العنب الذي حصل عليه ولم يستطع أن يشركني في حباته

أو حفنة الزبيب البناتي التي احتفظ لي بنصيب منها، كان بيت عزت شلبي مثل الجدار الـذي يسد حارتنا ويمنع وصول الشمس إلى واجهتها، ولا بد أنني سئمت مـن كثـرة المحـاولات الفاشلة في عبوره بعد الصعود فوقه وركوبه كما أركب الحمار، ذلك أن النزول من فوقه كان يعني بحسب ما سمعت من الكبار "كسر رقبتي على صدري" ، ولست أعرف كيف كنت أفكر هكذا وأنظر إلى الجدار ودار عزت شلبي بنفس الطريقة، لكنني قللت من الذهاب إلى هنـاك، وإذا ذهبت تحدثت إلى سلمان أو استمعت إلى حديثه قبل أن أتسحب خارجا من الدار دون أن يهتم بدخولي أو خروجي أحد، كنت أشعر بالمهانة وأنا وحدي، وكنت أبكي أحيانـا عنـدما ينشغل سلمان عني بأكل شيء دون أن يعطيني خلافا لما كان يحدث في السابق، لكنها كانـت أوامر الكبار التي بدأ ينفذها لينول رضاهم، كان سلمان يتبدل في دار خاله، وكنت أنا أتبـدل في دروب الكفر ودور الخلق ومشاوير المدافن في صباحات كل خميس للحصول على رحمة الأموات الجدد من الفواكه أو القرص والقراقيش، كنت أتبدل في الغيطان الممتدة والتي تهـب البني آدم خيرها دون سخرية أو تأنيب أو طرد، وكنت أستطيع أن أدبر حـالي مـن طلـوع الشمس وحتى إلى ما بعد غروبها بساعات، آكل وأشرب ونادرا ما كنت أجوع، لكن سـلمان كان يتبدل بطريقة أخرى، لبس الجزمة والشراب مع القميص الأفرنجي والبنطلـون القصـير وحمل مخلاة الكتب والكراريس وصار من تلاميذ المدرسة في البندر، أقابله بكل الشوق فيرد علي بأدب، أدب أولاد الناس الذي يغيظ، أدب لا ينكر الحب لكنه لا يظهـره، أدب الأفنديـة الغرباء وهم يأخذون الأنفار لخدمة الباشا والبك باللقمة التي تسمم البدن، على هذا لنحو كـان يتحدث أبي عنهم، عن الأفندية الغرباء وعن الأفندية الجدد من أولاد شـلبي، وكنـت أفهـم مقاصده، ولا بد أنني كنت في السابعة أو الثامنة عندما كان أبي يحدثني عن كل ما يخفيه فـي عقله من أسرار، يستشيرني في كيفية الخروج من ورطة أو مشكلة وأرد عليه فيهـز رأسـه استحسانا في بعض المرات أو يعترض بشدة في مرات أخرى، ولم يكن يكتفي بـالاعتراض، بل كان يوبخني على عدم الفهم أو التفكير بشكل أهبل، كنت شريكه وكـان شـريكي نتبـادل الكلام الفارغ والكلام المهم ونشعر بالونس عندما تخلو لنا دروب الكفر أو براح الغيطان.

كان حديثنا معا هو الذي هداني إلى حقيقة يتم الفقراء، فسلمان ابن بنت هارون الـذي كانت أمي تتباهى بأنها قامت بتربيته إلى أن زال همه هو سلمان الذي كانت تتسمى باسمه في بعض الأحيان فيناديها البعض بأم سلمان وتجاوبهم بفرح، سلمان الذي قاسمني فيها هو نفسـه سلمان الذي أخذه عزت وعلم قلبه النسيان إلى حد إنكاري في بعض الحالات، وعندما كنـت أسأل أبي عن الأسباب كان يجاوبني بنفس الكلمات التي حفظتها عن ظهر قلب:

ـ ما هو كدة يا حسنين يا بني، لا العين بتعلا على الحاجب ولا الميه بتطلع العالي.

ـ ليه.

ـ أهو كدة وخلاص، وما عرفش ليه.

وكنت أشعر أنه يعرف ويداري، يتأكد لي عجزه وهو الواعي بأحوال الناس وأغراض الناس وأصول الناس، كنت أقول لنفسي إنه يتيم وأن أمي يتيمة وأنني يتيم، يجمعنا كلنـا يـتم الفقراء، فلا خدمة الأكابر ولا التضحية من أجلهم تحمينا من غضبهم سـاعة الغضـب، ولا رضاهم عنا في بعض الأوقات يشفع لنا عندهم أو يجعلهم لنا سـندا أو ظهـرا يحمينـا مـن الضرب على البطون والأقفية والأصداغ، ومهما دارت الأيام فلن أنسى ما فعله عزت فينا يوم جاء الخفيران يطلبان أبي لمقابلة حضرة العمدة مرسي، كنت في صحبته ورأيته وهـو يقـف مطرقا والحاج مرسي يوبخه ويهينه دون أن يرد، وكان عزت هناك جالسا على الدكة وإلـى جواره سلمان، وعرفت أن في الأمر بطة مأخوذة من سرب البط السارح في الترعة ويـدعي عزت أنها تخصه، كنا بالفعل قد تعشينا في الليلة السابقة بلحم بطة، ولم تكن هي المرة الوحيدة التي نتعشى فيها بلحم بطة، لكنها كانت المرة الأولى التي يتهمون فيها أبي بسرقة البط، الـبط بط ربنا، والترعة ترعة ربنا والسمك سمك ربنا، وزرع الغيطان زرع غيطان ربنـا، لكـن الدنيا في ذلك النهار بدت وكأنما انقلب ميزانها، قام عزت واتجه ناحية أبـي وبكفـه الغلـيظ ضربه فوق صدغه، مال عود أبي فعدله عزت بكف آخر وأنا أصرخ، وأمي التي طلعت من تحت الأرض تصرخ وعزت يركله في بطنه وأبي يتلوى:

ـ ح أطفحها لك دم يا ابن الكلب يا حرامي

ولولا تدخل العمدة مرسي ما كف عزت عن ضرب أبي، ولولا شفاعات النـاس مـا تنازل عزت عن تجريسه في الكفر كله بسبب تلك البطة، كان يلهث مثل كلب مسعور ومـن بين أشداقه يتناثر اللعاب وأبي مسنود على الجدار مثل خيال مآتة لا يرد ولا ينطق بالدفاع أو الاعتراض، مستسلم تماما وجاهز لتنفيذ الأمر، وكان الأمر في ذلك النهار أمر عزت شلبي:

ـ يتجرس..

نقل العمدة مرسي نظراته بين شيخ البلد الساكت وعزت شلبي الغضبان وأبي المحكوم معدوم الحيلة وأمي التي تعوي مثل كلبة تلد، كانت في نظراته رغبة في عدم التنفيـذ وعلـى لسانه موافقة:

ـ يتجرس.. بس إزاي؟

ـ زي كل الناس.. لجل ما يتربى ويتأدب.

ـ أيوه أيوه.. بس مين اللي ح يجرسه يا سي عزت.. حقاشـي يجـرس المدنـدش روحه.. أنت ناسي أن هو اللي بينصب الجرسة؟

قالها وضحك فأضحك كل من كان حاضرا في المكان إلا عزت الذي كـان غضـبانا يتقافز إلى أعلى وشب على أظافر أصابع قدميه وكأنه من الممكن أن يـزداد طـولا، لكـنهم

ضحكوا وأجبروه على الضحك غصبا عنه، وكأنه يسايرهم بالضـحك حتـى لا يقـال إنهـم ضحكوا عليه، لكنه تحكم في نفسه فجأة واقترب من أبي، لطشه بظهر كف يده اليمنـى علـى صدره فسمعت صوت الصدر وهو يئن أنه وحيدة وعزت يحذره:

ـ علي الحرام المرة الجاية لتجرس روحك بروحك يا مدندش.. تزف نفسـك وتلـم عليك عيال البلد ويقولوا حرامي البطة وراك.

ـ خلاص بقى يا سي عزت هو ح يستجري يمد إديه على ريشة من ريش بطك بعـد كدة؟

قالها شيخ البلد ليطيب خاطر عزت وضرب أبي كفا على قفاه وهو يأمره بينما يدفعه دفعا للابتعاد عن المكان:

ـ غور من هنا الساعادي جاتك الغم وأنت عامل زي قحف النخل ما لكش فايدة كدة.

وكأنما منحه كف القفا حرية الابتعاد عن المكان فرمح وأنا أرمح خلفه وأمـي تـرمح خلفنا وتناديه ولا يرد.. وعندما دخل الدار مفتوحة الباب انزوى في الركن البعيد عنـد بـاب بيت الأدب وكنا نسمع شهقاته وهو يبكي ولا نجرؤ على الاقتراب، وأنا فكرت في الكيفية التي يستطيع بها أي واحد في الدنيا أن يقوم بتجريس نفسه بنفسه، كيف يطبـل ويحـدي للعيـال والناس وهو راكب حمار الجرسة بالمقلوب وعلى وجهه عجين الدقيق أو الجير وهباب الفرن، ينزل ويطبل فيلم الناس ثم يعاود الركوب ويحدي عمن سرق البطة من عزت شلبي هل كـان من الممكن أن يحدث هذا الأمر لنا لو أن الموضوع من أوله لآخره لعبة مـن ألعـاب الكبـار لتسويد معيشة الصغار أكثر مما هي سوداء، عزت والعمدة وشيخ البلـد والأكـابر يرمـون بلاويهم على الغلبان الحاوي من أجل بطة، مجرد بطة تائهة من سرب بط سارح على شـط ترعة ملك الحكومة، فيها يعيش ويتغذى ويرجع إلى دار صاحبه، وإذا تاهت بطة فمن أدرانـا بمن هو صاحبها، وهل يكتب البط اسم صاحبه على لحمه؟ وماذا لو أكل اليتامى فقراء الكفـر بطة في ليلة موسم مبارك حتى ولو كانت من بط الأغنياء؟ بيني وبينكم أنا أيامها كرهت نفسي وكرهت عزت والعمدة وكرهت أبي وأمي وشيخ البلد وكرهت الأكابر الساكتين وكرهت البط، لحم البط وشكل البط واسم البط، ذلك أن أبي تكور حول نفسه منذ ذلك اليوم وظـل متكـورا ملموما على روحه، ساكتا ورافضا تقريبا للأكل والشرب رغم كل المحاولات، ولـم ينفـرد عوده إلا على درابة النسل يوم أن مات بهمه وغمه وحسرة قلبه وخيبة أمله في أكابر الكفـر ذوي القلوب القاسية، مات حسنين المدندش وحملت من بعده هم الاستمرار في الحياة وأنا أكثر يتما، أدفنه وأنا اليتيم وهو اليتيم وأمي وكل فقراء الكفر اليتامى.. الفقراء يتـامى يـا نـاس.. الفقراء يتامى حتى لو كانت لهم أمهات مثل أمي وآباء مثل أبي.

سلمان ابن المدارس دخل الجيش، لبس الميري والفاروقية وزغردت النسوان، رأيتـه بالكاكي وملابس الحربية، ورأيته وقد وضع على الكتفين نجمتين ذهبيتين وعلى الكـاب تـاج الملك، هنأته بأدب فهز رأسه بأدب، كان عزت يتباهى به في كل وقت وكل مكـان، يتبغـدد ويتفاخر بأنه أول من ربى وأول من علم وأول من وسط الأكابر الأكابر لقبوله في المدرسـة الحربية التي لا يدخلها إلا أولاد الأكابر، كان سلمان مثل الشهاب الطالع وكـان اسـمه مثـل السهم النافذ تنطق الألسنة به وتكيد الأعداء.

كانت صورة سلمان بالكاكي تتبدل في كل فترة زمنية، ومنها نعرف رتبته الجديـدة، وعزت يحوط الصورة ببرواز مذهب يليق بضابط في حرس الحدود، كان يتبغدد على الكـل ويكايد العمدة مرسي الذي لم يستطع إدخال أحد أولاده مدرسة الحربية رغم السعي والاستعداد للتضحية بأي شيء، لكنه لم يأتي إلى الكفر أو يذهب إليه أي واحد من ناس الكفـر إلا خالـه عزت، وعندما يسألونه عن سر غيابه يجاوبهم بنفس العبارات:

- هو فاضي لكم يا جموس أبيض؟ دا غرقان لشوشته في شغله ومصالحه هناك.
- إحنا كان غرضنا نطمن عليه.
- اطمنوا.. سلمان ابن أختي مستقام، بقى بيه رسمي ورتبه بكباشي..
- حاجة تشرفني برضه.
- معلوم.. هو حد كان يصدق أن كفركم الفقري يطلع واحد بيـه زي ابـن أختـي سلمان؟

كانوا يهزون أكتافهم وقد نفضوا أياديهم من أمره، لم يعد يخصهم ولا كان على ذمـة كفرهم ما دام قد طلع وارتقى وامتنع عن المجيء بإرادته التي توافقت مع إرادة خاله الحريص على قرشه حرص اليهودي والذي يقبل الربا من المحتاج إذا طاوله بأي مبلغ ولأي مدة حتـى ولو كانت مجرد أيام يسد بعدها الدين والفائدة بحسب ما يحددها عـزت شـلبي ويأخـذ كـل الضمانات التي يطلبها.

سامحوني يا ناس كفرنا "الوردي" إن تجاوزت في بعض الأوقات حدي، طوال العمر الذي فات أعرف حدودي وألزمها لا أخطيها أو أعبرها مهما كانت الأسباب، لكنني وقد كبرت وشاهدت الناس والأشياء تتبدل من حولي فيحق لي أن أبوح لكم بما يخفيه صدري، أفكر معكم وأن اعترضتم على أفكاري فاسألوني عن الأسباب، كل شيء يتبدل فلماذا ترغبون في أن أبقى في نفس مكاني ولا أحاول، أنا حسنين ابن حسنين ولتاسع حسنين كما تعرفون، وصـفتموهم بنفس الوصف ولم يعترض أي حسنين على صفة المدندش، الدندشة كما قال جدي لأبي مـرة تعني الفرح والبهجة وعلى أي مدندش في هذه الدنيا أن يقوم بوظيفته الأصلية الدندشـة، ولا مانع من إضافة بعض الأعمال الأخرى مثل توليد البهائم أو حلاقة شعر الحمير أو الندب على

الأموات أو زفة العرسان أو تجريس من أمر الأكابر بتجريسهم، نحن اتفقنا على كل شيء يـا ناس، وأنا لم أعترض، وشجرة الدندشة ممدودة ونحيلة نحيلة وقد طالت رغم نحـول عودهـا وانحنت عندي، وأنا فرعها الأخير أخشى أن تنكسر وقد طالت وطالت رغم النحول، هي على كل حال أطول من شجرة كازورين وتستحق أن تعيش، ولا بد أنهم في المقبرة على حق، من أول حسنين حتى حسنين الثامن الذي هو أبي، يأتون ويسهرون حولي ويطالبونني بالامتـداد، ويقصدون الخلفة، ومقصدهم يا ناس كفرنا أن تتولـوا أنـتم تزويجـي، زوجـوني وإيـاكم والاعتراض على الفكرة، أعرف أنني كبرت وأني فمي يخلـو مـن الأسـنان والضـروس، وأعرف أنني أتوكأ الآن على العصا من فرط ضعفي، لكنني أحمل في صلبي بذرة الحسـنين العاشر، ولي دار يمكن إصلاحها وترميم جدرانها، وكل ما هو مطلوب أن تبحثوا لـي عـن عروس تصاحبني بقية ما تبقى لي من أيام فلعلي أمنحها بذرة الحسنين ولعلكم تحصلون علـى المدندش العاشر، وأنا يا ناس في صفكم، مشغول بكم وبمستقبل ناس كفركم فلو فقدتم بمـوتي آخر البهاليل، فسوف تكون نكبة، كفر بلا بهلول ولا أمل في ولادة بهلول من صلب بهلـول، لن أطلب مساعدة الأكابر، أكابر هذا الزمن "الزهري" لا يساعدون الفقراء اليتامى، ربما لأنهم أكثر من الفقراء فقرا رغم الثراء والامتلاك، نفوسهم فقيرة إلى حد يثير الشفقة، وسوف ألجـأ إلى البسطاء منكم وأولاد الكرام ليدبروا حالي، عيبي الأصلي أنني كنت في بعـض الأوقـات أمشي في ركاب السادة ومشاريع السادة، يطعمونني مرة فأصبر من الاتباع وفيا أكثر من كلب وطبعا أكثر من حمار ورعديدا أكثر من أرنب، ولا بد أنني ساعدتهم على اختطافي من نفسي، ولا بد أنني غفلت عن روحي مرة فغبت عن الوجود الحقيقي رغم الوجود بينكم، كـأنني يـا ناس أغمضت عيني مرة فتراءت لي بعض الصور وأضغاث الأحلام ثم صحوت لأكتشف أنه قد فات نصف قرن من زماني وانضاف إلى عمري أيام كنت بينكم ولحسـابكم شـابا طالعـا فرحانا بروحه وبالحياة، كنت أيامها أحلم بإضافة فرع جديد إلى شجرة البهاليل أولاد البهاليل، هل غيبني الزمن الشلبي كل هذا الوقت على عكس إرادتـي؟ أو أننـي صـدقتهم واشـتغلت لحسابهم، وهل تنطلي عليكم تلك الكذبة المكررة التي يدافع بها الناس عـن أنفسـهم عنـدما يقولون أنه حدث غصبا عنهم أو أنهم فقدوا إرادتهم أو أصابهم سحر؟ حتى لو صدقتم أنتم فلن أصدق نفسي لأنه لم يكن سرابا في سراب ذلك الذي عشته، وشريط صندوق الدنيا لم يتبدل إلا بفعل فاعل أو مجموعة فاعلين، لقد تبدلت الرسوم وتبدل الأبطال، لبس الأنذال ثياب المـالكين الحاكمين المتحكمين، خلعت الحريم في بيوتهن العالية براقع الزمن الماضي ولبسن براقع من نوع جديد، كأنني درت على كعبي واستدرت فوجدت بدل عنترة والزيناتي خليفة وأبي زيـد الهلالي ناسا آخرين، أنصاف أبطال وأنصاف رجال ومن رائهم عشرات الطبالين الزمـارين

المداحين، ومثلما تختفي الحقائق توارى الرجال وراء الجدران أو انسـحبوا وانـدفنوا تحـت الأرض ليفسحوا الطريق لكي ترتفع النجوم الكاذبة التي تبرق وتنطفئ مثل فقاعات الصابون.

تعالوا نتأمل البنايات الجديدة في كفرنا الجديد، ونطل على السيارات الغريبة والأجهزة المدهشة والرطانات غير المفهومة وسوف نكتشف أن ما أصاب كفرنا ـ دونا عن كل الكفور المجاورة ـ غريب ومحير وغير محسوب حسابه، فالبيوت المبنية بالطوب الأخضر تهـدمت بالفئوس والمعاول، تناثر رمادها وتطاير وتسلل إلى عيون البعض منا فأصـابها بالرمـد أو العمى أو أي وجع يصيب البصر أو البصيرة، ولأنني باعترافي أشهد أنهم سلبوا من عمـري قرابة نصف قرن فلابد أنني أعيش في الزمن الفائت، تفزعنـي تلـك البنايـات الخراسـانية والبوابات الحديدية المزروعة على امتداد السكة الزراعية من أول زمام كفرنا وإلـى حـدود البندر من ناحية وإلى زمام كفر الشرفا من الناحية الأخرى، وبدلا من عيدان القمح أو الـذرة أو القطن صرت أرى أسياخ الحديد الطالعة من العواميد الخرسانية المنصوبة فـوق البنايـات وكأنها إعلان عن الرغبة غير المحكومة في معاودة البناء والطلوع، وأنتم بأنفسكم قلتم إن هذه البنايات تبخ الصهد في الصيف وتشوي سكانها، وأنها في أيام الشتاء تجلب البرد والرطوبـة وأوجاع المفاصل، فلماذا غير البعض منكم ومنهم بيوت الآباء والأجـداد المبنيـة بـالطوب الأخضر يا ناس، طبعا أنا لا أدافع عن داري القديمة التي لم أهدمها أو أفكر في هدمها لأعاود بنايتها بالطوب الأحمر، ذلك أنني لا أملك ولو امتلكت فسوف أتردد ألف مرة، وعيـب داري أنها من كثرة الهدم والردم ومعاودة البناء حولها صارت قصيرة، كأنها امرأة عجـوز محنيـة وقد ضمرت وانكمشت، وعيب الوصول إليها هو تلك الأتربة التي تتحول أيام المطر إلى وحل ناعم ولزج، وأنها في الربيع والخريف تتطاير بحسب اتجاه الريح، تتطاير وتوسخ الثيـاب أو تؤدي إلى كل مواجع الأبصار إذا تفتحت في مواجهتها حدقات العيون، كأنه يلزم لمن يـدخل دربنا وكل دروب الكفر أن يرخي رموشه ويداري بجفنيه وبكفيه العينين، يطل إلى مـواطئ القدمين ولا يرفع البصر إلى أعلى أو ينظر إلى البعيد، عيبي أنني حاولت أن أنظر إلى البعيد، عيبي أنني فتحت عيني وحاولت أن أكتشف شعاع الشمس في وضح النهار فـدمعت عينـاي واستشعرت اللهيب، نصحوني بالمراهم والقطرات وما توقفت عيناي عن التدميع، في الحـزن والفرح، في الخوف ولحظات الجسارة تدمعان، كأنه مكتوب على أمثالي من الفقراء اليتـامى أن نبكي بلا توقف ولا ينفع معنا طب ولا يشفينا دواء، تتزايد في البدن المواجع، وجـع فـي القلب ووجع في البطن ووجع في الصدر وأوجاع في المفاصل، كأنني وأنـا الفـرع الهزيـل المائل آخر المدندشين لولا الرغبة الكامنة في النفس لكي أمتد وأثمر، أترك في الكفـر بـذرة الحسنين العاشر، وأنا يا ناس لست الشخص العليل الذي يتوكأ على العصا فقط، إنني هو ذلك الطفل الذي أشرك سلمان في أمه، وأنا الصبي الحافظ نصف كتاب الله والشاب الذي قرأ كتب

التلامذة وطلاب الجامعات والأزهر الشريف، والرجل الذي شاهد الأزمنة وهي تتوالى وعمادة الكفر وهي تنتقل من دوار إلى دوار ومن عائلة إلى عائلة ومن فرع إلى فرع، أنـا الشـاهد الباقي من الزمن القديم أطالبكم بالوقوف إلى جواري ومساعدتي على تحقيق آخـر رغبـاتي مثلما كنت أساعدكم في تحقيق رغباتكم في السابق. ورغبتي مشروعة وممكنة، بنـت حلـوة تقبلني على حالي وتعاشرني على سنة الله ورسوله، ترعاني وتجفـف دمـوعي وتجاهـد أن تنسيني حكاية الأعرابية التي خدعتني وخدعتني وخيب رجائي وعطلتني فلا هي وفت بالعهد وجاءتني ولا هي تركتني لأدبر أحوالي بدونها. بنت حلوة من كفرنا المعشوق تحوطني بأنفاس الأنثى وتدثرني بشالها وتطعمني من صحون دلالها وتعوضني عن كل ما خسرته في سنوات الشباب والرجولة، بنت من كفرنا المعشوق لها طباع الناعسة التي احتملت أيـوب المصـري وخففت بلواه، قصت شعرها وباعته لتداويه، حملته ولم تفرط فيه رغم المصاعب، ياه.. ياه يا ناس، كيف فاتني أن أبحث عن الناعسة في دروب كفركم وأنا الصبي والشاب والرجل القادر، ولماذا وأنا أيوب المصري الذي يكابد المواجع فكرت فيها، وهل اعتدنا أن نقاوم ونقاوم ونقاوم المواجع حتى يقعدنا البلاء والعجز فنبحث عن شريكة العمر لكي نعاود القيام ونعاود الخلفـة من جديد، تهبنا المرأة الصلبة الرقيقة والقوية الناعمة الرغبة في البقاء، تهبنا بالحضور طاقـة أكبر من طاقتنا ولعلها تنبهنا بوجودها إلى ضرورة أن نبقى وأن نسـتمر وأن نخلـف للـدنيا أطفالا يحملون نفس ملامحنا ويحملون أسماءنا وأحلامنا ويكملون أدوارنا إذا رحلنا، أعرف أن نساء كفرنا "المعشوق" أرق من رجاله، وأعرف أنه من غير المستحيل أن ترضى باحتمـالي واحدة منهن، واحدة مثل الناعسة تجدد عمر الأيوب المصري وترحم البهلول الفاني من أجـل البهلول الآتي، أيها البسطاء من أهالي كفر عسكر، ساعدوني ورتبوا ليلة دخـولي للـدنيا أو خروجي منها.

يوم خروج الملك من مصر فرحنا بالأخبار وهتفنا للثوار، سمعنا عن محمـد نجيـب وعبد الناصر والبغدادي والسادات، انطفأت في البندر أنوار قصر الباشا وما عـادت سـيرته على كل لسان، انفتحت طاقات الأحلام والتهبت الحناجر بسخونة الحماس، وتحـدث مـن لا يملكون في زمام الأرض قيراطا عن أملاك الباشا، تهامسوا عن تقسـيمها وتوزيعهـا علـى المعدمين، فشعر أمثالي من اليتامى أنهم أولاد البلد ولهم فيها نصيب، رفعنا الرءوس بحسـب ما أوصانا عبد الناصر وقد أخرج عساكر الإنجليز، لكنهم عادوا وحاربونا بعد تـأميم القنـاة، وقال البعض للبعض إننا بسلاحهم انتصرنا عليهم، وقال البعض الآخر إنهـم هزمونـا فلـم نصدقهم، صدقنا أم كلثوم وهي تغني لبورسعيد، وصدقنا عبد الناصر وتبدلت أحوال النـاس، تجاسر الفقراء وعلموا أولادهم في المدارس بالمجان وزاد في القلب الرجاء، وكنت أنا البهلول الحاوي أزف للناس الأخبار أسمعها في البندر ولا أداريها في سهرات البسـطاء أو مجـالس

الأكابر، كنت أقول ولا أداري أننا نتساوى عند الله مثلما تتساوى أسنان المشط، وأننا كلنا لآدم وآدم في تراب، لكن الزمن الشلبي كان هناك، ساكنا تحت رماد الكفر ومسنودا علـى كسـل أولاد عوف الذين اكتفوا بالحديث عن عمادة الكفر التي راحت منهم ظلمـا وعـدوانا بسـبب البكباشي زميل الأحرار، من دهشتنا كنا نذهب إلى عزت ونسأله عن الأحوال، وكان يجارينا وكان سلمان واحد من الأحرار فنخرج من داره وقد زادت دهشتنا حتى كان ما كـان عنـدما انكسرنا وخابت كل الرجاءات، فر العساكر والضباط وفاتوا سلاحهم لإسرائيل وتوافدت علـى الكفر جثث القتلى ملفوفة بعلم الثورة، دفناهم وسط البكاء والعويل والندب والتعديد، ولكنه كان هناك من لم يعد ويحسبونه من الأموات، وبين الرجاء وفقدان الرجاء عاشت الأمهات تنتظـر الأخبار عن الغائبين، أيامها عرفت سيد أفندي وعرفت منه الكثير من الأسرار، وأيامها أيضا رجع سلمان ولبس الجلابيب والعباءات والطواقي وخلـع ثيـاب الضـباط وكـانوا ينادونـه ويتحدثون عنه بالاسم الجديد، حضرة العقيد، حضرة العقيد استقال من الجيش، حضرة العقيـد باع، حضرة العقيد اشترى، حضرة العقيد رمى أساس الدوار، حضرة العقيد قابـل المـأمور ومساعد المأمور وبواسطته تولى يوسف عمادة الكفر مكان الحـاج مرسـي، وكنـت ألتقـي فأتحدث إليه ولا أجده كما كان في سابق الأيام، كانت قد نزلت بيني وبينه ستارة تداريه عنـي وتحجب الأسرار، ربما كان ثقيلا على لساني أن أسبق اسمه بحضرة العقيد فـي كـل مـرة، وربما كان هو نفسه قد كبرت نفسه وصار ينظر إلي باستهانة وعدم تقدير، وكان يحق لـه أن يفعل كل هذا وأكثر ما لم يكن بيننا عيش وملح وعشرة عمر، تباعدت عنه كما تباعد عني وما عدت أسأل عن أحواله أو أسعى إلى حيث يمكنني أن ألقاه.

سمعت أن سلمان بنى دواره في آخر زمام الكفر من ناحية البندر، كـان الـدوار يـا سبحان الله بناية تفوق كل البنايات التي رأيتها في كل عمري، بوابات مـن حديـد ونحـاس مطلي، له سور طويل وعريض حول مساحة لا تقل عن خمسة فدادين وفي الوسط بناية عالية بأبراج وقباب جنب شبابيك وكلها مسكوكة، وسكة عريضة توصل ما بين السـكة الزراعيـة وبوابة الدوار المفتوحة دائما والمحروسة بالرجال ذوي البشرات السوداء وكأنه أخذهم وهـو خارج من سلاح الحدود، ناس لهم لهجات برابرة الهجانة الذين كانوا يأتون ويسكنون الكفر في أعقاب كل عراك بين الشلبي والعوف يسقط فيه القتلى من الطرفين أو أحدهما، كان ما بـين سلمان وناس كفرنا قد تناقص واختفى أثره، وكنت في المرات القليلة التي قابلته فيهـا وجهـا لوجه قد شعرت أن ما بيننا قد تحول إلى سور صلب في طول وعرض سور دواره.

وفي المرة الوحيدة التي نظرت فيها في عينيه وكأنني أسأله عن أسباب التباعد الـذي جرى بيننا، في هذه المرة فرت نظراته بسرعة وتشاغل عني بالنظر إلى الوراء قلت لروحي ساعتها: لا تفكر فيه يا حسنين فلا أنت من قيمته ولا أنت من مقامه، ووبخت نفسي لأنني في

بعض الساعات أنسى أبسط حقائق الحياة إلى حد إنكار كل الفروق بين الناس بـدعوى أننـا أولاد آدم وحواء، لكن هذه الساعات لا تدوم على أية حال فسرعان مـا أفيـق مـن غفلتـي وأعرف حدودي، بل إنني في بعض الأحيان لا أدخل الأبواب الموارية أو أدق على الأبـواب المسكوكة حتى وإن كنت أقصدها ولي فيها مصالح، وكثيرا ما كان يحـدث أن أرجـع بعـد مشوار طويل لأنني وجدت الباب مواربا أو مسكوكا، كان البعض يتندر على أفعالي، يقولـون إن المدندش يطلب الصدر المفتوح والذراعين المفرودتين ليرتمي في الحضن مسـلما روحـه وعقله لمن يحتويه أو يتبسم في وجهه، بل إنه كثيرا ما كان يحدث أن أمتنع عن دخـول درب في دروب الكفر إذا خاصمني واحد من سكانه، أمتنع بإصرار وعناد بغل استرالي ولا أخطو فيه خطوة فيكتشفون أمري ويحاول أهل الخير أن يصالحوني على من خاصمني أو خاصمته، وعلى كل حال فأنا لم أكن لأنشغل كثيرا بمسألة إهمال سلمان لشأني وتخييبه لرجائي فيه، ذلك أن سلمان أراحني وأراح بعض من لا يحبونه وبعض من يحبونه أيضا من أهالي الكفر، لقـد اختار سكته بعيدا عن زمام الكفر، بنى دواره بين بين، على السكة الزراعية صحيح، إنما في منتصف المسافة بين زمام الكفر وزمام البندر، ولا بد أنه كانت له أغراضه التي تخفى علـى أمثالي من هذا التباعد، وربما بسبب وجوده خارج زمام الكفر كنت أنساه أحيانا وكأنه ما زال في سلاح الحدود، لكن عزت كان لا يكف عن تذكيرنا به وكأنه لا يوجد في هذه الدنيا شخص يستحق الذكر غير سلمان، وقد كان يبدو لي في بعض الأحيان أن عزت كره الناس في سلمان إلى حد كبير، لكنني لم أكن لأكرهه ولم أكن مكرها على حبه في ذات الوقت، كنـت أسـمع أخباره من الطرفين وتزداد حيرتي في أمره، ولم أكن أعرف لأي الفـريقين أنحـاز، لكننـي اعتدت أن أسمع:

ـ سلمان باشا عنده خمس مزارع تسمين عجول بسم الله ما شاء الله، خطى على كل الأكابر في الناحية..

ـ ما هو من تجريف الأرض والسمسرة وتجارة الممنوع.

ـ ينقطع لسانك، سلمان باشا كون ثروته من مزارع البط الأبيض والفراخ الحمرا يـا بو قلب أسود.

ـ يا عم قول يا باسط، دا ساكن في الخلا لجل ما يكون بعيد عن عيون الناس، أنـت ناسي الكبدة الفسدانة اللي كان بيتاجر فيها أول ما رجع الكفر؟

ـ أبدا.. ما إحنا أكلنا منها وما جرالناش حاجة أهه..

ـ حد عارف.. البني آدم صندوق مقفول، يعني حد مننا كشف؟

ـ على رأيك.. حد عارف.. بس ما يصحش برضه تقول إن له نصيب فـي تجـارة الصنف.

ـ يا عم مش نصيب. دا هو اللي بيجلبه لحسابه ويبيعه لحسابه.

ـ أتاري الحشيش رخيص..

ـ ألف لك سيجارة من حشيش الباشا..؟

ـ لف..

يقولها الواحد منهم وينفجران في الضحك، أشعر أن الخلاف بينهمـا كـان تمثيليـة مرسومة لإبلاغي معلومات جديدة عن سلمان، كأنني كنت ما زلت مسئولا عنه بحسـب مـا يحسبون، كنت أداري ما أشعر به ناحيته وأغير الموضوع، وفي كفرنا وكل البلدان المجاورة يبدأ الأمر بكلام، مجرد كلام يسري في الهواء مع النسيم فتبتلعه الصدور ثم تعـاود إخراجـه وقد أضافت إليه أي شيء جديد، ولابد أنهم الأعداء الذين نبهونا إلى زيادة الحشيش وكل أنواع الكيف الممنوع بعد أن جاء سلمان ولكن في دواره الجديد، هو مجرد كلام في كلام، صعب أن يدخل العقل وإن دخل لا يثبت فيه وإن ثبت لا يثبت إلا لزمن قصير، وهل يصدق عاقـل أن رجلا مثل سلمان الذي تعلم وسافر ولف ودار وخلف من زوجه وبنت خالـه عـزت، خلـف خمسة صبيان وأربع بنات، هل يغامر ويضع سمعة أولاده ومستقبلهم على كف عفريـت؟ أي عاقل سوف يستبعد مثل ذلك الادعاء، تجار المخدرات لهم ناس مخصوص، ناس بلا مركز أو مبدأ، إنما سلمان؟ سلمان الذي يركب العربة المخصوص ولـه سـواق مخصـوص، دواره محروس بالبرابرة الغرباء وعلاقته بالمأمور وكل رجال الإدارة ظاهرة لكل الناس فهل كنـت أصدقهم وينقلب في عقلي ميزان الدنيا؟

ماتت أمي فعزاني فيها كل ناس الكفر، البسطاء والفقراء والأكابر، وكنت أفكـر فـي سلمان، قلت لروحي لو جاء فسوف أسامحه وأفتح له قلبي وأنسى سنوات التباعد والتجاهـل، وكان الشيخ تهامي يوشك على إنهاء آخر ربع على روح المرحومة عندما سمعت الأصوات:

ـ البيه المأمور ومعاه البيه العقيد سلمان..

ـ اتفضل يا باشا.. اتفضل.. شرفت الكفر ورفعت رأسنا لفوق.. اتفضلوا يا بهوات.

أسرعت وسلمت، تلقيت عزاء المأمور أولا ثم احتضنت العقيد سلمان رغم أنه بدا لي أنه لم يكن جاهزا للاحتضان، طول الشيخ تهامي قراءاته في سورة البقـرة ورفـرف قلبـي بذكريات الزمن القديم، ودعت الباشا والباشا بعد أن ختم الشيخ تهامي قراءته وطالبنا بقـراءة الفاتحة على روح المرحومة، كان الباشا سلمان والبيه المأمور قد وصلا وتركا سيارتيهما في "الوسعاية" وكان من اللائق أن أوصلهما وأشكرهما قبـل أن يركـب كـل منهمـا سـيارته المخصوص ويسوق به سواقه المخصوص، سلمت على البيه المأمور أولا ثم احتضنت سلمان غصبا عني ودون قصد فهدأني بخبطات كفه على ظهري، وانفلت لساني أشكو له:

ـ أمنا إحنا الاتنين ماتت يا سلمان باشا يا خويا.

تخاص هو من حضني وطالبني بأن "أشد حيلي"، وبسرعة ركب سيارته وأشار للناس قبل أن ينطلق السائق بالسيارة، وفي طريقي إلى الدار كنت محاطا بالأوفياء من أهالي الكفـر الذين امتدحوا سلمان باشا المتواضع الذي لم ينس الجميل القديم وقد كبر في السـن والمقـام وأصبح رفيقا للحكام، وافقتهم ولم أحدثهم عن خجلي من نفسي لأنني فـي انـدفاع عـواطفي ساويت نفسي به وتمسحت فيه، صحيح أن أمي أرضعته ضمن من أرضعت من عيال الكفـر قبلنا وبعدنا، لكنها كانت بالنسبة له ولهم مجرد مرضعة، ولو أحصيت من أرضعتهم لأصـبح لي عشرات الأخوة من كل العائلات بينما الواقع يقول إنني رجل وحيد، وحيد وبسيط وسـاكن في مكاني دون أمل في أن أتبدل مثل كل شيء يتبدل ويتغير في كفرنا "اللبني".

كانت أمي مرضعة عيال الكفر تقول عن البعض منهم "شبع من بعد جـوع" وكانـت تصف عزت شلبي بهذه الصفة أكثر من كل ناس الكفر، كانت تكرهـه دون مواربـة وكـان يتشكى منها لي ولطوب الأرض، ويهددني بأنها ما لم تكف عن تطويل لسانها كلما قابلته فإنه لن يتراجع في أن يقطعه لها من "لغلوغه"، فأضاحكه وأعده بإسكاتها عنه دون أن أفعل، كنت أتمنى أن تعاود فضحه وأنا أثق أنه لن يجرؤ رغم كل ما يدعيه أن يضرها بشيء مهما حاول، كانت أمي مرضعة عيال الكفر كله، ولم تكن تملك أكثر من ثديين نافرين ممتلئين على عـود نحيل نحيل هو في الحقيقة وبحسب ما كان الكل يقول جلد على هيكل عظمي، إنما صدرها يا سبحان الله أعجوبة، صحو ونفور وامتلاء أكثر من أثداء البنات العذارى والنسوة الوالـدات، وكان لها لسان مشهود له بدقة الوصف، إذا وصفت رجلا من رجال الكفـر بصـفة رددهـا الأهالي دون تردد، وإذا قالت عن امرأة أو بنت أي شيء صار حقيقـة لا تقبـل المراجعـة، وربما بسبب ذلك كان الأكابر يتوددون إليها أكثر من أبي، وربما بسبب وجودها كنت أشـعر بالحماية وأتجاسر على الكل، كنت أحصل على السماح دائما، ولا بد أنها كانت قـادرة علـى حمايتي وحماية نفسها بعد موت أبي، لقد انخطف أبي مني وأنا في السن التي لا تدرك طبائع الخلق وكيفية التعامل مع الناس، وتولت هي أمري، وبدلا من مصاحبة أبـي وقـد انخطـف صاحبتها وبحت لها وباحت لي بكل ما كان يدور في عقلها من أفكار، ومن بين تلك الأفكـار فكرتها عن عزت الذي كان السبب في موت أبي قبل الأوان ناقص العمر، كانت تكرهه وكان يكرهها، وكانت لا تداري كراهيتها له وإن حاول هو أن يداري. كان يعـابثني فـي بعـض الأحيان ويناديني:

ـ تعالى يا حسنين يا بن أم بزين العب مع سلمان.

وكنت أطاوعه على مضض، كنت أشعر أنه يسخر منها وربما يعيرنـي ولا أفهـم، أداري عنها وإن كنت أرغب في البوح لها وأخاف أن أغضبها، لكنها عرفت الحكاية وذهبـت

إليه في ظهيرة يوم السوق وردحت له ما طاب لها الردح والناس تسكتها ولا تسكت، ولما زاد ردحها وسكوته قال حضرة العمدة مرسي الذي كان يمر بالمصادفة:

ـ وماله يا بت... ببزين ببزين، أصله منكاد منك، مراته ما لهاش ـ أنت انخبلت يـا عزت؟

ضحك الناس مجاملة لحضرة جناب العمدة وصار من المـألوف أن ينـاديني بعـض الأولاد الذين يكرهونني بنفس النداء.. "يا بن أم بزين ".. ولم أكن أغضب منهم، كنت أضحك وأسألهم إن كانت لأمهاتهم ثديان مثل أمي فيشعرون بالخجل ولا يعـاودون مكايـدتي مـرة أخرى.

كان المرحوم أبي يعابثها في وجودي ويمد كلتى يديه ناحية صدرها مهـددا فتـرمح ويرتج صدرها وهي تفر، وإذا طالها وأمسك بها نبهته إلى وجودنا أنا وسلمان فيفلتها وربمـا يطلب منا أن نخرج ونلعب في الغيطان، كنا ننسحب أنا وسلمان في بعض الأحيان وفي بعض الأحيان لا نفعل تنفيذا لأمرها هي، وكانت تقول لأبي في بعض المرات وهي تضحك فينـور الضحك وجهها وتحمر خدودها وهي تهمس:

ـ الولد سلمان دهه بيغير منك يا حسنين، بيغير عليا أكثر من ابنك حسنين.

وكنت أتعجب وأسأل سلمان إن كان يغار عليها بالفعل فيجاوبني بغيظ:

ـ يا رب أبوك يموت.

الغريب الغريب أنني لم أكن أغضب من سلمان رغم حبي لأبي، لم أكن أغضب ربما لأن أبي قال لي إن الدعاء لا يجوز إلا على الظالم والمفتري، كنت أشعر باطمئنان بأن دعاء سلمان لن يجوز أو يؤثر في عمر أبي الذي لم يظلم في حياته أحدا بحسب ما كان يؤكد لكنـه مات، وفي نفس يوم موته قابلت سلمان وسألته إن كان أبي يستحق الموت فلم يرد، غضـبت من سلمان من أجل أبي الذي مات بسبب دعائه وبسبب عزت شلبي خاله الذي أخـذ سـلمان وضرب أبي، وكنت أدعو الله لكي يميت عزت مثلما أمات أبي لكنه لم يستجب لدعائي رغـم تأكيدات أمي أنه رجل ظالم ويفعل كل ما يغضب الله والناس.

هلل أولاد كفرنا لعبد الناصر وكنت أعرف الأسباب، لكنه عندما جاء السادات وتحمس له أولاد شلبي لم أفهم سر الحماس لأن الرجل كان في بداية أيامه ما زال، لكنه انكشفت لـي الأسباب عندما ترشح العقيد سلمان الخارج من الجيش بعد النكسة لأسباب يعرفها الجـيش ولا تصل إلى أمثالي من فقراء الناس، رشح الباشا العقيد نفسه لمجلس الشعب، وكانـت سـيرته أيامها لا تسر عدوا ولا حبيبا على حد أن الكل تنبأ له بنفس النتيجة:

ـ ساقط ساقط.. هو حد عاد بيقبله في كل الناحية؟

كان سلمان قد تباعد عن كل ناس الكفر إلا أقل القليل أولاد عمه الـذين لهـم عنـده مصالح أو له عندهم مصلحة، وصارت رؤية الناس له نادرة وإن كان الكلام عنه لا ينتهي أبدا وكل ما نسمعه أو نراه منه يؤكد لنا أنه مشغول بمصلحة نفسه قبل كل شيء، وعندنا في كفرنا مثل يقول إن من أحب نفسه كرهته الناس، فما بالكم بواحد طالع من قاب ناس الكفـر وداس على الكل وعطل مصالح الكل وأنكر الكل وكره فيه طوب الأرض؟ أول شيء عمله سـلمان ولم ننتبه إليه في البداية كان سيطرته على سوق المواشي، صحيح أن القرش في السوق صياد ماهر، وصحيح أن المسألة تحتاج إلى شطارة، لكن أن يتحول السوق كله إلى سـلمان وحـده فهذا هو الأمر الذي لا يرضاه العبد ولا يرضى عنه الرب، استأجر سلمان مجموعة سماسـرة صغار واستأجر مجموعة من الأشرار وقطاع الطرق الشطار وقطع الطريق بواسطتهم علـى كل التجار، من يطاوع يأخذ رزقه المعلوم ويتوكل على الله راجعا مـن حيـث أتـى، ومـن يعترض فإما الضرب والإهانة أو سرقة ماله بالغصب وفي وضح النهار، أشياء مثـل هـذه رأينها بحدقات عيوننا، وشكايات سمعناها من الغرباء بآذاننا، والغريب أن سلمان كان يعلنـه على ألسنة أعوانه في كل أنحاء البندر، ولابد أنه أقنع المأمور أيامها بأية طريقة بحيث سكت على كل ما كان يجري، وربما لم تصل للمأمور نفسه أخبار البلاوي التي كانت تحـدث فـي السوق أو عند مداخل البندر مع التجار والفلاحين، ولابد أن البعض منهم لم يفكر في الشـكاية أصلا، وأن البعض الآخر حاول ولم يفلح، أو القليل منهم اشتكى ولم يجد لشكواه فائدة فكـف عن معاودة المجيء إلى السوق، يعلم الله ونعلم نحن أيضا أن سلمان اسـتولى علـى السـوق لحسابه هو، كان يقف في أحد أركانه ويشير بيده لأعوانه فينفذون ما أشار به، أصبح السـوق سوقه، سوق سلمان أو سوق الباشا أو سوق سيادة العقيد، هكذا عيني عينك تحول السوق القديم الذي كنا نسميه سوق الخميس إلى سوق خصوصي يتحكم فيه بماله ورجاله ويمـارس الظلـم وقهر الناس، حتى عندما فكر الناس في البيع والشراء في الأسواق الأخرى للبنادر المجـاورة تصدى لهم قطاع الطرق ومنعوهم من الخروج بمواشيهم أو محاصيلهم أو الدخول بالبهائم إذا اشتروها من خارج الزمام إلا بعد الدفع الإجباري والإهانة والتهديد، صار سـلمان عصـابة منظمة وصار الناس ضحايا لظلمه، بالسعر الذي يحدده هو يشترون ويبيعون، وفي كل حالـة امتناع أو اعتراض نسمع عن تقليع الزرع أو تسميم الماشية أو حرق البيـوت أو الأجـران، وضاق الحال بالناس وانكتمت الأفواه مخافة الانتقام، وأصبح دوار سـلمان مـزارا للنسـوان المظلومة والرجال الفقراء اليتامى، يتقبلون شتائمه وإهاناته مقابل بعض الحق المسلوب، تحول سلمان إلى كابوس لا يحده حد ولا يشعر بأي نوع من أنواع الخجل، وزادت أملاكه في وقت قصير على حساب اليتامى، وهؤلاء الذين كانوا يملكون القوة والقدرة على مواجهته لم يفعلـوا أي شيء، ربما لأنه كان يتعامل معهم بشكل مختلف، ذلك أنه في حدود ما أعرف من نـاس

كفرنا لم أسمع شكاية من أحد الأكابر أو المالكين، كان أكثرهم ينكرون دعاوى الفقراء ضـده بل إنهم كانوا في بعض الحالات يكذبونهم ويدافعون عن شرف سلمان، ولا بـد أن الأكـابر اتفقوا معه على أن يبعد عنهم أشراره مقابل عدم تدخلهم في شئون البسطاء من سكان الناحيـة كلها، ومثلما يهمد الجسد بعد مشوار طويل همد الأقوياء القدامى واستسلموا للراحة وما عادت لديهم الرغبة في الصراع، استكانوا وأسلمونا لسلمان فاستسلمنا بدورنا لمصيرنا وأكلنا لحمـه الفسدان الذي كان رجاله يبيعونه في الأسواق، وأكلنا سمكه المشكوك في أمره لأنه لـم يكـن هناك سواه، واشترى الفقراء قماشه المخزون لأنه لم يكن في السوق غيره، حتى من يبحثـون عن بذور الزراعات وجدوها عند سلمان فأخذوها دون تردد أو اعتراض، يدفعون الثمن الذي يحدده وكأنهم يتجنبون معاداته بأي ثمن، وانقسم الناس في كل الناحية إلى عاجزين وقـادرين، مالكين ومعسرين أكثر مما كان عليه الحال قبل ذلك بكثير جدا.

"سبع صنايع والبخت ضايع".

قالتها لي أمي وأنا راجع من مشواري القريب عند عباس أبو خشبة في نفـس دربنـا المزنوق والضيق والمسدود من ناحية البحر، دار عباس أبو راجية أو أبو خشبة بينها وبـين دارنا داران وخرابة وشرم يفوت نفر واحد بجنبه للناحية الأخرى، ويبدو أنني كنت حزينا وإن حاولت أن أداري، لكن أمي تقرأني بنظرة، مجرد نظرة تكشف لها فرحتي أو حزني، نجاحي في تحقيق غرضي أو فشلي، انبساطي من الناس والدنيا أو قرفي، كأنني صفحة مـن كتـاب مفتوح أمامها لا ينسك أبدا، ودائما دائما تواسيني أو تهنئني قبل أن أقول لها ما جرى بمثل أو بمطلع غنوة أو كلمة أو موال، لكنها في تلك الليلة قالت ما قالته وكأنها تندبني وتنـدب كـل المدندشين من أول حسنين حتى الحسنين الثامن الذي هو أبي وزوجها المرحوم، جلست ساكتا لا أنطق وتوقعت منها أن تسألني لكنها لم تفعل، كانت تنكش بحراية وسط الدار بعود حطـب قطن جاف، كأنها كانت تخط على الأرض مصيري أو ترسم على الأرض اعترافها بهزيمتها وهزيمتي، كنت لا أرغب في أن أبقى أمامها لأزود همها وهمي فقمت، طلعت إلـى السـطح وأسندت ظهري إلى جدار مصطفى الفار فبان لي وجه القمر الباقي بعد أن اختفـى ثلثـاه أو ثلاثة أرباعه، لكنه كان هناك يرسل بعض الضوء ويسمح لي بأن أميز المسـافات وأسـطح الدور الظاهرة، لم أكن غضبانا من عباس أبي راجية رغم أنه كسفني ورفض طلبـي، كنـت أعرف أنه سوف يفعل، لأنه مثل كل ناس كفرنا "البدوي" يعمل حساباته في مسـائل الـزواج والطلاق أيضا، ولا بد أنه أمسك نفسه من الغلط وقال أحسن ما كان يمكن أن يقوله رجل في الرد على طلبي:

ـ يا حسنين يا خويا احنا بنعزك صحيح، وانت تستاهل كل خير صحيح، إنما راجية؟ راجية يا حسنين؟ أنت عارف أمك ما تأخذنيش، هي صحيح قريبتي.. إنما، مين فـي كفرنـا

تقدر تعاشرها يا حسنين؟ أمك لسانها متبري منها، وكل ما بيتقل عليها العيا كل مـا بيطـول أكثر ما هو طويل، وراجية بنتي مش ح تطيق تعيش وياها في الدار، أمك دي عايزة واحـدة قالعة رأسها وعادمة ناسها.

الغريب الغريب أنني كنت أنتظر مثل هذا الكلام وأكثر منه. كنت أعارضها في الفكرة لكنها كانت تلح:

ـ بس أنت روح يا حسنين، ريح قلبي يا ضنايا، عباس ابن خالتي ومـش ح يلاقـي أحسن منك، روح يا حسنين واطلبها منه، عايزة ارتاح من ناحيتك قبل ما ودع، عبـاس إيـه ابن أبو خشبة ده كمان، هو يطول؟ جته لهو على أبوه.

كنت أسمع مثل هذه العبارات كل صباح وأتحمس للفكرة ثم أتراجع على التنفيـذ فـي الليل، وأنا في بعض الحالات يختل ميزاني فأطاوعها في الغلط ربما من كثـرة الـزن علـى الدماغ أطاوعها، وربما لأن طاعة الأم واجبة، وربما بسبب مرضها ورقادهـا الـذي طـال صرت أميل إلى طاعتها، أكثر، أطاوعها لأريحها وأريح نفسي من كثرة الزن، ولأنها أمـي، وهي راقدة ولا تكف عن تكرار نفس الكلام فقد مات رغم عدم تصديقي إلى تصديق كلامهـا هي:

ح يرحب و ح يوافق، أنت مستقل بروحك ليه يا حسنين، دانت ابن المدندش، هو فيه في الكفر كام مدندش يا حسنين.

وراجية بنت عباس حلوة، تستحق التفكير فيها، شعرها أسود ونـاعم ومجـدول فـي ضفيرتين غليظتين، عودها فارع مثل شجرة بأس وصوتها فيه بحة غير كل البنات، شـملولة وشاطرة وعندها صحة تهد جبال، ثم إنها مؤدبة أدب طبيعي فهل كنت أكره أن أحاول مجرد محاولة أو أنني كنت أستكثرها على روحي، ربما فكرت فيها لغيري، وربما أكون قد حلمـت بها لنفسي لكنه كان حلما بعيدا بعيدا، هو حلم يخجل الواحد من نفسه إذا فكر فيه، ولا بد أنني كنت أفكر فيها أكثر مما فكرت فيها أمي، كنت أراها وهي تدخل دارنا، تملأ زيرنا من مـاء الصهريج أو تطحن قمحنا في ماكينة الطحين أو تخبز في فرننا بمساعدة بعض الحريم، لكنني كنت أفسر الأمر في حدود أنه نوع من الشفقة بأمي أو العطف عليها والرحمة أو عمل الطيب في امرأة طال رقادها وليس لها بنت تساعدها في مثل هذه الأعمال، على هذا النحو كنت أفكر في أول الأمر، لكن اعتيادي على رؤيتها واكتشافي بعد كلام أمي عنها أنهـا بالفعـل فـارت واستدارت وأنا غفلان، كأنها طلعت من تحت الأرض بين يوم وليلة فصارت صبية ناضـجة نضوج ثمرة برتقال بدمه ظاهرة ومكشوفة في فرع شجرة جنب الدار، كنـت أتلفـت حـولي وأسأل نفسي إن كنت بالفعل أليق بها أو تليق بي، وأفكر إن كان زمن الزواج قد فاتني بالفعل لأنني تخطيت الأربعين منذ سنوات، أمثالي تزوجوا والبعض منهم زوج أولاده وصـار جـدا

فهل يحق لي أن أبدأ الآن وقد فاتني ما فاتني من عمر، أبدأ وأنا أحمل فوق همومي وما صار إليه حالي وجود أمي الراقدة التي تحتاج أكثر مني إلى من يرعاها ويخـدمها ويسـهر علـى راحتها، وأضع في حساباتي ضرورة أن يحتملها وقد صارت مـن كثـرة الرقـادة عصـبية وغاضبة دائما ولسانها مثل لسان حية أو عقربة لا يكف عن اللدغ، لا تترك سيرة الأحيـاء أو الأموات تتسلى بها:

ـ أنا عارفة إيه اللي كان وقعني في أبوك. كان كبر وفاته قطر الجواز وأنـا كنـت صبية ولسة طالعة، لكن إتجرأ وطلبني، خدني وعشت معاه ع العيش والملح، لقيته كبير فـي السن لكن زي العيل اللي لسة ما اتفطمش أبوك مات وهو لسة ما اتفطمش يا حسنين، كان يـا ولداه محروم من الأم، اتولد يتيم وما رضعش لبن أمه، ولا عاشلوش غيـرك يـا حسـنين، المدندشين مش عيلة يا مدندش، دول فرع مايل ومدلدل وعزمه خيبان، ما هـو أنـت أهـه، عزمك خيبان، وقليل قليل إن ضربت جدرك في الأرض ومددت وفرعت زي اللـي اتولـدوا معاك، فاكر سلمان يا حسنين، أهو بقى جد.. وأنت مش قادر تكمل نص دينـك وتعـيش زي خلق الله، ملعون أبوك لأبو اللي خلفوك.

وكنت أحفظ لساني معها قدر استطاعتي لأن المولى سـبحانه أوصـانا برعايـة الأم واحتمال الأم وطاعة الأم، كنت لا أرد على شتائمها فتشعر أنني احتملتها وتدعو لي بالسـتر فأنظر إلى أحوالي وأسأل نفسي عن الستر الذي لم يتحقق أبدا، أي ستر ودارنا مندرة ووسـط دار وفرن وقاعة خزين معتمة وبيت أدب عريان، وحتى لو تجرأت وفكرت في إكمال نصف ديني فأي ناس ترضى بدار مثل دارنا وفيها أمي وليس فيها عزال أو نحاس، وعروق خشـب سقفها تحتاج إلى تستيف جديد وكتل لدعم خشبها القديم، وأي نوع من الأمراض هـذا الـذي أصابها وأقعدها كل هذه السنوات فصرت أنفق ما أحصل عليه لأداويها وأطعمها وأكسـوها، وأي بخت هذا الذي أورثني فقره وفقرها وجعلني أبدأ حياتي بسداد دينه ودينها بينمـا يـرث الكل، ميراثي بالمقلوب يا ناس، ميراثي هو دفع ما لم آخذه من أحد فأي عدل هذا وأين هـي طاقة القدر التي يتحدثون عنها لأطلب منها ما ظللت أداريه عن الناس وعن نفسي من إحساس مؤكد بالظلم دون ذنب أو حتى وعي يسمح بارتكاب ذنب، هو مجرد ميراث بالمعكوس، وأنـا بيني وبين نفسي فتشت في نفسي فلم أجد لأي واحد من خلق الله ظل غل أو حسد، وكـل مـا كنت أتمناه وأرجوه أن ينعدل حال الدنيا المقلوب، حال الدنيا مقلوب يا ناس، فهل تظهر لـي طاقة القدر أم أن موعد طلوعها في أواخر شهر رمضان؟ وهل ظهرت لأي واحد من الفقراء اليتامى طاقة القدر؟ أم أنها عندما تظهر له يتحول إلى واحد من المالكين القـادرين الآمـرين الذين يحكمون ويتحكمون في خلق الله، ينقص الفقراء واحدا ويزيد الأغنياء واحدا لكنـه فـي زحمة الدنيا لا يتبدل شيء، يبقى الحال على ما هو عليه رغم ظهور طاقة القدر للنـاس، لـو

ظهرت لي لطلبت العدل كل العدل على الأرض، تتوزع الأرزاق بالعـدل ويتـوزع الشـغل بالعدل، وتتوزع دور الكفر بالعدل ويتوزع زمام الأرض المملوكة بالعـدل وبالعـدل نأكـل ونشرب ونكتسي ونتزوج ونخاف ونعيش ونموت، نصبح مثل جيوش النمل أو النحل عرايـا وقد تساوينا في كل شيء، لكنه يلزم أن يتميز من يملكون العقل أكثر، تكون لهم شارة يعرفهم الناس بها، هل من الممكن أن تظهر لي طاقة القدر وتنتظرني لأطلب كل هذه الطلبات أو أنها كما يصفون تنفتح لحظة واحدة وتستجيب لطلب واحد، المال أو الصحة أو الزوجة والنسل أو الهداية أو رضا الله وخلقه، الستر أو القناعة والرضا بالمقسوم، شيء من بين هذه الأشياء فقط تسمح به طاقة القدر التي تنفتح في ليلة محسوبة وللموعود بها دون بقية خلق الله فهل أفكـر أنا الذي ضاع حظه في هذه الدنيا، أفكر في طلب واحد أطلبه من طاقة القدر إذا ظهرت لـي، سوف أطلب العدل.. العدل أساس الملك، نعم سوف أطلب تحقيق العدل في كل أركان كفرنـا وفي كل البنادر، ولو سمحت طاقة القدر فسوف أطلب تحقيق العدل في كل الدنيا، العدل وحده لأن العدل أساس الملك.

ـ عدل إيه ولهو إيه يا حسنين؟ وملك إيه، وما تسيب الملك للمالك يا خايب يـا بـن الخايب.

رأيتها قبالتي بعودها النحيل النحيل وصدرها البارز، كنت قد اعتدت أن أراها راقـدة أو مسنودة إلى مسند أو جدار خلال كل السنوات الماضية، لم تكن تستطيع أن تنصب طولهـا بغير مساعدة، وحتى بالمساعدة كانت تعجز عن الوقوف دون انحناءة كبيرة تقترب من حالـة الركوع، كنت أشفق عليها وأحاول أن أداريها عن عيون الناس في تلك اللحظات، ولا بد أنني ارتعشت خوفا عندما أيقنت وتحققت أنها هي بشحمها ولحمها وأن ما أراه حقيقة وليس طيفـا ولا مناما أو حلما، كانت هي نفسها التي تقف منصوبة العود ومرفوعة الرأس مثلما كانت في السابق قبل الرقاد، بل إنها كررت ما قالته مرة أخـرى وهـي تقتعـد الأرض قبـالتي دون مساعدة:

ـ عدل إيه يا حسنين يا بني اللي أنت داوش روحك بيه؟ أنت ح تفضل أهبـل كـدة على طول؟

ـ هو العدل عيب يا أمه؟

سألتها وقد انمسحت من ذاكرتي مسألة مرضها وزال خوفي، كنت أحدثها وتحـدثني مثلما كان يحدث في السابق قبل أن ترقد، سبحانه القادر على كل شيء أنساني أسخف أيـامي وأيامها وأصعبها وأقساها، هو مجرد نسيان مؤقت ساعدني على الاحتمال وقواني على الكلام معها، قالت أمي:

ـ سلمان أخوك مص دمك ودمي شوف لك حل معاه.

ـ أعمل له إيه يا مه؟

هات لي منه حق اللبن إلى رضعه.

ـ لبن إيه بس يا أمه؟

ـ بلاش.. البد تحت باطه، خده سكة وأطلع وياه ووراه.

ـ يا مه.

ـ بلاش.. خليه يتوسط لك ويوظفك وإن ما وظفكش افضحه، أنت تقدر تفضحه يـا مدندش..

ـ يا مه..

لم تكمل كلامها، أشارت إلى القلة فناولتها وساعدتها حتى ارتوت ونظرت في ضـوء ما تبقى من القمر فرأيت عينيها تتراخيان وجفنيها ينطبقان، ناديتها فلم ترد، رفعت سبابة يدها اليمنى إلى أعلى ففهمت أنها تطالبني بإرقادها في نفس المكان، ساعدتها على الرقـاد وكـان جسمها دافئا وطريا، سمعت صوت المؤذن ينادي المؤمنين لصلاة الفجر وسـمعت نحنحـات الخارجين من دورهم يوحدون الله ويصلون على محمد، وبدا لي أنني استعدت ما كان يجري قبل طلوعها على هذا النحو فشعرت بالخوف منها ومن نفسي واستعذت بالله، تعجبـت لأنهـا طلعت فوق السطح دون مساعدة من أحد وأنها كانت تقف منصوبة القـوام لأول مـرة منـذ سنوات، كان شعاع النهار يكشف الأشياء وأسطح البيوت وكانت هي تتمدد أمامي في صـمت مرتاح، ومن فزعي ناديتها:

ـ أمه.. أمه يا أمه.

لكنها لم ترد.. وكان الضوء قد كشف لي تقاطيع وجهها أكثر، كانت بشـرتها أكثـر بروزا وعودها النحيل النحيل قد امتلأ، هزتها لأوقظها وأحملها إلى فراشها فاهتزت ولم ترد.. عاودت هزها فاهتزت ناديت وناديت بأعلى صوتي لكنها كانت قد أراحت نفسها من كل رد.. صرخت ورأيت الناس تصعد الدرجات وأحدهم يبعدني عنها ويصحيني من غفلتي صارخا:

ـ المرحومة ربنا اختارها.. وحد الله يا مؤمن.

كان أمل البسطاء أن يرشح أي واحد من الأكابر نفسه في المدة الباقية لكـي يمنحـوه أصواتهم يوم الانتخاب ويحجبوها عن سلمان وساعتها يضيع أمله في النجاح، لكن سلمان كان يتحرك في الوقت الضائع، ينصب الشوادر ويؤجر مكبرات الصوت ويجمع الناس من حولـه، وكان أتباعه يشيعون أنه على علاقة بالأكابر الحكام وأن السادات بنفسه زاره بـدواره وأنـه سوف يكسب بالتزكية، وكان هو يتحدث بنفسه عن نفسه قائلا إنه طالع من بطن أرض كفرنا الطيب، وأنه سوف يصلح ما أفسده المفسدون وأنه سوف يبدأ بالسوق الذي سيطر عليه بعض الغرباء والوضعاء الذين فقدوا ضمائرهم وأجروا من يتعرض للتجار الشـرفاء، وأنـه لـولا

رجاله لبارت تجارته مثل غيره لولا همة الرجال، وادعى أن هناك جماعة من الناس تقصـد تلويث سمعته وإفساد حياته وهو النقي الطاهر الذي اعتزل الناس واختار مكانا يبعد عن مسقط رأسه وبنايات البندر حتى لا يقع تحت تأثير أهله وهو الذي يسعى لخدمة الكل دون تفرقـة أو تمييز:

ـ والناس دي مش عارف عايزين مني إيه؟ عايزيني أنسحب م الترشيح ويخلى الجو لواحد من بتوع زمان، واحد من اللي كانوا ماسكين الكرباج للناس الغلابة وبيشغلوهم سخرة؟ لأ.. مش ح أنسحب، مش لجل خاطري، أبدا.. لجل خاطركم أنتم، أنا غرضي أخدم الكـل ف زمام الناحية، ح ابني مركز لبحوث الزراعة ويزيد المحصول.

بدل الفدان ما يرمي تسع قناطير قطن ح يجيب عشرين وبدل ما يـدي عشـر أرادب قمح ح ينتج عشرين وثلاثين، التقاوي موجودة، وح نعمل مخبز آلي ومصنع علف ومـزارع سمك، وبكرة تشوفوا الفرق بعنيكم، ح نزرع تفاح أمريكاني بدل الجميز والتوت.

كانوا يصدقونه ويصفقون لأنه كان يبرع في الكلام، وأنا لولا معرفتي له كنت أصدقه خصوصا عندما كان صوته يختلج وعيناه تدمعان من فرط الانفعال، وكان يحكي عـن نفسـه وكيف تربى أول ما تربى في بيت حسنين المدندش الذي هو أبي وبرعايـة وعطـف السـت حرمه التي هي أمي التي لولاها ما عاش، كان يقسم بأغلظ الأيمانات أنه لـن يكـون نـاكرا للجميل أبدا مهما حاول الأعداء، ولابد كان يقصدني بين من يسميهم الأعـداء، ففـي المـرة الوحيدة التي رآني فيها نظر ناحيتي وأشار بإصبعه:

ـ أهه.. حسنين أخويا أهه، ابن عم حسنين قصادكم أهه، أخويا في الرضاعة وعمري ما ح انكره، بامد له إيدي كل ما أشوفه، لكن يا سبحان الله، ضحكوا عليه وغيروا قلبـه مـن ناحيتي، اللي يفتحه يلاقيه أسود من قرون الخروب، شـوفوا لابـس مبهـدل إزاي، قصـده يحرجني، يقلل من قيمتي، طيب يا حسنين قصاد الناس دي كلها أنا فاتح لك صـدري أهـه، وعفا الله عما سلف، تعالى في حضني وربنا شاهد عليا وعليك، شـايفين بيـبص لـي إزاي؟ بيكرهني.. بيكرهني يا ناس وأنا مادد له إيدي وقلبي عليه، بيكرهني يا ناس.. بيكرهني.

بيني وبينكم أنا ساعتها انخرست، نزل على لساني سهم الله وما عرفت أن أرد عليـه، أنا المشهور بطول اللسان انخرست وعجزت عن الكلام، وساعتها عرفت إن الكذب المسبوك المزوق يقدر أن يخرس الصدق العريان، كنت أشعر أنه عراني أكثر من عري الثياب التـي كنت ألبسها والتي كنت دون أدنى شك أخجل منها وسط الزحام.

قال واحد من الأكابر بعد أن شكوت له حالي:

ـ رشح نفسك قصاده واحنا نقف وراك ونساعدك بالفلوس. كان أول مرة أسمع فيهـا هذه الفكرة، ورغم أنني سمعتها فقد كدت أن أنفض آثارها من أذني قبل أن تصل إلى دمـاغي

وأقلبها مثل كل الأفكار التي تصلح للتنفيذ، صحيح أنني مسكين ولا أملك ما أخشى عليه مـن الضياع فماذا يأخذ الريح من البلاط؟ لكن هل أقبل أنا على نفسي أن أتحول إلى مسخة يلعـب بها أكابر الناحية ضد سلمان؟ هل أرشح نفسي ضده ثم يتضاحك ناس كفرنـا وكـل الكفـور المجاورة على الطبال الزمار الحاوي، الرداح النداب البائس الذي تجرأ ووقـف فـي سـكة الأكابر بأصابع الأكابر الآخرين؟ وهل أساوي نفسي بيني وبين نفسي مع الكـذوب المـراوغ المخادع القادر على أن يلعب بالبيضة والحجر، هل أضع رأسي البسيط النظيف في مواجهـة رأسه اللامع القادر على التزييف؟، رفضت أن أناقش الفكرة فقال الكبير:

ـ لك حق وشك ينزرد ويزرق يا مدندش، أنت راجل غلبان صحيح بس نضيف، إنما ده.. دا تعبان شراقي لسانه بيبخ سم ناقع فين ما يفوت.

ولابد أن كلام الكبير قد وصل إلى قلبي ومسه مسا خفيفا، ذلك أنني شعرت بسـخونة دمعتين تتحركان على غير إرادة مني وتعبران خدي وأنا الذي ما كنت أبكي، حتى وأنا أندب دون بكاء، هل كنت أبكي على حالي أو على سلمان؟ ربت الرجـل علـى ظهـري مواسـيا وضاحكني فتجاوبت معه وصرت أضحك، هز الرجل دماغه وقال بعد فترة كدت أنسى فيهـا سلمان وأنسى نفسي.

ـ إحنا ح نوقف قصاده واحد عبره، واحد مالوش قيمة خالص في كـل الناحيـة، إن كسبه تبقى مسخرة وحش وسط ما يرفعش رأسه بعدها أبدا، وإن خسر تبقى مرمطـة وقلـة قيمة، عارف مين أوطى واحد في الناحية يا مدندش؟

ـ لأ.. مين؟..

ـ ح أقولك بعدين.

لم يقل لي وإنما رأيت بعيني رأسي ما لم يخطر على بالي أو يرد في خيالي حتى في الأحلام، رأيت واندهشت مثلما اندهش كل ناس كفرنا وناس الكفور المجـاورة فـي نـواحي الناحية، ومن لا يندهش إذا كان الوحيد الوحيد الذي استخدم حقه في الترشيح ضد سلمان هـو شحيبر ابن الكلاف؟ شحيبر الذي كانوا يقولون عنه "بتاع" الأرض والذي طول قامتـه ثلاثـة أشبار دون زيادة بمقاس شبر سعيد الكموني، ثلاثة أشبار بالفعل دون مبالغة وفي حالة المبالغة نقول "شبر ونص" طبعا شحيبر لم يفعلها من تلقاء نفسه ولا كانت فاتـت علـى خيالـه فـي الأحلام، ولا بد أنهم أقنعوه وناولوه ما لم يكن يحلم بأنه يناله قبل أن يذهب وفي آخـر يـوم وآخر ساعة لقبول طلبات الترشيح بعد أن قال الكل أنها طابت لسلمان بالتزكية، قلت لروحـي وأنا أراه في البندر مزفوفا ومحمولا على الأعناق ومن أمامه طبال وزمار وراقص بالعصـا وغازية من سنباط ترن صاجاتها وتطاب النقوط للرجل الغلبان الذي رشح نفسه باسم الفقـراء

ومن أجل الفقراء، قلت لنفسي بيني وبين نفسي "كان من الممكن أن أكون مكانـه" ولا بـد أن الخبر طار في كل أركان الناحية مثل السبرتو أو البنزين.

كل الناس ما لم يكن أكثرهم عرفوا "شحيبر"، كل من سافر بالقطار إلى طنطا أو شبين رأى شحيبر، كل التجار والأفندية والمزارعين شافوا "شحيبر" ابن الكـلاف، دكـك المحطـة أخذت من بدنه وعلمت عليه، من في كل الناحية لم يعرف شحيبر؟ كان أكثر شهرة من شـاي الشيخ الشريب أيامها، كان يجلس من أول طلوع شمس ربنا وحتى قطار التاسـعة والنصـف مساء، يجلس على نفس الدكة أو يبدلها إذا أراد، يجلس وينتظر وصـول أي قطـار مـن أي الاتجاهين فيتدحرج على رصيف المحطة حتى يصل إلى أحد أبواب القطار، يمد يده إلـى أي شيء تطوله، سلة أو قفة أو طفل أو حقيبة أو "خرج"، يطلب السماح من صاحب الشيء، ثـم يلفعه على كتفه أو ظهره ويرمح، يبدو لكل من يراه مثل "حرامي الحلة" الحامل ما يداريـه، لقمة أو خنفساء أو صرصار، يحمل الحمل ويجري فلا تظهر منه غيـر سـاقين قصـيرين متسارعين في اتجاه باب المحطة، ودائما دائما ما كان يجبر صاحب الثقـل المحمـول علـى الجري في أعقابه أو استمهاله بعض الوقت حتى يلحق به، لكنه مع النساء كان يتأنى ويتبختر على مهل فتسبقه المرأة وتستعجله ولا يتعجل أبدا، دماغه لا تلين أبدا وكأنه بغـل اسـترالي، يحدد أجره ولا يتنازل عنه أبدا حتى ولو حصلت مصيبة أو قامت بينه وبين أي إنسان خنافة، حركته خفيفة ولسانه ثقيل في الكلام، وعزمه في الحمل أكبر بكثير كثير كثير عن مظهـره، فكم شهدوا له بحمل ثقل يعجز عن تحريكه رجل بشوارب أو رجلين فـي بعـض الأحيـان، وكانوا يسخرون ويقولون:

هو شال حاجة؟ دا منه للأرض.

ـ لأ ورجليه زي عجل الونش عارفة سكتها.

ـ سبحان الله، صحيح.. كل ذي عاهة جبار.

وحكايات شحيبر وأي شحيبر مع الناس فوق رصيف السكة الحديد أو شوارع البنـدر تحتاج إلى راوي بربابة، هي حكايات بسيطة تليق بأي شخص بسيط، تراه سهلا وبلا قيمة ثم تقترب منه وتتعامل معه فيظهر لك شخصا آخر، شخصا غويطـا ومشـحونا بـوعي غيـر محسوب حسابه، وهل كان سلمان أو أحد رجاله يفكر أن شيالا قصيرا مقطوعا وساكنا علـى رصيف محطة بندر منسي في ناحية تبدو منسية سوف يفعل ما فعل لمجرد أن بعض الأكابر فتحوا له الأبواب وقالوا له: قدم اسمك ورشح نفسك ضد سلمان ففعل وكبرت في دماغه ولـم يتنازل أبدا رغم أنه عاش كل سنوات عمره مسكينا بين المساكين يسعى من أجل اللقمـة لـه ولعياله والثوب يستر بدنه وأبدانهم، صحيح أن "شحيبر "بحسابات الكل كـان يملـك "عـرق الصبا" لكن ما فائدة "عرق الصبا" لشيال أكثر من مساعدته على حمل ما يحتاج إلـى حملـه

أصحاب الحاجات؟ وهل كان عرق الصبا يقدر مثلا أن يعينه على إزاحـة همـوم حياتـه أو إبعادها عنه؟ لقد ظل عرق صباه عطلانا وقاعدا على دكة رصيف المحطة حتى أوقفه بعـض الأكابر الخبثاء بغرض الضحك عليه وعلى سلمان فاستقام عوده وبدا للناس أنه أطـول ممـا كانوا يحسبون وأن قدرته على السعي في الكفور والأنحاء لضمان أصوات الأهالي كانت أكبر من قدرات سلمان، وسبحانه الواهب القهار الذي ألهم من فكر في الأمر قبل غيـره وسـاعد "شحيبر "على الانتصاب.

في كفرنا "السوقي" حسب الناس أن المسألة نكتة في أول الأمر، مجرد نكتة علاجهـا بسيط، دعوة من حضرة جناب العمدة الذي هو ولي أمر شحيبر مثلما هو ولي أمر كل نـاس الكفر الذي انولد فيه شحيبر، ثم بضع كلمات من اللوم أو التهديد والوعيد أو الاستهجان لأننـا في النهاية أولاد نفس الكفر ولا يليق أن نقف ضد بعضنا ونضحك علينا الغرباء، وقـد فعـل العمدة ذلك بالطبع عدة مرات، لكن شحيبر كان قد تبدل، كبرت دماغه وما عاد يخاف التهديد، وكانت الأيام تمر وآخر موعد للتنازل يقترب والولد يعاند مثل بغل استرالي، جربوا رشـوته وزودوا قروش الرشوة أو آلاف جنيهاتها فلم يستجب، على العكس كان يخرج ويبوح للنـاس بكل ما سمعه فيكسبهم في صفه، والواقع أن شحيبر كسب عطف الناس بسبب عناده وقدرتـه على مواجهة التهديد بكل شيء ولأبعد حدود التهديد مثلما كان قادرا علـى رفـض الوعـود والإغراءات التي لو صادفها في كل عمره السابق لزحف على بطنه لينال عشـر معشـارها ويحمد الله، عاند شحيبر بكل عزمه على العناد، وعاند بعزم غيره أيضا ممـن كـانوا ضـد حكومة السادات لأسباب لا نعرفها رغم أن الرجل انحنى أمامنا جميعا أمـام صـورة عبـد الناصر، انحنى ووعد بأن يحافظ على سياسته ويمشي على طريقه ونظامه، لكن هؤلاء كـانوا لأسباب تخصهم لا يصدقون الرجل، وربما أرادوا إنجاح شحيبر لكي يصبح مثل لقمة خشـنة وضئيلة في حلق كل أعضاء المجلس الكبير بناسه الكبار، وكان هناك أيضـا أولاد الأكـابر القدامى الذين يحملون ـ رغم إلغاء الألقاب ـ لقب الباشا والبيه، هؤلاء القدامى كرهوا عبـد الناصر والسادات ومن قبلهما محمد نجيب، كان تحديد ملكياتهم في الأرض الزراعية قد أوشك أن يساويهم مع صغار الملاك من أمثل سلمان والناس الشلبي.

كان هؤلاء وهؤلاء يجمعون التبرعات ويقيمون السرادقات ويضعون اللافتات باسـم محمد شحيبر مرزوق الكلاف الشهير بشحيبر ورمزه النخلة، يأتي شحيبر وقد لبس الكشـمير اللائق وطالت قامته وهو يرفع كلتى يديه بالتحية للناس ردا على التصفيق والهتاف، لم يكـن شحيبر يملك القدرة على الكلام أمام الناس، كان في الغالب يكتفي بالوجود في المكان ويتـولى من يتحمس الكلام بدلا منه فيهز رأسه استحسانا أو يقاطع الكلام بعبارة أو عبارتين:

ـ لا.. أنا ح أزود المدارس واعلم عيال الفقراء بلاش.

ـ قوللهم اللحم الفسدان اللي اتباع في السوق مين اللي جابه؟

ـ حشيش إيه ومخدرات إيه؟ إحنا نعرف الكلام ده؟

ـ إزاي بقى.. مهما حصل.. أنا واحد منكم وأقل منكم كمان، أنا لسة يا ناس شـيال على محطة السكة الحديد..

كان الناس يهتفون باسم شحيبر ويحملونه على أعناقهم ويدورون في شوارع البنـدر بمكبرات الصوت التي تدعو الناس لانتخاب "النخلة" التي هي رمزه، وكانت الحريم في بعض الأحيان تزغرد، وعند الانصراف كان البعض يقول للبعض أن شحيبر سـوف يأخـذها مـن سلمان، ويضيفون أن دوار سلمان المبني يفوق من حيث الاتساع والتجهيزات كـل قصـور الأكابر القدامى من الباشاوات والبهوات في كل الناحية والنواحي المجاورة، كان من الواضح أن سلمان سوف يخسر بسبب أفعاله وتباعده عن الناس وثروته التي يشك الكل فـي شـرعية مصدرها وهو من الناس الشلبي الذين لم يسمع بهم أحد قبل جيلنا بجيل أو جيلين في أحسـن الأحوال، لكن سلمان كان يبعث أنصاره إلى رءوس العائلات ليدفعوا لهم مئات الجنيهـات أو الآلاف ليقوموا بتوزيعها على الأفراد ويسألوهم نفس السؤال الذي لا رد عليه:

ـ بقى معقول أن شحيبر يتكلم باسم عيلتكم في البرلمان؟ شحيبر؟

وكان الكبار يطرحون على الصغار نفس السؤال ويطالبونهم باختيار "المسدس" رمـز سلمان، وكان البعض يبوح بما جرى والبعض يداري ويعد باختيـار "النخلـة"، وفـي يـوم الانتخابات تأخر ناس وجاءت ناس، لكن من تأخروا كانوا أكثـر ممـن حضـروا، وسـمعنا إشاعات عن تقدم شحيبر في الكفور والنجوع والقرى وتقدم سلمان في البنـدر وفـي كفرنـا الشلبي، وقال البعض أن شحيبر تقدم في كل نجوع الناحية والبندر والقرى البعيـدة، وتبـادل الفريقان الاتهامات والتهديد بالطعن في الانتخابات إذا جاءت في غير صالحه.

هل مات سلمان في جلده وغاب عن وعيه خلال اليومين بليلتين التي جرى فيها فـرز الأصوات؟ كانت معركته صعبة وقاسية عليه وعلى أنصاره لكنه فاز بفارق هزيل، فـارق لا يكاد يشعره بأنه نجح بحق، نجاحه كان أقرب إلى الفشل إذا وضعنا كل الشكوك في الميـزان، ولا بد أنه لم يفرح بنجاحه كما كان يحلم ويحلم أهله وناسه لكنه على كل حال نجـح وانفلـت وفتح باب دواره لكل من أراد أن يذهب إليه قبل أن يسافر بعد أيام لا ندري لماذا، ذهب إلـى دوراه ناس لتأدية الواجب ولجبر الخواطر أيضا، كان البعض منهم يذهب ويعود ليقـول إنـه كان يداري ضحكته في "عبه "أو "كمه "يبارك بحسب ما يسعفه الكلام، وسـلمان فـي كـل الحالات يهز رأسه ويردد نفس العبارة:

ـ كتر خيركم.. كتر خيركم.

يزعم البعض أنه كان يقولها شاكرا لمن ساعدوه، ويزعم البعض الآخر أنه كان يقولها عتابا أو لوما ناعما لأنهم أجهدوه وجعلوه يسعى بكل الوسائل المسموحة والممنوعة في الخفاء والعلن ليغطي على من خذلوه وتمنوا أن يضحكوا كل ناس الناحية عليه أكثر ممـا ضـحكوا بسبب ذلك النجاح الهزيل الذي حصل عليه.

لعل ما هون الأمر على سلمان هو أن شحيبر لم يطعن في نتيجة الفرز، بل إنه قالهـا لبعض من حرضوه على ذلك قائلا بحسم:

خلاص.. مش ح أطعن ولو انطبقت السما ع الأرض.

كان قد ركب دماغه عناد البغل الاسترالي، أو كان قد تعب هو الآخـر مـن دخـول معركة لا كانت له ولا كان لها، أو ربما فهم الملعوب الذي شـارك فيـه مـدفوعا بأيـديهم وإرادتهم، وربما ـ وهو ما شاع وتردد ـ حصل على المقابل الذي يكفيه ويكفي أولاده، ومن كان يصدق أن شحيبر سوف يمتلك في أي يوم مثل هذا الدكان الكبير الذي انفتح أمـام بـاب المحطة وانكتب على لافتته "بالنيون" "شحيبر وأولاده.. للأحذية والمداسات" وكان يجلس فـي عصر كل يوم على مقعده أمام المحل ويمارس لعبته القديمة التي كان قد أبطلها، ففي أي وقت كنت تراه ممسكا بين إصبعية الإبهام والسبابة بقطعة من العملة المعدنية، يحـرص أن يريهـا لكل من يحيطون ليتأكدوا من سلامتها قبل أن يضغط بإبهامه الخشن على سطحها العلوي بينما سطحا السفلي مسنود على ثنية السبابة، يضغط بعزمه فيمسـح الكتابـة وصـورة النسـر أو الصقر، فيقولون إنه ما زال مالكا بين كفيه قوته القديمة، وأن "عرق صباه" ما زال قادرا على إثبات وجوده.. تماما مثلما كان في السابق يفعل بأي عملة فضية يطلـب منـه صـاحبها أن يمسحها فيمسحها ولا تعود صالحة للصرف وقد انطمست الكتابة وصورة الملك.. أي ملك.

في كفرنا "الفرعوني" يظن الناس أن مداومة رؤية الأموات في الأحـلام هـي نـذير بالموت القريب أو نهاية الأجل، ولأنني أعيش منذ فترة طويلة مع الأموات بحيث كنت أراهم في أحلامي وأستعيدهم فأفكر فيهم في صحوي، قلت لنفسي إنها بداية النهايـة، ولأن المـوت على رقاب العباد ولأنه لكل أجل كتاب، ولأنني ومنذ البداية كنت منـذورا للمـوت فـأنني لا أشعر بالخوف أو الرهبة من مواجهته، ولابد أن البهاليل أمثالي يعشقون الحياة علـى حافـة الحافة إلى حد الاستهانة بالحياة نفسها أو بالموت نفسه، لقد وجدتني هكـذا دون قـدرة علـى المحافظة على شيء، ربما لأنني لم أجد في حوزتي أو من حـولي أي شـيء يـدعوني لأن أحافظ عليه، ولأنه لا يطلع إلى العلالي إلا من يملك سلما للطلوع، ولأنني عزيز الـنفس وإن شح زادها فقد كنت أعيش بينكم أيامي يوما بيوم وساعة بساعة ولحظة بلحظة، عشتها وتعلقت بها لأشبع منها وأتشبع، أفعل ما يرضيني ولو أغضب الأكابر، مؤمنا بأن العمر واحد والرب

واحد، وأنه لا يأخذ الروح إلا خالقها، حتى عندما كنت أمثل دور التابع المطيع كنت أفعل مـا أريد وأرغب، وكانوا في أغلب الأحيان يسمحون لي بمساحة من العفو أو المسـامحة عنـدما أخرج عن حدود المسموح، وكانوا يبررون ذلك بكلام زائف عن عقلي الملطـوش أو لسـاني المفلوت لأنني بهلول، كنت أسمع مثل هذه الأوصاف وأتمادى فـي الخـروج عـن حـدود المسموح، آخذ حقي وبعض حقوق الفقراء، هو نوع من خلط الجد في الهزل أو عجين الهبـل مع الشيطنة ونادرا ما كانوا يكتشفون ما لا أرغب في كشفه لهم، وكأنه كان بيني وبين الأكابر عقد غير مكتوب لكنه محسوس بأن نتعايش على هذا النحو، أنا في الهامش وهم في البـؤرة، أنا في الظل وهم في مناطق الضوء، أنا في منطقة الصدق الخالص وهم في مناطق الأكاذيب المحبوكة والمسبوكة باقتدار، وأنا بلا أملاك أو رغبات في الحيازة وهم أصحاب كل الأملاك وكل الحيازات.

ـ "اللي يتشحت بالبق يتآكل بإيه يا حسنين"؟.

سألني وأنا أمشي إلى جواره وأحتمي بظله من سخونة الشمس، احتـرت ولـم أجبـه وظللت محتميا بظله من سخونة الشمس، لكنني بعدها فكرت وعرفت أن الفـم الـذي يطلـب إحسانا أو صدقة غير الفم الذي يمضغ ويميز طعم الأشياء ويستمتع بمذاقها، كأنه صـعب أن يستمتع الإنسان بخبز استجداه بلسانه، وأنا كنت أراه في كل أحلامي يحمل الخير ويعطيني، لا ينتظر سؤالي، وكأنه داخل في خلايا عقلي وعارف كل ما أحتاج إليه، اللقمة أو جرعة المـاء أو الثوب الواقي من البرد أو السخونة، كان في كل منام يعطيني وأفسر أحلامي لنفسي فأقول أنا عطايا الأموات خير آت، ويعطيني وآخذ منه دون أن أطلب أو أستجدي، لكنه في الآونـة الأخيرة كان يدعوني للرحيل معه، يغريني بمولد السيد البدوي أو زيارة البندر أو حتى الذهاب إلى عمدة كفرنا القديم الذي سمعت اسمه دون أن أشهد زمنه، كنت أسارع بمرافقته في خـلاء الزراعات وأستمتع برفرفة النسيم من حولي وأراه وقد عبأ النسيم جلبابه الأبيض فانتفخ وصار مثل مظلة كبيرة تحمله إلى أعلى، ومن مكانه كان يمد يده ليأخذني، يطالبني بأن أسمح للهواء بأن يملأ جلبابي ويحوله إلى شبه مظلة تحملني وأوشك على الموافقة لولا أنني أنتبه في الحلم وأفسر لنفسي ما يعنيه الصعود إلى أعلى، لا أطاوعه وأكتفي بالنظر إليه وهو يرتفـع مثـل بالون أبيض، يرتفع ويرتفع حتى يختفي في الفراغ البعيد ولا أراه، وساعتها في الحلـم أحلـم أنني فسرت حلمي وأنه ما زال في العمر بقية، هو أبي من يأتيني ويشاغلني كل ليلة قبل تمام الاختفاء، أصحو من منامي فأحدث طيفه الهربان الذي فاتني ولم يقدر على البقاء ليحميني من هؤلاء الذين أهانوه وظلموه وهزموه بشكل مهين، أقول إنه كان من الـلازم أن يقـاومهم، أن يعترض، أن يرد على إهاناتهم بإهانات مماثلة، أود لو دارت عجلة الزمن إلى الـوراء لأراه وأصرخ فيه، أدعوه لأن يبقى من أجلي، يرعاني ويداريني، أحدثه عن الخواء الذي أصـابني

برحيله وأقول له إنه عندما يبقى فلا بد أنني سوف أصير وسط ناس الكفر رجلا معدودا، كنت أرضى ببقائه ولو كان عاجزا أو ضعيفا أو هزيلا أو حتى ساقطا في حسابات الناس لكنه كان من الممكن أن يكون بالنسبة لي ضرورة. كيانا محسوسا يا ناس، يصعب أن أصفه لكم بالكلام، يكفي أنه كان بوجوده قادرا على حمايتي من معايرات الرجال:

ـ أصل أنت تربية أمك يا مدندش.

كنت أرد عليهم وأردح لهم وأهينهم وأعدد للناس مخازيهم حتى يفر الواحد منهم من المكان معلنا أنه أسلم واستسلم، لكنني لم أنتصر أبدا أبدا على من شاكسني بمثل هذه العبارة، كنت أشعر بالهزيمة الكاملة رغم ما يبدو للناس من أمارات الفوز، كان موت أبي الذي يغازلني في الأحلام هو نقطة ضعفي وعار وجودي الذي ورثته منه، عفا الله عنه وحاسب هؤلاء الذين ظلموه وكرهوه في الدنيا ودفعوه لأن يستسلم قبل الأوان.

وكنت أراها وقد جاءت بصدرها الممتلئ وعودها النحيل وقد أوشك على الامتلاء قليلا لكنه ما زال يحتفظ بنحوله، تناديني بصوتها فأطل ناحيتها وأراها وقد أخذت في حضنها بنت حلوة من بنات كفرنا، أي بنت حلوة من بنات كفرنا، كل بنات كفرنا حلوات وفي المنام أحلى، وأمي تأتيني وقد ألبست البنت الحلوة ثوب الزفاف الأبيض ووضعت على رأسها طرحة الزفاف البيضاء. وفي وسط الزحام أرى وجه المأذون وأرى الشاهدين وأسمع صوت سلمان وهو يعترض:

ـ ما يتجوزهاش وهو حافي أبدا، ما يتجوزهاش وهو حافي يا ناس.

وانتبه أن سلمان يقصدني وأنني بالفعل أقف حافيا وبلا مداس، أسعى بين زحام الناس وأسألهم عن أي مداس أو مركوب قديم فلا يسعفني أحد، بل إنهم كانوا يستخدمون مداساتهم ومراكيبهم في الدوس والضغط على القدمين الحافيتين، يمعنون في الضغط وتناديني أمي ويعترض سلمان طريقي إليها والبنت الحلوة في ثياب العرس، أشعر برءوس المسامير الطالعة من مداساتهم ومراكيبهم وهي تنغرس في لحم القدمين، أصرخ وأمد يدي في اتجاه أمي النحيلة فيعترضني سلمان، يتضخم سلمان وقد استند إلى دواره الكبير فصار في حجم الدوار، يصبح سلمان دوارا له أبواب مفتوحة ونوافذ ومساحات من الفراغ وبنايات بقباب وأعمدة ولا أرى سواه، يخرج لسانه الطويل ويكيدني به مثلما كان يفعل وهو صبي صغير، أتذكر في المنام أن سلمان الحي قبالتي ميت منذ سنوات فأغيظه بذاكرتي.

ـ أنت ميت يا سلمان.. أنت ميت.

ويجاوبني من باب دواره المفتوح:

ـ ميت حي.. ميت حي.

أقوم مفزوعا من منامي فأبسمل وأحوقل وأرفض الرقاد مخافة أن ألتقي بسلمان مـرة أخرى وقد تحول إلى دوار، أتعجب من تكرار مطاردته لي في رقادي وقد رحل تاركا للـدنيا خلفة من الأبناء والأحفاد، أعجب لأنه يضن علي ببنت من بنات كفرنا لتكون للعجوز في آخر أيام عمره الونيس والجليس والعوض وبها يكتمل نصف ديني.

وكنت أرى جدي الذي اشتهر في الكفر بحرصه على وضع وردة أو زهرة فوق أذنه اليمنى وقد علقها بجزء من فرعها بين نسيج الطاقية وخصلات شعره التي تسكن تحتهـا، أراه وقد تحول إلى سلطان آمر ومن حوله الأتباع والعسكر، يأمرهم فيأتوا بـأبي مقيـدا بالحبـال ومتهما بسرقة البطة أو الأوز والأرانب وزراعات الغيطان، يدافع أبي عن نفسه بأنـه جـاع فاحتال على الدنيا ولبس ثياب الشطار لتستمر الحياة، يخلع جدي الحسنين السابع زهـرة الأذن أو وردتها ويرميها على الأرض ويوبخ أبي لأنه جعل نفرا مثل عزت شلبي يهينه أمام الغرباء ولم يرد له الإهانة، يشعر أبي بالخزي والعار، يحكم جدي على أبي بالموت غضـبا ويـأمر العساكر بأخذه وأنا أصرخ من ظلم الحسنين السابع فيناديني ويعاود القراءة مـن كتـاب بـلا غلاف تقول صفحاته أن الشرفاء الشرفاء يعابون لأنهم يفسدون شـرفهم بسـرقات صـغيرة وتافهة لا تفيد، وأنه في نفس هذا الكتاب يترك لأكابر اللصوص حق ارتكاب كل الخطايا وقتل النفوس وهتك الأعراض وسلب الأموال من جيوب الفقراء والطعام من أفواههم لأنهـم بـلا شرف ولا يصح تأنيبهم أو لومهم، أطاوع جدي وأخرج معه لكـي يعطينـي زهـرة أو وردة أضعها ـ مثلما كان يضع زهرته أو وردته ـ في أعلى أذني اليمنى وأدس عودها الصـغير تحت قماش طاقيتي، وأصير في هذه اللحظة أنا هو الحسنين السابع لـولا أن سـلمان يـأتي ويخطف الزهرة أو الوردة فيتحول سلمان إلى جدي وأعود كما كنت أنا الحسنين التاسع وقـد فقدت أبي.

وكنت أرى سلمان أيضا في كل مراحل عمره، في طفولته وصـباه وشـبابه، وفـي رجولته وكهولته وقبل موته وقد انحنى عوده واستند على كتف واحد من أحفـاده، كنـت أراه وأحزن من أجله فيعايرني قائلا في كل مرة.

ـ احزن على حالك.

فأحزن ثم أنفض عن نفسي حزني وأفيق لروحي لأكتشف أن ما كنت أراه هو حلم أو كابوس عبيط، وأتعجب من أمر تلك الأحلام التي تتشابه مع ما أراه وأنا صاح لروحي، ومـن تلك الحقائق التي أعيشها وهي تشبه أمثال تلك الأحلام أو الكوابيس، يختلط كل شـيء بكـل شيء، الأحلام البعيدة مع الأحلام القريبة، الكوابيس مع الواقع الذي أراه، يصبح ما أراه فـي الواقع وما أحلم به مجرد عجينة واحدة أتحسسها في الصبح والظهيرة وفي بدايات الأمسـيات ونهايات الليل الساكن وساعات ما قبل الفجر، يختلط كل شيء بكل شيء، ويـزدحم الـدماغ

بأشكالهم القديمة، أمي وأبي وجدي وسلمان أخي وشقيق عمري وكل من ماتوا واندفنوا وأراهم في الأحلام ثم أعاود رؤيتهم في الصحو، أقـول إن الأمـوات يحاصـرونني ويطـاردونني ويمهدون الطريق لرحيلي إليهم ويمنحونني في كل مرة الإشارة لأقطع ما تبقـى بينـي وبـين الناس والحياة من خيوط، يساعدونني على أن أنهي ذلك التعلق العبيط بما تبقى لي مـن أيـام لأنه قليل قليل ويدعو للغضب والاعتراض عليه بالرحيل والخلاص..

لكنني بعد الفجر أراني وقد قمت واغتسلت وذهبت إلى زاوية أولاد عـوف أتوضـأ وأصلي فجرا جديدا حاضرا مع الجماعة ثم أجلس علـى رخامـة الصـهريج وأرى البنـات العذارى الصاحيات في البكور وهن يحملن الجرار أو الصـفائح الفارغـة يتنـادين بـدلال ويتضاحكن بدلع وقد تنبهن لوجودي، يتباطأن أو يتعجلن الخطوات أمـامي، كـأنني عـريس مرغوب يستحق أن تعرض عليه كل البنات جمالهن ويتركن له الحق في الاختيـار، أشـعر بالحيرة فكل بنات كفرنا جميلات، وأنا البهلول الحاوي والزمار الطبال الباقي أقدر أن أعطـي نسلا جديدا ليكون لكفرنا "الغفلان" ولا يزال طبالا جديدا وزمارا وبهلـولا اسـمه الحسـنين العاشر.. وحدوا الله.

فهرس

الموضوع الصفحة

حكاية شوق

في كفر عسكر

" يدور الزمان فتطلع على
سام الحياة ناس وتنزل ناس
ودوام الحال من المحال "

شوق شلبي

كأنها صرخات الأطفال الأولى ساعة الميلاد تستعيدني وتشد عزمي بعد هدة الرقـاد لأقوم وقد تخلصت من كل وجع، تغازلني وأنا مكوية بلسعة الفقد منكمشة على نفسي أو محنية لعاصفة الفراق فأراني واقفة أطل في البعيد قبل أن أدخل في زحمة الأحياء، أقول لنفسي وأنا راجعة وسطهم أن النار الحارقة تبردها دورة الأيام، تختلط في قلبي وأنا أسرح بفكري مشاعر الفرح الشحيح والأحزان فلا أميزها، ويتبدى لي أنه زمان واحد ذلك الذي فات وما هو حاصل وما سوف يجيء، تتشكل الخيالات شخوصا أناجيها وتجاوبني دون صوت مسـموع، وحيـدة وأنا راجعة من سكة المدافن وإن كانت محاطة بالأحياء، أحاور الأمـوات وأسـكت نفسـي بنفسي، يتبدل ناس الكفر وتتبدل البنايات ولا تكف الشمس على الطلوع فـي كـل صـبح أو الغياب في كل مغرب، يموت الأب ويختفي الولد في اليوم المحسوب، وترحل العمة وقد خلفت في القلب مرارة من نوع جديد، ربما هي خدعة العمر فيمن وثقنا فيـه وأسـلمنا لـه قيادنـا باطمئنان لا يجوز، وماذا أخذت منها غير الوعود ثم الوعود وقد فرت الآن مني وما عـادت تعود لأعاتبها على فعلتها، وكيف ألم حكاياتي معها في جعبة وأسك عليهـا فـلا أرويهـا إلا لنفسي، تكويني وأتوجع وحدي وأتحاشى نظرة الشامتين؟

هل كنا في القاعة بالأمس ليلا وعلام يخبط كفا بكف منكرا ومحرضا لي وأمي تجلس مشدودة الرأس بطرحتها ومسنودة به على كفها، غفلانة وعلام يسأل:

ـ تبقى اتلحست في نافوخها بصحيح.. زعتر المواوي يا حاج؟

والحاج مرسي حائر متردد قبل أن يرد.

ـ الولد ده ح يشفط الحليبة والرايبة، خايف تطلعي من مولد عمتك بلا حمص يا شوق يا بنتي.

كان وجه علام الغاضب يتابعني بقلق، وكانت رأس أمي تميل علامة الاستغراق فـي النوم أو التظاهر به، وكنت أحسب أن مفتاح الحل معي، وأنني أقدر علـى إعادتهـا ببضـع عبارات إلى مركزها في عقول الناس، ربما أفلح في إقناعها بالخلاص من زعتر والعصـمة في يدها مثل كل المرات فلا مستحيل، وضعت على الرأس غطاءه فارتاحوا، ربما اطمـأنوا بعض الشيء لأنني قررت الذهاب بعد الرفض مرارا، كنت أرتب الكلام فـي عقلـي وأنـا أتحسس بأطراف أصابع القدمين فتحتي المداس المحطوط في " بحراية " القاعة:

ـ اللي زي دي يتحجر عليها يا سي الحاج، مش كدة، دي عدت الثمانين.

سمعت صوت علام يقولها وأنا أخرج من باب الدار وأتوجه إلـى دار العمـة لأرى العجب، امرأة سمينة قاعدة طولها أقصر من عرضها وقد غاب عنها عقلها الموزون الذي كان

قادرا على تسيير عائلة بحسب إرادتها رغم الشوارب والشهادات والأملاك، دكاكين وجرارات وطواحين وعربات نقل وركوب، وكان زعتر ابن العبد المواوي يجلس إلى جوارها وقد خلع ثياب الأنفار ولبس الكشمير فبدا مثل عود القصب الممصوص، ابن العبد الهارب من خدمـة الجيش أيام الحرب الذي تسترت هي عليه أيامها باعتباره خادمها الذي يقضي لها الحاجـات، كانت تبريش بعينها لتتحقق مني والولد يضاحكها وتمتد يداه المتشققتان إلى لحم أطرافهـا دون حياء في وجودي وكأنه ينكرني:

ـ بنت أخوكي وصلت يا ست الكل.

ـ بالسلامة.. بقى ما تحضريش كتب كتابي يا غالية يا بنت الغالي؟

قالت هي بسخرية مستفزة قبل أن تنطلق وينطلق بعدها في ضحكة ممطوطة أخجلتني وجعلتني أندم لأنني جئت بوهم أنني سألتقي بنفس العمة التي عرفتها عمري والتي كانت فـي كل شيء تختلف عن تلك الكتلة من الشحم واللحم التي تتضاحك بشكل منفـر وكأنهـا جنيـة طالعة من تحت سابع أرض لبست ثوبها وجلست مكانها، وللمرة الثانية في حياتي خفت منهـا فاستدرت خارجة ولم أجرؤ على الإطلال إليها أكثر أو سماع ما كانت تقوله وهـي تشـيعني بالكلام وتضحك مع الولد زعتر المواوي.

في الليل فاتحني علام في ضرورة الحجر عليها وكيف أن المحـامي أوصـاهم بـأن تكون قضية الحجر باسمي، أعاد على مسامعي أن كل ما تملكه العمة من حقي وهـو لـيس بالقليل لأسكت كل هذا الوقت، وافقته على الذهاب في الصباح لعمل ما يلزم، وبدا لي أنني لم أنعس كثيرا قبل أن أسمع صوت زاهية يندبها قبل الضحى، وعندما ذهبت إلى دارها أفسـحوا لي الطريق لأراها على " درابة " الغسل راقدة، وبدا لي أنها انكمشت كثيرا وتخلصت من كتل الشحم واللحم الزائدة، وأن تجاعيد وجهها اختفت وبدت لي كما كانت في السـابق وأحببتهـا عمري، كفنوها ورشوا على بدنها الساكن زجاجات العطر "وبعبعوا" بكل ما يمكن أن يقال عن زعتر الذي كنس كل ما كانت تملكه وتحوطه وتحميه لصاحب النصيب الذي حرمني في آخر أيامها من حقي وأنا وريثتها الوحيدة الباقية، وفي عصر نفس اليوم دفنوها في قبرها الذي بنته لنفسها وأوصت في حياتها بألا يشاركها فيه قريب أو غريب ولا ينفتح بابه أبدا ليوم الدين.

كانت سيرته تنفتح في أمسيات المواسم والأعياد فينقلـب ميـزان الـدار، تتـوارى الضحكات وتتخفى ويعشش الصمت الحزين. كنا نميل لتصديق أنه جاء إلى الدنيا قبلنا ورحل عنها دون أن نراه رغم الوساوس التي كان يزرعها في عقولنا شيطان كافر بأنه ما كـان ولا صار أبدا، لعلنا كنا نحتاجه مثلهما وأكثر، ننسى شكوكنا ونتحدث عنه للبنات في مثل أعمارنا وكأنه حقيقة فنتعرض للتكذيبات والسخريات، كنا نتخيله شابا في مثل عمر البكري وإن كـان

أكثر منه جمالا وأخف ظلا، كنا نتحسر معهما على ما كان ونتخوف مما سـوف نلقـاه فـي مستقبل الأيام.

اعتدنا أن يدخل أبي في تلك الأمسيات متأخرا على غير عادته، وقد تغيرت ملامحه، لا ينظر إلى أية واحدة منا أو يلاغينا، غاضب على الدار والدكان وناس الكفر، القريب مـنهم قبل الغريب، يجلس في ركن القاعة ويصب اللعنات، يسود الحذر والقلق وتكتفي هي بـالنظر إليه حتى يستغفر ويزفر ثم يتنهد، تدور بنظراتها في الأركان، وتنحط على وجوهنـا وكأنهـا تستشيره فيهز رأسه بإيجاب تقوم وتدحرج الطبلية، تحطها في منتصف القاعة وتسبق البنـات إلى صحن الدار، أسمع أصوات الملاعق والأطباق وخبطات المغرفة في قيعان الحلل، تمتلـئ صينية العشاء النحاسية ونلتف حولها، تدعوه للبدء بنظرة وهمسة:

ـ لأجل خاطر البنات.

يظل رأسه مائلا حتى تلامس حلمة أذنه اليسرى ثوبه من فوق الكتف، يبقى فترة على تلك الحال، غارقا في التفكير ودخان العشاء يتصاعد، لا تمتد يد أيـة واحـدة منـا ونقـاوم الرغبات، ويكرر عبارته التي سمعناها بنفس الإيقاع في مساء الموسم الفائت:

ـ لو كان الولد ده عاش ما كنتش راسنا ميلت لحد.

كان الحزن يشملها والعجز يحوطها وأن جرؤت تقول بحسرة:

ـ يا كبدي.

تقولها وهي تبتعد مسافة عن طبلية العشاء وتقول أن نفسـها " مصـدودة " عـن زاد الدنيا، تتبادل النظرات وتقوم البنات لحمل الأطباق حتى تخلو طبلية العشاء، تزيحهـا وترفـع قوائمها لتسندها مكانها جنب الجدار، نتكوم في الأركان ونكتم الأنفاس، ربما نسمع عواء كلب غريب ويستعيذ هو بالله من الشيطان، ربما نراها وهي تطرد براحتيها الشر "بعيد عنا.. بعيد" ربما يتباعد صوت العواء بعد مدة تطول أو تقصر لكنها تخاف في نفوسنا رهبة، يخبو ضوء المصباح أو يبدو لي أنه خبا وقد عادت هي من الخارج وجلست على طرف السرير محلولـة الشعر ورأسها مسنود على راحتيها المفرودتين المرتكزتين على الركبتين:

ـ ابن عمي وشمتان فينا يا أم البنات.

يقولها أبي بصوته المنكسر وعيناه سارحتان في الفراغ البعيد، لا ترفع هي الرأس أو تحركها، تثبت على حالها، ملمومة على نفسها حتى يقوم هو من جلسته ويصعد بثقله مسـنودا على قوائم السرير، يئز الحديد بينما يتمدد هو بينها وبين الجدار، يحادث نفسه متشكيا:

ـ زي ما أكون مش قادر أصلب طولي.

تقوم هي وتغطيه، ترمي علينا حرام الصوف مفرودا على اتساعه فيجلب إلينا الهـواء الرطب أولا ثم نستشعر الدفء ببطء، يشحب ضوء المصباح تماما أو يسيطر الظلام، ورغم

صحونا جميعا لا يوجهان إلينا أي حديث، يتبادلان الكلام همسا مسموعا ربما بنفس البـدايات والنهايات التي سمعناها قبلا:

ـ يعني لو كان عاش كانت الدنيا ح تنهد؟

ـ نصيب.

ـ نصيب أغبر.. ما لحقناش نفرح بيه.

ـ قادر يعوض عليك.

ـ يا ريت.. لجل خاطر الولايا دول.

كانت البنت عطيات تتحرك تحت الحرام، وأحيانا كانت تحاورني بصوت خافت فـلا أسمع المزيد، يعلو صوتها وكأنها تعلن صحوها فتأمرها نعمـات بالسـكوت وأن تنـام، وإن أطاعت يسود صمت أو نسمع أصوات العابرين في الدرب أو نقيق ضـفدع فـي المصـرف القديم، تلبد البنت في حضني كأنها تهرب من جني يطاردها، أشعر بيتمي ويتمها رغم وجـود الأب والأم، أسمع صوت نعمات وهي تتنفس بعمق، وربما تتحسـس شـعري المحلـول أو أتحسس شعرها بينما تغرق جواهر في نوم حقيقي ويصدر عنها شخير خافت لا يكف، أشـعر على نحو غامض أن جرحنا غويط وربما لا يطيب، أن النار التي تكويها قد لا تنطفئ أبـدا، ويبدو لي أنني أعاود السماع لكلام سمعناه مرارا:

ـ كان ابن موت، أبص له يضحكلي، فيه في الدنيا عيل ابن يومين يعرف أبوه؟

ـ اللي تحت الأرض خبطوه، كان يا ضنايا مطرح الكف في ضهره بالخمس صوابع معلمين.

ـ وعنيه مفنجلة وصاحية.

ـ ربنا ح يعوض عليك.

فكرك؟

ـ شد حيلك ولا تزهقش روحك بس.

ـ أما نشوف أخرتها.

يقول ويزفر، يستغفر في حرارة ويغمغم في قوة، وربما أصحو على صوته ينهج فـي استسلام وتراخ، يسألها في همس إن كانت غطيتنا جيدا فتطالبه بألا ينشغل بأمرنـا، أسـمعها تواسيه ويواسيها ويحلمان معا بولد آخر يجيء، أسمع ضحكاتها الخافتة التي تتوارى وتتخفـى ووصاياه لها بالحرص والسكون، ربما أصحو على صوته المسموع:

ـ العيال رقدت من غير عشا.

فأشعر بها تنزل عن السرير، تتحسس بقدميها أرضية القاعة حتى لا تدوس إحـدانا، تعالج المصباح فيبعث ضوءه من خلال فتحات الحرام القديم، تخرج هـي وتسـمع نحنحتـه

ونداءاته المتكررة علينا بالاسم، نتناوم إلا عطيات التي تقوم، تصعد إلى السـرير فيضـاحكها ويأمرها بأن توقظنا:

ـ دي ليلة مفترجة يا عيال.. قوموا سخنوا الأكل.

تقوم نعمات، تلملم خصلات شعرها الناعم وتربطه بالمنديل وتزغد جواهر التي تقـوم مفزوعة تدعك عينيها وترجوها أن تتركها لتنام، لكنها في كل الحالات تقوم، تخرج الواحـدة في أثر أختها، وقد تدخل أمي على القاعة وقد تلف نفسها بالحرام طلبا للدفء الـذي خلفنـاه، وفي صحن الدار كانت البنات يتبادلن الأحاديث حول نفس الموضوع:

ـ طيب كان اسمه إيه الولد ده؟

ـ يا بت دا مات قبل السبوع بيومين ما كانوش سموه.

ـ طيب اندفن فين؟

ـ اندفن مطرح ما اندفن.

ـ اغرفي يا ختي وبطلي قلة أدب.

تنفلت الضحكات منا غصبا وقد يسمعان، ربما يستفسر هو أو هي عن الأسـباب دون اعتراض وربما يتضاحكان ومن جديد تنحط الطبلية في وسط القاعة ومن فوقهـا الأطبـاق، تعدل له المسند ويجلس وسطنا، يلاعبنا ويسلينا ويحدثنا عن فرحته بخلفتنا، يقسم علينـا لحـم الطيور ويناولها نصيبا، تأخذ منه ما يكفيها وتضع الباقي فوق نصيبه فلا يعترض، يأكل بشهية فتنفتح نفوسنا ونأكل وهو يحكي وتسايره:

ـ المرسي جاني قبل المغرب بساعة، قعد على باب الدكان ما تعرفيش كان طمعـان ف إيه؟

ـ هو الراجل ده ما بيشبعش؟

ـ ما سألتش فيه، سرح بعيد ورجع، وقف قصادي قال اللي قلت لك عليه.

ـ ينقطع لسانه.

ـ كان عامل أنه بيضحك وهو قاصد يقهرني.

ـ ينقهر على أغلى ما عنده.

ـ قال مين ح يرضى ياخد واحدة من بناتي قال.. ومن يطول؟ وإيه يعني ما لهمـش أخ يترد عليه؟

ـ حس أبوهم في الدنيا.

ـ أنا قلت له اخرس يا خنزير، سمعها وما ردش.

ـ بناتك ألف مين يتمناهم.

ـ داني عندي الوحدة منهم بألف راجل.

يقولها ويضحك منتشيا، يتأملنا الواحدة تلو الأخرى بنظرات مباهية وراضية وربمـا حالمة بخلفة جديدة من الأولاد، ربما ينسى أو يتناسى أشواقه للولد، وربما تتزايـد الأشـواق، لكن الصحو يزداد في العيون ويمتد الوقت بنا وتتشعب الحكايات بعيدا، بعيدا عن تلك البدايات الحزينة، نشعر بالفرح يغزونا في نعومة، وربما نسمع أذان الفجر من زاويـة أولاد عـوف، وربما لا نسمع ونفاجأ بشروق النهار.

ـ ما حدش بيموت ناقص عمر يا سعاد.

قلتها للبنت رغبة في تخفيف حزنها على سيد فأطلت ناحيتي بغضـب، قامـت مـن قعدتها، علها خافت أن تلومني على قدرتي على الاحتمال، لو دخلت هي قلبي لعرفت إلى أي حد اكتويت بناره، هو قطعة مني، حملته في بطني وشفت فيه المرار قبـل مولـده وبعـده، عجزت عن إرضاعه أو رعايته، حرموني منه قبل الأوان بألف أوان، سلمت أمري لله ولهم وظل طيفه طوال العمر يشاغلني من بعيد، كنت أتذكره في كل وجبة وأسال نفسـي إن كـان شبعانا أو أنه جائع، كنت أراه في وجوه من رافقوه زمن الميلاد وأكتم لهفتي عليـه وأحـرم لساني من مجرد ذكر اسمه، أقول لنفسي ما قيمة الحديث عنه وقد كنت فـي كـل مـرة أرى نظرات الاستنكار والملامة، في أول الأمر كنت عندما أفكر فيه أو أشتاق إليه أبوح بـالوجع فيتحدثون طويلا عن حكايتي مع حسن، أشعر بالغيظ لأنه من الصعب علـي أن أنسـاه أو أن أصدق ما يقال أنه لا بد سوف يكون مثل أبيه، وبمرور الأيام عودت نفسي أن أكتم أشـواقي لرؤيته، أن أكف عن مجرد السؤال عن أحواله، كان جرحي الغويط مدفونا في أحشائي، أناجي نفسي وأتخيله، ابتسم إن سمعت عنه كلمة ولا أظهر لهفتي عليه أمامهم لكنه كان ولدي. لحمي ودمي وجرح عمري.

ـ مش مصدقة نفسي.

قالتها سعاد وهي تقترب، في عينيها سؤال تخجل أن تواجهني به، استبعدت أن تكـون عاجزة عن فهم مشاعري وهي بنت المدارس التي تعلمت والتي كنت في الأيام الأخيرة أبثهـا أسراري وأشركها في همي، همي القديم الذي تجدد وتجسد في ميت أكدوا أنه لا يخصنا فـي شيء، حتى أقرب الناس لم يكلفوا خاطرهم لتعزيتي فيه بأكثر من الكلام العابر، كان العـزاء هناك في الناحية الأخرى، في دار عبد القادر القديمة، وكان حسن نفسه يطوف دروب الكفـر كما يقولون ذاهلا عن نفسه يتمتم بحروف اسمه بعلو حسه، يناديه ويجردني من حقـي فـي مشاركته الصراخ أو الإعلان عن فجيعتي فيه، كانت النظرات التي تنصب علي وهم يذكرون كيفية فقدانه لعقله بعد موت سيد تميتني، تكويني بنار أشد قسوة من مجرد طلقة غادرة أصابت دماغ شاب جاء يزور أمه بعد أن زال همه بعيدا عنها وما نساها أو نسـيته، علـى الوجـه المغدور بسمة، والملامح السمراء حازمة تتطلع بأمل في مستقبل يطمئن إلى إمكانية تحقيقـه،

هل كنت قد قرأت في آخر زيارة له حزنه على شبابه الضائع قبل الأوان بـلا ثمـن؟ وهـل حدثتك يا سيد عن خوفي عليك من ناس الكفر مرة، وهل ركبني كابوس رأيتـك فيـه تسـقط بضربة غادرة؟ ليتني أكون قد بحت لك بهواجس عذبتني، وليتني أستطيع الآن أن أبوح لسعاد بضعفي وعجزي ووجعي الذي يتخفى ويتوارى، يداريني خلـف عبـارات عـن النصـيب والأعمار والمقسوم لنا، مجرد كلام موزون أكذب به عليهم ولا أصدقه وأسـمع مـنهم فـي المقابل تلك الصفة الزائفة بمناسبة وبدون مناسبة:

ـ عاقلة.

ليتني أملك الحق في جنون مثل جنونه، فها هو يأخذه مني ميتا كما أخذه في السـابق طفلا حيا يتلوى من قسوة الانتزاع وأنت الآن حر في أن تعلن للكل أنه ابنك وحـدك. سـاكن المدافن الحي باختياره يكسب وأنا أخسر، ولا قيمة إذا أعلنت حزني أو دخلت معـه السـباق الخاسر، ومن يصدقني إن فعلت ووصفت له قسوة النار التي تسكنني ولا أمل فـي انطفائهـا بآلاف الصرخات، حتى لو تحول ما تبقى من العمر إلى زعقة وحيدة محدودة أندب فيهـا أول خلفتي وأول فرحتي، أول من حملته في بطني وأول من أحياني بعد موات لحظة أن سـمعت صرخة مولده في القاعة، ولمن أحكي يا سعاد إن لم تسمعيني وتغفري لي ذنبي إن كان طول احتمال فراقه ذنبا أستحق عليه الغفران، وإن لم تفهميني أنت وأنت امتدادي فمن يفهمني مـن الغرباء؟.

وكان جدنا هارون ابن الحاج هارون شلبي يجمع أولاده وأولاد أولاده في صحن داره البراح التي بناها على السكة الزراعية خارج زمام المباني في مكان زريبة جعفر البياع تلـك التي اشتراها منه مع الفدانين، يجمعهم بليل في الأمسيات المقمرة الساكتة ويحدثهم عن جـدنا الملك الشلبي:

ـ كان جدكم الملك الشلبي فارس فرسان قبل زمان دياب وأبو زيد الهلالـي سـلامة بألفين سنة وأكثر، حكم الدنيا المسكونة في زمانه ميتين سنة وخمسة، اتجـوز حـريم كتيـر وخلف عيال كتير، وخلفته اكترها كان صبيان، كانت الجارية من عبيده اللـي تخلـف ولـد يعتقها، يديها بلد تحكمها باسم الولد لحين ما يكبر ويصير علها ملك، واللي كانت تخلف بنـت تفضل معاه في الحريم لحد ما يجيلها يوم تولد ولد، حريم كثير كانت على ذمته وما خلفـوش صبيان، جوزهم للعبيد، عبيده كانت كتير يسدوا عين الشمس، لكن العبيد ما لهاش أمان، زيهم زي الجواري اللي بلا خلفة، ويوم ما مات الملك الشلبي هاج العبيد والجواري حريم العبيـد، حاربوا الملوك اليتامى والحريم الأرامل، خربوا بلاد عمرانة ونشروا الفسـاد فـي الأرض، حكموا بلاد وفاتوا للملوك بلاد، وطلعوا بالكدب ع الملك الشلبي كلام ما لوش أساس وصدقوه الناس، قالوا على سيدهم وولي نعمتهم عبد مجلوب زيهم وما لوش وطن ولا أصـل، وقـالوا

عنه راعي غنم والزمان عطاه، وقالوا قاطع طريق وحرامي، وقالوا وقالوا وتاهت الحكايـات وطالت الحرب بين الملوك من سلسال الملك الشلبي والعبيد. كسبت العبيد بلاد وكسبت الملوك بلاد، خطف العبيد مماليك من نسل الملوك وباعوهم في سوق العبيد، خلق منهم هربـت فـي بلاد الدنيا الواسعة، لكنهم حافضين حكاية جدنا الملك الشلبي. وفين ما تروح في بـلاد الـدنيا الواسعة تلاقي فرع باقي من سلسال الملك الشلبي، حتى لو غيروا أسامهيم خوفا من ظلم العبيد ح تعرفهم، وشوشهم تشبه وشوشنا كدة، وعيونهم تشبه عينين فطـوم، مكـان مـا تـروح ح تلاقيهم، تعرفهم ويعرفوك، بينك وبينهم شبه وكلام قديم محفوظ ودم يحن".

كان يراني فيقوم من فوق كرسيه المرتفع، يقترب مني ويحملني بقبضتيه إلى صدره، يحضنني بحنو يربت على ظهري، يبتسم لي في ود ومحبة وربما يجلسني فوق ركبتيه فأتطلع إلى الخضرة في عينيه، وقبل أن يعيدني إلى أبي يدس في كفي قطعة من قمع سكر أو قالـب مستطيل ناعم الملمس، كنت أحتفظ بتلك القوالب أو قطع السكر حتى تنتهي السهرة ويكف هو عن الحكى عما كان، وكان أبي ينتبه لذلك دائما في مشوار عودتنا فيطلب مني الإسراع بأكل قطعة السكر، كنت أقطع حوافها بأطراف أسناني قطعة صغيرة فـي أثـر قطعـة، أسـتطعم حلاوتها على مهل دون رغبة في الخلاص منها على عكس إرادة أبي الذي يكون راغبا فـي إنهائها في أسرع وقت، كان يزغدني برفق ويتعجلني:

ـ يا بت ابلعيها بقى، السكر ما هو مرمي في البيت وفي الدكان.

وعلى غير إرادة مني كنت أستجيب وأطحن قطعة السكر بين أسناني طحنـا هينـا، أتسمع برطماته بعد " القرقشة " على عادته في كل مرة وهو يتهم الجد هارون بالشطارة فـي الكلام الفارغ الذي لا ينفع ولا يشفع، كنت لا أرتاح إلى تلك الجسارة في التطاول على الرجل الطيب ولا أعرف كيف أدافع عنه، وكنت في كل مرة أرغب في سؤاله كيف استطاع أن يكره ذلك الوجه الصبوح الباسم ذا العينين الخضراوين بزرقة واللتين تشبهان إلى حد كبير عينـي عمتي فطوم.

ـ اللي زيه ما وراهش حاجة يخاف عليها، إنما إحنا متعلقين من عرقوبنا.

كان يحدثني عن رأسماله الذي يتوزع في ذمم خلق الله، وعن ديونه لنـاس غيـرهم وكيف أن التاجر الناصح لا يحق له أن يعادي أحدا، حتى خصومه لا يجوز لـه أن يعـاديهم علنا، يسايرهم ويكسب منهم ويبش في وجههم، كنت لا أشغل نفسي كثيرا بكلامه ونحن نقطع الطريق في ضوء القمر ناحية الدار، وكانت كلمات الجد هارون تطـن فـي أذنـي ويتـردد صداها، أستعيدها وأرغب في ترديدها لنفسي، لكن صوت أبي كان يعلو كلما ابتعدنا عـن دار الجد أكثر حتى ليوشك صوته أن يكون صراخا في فراغ الحقول:

ـ مش ح يهمد غير لما يشعال في الكفر نار.. الخوف يسقط مننا نفر ولا نفـرين، دا عايزنا ننطح دماغنا في الحيط يا شوق.

كان يسرع خطوه المتمهل ويعلو صوته أكثر فأسرع في أعقابه حتى يبللنـي العـرق وأستعيد وجه الجد هارون الذي كنت أحبه أكثر من أي واحد مـن أولاد شـلبي حتـى تلـك الظهيرة التي جرسوا فيها جعفر البياع ورحت أتفرج وسط الأولاد والبنات.

كان جعفر يركب الحمار بالمقلوب، وجهه ملطخ بالدقيق "العلامة" وعلى الرأس قرص من روث البهائم الجاف وقد ربطوه إلى أسفل الذقن بخرقة بالية، كنت أردد معهم مـا كـان يحدي به حسنين المدندش والطبلة تحت إبطه تجلجل مع صوته، يحدو ونرد عليه:

جعفر باع غيطه	يا عيب الشوم
واتهدم حيطه	يا عيب الشوم
جعفر باع داره	يا عيب الشوم
ونقص مقداره	يا عيب الشوم
ولا عادش يساوي	يا عيب الشوم
ديل جحش حصاوي	يا عيب الشوم

وجدته واقفا، كأنه جني طالع في عز الظهر، عيناه الخضراوان بزرقة لا تحملان ودا والوجه عابس، ولأول مرة في حياتي خفت منه، ذابت من ذاكرتي حلاوة كل قطع السكر التي كان يمنحني إياها، فكرت في الفرار منه لكنه أمسكني من معصمي بقسوة وجرجرنـي بعيـدا عن الأولاد بشدة دون أن ينطق، تباعدت زفة حسنين المدندش وحزنت لحرماني من الفرجـة على جرسة جعفر البياع، جرجرني بعنف لم أجربه قبلا ولم أتوقعه منه أبدا حتى وصل بـي إلى بنايات " الواطية " ثم دفعني دفعا لأدخل من باب دارنا الموارب، كنت أبكي بحرقة مـن أثر مسكته لمعصمي، وكان أبي يجلس على جذع النخلة المركون في صحن الدار، كان يطـل إلينا ولا يعترض، بل إن الجد هارون راح يوبخ أبي ويسبه ولا يرد، يطل فقط، ولا بـد أنـه كان يسمع أيضا ويوافق على ما كان يقوله الجد بأن تجريس جعفر البياع فضيحة لكـل أولاد شلبي فالرجل لم يقتل أو يسرق أو يخرج من دين محمد، ولأن أولاد عوف يقصدونه شخصيا بهذه الجرسة فسوف يدعو أولاده وأولاد أولاده لتخليص جعفر من هؤلاء الظلمة مـن أهـل العمدة ومن يتصدرون لحماية العمدة:

ـ لهم حق يتفرعنوا عليكم، مش لاقيين حد يردهم.

كان أبي على حاله، يسمع ولا يرد على الجد هارون:

ـ واحد وباع أرضه وداره، لهم في كده إيه هما عايزين يسيروا الدنيا على هواهم؟

كانت يده المرتعشة قد انفكت عن معصمي فأسرعت أمي لتسحبني في المكان وكأنها تهربني من عقاب لا بد يحل بي إذا بقيت في المكان، غسلت وجهي وجبهتي وأنفي ورطبت أطرافي بماء الزير البارد وأمرتني بالشرب لترطيب جوفي أيضا ففعلت، أخذتني إلى القاعة وراحت تسرح شعري، كنت أسمع صوت الجد هارون وهو يحذر أبي من أن أعاود مشاركة الأولاد في جرسه جعفر البياع:

- إن شفتها بترمح ورا حسنين المدندش يا عبد الستار ح يكون بحش أجلها.

قالها ولم أسمع عليه ردا، وساد صمت ثم ارتطم باب الدار الكبير، لا بد بيد الجد هارون وهو خارج منها، كنت أتسمع صوت حسنين المدندش وقد وصل إلى درب المغربي يحدو:

أهي خيبة وحطت	يا عيب الشوم
ناس عالية ووطيت	يا عيب الشوم
ناس واطية وعليت	يا عيب الشوم
ناس خالية وملكت	يا عيب الشوم
ناس مالكة وخليت	يا عيب الشوم

وفي الليل حدثتني نعمات عن خروج جعفر البياع من الكفر بعد أن ربطه العمدة في النخلة أمام دواره وضربه بالكرباج، وأن العمدة طلب عبد القادر في دواره لتدبير عراك مع أولاد الجد هارون وأن أبي خائف على تجارته إذا تجدد العراك وأن البلد مقلوبة وأن الجد هارون كتب في العمدة بلاغا، شعرت بالخوف وخفت غضبتي من الجد هارون وتمنيت لو كنا أولادا وشاركناهم في العراك، ضحكت مني نعمات وأخذتني في حضنها ونمنا لنصحو على أصوات الرجال في المندرة يطالبون أبي بالدفع أكثر ما دام لن يشارك في العراك وأبي يطلب من الجد هارون الرحمة والعدل والبعد عن الشر:

- ولا كان له لزمة ده كله يا با هارون، هو أنت عامل نفسك مغسل وضامن جنة لجعفر كمان؟

فيرد عليه الجد هارون بصوته الغليظ آمرا بحسم.

- إن ما كانش ح يبقى لنا عزوه في الكفر ده وهيبه تبقى أنت أول الخسرانين، رسمالك وشرف بناتك، ح تدفع يا عبد الستار ولا مالناش دعوة بيك من بعد النهاردة؟

كان يتحرك في أركان المندرة مثل فأر دخل مصيدة فلا هو قادر على الخروج منها ولا مطمئن للبقاء فيها، توجه ناحية دولاب الحائط، فتحه وهو محاصر بنظراتهم، أخرج أوراقا حمراء، عد منها لا أدري كم وناولها للجد هارون، لا أذكر ما قاله وهو خارج ومن خلفه رجال العائلة لكن الذي رأيته هو جلوس أبي على طرف الكنبة مطرقا برأسه حزينا

بحق، لم يلتفت إلينا ونحن إلى جواره أنا وعطيات إلا بعد فترة طالت، لحظتها اجتذبنا إليه في حنو وحدث نفسه:

ـ لو ما كنتوش بنات.

شعرت على نحو غامض أننا سبب انهزامه وخسارته وأن لولانا ما أطاع أمر انكسر.

قلت له يا سيد أولاد عوف كانوا زمان، أولاد عوف راحت أيامهم، أنت تنفخ في قربة مقطوعة، قلت له كن في حالك يا سيد، مالك أنت بأولاد عوف؟ بماذا أفادوك لتزرع روحـك فيهم وقد عشت وحيدا ومقطوعا وما سعى أحدهم للاقتراب منك لتطمئن أن لك في الدنيا أهـل وناس، أعرف ما كان بينك وبينهم، وأنا لا أقاب بكلامي مواجعك القديمة، أنت لا تعرف مـا جرى منهم في الزمن القديم، كل ما تعرفه هو تلك الحكايات التي لا بد أنه حكاها لـك علـى امتداد العمر، لكنها ليست كل الحقيقة، بينها وبين الحقيقة مسافات ومسافات بطول المسافة بين الكفر وتلك البلاد البعيدة التي عاش فيها وبطول السنوات التي غاب فيها عن الكفـر وناسـه، يعرف حقيقة الكفر من عاش فيه يا سيد، ويعرف أولاد عوف من تعامل معهـم أكثـر، لقـد عاركناهم وصالحناهم، بعنا لهم واشترينا منهم. دخلنا بيوتهم ودخلوا بيوتنا، عرفنـا طبـاعهم وحفظناهم في عقولنا. وإذا كان هو أول من جرؤ "وناسب" أهلي وفشل، فقد تكرر الأمر مـن بعده صاهرناهم وصاهرونا، وطلع نسل جديد تجري في عروقه دماء الشلبي والعـوف، وإذا شئت أحكي لك عنهم لتعرفهم أكثر، ولكن الخلاصة هي أن في البعد عنهم غنيمة، والبعد عن مشاكلهم التي لا تنتهي وإن تزايدت راحة البال، دبر وقتك وعقلك وشوف مصالحك، ما لـك أنت يا سيد بمندرتهم الكبيرة التي خربت؟ ما لك بدوارهم المهجور؟ وهل تصدق ما يقال مـن أن لهم في الناحية ميراثا موقوفا ينفك بأوراق مزعومة فشلوا في العثور عليها طـوال تلـك السنوات وكأنما أخفاها عنهم جن في سابع أرض؟ وهل تخصك مدافنهم في شيء يا سيد؟ حتى لو أفلحت في تجميعهم حولك وقاموا بتجديد الدوار وترميم المـدافن والمنـدرة فلـن ينتهـي المشوار لأنهم لن يستعيدوا ما أخذته منهم الأيام في غفلة من كبارهم قبل صغارهم، أنـت لا تعرف يا سيد أنهم لو لجأوا إليك لتحل نزاعا بين نفرين منهم فإنك لن تسـتطيع أن تحـل أو تربط ليس لأنك سوف تعجز وإنما لأنك بالنسبة لهم أفندي غريب برغم الاسم المشترك، وقـد تعجب من كلامي لكنك سوف تتأكد، أنت في نهاية الأمر ابن حسن الذي خرج من الكفر ودار في البلاد البعيدة، وكم تندروا على غربته في مجالسهم، قالوا إنه باع الأرض والكفر والابـن والدار فباعته الأرض ولفظته الدار ونساه الابن وكل أهل الكفر، صدقني يا سيد أنت محسوب على حسن على عكس صالح، صالح منهم لأنه عاش بينهم، شافوه طفلا وصبيا ينمو واطمأنوا له برغم خلافاته التي لا تنتهي معهم وفي الكفر يقولون اللي تعرفه أحسـن مـن اللـي مـا تعرفوش، يا سيد "وأنا بكلامي لا أمنعك عنهم فهم أهلك، لا أطلب منـك أن تقـاطعهم أو أن

تبتعد عنهم تماما لأنهم دمك واسمك وأصلك، كل ما أوصيك به أن تدخل بينهم ولا تحلم بـأن تكون في مقدمتهم، ولأنك ابني على القرب والبعد أتمنى لك أن تكون فـوق الكـل، سـيدهم وآمرهم الذي يطاع، لكن الناس هنا لا تسلم قيادها لأي وافد حتى وإن بدا لهم أنه أبرع مـنهم وأكفأ، وأنت بحساباتهم وافد جديد، يقابلونه بالترحاب والأشواق ويكتمون الحـذر والتـوجس، والأمر في أوله وآخره يخوف، العين في الكفر تنحط على من يتصدر، وأنت لا تعرف معنى أن تنحط العين على بني آدم في كفر عسكر، نشف ريقي، وشعرت بمرارة الحلق من كثـرة الكلام وهو ساكت يتسمع كأنني كنت أؤذن في مالطة:

ـ عارف كل ده.

ـ وسايبني أهاتي يا سيد؟ الغرض، ما دام عارف يبقى ما تغوطش في بحورهم اللي ما لهاش قرار، دول ناس لهم عدوين كتار في الكفر وفي كل الناحية.

ـ ولا يهمك.

قالها باستهانة فقلت لنفسي إن العرق يمد لسابع جد، وإن دماغه لا يختلف كثيرا عـن أدمغتهم رغم المدارس والشهادات التي لم يتعلم منها كيف يكون واعيا لنفسه وعـي الفـلاح الناصح الذي يحسب لكل خطوة يخطوها ألف حساب، لم يرث عنهم غير عـرق الاسـتهانة الدساس، ليته كان مثل صالح الذي يحتاط لنفسه أيام المخاطر وهو يمشي في دروب الكفر، أو في سكة البندر، الخلق في المدن لهم عقول غير عقول الخلق في كفرنا، لو عاش هنـا لـرأى الفئوس وهي تغدر والعصي وهي تضرب في عز الظهر الأحمر لأتفه الأسباب، لو عاش هنا لعمل حسابا للمتربصين في الزراعات يطلقون الأعيرة تخويفا وإرهابا وأحيانا فـي المليـان تصفية لحسابات قديمة من عمر الأجداد، ماذا أملك إلا أن أوعيه وأحذره؟ أصبر عليه وأفهمه ما لم يفهمه:

ـ صالح ما قالكش ع اللي طلعوا له متلتمين في نقحة القيالة؟

ـ قال.

ـ ما سمعتش على جدار مصطفى عوف اللي نقبوه وخدوا منه البهـائم ولا حـدش طالهم؟

ـ سمعت.

ـ وابن السعيد عوف اللي انخطف وانقتل واندفن في أرض السعيد عوف نفسه؟

ـ وإيه تاني؟

ـ السعيد عوف ده ما كانش منهم، كافي خيره شره ولا عليه تار لحد ولا حد معاديه.

هز رأسه وبدا لي وكأنه لم ينشغل مجرد انشغال في التفكير في دلالة تلك الحكايـات، فكرت أنني خلصت من ذنبه لكنني كنت ما زلت أخاف عليه من مخاطر الكفر والناس وأولاد عوف، ومن جديد قلت أحاول معه:

ـ مش عاجبك الكلام يا سيد؟ أنا قلبي عليك.

ـ يعني عايزاني أخاف؟ أنا بقى ما بخافش.

ـ المثل بيقول من خاف سلم.

ـ كلام فارغ.

ـ كلام فارغ يا سيد، صحيح العرق دساس، دا أنت زيك زيه بقى، غشيم زيه وبتنطح رأسك في الحيط.

قلتها فبان في عينيه الشر فجأة، كشر عن وجهه وتغيرت الملامح، من داخلي خفـت، نسيت أن الواقف أمامي وقد احتقن وجهه وارتعشت شفتاه هو طفلي القديم الذي حسبت أننـي استعدته شابا سمح الملامح، كان يشبه الآخر ساعة الغضب لكنني تماسكت وقلت بغير اهتمام:

ـ ما تضرب لك قلمين.

هاج أكثر وتحرك في دائرة ضيقة حول نفسه بلا هدف، شبك أصابع يديه بعنف وفكها بعنف واستدار مبتعدا عني في غل مكتوم، تابعت قدميه القلقتين المرتبكتين المتـرددتين بـين الرغبة في الخروج من باب الدار الموارب والبقاء فيها ليصفي حسابه معي، قلت أغيظه أكثر:

ـ هربت يا بن حسن؟

استدار في عنف وواجهني، كانت العينان الملتهبتان تلمعان بشراسة وحش من وحوش البراري سقط في فخ، سألت نفسي إن كان من الممكن أن ينسى وهو في لحظة اندفاعه أننـي أمه التي حملته في بطنها فيغلط معي بالقول أو بالفعل، خفت إن هو فعل أن يضـحك عليـه الخلق في طول الكفر وعرضه لو سمعوا أنه وهو الأفندي المتعلم لم يراع الأصول ولا شرع الرب في أمه، ساعتها تكتمل خسارتي له ويخسر نفسه، كان يصب علي نظرة الغضب وكان يغيظني أنها دفاع عن حسن، كأنهما رجلان في مواجهة امرأة.. لكن التردد غلبه وخفت حـدة التحفز، لعله عاد إلى عقله فصعب علي حاله، ابتسمت له ثم ضحكت بصوت مسموع فتلفـت حول نفسه باحثا عن أسباب ضحكي، وعندما لم يكتشف شيئا غريبا تحول الأمر إلى مجـرد دهشة، قلت وكأنني " أدادي " طفلا عنيدا بحنان الأم:

ـ اقعد يا سيد، واقف كدة ليه؟

حيره أني أتحدث إليه بود وتسامح، ولعله نسى استفزازي له واستعد للتصافي فكررت بنفس الصوت:

ـ واقف لي زي خيال المآتة كدة ليه؟ هو حصل إيه لده كله.

تراجع خطوتين وجلس على الدكة، زفر ثم تنهد، نظر ناحيتي وأوشك أن يسـألني أو يعاتبني ثم تراجع، شعرت بالفرحة به والانتصار عليه فقلت بثقة:

ـ وافرض لساني غلط، تعمل رأسك برأسي؟

ـ لا.. بس أنتي..

ـ محموق عشان أبوك؟ وماله، فيك الخير، هو اللي رباك، بس أنت عصبي قوي..

بدا لي أنه حبس في العينين دمعتين وتساقطت برغم إرادتي من عيني دموع، لعلنـي كدت أعتذر لكنني تماسكت، قلت أغير الموضوع وأنا أجفف دموعي براحتي وأحدثه عن ذلك الزمن البعيد ونوادره فبدأ يجاريني ويضحك، لعله أراد أن يثبت لي أنه قادر علـى السـيطرة على نفسه، ولعلني أردت أن اطمئن نفسي بأنني فهمته أكثر وتأكدت أنه يسـتطيع فـي كـل الحالات وبرغم كل شيء أن يرعى شرع الرب وخلقه في أمه رغم طول عمر الابتعاد.

طالت أيام العراك مع أولاد عوف، ولولا البارودة التي جلبها الجد هارون مـن أرض البراري ما تمكنا من تخوفيهم، كانوا كثارا وشماريخهم لا تميز، تطيش في كل اتجاه وتدمي، تجمعوا حول " فضالي " وأولاده وما تركوهم إلا بين مكسور ومبطـوح، كـادوا أن يقتلـوا البكري لولا أنه رمح واختفى منهم في زراعات الذرة هاجموا دار الجد هـارون بالشـماريخ والنبابيت وما أخافهم إلا رصاصة انطلقت نحو صدر "الحسنين" سقط بفعلهـا وحملـوه، فـي صباح اليوم التالي عادوا مرة أخرى فانطلقت رصاصة أخرى وأصـابت رأس السـعيد بـن الحسين، وكان أبي ينقل لنا الأخبار وهو ساخط على الجد هارون وأفعاله التي أوقفـت حـال تجارته، وكان ينبه علينا بعدم الخروج من الدار، طمأننا أنه ذهب إلى الكبار من أولاد عـوف وأخذ منهم الأمان لنا لأنه كما قال ضد العراك وليست له فيه مصلحة، نزلت إلى دروب الكفر عساكر الهجانة السود راكبين الجمال، نصبوا خيمة أمام دوار العمدة الذي عزلوه وعينوا بدلا منه " صول " من المركز، الوحيد الذي لم يكف عن تكسير الأوامر بالرقاد بعد المغرب وعدم الطلوع كان عبد القادر، يقفز من فوق سطوح الدور ويصل إلى الـدرب، يحـرق أو ينـزل ويتعارك بمعاونة أولاده وأولاد أخوته، تربص له الصول وعساكر الهجانة وما طالوه، أقسـم الصول وهو يفت شاربه أن يمسكه ويرميه في الحبس مع أشقياء الناحية حتى لو نزل سـابع أرض، لكنه لم يستطع، ورغم زيادة القوة وكثرة الوعود، فقدنا رجلين وفقدوا واحدا فـي أول يوم، لكن العدد زاد حتى في وجود الهجانة، وصل العدد عندنا إلى خمسة مقابل ثلاثـة مـنهم بالإضافة إلى اثنين بين الموت والحياة، تعادلت الكفة أو كادت بحسب ما قاله أبي: ذلك الـذي دخل علينا ذات مساء وهو فرحان وراح يحدثنا:

ـ أنا عملت اللي أقدر عليه، جريت على أكابر الناحية وطلبت منهم يشوفوا لهم حـل وما خيبوش رجايا وح يعملوا صلح، دا خراب بيوت ودم رايح بلاش، هارون عاوز يولع في الكفر نار، الصلح بكره في دوار الباشا نفسه.

في الصباح صحا مبكرا ولبس جلبابه الكشمير وتلفح بالعباءة، طلب منا أن ندعو لـه بالتوفيق ففعلنا، شعرنا بالزهو لأنه برغم كل شيء يستطيع أن يسير الأمور بحسب إرادتـه، وفي ظهيرة نفس اليوم عاد متهلل الأسارير ومن خلفه رجال العائلة الكبار، مرسي وسالم بـك والجد هارون وكان بينهم العم مرزوق وآخرون، جلسوا في المندرة وعرفنا أن الصـلح تـم ورددنا عبارته بأن الصلح خير، في عصر نفس اليوم زارنا بعض الغرباء، خرجوا ثم عـادوا ومعهم رجال من أولاد عوف، وهدأ الحال ورحل عساكر الهجانة والصول الذي لم يستطع أن ينفذ يمينه بأخذ عبد القادر، لكننا كنا في فرحة، زادت فرحتنا عندما عرفنا أن العـم مـرزوق سوف يبقى في الكفر بعد سنوات عاشها في أرض البراري مع البك سالم، جاءت العمة فطوم وحدثتنا عن زواج العم مرزوق:

ـ وخلي الفرحة فرحتين، اتغرب كثير ونسي روحه هناك جوازته الأولانية ما جابتش عيال.. ح ناخد له بنت المرسي، صغيرة وحلوة وبكرة تملأ داره عيال..

عملنا له فرح بلا طبل ولا زمر وراعينا المجروحين في أولادهم. ويوم دخوله رقصنا بدل الغوازي وقلنا أن الفرح في القلب وفرحة العروسين ببعضهم أهم من كل شـيء، ليلتهـا شفنا عبد القادر وسط دار العمة فتذكرنا كلام الصول، لكنه هنأ العم مرزوق وتواعد معه على لقاء وترك المكان، وبعد أسبوع خرج العم ليقضي حاجة من السوق راكبا حماره، وعندما عاد رأيناه داخلا من ناحية البوابة في اتجاه الدرب، جرينا نحوه وناديناه، كان يضع سـلة كبيـرة أمامه على ظهر الحمار، وكان عبد القادر جالسا على المصطبة فرمى عليه السلام لكنـه لـم يرد:

ـ انزل يا مرزوق.

قالها عبد القادر وهو يمسك مقود الحمار فاستجاب مكرها ونزل عن حماره وأخـذنا منه السلة ووقفنا ننتظر، كان عبد القادر عاري الرأس على غير عادته، سـأله عـن أخبـار الزواج فتردد ولم يجاوب، سأله عن حلاوة بنت المرسي فطلب منه أن يحتشم، كـان مفلـوت اللسان لا يربطه رابط، تحسس كم جلبابه وسأله.

ـ الجلابية دي حلوة عليك، قماشها منين؟

ـ م البندر يا عبد القادر، أنت فايق؟

ـ آه.. مين اللي مفصلها لك يا مرزوق؟

ـ الغباشي.

ـ وهو كل من لبس جلابية جديدة يعدي ع البوابة راكب يا مرزوق؟

ـ مش كنت ترد السلام الأول يا عبد القادر.. والكبار اتصالحوا خلاص..

ـ واحنا كمان كبرنا ع العركة، والشمروخ هناك أهه، مركون علـى جـدار الحـاج مصطفى، ,أنا عايز أباركلك ع الجواز وألعب وياك لعبه، ما فيها ضرب ولا خبط زي زمان.

ـ ما حدش فاضي يا عبد القادر، خليني أروح.

ـ دانت كنت شاطر في التحطيب زمان.

ـ زمان بقى..

كنا نراهما وقد أحاط بهما خلق كثار، طالت وقفتهما معا وتضاحكا وأضـحكا النـاس حتى زال كل القلق من احتمال عراك يقوم بينهما، همس رجل من دربنا أن عبد القادر فرحان بروحه وأنه يسلي نفسه بالجلوس على مصاطب البوابة، يفرح بنزول الناس من فوق الركائب كلما شافوه وقالت امرأة "إنهم صنف أهبل" ودمهم ثقيل وجلجات عند زحمة البوابـة ضـحكة ممدودة وصفق رجال:

ـ مرزوق يا رجاله مولود معايا يوم بيوم، الوحيد اللي كنت باعمل له حساب في لعبة التحطيب، لكن بعد رجوعه من البراري ما اتقابلناش غير ليلة دخلته، رحت أبارك له.

بذلك كان يتحدث عبد القادر وكأنه " حاوي " يدور حول نفسه وحول العـم مـرزوق الذي زال خوفه واندمج مشاركا في السماع والتعليق ثم عقب موافقا لينتهي الأمر:

ـ ما شي يا عبد القادر.. نجرب لعبتك دي..

ـ إن اتزحزح من مطرحه ما يعديش البوابة راكب أبدا، وإن ثبت مكانه يعدي راكب قصاد أتخن تخين في الكفر..

هللوا لعبد القادر ووقف العم مرزوق مكانه في وضع استعداد، رفع عبد القادر كفـه اليمنى إلى فوق ليراها كل الناس وقد خلت من أي شيء مجرد أصابع مفرودة على استقامتها ومتقاربة دون فراغات بين إصبع وآخر، نزلت أنا إلى أسفل وتمكنت من النفـاذ إلـى قلـب السامر لأعرف تلك اللعبة الجديدة، رأيت عيني العم مرزوق تتابعان حركة الكـف المفـرود وعلى وجهه ابتسامة صلح لكل الناس، يثبت قدميه في الأرض واحدة إلى الأمام والأخرى إلى الخلف، وعندما طالت أطراف أصابع عبد القادر فم معدة العم مرزوق لم يهتز مجرد اهتزاز، صفقنا له بحرارة وتلفت عبد القادر حول نفسه وأنزل كفه، انزاح عن طريق العـم مـرزوق وحياه بحماس.

ـ عفارم عليك يا مرزوق لا راجل يا وله، تبقى أنت كده كسبت الرهان، تعدي راكب حمارك في أي وقت ما تنزلش من عليه، واشهدوا يا أهل الكفر ع الكلام ده.

وضحك الناس ربما حسبوه قد أصيب بطوفة في عقله مفاجئة وهو يمد يده ليفك حمار مرزوق المربوط في حديد شباك التهامي ويحمل سبت مرزوق ويضعه عليه ويضحك هامسا:

ـ ما تركب.

ـ مش مستاهلة.

رد العم مرزوق وحملت عطيات السبت وسارت خلفه بينما سحب ولد حبل الحمـار، وانفض السامر الذي عمله عبد القادر يتندرون على لعبته الصبيانية ورهانه الخسران لكن عبد القادر واقفا ما زال يتابع العم مرزوق حتى تعثر لأول مرة في خطواته فانطلقـت ضـحكته، أسرع رجال من أولاد شلبي يسندونه ليصاب طوله بينهم حتى أوصلوه إلى دار العمة فطـوم، كنت وسطهم ورأيتها وهي تخبط صدرها بكفها في فزع، حاول العم مرزوق طمأنتها بعسر:

ـ ما تخافيش نفسي غامة عليه شوية.

أجلسوه وقدموا إليه اللبن الرائب، وشرب منه الكثير وطرد ما كان في جوفه من بقايا مأكولات لم يصرفها، ثم عاود الشرب وأرجع اللبن ممزوجا بحمرة قانيـة عكـرت بياضـه، شرب وأرجع ثم عاود الشرب وأرجع وهو يتصبب عرقا والعمة تسنده على صدرها وعيناها تلمعان بسؤال غير منطوق:

ـ بايني كلت حاجة مسمومة في البندر.

قالها من بين أسنانه بعسر ثم تدحرج على أرضية المكان أسندوه وأراحوه على كـيس قطن مكبوس، طالبنا بأن نغطيه فحطت العمة على جسمه حرام الصواف، كان الوقت يمضي والعرق يتصبب على وجهه، نقلوه على فراشه وأحاطوه والعرق يغطيه ويتساقط على الفراش، وجهه " مزرود " ونفسه " مكروش "، ربما غفا فتركناه يرتاح، وفي الفجر سمعنا صوت العمة المستغيث فذهبنا، كان هناك الجد هارون وكان مرزوق يمسك بيده وكأنه يتعلق بحبل النجـاة، همس بعسر وبصوت متقطع:

ـ لو نفدت بعمري.. لو نفدت النوبة.. أبقى كسبت الملعون ده.. زي ما يكون دخـل صوابعه في لحم بطني، غرزها زي المسلة، لو نفدت، أبقى كسبت.. ما تخافيش يا فطوم، إن رحت فيها ما تفرطيش في التار من عبد القادر.. التار..

كانت هي تتسمع وقد اتسعت حدقتاها أكثر من أي وقت اتسعت فيه تلـك الحـدقتان، وكان الجد هارون يهز رأسه بصلابة رجل مسئول عن عراك حرض عليه، كسب وخسر لكنه لم يعرف اليأس وإن امتلأ قلبه بالمرار، كان يبدو أنه عرف النهاية قبلنا جميعا، فجلس يتسمع هلوسات العم مرزوق التي لا يربطها غير العجز وقسوة الوجع، وفي ساعة الضحى خبأ وجه العم مرزوق وانعدمت أنفاسه، انطفأ سراجه وكف عن الأنين والهمس والحركة، وفاتت علـى الدرب في ظهيرة ذلك اليوم سحابة معتمة سودت النهار وما أفاد فيه لطم ولا ندب ولا بكاء.

كان يحدثهم بحماس عن السد العالي والحديد والصلب وتأميم القناة، عن إزالـة آثـار العدوان وضرورة العبور، لا أدري لماذا تذكرت صوت مذيع نشرة الأخبار التي نادرا ما كنا نسمعها أو نهتم بها، كان كل ما بيننا وبين عبد الناصر هو تلك الحكاية القديمة عن البك سـالم كبير العائلة في أرض البراري، ذلك الذي أخذوا منه أرضه ووزعوها على الأنفار "وتمليـة" الغيطان، وكيف أن البك سالم نفسه مات ناقص العمر بحسرة الأرض التي أصلحها وزرعهـا وكانت في السابق مهجورة ضمن البراري المشاع التي لا صاحب لها ولا مالك، حتـى ابنـه الضابط الكبير عجز عن حمايتها نقلوه إلى بلد اسمه السلوم بعيد ثم أحالوه للمعاش وهو فـي سن الشغل، وكان عبد الناصر بعيع علام الذي كان يتوقع تأميم دكانه بين يوم وليلة، اشـترى أرضا وعمل فيها منحلا وسور أرضا وحولها إلى جنينة فواكه وتاجر في السلاح متخفيا بقلق من احتمال استيلاء الحكومة على ماله فلجأ على توزيعه، كتب الدكان باسم شـاكر والمنحـل باسم سعاد، سرحت في الزمان القديم وأنا أسمع سيد بقلق وأرد عليه.

ـ إزاي بقى يا سيد؟ هي صوابعك زي بعضهم؟

ـ كلنا ولاد تسعة.

رد علي بحدة كرهتها فيه، كنت أحبه وأكره أفكاره التي تساوي بـين كـل النـاس، الناصح والخائب، المالك والأجير، وكان قد نال إعجاب شاكر فخفت عليه، شاكر قليل الحيلـة لا يسنده غير القرش وما يملكه يمينه أما هو فله مرتب معلوم ومضمون الصرف في أول كل شهر، حسن ظل طوال عمره لا يحسب للزمن حسابا، ضيع ميراثه بالكسل وتاه فـي الـبلاد، صحيح أنه رباه وعلمه وعاش حتى وظفه، لكنه فشل في أن يوعيه بالدنيا والناس، خيبه وأفسد عقله ولو لم أحرص على شاكر فربما يخيب، شاكر غلبان، وأبوه حويط، عاش عمره بطولـه ناصحا لنفسه، لو ورث شاكر بعض حرص أبيه لاطمأن قلبي من ناحيته، ولو خاص سيد من طباع حسن ما خفت منه على شاكر.

ـ بقى ولاد الناس الطيبين المستورين ح يتساووا مع الخلق الزبالة اللي لا وراهم ولا قدامهم يا سي سيد؟ دا حتى ربنا ما قالش كدة.

قالها علام وانتظر من سيد الرد:

ـ ربنا ما يرضاش ناس تمص دم ناس، تسرق عرق ناس، فكرك السرقة شطارة؟

تدخلت:

ـ ما حدش قال كدة، السرقة حرام لكن التجارة حلال.

وتحمس علام:

ـ دا قصر ديل يا أزعر، بقى أنا أبقى صاحب ملك وعايزني أتساوى مع واحد مـن خدامينى؟ دا كلام جرانين ما حنا برضه بنقرا يا سي سيد.

ـ والتجارة شطاره.

قالها شاكر وهو ينظر إلى أبيه في محاولة لطمأنته عليه، قلت لنفسي أغير الموضوع:

ـ بقى ما تجيش غير وأنا راقدة يا سيد؟

تحير إن كان من اللائق أن يستمر في جداله مع علام وبكري وشاكر أو يـرد علـى كلامي، قلت بنغمة عتاب وأنا أحاول إضحاكه وإضحاكهم:

ـ يا خويا خليك ف حالك وبلاش وجع قلب.

ـ سيد أفندي بيتكلم في السياسة يا أم شاكر.

قالها بكري مباهيا فعلقت:

ـ قطيعة السياسة واللي بيجي منها، أوعاك تكون صحيح من بتوع السياسة يا سيد.

بدت عليه الدهشة وهو يسأل:

ـ وهي السياسة عيب؟

تحفز علام واعتدل في جلسته قبل أن يوضح:

ـ زي الست الوالدة ما بتقول كدة، ما بيجيش منها غير وجع القلب، طيب بلاش كدة، سليمان ابن مطاوع بقاله قد إيه محبوس من جرة السياسة ياسي بكري؟ أكثر من ثلاث سـنين النهاردة.

ـ أصله إخوان مسلمين، إنما سي سيد اتحاد اشتراكي.

قال بكري فعلق سيد باستفسار فيه إنكار:

ـ اتحاد اشتراكي؟

تدخل علام:

ـ أهم كلهم شبه بعض، دا الولد سليمان ابن مطاوع ده انضرب ضـرب هنـاك مـا يكلوش حرامي في مولد، الكلام ده مش من عندي، دا من حنك أبوه نفسه، وأهو سايب عيالـه متبهدلين، خد إيه بقى؟ دول عالم صايعين وعاوزين يأخرونا.

قلت أنهي الأمر بأي شكل، زفرت بضيق وقلت:

ـ إحنا مش ح نبطل كلام بقى؟ ناكل لنا لقمة.

تململ سيد في قعدته وتابعه علام في تدقيق ظاهر، ولا بد أنه يتوقع أن يخاف سيد من كلامه عن سليمان ابن مطاوع، لكن سيد ظل على حاله,.. متحفزا لمزيد من الكلام وخجلانـا من بدء حوار جديد ربما لكي يرضيني، لكنني لم أكن راضية عليه في تلـك الظهيـرة، فلـو تركته على هواه لظل يتكلم لساعات في أمور لا تفيد. وتأميم وإصلاح زراعي وحرب، ومـن منا استفاد من هذه الأشياء، وكيف أستطيع أن ألين له دماغه الذي لا بد أنه أصلب من حجـر الطاحونة، تماما مثل أبيه.

في الخميس الكبير حلت شعرها فانسدل على الصدر والظهر خصلات ذهبية ناعمـة تحللت من ربطة الضفائر، خرجت من دارها حافية القدمين وحولها وفـي أعقابهـا النسـوة لابسات السواد وثوبها ملون، سبقت الرجال خلافا لما اعتدناه من طباع أهـل الكفـر، كانـت تناديه بصوت عال قبل أن تندب وترد عليها أصوات النسوة:

ـ يا قتيل بعد الزفة..... يا عريس.

ـ ملحقتش تفرح بالخلفة..... يا عريس

بعدها تهبد صدرها براحتيها فيترجرج تحت قميصا وقد تزايد احمرار لحمها الظـاهر للعيون حراما مباحا من أثر النار الساكنة صدرها وصدورنا منذ قتل العم مـرزوق، كانـت عيون الخلق تطل والشفاه تتصعب تأسيا من أجلها وأجله، حتى أبي الذي ما حزن فـي كـل عمره كل هذا الحزن أبدا كان يناديها بوهن ويوصيها بأن ترحم نفسها ولا تسـتجيب، كانـت تهبد صدرها بعنف أكثر، سبقتنا ونحن وراءها حتى وصلت إلى أول المدافن، انحنت وحطت على رأسها طينا من المسرب، عاصت صدغيها وصدرها وأجزاء من ثوبها الملـون، وعنـد قبره وقد أحاطوها لفت خصلة من شعرها حول كفها اليمنى وقربتها من عينيها ثم أقسمت:

ـ وحياة مقصوصي يا مرزوق ما حد ح ياخذ بتارك غيري، لا ح أهدا ولا يرتاح لي بال غير لما ترتاح في قبرك.

أحطناها من كل ناحية فنظرت إلى الكل بغل وكراهية لم أفهم أسبابها، طلبت منهم أن ينزاحوا بعيدا عنها، كانت تقصد إبعاد الرجال فانسلتوا من أمام المدفن رجلا في أثر رجل وما تبقى حوله غير الحريم والعيال، كانت جالسة على ركبتيها كأنها أمام ماجور عجـين وهـي تضرب براحتيها جداره فتنغرسان كفوفا مفرودة في الطمي المخلـوط بنخالـة التـبن جافـا ومستجيبا للخبطات، كأنها من كثر لهفتها توقظ حيا راحت عليه نومة وسوف يقوم بعد الخبطة التالية ويخرج من خلف الجدار:

ـ قوم يا سبع من رقدتك، يا خيبتي في الرجاله من بعدك، قوم يا مرزوق، قمصـان عروستك في الصندوق ألوان ألوان، وتارك في رقابي النسوان.

وتنطلق الأصوات، يتقارب الرجال ويتباعدون بحذر، وعندما بدا لهم أن قواها انهدت وبح صوتها ولم تكف عن النحيب، اقتربت منها زاهية بنت فضالي وحاولـت إبعادهـا عـن المدفن، لعلها استجابت دون وعي وقامت نصف قومة بمساعدة النسوة، همست زاهية بصوتها الحزين:

ـ كلنا مجروحين يا ختي، خليه يرتاح في نومته.

وكأنما أفاقت العمة من غفوة طائرة، نظرت أمامها وإلى وجه زاهية وكأنها ما توقعت أن تراها، فردت ذراعيها بطولهما فسقطت زاهية بعيدا عند حافة المسـرب، زامـت نسـوة

وساعدن زاهية على الوقوف ثم جرؤن جميعا على الاقتراب وأحطن العمة من كـل جانـب، وفي صمت استجابت بوعي أو بغير وعي وسارت بينهن إلى الطريق خارجات مـن مـدخل المدافن والرجال يجرجرون مداساتهم على الأرض ويثيرون مزيدا من الرماد.

عند البوابة الكبيرة بدأت تولول وتلطم وتنادي مرزوق، وقفت في نفس المكان الـذي كان يقف فيه عبد القادر وما عاد، كانت تبدو حائرة ولا أحد في مواجهتها، سارت خطـوات وبدا لها أنها رأته واقفا وسط رجال من أهله وما رأيناه، سمعناها تسبه وتلعنه وترمـي علـى الجدار الذي تمثلته خصما نظرة وعيد بانتقام يجري على ألسنة الناس في مستقبل قريب، ربما انحفر في قلبها جب لكراهية ليس له قرار ولا تقدر أن تمحوها دورة الأيام والسنين.

حدثني في هدأة الليل عن وحدته في طفولته وصباه، عن قسوة الأشـواق التـي مـا تحققت طوال العمر ليكون له أخ أو أخت أو ابن عم شقيق، صعب علي حاله وطيبت خاطره، دعوت لشاكر وسعاد بدوام البقاء، تنهد في حسرة وهز دماغه المستسلم:

ـ ما هو طالع زي حالاتي، وحداني وما لوش ضهر.

وأكمل بعدها وكأنما تذكر أمرا وقد زاغت نظراته:

ـ هو سيد ابنك مبعد عننا ليه؟ دا اللي مالوش أهل بيشتري له أهل، خايف يكون أبوه مقريه ومحفضه كلام غلط عنك.

ـ هو حر، إحنا مش محتاجين له في حاجة ولا هو محتاج لنا.

لعلني قصدت أن أؤكد له عدم حاجته أكثر، ربما كنت أطمئنه وأطمئن نفسي في ذات الوقت، سمعته يجاريني ويسايرني وقد زاد استعداده للكلام:

ـ ما أنا عارف كل حاجة، ح يحتاج لنا في إيه بس؟ داحنا اللي محتاجين أخ لابنـك، وحتى لو كان محتاج لنا هو غريب؟

كانت نبرة التساهل في صوته لا ترضيني، وكان في داخلي كلام محبوس أعجز عـن الرد به، خفت إن اندفعت أن أغضب وأغضبه وإذا عمل مجلسا للتحقيق أكون غلطانة، يطلـع من الموضوع مثلما تطلع الشعرة من العجين وانغرس أنا فيه كما هي العادة، فضلت السكوت، وفكرت، كانت زيارات سيد التي لم أتوقعها قد غيرت في علام أشياء، بعد زمان عشناه بـلا قلق أثر خلافه مع أبي الذي طال حول حسابات قديمة ثم خلافه مع أمي وحرماني من زيارتها أو زيارتي جاء سيد، لعله بعد أن جالسه مرارا وحدثه واستكشف أغراضه حسبها بينه وبـين نفسه، ربما قال لنفسه أن وجود أخ غير شقيق لشاكر أفضل من وحدته الكاملة، ولعله خـاف أيضا، لعل مرارته الحقيقية كانت بسبب تأكده من استحالة مقدرته على خلفة جديدة من صلبه، ولعله سلم على كره منه بقبول بديل يخشاه ويتخوف من وجوده في نفس الوقت، قبل أن يـراه وعلى امتداد السنوات كان لا يطيق سيرته، لكنه بعد أن رآه تبدل وجعل يحوم بأسئلته عنه في

الأيام الأخيرة، ولعلني بحذري لم أقدم جوابا شافيا لسؤال واحد، ربما لأن الأسئلة نفسها كانت تحوم في دماغي ولا أجد لها جوابا أو تفسيرا. وهل كان سيد بالنسبة لي مجرد امتداد أو أثـر حي لحياتي مع حسن، تلك الحياة القصيرة التي أنهاها هو بغشم وخلـف لـي مهانـة العمـر المدفونة كجمرة تحت رماد هزيل ينفخ فيه ولد من بطني بجرأة فينزاح وتتقـد الجمـرة مـن جديد؟ وهل هو وإن حمل نفس الملامح ابنه وحده أو أنني شريكته فيه شركة الأعداء، لعلنـي كنت قد ارتحت منه وتعودت على مجرد الاشتياق، لعلني جننت وحرصت على كتمان أمارات جنوني بالصمت وكل ما أخشاه هو البوح، الولد نفسه يختلف أكثر مما يتشابه مع كل صـنفه، على الأقل هو ما تبدى لي وربما لا يكون صحيحا، وكيف أحكم عليه وأفهمه وهو في كل لقاء محاصر معي بنظراتهم، يتدخلون في كل عبارة تقال مجاملة أو حرصا علـى إبعـاده عنـي وإبعادي عنه، ربما لو اختليت به ساعتين أفهمه، وربما لو خاص هو من إحساسه بالغربة عن المكان والناس لفهمته وفهمني، لكنني أمه، أمه وما يربطني به حبل سري جديد ومختلف، لعله لم ينقطع أبدا. قال علام متلطفا قدر المستطاع ليقطع علي سرحاني في البعيد:

ـ بس العلام حاجة تانية، اللي محيرني يا أم شاكر، أبوه كان بيصرف عليه منين؟ أنا سمعت أن حالته كانت مش ولا بد.

ـ ما عرفش

قلتها بشيء من الغضب، لعله أدرك أنني على غير استعداد للاستمرار في السماع أو الرد، قام من مكانه، تلفت حواليه وكأنه يبحث عن شيء ضاع منه في غفلة، خرج من بـاب المقعد ثم عاد، أطل بنظره ليتأكد من وجودي في نفس مكاني، سمعت صوت خطواتـه وهـو ينزل السلم إلى وسط الدار، متباطئا في نزوله وربما متوقعا مني أن أناديه وأسأله إلـى أيـن يتجه وقد انتصف الليل وسيطرت خارج القاعة عتمة.

بعد دفنة عبد الونيس ابن الزناتي عوف بأيام طلبتني فذهبت إلى دارها، حطت أمامي صحنا فيه "سد الحنك" وطلبت مني أن آكله ففعلت حتى امتلأت، أحضرت لي قلمـا وورقـة وطلبت مني أن أكتب:

البيه المأمور:

نعرفك أن عبد الونيس عوف مات قتيل والقاتل ابن عمه عبد القادر جاره في الأرض والدار والسبب نزاع على فدان ملك، والكاتب يخاف على روحه وأولاده مـن ظلـم العمـدة المنسوب لأولاد عوف، والذي رجع بعد عزله وزاد ظلمه، والمولى عز وجل أمرنا والرسول أمرنا "ومن رأى منكم منكرا" وقال "ولا تكتموا الشهادة" وبلاغي لكم شهادة لوجه الله الكـريم، والكاتب نفر مؤمن من كفر عسكر التي زاد فيها الظلم ويخاف يبوح باسمه ولو أن الأعمـار بيد الله.

أخذت مني الورقة وحطتها في دولاب الحائط وناولتني ظرفا لأكتب عليه عنوان مدير مديرية الأمن، فعلت فقبلتني وطالبتني بعدم البوح أبدا لأي إنسان بما كان، وعدتها بالكتمـان فأحاطتني بيديها وسرحت في البعيد.

بعد أيام جاءت الحكومة، عسكر وهجانة بربر على جمال، انتشروا في دروب الكفـر ومداخله، قالوا إن الحكومة بحثت عن عبد القادر فما وجدته، وقالوا إن الصول الراجع أقسـم بشرف أمه هذه المرة أن يسعى وراءه ولو راح في "سفا العفاريت". دخل المعاون دوار العمدة والتقى بحكيم الصحة ووكيل النيابة قبل أن يتحرك الجميع إلى المدافن، رأينا عسكر الحكومـة وبرابرة الهجانة يحوطونها من كل جانب، يدفعون النسوة من أولاد عوف بكعـوب البنـادق والشوم ويطاردون الرجال بالكرابيج السوداني، كانوا يطاردونهم في دروب الكفر حتى يدخلوا البيوت، وكانت الحكومة قد أمرت بفتح المدفن وإخراج جثة عبد الونيس ليكشف عليها الحكيم ثم يأمر بإعادتها إلى نفس المكان، قالوا أن العمدة سعى لكل أولاد عوف وجمع منهم الأمـوال التي دفعها للحكيم كي يكتب أن الوفاة طبيعية وليست بفعل فاعل وأن يحافظ أيضا على حرمة الميت ولا يشرح الجثة، وعندما قرر حكيم الصحة أن البلاغ كاذب جمع المعـاون عسـكره وبرابرة الهجانة وتخاف الصول، رحلوا ونبهوا على العمدة بإبلاغهم بما يستجد فـي مسـألة غياب الصول، وعاد الحذر مسيطرا على جماعتنا، غضب أبي وسب ولعن كاتب البلاغ:

ـ نصايب وبتتلفح علينا، كله من هارون، عايز يولع في الكفر نار.

كرهته في تلك الليلة، ربما لأنني شاركت العمة في كتابة البلاغ، ربما لأنني حزنـت مثلها على العم مرزوق الذي تسبب عبد القادر في موته.

ـ عبد القادر مالوش دعوة، مرزوق أخويا كان واكل سمك مسموم مع نفر في كفـر الشرفا مات في ليلتها ولا حد دريان.

تشككنا في الأمر وكرهنا فيه كل هذا الخنوع، لم يكن ما رأيناه بأعيننا لعبة كما يقول، ولم يكن ما يشاع عن عبد القادر كله أكاذيب، حتى لو كانت الحكومة قد كفت عن البحث عنه فهو ما زال قادرا على رمي بلاه على خلق الله، رأيناه واقفا عند البوابـة الكبيـرة يلاعـب إبراهيم عوف لعبة التحطيب، مزهوا بنفسه إلى حد الغرور، وعندما كسب إبـراهيم ضـحك الأخير وحذره من الصول الساعي في وسط الزراعات بحثا عنه فضحك بملء شدقيه ساخرا، ذكروا اسم العمة التي توعدته في غيابه فجاوبهم.

ـ نسوان مش لاقيه اللي يكسرها وما لهاش كبير.

اغتظت منه ورحت أحدث العمة فأخذتني إلى دار الجد هارون وطلبت مني أن أكرر ما سمعته أمامه، هز رأسه وأوصاني بإبلاغ أبي بضرورة أن يأتي إلى داره في المساء، وفي

المساء أخذني أبي معه ودخل الدار، كانت العمة هناك وكان جمع من الرجال، وهي إلى جوار الجد هارون تشبهه في الكثير، قال المنصور شلبي:

ـ نأجر المرسي الدباغ عليه.

رد الجد هارون:

ـ نام فلوس ونشتري بارودة تانية ولا اتنين.

تململ أبي وهو جالس إلى جانبي، لعله أراد أن يعترض وخاف من مواجهة الجميـع، انكمش في عباءته وفضل السكوت:

ـ الكفة مالت ويانا والضرب النهاردة أحسن من التأجيل.

ـ مالكيش كلام في وجود أبويا هارون يا فطوم.

قالها الحاج مرسي فلم تكلف نفسها عناء الرد عليه، قام المنصور ودارت عينـاه فـي الوجوه، حدث الجد هارون:

ـ أخبط الكبير فيهم بالبلطة في عز الضهر، بس اكتبوا لعيالي خمسة فدادين.

ـ مفيش غير السلاح، المقاريط، ح نام فلوس.

عقب الجد هارون بحسم:

وأنا دفاعه في اللي تقولوا عليه.

قالت العمة باطمئنان من يملك تنفيذ الكلمة لكن الحاج مرسي اعترض.

ـ تاني يا فطوم،خبر إيه يا با هارون؟ هي مجالسنا ح تتحكم برأي النسوان؟

سأل مستنكرا وقد قام محتجا على سكوت المجلس، لكنها أضافت:

وبنفس الثقة:

ـ مفيش في عيلتنا رجاله وحريم، اللي ح يقدر على حاجة يعملها، راجل أو سـت أو حتى عيلة صغيرة زي دهه.

أشارت إلي فالتفتوا وشعرت بأن لي قيمة وأنني شريكة في هذه الجلسات، معمول لها حساب، كان الجد هارون ينظر ناحيتي ويبتسم عندما وقف الحاج مرسي ثائرا:

ـ أنا مليش قعاد في مجلس تحضره فطوم من بعد الليلة.

قالها وهو واقف، تلفع بالعباءة على عجل وهو يسب الزمن الـذي أخـرس الرجـال وطول ألسنة النساء تناطح الرجال وتلاوعهم ولا تقيم لهيبتهم وزنا، خرج من الدار وفي أثـره ابنه الكبير، وساد صمت قطعته العمة بكلام عن ديون مطلوبة من الحاج مرسي الذي يشتري الأرض ويورط نفسه طمعانا أن يكون صاحب أكبر حيازة في الكفر، وأن كل ما فعله مجـرد هروب من حكم المجلس على الحاضرين، ربما كانوا قد اتفقوا على دفع مبالغ جديدة، وربمـا كان أبي قد وعد بالدفع غدا، لكنه في سكة الرجوع كان يبرطم بكلام لا أفهمه عن الجد هارون

الذي قبل أن تسيره العمة بحسب ما ترجو وما تريد، كان يخبط كفا بكف مبديا سخطه علـى بيت بهانة التي تملك وتحكم وتتحكم في مصائر الرجال، وكنت أشعر أنه يهينني لأنني بنـت وسوف أكون عندما أكبر مثل العمة فطوم وسوف أفعل في مجالس الرجال مـا يحلـو لـي وسوف أقدر على الكثير.

فتح حقيبته وأخرج منها قطعة قماش ناولها لي، وعلبة صغيرة فيهـا سلسـلة وآيـة الكرسي من الفضة لسعاد وقلم حبر لشاكر، كانت أول مرة أتلقى منه هديـة، علقـت سـعاد سلسلتها الفضة في رقبتها وبدت سعيدة، جرب شاكر قلم الحبر في الكتابة بخطـه المنكـوش ونزل المطر، قمنا من وسط الدار ودخلنا المندرة، عاتبته لأنه كلف نفسه فقـال إنهـا أشـياء بسيطة وجدها في طريقه وهو يتجول استعدادا لميعاد السفر، زادت رخات المطر ودخل علام مبلول الثوب يتشكى من شدة المطر، سلم وجلس فأريناه هدايا سيد فتفحصها ولامه لأنه يشغل نفسه بهذه الأمور وكل شيء موجود في البندر، وزادت حدة المطر، وكان الجو قد تلبد بغيوم عتمت النهار وما توقف المطر .. ساعة أو ساعتين وما كفت السماء عن إنزال المطر، نظـر في ساعته بقلق فسألته عن أسباب ذلك القلق، كان قد اعتاد الذهاب إلى دار صالح في دربهـم وكنت لا أعترض، أقول لنفسي يكون على راحته ما دمت أراه كلما جاء لزيارة الكفر، لكـن الأمر كان يختلف، طرق الكفر موحلة والعتمة مسيطرة وعلام جالس لا ينطق بالمزيد.. قـام سيد عاقدا العزم على الذهاب إلى دار صالح:

ـ استنى يا سي سيد لما النطرة تخف شوية، مش قادر أقولـك بـات مـع إخوانـك تكسفني.

قال علام فتشجعت وأيدته:

ـ ما حدش يقدر يمشي دلوقت، ح تروح فين.. ؟

تحمس شاكر لرقاده تلك الليلة معه، ومن جديد سكت علام، كنت في مأزق وكان هـو الآخر في مأزق وكان من المستحيل أن أعرضه لمخطر السقوط في وحل دربنا وكـل دروب الكفر من أجل ليلة يبيت فيها في دار صالح فقطعت الصمت وأجلسته وهلـل الأولاد لأننـي أفلحت في التأثير عليه ليبيت في الدار لأول مرة منذ رأيناه بفضل المطر.

دخل الدرب رمحا والمنصور أمامه، اعترض الرجال المتربصون طريقه فراح يطوح بعصاه في كل اتجاه، كانوا يتحاشون ضرباته بالابتعاد ثم يتكاثرون عليه بعصيهم فيدور حول نفسه والعصا مفرودة "دوخيني يا ليمونة" يتباعدون ويلبدون في الأركـان ومـداخل البيـوت وجنب الحيطان، سمعتهم يتعجلون عودة المنصور بالبلطة ورأيناه يعدل نفسه ليرى بـاب دار المنصور الذي ما انفتح، قال البكري من فوق السطح إن المنصور فر بجلده ولن يعود، كانوا يحومون حول البيت على عوف بجرأة معتمدين على كثرتهم، يكسرون خوفهم القديم منه لأنه

كما يقولون أحسن من يستخدم النبوت في دائرة المديرية، كان وسط الدرب يلعب أكثـر ممـا يتعارك، أو على الأقل هذا هو ما ظهر بسبب ضحكاته وسخرياته من أمور لا أعرفها، وهـم يجعرون عندما توشك عصاه أن تطول أطرافهم، كأنه ثور هائج مطلوق وجمع مـن النـاس حوله وأمامه يبحثون عن مكان المسكة الصائبة بعيدا عن احتمالات الخطر ثـم انفـتح بابهـا فتباطأت العصي التي يحملونها ثم استكانت، لا أذكر أنها طالبتهم بذلك، ربما كان في طلوعها من الباب أمرا محسوبا وربما كانت لهيبتها أثر على الجميع، تناثروا في الأركـان وتراخـت العصا في يمين علي عوف ثم انحط طرفها على الأرض وارتكز عليها، كانت هي تقترب منه على مهل وعلى وجهها ترف ابتسامة حسب بسببها أن المعركة قد انتهت عند هذا الحد، نظر إليها بثبات وطرف جلبابه مرفوع بيده الخالية دون قصد، لعله هم بأن يقول كلامـا أو جهـز نفسه للسماع منها وقد صارت أمامه تماما، لكنه خلافا لكل توقعاتـه وتوقعـات مـن كـانوا ينظرون وينتظرون تجاسرت وأمسكته بيدها اليمنى من مكان القدرة فيـه، بوغـت وارتبـك وحارت عيناه، حاول أن يتراجع خطوة إلى الخلف لكنه لم يفلح، عافر لـيخلص نفسـه دون جدوى، كان فمه المفتوح يفرز لعابا عجز عن السيطرة عليه، أصدر أصواتا مبهمة وازرقـت سحنته، احمرت عيناه ثم نخ كجمل جريح، بركت هي فوقه، تباطأت حركته أكثر وهي تكـز على أسنانها لتستجلب عزما فوق عزمها، تشنج وارتعش رأسه الذي انفك طرف شاله الملفوف وتدحرجت طاقيته التي على شكل عمامة انقلبت قريبا منه، حسبناه قد مات لحظة أن كف بدنه عن الحركة تماما، تساندت هي على صدره بركبتيها وقامت، مسحت كفها المفرود في قميصها الملون فوق فخذها اليمنى عدة مرات وابتعدت عنه، بصقت علـى الأرض وقالـت بصـوت مبحوح للرجال:

ـ اضربوه.

تبادلوا بضع نظرات، ربما قالت نظراتهم إن الضرب في الميت حرام لكنها أمـرتهم مرة أخرى بحزم فنزلت الضربات فوق بدنه ورأسه المكشوف وظهر لنا أنه لم يكن ميتا، كان ينتفض انتفاضات هزيلة أثر كل ضربة مؤثرة وكأنه قرموط سمك مرمي على الأرض قبـل تمام السكون، أشارت لهم بأن يكفوا فكفوا، اقتربت منه بعد أن شمرت ساعديها، قلبته فانقلـب راقدا على ظهره وتقاطيع الوجه المغلوب مكسوة ببقايا ألم، شالت عصاه مـن علـى الأرض واستندت عليها، حدثتهم أو حدثت نفسها:

ـ كدة يبقى انقطع خلفه.

ظهر المنصور حاملا في يمينه البلطة المسنونة تبرق في ضوء الشمس سألها وكأنـه يعرف ردها قبل أن يسأل:

ـ اقطع لك رقبته؟

لم تكلف نفسها عناء الرد واكتفت بأن تشير إليه ليبتعد، ثم قررت وهي تنظـر علـى بابها المفتوح:

ـ دخلوه وسط الدار.

حملوه وأدخلوه فنظرت إلى بكري:

ـ طيران ع المركز، بلغ عن قتيل في الدار واطلب المأمور.

خرج البكري وخرجوا تباعا، بقيت معها ورأيتها تمزق قميصا بيديها عـن صـدرها فينتفض متفجرا والبطن عار، طلبت مني أن آتيها بملاءة غطت بها عريهـا وجلسـت علـى طرف الدكة تفكر أو تنتظر، طال الوقت فسكت بابها بالضبة والمفتاح، كان وجهها الحزين في تلك القيلولة لا يشبه العمة فطوم أكثر مما يشبه ذلك الرسم الذي كنت أراه في صندوق الـدنيا على فترات متباعدة ويسميه صاحب الصندوق "فاطمة بنت بري" التي ضحكت على البدوي.

لسعتني حلة الطبيخ فكتمت وجعي، كسرت على مكان اللسعة بيضة ولففتهـا بقطعـة قماش، فاتت سعاد فداريت اليد الملسوعة حتى دخلت القاعة، تشاغلت بتجهيز العشاء، سمعت نداء علام يستعجلني فاستمهلته ليتشرب الأرز، جلست أسترجع ما قاله علام في عصر نفـس اليوم عن سيد "موظف على قدر حاله ويحتاج المساعدة" "أي مساعدة يا علام؟" حرصك على مالك خوفني وجعلني أراجع نفسي في كل شيء وقبل أن تصرف مخافة أن تظن أنني أرسلت إليهم من حر مالك قرشا، كنت أحاسبك بالمليم فتسكتني وتقول عبارتك المكـررة "المصـلحة واحدة" لكنها أبدا لم تكن واحدة، حساباتك مع أبي كانت مجرد كلام ناعم وورق مكتوب تكسر به عينيه أمام الناس، ما زلت أذكر صوته الأسيان الممرور:

ـ يا بنتي أنتي ما لكيش دعوة بحسابي معاه.

لكنه كان يتعامل معي على أساس أنني كنت السبب، لم ينتظر كثيرا بعد مـوت أبـي وأغضبني، رماني في الدار الخراب ما يزيد عن سنة وهو عارف، طلبت الطلاق فما رضي، جعلني بحسب ما كان يقول للناس مثل بيت الوقف، والآن يلمح لي بسيد، ليتـه يكـف عـن المجيء إلى الكفر أو يدخل داره، ربما انخدعت بمعسول الكلام وسعيت بكل طـاقتي لأجعـل سيد يدخلها، وكيف يتحكم عقلي وأعصابي حتى لا تنزرع في قلبه الشكوك الجديدة، وهل ألوم أبي الذي رحل أو ألوم العمة التي تخلت عني في أصعب الظروف، أو ألـوم نفسـي لأننـي تدخلت بالفعل في أمر لا يخصني وتسببت في خلافات لم تنته وما زالت قابلة للنمو من جديد؟

ـ خبر إيه.. الرز باينه شاط.

قالها علام وهو واقف قبالتي وسعاد تنزل الحلة عن النار.. تقلب محتوياتها في إنـاء آخر. كنت أشعر بدوخة ومكان اللسعة في كفي يكويني، كان ينظر إلى سعاد ويهز كتفيه إلـى أعلى علامة الدهشة وعدم فهم الأسباب:

ـ هي مالها؟..

لم يتلق ردا من البنت، ربما لأن البنت نفسها لم تكن تعرف، كانت مشغولة بتجهيـز العشاء وإصلاح ما أفسدته وأنا تائهة في أفكاري، دخل شاكر على عادته يستفسر عن العشـاء ويكشف الأغطية ليطمئن، دخل القاعة وخرجت سعاد، وقفت أمامي في صمت، نظرت إلـى كفي الملفوف وارتكزت على ركبتيها. نظرت إلي في حنو وهمست:

ـ إيدك مالها؟

ـ مفيش..

ـ وريني كدة.. ياه دي مفأفأة.. حرق؟

ـ لسعة..

ـ وسايباها كدة؟

ـ كسرت عليها بيضة.

ـ بيضة؟ ح أجيب لك مرهم الحروق.

ـ أسكتي دلوقت، بعد ما يتعشوا.

لم يعجبها اقتراحي وخرجت إلى المندرة البحرية، سمعت صوت علام الذي يمضغ:

ـ هو انتو مش ح تتعشوا الليلة، أمك باينها غضبانة يا شاكر.

ـ ليه..؟

جاءت سعاد، حطت على مكان اللسعة مرهم الحروق ومن فوقـه قطنـة وربطتهـا بشاش، شعرت بالتآكل في كفي، ابتسمت البنت.. "البنت حبيبة أمها" تشعر بها وتحنـو عليهـا فلماذا تعشق نسوة الكفر خلفة الأولاد ويشعرن بحسرة لخلفة البنـات؟.. مـدت يـدها ليـدي تساعدني على القيام، سبقتني ووسعت لي مكانا بينها وبين شاكر، كان علام يمضـغ وشـاكر يمضغ وسعاد تنتظر ناظرة إلي مؤجلة البداية إلى أن أبدأ على عادتها، قال عـلام مـن بـين أسنانه:

ـ مالك؟

ـ مفيش.

ـ إيدها اتحرقت.

قالت سعاد.. نظر شاكر باهتمام قليل أما علام فحاول أن يتضاحك أو يضحكهم:

ـ تستاهلي، من ظلمك.

ـ شمتان؟

ـ كلي كلي.. تحبي أأكلك؟ زمان كنت بأكلها بإيدي. فاكرة يا أم شاكر؟

ـ فاكرة.

ضحك علام، ربما أدرك أنني على غير استعداد للضحك أو حتى سماع الكلام، مددت يدي السليمة وبدأت في تناول الطعام، لعلني كنت أدعوها هي لتناول وجبة العشاء.

- هو سيد أخوك بياخذ ماهية كام يا شاكر؟
- ما عرفش..
- صرف كتير في المولد؟
- مش كتير ولا حاجة..
- المثل بيقول إن كنتوا أخوات اتحاسبوا، ولا رأيك إيه يا أم شاكر؟
- اللي تشوفه
- الواحد ما بياخدش منك عقاد نافع، أنتي أمهم هما الاتين واجب تكوني بينهم حكـم عدل..

كان من الواضح أنه يحاصرني لأتكلم، كنت خالية الذهن عن احتمالات أن يفتح مثـل هذا الموضوع أمام الولد والبنت بهذه الطريقة، كدت أكرر عليه ما قلته بالأمس "الولـد دخـل دارنا موظف وليته ما دخلها" لكنني منعت نفسي من الكلام وعلام يكيدني بضحكاته وحكاياته عن خلق التقى بهم في الزمن القديم وكانت له معهم نوادر، وكان الولد يضحك والبنت تضحك وأنا أجاريهم وأضحك ربما لأبعده عن معاودة الأسئلة التي ليست لها أجوبة.

بعد العشاء قمت وتولت سعاد ترتيب المكان، كنت وحيدة وخائفة، خائفة أن يفسد علام علاقة الولدين، شاكر وحداني وقليل الحيلة، فرحته بوجود سيد أسعدتني وفرحة سيد بوجـوده أراحتني، ربما يكون عند علام حق في استفساراته، شاكر كفه مخروم وما في يده ليس ملكـا له، بارع في الإنفاق على من يستحق ومن لا يستحق، وربما ما زلت عاجزة عن فهم سـيد، وهل هو مثل حسن مستعد للتفريط في حقه كما جرى في الزمن القديم أم أنه ناصـح لنفسـه، وإذا كنت لم أفهمه وأنا أمه فكيف يطمئن إليه علام؟

بعد الصلح الكبير مع أولاد عوف راجت الأحوال، تنازلنا عن دم المنصور وتنـازلا عن دم عوف، جهز البك سالم كل شيء، حضر المأمور وابن الباشا الكبير مـدير المديريـة وحضر من ناحيتهم العمدة مصطفى عوف وعبد القادر وحضر الجد هارون في آخر أيامـه، كانت فرحة أبي لا تعادلها فرحة وكان يحاول في كل كلمة يقولها أن يؤكد لنا أنه لولاه ما تـم صلح وما هدأت الأحوال، عاملناهم وعاملونا وردمنا على ما فات، تاجر أبـي فـي القمـاش وأدخل إلى الكفر "بوابير الجاز" وكان يتندر على أهالي الكفر ممن يرونها لأول مرة بنارهـا الشديدة وصوتها القوي "يوش" في الآذان مثل القطارات فيرمحون خوفا ويحسبونها عفاريـت طالعة من تحت الأرض، يخوفهم أبي من انفجارها فيرمحون ويضحك، ومن جرأة البهنسـي أنه وقف إلى جانب الوابور وقال أنه "مخاوي" من تحت الأرض وقبلـه ميـت فسـماه أبـي

"البهنسي المخاوي" شغل الحاج مرسي وابور الطحين فأدهش الناس، استغنى الناس عن الطواحين القديمة التي تدورها المواشي، ولم يبطل اندهاشهم، أدخل عثمان المرسي أول ساقية صاج بتروس حديد على رأس غيطه فكانت مفخرة قلدها من بعده خلق كثار، شالوا تواليتهم القديمة بتروس الخشب وبدلوها بسواق من الصاج تنزح من الماء أضعاف ما ينزحه التابوت، واشترى أبي أول كلوب في الناحية فنور الدكان في عز الليل وكأننا في نور النهار، أبدل من يستطيع فانوس داره بكلوب "براتينه" من حرير لا تحرقه النار فكانت أعجوبة الأعاجيب، وتوسع أبي فاشتري مندرة صالحة بنت حسنين الساكت وضمها إلى دكانه، تاجر في النقل والزبيب وجوز الهند وأبي الفرو وما ترك شيئا من البندر يحتاجه الخلق إلا وفره لهم في الدكان لراحتهم كما كان يقول، زاد الخير فدخلت العمة فطوم شريكة له برأس المال، فتح عزت شلبي خمارة للقادرين تسهر حتى الفجر وجاب غازية ترقص للسكارى وتأخذ منهم "النقوط" ومن كثرة فلوس الناس لعبوا القمار يخسرون ويكسبون.

كانت أمي تكره عزت كراهيتها للعمى "الحيسي" بسبب تلك الخمارة واجتلاب الغوازي والسماح لمن يدخلونها بلعب القمار، لكن تحذيراتها لأبي لم تغير من طباعه، كان إذا رجع مبكرا ليرضيها يخفي زجاجة في كمه، يناولها لي عند الباب لأخفيها في مكان وأقدمها له وقت الحاجة، وكثيرا ما كان يرجع فرحانا من عند عزت، يفرغ جيوبه المملوءة بالجنيهات وأنصافها وأربعاها وعشرات القروش الورقية والفضية، يرصها وينظمها في صفوف ويربطها بأساتك ويضعها في خزانة الجدار ويقفل عليها بالمفتاح والقفل، يعدنا بأحسن الجهاز ولا تصدقه أمي:

- وإيه اللي مانعك؟ ما تصيغهم وتشتري لكل واحدة شوارها من دلوقت، دانت عندك اتنين على وش جواز.

- أصل أنتي هبلة، القرش في إيد التاجر بيجيب قرش زيه، عايزاني أحط فلوسي في شوية دهب ونحاس من دلوقت؟

كان يرد عليها متهربا فتسكت عاجزة عن الاستمرار في معارضته وكان هو ينتحي ركنا بعيدا علامة الغضب، ربما يطلب الزجاجة ويشرب منها جرعات ويسدها ثم يتمدد مكانه دون أن يشعر به أحد، وذات مساء عاد محزونا على غير عادته وسمعناها تتباكى وهي تلومه ربما في المرة الوحيدة التي جرؤت على توجيه اللوم له في كل حياتها معه:

- ياما قلت لك يا عبد الستار، سكة القمار مكسبها خسارة، ما سمعتش الكلام، كدة فطوم حاتتحكم أكثر وأكثر.

وكلام كثير قالته ولم يرد.. من بعدها تغيرت عاداته ونادرا ما كان يتوجه لأمي بكلام، كثرت زيارات العمة فطوم لدارنا ونقصت البضاعة من الدكان.

بعدها فتح البكري مندرة دارهم ورص فيها سراير الحديد بوصة إلا ربـع وبوصـة وبوصة ونصف يبيعها للأهالي مع طبالي العشاء والخبيز والحبـال التيـل ورءوس الفئـوس وباكوات المعسل ثم أقماع السكر وبلاليص العسل وقراطيس الشاي، يبيع وتجارة أبي تبـور، لكنها كانت أزمة زالت بمساعدة جديدة من العمة التي باعت أرضا زود بها الحـاج مرسـي جنينة الموالح التي يملكها.

أيامها بني الحاج مرسي أول دار بالطوب الأحمر في الكفر، وعمل "أميمـة" كبيـرة رص فيها الطوب صفوفا صفوفا بعلو دار وفيها فتحة في الجنب يشعلون فيها النار وأخرى لا نراها يطلع منها الدخان، كنا نذهب للفرجة مع ناس الكفر ونراهم يضربون كفـا بكـف لأن الطوب الأخضر تلون وازداد صلابة، وعند البناء لأول مرة على السكة الزراعية من ناحيـة المدافن غوط البناءون أساس الدار وركبوا مكان الباب البراني بوابة من حديد ملفوف دوائـر ودهنوها باللون الأحمر فكانت داره مثل سراية الباشا الكبير في البندر وكانت جلسته مع أهله وأصحابه مطلا من شرفته العالية عزوة وقيمة لكل أهل الدرب، وربما بسبب هذه الدار نفسها لم يجرؤ أي واحد من الأهالي على ترشيح نفسه للعمادة ضده بعد موت الحاج مصطفى عمدة الكفر القديم وتحولت الدار إلى دوار وراحت أيام الجد هارون فما عاد أحد يسهر عنـده كمـا كان من قبل بناية الدوار الجديد.

وكان موت الجد هارون في هذه الأيام من حسن طالعه فقد شاله الحاج مرسي "شيلة" عزيز مقتدر، عزانا فيه كل الأكابر الباشا وأكبر أولاده والبك سالم ومأمور المركز ومنـدوب عن مدير المديرية وكل الأهالي من أولاد عوف وغيرهم جاءوا ليروا بأعينهم الفارق بين ليلة كبيرهم وكبيرنا، ذبح الحاج مرسي الذبائح ونور بالكلوبات وأجر مقرئين من الإذاعة وما بخل بشيء حتى صارت ليلته سيرة الخلق في كل كفور الناحية ونجوعها الذين ما كفوا من يومهـا عن ذكرنا بكل خير.

جهزنا الزيارة ورحنا له أنا وشاكر وسعاد، دخلنا شقته في الحلمية الجديدة فما صـدق عينيه، نسي أنني عشت في هذه المدينة زمنا قبل أن يولد، كان في الشقة سرير واحد وعـدد من الكراسي الخيزران وترابيزة مفروشة بورقة وصفوف متراصة من الكتب في كل مكان.. على الأرض والأرفف المعلقة على الحيطان ولم يكن في مطبخه مـواعين ولا صـحون ولا أكواب تكفي أكثر من نفرين، وكان يبدو فرحانا أكثر مما كنت أتوقع، تحيرنا فـي أي شـيء نفرغ السلال فتركناها على حالها واكتفينا بإخراج ما هو ساخن ما زال أو قابل للفساد، قلـب شاكر في الأوراق ثم تركها دون اقتناع، وسألته عن الكتب المتراصة فضحك وحدثني، عـن أشياء ما سمعت بها قبلا ولا انشغلت بها، وهو يحدثني كانت تعجبني طريقتـه فـي الكـلام، مجرد طريقته في الحماس للأشياء أو ضدها، حدثني عن الآثار التي يعمل مفتشا بها ووعـدنا

بزيارة للمتحف والأهرامات، كنت زرت الأهرامات في الزمن القديم لكنني لم أعترض حماسه، حدثني عن تاريخ قديم غير ذلك الذي حدثنا به الجد هارون، دهشت، وأنا أسمع عن فراعين وقبط وعرب مسلمين، كنا في المدارس نقرأ القليل عن هذه الأشياء ونحفظ بعض الأسماء لنكتبها في الامتحان لكنه كان يعرف الكثير ويستشهد بالرسوم والكتابات القديمة للفراعين، تلك التي كان من الواضح أنه قادر على ترجمتها بيسر، وعندما ذهبنا إلى الأهرامات رأيتها معه بشكل مختلف، وفي المتحف رأينا تماثيل تشبه الرسوم في كتبه وهو لا يكف عن ذكر الحكايات التي نادرا ما كنا نسمع عنها وإن سمعنا فمجرد سماع اسم بشكل عابر في الراديو سرعان ما ننساه، حتى حديقة الحيوان معه كانت تختلف، بدا لي أنني كنت أزورها لأول مرة إلى حد أنني سألته إن كانوا قد أنشأوا واحدة جديدة مكان القديمة فأنكر وأكد أنها كانت منذ البداية في نفس المكان، ودخلنا سينما فيها فيلم عربي لعبد الحليم وشادية وأفرنجي فيه ضرب نار، ومسرح فيه ناس تتصايح وطواف نحيل يلف بالخبز على البيوت أبكاني لأنه ظل حافيا يحلم بحذاء لم يملكه أبدا:

ـ نشتريله جزمة يا سيد يا بني.. دا باين عليه غلبان.

ضحك وأشار إلي بأن ألزم الصمت ففعلت، ولا بد أنني بوجودي في الكفر لم أعد أعرف ما يجري في مصر من أفعال ولا بد أن آخذ منه كتابا وأحاول قراءته وفهم ما فيه من أسرار.

في الليل قبل سفرنا كنا نتسامر، حدثته عن حكايات من تلك التي كان يحكيها الجد هارون عن الملك الشلبي فكان يتسمع باهتمام ويستزيدني فأسترجع ما كدت أنساه وأقول وهو في سرحانه يتفكر ويبدي دهشته وكأنه ليس عارفا لأي شيء عن أهله من ناحية الأم، أغاظني جهله بحكايات الملك الشلبي التي لا بد أنها مكتوبة في أوراق مثل هذه الأوراق المرصوصة كتبا لا حصر لها، سألته:

ـ معقولة يا سيد يا بني ما تعرفش تاريخ جدك وأنت بتاع أثارات؟

ضحك قبل أن يطلب مني أن أحدثه عن الجد هارون، ذلك الذي سمع باسمه ولم يلتق به أبدا فحدثته، هز دماغه وسرح بعيدا ثم دمدم:

ـ شخصية غريبة جدا، جاب الكلام ده منين؟

ـ قصدك إيه؟ كان حافض زي ما أنت حافض كدة.

ـ بس أنا حافض تاريخ مكتوب، إنما ده.

ـ قصدك إيه؟

قالها شاكر بعصبية وغيرة على الجد هارون فرد سيد:

ـ دا أكيد كان راجل عقله صاحي وقادر يخترع لنفسه تاريخ.. كلام يسلي بيه الناس.

ـ دا غل بقى..

قالها شاكر وقد زادت عصبيته.

ـ غل؟ من إيه؟

ـ هما مش قالوا لك أن عيلتنا خدت منكم العمودية وملكت أرض الزمام؟ لأنهم ملوك وولاد ملوك.

ـ قالو لي.. بس دا مش معناه..

لم يكمل عبارته ونظر إلى شاكر وكأنه يقيسه، كان شاكر في السنة الإعداديـة للعـام الثاني ما يزال، أصغر منه بخمس سنوات أو يزيد، حدثني متهربا من الاستمرار فـي نفـس الموضوع الذي تسبب في غضبة شاكر:

ـ نتكلم في موضوع غير ده

لا أذكر أننا تكلمنا في الموضوع نفسه أو غيره، أذكر أن شاكر كان يشعر بالضـيق وكنت بدوري تائهة وعاجزة عن الاعتراض.

كنت أنتظر مجيئها على نار في أيام الأجازات، كنت أشعر بها وهي "تهرس" وسـط الدار مرواحا ومجيئا، لا أعرف من فتح لها الباب والكل نيام، أتسمع أنفاسها وأميزها وأنا بين النوم واليقظة، أقاوم فرحتي بوصولها وأتمطى قبل أن أتأكد، ربما أحس حركة أمـي وهـي تنزاح من تحت الغطاء "منسلة" في حذر فأعرف أنها بالفعل جاءت، أتابع الضـوء المتباعـد للمصباح وهو يخرج من المندرة محمولا بيد أمي، أسمع همسات العمـة تحادثهـا بصـوتها الخافت "المغلف" بخرخشات الصحو المبكر، أبعد الغطاء عني وأقوم لأراها بعودها القصـير الممتلئ ووجهها المستدير حازم التقاطيع، أتبعهما في صمت وأراها وهي تدس يمينها إلى مـا فوق الكوع في حلوق الزلع، تذوق بطرف لسانها طعم المش وتشير إلى أمي لكي تصب لهـا الماء من أبريق النحاس فتغسل ساعدها وتجففه دائما في ذيل جلباب أمي التي تقدمه إليها فـي حماس وهي تقترب منها أكثر، وتثبت في مكانها حتى تتركه العمة، بعدها تنظر في "برانـي" السمن، تتشممها ثم تحكم وضع أغطيتها الفخارية على حلوقها وتعيد ربطها بحذق، تلقي بنظرة خاطفة على مخزون الأرز وتميل بطرف عينها نحو كوم البطاطس في ركن الخزانة تقيسـه، تهز رأسها وتخرج من باب الخزانة لتدخل ونحن في أثرها إلى قاعة الطيور، توارب البـاب بحرص بما يسمح لبدنها بالدخول ولا يسمح لطائر الخروج إلى وسط الدار في تلـك السـاعة البدرية التي تسبق طلوع الفجر، تهمس لنا وهي في الداخل تأمرنا بالتمهل عند الدخول، أحمل المصباح عن أمي حتى تدخل وتتناوله مني فأنزلق بسرعة لأسمع صوصوة الكتاكيت وهـديل الحمام وفحيح ذكر البط الواقف بجانب البطة الراقدة على البيض خائفـا ويخـوف، أتحاشـى عضات ذكر الأوز العجوز وأنا أتابع مع أمي حركات العمة السريعة الواثقة وهـي تتحسـس

بناني الحمام لتطمئن على الزغاليل، وهي تزيح في خفة الدجاجات والأوزات الراقـدة علـى البيض، اقترب منها بالمصباح فتوسط بإصبعيها البيض واحدة في إثر أخـرى بـين عينيهـا وضوء المصباح، "تفره" وتعيده إلى مكانه في دربة، ترج بعض البيضات في حذر وتتسـمع منها أصواتا قبل أن تعيدها إلى مكانها أو تبعدها ثم تدفع الطائر لاحتضـان البـيض قبـل أن يبرد، تشير إلي فأخرج وأعود مسرعة إلى القاعة وقد حملت حزمة برسيم من ذلـك الحمـل المحطوط على دكة النورج في وسط الدار، تبعثرها حول جحور الأرانب وتنتظر حتى تطـل منها في حذر قبل أن تخرج بحرص أولا ثم باطمئنان وكثرة، تنفرش أركان القاعة بالأرانـب الكبيرة والمتوسطة الصغيرة والأصغر، تمسك هي أرنبا كبيرا أو أرنبة وتحك طرف إبهامهـا الشعر حول الأنف والبوز وتنظر إلى ما قد يعلق بطرف إصبعها من قشر أبيض دقيق من أثر الحك، تترك الأرانب وتتجه نحو الباب وتخرج في خفة فلا يفلح طائر في النفاذ إلى الخـارج، نتبعها وربما يفلت أرنب أو كتكوت من بين قدمي أو جلباب أمي، تحكم هـي إغـلاق بـاب القاعة وتطلع السلم الخشبي إلى سطح "المقاعد" وتمد يدها في " زالوع " القمح، تطمئن علـى حجم المخزون وتخرج براحتها وفيها حفنة منه تتفحصها بنظرة متأنية ثم تعيدها، تقيس ببصة عابرة كوم كيزان الذرة المحطوط جنب جدار الغباشي، تقشر كوزين أو أكثـر مـن أغلفتهـا وتلف كل واحد منها أمام عينيها وكأنها تقرأ في كتاب ثم تلقي بالكيزان إلـى وسـط الـدار، تتقدمنا نازلة على السلم، أنظر إلى وجه أمي فأحس قلقها وأسمعها تتودد إليها وتحـذرها مـن الدرجة الأخيرة أو ذلك المسمار البارز مخافة أن يقطع طرف طرحتها أو ثوبها، لا يبدو عليها أي اهتمام بتحذير أمي وتنزل في هدوء وثقة، تتشاغل عنا بلملمة بعـض الأشـياء أو تأمـل الجدران حتى تتأكد من نزولنا فتتحرك من مكانها وأمي تؤكد لها أن الدار زارهـا نبـي وأن بركاتها سوف تحل، وربما تعتذر لأننا أصبحنا نكلفها الجهد والمشقة، تهز رأسها وتفتح بـاب الزريبة، تتحسس في تؤدة ظهور العجول اللباني وعجول التسمين، ربما تجـس جاموسـة أو بقرة لتطمئن على "البذرة" أسرع نحوها بالإبريق أصب ماءه لتغسل ساعدها الملـوث وأمـي تعتذر لها في حماس أو تتولى عني الإبريق وتصب لها قبل أن تناولها طرف ثوبهـا لتجفـف يديها وتهمس في خجل:

- يا دي الكسوف يا عمة، وبتعوصي إيدك اللي تتلف في حرير؟
- دامعاش أخويا يا هبلة، ح اتعب لمين أعز منه؟

يشجع أمي ردها غير العصبي فتسألها بلهفة:

- حلوة البهايم يا عمة؟

لا ترد عليها وتظل ماشية في طول وسط الدار وعرضها، تعدل طاجنا مقلوبا أو تحط طوبة مرمية جنب جدار، تلملم كناسة الحطب بمداسها في ركن وتأمرني بحملها أمام الفـرن،

تلم كيزان الذرة التي ألقت بها قبلا وهي فوق السطح وتقوم بتفريطها في آلية وترمي الحبوب في الأركان وقبل أن تخرج من باب "الخوخة" على صحن الدار البرانيـة تكـون أمـي قـد أسرعت بفرش " فروة الخروف الكبيرة فوق الحصير المفروش، تعدل المسند خلف ظهرهـا لترتاح في قعدتها بينما تتكوم أمي في استكانة تنتظر عند طرف الحصير، تأخذني هـي إلـى جوارها وتربت على ظهري في حنو، يتزايد القلق على وجه أمي، تعض هي علـى طـرف شفتها السفلى على عادتها كلما أرادت أن تتكلم في أمر لا تقبل فيه معارضة:

ـ دكر الوز خاب، اذبحوه وأطلقوا دكرين من البطن البدرية.

ـ يندبح يا عمة حاضر.

ـ الأرانب ح يصيبها الجرب، ارموا نقلتين رطش في القاعة وهاتوا لهم قـزازة دوا من عند العطار.

ـ نجيب يا عمة.. حاضر..

ـ البطاطس تتبدر يا مريم لأجل ما يطولهاش السوس.

ـ نبدرها يا عمه.. حاضر.

ـ والعجول دول تنصحوا لهم، انتو ح تربوهم ع التبن؟

ـ بنرش لهم يا عمه فول ورده و..

ـ الكلام دة مش نافع، أنا قلت انصحوا لهم وخلاص.

ـ ننصح يا عمه.. حاضر.

ـ زلعة الجبنة الكبيرة ملحها ناقص ليه؟ ما تعرفيش تدوبي حفانين ملح رشيدي فـي طاجنين لبن رايب وتزوديها؟ اللي ح تنقصيه منها حطيه في الزلعة أم ودن واحدة، ناقصـها مش يا مريم.

ـ حاضر يا عمه.. حاضر نعمل كدة.

ـ وسط داركم مش نضيف، ح يجيب لكم الواغش. البنات بتعمل إيه طول النهار؟

ـ باغاب معاهم يا عمه.

ـ معاشك ح يخيب يا مريم.

ـ دي البركة ح تحط يا عمه على إيديكي، سامعه يا شوق؟

تقولها أمي وهي تنظر نحوي وكأنما تخفف عن نفسها ثقل المسئولية وترميهـا علـى أكتاف البنات فتحيط العمة أكتافي بذراعيها وكأنها تدافع عني:

ـ شوفي انتي الثلاثة اللي راقدين جوه راقدين لدلوقت ليه.

تقول العمة وهي تعدل خصلة من شعر رأسي، أشعر بالفرح لكنني أحزن مـن أجـل أمي التي تعجز عن المجادلة دائما وتحط رأسها في الأرض وكأنها تلميـذة غلطانـة حطـت وجهها في الحائط كما أمرها الأستاذ أو ناظر المدرسة لابس طربوش النسر.

دخلت العمة من باب الدار على غير توقع وعلام خلفها، كان سيد يجلس على طـرف الدكة وصالح إلى جواره، كانت العمة تتحرك بعسر في اتجاههما وتتفحص الوجهين، اختارت سيد لتسأله أولا من يكون فجاوبها ثم سألها بدوره من تكون بأدب لكنها لم ترد عليه، جلسـت بصعوبة على طرف الحصير المفروش واستندت إلى المسند وسيد ينتظر وربما يقـدر كبـر عمرها ويتعاطف معها، نظرت إلى صالح وسألته من يكون فحرك لسانه في أركان فمه وفتحه ولم يجاوب، بدا وكأنه يستهين بها وبسؤالها في نفس الوقت، كانت في نظراتـه كراهيـة لـم يخاص منها، تطوع علام ورد على العمة:

ده سي صالح ابن سي حسن برضه يا عمه.

ـ آه.. وإيش جمع الشامي ع المغربي دلوقت؟.. يا حامي..

انتفض صالح واقفا باحتجاج غاضب وهو ينظر ناحية العمة ثم إلى سيد الذي بدا لـه حائرا لا يعرف كيف يتصرف.

ـ قوم بينا يا أستاذ.

قام سيد نصف قومة لكن علام أفلح في إجلاسه مرة أخرى وإن فشـل مـع صـالح، وبرغم كل ما سمعه ظل واقفا مكانه وفي عينيه غضب. كنت أراقب سيد الذي بدا لـي غيـر قادر على فهم ما كان يدور حوله، حسم صالح أمر نفسه قائلا:

ـ أنا ح أسبقه ع الدار يا ست أم شاكر، اتهيألي مش ح يتوه في الكفر، إوعاك تتوه يا سي سيد في بلد أبوك وجدك وجد جدك من قديم الأزل..

خرج وسمعناه يتندر على ما قالته العمة بصوت مسموع:

ـ قال شامي ومغربي قال.. مين بقى الشامي ومين المغربي؟

كان علام يدور بنظراته في كل الوجوه ويستجدي من يفاتحـه فـي أي موضـوع.. وعندما سيطر الصمت قطعه:

ـ أهلا يا سي سيد.. حمقى قوي صالح أخوك.

تدخلت العمة:

ـ ح يتحمق علينا ليه؟

ومرة أخرى ساد صمت، كنت أخاصم العمة ولا أرغب في مفاتحتها في الكلام رغـم دخولها الدار مع علام، عندما جاءت سعاد من داخل الدار تحمل أكواب الشاي أدهشها وجـود العمة ورحيل صالح الذي دخل دارنا لأول مرة مع سيد، ربما لكي يؤكد لي أنه يخصه أكثـر

مما يخصني، أو أنه أراد أن تكون المسألة مجرد تعريف بالمكان ورفقة عابرة لا تطول، كنت أريد أن أسأل سيد إن كان التقى به صدفة أو أنه طالع من داره إلى مكان فقام بتوصـيله فـي سكته، لكن دخول العمة كهرب الجو في أعقاب دخولهما بدقائق لم يتم خلالهـا إعـداد شـاي التحية، كان الجميع كانوا على موعد لتعكير الجو وسيادة الكدر، شيء ضيع فرحتي وجعلنـي لا اطمئن إلى إمكانية تكرار زيارته لي.

قطع علام الصمت الذي سيطر على الجميع بكلام غريب:

ـ الله يرحمه جدك عبد القادر كان حاجة تانية، كان قد الدنيا ولا يغلطش في حد أبدا، إنما سي صالح ده زي ما يكون ما حدش مالي عينه، شوف اتحايلنا عليه قـد إيـه؟ ودي أول مرة يدخل دارنا.

ـ أنت صحيت لعبد القادر يا علام؟

ـ خبر إيه يا عمه.. هو أنا صغير؟

كان سيد يتابعهما بنظراته وكنت أشعر بالقلق لذلك الشكل من اللقاء الذي لا يتيح لـي فرصة المشاركة، ويبدو أن سيد نفسه أدرك ذلك فالتفت إلي وابتسـم قبـل أن يسـأل العمـة منبسطا:

ـ ما قلتليش لسه.. حضرتك تبقي مين.

ـ فطوم.. سمعت عن فطوم؟

ـ كتير.

ـ قالولك عني إيه؟

ـ أنا ح استأذن.

قالها وهو يقوم من جلسته وعلى ثغره ابتسامة هادئة، مد يده وسلم على الجميع رغـم اعتراضاتي واعتراضات علام، وعندما خرج كان كوب الشاي مكانه لم يمس وكان المشروب فيه قد فتر أو برد إلى حد يصعب على النفس أن تشرب منه جرعة.

في تلك الأمسيات كانت تبقى عندنا، وكان هو يقفل دكانه مبكرا ويعود حاملا اللفافات الورقية ، يناولها لأمي في زهو ويطلب منها أن تجهز العشاء تجيب "بالحاضر" وتغطس مـع البنات في وسط الدار، يجلس أبي إلى جوار العمة ويرحب بها في حماس قبل أن يسـألها إن كانت راضية عن حال الدار متوجسا وتجاوبه:

ـ عاوزاك مستور قصاد العدو والحبيب يا عبد الستار.

ـ البركة فيكي يا فطوم.. لولاكي.

ـ اسكت.

تقول محذرة فينظر ناحيتي ويسكت ثم يحادثها في أخبار الناس وما قد يكون قد جرى في الكفر من أحداث، يفتح لها سيرة الدكان وما يكون قد أضافه من أصناف جديدة وتلك التي كف عن المتاجرة فيها، تحذره من القعاد في خمارة عزت شلبي فيطرق في حيرة حتى تنحط طبلية العشاء وفوقها الصينية الكبيرة، يضع أمامها طبق " الزفر " الكبير ويهمس في تبسط:

ـ فرقي ع العيال يا فطوم.

تمد هي يدها وتبدأ في التقطيع، وتبدأ به والبنات ثم تضع نصيب أمي وتقول عبارتها المألوفة للجميع:

ـ اللي منابه صغير يقول.

لا يقول أينا شيئا عن نصيبه، ربما لأن تلك الأمسيات التي كانت تشاركنا فيها وجبـة العشاء يكون النصيب فيها مضاعفا ونادرا ما كانت الواحدة منا تقدر علـى إكمالـه، ينتهـي العشاء وتقدم أمي محتويات الأكياس التي جاء بها أبي من دكانه، أكثر ما كنت أحبه أن نتحلق في الشتاء حول راكية النار ونشوى "أبا الفرو" أسمع طقطقاتـه وأرى قشـرته وهـي تنفـتح وأصبح من السهل الخلاص منها. وتلك الحلوى المخلوطة بالحمص والسمسـم علـى هيئـة أقراص وأصابع، كنا نشبع في تلك الأمسيات أكثر، وكانت هي تحكي تلك الحكايات التـي لا تنتهي أبدا عن جدها الملك الشلبي الذي حكم الدنيا المسكونة زمنا، والذي كان يرسل في كـل ركن من أركانها أميرا من نسله يحكم بالعدل ويحاسب الظالمين، تقول أن نسله كان كثيرا إلى درجة أنه كان لا يعرف له عددا، وأنه كان نسلا من الرجال في أول الأمر حيث كانـت كـل خلفته صبيانا، وتؤكد العمة أنه برغم كل ما كان يملكه وكثرة خلفته يشعر بـالحزن ويبكـي، وعندما نسألها تقول إنه كان يشتاق إلى خلفة من البنات ويرى أن الدنيا ظلمته ولم يحقق فيهـا مرامه، يسألها أبي كيف؟ فتجاوب على الفور بأن الملك الشلبي كان يقـول لأكبـر أبنائـه أن البنات جذور في الأرض يصعب اقتلاعها وأن الأولاد فروع مهما قويـت سـهلة التكسـير، وتضيف وهي تنظر إلينا بحب أن البنت أم وماعون والولد ريح طيار صعب الاحتفاظ به، كنا نفرح بتلك الحكايات ونتباهى بأننا بنات، نفرح أكثر لأن الملك الشـلبي خلـف مـن البنـات أضعاف خلفته من الأولاد، تسألها أمي بعد تردد عن أملاك الملك الشلبي فتبلع ريقها وترد بأنه كان يضع الذهب في صناديق كبيرة يملأ بها خزائن أصغرها في حجم مندرتنا الكبيرة، أذكـر أنها قالت عنه أو عن ملك من نسله أن قصره الكبير كله كان مبنيا بطوبة من الذهب وطوبـة من الفضة، وكانت نصف ثياب بناته وحريمه من الحرير الهندي والتي لا تشبه ثياب الخلـق في زماننا، تسألها نعمات بجرأة إن كانت واحدة من بنات بناته احتفظت بواحد من تلك الثياب فتحكي أن جدتها احتفظت بواحد منها في صندوقها وهي في أرض البراري، وأنه حـدث أن سطت على بيتها هناك عصابة من اللصوص وحملوا الصندوق بما يحويه فظهـرت أمـامهم

وقايضتهم ببعض مصاغها من الذهب مقابل الصندوق، وأن اللصوص حسبوها امـرأة بلهـاء لأنها ضحت بالذهب مقابل بعض الثياب القديمة في صندوق لا يساوي، لكنهم أدركوا الخدعة عندما باعت جواهر الثوب المخبوءة في طياته كل جوهرة بمال لا يقدر، ذلـك أن الجـواهر كانت مخفية بطريقة لا يعرف سرها إلا صاحبة الثوب بنفسها، تقول العمة إن جدتها تركـت أرض البراري وجاءت لتشتري زمام الكفر من أولاد عوف الكبار ودفعت الثمن ذهبا خالصا لكنهم بعد موتها أنكروا الأمر وعاركوا أولادها وأولاد أولادها، كنا نغضب من أولاد عـوف ونود لو كنا رجالا لنعاركهم ونأخذ منهم ما سبق وأخذوه بالقوة واستعادوه ظلما، لكننا كنا نفيق على حقيقة كوننا بناتا والعمة نفسها امرأة لا تقوى على حرب الرجال، وأحيانا كانـت العمـة تنسى وتحدثنا عن اعتزاز جدها بذكورة نسله ويتباهى بهم قائلا أن ذراع الولد سـند وعـون وسلاح وأنه بهم حكم الدنيا، وأن البنات هم وعار إن غفل عنهم أو سرح بعيدا عن أرضـه، وعلى المرأة أن تعوض ضعفها بالحيلة والدهاء، كنا نحتار في أمر الملك الشلبي، هـل كـان يحب خلفة الصبيان أكثر أم خلفة البنات، ونسألها عن بلاده تلك التـي تحكـي عنهـا فتشـرد بنظراتها إلى البعيد وتحكي عن بلاد بعيدة يحيطها نهر وبحر بلا قرار وعلى أطرافها صحراء ممتدة وبراري براح، تحكي عن مخاطر السكة إليها واستحالة الوصول إليهـا فـي الطـرق المسكونة بالذئاب والثعالب والسباع، تحرص على أن تؤكد أن براري أرض الملـك الشـلبي غير تلك البراري التي جاءت منها جدتها التي اشترت زمام الكفر بالذهب وتلك التي يسـكنها البك الشلبي، يبدو عليها التعب من كثرة الأسئلة وتتوه أحيانا بين الرغبة فـي الاسـتمرار أو السكوت بعد أن تقول عبارتها التي اعتدنا سماعها في مثل هذه الحالات:

ـ وجعتوا دماغي بقى.

ـ احكي لكم عن عمتكم فطوم أيام زمان.

يتدخل أبي بحماس فنعرف أن دوره في الحكي قد جاء، كـان يحكـي عـن صـباها وشبابها الذي لم تشهده، وكيف أنها كانت بألف رجل، عن جمالها الساحر وفتنتها التي تسـحر العابد، وكيف أنها ما زالت قادرة على تعمير بيوت وتخريب دور الكارهين الظلمة إن فكـروا في معاداتها مهما بدا للخلق أنهم أقوياء. وكان ينظر إلى كل واحدة منا ويباهي بأنها أخذت من العمة شيئا:

ـ نعمات واخدة منك النضافة يا فطوم، شاطرة في الطبيخ والعجين والخبيـز وكافـة طلبات الدار.

ـ جواهر بنتي عزم وصحة، أهو من غيرها لا نطحن ولا نغسل حـب ولا نعـرف نترب لمواشي ولا نشيل سباخ.

ـ عطيات سهتانة وواعية ولا يفوتهاش فايت، القرش ع القرش وفي الحساب لبلـب، بقول نمسكها مصروف الدار من دلوقت هيء ـ هيء.

يضحك فتضحك، لا يقول عني شيئا لأنها تسبقه، تحوطني بذراعيها كأنها تحميني من خطر لا أراه وتقول:

شوق دي حتة مني.

أشعر بالزهو أكثر من كل البنات، التصق بها أكثر حتى يحين الوقت الذي تفكر هـي فيه أن ترحل، تقف وتحبك طرحتها حول وجهها وتتغطى بالملس وهم يطمئنونها بأن السـهرة لم تبدأ دون جدوى، تخرج ويخرج أبي في أعقابها ليوصلها حتى تدخل دارها وعندما يعـود لاهثا يحدث أمي بصوت خافت وكأنه يذيع سرا أعلنه على مسمع منا عشرات المـرات وإن كان يخشى أن تسمعه الحيطان التي بها آذان مستورة لا نراها:

ـ دي رسمالنا دلوقت يا مريم، قرشها ف عبنا ولا لناش حد غيرها..

ـ عارفة يا خويا.. عارفة.

ـ إوعي تزعليها يا مريم بكلمة كدة ولا كدة.

ـ يا لهوي، دانا لجل خاطرك أحطها ف حبابي عنيه وأعمل لها خدي مداس.

ـ إن جرالها حاجة بعيد الشر كله ح يبقى للبنات.. فطوم مهياش هبلة تضيع شـقاها على حد غريب..

ـ عارفة يا خويا.

ـ سايسيها يا مريم ولا ترديش عليها غير بكلمة نعم وحاضر.

ـ حاضر.

ـ البنت شوق تروح تبات معاها الليلة الجاية، تسليها.

ـ حاضر.. تروح.. وماله.

رأيته في المنام يوبخني، يخطف مصاغي ويرمح فوق سطوح الدور وقد خلص مـن عجزه وقام، يدخل خمارة عزت شلبي ويلعب بالورق وأنا أرمح لأخلص ذهبـي مـن بـين أصابعه، يقامرني رغما عن إرادتي فألاعبه "الكومي" وأخسر، أبكي وأتضرع له أن يعيد إلـي مالي المخطوف ويعاندني، يعايرني بخلفتي الأولى ويهددني بخطف الولد الثـاني إن ظللـت أبكي، أسعى لأمي وأحيلها عليه ترجوه حينا وأرجوه حينا، وهو يتضاحك فرحانا لأنه امتلـك، استعاد ماله الضائع بمالي وحوط عليه في مقبرة، أمشي سكة المدافن وقد فشلت، أتباكى مـع أمي، أقول لها إنه لو كان أبي ما خرب حياتي مرتين فتواسيني وتمزق ثوبها فأداري عريهـا بشالي وأظل أبكي وأبكي وأدعو عليه وقد نالني التعب، أستند على جذع نخلـة فـأراه علـى

مقربة مني يكيدني ويزود همي وعلام واقف وقد احمرت عيناه يسألني عن ماله الذي أضاعه أبي، يجف ريقي من كثرة النداء ولا يرد وأقوم مفزوعة أصرخ طلبا لجرعة ماء.

***

كانت تكره في السابق خلفة البنات، قال أبي إنها أشارت عليه ليتزوج أخرى تنجـب الولد وأنه طاوعها وهجر أمي لسبع سنوات وادعى أنها انقطعت خلفتها، ولما طالـت عشـرة الأخرى التي لم نرها ولم تنجب لا بنت ولا ولد أشارت عليه ليجرب مرة أخرى فلم يوافقهـا، هل قال أنه طلق الأخرى أو أنها ماتت بحسرة؟ تاهت من ذاكرتي حكاياته القليلة عنهـا ومـا تبقى غير مرارته عندما كان يحكي عن خصام العمة له زمنا، كان يحرص على أن يقول لنا:

ـ فطوم كانت عايزة مصلحتي يا ولاد، وكل شيء نصيب.

يسكت فترة ثم يقول:

ـ صعبت عليا العشرة معاكي يا مريم، أهو لو ما كانش حصل اللي حصل ما كنـاش شفنا عطيات ولا شوق.

كانت أمي تغصب على روحها وتبدي أنها سامحتها من زمن، تحسب أنهـا ترضـيه وكلنا يعرف أنها ما سامحت ولا غفرت لها أبدا، صحيح أنها كانت تطاوع وتمتدح وتقبل كـل ما تشير به العمة دون اعتراض تنفيذا لوصاياه، وكنت أنتظر منها أن تعترض مرة أو ترفض أو حتى تثور في وجهها لكنها لم تفعل أبدا، ظللت أنتظر دون جدوى، وكنت أغتاظ منها عندما تقبل منها محاولات الإذلال وتسكت فأوشك أن أطالبها بعدم السكوت ولا أجرؤ، ما كان يزود وجعي من ناحيتها أنها كانت تضعني وأنا ابنتها في صف العمة، سمعتها بنفسي تحذر البنـات بصوتها المهموس المحاذر:

ـ شوق دي عيلة ما تعرفش، ما حدش منكم يغلط قصادها بكلمة تنقلها لها، يـا مـا نفسي أشوف فيكي يوم يا فطوم يا بنت بهانة، سبحانك يا خلاف الظنون، أهي لا طالت ولـد ولا بنت، اتفرعنت بالكلام وبس، عاشت وبكرة تموت وهي بتتمنى ضوفر عيلـة عميـا ولا هياش ح تطول.

عندما أحست أمي بوقع خطواتي بان في عينيها الفزع وكأنني هم الموت نزل عليهـا على غير توقع، وسرعان ما غيرت نبرات صوتها وتعمدت أن تسمعني:

ـ عمتكم فطوم يا بنات ما فيش أشطر منها في الدنيا دي بحالها، شـملولة وكلمتهـا صايبة، بس يا خسارة...

جلست إلى جوار نعمات وكأنني أحتمي بها من ظنون أمي التي أجبرت نفسها علـى الكذب خوفا مني وأنا التي أعشقها وأكره ضعفها، وعندما تحسست نعمات ظهري فـي حنـو

وكأنها تواسيني انفتحت في البكاء بحرقة، سألتني أمي والبنات عن السـبب قلـت إن كـلاب "الواطية" طاردتني وأنا راجعة وخوفتني، كنت بالفعل خائفة لكنني أيضا كنت غاضبة لأننـي عجزت عن تخليص الصدق من الكذب، ربما كنت أرغب فـي البـوح بأسـباب بكـائي ولا أستطيع.

في الليل جلست مع البنات وهن يستعدن ما جرى للعمة التي ما زالت أمي تريـد أن ترى فيها يوما أكثر مما رأت، كانت قد تعذبت في الدنيا دون ذنـب، دارت علـى الحكمـاء والمشايخ والأولياء سعيا وراء الحلم في الإنجاب دون فائدة، لم تسمع عن شيخ إلا وزارتـه، ودفعت ثمن الحجاب وفك السحر المكتوب لها بلا جدوى راحت لحكيم البندر وحكـيم طنطـا وكفر الشيخ فوصفوا لها حبوبا ولبوسا وشرابا مرا مثل العلقم كانت تشربه على كـره منهـا عسى أن يكون فيه الشفاء ولم ينفع، تمرغت أمام أمي والبنات في حوش زاوية أولاد عـوف قبل الفجر بساعة، حطت بدنها بين قضبان قطار مر فوقها وشيب خصلة من شـعر رأسـها، كنست مقام سيدي الأربعين وأطعمت مساكين الدرب لحما وأرزا ووزعـت علـيهم مقـاطع القماش عشرات المرات، دقت مسمار في لحد طفل مسلم وقت صلاة الجمعة اليتيمة، رشـت ماء الورد وماء الزهر على مدفن نصراني أسلم في الكفر ومات، بالت على شاهد قبر امـرأة عاقر لم تنجب، ظلت تحنو على أطفال الناس وتملأ بهم دارها، تطعمهـم وتسـقيهم السـكر المبلول، استخدمت صوفة وعرت جسمها لبدر التمام، شاف فيها أهل الكفر أياما لكن أمي لـم تشبع، كانت تعايرها من بعيد.. لبعيد بوحدتها وهي تتكلم عن خلفة الأخريات. وحدثتها مـرة بنغمة إنكار عن أحد أزواجها السابقين وكأنها تريد أن تؤكد تصديقها لما سمعته عنه:

ـ الخلق في كفرنا بيولدوا البغلة، قال إيه يا عمه شافوا المخفي درويش شـلبي فـي البراري ومعاه عيل بيقول عليه ابنه، مش كان كشف والحكيم قال إن ما لوش في الخلفة زمان وأنتي وياه؟.

شردت هي لحظات، علها تذكرت خلالها الرجل الذي عاشرته زمنا مثلمـا عاشـرت غيره بلا ثمرة، لم تستنكر الخبر ولم تسلم بصدق حدوثه:

ـ كل حي بياخد نصيبه يا مريم، أهو كلام وربنا يسهل لعبيده.

ليلتها أخذتني معها كما كانت تفعل فتحميني وتمشط شعري وتلبسني ثوبا جديدا تكون قد اشترته لي وحفظته في صندوقها، تطعمني من سد الحنك وتحدثني عن أشـياء لا أعرفهـا وتجاوبني مهما كثرت أسئلتي، لا تشكو من وجع الرأس أبدا، تجعلني أتمدد بينها وبين الحـاج فرج، أغفو وأصحو لأجدها وقد أخذتني في حضنها، وعندما أتقلب تجذبني مرة أخرى علـى صدرها الناعم وتقبلني لأطمئن ثم تهمس لي وقد أسبلت عينيها:

ـ قولي يا امه.

أقول فتشدني إليها أكثر إلى درجة أشعر فيها بالألم، ينكتم نفسي عندما ينـدفس فمـي وأنفي في لحم صدرها الطري، أعجز عن تخليص روحي وأشعر بيد الحاج فرج وهي ترخي يدها التي تحيط برأسي وهو يهمس معتذرا وخائفا علي:

ـ على مهلك يا فطوم.

تخفف من مسكتها وتربت على ظهري فأنام وأصحو، أشعر بقطـرات مـن عرقهـا الدافئ تتساقط على شعري ووجهي، أسمع همسها فحيحا لاهثا لا يشبه صوتها المألوف:

ـ قولي يا بت.. قولي لي يامه.

تكررها عشرات المرات فأناديها بأمي وهي لا تكف عن الرجـاء كأنمـا لا تسـمع صوتي، يسكن بدنها بعد انتفاضة يسيرة أحسها ويبقى اللهاث المتتابع، يمسـح الحـاج فـرج قطرات العرق عن وجهها ورقبتها، ربما يحملني إلى مؤخرة السرير العريض، وربما أشـعر به يغطيها ويتغطى، ربما أسمع صوته يحادثها ولا ترد، وربما أنام ولا أصحو إلا بعد الفجـر بساعة فأراها تبتسم لي وقد استحمت وابيضت أكثر في قميص جديد لم أشهده قبلا، لا تلومني على الصحو المتأخر في تلك الأيام، وربما تطالبني بمعاودة النوم في حضـنها فأنـام وأنعـم برطوبة البدن المستحم.

دخلت عنايات بنت أم بكري من باب المندرة مدفوعة على غير عادتها، كانت تـنهج وتلتقط أنفاسها بعسر وتدور بعينيها في تردد كأنما فاجأها أن ترى علام، انطفأ حماسها وكادت تخرج وهي تتلعثم في كلماتها:

ـ كنت فاكراكي لوحدك..

ناديتها وناداها علام فوقفت عند الباب حائرة ومترددة. شجعها علام لتـتخلص مـن ارتباكها عندما رأته:

ـ ما لك يا بت، متبرجلة كدة ليه؟ البلد نزلها مفتشين التمـوين ولا انحطـت عليهـا داهية؟

ـ لا.. ما فيش.. أصل..

قلت أطمئنها:

ـ اقعدي يا عنايات وخدي نفسك، حصل إيه؟

ـ أصل فيه ضيف عايزك أنتي.. ف دار أبوكي.

تبادلت نظرة مندهشة مع علام، أي ضيف؟ وفي دار أبي التي لا أدخلها بأمر عـلام، لو كان من الكفر لجاء إلى هنا فالكل يعرفون، لا بد أنه غريب.. ولا بد أنني كنت قد أوشكت على لومها لأنها تعرف فبادرت تدافع عن نفسها:

ـ ما أنا عارفة أنك ما بتروحيش هناك، بس هو محكم دماغه، أهو مستنيكي هناك.

ـ وده مين بقى النبي حارسه اللي محكم دماغه كمان؟

قلت بإنكار وأنا أرقبها وأتشكك في وعيها فردت دفعة واحدة لـتخلص نفسـها مـن الموضوع:

ـ سيد.. سيد ابنك.. دا بسم الله ما شاء الله بقى راجل، طول وعرض وعليه القيمـة، قلتي إيه؟

لم تنتظر جوابي وتسللت من المكان كأنما تهرب من النظرات والموقف الذي لا تملك فيه حق إبداء الرأي.. "وما على الرسول إلا البلاغ" كما يقولون، نظرت إلى عـلام فوجدتـه مطرقا وكأن الأمر لا يعنيه أو يعنيه إلى درجة أنه ينتظر مني أن أسأله السماح لي بأن أذهب إلى دار أبي تلك التي امتنعت عن الذهاب إليها تنفيذا لإرادته، رفع رأسه في تكاسل ونظر إلي مليا، لعله أراد أن يتكلم ثم تراجع:

ـ ح نعمل إيه؟

سألته بحذر فرد:

ـ كيفك.

كانت قد مرت سنة أو يزيد منذ تعارك مع أمي بسبب رغبته في أخذ جزء من الـدار يوسع بها دكانه ويعمل فيها مخزنا للبضائع سدادا لبعض دين أبي القديم لكنها لم توافق، طالبها بميراثي فامتنعت، تمنى لها الموت وتطاول عليها فلم تسكت، انقطع بينهما حبل الوداد تمامـا وكان الاختيار أمامي، أما أن أخرب على روحي من أجلها أو أميل مع الـريح حتـى تهـدأ الزوبعة وترجع المياه إلى مجاريها، وقد أراحتني هي عندما بعثت عنايات لتسر إلـي علـى لسانها عبارة واحدة ما زلت أذكرها:

ـ دارك وعيالك أولى بيكي.

ربما كانت وصيتها قد جاءت على راحتي فهززت رأسي علامة لموافقة، أصبح مـن المألوف أن ألقاها في دور الغرباء، أم بكري أو واصفة أو النبويـة أو أي واحـدة مـن دور الدرب، قطع علي صمتي بعبارته:

ـ مستنية إيه؟ قومي إلبسي.

ترددت فأصر فقمت، أخذت سعاد معي وسمعته يقول مودعا:

ـ ح أحصاك.

كنت بين مصدق ومكذب والبنت تسبقني فأستمهلها حتى وصـلنا إلـى بـاب الـدار المفتوح، رأيته واقفا قبالتي وأمي تتنفس بارتياح وهي تنظر ناحيتي:

ـ أهي جت.

واجهني الولد الذي أخذوه مني وغاب أو غيبوه، كان يتأملني وأتأملـه فـي صـمت، وجهه الباسم يداري حزنا مدفونا خلف تقاطيعه، والعود فارع وصلب يسكنه جرح نزف علـى امتداد عمره، هل بكيت أولا أم أن عينيه دمعتا قبلي؟ لا أذكر، أذكر أنني أخذته في حضـني بفرح وتحسست بدنه وأنا أتذكر قطعة اللحم الطري الصارخ يوم أخذوه مني آخر مرة، ربمـا أكون عاتبته على اختيار مكان اللقاء في هذه الدار الخراب واحتجت أمي، وربما تكلم هو عن أصول يرعاها فلم أعلق على كلامه، رحت أتأمله ويتأملني قبل أن ألومه لأنني سـمعت أنـه ذهب مرة إلى دار صالح ولم يفكر في زيارتي، لعله شعر بالخجل فدافعت عنه أمي:

ـ كان جاي مع أبوه يعزوا في ابن عم أبوه.

نظر إلى سعاد وسألها:

ـ في سنة كام؟

ـ سنة رابعة..

لم يعلق.. دخل علام وسلم بحرارة أراحتني وهو يتمتم:

ـ ما شاء الله..

تبسط علام ووجه الحديث لأمي فردت عليه بنفس البساطة وقلت لنفسي هـي بشـرة خير أن يصالحها يوم زيارة سيد، سأله علام عن مدرسته فضحك وأوضح أنه أنهى دراسـته في الجامعة منذ عامين وأنه موظف، سأله عن مكان عمله وعنوانه فكتب له كل شيء، كـان من الواضح أنه لا يعرف علام ويناديه أو يرد عليه قائلا له:

ـ يا حاج.

ـ حاج إيه؟ إنت مش عارفني؟ اعتبرني خالك علام بلاش جوز أمك، طيـب بـلاش دي، مش كان يصح برضه تروح لأمك دارها؟

ـ أصل..

ـ اصل إيه وفصل إيه يابني.. داحنا قبل كل شيء أهل، قومي يـا سـت أم شـاكر واسبقينا ع الدار، عاوزين نتغدى غدوة حلوة من إيديكي، ح نحصلك.

أذكر أنني قمت وانتظرت ساعة ولم يحضر سيد أو علام ولا بعثوا لي مرسالا يعفيني من الانشغال بغداء لم يكن له منه نصيب.

اعتدنا من جواهر أن تجلس وحيدة على أول درجات السلم أو على "الحصير" أو فـي صحن الدار، حافية القدمين غالبا وثوبها متسخ بالأوحال والروث، ونادرا ما كانـت تشـاركنا جلساتنا الليلية في المندرة أو القاعة، يتذكرونها عندما يحتاجون إليها فينادون أو يبعثون إليهـا لتجيء تطلب منها أمي أن تملأ الزير من ماء الترعة أو تأمرها نعمات بغسيل الحبوب فيهـا، يطلب منها أبي ترتيب الزريبة فتهز رأسها علامة الموافقة وتبدأ العمل، تغطس في وسط الدار

أو تنزرع في داخل الزريبة لساعات وساعات تفرش الرماد تحت حوافر العجول والجاموسـة "الحلابة" وتكوم "السبخ" في ركن حتى يدخل ابن الزناتي بالحمير ويقوم بتحميله ونقلـه إلـى الغيط، ربما يفوت موعد الغداء أو العشاء وهي في الداخل دون أن يـذكرها أحـد وعنـدما يتذكرونها يتحدثون عن التعب الذي لا بد وأنها شعرت به والشقاء الذي احتملته دون اعتراض أو شكاية، كانت تأتي من الداخل تنفيذا لطلب أو ردا على نداء بثوبها الذي شـمرته وجعلتـه مربوطا إلى وسطها والعرق ينز من عنقها ولو كنا في عز الشتاء، يطالبونها بأن ترتاح وتكف عن الشغل فتكف، تجلس في أحد الأركان في هدوء وتبدو للصغير والكبيـر جـاهزة لتلقـي الأوامر وتنفيذها دون مناقشة، مفصولة عن أهل الدار وكأنها ليست من لحمنا ودمنـا، كانـت تبدو لي غريبة بالفعل عنا، غريبة ومختلفة بشكل ملحوظ، ونادرا ما كانت تستحم دون عراك مع أمي أو العمة أو حتى نعمات التي كانت تعايرها بعفونة ثيابها والكسل: لا أذكر أنها لبست أمامي ثوبا جديدا يخصها، ربما كان " الخليع " أو ما تستغني عنه أمي أو تخلعه نعمات هـو كل كسوتها، وربما كان أبي مسئولا عن ذلك لأنه قبل دخول الأعياد ومواسـم الكسـاء كـان يطيب له أن يرتب الأمر معنا، يتحدث عن نواياه وعدد الأمتار التي سوف يـأتي بهـا لكـل واحدة، كان يذكرنا جميعا وينساها حتى عندما تنبهه العمة أو أمي بجواهر يداري خجله بعبارة حفظناها وتندرنا بها من كثرة تكرارها:

ـ وهو معقول أنسى جواهر؟ دي جواهر.

لكنه كثيرا ما كان ينساها أو يتناساها، يتصادف أن تكون معنا بدعوة من الكبار لترى قطع القماش وألوانها ولمن اختارها أبي، ونادرا ما كان يظهر لنا أن لجواهر نصـيبا مثلنـا، حتى لو لامته العمة يضحك وهو ينظر إلى جواهر ويقول:

ـ أصل جواهر دي عاقلة، هي اللي فيهم، ما هيش بتاعة كلام فارغ من ده تلبس من هدوم أمها أو هدوم نعمات، مش كدة يا جواهر؟ قلبها على أبوها وعايزة توفر له.

يقول ويضحك وربما نجاريه ونضحك فتضحك ولا تبدي أي اعتـراض أو احتجـاج حتى نوشك أن نصدق أنها بالفعل الوحيدة العاقلة بيننا، لكنها في الحالات النادرة والتي يقـدم لها أبي قطعة من القماش تخصها، كانت تقلب طرف القماش بين أصابعها بفرح وتسأل الجميع إن كان لونها يليق بها وتتلقى الأجوبة، تبدو سعيدة ومنشرحة لساعة أو ساعتين ثم تشير إلـى نعمات أن تقترب منها لترجوها وهي تحوطها بين يديها وكأنها تستجديها:

ـ يا ريت تفصليها عليكي.

كانت نعمات لا تعترض لأنها تفعل نفس الشيء في ثياب أمي التـي تفصـلها علـى مقاسها، الفارق الوحيد هو أن أمي كانت تأخذ ثيابها الجديدة بعد تفصـيلها وتجريبهـا علـى نعمات، أما جواهر فكانت تنظر إلى نعمات وهي تقيس ثوبها الجديد ثم تقول لنفسها:

ـ حلو عليها خالص.

وبعدها توجه كلامها لنعمات:

ـ مبروك عليكي.. أنا وأنت واحد.

ومهما حاولت نعمات إفهامها أن لديها ثيابا جديدة لا تقبل أخذ الثوب منها أبـدا، قـد تترك المكان إلى وسط الدار فرارا من الإلحاح أو تطلب من نعمات البديل من الثياب القديمة:

ـ ابقي اديني بداله القميص أبو وردة زرقة.

كانوا يتبادلون النظرات ويؤكدون أن هذه البنت فيها شيء لله وزاهدة في الدنيا، كنـت أشعر بالخوف منها في بعض الأحيان، تطمئني نعمات وهي تسخر منها بجرأة:

ـ دي عبيطة ومعفنة وتلاقي القمل بيشغي في رأسها من كتر الوساخة.

كنت أصدق كلام نعمات وأتخيل أن رأس جواهر المربوط دائما بالمنديل والذي نادرا ما تحل ضفائره لا بد وأن يكون فيه قمل: حتى يجبرونها على الاستحمام أو غسـيل رأسـها تحت الطلمبة فأرى شعرها المحلول طويلا وناعما وغزيرا وهم متحمسون في تمشيطه بحثـا عن حشرة واحدة ولا يجدون، لا تغضب منهم مهما قالوا عنها، وتقوم بكل الأعمال الصـعبة في الدار، تحمل قفف القمح المغسول والذرة وتطلع بها إلى السطوح، تفرشها على المـلاءات والأحرمة والحصر حتى تنشف في الشمس قبل النقاوة، والطحين تقوم بتنزيلها وتنتظر حتـى تنقي القمح من " الحصو والكحريد " لكي تحملها قفة وراء قفة إلى الطاحونـة عـدة مـرات، تطحنها وتعود بها دقيقا ناعما وقد تعفرت، كنت أذهب معها أحيانا فأراها وهي تهبـد فتحـة الطاحونة الصاج براحتيها بعنف وقوة لينزل كل دقيقنا من الفتحة ولا يتبقى منه شيء مركون في " القادوس "، كانت أمي ترضيها يوم الطحين بعبارة لا تتغير:

ـ آخرتك ح تبقى بيضه زي الدقيق العلامة.

تفرح جواهر وتبدو كما لو أنها لم تتعب طوال النهار، وكثيرا ما كانت تتطـوع فـي الصباح التالي بتجميع روث البهائم في حفرة وتضيف له نخالة التبن الناعمة وتهرسه بقـدميها هرسا متواصلا، وربما في الليل ترصه أقراصا جديدة فوق القديمة أو في فراغـات السـطح وتهمس للأم بأنها جهزت للخبيز وقوده فتدعو لها بالستر وعدم الفضيحة.

وكانت هي الوحيدة التي تجرؤ على ربط العجول المحلولة فـي حلقاتهـا إذا انفكـت حبالها، حتى أبي لم يكن يعرف كيف يقود عجلا معلوفا أو يسايسه كما كانت تفعل، بارعة في سقاية المواشي وتقديم العلف لها في الأوقات المناسبة، وكم وعدها أبي بمكافأة نظير جهـدها في الدار ونادرا ما كان ينفذ أو يوفي لها وعده، كان يكفيها سماع كلمة طيبة منه أو ربتة على كتفها.

وعندما كنا نجتمع ساعة العشاء في المواسم كانت تأتي تنفيذا لاستدعائهم، تجلس على مقربة من الطبلية عند طرف الحصير وتمد يدها برغيف جاف لتضع لها أمي نصـيبها مـن الغموس أو " الزفر "، وفي كل مرة كانت تتعلل بأن ثوبها ليس نظيفا أو أن قدميها قذرتان أو أن يديها متسختان، كانت تأخذ نصيبها المقسوم وتغطس في وسط الدار، ربما تبلعـه بلعـا أو تداريه في مكان، لكنها تعود بسرعة وتجلس في انتظار انتهائنا من العشاء لتتولى حمل الطبلية وصينية العشاء، كان أبي يتابعها بنظراته عندما نترك المكان ذاهبة إلى وسـط الـدار وهـي تحمل ما نابها ويحدثنا بحماس الواثق:

ـ اقطع دراعي إن ما كانتشي البنت دي مخاوية جني من تحت الأرض.

وربما قبل أن يكمل عبارته تكون جواهر قد عادت ووقفت أمامنا فأشعر بشـيء مـن الخوف منها والرهبة، وربما كنت في الصباح التالي أتودد إليها وأحاول أن أرضيها بعبـارة تدل على الحب، وفي كل مرة كانت ترد على من يسألها إن كانت قد أكلت نصيبها فترد قائلة:

ـ مقطوع منه النصيب، كلته القطط والكلاب.

وكنت أتشكك وأقول لنفسي أنها أكلته بمشاركة الجني بعد رقادنا، وربما لأننـي لـم أشعر ولو مرة واحدة أنها أحست بالندم لفقدان نصيبها، بل العكس يحدث، كانت تبدو وكأنهـا أدت واجبا مفروضا نحو تلك القطط والكلاب التي تتحدث عنها وأمي تعلق وهي توشك علـى الانفجار غيظا:

ـ أنا طهقت م الكلام معاكي، خلصت من ذنبك، كنتي دافساه في وسط الـدار يعمـل إيه؟ وما تتعشيش في وسطنا ليه؟..

ولا يبدو على جواهر أنها تأثرت بالكلام مرة أو فكرت في تغييـر عادتهـا، كانـت تتركها وتدخل إلى وسط الدار، تجلس على أول درجات السلم وتضع خدها على راحتها وتتوه عن دنيانا، تدخل دنيا غير الدنيا، ومهما حاولنا الكلام معها أو التخفيف من وحـدتها لا تـرد، نتركها وننساها وربما تبقى في وسط الدار يوما أو يومين لا تسمع لها صوتا قبل أن نفاجأ بها تسب ابن الزناتي شيال " السباخ " لأي سبب من الأسباب، وهكذا دائما كانت موجـودة بيننـا وغائبة عنا حتى حدث ما حدث عندما عدنا إلى الكفر في عصر ذلك اليـوم بصـعوبة مـن مدرسة البندر، وكان المطر قد حول السكة الزراعية إلى وحل طري أملس، سقطنا فيـه أنـا وعطيات أكثر من مرة واتسخت ملابسنا الجديدة، كنا نرتجف ورخات المطر تتسـاقط فـوق رأسينا، دخلنا الدرب الساكت وقد خلا على غير عادته من الناس، لكننا وجدنا زحاما عند باب دارنا عندما انحرفنا في الزقاق، كانت الدار نفسها مزحومة بالرجال والنساء والأولاد وأمـي تلبس السواد وإلى جوارها أم بكري وأبي هناك عند باب المندرة وسط رجال العائلة وبيـنهم تقف العمة محاطة بهم وعيناها زائغتان إلى درجة أنها لم تلتفت إلينا أو تحدثنا، كـان هنـاك

همس وصخب ودمدمة وصراخ مكتوم في حلوق النسوة، جاءت نعمات وأخذتنا مـن وسـط الزحام، لم نسمع ما قالته وإن كنا أطعناها وطلعنا معها إلى المقعد الشرقي، طلبت منا أن نخلع ثيابنا المبلولة ونبدلها بجلابيب البيت ففعلنا، سألتها عطيات عن سر الزحام واللمة فحاولت أن تداري لكنها لم تستطع، قالت من بين نشيجها المكتوم:

ـ أختكم جواهر، الديب قتلها، نط في وسط الدار وكلها، كانت باينة في الخلا والديب طالها، كفنوها ودفنوها وانتو في المدرسة، سنة سودة السنة دي.

أوشكت أن أصرخ فحطت هي كفها اليمنى على فمـي وطـالبتني وعطيـات بعـدم الصراخ أو مجرد البكاء بصوت محذرة:

ـ ما حدش منكم يفتح حنكه، إحنا لنا عدوين في الكفر، ونهار الحكومة ما تشم خبـر ح يطلعوها م التربة ويأخذوا أبوكم يحبسوه ومش بعيد ينشنق.

أصابني خرس مرعوب والحزن العاجز يغزوني لأول مرة في حياتي، كانـت هنـاك فجيعة في أخت دفنوها في غيبتنا وكانت في الليل معنا، وقلق مجهول عن أب مهدد بحبس أو شنق دون ذنب، وخوف مبهم من ذئب جسور يتخطى كل الجدران ويقتل، ربمـا مـن كثـرة الرعب نمت وأفقت على تلك الحقيقة الجديدة وهي أن جواهر ليست في وسط الدار.

كنا في الأيام التالية نتخوف من وسط الدار وصحنها، حتى نعمات وأمي وأبي والعمة كانوا يتهربون من الدخول لسقاية المواشي أو تقديم العلف لها، وكان البكري هو الذي تطـوع بتأدية هذا الواجب الصعب أياما.

وفي المدرسة تحدثنا للبنات عما جرى فووجهنا بحكايات خسيسة عن ابـن الزنـاتي وتدبيرات العمة ومقتل البنت في المتبن وسر اختفاء ابن الزناتي نفسه من الكفـر فـي نفـس التوقيت " ولو كان لابن الزناتي أهل لأبلغوا الحكومة وأخذوا قاتله بدمه.. ولو كـان للـذئب البريء من دم البنت الفسدانة صاحب لدافع عنه بأعلى صوت في دروب الكفر الذي يعـرف كل ناسه ويكفون على الخبر ماجور ".

قلنا لنعمات فأمرتنا بأن نكف عن ترديد هذا الكلام الفارغ مرة أخرى، شتمت البنـات قليلات الحياء ممن يجرؤن على نقل مثل هذا الكلام الفارغ والفاجر عن بنات النـاس الطيبـة بهدف خراب البيوت العمرانة، بعدها اعتدنا السماع دون رد أو فتح السيرة لنعمات أو غيرها من الكبار، وما عدنا نتجاسر على ذكر اسم جواهر في حضورهم، تماما مثلما كانوا يفعلون.

شاكر وجع قلبي وحيرني في أمره، خاب في المدارس سنة بعد سنة، جربنا معه كـل الطرق، نقلناه من مدرسة إلى مدرسة، اكترينا له الأساتذة بأجر فما استجاب، زودنا مصروفه ومنعناه، سلمناه الدكان في أجازة الصيف فما باع بضاعته الراجئة بسبب لسانه المفلوت ومـا احتاط لقرش ولا صرف في المفيد، عجينة فسدانة استعصت على التشكيل، وفي كل مرة كان

علام يلومني ويعايرني ناسيا أنه بذرته وقطعة منه، بطريقته يمشي ويتكلم " أنت مفسدته وهو عملك، عملك الرديء " يقولها علام فيشعل في قلبي نارا ويزود فيه المرار، فرحتـه بخلفتـه زادت عن حدها المعقول، كان يأخذه معه في كل مكان وهو صبي ما زال يسهر بـه وسـط مساطيل الكفر والكفور المجاورة، ويصاحب أولاد الليل وخباصين الناحية، لا أدب عندهم ولا حياء، وكلما اعترضت عارضني:

ـ مالكيش دعوة بيه، خليه يعرف الدنيا على حقيقتها.

في السابق كنت أقول لنفسي لا بأس، أن يزرع فيه طباع الرجل رجاء أتمناه، حتـى عندما كان يتطاول بلسانه في الرد علي كنت أتسامح، أعفو عنه إذا ضرب البنت، وكنت أرى فيه الأخ الذي حرمنا من وجوده وانكسرت نفوسنا لأنا لم نحصل عليه أبدا، أداديه كرجل ينمو ويغلظ صوته، وأطيب خواطر البنات الشاكيات من مشاكساته بالفعل أو باللسان، أتخيله رجلا وأستعجل دورة الأيام والسنين لكنني أفقت من خدر الأمنيات ليلة أن بلغني أنه جالس رجـال السيد الدباغ في البندر في قعدة حشيش يدخنون على حسابه، ما خوفني غير استغلاله في دفع الثمن هو احتمالات إفساده في أمور لا أعرفها، أولاد الدباغين شهرتهم في الفساد والإفساد لا تقف عند حدود، تجارة مخدرات وتقليع زرع وسم مواشي وتأجير لقتل الخصوم وخطف بنات وتخريب دور، يفعلون كل المصائب ولا يهابون حبسا ولا حكومة والولد مجـرد تلميـذ فـي الإعدادية فهل يطمئن عليه قلب الأم؟ ليلتها فاتحت علام وحذرته من الخطر، لم يـوقفني مـا كان يتهمني به:

ـ كله منك، دلعتيه لحد ما خاب، والخلق دول ما لهمش أمان، خايف يكونوا متأجرين عليه.

ولأول مرة تمتد يده على الولد، ربطه بحبل وظل يضرب بعيدان القطن التي تتكسـر على جسم الولد فيبدلها بأخرى تترك آثارا دامية وكأنها كرابيج سوداني وصراخ الولد لا يفيد، كان يضرب بخوف كامن في أعماقه من احتمالات فقده والولد يستجير ويفشي أسرارا ما كنـا ننتظر سماعها تزود خوفنا عليه..

وفي الليل حدثني علام عن سر ابن الزفتاوي الذي دفنوه في أرض أبيه بواسطة أولاد الدباغين فاندهشت، ما كنت أعرفه وشاع هو أن ابن الزفتاوي طفش من أبيه بليل وما ظهرت عنه أخبار:

ـ أصل أنتي في نومه، نسيتي التار اللي كان بين أبوه وبين ولاد الملاح، أهو ده راح قصاد التار.

ـ بس دول اتصالحوا، الملاحين والزفتاوية.

ـ كلام، صلح الديب ع الغنم، هو التار القديم بيموت؟

تذكرت ما كان يشيع عن ذلك الصلح الذي تم بين السعيد الزفتاوي ودار الملاح وكيف سرت حكايات عن الصلح بعد العداوة فصدقناها حتى طلع السعيد الزفتاوي من وسط زراعات الذرة في عز الظهر حاملا بلطته لزين الملاح ونزل بها على رأسه فقسمها نصفين كما أكـد كل من حضر الواقعة وهو يهدر:

ـ دم الشريف الزفتاوي ما راحش هدر يا ملاحين.

ومن جديد عقدوا صلحا بعد أن دفنوا زين الملاح، وقالوا هو دم بدم والصلح الجديـد تدعمه المصاهرات واختلاط النسب، لكنها كانت إن صح كلام علام مجرد أكاذيب وكلام فض مجالس، ولا بد أنه سيجيء اليوم الذي يكتشف فيه السعيد الزفتاوي أمر ضناه، يومهـا مـن يدري كيف يكون حال الكفر.

ـ وعرفت ده كله إزاي؟

سألته فبدا عليه أنه تذكر أمرا كان قد نساه وقام في منتصف الليل إلى الولد المربـوط يضربه من جديد ويحذره من مصاحبة أولاد الدباغين، قال الكثير وهو في غير وعيه وعرفت الكثير، ولكثرة ما عرفت زاد خوفي على شاكر، هل كانت بينه وبينهم اتفاقات قديمة علـى دم مسفوح، أم أنه هو نفسه الذي يبدو حريصا إلى أبعد الحدود قد شارك في قتل نساء الناس أيام تجارة الصنف، وماذا أفعل لو تعرض شاكر لمثل ما تعرض له فهيم ابن الجازية التي رأتـه مرميا على طرف المصرف القديم ودمه الجاف من وقدة الشمس قد صـار هـدفا لأسـراب الذباب الأزرق قرب المدافن ولوح الاردواز مكسور تحته ومطموسة منه نصف الآيـة التـي كتبها في صباح نفس اليوم في الكتاب، من يومها تدور في دروب الكفر وتنادي على فهـيم، تمسك كل صبي يلقاها وتسحبه من يده فيصاب برعب وهي تقوده غصبا في اتجاه دارها كما كانت تفعل مع القتيل، لم تبرد نارها وعقلها لم يحتمل صدمة ضياعه دون أمل في تعويضه أو أخذ ثأره، وربما بسبب عجزها غاب عنها العقل وما عاد، تذكرتها وخفت أكثر وأصبح شاكر همي ووجعي على مدى الأيام.

عطيات كانت بارعة في عمل عرائس القطن لنفسها والبنات، تقص قماشها وتخيطـه وتحشوه بالقطن المحلوج فيصبح على شكل عروس، ترسم عينيها وحاجبيها وأنفها وشـفتيها وتضع فوق رأسها خصلة من شعر البنات المدفوس في الشقوق فيتعجب كل من يراها ويقول إن عطيات استطاعت أن تجعل عروس القطن شبه البني آدم، كانت العمة تتفحص كل عروس جديدة وتبدي استحسانها ورضاها:

ـ عجايب.. ناقصها تتكلم.. شاطرة يا بت.

تفرح عطيات وتجري في طول الدار وعرضها لتراها قبـل أن تضـعها مـع بقيـة العرائس التي عملتها، كانت عطيات رغم ضعف جسمها أكبر مني بسنة وإن كان من يراهـا

يحسبها أصغر، صفراء الوجه ممقوتة وعودها ممصوص، عصبية ولا تشارك في شغل الدار ولو انهدت الدنيا، إذا أجبروها على عمل شيء تفسده عمدا أو بغير عمد، وإذا عاقبتها أمي أو وبخها أبي تشوح بيديها في الفراغ وتبرطم بكلام غامض فنضحك عليها وأحيانا نفاجأ بها وقد ارتمت على الأرض، يحملونها وتصرخ أمي:

ـ البنت قطعت النفس.

كنا نعرف علاجها، مجرد بصلة تكسرها ونقربها من منخارها فتشمها وتفيق، ربمـا تتلفت حواليها وتسأل أول من تراه عما جرى فنعاود الضحك وقد زال عنها الخطـر، نسـمع أمي تحمد الرب لأنه رد فيها الروح، وإذا كان أبي حاضرا يداعب أمي ليطمئنها على البنت:

ـ قلبك خفيف قوي كدة ليه؟ بكرة المزغودة دي تكبر وتـوريكي النجـوم ف عـز الضهر.

ـ بس تعيش.

ترد أمي وقد اطمأنت مبدية استعدادها لاحتمال عطيات في كل الحالات وهي تربـت على شعرها في حنو زائد.

وعندما سقطت عطيات في حوش المدرسة الابتدائي لأول مرة التفت حولها النـاظر والأساتذة في قلق، صبوا أكواب الماء البارد على رأسها ووجهها دون فائدة، ضحت " الأبلة " الجديدة بما تبقى من زجاجة العطر في حقيبتها دون جدوى، تحيروا في أمرها وحملهـا عـم شافعي الفراش إلى حجرة الناظر وأنا خلفهم أصرخ:

ـ هاتوا لها بصلة.. هاتوا لها بصلة.

وبصعوبة فهموا قصدي، جرى عم شافعي وأتى ببصلة كبيرة كسرها وقربها من أنفها فارتعشت تقاطيعها وجبهتها قبل أن تفتح عينيها وتغمضهما عدة مرات وقـد نزلـت منهمـا الدموع من أثر رائحة البصل، سألت هي الناظر لابس الطربوش الذي كـان فـي مواجهتهـا وأول من تحققت من وجوده عما جرى ولماذا جاءت فضحك وضحكت الأبلة وضحك الأساتذة وعم شافعي قبل أن يقول لها الناظر بفرحة من انزاح عن صدره هم ثقيل مفاجئ:

ـ قومي ادخلي فصلك يا أم بصلة.

قهقهوا وأنا أخرج وراءها من حجرة الناظر وأحدثها عما جرى، بعدها شـاع الاسـم الذي أطلقه الناظر عليها، " أم بصلة " ولم يكن يغضبها سماعه من الناظر أو الأبلة الجديدة أو أي واحد من الأساتذة لابسي الطرابيش أو حتى عم شافعي، لكنها في الـدار كانـت تركبهـا العفاريت الزرق والجان إذا سمعته، ضربتني في أول مرة أقولها لها في وسط الدار، قطعـت خصلات شعري ومزقت قميصي الجديد، قوتها التي لم أتوقعها أربكتني، بعدها طلبـت مـن نعمات أن تخاصمني.

ـ دي فتانة وح تتكوي بنار جهنم يوم القيامة.

كانت غضبانة لأنني نقلت الاسم الشائع في المدرسة إلى الدار، كان اسمها الجديد قـد شاع في المدرسة وتردد على ألسنة البنات والأساتذة والناظر لابس الطربوش، ولكنها لم تكن تغضب، كأنها عملت حاجزا بين المدرسة والدار وحددت المسموح به وغير المسموح بحسب هواها، وإذا انفلت لسان في الدار يناديها بالاسم كانت تبكي وتنتحب حتـى يغلبهـا النعـاس وتتكوم راقدة في أي مكان.

وحرصا على عطيات أفهموني أنني مسئولة عنها في طريق الذهاب إلـى المدرسـة والعودة منها، كانت تضع في " مخلاتها " بصلة وسط الكتب والكراريس وكنت أسيرها بحسب رغبتي، أخوفها بأنها ما لم تطاوعني فسوف أتركها تموت في سكة البندر إذا أصابتها الدوخة وغابت عن الوعي، ورغم أنه لم يحدث أن أصيبت بها في الطريق مرة، كانت تخاف، تأخذني في حضنها وتسألني بإنكار:

ـ ح أهون عليكي؟

ـ لا ما تهونيش.. بس اسمعي الكلام.

كانت تحبني وأحبها، وكانت تحب الناظر لابس الطربـوش وتفهمنـي أن طربوشـه يختلف عن طربوش عصمت أفندي الصراف أو طربوش أبي الذي يلبسه في المناسبات:

ـ طربوش نسر زي اللي بيلبسه الملك ابن الملك قريبنا.

أضحك أحيانا وأعترض على حماسها وأحيانا أسـايرها وأمتـدح طربـوش النـاظر وطربوش الملك فتفرح وتوشك أن تطير ولا تكف عن الكلام، حتى نصل إلى باب المدرسة أو باب الدار.

كانت الأجازة الحزينة التي قضيناها من غير جواهر قد فاتت وانشغلنا أنا وهي فـي المدرسة، وكان خوفنا من دخول وسط الدار وصحنها أو طلوع سطوحها ومقاعدها قد قل، كنا نتواجد في تلك الأماكن وقد نسينا ما سمعناه، وذات ظهيرة عدنا من المدرسة ودخلنـا وسـط الدار نرمح لنرى العمة التي كانت تجلس أمام الكانون مزرودة الوجه من أثر النار والـدخان يحاصرها وهي تنفخ فيها بعصبية، عندما رأتنا نادتني لأنفخ النار المدخنة وطلبت من عطيات أن تركن مخلاتها وتناولها بصلتين من قاعة الخزين، رجعت عطيات في اتجاه القاعة وظللت أنفخ والنار تبعث الدخان ولا تشتعل، كانت العمة تمسك في يدها السكين اسـتعدادا لتخـريط البصل الذي بدا لها أن عطيات تلكأت في إحضاره، فنادت عليها عدة مرات تتعجلها:

ـ البصل يا مخفية.. هي ما بتردش ليه أم بصلة دي كمان؟

وعندما أكملت العمة عبارتها رأيت عطيات من خلال الدخان الكثيف تعبر " الخوخة " وتقف مكانها، تلقى على طول ذراعها عدة بصلات في اتجاه العمة أمـام الكـانون، سـمعتها تبرطم وتشوح بيديها وتصرخ محتجة:

ـ اسمي نيلة عطيات.. اسمي نيله عطيات.

تأججت نار الكانون فجأة وشعرت بالسخونة فانزحت إلى الخلف وقامت العمة بعسـر في اتجاه صحن الدار وهي تكيل الشتائم لعطيات وصنف عطيات والمدرسة التي علمتها قلـة الأدب، سألت عن شبشبها " وملسها " وطرحتها علامة الغضب الشديد وتهديدا بالخروج مـن الدار، ولا بد أن أمي أو نعمات قامت بإخفاء هذه الأشياء حتى لا تتمكن مـن تنفيـذ رغبتهـا وتهدأ وقد ينتهي الغضب على خير، جلست العمة تهدر وحاولت نعمات إقناع البنت بالـذهاب إلى العمة لتطيب خاطرها بينما الأم تحاول الاعتذار بدلا من عطيات، لكـن البنـت عانـدت وركبت دماغها ولم تذهب. حاولت معها الأم فلم تستجب، حتى عندما جاء أبي وحاول معهـا على طريقته لم يفلح، بل إن البنت تعصبت أكثر فتركها تأكل روحها كما قال وجالس العمـة مبسطا الأمر ومؤكدا أن البنت صغيرة لا تدرك ولا تقصد حتى أكملت أمي ونعمـات عمـل العشاء، رصوه على الصينية وشد أبي يد العمة التي هدأت لتنزل:

ـ اقعدي يا فطوم اقعدي.. إحنا ح ننكد على روحنا في ليلة مفترجة زي دي عشـان عيلة ما تدركش؟

ـ يخيبك يا بعيدة، أنا يا خويا ما لحقتش، هو إيه أصله؟

يكونش بصل الناظر بتاعكم حلو وبصلنا حراق يا بت؟

قالت وهي تنظر ناحيتي فضحكوا بشدة، ربما كانوا يصالحون العمة بتلـك الضـحكة وربما توقعوا أن تلين عطيات وتأتي، لكننا سمعنا شهقات البنت حارة ونهنهاتها تفلـت منهـا لتؤكد لنا أنها كانت تبكي بحرقة، كان وجه أمي قد ارتبك خوفا أن يحدث للبنت مكروه وهـي وحيدة في القاعة، وكان وجه العمة قد صار مغلولا وبياض خديها يوشك أن يتحول إلى زرقة خالصة ثم قامت تسب وتلعن البنات وخلفة البنات وقلة أدب البنات، ولا أدري كيـف أفلحـت هذه المرة في العثور على الأشياء المخفية، جهزت نفسها وخلصت أطرافها بعنف فـاق كـل محاولات إبقائها، كانت العمة قد انفلت عيارها وأصبحت واحدة أخرى، خرجت من باب الدار بليل وأبي في أثرها يحاول إعادتها وتزداد صخبا وهي تمشي في الدرب ناحية دارهـا حتـى ابتعد صوتها فاختفى أو كاد، وعاد صوت الشهقات المتقطعة الآتية من القاعة، ذهبت نعمـات والأم إلى البنت ووقفت حائرة وقلقلة من احتمالات توهانها كعادتها، عندما عاد أبي كان يبـدو غاضبا وثائرا على الجميع، كان يسب ويلعن هائجا بلا حدود ثم أصدر أمـره بعلـو صـوته مؤكدا على كل حرف:

ـ البنت دي ما تروحش مدارس من بكرة، تقعد في البيت وكفاية الكلام اللـي اتقـال علينا لحد كدة.

كان من الواضح أنه اتفق مع العمة على ذلك وأنه ليس على استعداد للتراجع، لم يعلق على قراره أحد، تكورنا في أماكننا وسمعنا هزهزات السرير الذي طلع للرقاد عليـه بجلبابـه الكشمير دون أن يفكر في تغييره، كان يلف الدخان لفافات يدخنها ويرمي أعقاب السجائر في أرضية المندرة، وكلما غفوت وصحوت وجدته يدخن أو يلف سيجارة جديدة حتى طلع النهار وأيقظتني نعمات لألبس ثياب المدرسة وحدي وأخرج وحدي وعطيات راقدة مكانهـا تتقلـب وأمي تتجاهلها وكأنها اتفقت مع أبي خلسة أثناء الليل بأن ذلك اليوم هو أول أيـام انقطاعهـا الدائم عن المدرسة التي عشقتها مثل الناظر الذي كان يؤكد لكل الأساتذة أن عطيـات سـوف تشرف مدرسته بنجاح متفوق في ابتدائية هذا العام، وربما لم يعرف أبدا أنـه دون أن يـدري كان سببا في منع تلميذته المتفوقة من الاستمرار في الدراسة، مجرد الاستمرار.

بعد أيام من الرقاد المتواصل الذي امتنعت فيه عطيات من تناول الطعام رغم الإلحاح عليها من الجميع جاءت العمة، اقتربت منها أمي ورجتها:

ـ أبوس إيدك يا عمة، أبوس رجلك تعفي عنها وتسامحيها.

قالت وهي تمسك بالفعل بيدها اليمنى وتقبلها مرات متكررة على ظهرها، ثم تنحنـي وتمسك بساقها التي خلصتها العمة من يديها بقوة فانكفأت أمي بشدة على وجهها، ولا بـد أن الخبطة أوجعتها وأن احتملت وزحفت على الحصير وقد انحل المنديل عن رأسـها وزحفـت على الحصير ضفيرتاها مستمرة في الرجاء بمذلة أكثر للعمة الواقفة:

ـ البنت يا عمة ح تروح فطيس.

ـ تقطع بروحها يا مريم، أروح أحب على راسها لجل تتسمم وتاكل، أتحايـل علـى بنت لا راحت ولا جت بعد شعري ما شاب؟ يا ريتها كانت ولد يا مريم وأنا أتحايل عليه.

كانت تنظر ناحية القاعة حيث ترقد البنت، لعلها ترددت قبل أن تتجـه ناحيـة بـاب الخروج غير مستجيبة لكل النداءات التي تئن بها أمي، لعلني في تلك الساعة كرهت ضـعف أمي وقسوة العمة، كانت نعمات في القاعة وبدا لي أنني أسمع صوت عطيات لاهثا بعسر إنما بإصرار:

ـ هي السبب في كل حاجة.. هي السبب.

وما زلت لا أعرف إن كانت تقصد العمة أو أمي، تلك التي كانت تنظر إلى مصـدر الصوت بيأس كامل، لعلها كانت قد أدركت قبلنا أن نهاية عطيات كانت تقتـرب وأن أيامهـا معدودة بيننا، كانت البنت قد كفت عن تناول أكواب الماء التي تحليها نعمات بقطـع السـكر، كانت تكتفي بالماء الخالي من أي إضافة، وكان وجهها قد ازداد صفرة وجسدها يتصبب عرقا

ولا يجف، ولم يكن هناك غير عينيها الملونتين تنظران إلى الوجوه في سماحة أو إلى خشـب السقف، كانت تجرؤ على تأنيب أبي لأن العمة تسيره على هواها بمالها وكان لا يرد عليهـا، يبدو متألما وعاجزا عن فعل شيء فيخرج من القاعة أو يهرب من كل الدار تاركا أمي وحيدة وقد أحنت رأسها في انتظار الموت.

ـ يا كبدي يا بنتي.. هو انتي حمل ده كله؟

كانت تسألني عن المدرسة والناظر لابس طربوش النسر فأحكي وأحكي وفي داخلـي إحساس بأن هذه الأيام لن تتكرر، وبأنها سوف تموت وتذهب إلى الجنة وترتاح من تعب الدنيا وقسوة الكبار.

الوحيدة التي لم تتراجع أو تطل عليها مجرد إطلالة كانت هي العمة، تـأتي متجهمـة طوال الوقت كما تخرج، لعلها في كل مرة كانت ترغب في مصالحة عطيات كما أكدت لـي بعد ذلك لكنها لم تستطع أبدا، شيء غامض كان يمنعها في اللحظة الأخيرة، وكانت عطيـات رغم قلة وعيها في الأيام الأخيرة بما يدور حولها تتجهم إذا سمعت صوت العمة، فأوشـك أن أطلب منها الرحيل ولا أجرؤ، كنت ألوم نفسي وأشعر أنني كنت مسئولة عما جرى لهـا دون قصد، ولولا أنها قالت لي مرة قبل أن ترحل وهي تمسك يدي بينما أحكي لها عـن المدرسـة والناظر بعسر:

ـ مالكيش أنتي دعوة يا شوق.. ماليكش دعوه يا ختي..

لولا أنها قالت وسمعت لمت مقهورة بعدها وبنفس الطريقة. ففي صباح شـم النسـيم وجدناها راقدة مكانها وقد انقطعت أنفاسها تماما، عيناها مفتوحتان ترقبان خشب السقف ويداها على صدرها وكأنها على استعداد لتسميع درس حفظته عن ظهر قلب، بكيناها بحرقة، حتـى العمة بكتها، ولا أظن أنها بكت غيرها بنفس الكثرة، وما تبقى من عطيات غير عرائس القطن أجمعها وأتحدث إليها كما كنت أتحدث إلى عطيات وأبلغها أخبـار نـاظر المدرسـة لابـس الطربوش حتى أخفوها عني أو تخلصوا منها في مكان مجهول خوفا على عقلي من الضـياع كما كانوا يقولون.

دخول الحاج مرسي إلى دارنا أو ما تبقى منها أشعرني بالخجل، رجل له مثل هيبتـه في الكفر يجلس على بقايا الحصير الكالح المهترئ ويستند على مسند ممزق الكيس يطل قطن حشوه في أكثر من مكان، وقفت أمامه مطرقة وحائرة فتنبسط وهو يحدثني:

ـ اقعدي يا بنتي اقعدي.. واقفة كدة ليه؟ دانا ابن عم المرحوم أبوكي، يعنـي عمـك وأسد بداله.

ـ كتر ألف خيرك.

جلست مستطلعة سبب زيارته ومرحبة أداري تمزيق ثوبي وتآكل نسيجه في أكثر من مكان، كانت أمي قد عملت له كوب الشاي وقدمته فتناوله ووضعه إلى جواره " خفيف ولا بد أن سكره ناقص " عاودت الترحيب به و " زارنا نبي " " وخطوة عزيزة " هز رأسه شـاكرا وباغتني بالسؤال:

ـ مش ناويه ترجعي بيتك بقى؟

ـ ما أنا ف بيتي يا با الحاج.

ـ قصدي بيت جوزك، عشان تربي عيالك ف خير أبوهم.

شعرت بغصة وهو يتحدث عن خير علام، كأنه يعايرني بفقري وعوزي في دار أبي، سألته إن كان علام قد طلب منه ذلك فأنكر وادعى أنه جاء متطوعا وأنه سوف يمر على علام في دكانه بعد أن يصل معي إلى حل، أشار بطرف خفي إلى علاقة علام ببنت بحر فأبـديت قرفي لأنه " لاف " على من تناسبه، قلت للحاج مرسي أنني احتملته كثيرا رغم نجاسة ذيلـه وأنه لم يعد يشغلني بأفعاله فهدأني:

ـ إحنا عاوزين نردم على اللي فات.. أنتي عاجبك قعادك هنا؟

ـ دار أبويا تساعني ولو كانت في خرابة، ح أروح فين يا حاج؟ هو أنت مش عارف اللي حصل؟

ـ ليني دماغك شوية.

ولم أرد " لينت دماغي سنوات وما عاد في قدرتي أن أحتمل المزيد، كنت أحني رأسي حتى تهدأ العاصفة، وفي كل مرة أحاول إفهامه أنني لم أرتكب ذنبا في حقه وأن أخطاء أهلي لم تعجبني وأن حسابه مع أبي لم يكن في حضوري، ولم يكن في مقدرتي أن أسدد ديونه لعلام وقد خربها وباع سقفها وأبوابها في رقدته المشلولة التي طالت، وقبل موته كنس كـل شـيء، الأرض والدكان والسمعة التي كانت في السابق طبلا فخلفها وحلا وجعل من سـيرته لبانـة يتشدق بها من يساوي ومن لا يساوي، كل يوم يظهر لنا دائن جديد بـأوراق ويطالـب أمـي فتشرح الحال، ترق لها القلوب ويستعوض الغرباء حقوقهم على مرأى ومسمع من علام، لـم نطالبه بسداد دين أو مساعدة للمرأة التي عاشت من بعد الزوج على الكفاف، وكان يعـاديني، يحاول إذلالي وتجريحي في كل وقت، أتصابر من أجل الولد والبنت الوليدة، يفتعل الخـلاف معي ويجمع المجالس من الأهل والغرباء ويتشكى، يكشف أسرارنا بلا خجل ويتيه زهوا بمـا يملك، يستفتيهم في كل مجلس كيف يكون نظام الدار، مصروفا شهريا أو يوميا، معاشـا مـن محصول الأرض المزروعة ونتاج الدار لبنا وسمنا وجبنا وبيض دجاج، مخزونا مـن دقيـق وأرز أو طبخة بطبخة من الدكان، حيرني، وكلما وصلنا إلى اتفاق بحسب رأي كل مجلـس، ينفذه يوما أو يومين ثم يتراجع ولا يستمر:

ـ الاتفاق ده مش ح يمشي.

ومن جديد يستدعي مجلسا من الغرباء، أغرق في ثيابي وأتمنى لو انفتحـت الأرض لتبتلعني وأرتاح، عشرات المجالس وعشرات الاتفاقات وعشرات الوجوه، كأنه ليس في الدنيا دار غير داره ولا دكان غير دكانه، وأنا أستجير بالحيطان لتداريني فيكشفني، أحاول أن أصل معه إلى بر أمان فلا أستطيع، أعارك أمي وأبي الراقد الذي كان سببا في كل هذا القلق، ألومه فيسمع ولا يرد، أقول لنفسي إنهم خيبوا أملي وأن لعلام الحق في أن يتشكك في كل شيء، في ذمتي ورغبتي أن أعيش في راحة بال، وصل الأمر معه إلى حد عدم الاطمئنان إلـى أكـل الدار، يأخذ الولد معه في الصباح ويعود في الليل، لا يكسر لقمة من خبزنا ولا يشرب جرعة ماء ويوصي الولد أن يفعل نفس الشيء، أي أم تلك التي تحتمل شكوك صبي ولدته في طعـام جهزته له أو شراب، كأنني عدوة تدس له السم لتقضي عليه.

ـ ما تخدش من إيدها حاجة يا وله، دي عايزة تسمك.

يقولها للولد في حضوري فبأي المخاوف كان يغذيه بعيدا عني؟ وإذا رضيت بخوفـه على حياته مني فكيف أرضى بخوف الولد؟

ـ ح اسم ابني يا علام؟

أسأله بإنكار فيواجهني وكأنه صاحب حق لا تنكسر عيناه وإن كانت تقوى:

ـ مش بعيد عليكي.. فاكرة عمتك عملت إيه في الحاج فرج؟ فاكرة؟.. عاشرته كـام سنة قبل ما تعمل عملتها؟ وعاوزاني آكل من إيدك؟

لا أذكر أنني عارضته ليلتها، ربما خفت أن يجمع مجلسا من النـاس ويقـول نفـس الشيء فتكون مصيبة وفضيحة تروح في كل الأنحاء، وطوعت نفسي على السكوت.

ـ وصلتي لحد فين؟

قالها الحاج مرسي ليعيدني إلى المكان والزمان فجاوبته:

ـ معاك.

ـ خلاصة الكلام، قعادك هنا مش عاجبني، المدارس ح تفتح والولد محتاجك، علام ح أجيبه غصب عنه و ح ترجعي دارك، قلتي إيه؟

ـ اللي تشوفه يا با الحاج.

قلتها مستسلمة وعاجزة عن الاعتراض فقام الرجل، سلم وخرج وترك كوب الشـاي باردا حيث كان، لعله أراد أن يوضح لي إلى أي حد صار إليه حالنا وقد عجزنا عن تقديم أي واجب يليق حتى ولو كان مجرد كوب شاي تقبل النفس أن تشربه، لعله ذاقه ولـم يعجبـه أو شكله يغني عنه.

وأنا أرفع المسند لمحت شيئا يلمع، رفعته فوجدت ريالا فضيا محطوطا تحت قاعدته، هل صعب عليه حالنا إلى هذا الحد أو أنه أراد لنا الستر ساعة أن يأتي مصـحوبا بالغربـاء بهدف الصلح في المساء، دين جديد لا أملك رده أو سداده من ابن عم العم يا أبي يضاف إلى ما ورثناه من ديون خلفتها في أعناقنا، ما حيرني هو كيف ومتى رفع المسند وحط تحته ريال الملك فؤاد لابس الطربوش.

في الليل سمعنا جلبة عند باب الدار، هل كان الحاج مرسي ما زال يلين رأسه ليقبـل الدخول؟ لكنهم دخلوا، كان الولد معه، محكوما وأنا أراه من خلال الفتحة الخالية مكـان بـاب المندرة ويراني ولا يفكر في المجيء، جلسوا على نفس الحصير واستندوا على نفس المسـاند القديمة، علام وبكري والولد والحاج مرسي الذي ناداني فذهبت، جلست أنتظر وبـدا لـي أن علام كان يمسح كفه الذي لا بد وأنه " انعاص " من أرضية المندرة الموحلة، كان يمط بـوزه في قرف أو تظاهر بالقرف من كل ما كان يحيط به وبنا من أشياء، قال الحاج مرسي.:

ـ ح نقرأ الفاتحة ربنا يهدي النفوس.

تمتموا بها وتمتمت ثم توجه الحاج مرسي بكلامه إلى علام:

ـ إحنا ح ننسى اللي فات ونردم عليه، نقول إن إحنا ولاد النهاردة يا سي علام.

ـ بشروطي يا حاج.

قالها بنبرة من لا يرغب في شراء بضاعة بارت لآخر السوق مطمئنا إلـى اسـتعداد البائع للتفريط فيها بأبخس الأثمان.

ـ سي علام له حق ياخد على خاطره منك يا ست أم شاكر، قالها بكري فلـم أكلـف نفسي عناء الاعتراض أو التأييد، تنحنح الحاج مرسي ليزيل أثر انحياز بكري " أس الفسـاد " إلى علام، ذلك الذي يجلس الولد على ركبته وهو ينظر ناحيتي وكأنني زوج لأبيه ولست أمه، رأسه الصغير مشحون بأكاذيب دسها عني في زمن الغياب:

ـ أحنا مش ح نرمي لحمنا يا سي علام.

ـ دار أبوها ما تدخلهاش.

ـ اشترط علام فسايره الحاج.

ـ (ما تدخلهاشي).

ـ تخدم الصغير قبل الكبير، ما تمسكش المصروف ولا تطلبش مني اللي ما قـدرش عليه.

كانت نغمة التحكم فيه بادية " وعنطزته " الزائدة تكيد. تصابرت لأنني كنت مكشـوفة أمامهم في عراء، لا أخ ولا أخت ولا أب ولا أم معمول لها حساب ولا دار فيها خير يكفـي لإطعام الدود. عراء في عراء.

ـ ما تفتحشي حنكها ولا تقول تات التلاتة كام، أهي جربت دار أبوها سـنة، يمكـن تكون عرفت قيمة الراجل في بيته، تعمل زي أمها ما كانت بتعمل مع المرحوم.

ـ وما له يا علام.. وماله.

رد عليه الحاج مرسي وقد امتعض، ربما شعر بالندم لأنه تدخل هذه المرة، وواجهني علام:

ـ ويكون ف علمك من دلوقت، أنا ح أرجعك عشان خاطر الولد ده بس.

كانت أول عبارة يتوجه فيها مباشرة لي وكنت مغلولة ومكتومة فانفجرت فيه:

ـ أنت تبيع وتشتري ف واحدة م الجواري اللي فاتهم لك أبوك، أبـوك اللـي مـات عريان... شايف يا با الحاج.. ولد إيه يا بو ولد..

كتم أنفاسي كف الحاج مرسي الذي قام وحذرني من الاستمرار لقول المزيد لكنه قـام وخرج في أعقابه البكري والولد، بقى الحاج مرسي لتهدئتي، بصرني إلى ما صار إليه حـالي وحال البنت، قال إن الكلام ليس عليه جمرك وهو مجرد كلام طائر في الهواء.

شكوت له من نصيبي الذي رماني معه وواساني، وعدني بالوقوف معي ما لم يستجب علام للأصول ولو وصل الأمر للمحاكم وصرف من جنيه لألف، لا أذكر أنني شعرت بمهانة في كل عمري أكثر مما كنت في ذلك المساء، كنت أبكي والرجل الكبير يلطف الجو ويريحني في كل ما كنت أرجوه ساعتها، الخلاص وأخذ الولد ونفقة تكفينا لنعيش، أتعبت الرجل معـي ساعة أو يزيد أقسم خلالها ألف يمين أن يطمئن على معيشتي إن رجعت أو بقيت في دارنـا، صدقته ودعوت له بدوام الصحة، وأوصاني قبل الخروج إن جاءني عـلام فـي الصـباح أن أكتفي بمجرد الذهاب معه دون إعادة فتح الموضوع:

ـ أنا من ناحيتي ح أجيبها له على بلاطه، يا تعيشي معاه رافعة رأسـك يـا يسـيبك ويبقى لي تصريف معه.

طمأنني وأن لم يشف عليلي، عز علي النوم حتى طلع النهار وبدني مهـدود وحلقـي جاف وقلبي جريح، لكنه قبل الضحى دخل الولد من باب الدار، اقترب مني وسألني إن كنـت ما زلت أخاصمه فأنكرت خصامه، بكى فأخذته في حضني ومسحت دموعه ودموعي وسمعت صوت علام:

ـ هات أمك واختك وحصلوني ع الدار يا شاكر.

كدت أعبر له عن اعتراضي فجلس إلى جواري، وحاول أن يتنصل من كل ما قاله:

ـ طيب أنتي وابنك وكنتم متخاصمين واتصالحتم، يبقى ذنبي أنا إيه؟

لم أعلق.

ـ شوفي أنتي غلطتي ليلة امبارح قد إيه؟ وبرضه مسامح ف حقي، هو أنـا يجينـي أعز منك.

لم أكن أصدقهن لعلني عودت نفسي بعدها على السماع دون تصديق، دعاني للقيام إلى داري فتنهدت وقمت أجمع ملابسي فمنعني:

ـ خليهم لأمك تستفاد بيهم، قيمتك عندي حاجة ثانية، أنتي ح تلبسي أحسن لبس، أنتي مستقلة بروحك؟

كأنني خارجة من سجن وذاهبة إلى سجن آخر قريب ولن يتغير غير السجان، ربمـا أخلص من رغيف " السن " وقطعة اللفت وأبدلهما برغيف القمح والأدام، لكنني لن أهنأ بعـد المرار في غضبتي الطويلة أو استشعر الأمان، ولعلني تأكدت في داره أن كـل مـا فيهـا لا يخصني بأية حال، وأنه في لمح البصر يمكن أن يجردني هو من كل حق أدعيه ولا أملكـه، ولعلني جهزت نفسي للحياة في داره مستعدة لتركها في أي وقت يشـاء مغصـوبة وراضـية لأنني انغلبت على أمري كي أرعاهم وأحرس جدرانهم وخير الدار.

ـ حتى دكر النحل يا مريم بيعمل عملته ويتوكل على الله.

سمعت أبي يقولها وأنا أدخل المندرة، كان في المندرة دفء " وراكية " نـار قـوالح تتوهج، اقتربت من النار وفردت راحتي وقربتهما من الوهج ثم مسحت بهما علـى وجهـي وصدري عدة مرات، استمرأت الدفء فجلست مكاني قرب النار، كانا يتبادلان النظـرات ولا يتكلمان، فكرت إنها ربما يودان لو أخرج وأتركهما يكملان الكلام، نظرت نحوهـا فوجـدتها تنظر إلي قبل أن تقول لتشركني:

ـ قول لها، لا هي صغيرة ولا غريبة عنك، بنتك زي ما هي بنتي.

ـ كله فوق دماغي؟ ما حدش بيرحم ولا يقول بإيدك أبدا؟ عايزين اللقمة جاهزة فـي الحنك من غير تعب خالص؟

كان في صوته احتجاج يوشك أن يكون تباكيا، لملم ساقيه المفرودتين ونفض " حجر " جلبابه فلم يتناثر منه شيء، انتفض واقفا وخرج من باب المندرة الموارب، شده إلى الخـارج بشدة فرن صوته ثم ذاب وساد صمت، كانت هي تنظر إلي وكأنها تستغيث بـي لأنقـذها لا أدري من أي شيء، ظلت تتأملني وملامحها تتبدل وتتغير والشفتان تنفرجان وتنضـمان دون أن يصدر عنهما حرف، كانت النار تنعكس في عينيها بريقا أحمر عدوانيا وهي تنظر ناحيـة الباب وكنت أنعم بالدفء، أطل وجه أبي من باب المندرة، اندس في نفس مكانه يتدفأ قبـل أن يبرر عودته:

ـ النطرة مغرقة الدنيا بره والشوارع روبه لحد الركب، أمال أنتم ساكتين كدة ليه؟

لم تجبه واكتفت بالنظر إليه في حيرة، سألني هو:

ـ أمال انتي رجعتي من عند عمتك إزاي؟

ـ من جنب الحيطان: رجلين الخلق عاملة مدقات.

نظر إلى ساعدي واطمأن على زوج " الغوايش " الذي كانت عمتي قد اشـترته لـي مكافأة على نجاحي في الابتدائية كما وعدت، تحسسه بفرح وزهو:

ـ مبروكين عليكي، حلوين، باين عليهم تقال.

وقبل أن أعلق معبرة عن فرحتي بالهدية اعتدلت هي في جلستها وبان فـي عينيهـا استنكار فواصل أبي:

ـ عمتك راقدة على خير كتير، شرك مواشي وأرض ملك غير الجنيهـات الـذهب المجيدي والبندقي.

ـ بكرة كل ده يروح في عب الحاج فرج ولا نطول أبيض ولا أسود.

قالت أمي مستمرة في التعبير عن عدم ارتياحها على عكس ما كنـت أنتظـر منهـا وأتوقع، رد عليها متضررا:

ـ واحنا ف إيدنا إيه بس أكثر من كدة؟ أهو اللي بنطوله فايدة.

ـ ف إيدنا شوق حبيبتها وسرها العمر كله، واخداها في حضنها العمر كلـه، ولا ده ببلاش؟

على هذا النحو كان يحاورها وتحاوره لأفهم أنه في أزمة وأنه يخـاف مـن موتهـا المباغت وكل ما يحوطه ويتاجر فيه ملكها بأوراق مكتوبة يستطيع الحاج فـرج أن يظهرهـا ويأخذ كل ما نملك ومن العدل أن تحتاط لحسابي إن كانت قد غابت عنها الفكرة:

ـ الحكيم يا بنتي قالها لي بيني وبينه، والأعمار بيد الله، بس هي اللي قالت لك، مش عيب تسأليها كتبت لك إيه؟ الحاج فرج محوط عليها وما حدش ف الزمن ده له أمان.

في يوم السوق رحت لها فأدهشني أنها فاتحتني في علاقتها بالحـاج فـرج قبـل أن أفاتحها، كأنها كانت معنا أنا وأمي وأبي يوم تحدثا عن قلقهما من احتمـالات موتهـا فجـأة، حدثتني عنه من غير احتراس، وأزاحت عن قلبها هما شالته وحدها عمرا دون بوح أو شكاية، كان الحزن يطل من عينيها الخضراوين بزرقة وهي تستعيد ما كان، كيف رأته شابا عفيا في سوق الخميس، اشترت منه عجل جاموس تصعب قيادته، وكيف تطوع بسـحبه حتـى بـاب دارها، كيف اعتاد بعد ذلك أن يشتري لها كل ما كانت تحتاجه من سوق الخميس ثـم يقـوم بتوصيله حتى باب الدار ويرفض أن يعبر العتبة ليبل ريقه ولو بجرعة ماء.

ـ " كان زي البنت البنوت وحقاني " اشتريتاك يا ست هانم بخمس قـروش وعرقـي وتعب مشواري ما يجوش حاجة في إنسانيتك وكرم أخلاقك " لكن ولاد شلبي مـا يعجـبهمش العجب ولا الصيام في رجب، طلعوا فيه القطط الفاطسة، زنوا وزاد كلامهـن، قـالوا عليـه

طمعان ف مالي.. وقالوا وقالوا.. كتبت عليه ودخلته داري، رقدته ف فرشتي ولبسته صـوف وكشمير وشاهي لكن ما حصلش منه نصيب ولا خلفة، عشر سنين لحد النهاردة ما قاليش تلت التلاتة كام.

كان في صوتها حسرة على مشوارها معه، على شبابه الذي انطفأ الآن أو أوشك على الانطفاء، برقت في عينيها دمعتان محبوستان، أشفقت عليه وعليها وشـفت جـرح عمرهـا الغويط. شفت الزمان غير المطاوع وشماتة الأعداء يعيرونها بحظها في آخر الأزواج وسـن اليأس وانعدام الرجاء، كورت هي راحتيها ثم فردتهما بشدة عدة مرات وكأنها تطرد خاطرا أو فكرة تسللت إلى عقلها خلسة، ربما فكرت مثلي أن الحاج فرج قام بدوره على خيـر وجـه، وربما كانت قد قررت على عكس ما فكرت أن تبعده عن حياتها وحياة أولاد شلبي، زمـت شفتيها وسألتني:

ـ إنتي.. رأيك إيه؟

كنت قد أطرقت حزنا لأنني تأثرت بكلامهم عنه وخوفهم من أطماعه إن هي ماتـت فجأة مثلما قال الحكيم، زفرت هي وربتت على كتفي في حنو بالغ، ولأول مرة أرى دموعهـا تتساقط دون صوت والتقاطيع على حالها، بكيت فطالبتني بأن أكف عن البكاء وما كفت عيناها عن إفراز الدموع، احتضنتني واحتضنتها بقوة كراهيتي للموت الذي حام حولها طوال العـام الأخير، سألتني ماذا أتصور إن ماتت هي فجأة فبكيت بصوت مسموع، طمأنتني بثقة أنها لـن تموت قبل أن تطمئن على حالي، أمسكتني من الكتفين ونظرت إلى وجهي ومسـحت بكفهـا اليمنى دموعي وبكم جلبابها وجهها وعينيها ثم ابتمست في ثقة وسألتني:

ـ يروح لحاله؟ مش كدة؟

أومأت لها علامة الموافقة، ربما لو كان الوقت غير الوقت لفكرت واستفسرت منهـا إلى أين سوف يروح، رفعت هي وجهي بإصبعها المحطوط أسفل ذقني وتقابلت عيناي بالبريق الملون في عينيها وكأنني تواطأت معها على ضرورة الخلاص منه.

كان المطر يتساقط وحصوات الثلج ترن على خشب السقف والنوافذ، وكانت " راكية " النار تتوهج أمامنا وتبعث في المندرة دفئا كافيا وقد تركت الباب مفتوحا بعد أن تسـرب كـل الدخان من النافذتين، كنت أرى وسط الدار أمامي، وكرات الثلج الصغيرة تتقافز وهي تسـقط فوق " طشت " النحاس المقلوب فيصدر عنها صوت مختلف عن تلك التي تسقط على حجـر الطاحونة القديم وتلك التي تسقط على الأرضية العارية وسط الدار، كأننا كنا نترقب عودتـه دون كلام منطوق، مجرد نظرات صامتة لم نعتدها وإن اتفقنا على فهمها، كأنه حـط علينـا خرس مباغت بمحض اختيارنا ورضانا، سكتنا لزمان طال أو قصر كف فيه الثلج عن السقوط ثم عاود السقوط، كأنني كنت أعيش حلما يختلف عن كل ما ألفته معها من مجرد الكلام فـي

الفارغة والمليانة، وكأنما كانت روح الحاج فرج تحوم حولنا وتأسرنا وتجعلنا ندور في مدارها إلى حد أنه عندما تنحنح مقتربا من الدار قمت على غير عادتي لأفتح له قبل أن يصـل إلـى الباب، ابتسمت له وكان يبتسم، كان جلبابه مبلولا وملطخا من ذيله بمسـاحات مـن الطـين الطري الذي يتساقط بعضه مع قطرات الماء، خلع مداسه قبل أن يدخل القاعة ثم يتوجه إلـى المندرة، فكرت أن آخذ مداسه وأخلصه من كتل الطين لكنها نادتني:

ـ سيبي المداس دلوقت وتعالي شوفي جوز عمتك جايب إيه معاه.

تركت المداس ومسحت راحتي في جلباب قديم، كان يخلص قبضته من فتحة جلبابـه وتحته منديل محلاوي مربوط حول علبة من الصفيح، قال بزهو وهو يلتفت إليها:

ـ شوية عسل م المنحل بتاعك يا ست فطوم، سليم النحال بتاع طوخ بيقول أنهم أكل ملكات.. ما يغلاش عليكي، بيقول حتة على طرف المعلقة كل يـوم الصـبح وتقـومي زي الحصان.

كان يدفئ يديه على نار " الراكية " ويحكهما في حركة سريعة منتشية، وكان جلبابـه المبلول مكوما فوق الصندوق وقد لبس غيره دون أن ألحظه، أومأت هي:

ـ هاتي لجوز عمتك فطيرة من عمايل أختك نعمات يتغدى.

بدت علي الحيرة لأن نعمات لم تعمل فطيرا، ربما أدركت هي ربكتي فأسعفتني:

ـ محطوط في دولاب الحائط فوجدت فطيرة مفرودة تفتح النفس المسـدودة، سـألت نفسي كيف استطاعت أن تعجن وتلت وتفرد وتسوي فطيرة وقد دخلت عليها فوجدتها راقـدة تئن، وإن لم تكن هي التي فعلت فمن غيرها؟ وهل أصدق ما قالته أمي بأن العمة تؤاخي الجن الساكن سابع أرض وتشغله لحسابها وقتما تشاء، حضرت كل شيء ووضعته علـى صـينية العشاء أمامه فمد يده وكور لقمة بين أصابعه وهمس بآلية لي:

ـ بسم الله.

كان يبدو جائعا ولا ينتظر ردا، يلتهم اللقيمات المغموسة في صـحن الجـبن القـديم التهاما، يزدرد بنهم وشهية رجل مطمئن، ويتبلع بماء القلة، لكنه كف فجأة، نظر إليها ثم إلـي وقال بصوت مبحوح:

ـ ناوليني معلقة.

ناولته المعلقة والصحن الفارغ ففتح بطرفها غطاء العلبة. ملأها من غـذاء الملكـات وابتلعها ثم أعاد ملأها وابتلاعها أكثر من مرة وبسرعة وكأنه يطفئ بغذاء الملكات نارا فـي جوفه استشعرها فجأة، قالت هي وكأنها تكشف غطاء لعبة:

ـ حامي عليك؟

فهق من حلقه عدة مرات وزاغت عيناه، احتقن وجهه وأحنى رأسه ثم تكـور علـى نفسه واضعا راحتيه على بطنه وضاغطا عليها بكل ما تبقى من عزمه.

ـ نا.. ر.. نـ.. ا.. ر

مد يده ناحيتها مستجيرا، خفت وقبضته ملمومة بقسوة وهي عاجزة عن الاقتراب منها أكثر أو الابتعاد، كان هناك هدف خفي يسعى للوصول إليه عندها ولا يقدر، وكانت هي تنظر إليه مجرد نظرات، هل امتزج خوفي منه بكراهيتي لها في تلك اللحظة؟

ـ غ.. ي.. ت.. ي.. ن.. ي

قالها ولعابه يتساقط من شدقيه.

ـ خلاص يا فرج، دلوقت ترتاح

ـ آه.. آه..

ـ سلامتك م الآه يا عشرة على الغالي.

كانت تندبه لنفسها وله وهو حي، يسمع ويرى وينطق بعسر، ربما كان يسمع ويـرى بعسر لكنه كان معنا في تلك المندرة المدفوسة في آخر الدار من ناحية فراغ الواطية بعيدا عن ناس الدرب، ينظر مرعوبا وربما يدرك ما جرى له أو لا يدرك على وجه اليقين، كنت أرقب في هلع، منكمشة على نفسي في ركن أتسمع خبطات قلبي كلما توقفت هي عن الندب وهـي ترفع راحتيها معا، مضمومتين فيما عدا السبابتين المفرودتين تحركهما إلى اليمين ثم إلى اليسار في ليونة ونعومة وصنعة.

" نعش الغريب ف البحر ما يمشي

كان خاطره ف الحي ما قسمشي "

" نعش الغريب يوطى ويعلا لفوق

داير على أحبابه يبل الشوق "

وكان يرفرف بعسر كفرخ داسته خف جمل، ينشال وينحط مكانه بلا أمل، يتلوى ويئن ثم يكف، يصدر أصواتا لم تكن تخصه قبلا، مكتومة وعاجزة، هل أدرك النهاية قبل أن تتسـع عيناه وتثبتان على نظرة لائمة نحوها فيها من الاستكانة والاستسلام أكثـر ممـا فيهـا مـن الاحتجاج، هل ارتضى شكل نهايته بتدبيرها على هذا النحو فأراح نفسه من كل عناء؟ سمعتها تأمرني:

ـ اغسلي إيديكي بالميه والصابون.

خرجت في اتجاه الطلمبة مترددة، فرغم الخوف كنت أود أن أعرف كيف تطلع الروح من البدن الحي، ورأيت الحفرة العميقة التي تتسع لدفن رجل بطوله واقفا، هل حفرها الجن من أجل العمة؟ كانت العتمة قد سيطرت وضوء المصباح لا يكفي لبث الطمأنينة والريح تعـابثني

وعواء الكلاب يتزايد في أرض الواطية, ربما كانت تطارد الشيطان أو الجن الطالع من سابع أرض ليساعد العمة تلك التي رجعت إليها بعد أن غسلت يدي لأسمعها تحادثه.

ـ ح أعمل لك أحسن خارجة، وح أجيب لك صبيتة من مصر، وح أخلي الخلق تتكلم عن موتتك اللي زي ميتة الأنبياء، ويمكن ابني لك مقام.

كان هو يتمدد أو أنها مددته وغطت بدنه دون وجهه بملاءة سندسية اللون لم أشـهدها قبلا، وبدا لي أنه كف عن التنفس واكتفى بالإطلال نحوها، ولدهشتي لم أر أثـرا للفطيـرة أو الصحون أو القلة، اختفى كل شيء، كأنما انشقت الأرض وابتلعتها، هل كان كابوسـا رأيتـه خلال تلك الساعات أم أنها كانت مجرد تهيؤات تخيلتها؟

في الدرب قالوا بعد دفنه شرب فشرق فمات، وقالوا سكر مخالفا شرع الـرب وأكـل وأكل فانكتم نفسه بينما كان نائما ولم يصح بعدها، وقالوا إنه كان مبروكا من أهـل الخطـوة طار نعشه متعجلا الدفن، وقالت أمي أن الله أخذ من عمر الغريب وأعطاها، ذلـك أنـه فـي أعقاب ذلك قامت العمة وتحركت من مرقدها، حسبناها في أول الأمر مجرد واجبات تؤديهـا غصبا بسبب العزاء في المرحوم، لكنها استمرت وتزايدت حركتها على نحو كـذب تأكيـدات الحكيم، وكادت أن تصبح كما كانت عفية وصلبة وقادرة.

قال علام أن البك الشلبي " كذاب زفة " وأنه لا يستحق كل هذا الاحترام، أكـد لمـن جاءوا يهنئونه بالخروج أنه كاد أن يخرج من القضية ببراءة لولا خيبة المحامي الذي اكتـراه البك الشلبي. ذلك الذي حسب أن له كلمة في الحكومة أو أنه معروف عندها، صحيح أن ابنـه ضابط في الحدود وله زملاء ضباط في السجون أراحوه في الحبس وسمحوا له بالممنوع، لكن البك الشلبي نفسه خيب كل رجاء:

ـ دا حتى ما خدش البهوية رسمي

تململت العمة احتجاجا، خافت أن يتناقل أهل الكفر كلامه فتضيع هيبة الرجل، تراجع علام:

ـ ولا يمكن خدها بس ما خدمنيش.

ـ قول كدة بقى، قول إنك منكاد منه.

ـ معلوم.. منكاد ع الآخر، ح أخبي عليكي؟

ـ كفارة يا علام، دول كلهم سنة وتسع أشهر فاتوا ما حدش حس بيهم.

دارت عيناه في وجوه الغرباء، لعله كان يمنع نفسه عن الاستمرار في السخط علـى البك شلبي على مسمع من الغرباء، ولعله كان يتذكر كيف أنه لم يسلم نفسه إلا بعد تأكيـدات الرجل وابنه الضابط بأن القضية سوف تنتهي ببراءة، ربما كانت غضبته لأن الرجل لم يكلف نفسه عناء الذهاب لزيارته في الحبس، كان يربت على ظهر شاكر الذي كان طفلا ما زال ولا

يدرك شيئا مما يقال، ربما لو كان أكبر بسنة أو سنتين لعايره الأولاد بحبس أبيه، ربما انكسر خاطره بينهم، لكنه كان معي، أحوطه وأحميه من مكائد الكارهين، استأذن الغرباء وسلموا وما تبقى في المندرة غير أولاد شلبي، نظرت هي إليه مليا قبل أن تلومه:

ـ اللي ما لوش كبير بيدور له على كبير يا علام، وكلامك عن البيه بتاعنـا قصـاد الأغراب ينزلنا من نظرهم، ما يعملوش لنا حساب، داحنا نكبره مش نقل قيمته.

ـ ما فيش حاجة مستخبية يا عمه.

كانت أول مرة يناديها بالعمة، عله أرضاها بالنداء أولا ثم كرر ما قاله بحماس أكثـر وزود عليه، ذكرها أنه يعرف أن ذاك الكبير مجرد رجل بارع في التعرف علـى الأكـابر، بكوات وباشوات حقيقيين "سلكوا" له مصالحه وأنه وإن كان قد زود ملكيته في أرض البراري وعمل لنفسه فيها تفتيشا فلأنها أرض مشاع قابلة للامتلاك بوضع اليد، وهـي أرض فقيـرة المحصول قليلة الخصوبة، فدان الكفر يساوي خمسين فدان فيها، حاولت إسكاته فلم يسـتجب وردد حكاية دخول ابنه الحربية وكيف حصل على كارت توصية من باشا كبير تعرف إليـه مرة بتقبيل الأيادي، عاودت محاولات إسكاته فاستمر، طول لسانه عليها فتدخل أبي يوصـيه بأن يحاسب على كلامه فانفجر فيه وقال له ما لا يليق:

ـ فضلت شايلك ومطاولك بمالي واسمي، عشت على حسي في الكفر، والبندر سنين، سددت ديونك اللي خسرتها ف القمار وآخرتها إيه؟ اتفقت معاها وخدت الورق المكتوب عليك، زرتني؟ كلفت خاطرك وجيتني أنت ولا هي؟.. ما تخلي الطابق مستور.

أطرق أبي مجروحا وعاجزا عن الدفاع وقامت هي محتجة تسب وتلعـن وتقسـم ألا تدخل داره.. وعندما خرج الجميع وبقيت وحدي في مواجهته كاد أن يضـيف المزيـد لكنـه تراجع قبل أن ينفلت اللسان، سحب الولد في يده وخرج وما عاد إلا بعد أن انتصـف الليـل بزمان.

بعدها صارت حياتي معه على كف عفريت، لا أمان ولا اطمئنان ولا ثقة، كان يمنـع نفسه من الكلام في الدار أو حتى مجرد شرب الشاي، يخرج وقتما يشاء ويرجع وقتما يشـاء، بوزه ملوي والوجه دائم العبوس، ويوم مولد سعاد تحول الأمر إلى محزنة، أول ما عرف أنها بنت صرخ محتجا:

ـ بنت؟

وسمعت خطواته خارجا ولم يرجع إلا بعد أيام، هل كنت قد أفقدته آخر الآمال بولادة البنت على غير إرداة مني؟ أو أنه كان يبحث عن أي شيء يتعلل به ليكمـل حـولي دائـرة الخصام؟ لا يكلمني ولا ينظر ناحيتي أو يطمئن على حال البنت، ضناه التي تتوجع وتصـرخ وتحتاج إلى رعايته فيصم عنها أذنيه ويقسو عليها قلبه بلا ذنب، كان يحوط الولـد بذراعيـه

ويربت على ظهره في حنو وكأنه يعاندني باحتواء الولد وإهمال البنت، لا سألته ولا حاولـت أن أطلب منه التفسير، كان يرجع في الليل حاملا لفافة طعام من البندر، يوقظ الولد من أحلى نوم ويدعوه للأكل، حتى لو كان الولد شبعانا يحايله أو يجبره على تناول الطعام، ويوما فـي أثر يوم اجتذب الولد إليه، يأخذه ويسهر به حتى ساعة متأخرة، لا أدري أين ولا يتـيح لـي فرصة الاعتراض فأطمئن نفسي بنفسي لأرتاح من قلق يساورني ويشـقيني، ومـرت الأيـام انعزالا بلا رجاء، كبر الولد وملأت البنت أركان الدار رمحا وثرثرة وهو يرقبها مـن بعيـد، كأنها لا تخصه، إن نادته يتشاغل وإن رد فبجفاء أو اختصار، هل كانت في الثالثة أو الرابعة يوم ضحك لها أول ضحكة؟ ربما أجبرته خفتها على أن يجاريها فاستبشرت خيرا وفي الليـل حدثني عن ضرورة وضع نظام جديد للدار فلم أمانع:

- الولد ح يدخل المدرسة، وأنا مش ح أسرح بيه ليل ونهار.
- محدش قال كدة.
- يكفيكي ربع جنيه ف اليوم؟
- يكفي.
- تمسكي إيدك شوية ف مصروف البيت.
- أكثر من كدة؟
- الكسوة ف القطن.
- ومن غير كسوة خالص.

كنت غاضبة، كأنه يجود علينا بثمن اللقمة ويمن علي بمطالب العيال، لكننـي كنـت راغبة في استمرار الحياة، قلت أدبر حالي في حدود المصروف، أربي البط والحمام والأرانب والكتاكيت وأعتمد على شغل الدار وشقاء من يحكم عليها الزمان بقلة القـرش فـي متنـاول اليدين، واستمرت الحياة مستورة لا تنكشف أسرار الدار، حتى عندما كان يتعمـد أن يـنقص القروش بحسب هواه لا أتشكى ولا أبوح، أتحامل من أجل الأولاد، ومن تعبـي كنـت أوفـر القرش على القرش، ثمن البيضة والفرخة والبطة والأرنب، اشتريت ماكينة الخياطة وعلمـت نفسي بنفسي تفصيل الملابس للأولاد ونسوة الدرب، وكلما وجدني قادرة على تدبير مطالـب الدار كف عن دفع المصروف، أفاتحه فيلاوعني:

- مصروف إيه اللي أنتي عاوزاه؟ دانتي داخل جيبك النهاردة نص جنيه، فـاكراني نايم على ودانى؟

لا أجادله، أقول لنفسي ما دمت مستورة فلا داعي للقرش الذي يقطعه من جلده بطلوع الروح، أقص جلابيب النسوة والأولاد وأدقها على الماكينة وأقبض، أشتري السـكر والشـاي

والأرز والزيت من الدكان مثل الغرباء، وعندما مزق الولد جلبابه حاولـت أن أزود وعيـه، كيف أنني أشقى وأبوه لا يشغل نفسه بمطالب الدار لكن الولد رد علي بسفالة:

ـ وإيه يعني؟ اشتري غيرها.

ـ منين يا شاكر؟

ـ من فلوس أبويا، مش تحمدي ربنا اللي معيشك عشان خاطري.

كلام كبير على الولد، كلام محفوظ، كأنه رمى على رأسي لتر " جاز " وأشـعل فيـه النار، قمت أبحث عن عود حطب وأضرب الولد طويل اللسان، وكلما ضربته بعود الحطـب طول لسانه أكثر بكلام لا بد أنه كان يسمعه ويردده دون أن يدرك معناه، كنت في غير وعي حتى انزرع علام أمامي، ضربني بكل غل فأدمى فمي، شعرت بأسناني تنزف وبواحدة منهـا تسقط في فمي، واستمر يضرب ويضرب، يسب ويلعن ويعاير ويتهم ويقـول مـا لا يقـال، وعندما أتعبه الضرب جلس وعيناه تنضحان كراهية لم أشهدها في عيني عدو أو حبيب.

ـ طول ما أنا عايش ما تمديش إيدك عليه.

كانت الدار مزحومة بالنسوة وبالرجال وكنت تائهة وهم يحاولون معالجة جرح الفـم النازف والسن المكسور، ترك هو الدار ساعة أو ساعتين، كانت أم بكري بجواري، تجـاملني وتحاول أن تداري شماتتها فلا تفلح، وعندما دخل المندرة حاولت هي أن تفتح معـه الكـلام فأخرج ما كان مدفونا في أعماقه:

ـ أنا ما حيلتيش غيره، تضربه إزاي..؟

ـ مش ابنها يا سي علام؟ طيب دلنا يا ما ضربت بكري اللي أنت بتشوفه ده.

ـ مش كل الناس، دي حيا لله ماعون.

ـ يوه.. جرالك إيه يا سي علام.. دي أمه مهما كان..

ـ وإيه يعني.. طيب ما هي عندها شحط ما تعرفش فين أراضيه، اسأليها إن كانـت تعرف شكله إيه؟ هي الحنية كلام وبس؟

ـ دانت شايل بقى ومن زمان.

قالت هي وقد زادت نغمة الشماتة، ولم يكن عندي غير ترك المكان، جمعت ثيابي في صرة وهي تحاول أن تمنعني بالكلام وتدفعني في حقيقة الأمر إلى ترك الدار.

ـ طيب خليكي للصبح.. النهار له عينين.

ـ سيبيها يا أم بكري..

ـ دي دار أبوها خراب، ح تروح هناك تسخم إيه؟

ـ سيبيها يا أم بكري.

وخرجت بالليل، كنت أتعثر في خطواتي وأوشك على السقوط، لعلني بالفعل سـقطت فارتكزت على ركبتي وواصلت السير حتى وصلت، دخلـت الخـراب، مجروحـة ومهانـة وعاجزة عن البوح لمن كانوا سببا في العناء، والبنت معي، لا أعرف كيف جاءت ولا أذكـر أنني كنت قد فكرت في أخذها أو تركها، كأنها كانت مربوطة معي بخيط خفي لا ينفك، رقدنا بالهم حتى طلع صباح مضبب، أمي بطرف طرحتها التي تشد بها دماغها كأنما تخشى عليـه من الضياع، وأبي بشلل ساقه وذراعه ونصف وجهه واللسان، هل اعتذرت عينه القادرة على الإطلال عن الخطأ القديم الذي لا يداويه طب ولا دواء؟ هل كان يستدر عطفي لأغفر له مـا وصل إليه حاله أو يشركني في همه؟ كان هو وهي سببا في ميلة البخت منذ البداية، لـو لـم تمتد يده ليأخذ مصاغي ويخسر ويأخذ مزيدا ويبيع ويخسر ويأخذ ويكتب دون أن يفكـر فـي السداد ما وصل حالنا إلى ما وصل إليه، لو أبقى على الدار ما نزلت عند عـلام مـن فـوق الرأس إلى أسفل القدمين.

وكأنما كان علام يصفي حسابه القديم مني، لا سأل ولا أرسل من يسأل، كأنني سقطت في جب مكسورة القاب وواحدة من الأسنان، طالت غضبتي، دارت السنة أو أوشـكت علـى الدوران، أرسلت عشرات المرات أطلب ماكينة الخياطة فما جاءني رد، طلبتها منـه مـرارا فأخجلني بالرفض أمام الغرباء.. وكابدت شقاء الأيام السود وقد عز كل شيء، اللقمة والهدمة وجرعة اللبن للبنت، فكرت في العمة، تلك التي خاصمت أبي وقاطعتـه بعـد أن أخـذ مـن صندوقها تلك الأوراق الملعونة التي احتفظت بها باعتبارها كبيرة عائلة مأمونة فخـاب فيهـا الرجاء، عندما ذهبت إليها قابلتني بجفاء وحدثتني بغلظة، أعلنت أنها تبرأت من أبي ومن كل نسله فانكسر خاطري ورجعت من دارها وقد انسدت الدنيا في وجهي من كل الأركان، حتـى تربية الكتاكيت لم تنفع لأن الفئران والعرس كانت تسكن الدار وتقضي على الطيور، رغيـف السن وقطعة اللفت غذائي، وكل ما أوفره لا يكفي ثمنا لقطعة السكر وجرعة اللبن للبنت كأننا انقطعنا من جذورنا فما عاد يطل علينا أهل ولا غرباء، حتى نعمات التي بعثت لها رسالة لـم تسأل، ولا أدري إن كانت الرسالة وصلتها أو أنها تاهت في البريد، وعلام عارف دون ريب ما صار إليه حالنا، سارح بالولد في الدرب ومسيطر عليه بحيث لا يلتفت إن رآني، ولا بد أنه عبأه بأكاذيب محبوكة عني لا يملك أن يخلص منها، ولا أملك غير الانتظار ليوم يجيء أطلع فيه من عمق الكابوس الممتد، كابوس الفقر والعوز محاطا برغبة التماسك وبقايا إصرار على عدم الانكسار التام، ولا أذكر في أية ليلة من ليالي " برمهات " سمعت صرخة أمي المفجوعة فيه بوهن، أذهب لأراه ممددا على فراشه فأخبط صدري مصدومة بالموت الذي أراحه وحطنا في مواجهة مطالب التكفين والدفن وطلوع المواسم من خراب الدار، لكنهم شالوه وتحدثوا عن كرامته ونزاهته في الزمن القديم، قبل أن يفرط في كل شيء، أبواب وشبابيك وعروق سـقف

داره، دكانه وتجارته وماله الذي رماه في مجالس الشرب والقمار، ولم يكن هناك غير منـدرة واحدة مسقوفة بلا باب وقاعة مدفونة تطل على فراغ الواطية استخدمناها في الـزمن القـديم للخزين، وبقايا جدران من الطوب الأخضر تتقافز عليها الكلاب الغريبة في وضح النهار. وما تبقى لي غير القدرة على الاحتمال، مجرد الاحتمال.

خلت عليها الدار فكانت تستدعيني لألازمها أكثر الأوقات، تكسيني وتزود مصـاغي، تشجعني على إعداد الطعام بإشرافها وهي راقدة على فراشها، مرضانة أكثر الوقـت ينتابهـا صحو لا يدوم، إن جاءها الزوار تماسكت وجلست فبدت لي ملكة من بنات الملك الشلبي فـي حواديت الجد هارون، ملكة لها شعر أصفر غزير مضفور في ضفيرتين طويلتين، تجلسـني بعد رحيل الكل إلى جوارها تؤكد لي أنني كنت شاطرة، تحوطني بذراعيها المكتنزتين وربما تعابثني فأضحك وتضحك، أتمدد إلى جوارها وقد أشعر بنشوة وأنا بـين الصـحوة والغفلـة، أتشمم رائحة أنفاسها وهي تحادثني.

ـ شاركت لك على عجل بقر باسمك ف دار زينهم الساكت.

ـ كتر خيرك يا عمه.

ـ و ح أكتب لك أرض باسمك لجل تبقى مسنودة، خايفة أموت قبل ما أشوفك ف بيت العدل.

ـ يديكي طولة العمر.

ـ كبرتي يا شوق وبقيتي عروسة، وريني كدة.

ـ لسة بدري..

ـ ابن عبد القادر كان فايت م النواحيدي ليه؟

ـ وأنا إيش عرفني؟

ـ صحيح سايب بنت عمه وقاعد في مصر..

ـ...

ربما أغفو إلى جوارها، وربما أسرح بخيالي في البعيد، أفكر في الأرض التي وعدت بكتابتها والمواشي التي شاركت عليها باسمي، أمني نفسي بزمان من الهنـاء والمتعـة مـع صاحب النصيب كما كانت تقول، ورغم طول مدة مرضها كنت أرى في عينيها الخضـراوين بزرقة إصرارا على البقاء يرفض أن يبدو عليهما الوهن.

يوم سبت النور قامت من مرقدها قبلي، كحلت عينيها وجلست في صحن الدار، نادتني فقمت، طلبت فطورا من قشدة وجبن قديم وبيض مقلي بسمن وعسل نحل، كانت تأكل بشـهية وتدعوني لمشاركتها، قالت إنها تشعر بتحسن وأنها خلصت من زمن الرقاد، فرحت بصحوتها وجلست أتسمع لكلامها عن قسوة الوجع الذي كانت تداريه:

ـ دانا كنت شفت الموت بعيني ومدارية علشان ما أزعلكيش.

ـ حمد الله على سلامتك.

ـ عاوزاكي تحشي لنا جوزين حمام بالفريك.

قالتها بصوت بدا لي غريبا فتحيرت، ربما كنت أفر من المكـان وأنـا أبحـث عـن الزغاليل في " بناني " الحمام، وعلى غير توقع رأيتها قبالتي وفي يدها سكين الذبح يلمع نصله في شمس الضحى والدار ساكتة إلا من صوت الذباب الأخضر الذي لا بد وأنه جاء من ناحية المدافن، كنت أمسك لها رءوس الزغاليل فتقطعها قطعا وتأمرني بأن أرميها خلافا لما اعتادته عندما كانت تحرص على إبقاء الرأس معلقا بجسم الطائر، جمعـت الزغاليـل فـي غربـال ووضعته على ظهر الفرن، أشعلت نار الكانون ووضعت الماء، خفت عليها من وقدة الشـمس التي حميت فطلبت منها أن ترتاح في الظل فبدا لي وكأنها لم تسمع أو سـمعت ولـم تهـتم، جلست " أسمط " الزغاليل واحدة في إثر واحدة في الماء المغلي:

ـ اللي تنضفيها هاتيها أطلع لك حوصلتها.

كان صوتها يزداد غلظة إلى حد أخافني فلم أعارض، كنت أناولهـا الحمامـات فـي صمت فأسمعها تتكلم مع الطيور التي تتصايح وتتقافز في وسط الدار، أطرد من ذاكرتي كـل الحكايات التي سمعتها عن الجن وعفاريت الظهر الأحمر، أتمنى لو تسكت أو أجـرؤ علـى طلب سكوتها، لكنها كانت مستمرة، فكرت في البحث عن حجة أخرج بها من الدار فلم أصـل إلى سبب معقول يمكن أن يقنعها، ربما لم أكن خائفة من حديثها الذي لا يليق للطيور وكأنهـا بشر يعقلون، وإنما هو ذلك الفحيح الغريب والنبرات الجافة التي تخرج من حلقها علـى هـذا النحو لأول مرة، لعلني حبست صرختي المستجيرة خوفا من فضيحة تنالني وتنالها إذا جـاء الغرباء، كنت محبوسة في اختياري لسكة الاحتمال، أن أحتمل حتى لا تصفني هي أو غيرهـا بالجنون، ربما تفزع هي إن فعلت وتندم لأنها اختارتني لها ابنة وعوضا عـن كـل عمرهـا الضائع بلا خلفة، وكيف لا أحتملها والكل يعرف بمرضها وليس على مريضـة مثلهـا مـن حرج، كان الحمام المحشي يطيب والعرق يشملني وربما ارتجفت أصابعي وأنا أختبره:

ـ إن كان استوى هاتي فردة.

قالتها بنفس الصوت فانتشلت واحدة ووضعتها في صحن غويط قدمته لهـا وصـاج الصحن يلسعني، أخذتها في قبضة يدها اليمنى دون أن يبدو عليها أنهـا تـأثرت بالسـخونة وراحت تقضم منها والدخان يخرج من فمها مع كلماتها وهي تمضغ، وقبل أن تكملهـا قالـت بنفس الصوت:

ـ هاتي فردة تانية.

كان صمت وسخونة وصهد شمس قيلولة وصوت غليظ وعينان تطلبان وفم يبتلع النار ولا يخشاها، وفي القلب رعب من أن تكون تلك الجالسة أمامي واحدة من تحت الأرض على شكل العمة، ربما لو دخلت المندرة أرى عمتي وأحتمي بها من تلك الغولـة المتربصـة لـي تحاصرني بطلب المزيد وأناولها وتبلع حتى أتت على ست حمامات محشية بفريك وسألتني.

ـ فاضل ف الحلة يا بت؟

ـ لأ..

قامت ومشت أمامي ثم دخلت المندرة وتمددت على فراشها، لعلهـا أسـبلت عينيهـا وأغفت فرأيت العمة وطردت من ذاكرتي تلك التي لا بد أنها ما زالت في وسط الدار تقلب في الحلة التي تغلي على الكانون، تبحث عن بقايا الفريك الساكن في قاعها لتبلعه.

جلست على الأرض أقاوم الرجفة التي سكنتني حتى تقلبـت هـي وقالـت بصـوتها المألوف بينما تجلس:

ـ هاتي القلة.

ناولتها القلة فشربت وشربت حتى أفرغتها في جوفها، هل بـردت بالمـاء سـخونة الأحشاء فعادت كما كانت تبتسم وتبعث في قلبي الطمأنينة؟، تجشأت فشممت رائحة " تقليـة " ثوم محروق قبل أن تعاود الرقاد في سكينة.

في الليل قامت من رقدتها، جلست وسط من جاءوا يهنئونها بسلامة القيام مـن رقـدة المرض، أمرتني فسقيتهم من شايها وسكرها، أطعمتهم من كعكها وتمرها المخزون وسمعتهم يتهامسون في الأركان بأنها مثل القطط بسبعة أرواح.

كبس المخبرون على الدكان وحوطوه وبعث الضابط شيخ الخفراء يطلب مني المفتاح، كان يرتجف وهو يحادثني:

ـ بينه بلاغ تموين يا ست أم شاكر، هاتي المفتاح..

أخذت المفتاح بنفسي وذهبت، سألني الضابط عن علام فقلت له غير موجود، قالوا له إنه ترك المفتاح معي فطلبه وطمأنني، فتح ودخل مع المخبرين.. قلبوا في الأركان وخرجـوا ومعهم شيء ملفوف في كيس قماش، عاود الضابط سؤالي عن علام فجاوبته بعدم المعرفـة، همس في آذان المخبرين والعساكر فوقفوا في الأركان، سألته عن غرضه فلم يكشف لي سـر التفتيش أو الانتظار، لمحت زعتر المواوي وأنا راجعة أرتجف من الخوف فطلبـت منـه أن يبحث عن علام في السوق ويخبره بما جرى، وجلست أنتظر، في العصر طلبوني وسلموا لي مفتاح الدكان وأوصاني الضابط بإبلاغ علام ضرورة أن يسلم نفسه، ركبوا البوكس وطلعـوا من الكفر، قال الناس إنهم ضبطوا في الدكان مخدرات وقالوا أوراق عملـة مـزورة وقـالوا ممنوعات وقالوا سلاح بدون ترخيص وكثر كلام الناس وظللت سهرانة وحائرة وعاجزة عن

تصديق ما كانوا يرددونه من إن الأمر لا خطر فيه، حتى دخل زعتر المواوي وهمـس فـي أذني:

ـ لقيته في بيت الدباغين وقلت له، بيقولك ما تقلقيش لو بات ليلة ولا اثنين أصـله ح يروح للبيه ف البراري.

وفاتت أيام رجع بعدها علام متخفيا في الليل، دخل صامتا ثم جلس، لامنـي لأننـي سلمت لهم مفتاح الدكان فلم أدافع عن نفسي، استمر قلقا، يطل من جنب النافذة ويتأكد من خلو الطريق من الأغراب:

ـ دي تهمة باطلة ومتلقحة علينا.. مخدرات إيه وبتاع إيه؟ حد عامل فينا بلاغ.

ـ مين؟

ـ وأنا اش عرفني وأنا كنت أجيب أجله..

ـ والعمل؟

ـ المحامي ح يكلم البيه بعد ما يطلع ع الأوراق.

وعشنا أيام القلق، إن دخل الدار غريب يختبئ في الزريبة أو يطلع الكرار، يلبد فيـه ولا ينزل إلا بعد الاطمئنان من خلو الدار.. كان يتشكك في كل خطوة تقطع الـدرب ويـتهم الجميع. أقاربا وأغرابا حتى جاء البك الشلبي ونصحه بتسليم نفسه، طمأنـه بـأن المحـامي سيخرجه من القضية مثلما تطلع الشعرة من العجينة، أوصاه بأن يقول إنه كـان مسـافرا ولا يعرف شيئا عن الموضوع وإنه لن يتكلم في غير وجود المحامي..

لم يطمئن قلبي رغم كل التأكيدات بأنهم لن يحبسوه، وعندما ذهب بنفسه ليسلم روحـه بكيت ظلم الخلق وعداوة الكارهين، وقف حالنا أياما وأنا حائرة كيف أتصرف حتى همست لي العمة بأن أقف بنفسي في الدكان أبيع وأشتري، وافقتها وفتحت الدكان، وكـان خـوفي مـن القضية كبيرا، كنت أزور علام وأنفذ كل طلباته من خير الدار والدكان، أدس في يده الجنيهات ليشتري راحته حتى يخرج من الحبس بسلام، كان هو بنفسه يطمئنني في كـل مـرة علـى المصير وكيف أن المحامي شاطر ومعارف البك سوف يسهلون لـه كـل الصـعاب، أبـدى استحسانه لأنني فتحت الدكان، كان يسألني عن الولد بلهفة فأطمئنه، يحذرني مـن اصـطحابه معي حتى لا يراه محبوسا يتحكم فيه العساكر والمخبرون.

قابلني البكري وأنا راجعة، رآني جالس على المقهى في أول سكة الكفر فقام، حمـل عني بضاعة الدكان في صمت وسألني عن حال علام، طمأنته بأنه بخير وأن المحامي وعـده بالبراءة كما وعده البك:

ـ براءة إيه بس.. دي القضية لابساه.

شعرت بوجع في بطني وصداع في رأسي، كانت في ملامحه شماتة زودت كراهيتي له، لكنني تماسكت، قلت لنفسي أجاريه وأشتري منه لأعرف ما يعرفه وربما يداريه إن أبديت غضبي، قطع علي سرحاني.

ـ لا كان لكي ولا كنتي له.

ـ نصيب يا بكري.

ـ أهو أنتي فيها.. دا كل يوم مغضبك ومش عامل قيمة لحمـاه.. فاضـحه ف كـل الناحية.. وإيه يعني لما يكون إداه قرشين سلف..؟ يكسر رقبته؟

ـ أيوه غلطان يا بكري.. خدهم يعمل بيهم إيه.؟ ضيعهم في الخسارة.

ـ ما حدش قال حاجة.. بس يكتب عليه ورق ويبيعه حتة الأرض، مـالكيش عنـده خاطر خالص؟ مخلفة له ولد زي خلف الملوك، واخداه على عيبه، دا واخد قبلك ثلاثـة مـا خلفش منهم ومبقالوش سعر غير بعد ما خدك.

ـ نصيب بقى. منهم لله اللي كانوا السبب.

ـ عارف، هو ح ياخد حكم ح ياخد حكم، ساعتها تطلبي الطلاق..

ـ طلاق؟.

ـ أيوه.. وتشوفي حالك، عارفة الورق اللي مكتوب على أبوكي فـين؟ فـي دولاب الحيطة.. عند عمتك فطوم.

ـ عمتي..؟

ـ أمال انتي نايمة على ودانك، دي وصولات أمانة تودي في داهية.. وشيكات علـى بنوك، هو أنتي أبوكي له فلوس في البنوك؟.

ـ لأ..

كان يبدو كما لو أنه اندفع وباح بأسرار خطيرة بلا مقابل، وكان يرغب في أخذ الثمن ولا يعرف كيف يطلب:

ـ أنا لولا باعزك طول عمري ما كنتش أقولك على حاجات زي دي.. إنمـا انتـي أختي مهما أن كان.

جاريته فاستمر يحدثني عن تجارة علام المكشوفة في الصنف، عن علاقتـه بـأولاد الدباغين وخطورة الاستمرار معه وهو يمشي في سكة الخطر، كل ما فعلته هو أنني سايرته، وربما تعلمت في ذلك المشوار درسا لن أنساه، فأي رجل في كفرنا جاهز دائما للبوح بـأخطر الأسرار إذا صادف المرأة التي تعرف كيف ومتى تدفعه لأن يبوح، وعرفت أنه ليس بخسارة السمعة أو الخلاعة في القول أو السلوك فقط تستطيع الواحدة منا أن تستخرج المخبوء، ففـي وسط ناس مثل ناس كفرنا يلزم أن تحتاط الواحدة لنفسها من مطـامع الخلـق فـي الأزمنـة

الصعب أكثر من المألوف، وأن الحرص لا يكون فقط من الغرباء وإنما من أقرب الأقـارب أكثر، لقد كان يتخيل نفسه أبو زيد الهلالي وعنتر بن شداد عندما ابتسم لـه مجـرد ابتسـامة فيفاجئني بمزيد من أسرار الكفر لينال دهشتي، مجرد الدهشة.

عندما بانت بيوت الكفر خلف الزراعات رغبت في أن أبعده عني دون صـد، ربمـا أحتاج إليه رغم كراهيتي له، قلت أحذره:

ـ ما بلاش ندخل الكفر مع بعض يا بكري، أنت ما يرضيكش الناس تتكلم على بنـت خالتك، يا تسبقني يا تتأخر عني.

ـ وماله يا ختي، وماله، عين العقل برضه، أنا ح أركن هنا واتفضلي أنتي.. الحاجه ح توصل لحد عندك.

تباطأت خطواته التي كانت توازيني، فكرت أنه احتفظ بالبضاعة لكي يأتي بعد ساعة ويصدع دماغي بالمزيد من الحكايات، كان قد زرع الشكوك في دماغي بالقدر الكافي، وكنت متأكدة أن كلامه لم يأت من فراغ، ربما هو نفسه كاتب البلاغ، وربما يتاجر فـي الصـنف، تغيرت أحواله، لبس الصوف وحط في إصبعه خاتم ذهب وداوم على نزول السوق، يشـتري المواشي ويبيع بعد زمان كانت أمه تصرف عليه وتتشكى من قعوده على بوابـة الـدرب لا شغلة ولا صنعة، ينتظر موسم الحصاد وسرحان أمه في الأجران تنسف القمح قبل تعبئته فـي الأكياس، ابن النسافة يضع العباءة فوق الكشمير مثل الأكابر ويحرضني على الزوج أب الولد لأطلب منه إن حبسوه الطلاق فقلت لنفسي: أسيره بحسب إرادتي وهواي، وقلت لن ينال مني أكثر من أن أمنحه مجرد استعدادي لسماعه دون نفور وابتسامة دهشة تدعوه للبـوح بـأخطر الأسرار وقول المزيد.

كنت في المقعد البحري أطل على الدرب ورأيته بالمعطف فوق الجلباب يطـل هـو الآخر بطرف عينه ناحية الشباك، كان طربوش على رأسه والعصا " المحاب " فـي يمينـه، يحركها مباهيا وكأنه يشهدني على قدرته في تحريكها، تباطأت خطواته وحط يمينه في جيـب صداره وأخرج الساعة المربوطة بسلسلة تلمع، داس عليها فانفتح غطاؤها وبانـت عقـارب الساعة، رفع عينيه ناحية الشباك ليطمئن إن كنت أراه وابتسم، انسحبت للخلف وأنا ألهث فـي ارتباك وحيرة، وعندما عاودت الإطلال رأيت ظهره وهو يخطو ناحية الدكان بطوله الفـارع وعصاه الضارب فوق أرضية الدرب بخفة، وعندما انحرف ناحية "الشرم" جلسـت وأنفاسـي تتلاحق، لا أدري خوفا أو قلقا أو فرحة، تنحنح البكري فقطع خيطا منسوجا بمشاعر أجهلهـا وأود لو امتدت أطرافه:

ـ ابن عبد القادر ابن الجن الأزرق ما يفوتش من هنا.

سمعت صوت بكري فنظرت لأراه واقفا مع ابن الجازية الكبير، أطلا ناحيتي فشعرت بنفور، جلست ولم أعاود الإطلال إلا عندما سمعت صوت العصي ترتطم، كان هـو بينهمـا بعصاه وعلى وجهه ابتسامة واثقة، وببوز الحذاء " الأجلسيه " شنكل ابن الجازية وأصبح همه أن يطول دماغ البكري حتى جاء أبي، وكفت العصي عن الارتطام..

ـ يا بني دانت اللي ما يعرفك يجهلك، دا أن ماشاليتاكش الأرض نشيلك على دماغنا من فوق، داحنا أهل وحبايب.

كان أبي يحادثه وكان البكري واقفا بصفرة وجهه المغلول ينهج وخلق كثار من أهـل الدرب يحوطونهم ويطيبون خاطره، دعاه أبي لشرب الشاي فاعتذر ورأيت وجه العمة يهـل ويدخل دائرة الزحمة، نظرت إلى الشباك فقالت عيناها كلاما أخجلني، هل كانت تلومني لأنني كنت بحساباتها سببا في عراك بين البكري وابن عبد القادر، أم أنها كانت تبارك ما قاله أبـي وهو يودع الغريب عن دربنا برقة، ذلك الذي تحدثوا عنه بليل وهم ينظرون نـاحيتي دون أن يتوجهوا إلي بلوم أو اعتراض.

قالت أمي:

ـ علام رجع لشرب المدعوق.

كأنها أسقطت فوق دماغي جدارا من طوب أحمر أو سقف مندرة مسنودا على كتلـة حديد، أوصتني أمي أن أحذره وقد صار له ولد، ذكرتها باعتراضي فتجاهلت كل مـا كنـت أقول:

ـ الحكومة اليومين دول بتقفش الناس عمال على بطال.. اللي بيتـاجر فيـه واللـي بيتعاطاه.. أنا قلت لك وأنتي حرة.

قالت ثم قامت، ورمتني في البحر مكتوفة وطالبتني بالعبور إلى الشط البعيد، جـاءني بعد أذان الفجر بعوده النحيل عاجزا أن يصاب طوله، أبدي دهشته لسهري ولهفته على الولـد الوليد. اقترب منه يطمئن عليه ولم يكن مالكا لوعيه:

ـ جراله حاجة الولد؟

ـ لا..

ـ إوعي تقولي سهرانة استناك.. دي تبقى القيامة قامت.

ـ كنت فين لدلوقت..؟

ـ أنت ح تحاسبيني؟ كنت مطرح ما كنت.

قالها بوعي وعناد أغاظني، كنا قد اتفقنا أن يمشي في الطريق المعـدول، أن يتـرك المفاسد القديمة، هل كان يريحني ويريحهم ليصل إلى غرضه ويفعل بعد أن يتمكن مني ما بدا له وهل أخطأت عندما طاوعتهم وكذبت مشاعري بالخوف من أنه لن يفي بالوعد وإن حلـف

على البخاري؟ طالبني وقد طلع النهار أن أجهز له العشـاء، أي عشـاء؟ فطـورك عشـاء وعشاؤك غذاء وأنا الملامة دائما.. دائما يلتف حولي مثل ثعبان بارع، يخطئ ويسب ويلعـن وأحيانا يضرب ثم يخرج من جعبته كلاما باطلا يلبسه ثوب الحق فأصبح غلطانـة، أغضـب ويصالحني بوعود ولا يمل الاعتذار.

في دارنا قلت إنني لن أطيق مزيدا من الاحتمال، استشهدت بما قالته أمي أمـام أبـي والعمة فأنكرت أمي أنها قالت، عجبت لأمرها، تخافهم أو تكذب، نظرت إليها العمـة تلومهـا لأنها باحت لي بسر معروف للكل ما عداي، كان أبي يطل فقط ولا يتكلم.. تتكلم العمة تحاول تهدئتي مثل كل مرة لكنني صرخت:

ـ مش ح ارجع له.

ـ والولد..

ـ الولد معايا..

ـ أهو كلام.. ما تقول لبنتك يا عبد الستار.. أبوكي غرق ف الدين، ما نفعوش غيـر علام.. كاتب عليه وصولات.. لو عاندتي ح يبيعه الأرض والدار والـدكان.. ومـش بعيـده يحبسه كمان..

نظرت إليه وهو ساكت بعجز، مطرق برأسه لا يـواجهني، كـأنني نـدرت نفسـي للاحتمال من أجله رغم إرادتي، وكأن العمة نفسها تواطأت ضدي وضد أبي لحساب عـلام، فجهزت نفسي للعودة إلى داره مغصوبة وعاجزة وقد سقط آخر جدار كان يداريه ويـداريهم، وتبدى لي أن حياتي توشك على الانتهاء، وأن إرادتي ليس لها عندهم حساب.

نعمات طلبها ضابط الحدود ابن البك ساكن البراري، جاءوا بعشرات الجمال يركبهـا عسكر الحدود " البرابرة " ازدحم الكفر بهم والأهالي معهم وحولهم يضـاحكونهم ويقلـدونهم دون خوف من كرابيج أو أوامر بالرقاد في الدور بعد العشاء، جاءت الغـوازي مـن أرض البراري بثيابهن الشفافة المشغولة بخرج النجف والترتر والخرز الملون، يرقصون عند بوابة الدرب وعلى أبواب الدور، وناس الكفر يتوافدون يهنئون ويلعبون بعصيهم أمام البـك وابنـه عزيز ببدلته الحربية والتاج على كتفيه ذهبا خالصا، وعمتي فطوم ترقص عند بابنـا وتميـل فتفتن القلوب وتكيد الأعادي والناس تتمنى لي فرحا مثل فرح نعمات:

ـ لو كان له أخ كان خد أختها.

ولف في دروب الكفر " نقرزان " على جمل وخرجـت البنـادق والمقـاريط غيـر المرخصة وانطلقت الأعيرة، وجاء خلق كثار وعند الدوار وقفت أول عربة ملاكـي تـدخل الكفر وتمشي بالبنزين ولا يجرها خيل ولا حمير فكانت عجيبة مثل تلك التي يملكهـا الباشـا كبير البندر ساكن مصر، كانت ليلة لا شاف مثلها أهل الكفر ولا سمعوا، وفيها رأيتـه خلـف

أبيه عبد القادر بطربوش النسر والجلباب " السمني " والعصا الأبنوس، دخل دارنا وتهـامس وهو في المندرة مع أبي بكلام.. وهو خارج بحثت عيناه عني حتى رآني.. ابتسم وأشار بيده الخالية ولعله قال كلمة لم أسمعها قبل أن يخرج في أعقاب أبيه..

ـ عقبالك يا شوق.

قالتها أم بكري فشكرتها، استمرت وهي تضحك.

ـ ح ناخدك لبكري.

تركت المكان ولم أرد.. في الزحمة همست أمي..

ـ كانت بتقولك إيه؟

لم أرد، أطرقت في ضيق:

ـ دا لما يشوف حلمة ودنه.

قالتها وتركتني، ربما فاتحتها أم بكري ولم توافق وربما كان في دماغها كلام لم تـبح به وسط الزحام، لكنني شعرت براحة وتأملت وجه نعمات الحلـو الـذي زوقـوه بـالأحمر والأبيض وهي تجلس إلى جوار ضابط الحدود..

في اليوم التالي شالت الجمال شوارها من نحاس وثياب وفرش وداروا به في الكفـر قبل الرحيل، وفي العصر سافرت نعمات مع العريس، بكيت من أثر الفراق فداعبتني العمة في حضور أبي وأمي:

ـ بكرة تحصليها، هو مش طلبها يا عبد الستار؟

ـ طلبها.. بس أنا اتزنقت ف شوار نعمات، اندينت يا فطوم لجل أطـول رقبـتكم ف أرض البراري..

ـ إن كان على شوق.. جهازها وشوراها من كله من عب عمتها.. بس هي توافق ع العريس..

قمت خجلانة وفرحانة ومطمئنة وحالمة بوجه صاحب النصيب.

***

فرحته بالولد طيرت عقله، كان يتمدد إلى جوار الولـد سـاعات وسـاعات، يتأملـه ويتحسس بدنه الطري ويكاد أن يعد أنفاسه، طلع لي من تحت جلده علام جديد، كأنـه طفـل انقلب ميزانه وعجز عن إخفاء فرحة عمره، لازمني في الدار وأهمل تجارتـه، يرجـوني أن أرضع الولد إن بكى، وإذا أغفى راح يتأمله ويدعوني لكي أراه، كان يتمنى أن يراه جالسا أو زاحفا أو ماشيا على قدمين قبل الأوان، كنت أهدئه وأكلمه وهو الكبير وكأنه صغير فاتـه أن يعرف أن الصغير مصيره أن يكبر وأن الأيام تمضي وأن طول الصبر يبلغ الأمل، كان يبدو

لي مثل طائر يسكن العش ويحوط فرخه الوحيد بجناحيه، يخشى عليه مـن نسـمة الهـواء، يترقبني وأنا أغير ثيابه يتحسس الماء الفاتر الذي أجهزه لتنظيفه مخافة أن يكون أكثر بـرودة أو سخونة، كان يمنع أية واحدة من حمله إن حاولت ويهمس في أذني:

ـ الخلق مالهاش أمان.. واللي بيكره أكثر م اللي بيحب.

كان على استعداد لفعل أي شيء من أجل الولد، طيب وحنون إلى أبعد الحدود، لعلني أيامها لمت نفسي لأنني رفضته زوجا في أول الأمر، لعل كل ما كان يتبدى للخلق من طباعه كان مجرد ضيق أو حزن لأنه فشل في السابق أن تكون له خلفة فلما تحققت زالـت أسـباب الضيق والحزن القديم وجاءت أيام الفرح.. يوم حدث العمة طالبا الزواج جاءت وأبلغت أبي. وربما كانت هي المرة الوحيدة التي جرؤت فيها أمي على الاعتراض:

ـ لأ.. ما يا خدهاش أبدا.. دا زي التعلب الدحلاب. ما يخدهاش..

ـ مريم..

قالتها العمة بدهشة فاستمرت أمي.

ـ لأ يا عمه.

ـ لأ ف عينك ـ انتي انهبلتي؟

ـ أيوه انهبلت.

قالتها وقامت واستمرت في الاعتراض بعيدا، أذكر أنها قالت إنه مثل الحية الناعمـة التي تزحف على بطنها لتصل إلى غرضها دون أن يحس بها أحد وأنه كبير في السن وبارع في الملاوعة ولا أمان له، يومها خفت، لكنه شاكر أزاح كل الخوف وجعلني وهو الطفل الوليد أصدق ما كانت تقول به العمة من أنه وحيد وراغب في خلفة من صلبه تبدل حاله وتفتح لـه السكة لكي يربح ويستريح.

يومها كان الولد على صدري، سلاحي وسندي حملته وطرت، لا أعرف كيف خرجت من الكفر قبل طلوع الفجر، كنت طائرا مذبوحا بسلاح ماض لا أتحكم في أطرافي، أحس آلام الجرح ولا أكف عن الحركة، أطير وأحط والولد على صدري، أحميه واحتمي به من لفحـة الشرد والندى يتساقط علينا نقاطا متتابعة من بين فروع الشجر المزروع علـى شـط ترعـة الرياح القديم، ركبت مع العربجي، الذي بكر الذهاب إلى سوق البندر لينقـل بضـائع تجـار الكفور والبلدان، خفت أن يعرفني فداريت وجهي بغطاء الرأس، ركبت قطـارا مـن محطـة البندر ونزلت " مصر " بعد الضحى العالي، ركبت تراما مثلما كنت أفعل معه ومشيت مشوارا طال وأنا أمني نفسي أن أصل إلى العش المأمون أو ما كنت أحسبه عشي المـأمون، طلعـت سلم الحوش ولم أشغل نفسي بساكناته من النسوة الجالسات والناظرات في استطلاع يتغـامزن علي، طرقت الباب الذي كان معفرا وخيوط العنكبوت منسوجة أعلاه وفي الأركـان، طالـت

وقفتي وخفت أن يكون قد ترك السكن، ليتني سألت الجالسات حتى أحمي نفسي مـن لـومهن لطلوعي دون سؤال أو اهتمام، لكن الباب انفتح، كان في عينيه نوم وكسل، تـأملني بعـد أن دعك عينيه واندهش، اتسعت حدقتاه تكذيبا ممزوجا بالفرح، أزحته فانزاح موسعا لأدخل، سك الباب المفتوح وقالها:

ـ أهلا..

وجلس، كان ينظر إلى خشب الأرضية الذي اتسخ ساكتا وكأنه أصيب بالخرس، كنت في حال يصعب على العدو قبل الحبيب، مهدودة والعرق يملأ جبيني وأحسـه يسـري فـوق سلسلة ظهري وتمتصه الثياب، لكن نسمة الهواء تلسع الوجه وسلسلة ظهري، كنت أتوقـع أن يلقاني بمزيد من الترحاب ويترك لنفسه حرية الفرح، لكنه لم يفعل، هل كانت دموعي تتساقط رغما عني لأنني جئت ولم يتلهف على رؤية الولد؟ غيره كان يقوم ويكشـف الغطـاء عـن وجهه، يجفف دموعي ويهنئني بسلامة الوصول، يسألني كيف جئت رغم اعتراضاتهم هربانة أنتظر كلمة ود لكنه سكت، كأنني غريبة عنه مع الولد، ضناه، يراه لأول مرة ولا ينشغل، لو كان بيني وبينه مطارق الحداد فما ذنب الولد؟ الناس في الكفر تغضب وتتصـالح، والمطلقـة يردها الرجل إلى عصمته إن خلفت ولدا، شعرت بالندم لأنني لجأت إليه، تشككت في إمكانيـة أن تعود المياه إلى مجاريها بيسر، قلت أغصب على روحي وأحاول تحريك السكون الذي بدا لي غريبا:

ـ مش عاوز تشوف الولد؟

ـ عاوز.

قالها ثم قام، رفع الغطاء الرقيق الأزرق عن وجهه " المزرود " بص فيه ثـم أعـاد الغطاء، نظر إلي بعيد قبل أن يسأل:

ـ عاوزاني أعمل إيه؟

كنت أغلي وأحاول تهدئة نفسي:

ـ ابنك تربيه.

ـ ازاي؟

قال هو وقد قام من جلسته القلقة ودار حول نفسه بغير هدف، كـان وجهـه شـاحبا ومخطوفا وغير حليق، أصابعه تتشابك بعنف وتنفك بعنف وفي عينيه حيرة، كأنه سـقط فـي بئر، يطل من خلال النافذة نصف المفتوحة التي تسمح لخيط نحيل من شعاع الشمس بالدخول، يتحاشاني ويطل خلسة وكأنه لص يخشى أن يضبطه المسروق متلبسا، لعلني شـعرت نحـوه بعطف وأردت أن أساعده:

ـ نرجع لبعض عشان الولد

قلتها ولم أتمالك نفسي، جعلت أبكي وأبكي بحرقة ومرارة لأنني كشفت ضعفي أكثـر مما كنت أعتقد، لم يحاول تهدئتي ولو بكلمة، هل كان كل الكلام في السابق كـذبا؟ هـل لاف على غيري واستغني؟ كدت أن أهدأ فسمعت صوته:

ـ يا ريت العياط بيحل، علام كتب كتابه عليكي يا شوق؟

فزعت لأنه عرف ما جرى في الكفر، أبلغه أولاد الحلال إذن لتكتمل القطيعة وينقطع كل رجاء في الرجوع، قلت من بين دموعي:

ـ ما لكش دعوة بعلام، علام في إيدنا وخلوصي منه سهل..

ـ تبقي أنتي على نياتك وما تعرفيش علام، ما تروحيش بعيد واسألي أمك عليه..

ـ يعني إيه؟

ـ يعني العوض على الله.. خمس أيام من يوم ما وصلني الخبر الأغبر وأنا لا أكـل ولا شرب ولا شغل.. العوض على الله.

ـ أقف جنبي وخلصني.

ـ مالكيش خلوص منه غير بضرب النار، أضيع نفسي علشان واحدة زيك؟

طير البرج الباقي من عقلي، كأنه يعايرني ويكيدني لأنني استجبت لهـم فـي لحظـة ضعف، كان من الممكن أن أقول له كل ما بلغني عنه وأنا هناك، لكنني شعرت بالعجز عـن الاستمرار معه في حوار بلا لزوم، كنت أحسبه ابن ناس يشتريني ولا يتشفى، يتخلـى عنـي وهو العارف أنهم كانوا سبب الخراب، والذي لا يعرفه أنني ما جئت إلا مـن أجـل الولـد، وضعت الولد على طرف السرير وأمسكته من طوق جلبابه بغل المشوار وما سوف ألقاه فـي الكفر من سخريات، لم تبرد ناري وقد بدا لي أنني بعته أكثر مما باعني، كنت أرجـه رجـا فيبدو لي أنه يوشك أن يسقط من طوله، جاءتني قوة لا أعرف مصـدرها أدهشـته وأربكتـه وجعلته يعافر بعسر ليخلص طوق جلبابه من قبضتي المستميتتين وفي عينيه مخاوف رجل من امرأة عاشرها وحسب قوتها فخابت حساباته، كان يجاهد أن يداري خوفه لكنه فشـل، لـيس الأمر مجرد أكتاف عريضة أو شوارب مفتولة، سقط من عيني عندما تأكدت من خوفه، تركته يتحسس عنقه وصدره ويلهث، فتحت بابه وخرجت منتصرة رغم الجرح في القلب، لم يسـع في أعقابي ولم أفكر في الرجوع لآخذ الولد " يا روح ما بعدك روح " شعرت بـالبرد وأنـا أسعى لا أدري في أي اتجاه وصهد بؤونة يترك على الرأس سخونة والأطراف ترتعش، كنت شاردة ومهمومة " عقل غشيم عاجز عن التمييز وقلب أعمى، الرجل الرجل يخسر الـدنيا ولا يخسر ضناه "، كرهت نفسي وكرهت أولاد عوف وأولاد شلي، لو كان لي أخ، كان في القلب غم وفي الصدر وجع وخطواتي تسعى بعسر مكرهة في طريقها إلى كفر عسكر.

دخلت الكفر بليل سترني الظلام وغطاني الملس، فتحت هي الباب فقربت وجهها مـن وجهي وكأنها تتحقق من ضيف غريب، سألتني بهلع:

ـ الولد راح فين؟

ـ عند أبوه.

قلت وأنا أخطو ناحية السلم لأصعد إلى " المقعد " البحري، توقعت منها هبدة براحتيها المفرودتين فوق ظهري كما كان يحدث عندما تغتاظ من واحدة منا فتكفيها على وجهها لكنهـا لم تفعل، لعلني كنت أتمنى أن تفعل لأفيق من كف الزمان المعاند، لو فعلت لأراحتنـي مـن وجع يفوق طاقتي على احتمال المهانة والانكسار، سمعت صوتها من تحت السلم تندب:

ـ قلت لك ما تسمعيش كلامها، قلت لك ما تسمعيش كلامها، رايحة له تسخمي إيـه؟ وفايته الولد عنده يعمل إيه؟

داست بكلامها على قلب الجرح أو جرح القلب، وما كنت أملك غير الانخـراط فـي بكاء حبسته طول السكة من حوش المغربلين حتى دارنا في الكفر، انهدت قواي ولـم أشـعر بنفسي إلا وشعاع الشمس يلسعني وهي تقف بالمقلوب طيفا نحيلا عاجزا والصندوق بجوارها مقلوبا أو كان رأسي هو المقلوب، انسك الشباك بيدها فغربت شمس الديار وساد صمت لا بـد أنها هي التي سقتني كوز الماء فما كنت أقدر على حمله وهو إلى جوار الفـراش مقلوبـا أو مائلا، لعلها حاولت أن تطعمني فلم تستطع، لعلني تذكرت عطيات، تلك التي حرموهـا مـن دخول المدرسة أو رؤية الناظر لابس طربوش النسر، وربما كنت قد قررت أن أفعـل مثلمـا فعلت، تذكرت نعمات وتمنيت لو أنها كانت إلى جواري وتذكرت الولد، لو كان معي يؤنسني لاحتملت، أرضعه وأنظفه وأناغيه، ابثه همومي، واستفتيه، تداخلت كل الوجوه التي راحت في وجه الولد، شعرت بوخزة الجوع في البطن فقلت لنفسي جاع الولد، كان لبنه المحبوس ينـز من الحلمتين ويبلل صدر الجلباب، جفت منه قطرات فتحولت إلى رقـائق خشـنة مسـتديرة تصلب النسيج وتزود الوجع، لعلني قمت وارتكزت أو حلمت أنني قمت وارتكزت وأخرجتهما وعصرتهما على الأرض وما نقص الوجع ولا سكن الصـدر، كنـت أشـتعل مـن الـداخل والخارج.. الجوف والصدر والدماغ والحلق والعينين ورغبتي في الموت تدعوني للاحتمال.

بكري أو علام وكان علي أن أختار، قلت لها يا عمة انتظري حتى ينزل ما في بطني وأكمل العدة، كنت بين نارين، أن أوافق أو أن أبقى وسيرتي لبانة في كل الأفواه، يسـهرون الليل وينهشون لحمي الحي، وكل ليلة كلام ومجلس من رجال بشوارب يتحمسون ويهـددون ونسوة بارعات في مصمصة الشفاة شماتة وتأسيا مصنوعا على النصيب الـذي مـال والأب الذي خاب واستدان من الكبار والصغار، سلم ذقنه كما قالت أمي ـ في لحظة جرأة نادرا مـا تنتابها ـ للعمة، أخته غير الشقيقة لأب، كأنه كان في الخفاء بينهما سباق انتهـى لصـالحها،

ولأنه كان دائما يضيع كل ما تطوله كفاه في مجالس الشرب والقمار، استسلم لسلطان قرشها، لعله ذات مساء تأكد أنه خسر رهان العمر معها فاستكان وارتضى لنفسه أن يعيش ظلا لرجل كان، ولعلني لم أخطئ كثيرا عندما تعلقت بها إلى أبعد الحدود، ربما لأنها في كل الحـالات، تسير حياته بحسب إرادتها وأفكارها، ولعلها أيضا كانت بديلا عن الأم الساكتة دومـا، تتلقـى الأوامر وتنفذها برضاها أو غصبا عنها ونادرا ما كانت تنشغل بتعليم واحدة منا عمـلا مـن أعمال الدار، كانت هناك دائما وربما قبل أن نوجد إرادة العمة ورأي العمة وفكـرة العمـة، أحسبني لم أراجع حساباتي في رأي قالته إلا عندما أشارت علي بأن أختار علام، كنت أميـل إلى رأي أمي الذي تمسكت به وعاندت على غير عادتها، لعلني لم أكن أفكر في دخول تجربة جديدة مع رجل جديد وما زالت في أحشائي نطفة كيان لم يولد من صـلب رجـل عاشـرته، واختلفت معه، غضبت كما تغضب الكثيرات وتنتظر صلحا يعيد المياه إلى مجاريهـا، وفـي الكفر يقولون " الولد يرد أمه " ولعله يكون ولدا قادرا على رد الأمور إلى مجاريها، هكذا كنت أفكر، لكن العمة جاءت وعارضتني:

ـ الواحدة إن مال بختها في المدن تعيش، تنتقل في سكن غير السكن، تخـرج مـن حارة وتدخل حارة، والناس هناك كتار وكل حي فيهم مشغول بحاله، إنما هنا في الكفـر لأ.. الكفر ضيق وعقول ناسه أضيق.

ـ نستنى شوية يا عمه.

ـ لأ.. ما نستناش، ما دام ما جاش يصالح منستناش.

ـ يا عمه..

ـ وعلام ما يتعيبش يا بنت، بكره يكتب لك اللي وراه واللي قدامـه.. سـيبك مـن بكري..

ـ أنا عارفة بقى..

كأنني وافقت، وكأنهم حسبوا الأيام، بعد ميلاد الولد جاءوا.. رجال بشوارب ونسـوة بفساتين ملونة وصبية وبنات صغيرات ترقص على دقات طبل في يـد الناعسـة، وكفـوف تصفق.. ومأذون بدفتر وزغاريد وعقدوا القران وأنا غفلانة وأمي تلطم في قاعة الخزين بـلا حيلة، وبثوب البيت أراد أن يأخذني علام، وخير البر عاجله " فأقع في عرض العمه في قاعة الخزين كي تتوسط لتأجيل الدخول، مجرد تأجيل الدخول.

أغراني وجهه البسام وجرأة في العينين تقتحمان الوجوه والأشياء باطمئنان إلى قدرته على تصريف الأمور، وكنت قد سمعت عنه الكثير، عراكه مع الأب الذي لم تنكسر شـوكته أبدا، وخروجه إلى تلك المدن البعيدة مع أخ شقيق مات وبقى هو، يـرفض الرجـوع ويظـل مبتورا عن الأهل ومستغنيا عن الميراث، وماذا تطلب الواحدة منا أكثر من رجـل قـادر أن

يحوطها ويحميها ويفرجها على الدنيا الواسعة؟ يحنو عليها ويبعث في قلبها البهجـة، ينسـيها شقاء الأيام ويسمح لأحلامها بأن تتفجر، تسلم نفسها إليه وتطمئن إلى وعد صادق النبرات قاله بعد عقد القران، ورغم أنهم حاولوا جميعا أن تموت الفرحة فـي قلبـه كـان يبـدو فرحانـا ومنتصرا، قلة من أولاد عوف وأولاد شلبي جاءوا على عكس كل ما كنت أنتظـر، وسـألت نفسي إن كانوا قد استعادوا في تلك الليلة عداواتهم القديمة أو أنه كان عدوا لأهله وخارجا عن طاعتهم لمجرد أنه فكر في أخذي وترك بنت عمه أم الولد؟ وكان أبي الباحث عن صلح أبدى معهم على عكس إرادة الكبار من أهله هو الآخر خصما يستحق المقاطعة كما قالت العمة، تلك التي كانت لا تعترض أيام كانت تراه يمر من الدرب ويطل فتسألني دون اعتراض عن سـر عبوره في كل أجازة ينزل فيها الكفر وما كان يتعرض له من سخافات بكـري وغيـره مـن شباب الدرب الذين عاشوا زمن العداوات القديمة وفسروا عبوره من دربنا على أنه " دهوسة " عليهم، كانت العمة تبدو راضية عن مشاغلاته لي من بعيد، ربما لأنها وجدتني لا أعتـرض، وربما لأنها لم تتصور أن الأمر سوف يصل إلى حد أن يطلبني للزواج، لكنـه عنـدما فعـل اعترضت وهددت بأن تتخلى عن وعدها القديم بتجهيزي من حر مالها، لكن أبي لم يتراجـع، استدان وجهزني بحسب قدراته، ورضى هو رغم تحريضات أهله ليطلب المزيد، تبسط وقال أنه اشتراني فاطمأن إليه قلبي، رتبت أمري لكي أرضيه، أن أبعث في قلبه الأمـان وأنسـيه مرارة الترحال في المدن البعيدة سعيا وراء اللقمة كما كان يقول لي بعد عقد القـران وقبـل الرحيل إلى تلك المدينة البعيدة التي سمعت عنها وما رأيتها، كان يمنيني وأمنيه بخلفـة مـن صلبه قادرة على تذويب الكراهية المدفونة في قلوب الخلق في دربنا ودربهم، كان يحدثني عن مدينة براح يتوه الناس فيها، وترام وأسواق لا تنفض ونساء بملاءات وبراقع وأفندية بطرابيش وعساكر سلطة تفض مظاهرات تهتف للوفد وتطلب الجلاء، وملك يتخفى في قصر محـروس من غضب الشعب، وحكومات لا يرضى عنها الخلق، كنت أشعر بالفرح يملؤني وأتعجل بيني وبين نفسي رحلة الطلوع.

أذكر أنه جاء محاطا برجال من دربهم وأفندية غرباء بطرابيش، أذكر أننـي ركبـت العربة المخصوص وأنني تركت الكفر ورائي ودخلت وأنا إلى جواره شوارع المدينة، مشتاقة للسؤال وخجلانة حتى نزلنا عند الباب المفتوح، حوش واسع وسلم على جنـب طلعنـا عليـه ونسوة تختاف عن نساء الكفر تزغرد وترش الملح حتى دخلنا مسكنه، حجرتـان موصـولتان بباب وطرقة وباب ينسك علينا وتصفيق وغناء وهو واقف أمامي بجلبابه المكوي وطربوشـه يبتسم، وكرباج سوداني معلق جنب عامود السرير، هل خوفني وهو يطلب مني أن أغير ثيابي في حضوره؟ أو أنني كنت جاهزة للخوف وعيناي على طرف الكرباج، هل كان يضـاحكني وهو يتناوله ويطوح به في الفراغ مهددا إن لم أطاوع فسوف يشويني أو أنه كان يعنـي مـا

يقول؟ كنت خائفة وخجلانة ومستعدة للعناد، هل طالني طرف كرباجه فعلا أو أنني ادعيت ذلك وبكيت فحاول أن يطمئني فلم أطمئن؟ وكم ليلة تصابر فيها على نفسه قبل أن يضرب بجد؟ وهل نفذ وعيده ونالني غصبا أو أنني أسلمت إليه روحي برغبتي؟ تتوه مني الحقيقة ويبقى ذلك الخوف الذي ترسب في قلبي من ناحيته، خوف خجلان متحفز لثأر لا بد أن آخذه وقد فعلت ذات مساء وهو ينظر إلى طرف الكرباج الذي كان في متناول يدي فأخذته ونزلت به على جسده وقد خلع الجلباب، كان يضحك ويتأوه من أثر الضربات أو المفاجأة حتى خلصه من يدي ورماه بعيدا واتهمني بالجنون، ليلتها حذرته من معاودة تلك المحاولة التي كانت فأكد لي أنه لن يحاول، لكنني لم أطمئن إلا بعد أن ألقيت بالكرباج من النافذة إلى الشارع وسيطر الصمت.

كان يفرجني على الميادين البراح والنيل العريض ودكاكين التجار والعمائر العالية الفسيحة والأهرامات، وكنت ما زلت أخافه وإن مات إلى رغبة الاطمئنان له، وكان يحدثني عن شريك له في الدكان لا رأيته ولا جاء يناديه من تحت كما يفعل الآخرون، يناولني مكسب الدكان ويطلب مني أن أوفر النصف بما يرضي الله لذلك الشريك الغائب وأفعل، وعندما أفاتحه في حكاية إسماعيل يتحدث عنه بحزن لا أعرف سره، يسألني عن نصيبه وإن كانت تمتد إليه يدي، فأطمئنه، أحيانا يطلب ما وفرته ويحصيه ويطلب مني أن أحتفظ به مكانه لحين تسليمه إلى صاحبه فأعجب، وعندما جاء أبي في زيارته الثانية وسألني عن الأحوال طمأنته، سألني عن المال فانفلت لساني وتباهيت بما وفرناه فكذبني، اندفعت وأخرجت المال المحفوظ من ركن الدولاب، وسمعت على الباب طرقاته المميزة، ودخل، سلم واستفسر بالعينين عن تلك الجنيهات المحطوطة أمام أبي، لامتني عيناه وأنا أحدثه عن رغبتي في طمأنة الأب على حالي، هل أفلح أبي في توريطه للموافقة على أخذ سلفة يحتاجها إلى أجل قريب أو أنه لم يمانع رغم نظرة مني كادت أن تحذره من ذلك الوعد بالسداد الذي لا أضمنه؟ وهل كان في مقدوري أن أشكك في ذمة أبي في حضوره أو حتى في غيابه؟ وكيف تحولت زيارة الأب بعد رحيله إلى عاصفة كنست ما كان بيننا من ود ورغبة في التآلف؟ كان يلومني وأتحامل، يعذبني لأنني بحت بسره ولا يحاسب نفسه لأنه استسلم في لحظة خجل وسلم ذقنه بإرادته، والخجل في الرجال يورث الفقر كما قال هو نفسه مرات، كنا نرقد على نفس الفراش ولا نتكلم، أضع بيني وبينه وسادة بطول السرير حتى لا أنسى في لحظة الغفلة خصامي أو ينساه، وزادت النار بعد زيارة أبيه ولم تنطفئ، همس له ببضع كلمات فزفر في يأس ولم يعد ينظر ناحيتي أو يوجه إلي كلمة مجرد كلمة، وعندما جاءت أمه وشافت أحوالنا كلمته وأوصته بأن يغفر لي فما زلت صغيرة لا أدرك لكنه لم يفعل، ظل على حاله عندما يدخل أو يخرج فاسودت الدنيا أمامي زمنا، قلت أطلب منه أن يوصلني إلى الكفر لأطلب من أبي رد ما أخذه

فلم يعترض، أوصلني إلى باب الدار ولم يدخل، وكان آخر ما قاله لي متوقعا فشلي في تحقيق غرضي:

ـ ابقي قابليني.

لكنني لم أقابله، عقدوا في المندرة مجالس وقالوا كلاما، وسعى الخلق ينقلـون إلينـا أخباره وأقواله ونواياه، أمروني بالبقاء حتى يأتي ويأخذني من دار أبي مثل كل الخلـق فـي كفرنا الذي يرعى الأصول ويصونها، لكنه خيب كل رجاء فيه وغاب، وطال الغياب لا حـس ولا خبر، وبدا لي أن كل ما كنت أسمعه عن غدر الزمان ينطبق على حالي، فلا الرجل الذي جعلته سندي وملجأي جاء ليعرف أخباري أو يعيدني إليه، ولا الأب الذي أفسد علاقتنا بـثمن بخس فكر أو انشغل بحالي، ولا العمة ساعدتني برأي صائب، وكانت أمي تأتيني، تطمئننـي وتمنيني وتبعث في قلبي الرجاء بأنه لا بد سوف يجيء وإن طالت غيبته والغائب حجته معه، أفتح لها قلبي " وأفضفض " وأحلم معها وأنا أتحسس بطني، بنت أم ولد، ولد قادر على كـنس فساد الدنيا من حولي، ولد أرعاه وأحميه، ولد يخلصني من عواصف الأيام المعاندة، أمنحـه الدفء ويمنحني القدرة.

تفوت الأيام وتنقضي الأمسيات وأنا أرقب حركته في البطن. إذا تحرك حلمت بالولد، ولد/ ابن/ أخ/ أب/ زوج/ عم/ خال/ ولد. وإذا سكن ساعة أخاف أن يضيع الحلم أو يختنـق، أسأل نفسي إن كان ميعاد مولده قد فات، أو أن يكون قد رفض الزمان والمكان والنـاس مـن حولي واعترض، أدعوه دون صوت بكل خلايا نفسي أن يأتي ليقيلني من كل العثرات التـي تصادفني، أستشعره يصحو من نعاسه بوهن ثم يتمطى بكسل قبل أن يتحـرك حركـة هينـة ويزغدني بكل قوته مؤكدا صحوه في داخلي وباعثا في القلب المهموم تباشير أمل.